كتابات جورجي زيدان

دراسة تحليلية في ضوء الإسلام

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق

١٨٤٩٠/ ٢٠٠٠

الترقيم الدولي I.S.B.N.
977-5502-53-5

كتابات جورجي زيدان

دراسة تحليلية في ضوء الإسلام

دكتور محمود الصاوي

بجامعتي الأزهر الشريف

والإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الهداية

للطباعة والنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى رمز الحنان والعطاء

التي لم تكتحل عيناي برؤيتها في دنيانا الفانية

ضارعاً إلى الله جل وعلا أن يجمعني بها

في جنته ومستقر رحمته.

إلى والدتي الغالية المرحومة - بإذن الله -

صفية علي وهمان

محمود الصاوي



أصل هذا الكتاب

رسالة علمية نال المؤلف بها درجة الماجستير من قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر، وتمت مناقشتها في ٢٣/ ١٢/ ١٩٩١م بتقدير ممتاز.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وأكرم النبيين سيدنا محمد ﷺ، خير من دعا، وبلغ، وأفضل من بشر وأنذر، أرسله الله خاتماً للنبيين والمرسلين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، فما ترك سبيلاً من سبل الخير إلا ودل عليه وهدى إليه، وما ترك سبيلا من سبل الشر، إلا نبه إليه وحذر، منه فصلوات ربي وتسليماته عليك يا سيدي يا رسول الله في الأولين وفي الآخرين وإلى يوم الدين.

أما بعد ...

فإن الصراع بين الحق والباطل سنة من سنن الله في هذا الكون لا تتبدل ولا تتغير ماضية بأمر الله دائمة مادامت السماوات والأرض ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ** ﴾ [1].

ومنذ أُرسِل المصطفى ﷺ بهذا الدين العظيم، هداية للبشرية وإنقاذا لها من نار الخلد، وجحيم الأبد، التي أوشكت أن تقذف بنفسها فيه، والناس ما بين مصدق ومكذب، ومؤمن وكافر، إذ هدى الله إلى الإسلام من اختصهم برحمته واستحقوا رضوانه ومغفرته، وحرم من هذا الدين الخاتم من سبقت له الشقاوة في الدنيا والآخرة.

وبدأ الصراع من اللحظة الأولى، التي أشرقت فيها شمس الإسلام في هذا العالم، على يد النبي الأمين ﷺ، موجها ضده، وضد صحابته، وضد خلفائه الراشدين المهديين من بعده، ثم تواصلت مسيرة الصراع وامتدت، وأعلن أعداء الإسلام الحرب على كل مؤمن بهذا الدين يرى فيه صلاح الدنيا والآخرة، وكانوا في كل مرحلة من الزمن يدبرون ويخططون للقضاء على هذا الدين العظيم، حتى كانت الحروب الصليبية [2] التي انتهت بانتصار المسلمين وهزيمة أعدائهم، الذين أيقنوا أنه

---

(١) سورة الحج: آية ٤٠.

(٢) استمرت قرنين كاملين (١٠٩٦ / ١٢٩١م) حتى سقط آخر حصن كان للصليبيين في الشام في ١٧/ ٦/ ١٢٩٢م ورجعت فلول الحملات الصليبية إلى مواطنها متهالكة يائسة تجر أذيال الفشل.

لابد من تغيير أسـلوب الحرب وإدارة المعركـة، بعد أن فكروا في سـبب هزيمتهم الفادحـة وانتصار المسلمين رغم قلـة عددهم وعدتهم ؟ وجاءت الإجابة الحاسمة من قِبل مفكريهم وعلمائهم، إن قوة المسلمين تكمن في هذا الدين الذي يعتنقون، وفي حبل الله الـذي بـه يعتصمون، فقـرر الأعداء حينئـذ إعلان الحـرب الفكريـة على الإسلام قيمـه، وتعاليمــه، وتاريخـه، وحضارتـه، ورموزه وعلمائـه، أرادوهـا حربا شـاملة مدمرة، تفقـد المسـلم ثقته بعقيدتـه، وشـريعته، وتراثه، وتاريخـه، وحضارته، بماضيه، وحاضره، ومستقبله، حتى ينقطع عن جذوره، فيصيبه التخبط ويتحول إلى مسخ مشـوه يسهل عليهم هزيمته وسحقه وابتلاعه واستعباده ﴿ **وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ (١)

ونشـأت مدارس الاستشـراق ورُصدت لهـا الأموال الطائلة والإمكانـات الهائلة، لمعرفة سـر قـوة المسـلمين، وأسباب رقيهـم، وللتطلع على عوراتهم، ورصد مواطن الضعف والاختلاف بينهم، لزلزلة الكيان الإسلامي، وقهر الشخصية المسلمة، حتى انتهى الأمر بتمكن الأعداء، من هذه الأمـة، بحلول أكبر كارثـة عرفها المسلمون في تاريخهم الطويل، تمثلت في إسـقاط الخلافـة الإسلامية لأول مرة في تـاريخ الإسلام، ولم يحـدث ذلك فجأة لكن سـبقته موجات عاتيـة من التغريب، تسـللت إلى بلدان المسـلمين ومجتمعاتهم وعقولهم ومؤسساتهم، عن طريـق الاستعمار الصليبي الغاشم، الذي حـل بديار الإسـلام كلها، فلـم ينتهي القرن التاسـع عشـر إلا وقد سـقطت الدول الإسلامية تحت سيطرته ونفوذه، وبدأ فصل جديد في المعركة أصبح فيه تأثير أعداء الإسـلام أكثر قـوة وفعاليـة، لانتقـال حضـارتهم مع الجاليـات الأجنبيـة التي استقرت ببـلاد المسـلمين، واستخدمت الدول الغربيـة كل وسـيلة في سـبيل فرض لغاتهـا، وثقافتها، في البـلاد التي احتلتها، تيسـيرا على الغربي المستعمر مـن ناحية، وتمهيـداً لمحو طـابع المستعمرات الشـخصي وامتصاصهـا من ناحيـة أخـرى، ولإزالة الحواجز التي تهدد وجودها، المتمثلة في ثقافة هذه الشعوب وخصوصياتها الحضارية من اللغـة، والديـن، والتقاليد، والعـادات، والـتي كانت سـببا في إحسـاس المسـلم

(١) سورة الأنفال: من الآية ٣٠.

بالنفور من الأجنبي المحتل، وإحساسه بالغربـة، التي شهدت بها مراحل التاريخ، التي لم تجمع بين الإسلام وأعدائه إلا في ساحات المعارك، التي لقن المسلمون أعدائهم فيهـا دروساً قاسية بقيت متعلقة بأذهـانهم، وبلغت غايتها بـاحتلال عاصمة الدولة البيزنطية ومقر كنيستها [1].

لهذا الميراث المتراكم من الصراع والعداوات، ركزت برامج التغريب وأعمال المستغربين على تحقيق هدف مزدوج، فهي تحرس مصالح الاستعمار بمحاولة كسر الحواجز التي تفصل بينه وبين المسلمين نتيجة لاختلاف القيم من ناحية، ولتولد شعور بالمرارة في نفس العربي المسلم إزاء المحتلين لبلاده من ناحية أخرى، وهي في الوقت نفسه تضعف الرابطة الدينية التي تجمع المسلمين، وتجعل منهم قلبا واحداً.

وكانت مصر من بلدان المسلمين التي ظهر فيهـا الصراع بين الفكرة الإسلامية، والفكرة الغربيـة، في أبرز مظاهره، لما لها من دور ريـادي، وقيـادي، في العالم الإسلامي، والعربي فتركزت عليها الأنظار، وتتـابعت عليهـا موجات الاستعمار هادفة إلى ضرب الإسلام في عقر داره.. وكان الاحتلال البريطاني نقطة تحول في حياة المجتمع المصري، إذ حاول أن يدفع بالبلاد بعيدا عن الإسلام، بعزله عن الحياة، وتنحيته عن مقعد القيادة وشؤون الحكم، فما أن رسخت أقدام المحتلين الإنجليز بمصر حتى سارعوا إلى تنفيذ مخططاتهم بمُحاولة تخريب العقل المسلم «وبث الكثير من البذور الضارة، وغرز الجذور الخانقة في مختلف ميادين الحياة، وربما كانت أسوأ هذه البذور، وأخطر تلك الجذور، هي التي كانت قد انتشرت وامتدت في أرض الثقافة والمعارف» [2]، وإحلال قيمهم وتقاليدهم وأفكارهم وسلوكياتهم المستمدة من عقيدتهم المخالفة لعقيدة السواد الأعظم من هذا الشعب المصري المسلم.

وفتح الاحتلال أبواب مصر على مصراعيها، لجماعات الحاقدين والموتورين، والكارهين للإسلام، الناقمين على الخلافة العثمانية، وكان على رأس هذه الجماعات الناقمة على الخلافة نفر من نصارى الشام حضروا إلى مصر فسُلِّمَتْ لهم

---

(١) حين دخلها محمد الفاتح بالتكبير والتهليل وارتفع الآذان في طرف أوربا الشرقي في ٢٩ مايو ١٤٥٣م وكانت تسمى أيا صوفيا فسماها أسلامبول (أي دار الإسلام).

(٢) أبو خلدون: ساطع الحصري، حول الوحدة الثقافية العربية ص ٤٧ ط ٢ ١٩٨٥م.

مقاليد الإعلام، والتعليم، والثقافة، لمساعدة المحتل على أداء دوره، والتمكين له ونشر أفكاره، وتسريبها داخل العقل المسلم في مصر، وقد كانوا مؤهلين لأداء هذا الدور لأسباب عدة: على رأسها عدم مشاركة المسلمين في الإحساس بالولاء القلبي الخالص للحكم الإسلامي القائم، الذي تمثله الدولة العثمانية، فاقتحموا حياة المجتمع المصري بمفاهيمهم وحقدهم وتعصبهم على الإسلام ...

وشهدت مصر في هذه الحقبة من تاريخها تحولات فكرية هامة، كان على رأسها ذلك الصدام الحضاري المباشر مع النموذج الغربي الوافد الذي كان له رجاله، الذين وقفوا خلفه، وكان له قضاياه التي أثارها، ولمعت أسماء كثيرة لمعانا زائفا فبرزت أسماء (فرح أنطون، فارس نمر، يعقوب صروف، شبل شميل، جرجى زيدان، ...) الطليعة العلمانية التي ساهمت في بلورة الأطر العامة للتيار العلماني بمصر خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، بما قدموه من كتابات وما أصدروه من صحف، وكان لابد من إعادة قراءة هذه المرحلة من جديد للكشف عن خبايا هذه الفترة الهامة، التي تعد من أحوج المراحل في حياة الأمة الإسلامية ومن أخطر فترات حياتنا الفكرية، والثقافية، والتي يعتبرها كثيرا ممن يتبوؤن مراكز التوجيه والريادة الآن في عالم الفكر والثقافة، رافدا حيويا يستقون من رموزه آرائهم ونظرياتهم ورؤيتهم للحياة والمجتمع، ويستلهمون القدوة والأسوة في رجالاته، وشخصياته الفاعلة والمؤثرة.

وإذا كانت الأمم الحية تحافظ على تراثها، وتبذل كل ما في وسعها لتحقيق هذا الهدف، أمينة في حراستها، تقطع أيدي العابثين فيه في محاولتهم الأولى، لأنها تمثل خطة مدروسة لهدم ذاتيتها، وتحطيم طاقاتها، وضياعها كأمة متينة البنيان قوية الترابط سليمة الهدف – فإنني وانطلاقا من هذا وإسهاما في كشف اللثام عن طبيعة الحرب الشرسة التي تعرضت لها ثقافتنا الإسلامية، والتي أوجدت حالة الجمود الفكري والفقهي والثقافي التي طالما يتشدق بها العلمانيون المعاصرون ويَسِمُونَ بها ثقافتنا الإسلامية – أقدم لك عزيزي القارئ هذا البحث بهدف كشف الأوراق وإماطة اللثام عن جهود شخصية من أكبر الشخصيات الثقافية في نهاية القرن

التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ودورها الحقيقي في معركة الغرب مع الثقافة الإسلامية والإسهام الفاعل في خدمة الثقافة الغربية، والتي لا يزال تمثل رافداً هاماً لمدرسة الاستنارة الحديثة!

وقد دفعني لاختيار هذا الموضوع أسباب كثيرة منها:

أولاً: أنني كنت في فترة مبكرة من حياتي قرأت رواية «الحجاج الثقفي» لجرجي زيدان وتعلقت بها لكنني كنت أشعر في قرارة نفسي بشيء من الغرابة والتعجب إذ كيف يكتب عن تاريخ الإسلام ويسجل أحداثه كاتب نصراني، يقف حاجز الدين سدًّا منيعًا أمام إخلاصه لما يكتب وتفاعله معه !! وتنامى هذا العجب شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى ذروته يوم أن قرأت كتاب الإسلام والحضارة الغربية للدكتور/ محمد محمد حسين، الذي أشار فيه إشارة عابرة إلى دور هذه المجلة في تغريب المجتمع المصري، وكنت ساعتها قد أنهيت رحلة الدراسات العليا وأبحث عن موضوع للماجستير فأردت أن أحقق رغبة الصبا في دراسة هذا الموضوع.

ثانياً: كما أنني نظرت إلى المجلات التي ولدت على أيد النصارى العرب فوجدت أن مجلة الهلال هي أقدم مجلة شهدها العالم العربي حتى الآن إذ بلغت المائة عام [1] من عمرها، ولازالت تصدر مما أثار في ذهني عددا من الأسئلة عن سر استمراريتها وعدم توقفها شأن عشرات الصحف والمجلات التي صدرت معها أو بعدها.

ثالثاً: رفع الغشاوة عن أعين المخدوعين برموز هذه الفترة الذين قاموا بأخطر الأدوار في تمزيق شمل الأمة، ومسخ شخصيتها، وكانوا أداة طيعة في يد الاستعمار البغيض، ينفذ بهم سياسته ويحقق بأقلامهم مخططاته وألاعيبه (بصرف النظر عن حسن النية أو سوءها).

رابعاً: رغم موت جرجي زيدان «مؤسس مجلة الهلال» إلا أن أفكاره بقيت تتردد في جنبات العديد من مؤسسات التعليم والثقافة في مجتمعاتنا وفي عقول

---

(١) مائة عام عند كتابة هذا البحث سنة ١٩٩٢م.

وكتابات عديد من الأدباء والمفكرين أمثال طه حسين وسلامة موسى ولويس عوض ومحمود عزمي وحسين فوزي، وغيرهم ممن يعدون قمم الصحافة والثقافة المصرية، الذين خلفوا ورائهم تلاميذ كثيرين يحملون هذه الأفكار ويبثونها في كتاباتهم ويقذفونها بين الحين والآخر في ساحة الفكر والثقافة.

خامساً: إظهار دور الصحافة الفعَّال، والخطير، في مسيرة الحرب الفكرية، التي أُعلنت على الفكر الإسلامي، وحرص أعداء الإسلام على الغزو الفكري للأمة الإسلامية عن طريقها.

سادساً: ذلك التهجم الصارخ والصريح - والذي تجاوز الحد - على أصحاب رسول الله في رواية فتاة غسان، دفعني إلى محاولة رصد بقية محاولات جرجي زيدان الخبيثة لضرب الثقافة الإسلامية في بقية آثاره وكتاباته.

منهج البحث:

التزمت في بحثي هذا منهجا تبدو معالمه فيما يلي:

(١) التحليل والوصف في عرض القضايا التي طرحها جرجي زيدان في كتاباته وعلى رأسها، مجلة الهلال بعد تصنيفها ومعالجة كل منها في مبحث مستقل.

(٢) الحكم والاستنتاج والرؤية الإسلامية لتلك القضايا، ومناقشة الشبهات التي أثارتها المجلة في وجه الثقافة الإسلامية.

والتزمت في بحثي بعدد من الضوابط:

(١) الأمانة في نقل النصوص من مصادرها الأصلية لحفظ حقوق العلماء إذا حَدَّثتُ عنهم أو اقتبستُ منهم.

(٢) الرجوع إلى نصوص القرآن والسنة وتحري صحة الأحاديث النبوية الشريفة.

(٣) البعد عن التهويل والإفراط في عرض القضايا، ثم أثني بعرض موقف الإسلام ونظرته الصحيحة، ومناقشة الآراء بحيدة وأمانة علمية.

(٤) التزمت ما وسعني الجهد بسلامة الأسلوب ووضوح العرض، وحرصت على حسن الفهم، واستعنت في ذلك كله بالله تبارك وتعالى أولاً وأخيراً.

خطة البحث:

المقدمة: وقد اشتملت على بيان الموضوع وأهميته، وسبب اختياره، ومنهج البحث، وخطته، ومصادره.

فصل تمهيدي: تحدثت فيه عن مفهوم الثقافة ووظيفتها - والفرق بين الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى.

الباب الأول: جرجي زيدان سيرة وآثاراً، تناولته في أربعة فصول.

الفصل الأول: إطلالة على العصر.

الفصل الثاني: التعريف بجرجي زيدان.

الفصل الثالث: التعريف بكتابات جرجي زيدان.

الفصل الرابع: جرجي زيدان في كتابات القدامى والمعاصرين.

الباب الثاني: القضايا التي عالجها جرجي زيدان في كتاباته.

الفصل الأول: القضايا الاستشراقية - عرض ونقد.

الفصل الثاني: القضايا التاريخية - تاريخ التمدن الإسلامي نموذجاً.

الفصل الثالث: القضايا الفلسفية.

المبحث الأول: شبهة العداء بين الدين والعلم.

المبحث الثاني: نظرية التطور.

الفصل الرابع: القضايا السياسية - موقفه من الخلافة العثمانية نموذجاً.

الباب الثالث: الشخصيات والتراجم عند جرجي زيدان.

فصل تمهيدي: الشخصية، وتحديد المفهوم.

الفصل الأول: الشخصيات الماسونية في كتابات جرجي زيدان.

الفصل الثاني: الشخصيات القومية في كتابات جرجي زيدان.

الفصل الثالث: الشخصيات الاستعمارية في كتابات جرجي زيدان.

الفصل الرابع: الشخصيات الإسلامية الغامضة.

الباب الرابع: روايات جرجي زيدان - عرض ونقد.

الفصل الأول: مقدمات ضرورية بين يدي الروايات.

الفصل الثاني: الروايات تحليل ودراسة.

المبحث الأول: فتاة غسان.

المبحث الثاني: أرمانوسة المصرية.

المبحث الثالث: عذراء قريش.

المبحث الرابع: غادة كربلاء.

المبحث الخامس: الحجاج الثقفي.

المبحث السادس: شارل وعبد الرحمن.

المبحث السابع: أبو مسلم الخراساني.

المبحث الثامن: العباسة أخت الرشيد.

المبحث التاسع: صلاح الدين الأيوبي.

المبحث العاشر: شجرة الدر.

المبحث الحادي عشر: أسير المتمهدي.

المبحث الثاني عشر: الانقلاب العثماني.

الخاتمة.

قائمة المصادر والمراجع.

الفهرس.

مصادر الدراسة:

لقد جاءت دراستي لشخصية جرجي زيدان من خلال عكوفي على دراسة مجلة الهلال التي أنشأها وكتب الأغلبية الغالبة من موضوعاتها طوال الفترة من ١٨٩٢ حتى ١٩١٤م ولهذا فإن مصادر هذا البحث تمثلت فيما يلي:

(١) مجموعة المؤلفات الكاملة لجرجي زيدان التي أصدرتها دار الجيل ببيروت طبعة ١٩٨١م وتقع في واحد وعشرين مجلدا، يبلغ مجموع صفحاتها حوالي أربع عشرة ألف صفحة.

(٢) جميع أعداد المجلة التي صدرت خلال فترة البحث والتي تقع في اثنتين

وعشـرين مجلدا تبلغ مجموع صفحاتها حوالي خمس عشـرة ألف صفحة تقريبا. اعتمدت عليها واعتبرتها المصدر الرئيسي للدراسة.

(٣) مخطوطة بقلم الشيخ العلامة شبل النعماني عنوانها «انتقادات على كتاب تاريخ التمدن الإسلامي» من جامعة عليكره بالهند سنة ١٩١٢ م.

(٤) مخطوطة بقلم الشيخ أمين بن حسن حلواني المدني بعنوان «نبش الهذيان من تاريخ جرجى زيدان» بدار الكتب المصرية القاهرة برقم ٢٧٨٤ عام ١٩٣٢م.

(٥) المؤلفات والمذكرات الشخصية التاريخية التي أرخت لهذه المرحلة وتناولت القضايا والبحوث التي كتبت فيها المجلة.

أما الخاتمة: فقد اشتملت على أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث، مع أبرز التوصيات.

دكتور/ محمود الصاوي
أستاذ مساعد بكلية الشريعة
جامعة الإمام محمد بن سعود - الرياض

المملكة العربية السعودية
الرياض - الروضة
ش الحسن بن علي
١ / ٦ / ٢٠٠٠



تحديد مفهوم الثقافة

والفرق بين الثقافة الإسلامية وغيرها من الثقافات

أصبح لفظ - الثقافة - من أكثر الألفاظ شيوعا في العصر الحديث - تعبيرا عن سعة الأفق وغزارة المعلومات وتنوعها وحضورها ومدى استفادة صاحبها في تهذيب سلوكه. ولما كان موضوع هذه الدراسة - جرجى زيدان والثقافة الإسلامية - فإنني أجد لزاما عليَّ أن أقف مع مصطلح الثقافة وقفة مفصلة. أستطيع من خلالها تحديد الميزان الذي ستوضع عليه أو على كفتيه كتابات جرجى زيدان عبر مؤلفاته ومقالاته في مجلة الهلال، وقد قسمت هذا التمهيد إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول:- المفهوم اللغوي للثقافة.

المبحث الثاني:- المفهوم الاصطلاحي للثقافة.

المبحث الثالث:- خصائص الثقافة الإسلامية.

المبحث الأول

المفهوم اللغوي للثقافة

المطلب الأول: اللغة العربية:

(١) القاموس المحيط [١]:

ثقف: (بضم القاف وكسرها) - ثقفا وثقافة - صار حاذقا فطنا.

وثقفه: أخذه وأدركه وظفر به - وهذا المعنى هو ما جاءت به آيات القرآن الكريم في سورتي البقرة والأنفال.

١- البقرة ١٩١ ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي وجدتموهم وتمكنتم منهم.

٢- الأنفال ٥٧ ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم ..﴾ أي فإما تظفرن

---

(١) مجد الدين بن يعقوب الفيروزابادى، القاموس المحيط، الحلبي ص١٣١، بدون رقم للطبعة، سنة ١٩٥٢م.

بهم فنكل بهم وغلظ عقوبتهم ليخاف من سواهم من الأعداء.

(٢) مختار الصحاح [1]:

ثقف الرجل: من باب ظرف - صار حاذقا خفيفا.

والثقاف ما تسوى به الرماح) وتثقيفها: تسويتها).

(٣) الزمخشري [2]:

ثقف: ثقف القناة وعض بها الثقاف، وطلبناه فثقفناه في مكان كذا، أي أدركناه - وكذلك ثقفت العلم والدراسة أو الصناعة في أوهى مدة، إذا أسرعت أخذه.

(٤) معجم مقاييس اللغة:

ثقف: الثاء والقاف والفاء، كلمة واحدة، إليها ترجع الفروع - وهو إقامة - درء الشيء، ويقال ثقفت القناة: إذا قومت عوجها - وثقفت هذا الكلام من فلان - ورجل ثقف لقف: وذلك أن يصيب علم ما يسمعه على استواء، ويقال ثقفت به إذا ظفرت به.

قال الشاعر:

فإما تثقفوني فاقتلوني   وإن أثقف فسوف ترون بالى [3]

(٥) أما لسان العرب:

رجل ثقف: أي حاذق فهم

هو غلام ثقف: أي ذو فطنة وذكاء، والمراد أنه ثابت المعرفة بما يُحتاج إليه، ومنه أيضا قول أم حكيم بنت عبد المطلب إني حصان فما أكلم، وثقاف فما أُعلم.

وفي حديث السيدة عائشة رضي الله عنها تصف أباها رضي الله عنهما (وأقام أوده بثقافه)، الثقاف ما تقوم به الرماح تريد أنه سوى عوج المسلمين) [4].

---

(١) إسماعيل بن حماد الجوهرى، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفار عطار، دار العلم للملايين بيروت، ط ٢ سنة ١٩٧٩م ج٤ ص ١٣٣٤ .

(٢) العلامة محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، دار صادر بيروت، بدون رقم للطبعة، سنة ١٩٧٩م.

(٣) معجم مقاييس اللغة ج١ ط ٦٦١ هـ ص ٥٨٢ تحقيق عبد السلام هارون نشر عيسى الحلبي وشركاه.

(٤) الإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري لسان العرب مادة ثقف ج٩، دار صادر بيروت.

معجم مجمع اللغة العربية:

الثقافة: هي كل ما فيه استنارة للذهن وتهذيب للذوق وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد والمجتمع.

وبناء على ما أوردته المعاجم اللغوية السابقة:

فإن كلمة (ثقف: لها استعمالات متعددة في لغة العرب منها).

(١) ثقف: عرف (٢) ثقف: صار حاذقا فطنا

(٣) ثقفت الرمح أو العود: إذا هذبته وأصلحته لمهمته، بآلة التثقيف.

(٤) يقال ثقفت فلانا: إذا سويته، وهذبته، وأصلحت معوجه حتى صار مستقيما ومن ذلك قول أم حكيم بنت عبد المطلب (إني حصان فما أكلم - ثقاف فما أعلم) أي أنها امرأة محصنة فلا يخدشها أحد بكلمة - مثقفة لا تحتاج لتعليم وتهذيب.

«ومن ذلك قول عبد الله بن عمرو لابن أخ له خرج من الوهط (البستان) أيعمل عمالك؟ قال: لا أدري، قال: أما لو كنت ثقيفاً لعلمت ما يعمل عمالك، ثم التفت إلينا فقال: إن الرجل إذا عمل مع عماله في داره (وقال الراوي مرة: في ماله) كان عاملاً من عمال الله عز وجل» [(١)].

وثقيف الواردة في هذا الأثر تعني اللبيب الفطن الذكي الواعي.

فالتثقيف في اللغة العربية: بمعنى التسوية والتهذيب - وهو في الأشياء المادية: بمعنى تسويتها وتهذيبها بآلة التثقيف المادية - وهو في النفوس: بمعنى تهذيبها كذلك بأدوات التهذيب المناسبة من قيم ومعتقدات.

المطلب الثاني: مفهوم الثقافة في اللغات الأجنبية:

وبعد أن بينت ما ذكرته معاجمنا وقواميسنا العربية حول مصطلح الثقافة، أجد من تمام الفائدة أن أنقل بعض ما أوردته المعاجم الأجنبية حول هذا المصطلح لسببين:-

أولاً:- لا سيما وأن كثيرا من الكتاب والمفكرين - العرب - عندنا يُرجعون

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، وسنده صحيح كما ذكر الألباني في الصحيحة ١/١٢.

أصل هذه الكلمة إلى اللغات الأجنبية (الفرنسية - والإنجليزية) وإن هذا هو سر كثرة التعريفات لهذا المصطلح.

ثانياً:-كما أن الهدف من هذه الرسالة - هو بيان تلك المفاهيم الثقافية والفكرية - التي حاول أصحاب الثقافات الأجنبية وأتباعهم تسريبها إلى الثقافة الإسلامية، وهل كان مصطلح الثقافة من بين هذه المصطلحات أم أنها كلمة عربية أصيلة، شكلا ومضمونا ؟ لذلك فمن الضروري أن نقف على مفهوم الثقافة - في هذه اللغات أو في الثقافات التي تمثل هذه اللغات.

مصطلح الثقافة في اللغات الأجنبية:

إن الثقافة في اللغات الأجنبية - (الفرنسية - الإنجليزية - والألمانية) يعبر عنها بلفظ (*culture*)ويفيد: معنى الزراعة والاستنبات، وقد أصبحت في الاصطلاح العرفي في العربية، وغيرها، تفيد معنى: ما يكتسبه الإنسان من ضروب المعرفة النظرية والخبرة العملية التي تحدد طريقته في التفكير.

التطور الدلالي للمصطلح:

(أ) (*culture*) : كانت هذه الكلمة في أصلها اللاتيني في العصور القديمة والحديثة تدل: على تنمية الأرض ومحصولاتها.

ويقال إن سيشرون (١٠٦ ق.م) كان أول من استعمل هذه الكلمة بمعناها المجازي فسمى الفلسفة - (*mentis culture*) فلاحة العقل وتنميته[١]، وهو قول تعوزه الدقة ولعلهم يقصدون أنه من أوائل من استخدموا هذا المصطلح في معنى فني محدد.

(ب) ولما كانت اللاتينية هي أصل اللغات الأوربية - إنكليزية وفرنسية وألمانية - فقد استعملت كلمة الثقافة في أوائل العصور الحديثة بمدلوليها المادي والعقلي، ثم جاء الكتاب الفرنسيون كفولتير وأقرانه في القرن الثامن عشر

(١) معن زيادة، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، ص ١١٥.

الميلادي - فأطلقوا هذه الكلمة دون إضافتها إلى أمر مادي أو معنوي حيث كانت كلمة (**culture**) تعني لديهم تنمية العقل وغرسه بالذوق والفهم وتزيينه بالمعرفة(١).

وغدت بعد ذلك، تدل على، تنمية العقل، والذوق - ثم انتقلت بعد ذلك إلى حصيلة عملية هذه التنمية: المكاسب العقلية والأدبية.

(ج) وفي رحلة التطور هذه انتقلت الكلمة إلى الألمانية، أصبحت تدل على التقدم الفكري الذي يحصل عليه الفرد أو المجموعات أو الإنسانية بصفة عامة.

(د) وفي معجم ويبستر أن (**culture**) تتمثل فيما يلي:

١- فن الزراعة أو عملية الزراعة.

٢- عملية التنمية الناتجة عن التعليم والنظام والخبرة الاجتماعية.

٣- استنارة الذوق وامتيازه اللازمان لممارسة الفكرية والجمالية المتمثلة في:

أ - المضمون الفني والفكري للمدنية

ب - تنقية السلوك والتذوق الفكري

ج - التعرف على الفنون الجميلة والإنسانية والمجالات الفسيحة للعلم وتذوقها باعتبارها نوعا من المهارة أو المعرفة الإدارية أو التقنية أو المهنية.

٤ - الإطار الجمالي للسلوك البشري، ومنتجاته، المتمثلة في الفكر والكلام والعمل المعتمد على قدرة الإنسان على التعليم، ونقل المعرفة إلى الأجيال التالية من خلال استعمال الأدوات واللغة ونظم التفكير المجردة (٢).

---

(١) معن زيادة، المرجع السابق ص ٤٨

(٢) علوى الصافى، تعريف الثقافة ومفهومها بمجلة الفيصل عدد ١٤٣ (ديسمبر ١٩٨٨م) ص ٧ - ٨.

المبحث الثاني
المفهوم الاصطلاحي للثقافة

لقد كثرت تعريفات العلماء وتعددت أقوالهم حول مصطلح الثقافة، مما تعذر معه إيجاد تعريف جامع مانع لهذا المصطلح، الذي خاضت في إظهار مفهومه، وتحديد مدلوله، أقلام الباحثين وآراء المفكرين، بين مضيق لدائرة المدلول، وموسع لها – فتباينت الاتجاهات وتعددت التعريفات.

لا سيما وأن للكلمة مترادفات عدة، تشتبك معها عند أي محاولة لتعريفها وهذه هي بعض التعريفات التي وقفت عليها لهذا المصطلح:

(١) المفكر الإسلامي الأستاذ مالك بن نبي: [١]

الثقافة: هي مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته.

(٢) أ. د. حامد ربيع: [٢]

الثقافة: هي نظام للإدراك الجماعي يحدد عناصر المثالية السلوكية الفردية. ويتميز بخصائص ثلاث:

١- إدراك ٢- ظاهرة جماعية. ٣- نموذج للمثالية.

(٣) أ. د. سليمان حزين:

يقول إن تعريف الثقافة بأنها مجرد المعرفة أو الزيادة منها؛ تعريف لا يكاد يكفي لجيلنا المعاصر أو المستقبل – فالثقافة: هي نمط الحياة أو أسلوبها، ثم يصور الثقافة وارتباطها بالحياة أبلغ تصوير قائلا: «لا نريد ثقافة كالزيت تحاول أن تخلطه بماء الحياة، فيأبى إلا أن يطفو على السطح، إننا نريد أن تكون ثقافة قابلة للذوبان في ماء الحياة -كالملح والسكر- تذيبه في حياتنا فتصبح شرابا ذا مذاق خاص»[٣].

---

(١) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص ٨٣ ترجمة د/ عبد الصبور شاهين، عمر كامل، دار الجهاد، ط ١ سنة ١٩٥٧.

(٢) د/ حامد ربيع، الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وإرادة التكامل القومي ص ٢٣، دار ماجد للطباعة سنة ١٩٨٣.

(٣) بحث مقدم للمجالس القومية المتخصصة، نقلا عن د / عبد المنعم النمر، الثقافة الإسلامية بين الغزو والاستغزاء ص ٢٣، دار المعارف، بدون رقم للطبعة، ١٩٨٧.

(٤) ويوضح فضيلة الشيخ/ صادق إبراهيم عرجون مفهوم الثقافة الإسلامية:

فيقول: إن الثقافة الإسلامية موضوع بعيد الغور واسع الأرجاء متعدد النواحي. فهي كما عنيت بالشئون الدينية، والهندسية، والأدبية والعلمية كذلك عنيت بالنواحي المدنية التعميرية والاجتماعية النظامية، وأسستها على أساس من العدل والعمل الصالح المثمر، والجهد المستقيم، فكان لها أثر عظيم، في تغذية الفكر الإنساني، ومسايرة التطور العلمي، مما جعل المنصفين من علماء الغرب يعترفون بفضل هذه الثقافة الإسلامية على ما هم فيه من تقدم ورخاء . يقول العلامة (همبولد) إن العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين العلوم وأسباب التمدن وبين الأمم. فقد كانوا يحملون معهم التمدين حيثما حلوا، فيبثون في الناس دينهم، وعلومهم، ولغتهم.

(٥) ويقول د/ محمد رضا محرم إن الثقافة في أبسط تعريف لها:

هي جماع الإنتاج المعنوي والمادي لمجتمع ما.

الإنتاج المعنوي: يتمثل في القيم والسلوك والفن والأدب والفكر.

الإنتاج المادي: يتمثل في البحوث العلمية. التقدم الصناعي. الإنتاج الزراعي. أنماط المعيشة والعمل بصفة عامة، فهي شجرة يانعة متواصلة النمو بتجدد أوراقها من حول إلى حول [(١)].

(٦) أما الدكتور عبد الحليم عويس: فيرى أن الثقافة هي:

الصورة الحية للأمة التي تحدد ملامحها، وقوام وجودها الذي يضبط سيرها في الحياة واتجاهها فيه. إنها عقيدتها التي تؤمن بها ومبادؤها التي تحرص عليها، ونظمها التي تعمل على التزامها، وتراثها الذي تخشى عليه الضياع والاندثار، وفكرها الذي تود له الذيوع والانتشار [(٢)].

(٧) ول ديوارنت:

يقول عن الثقافة والحضارة إنهما: النظام الاجتماعي، والتشريعي،

---

(١) محمد رضا محرم، تجديد العقل السياسي الإسلامي ص ١٠١، دار سينا للنشر القاهرة.

(٢) د. عبد الحليم عويس، ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة، دار الصحوة، بدون رقم للطبعة.

والخلقي، والنشاط الثقافي. (1)

(٨) كلوكهن وكلي:

الثقافة: هي مجموعة العادات والأفكار التي يكتسبها أي مجتمع من المجتمعات ويشترك فيه أفراده من جيل إلى جيل. (2)

(٩) كروبر: (3)

الثقافة: هي مجموعة من العادات، يعترف بكونها مقبولة في جماعة معينة - كما يمكن متابعة آثارها في كل دوائر النشاط الإنساني - كالسياحة، والحقوق، والفن، والدين، والمعرفة العقلية بمختلف صورها.

(١٠) د. زكي نجيب محمود: (4)

يرى أن ثقافة الأمة: هي التعبير عن أصالتها وشخصيتها وملامحها وإن ثقافة كل أمة، هي جزء منها، محلية المنشأ والطابع، مجلوة، محلاة، ومنسقة بعلوم العصر. ثقافة تعين الإنسان على اتخاذ الموقف المناسب، فلا يكون فجا ولا جاهلا بعصره، كأنه من القرون الأولى فتثير عليه الضحك والسخرية، ويرفضه مجتمعه.

(١١) وفي كلمات بليغة يتحدث العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر عن الثقافة فيقول: إنها في جوهرها لفظ جامع يقصد بها الدلالة على شيئين، أحدهما مبني على الآخر، أي هما طوران متكاملان.

١- الطور الأول: أصول ثابتة مكتسبة تنغرس في نفس الإنسان منذ مولده ونشأته الأولى، حتى يشارف حد الإدراك البين، جماعها كل ما يتلقاه عن أبويه وأهله وعشيرته ومعلميه حتى يستقل بنفسه، من "لغة" يبين بها عن نفسه، ومعرفة تتيح له قسطا من التفكير، تعينه على معاشرة من نشأ بينهم،

---

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة ص ٩، ترجمة د. زكي نجيب محمود، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ط٤ سنة ١٩٧٣م ج١ من المجلد الأول نشأة الحضارة.

(٢) مفهوم الثقافة ص ٢٠٣.

(٣) مجلة التربية العامة ص ٣ سنة ١٩٤٩.

(٤) بحث مقدم لمجلس الثقافة بالمجالس القومية المتخصصة نقلا عن د. عبد المنعم النمر في كتابه الثقافة الإسلامية بين الغزو والاستغزاء، دار المعارف، القاهرة ط١ سنة ١٩٩٠م.

ممزوجين في إناء واحد، ركيزته أو نواتـه (دين أبويه ولغتهما) وأبلغهما أثراً هو الديـن، الذي على قدر شمولـه حيـاة الإنسـان، ومـا يحصّل منـه الناشـئ يكون أثـره البالغ في اللغـة الـتي يفكر بها ومعارفـه الـتي ينبني عليهـا كل ما يوجبه عمل العقل من التفكير والنظر والاستدلال.

٢- الطور الثـاني: فروع منبثقة عـن تلك الأصول المكتسبة - مبنيـة أيضا على لغتـه ومعارفـه التي حصلهـا في الطور الأول مصبوغـة بصبغـة الدين لا محالة حتى لو استعملها في الخروج عليه ومناقشته رفضا له أو لبعض تفاصيله.

وظيفة الثقافة وشروطها:

الثقافة: سـر مـن الأسرار الملثمـة، في كل أمـة من الأمم، وكل جيـل من البشر، وهي في أصلهـا البعيد الغور، معـارف كثيرة لا تحصى، متنوعـة أبلغ التنوع لا يكاد يحاط بها، مطلوبة في كل مجتمع إنساني لماذا ؟

(١) للإيمان بها أولا من طريق القلب والعقل.

(٢) ثم للعمل بهـا، حتى تذوب في بنيـان الإنســان، وتجري منـه مجرى الدم لا يكاد يحس به.

(٣) ثم للانتماء إليها بعقله وقلبه انتماءً يحفظها ويحفظه، من التفكك والانهيار، وهـذه القيود الثلاثــة [الإيمـان - العمل - الانتمـاء]، هـي أعمدة الثقافـة وأركانهـا التي لا يكـون لها وجود ظـاهر محقق إلا بهـا، وإلا انتقص ثباتها، وصارت مجرد معارف ومعلومات وأقوال مطروحة في الطريق لا يجمع بينها جامع [١].

وعند تأمل التعريفات السابقة لمصطلح الثقافة:

يتضح أن هذه التعريفات تكاد تنحصر في اتجاهات ثلاث على النحو التالي:

اتجاه: يحصر الثقافة في جانب الحياة العملي - ذلك الجانب الذي ينتقل من جيل إلى جيل عن طريق التلقين والتبليغ.

---

(١) محمود محمد شاكر - رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ١٩٨٧ دار الهلال عدد ٤٤٢، ص١١١.

اتجاه ثـان: أطلق الثقافة على الجـانب النظري، وقصرها على الأمور المعنوية فهي مصطلح يطلق على الجانب الروحي والفكري.

اتجاه ثالث: أطلق مصطلح الثقافة على معنويات الأمور وماديابها وعلى الجانب النظري والعملي معا - دينيا كان أو دنيويا. ذاهبا إلى اشتمال الثقافة لما يتلقاه الفرد عن الجماعة، من مظاهر العلوم، والفنون والمعارف، والفلسفة، والعقائد.

• اختيار الباحث:

نظراً لالتصاق مفهوم الثقافـة بالعقل فإنني أميل إلى الاتجـاه الثالث متفقاً في ذلك مع العديد من الباحثين(١) في الثقافـة الإسـلامية ذلك لأن العقل يتشـعب عمله إلى شعبتين :

(١) شعبة الأفكار والتصورات والمعتقدات (وهذه أمور نظرية).

(٢) شعبة السلوك والتطبيق والتجارب (وهذه أمور عملية).

ولا شـك أن العقل الذي هو وعـاء الثقافة وينبوعهـا يتجه أحيانـاً لدراسة العلوم النظريـة كعلم الاجتمـاع والنفس والنحـو والصرف والبلاغـة ... الخ كمـا يتجـه كذلك لدراسة علـوم الطب والهندسة وعلـوم الفلك والأرصاد وغيرها ... الخ وإذا كان هـو شأن العقل أن يتجه بإمكاناتـه وطاقاته إلى دراسـة الأمور النظرية والعملية ارتقاء بها - فلا غرابة أن يشتمل مصطلح الثقافة على كل نواحي الحياة.

وخلاصة لما سبق ذكره في المبحثين السابقين:

١- الســر في كـثرة التعريفـات والمفـاهيم لمصطلـح الثقافـة - مـرده إلى محاولـة إرجـاع بعض البـاحثين هذه الكلمـة إلى لغـات أخرى، مـازالت مختلفـة في تصورها لمعنـى المصطلح، لاسـيما وقـد تغير عنـد الغرب مفهوم كلمتي ثقافــة وحضارة، من جيل إلى جيل، ومن بلد إلى بلد.

---

(١) د. مصطفى أحمد أبو سمك، أضواء على الثقافة الإسلامية، الفجر الجديد، ط١ سنة ١٩٨٠ ص١٨- عمر عوده الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية، مؤسسة الرسالة ط٩ سنة ١٩٨٤ ص٤٤.
د. عبد الحليم عويس، ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة، ص١٦.

٢- تحوي لغتنا العربية نفس المعاني التي أوردتها المعاجم الأجنبية - بل وأبلغ منها لكلمة الثقافة «فالثقافة» كلمة عربية أصيلة ولها وجود مستمر في هذه اللغة، وتتراوح دلالتها بين المعاني الحسية المادية والمعنوية اللامادية.

٣- الدين[1] بمعناه العام هو منطلق الثقافة الحقيقية للأمة. وبقدر شموله لجميع ما يكبح جماح النفس الإنسانية ويحجزها أن تزيغ من الفطرة السوية العادلة - تكون قوة العواصم التي تعصم الأمة من العيوب الفادحة في مسيرة حياتها، فضلا عن قوة تماسكها وترابطها.

٤- لكل أمة ثقافتها: ومن نوع ثقافتها تكون حضارتها، وعلى حسب الغذاء الثقافي تكون حضارة الأمة حضارة صالحة أو فاسدة.

٥- العلم لا وطن له - للحصول عليه عن طريق التجارب الصادقة والنظر

---

(١) الذي هو فطرة الإنسان أي دين كان، والحقيقة أن هذه القضية قد تشعبت بسببها الآراء وتباينت وجهات النظر إلى آراء ثلاثة:

١ - اتجاه يرى الدين أساسا للثقافة بما فيه من قيم وارتباطات بالعالم العلوي والأرضي، ومن أحكام وتشريعات وقواعد وسلوكيات - فهو الذي يتحكم في حل الظواهر الثقافية السائدة في المجتمع الذي يدين بهذا الدين أو ذاك، وبهذا المعنى يكون الدين سابقا على الثقافة بالضرورة، ومتحكما أو مؤثرا فيها، فهي علاقة كل بكل الدين هو الكل والثقافة هي الجزء.

٢- الاتجاه الثاني، يرى أصحابه أن الثقافة أعم وأشمل في جميع مجالاتها الحيوية من الدين، إلى جانب أن الثقافة (ضرورية لكل المجتمعات البشرية مهما تكن بدائيتها. حيث أن هناك مجتمعات وثنية لها ثقافة ولغة بالضرورة، ولا تدين بدين، ومن ثم تكون العلاقة بين الثقافة والدين في مثل هذه المجتمعات علاقة جزء بكل، وهنا يكون الدين جزءا من الثقافة، مهما تكن درجة تأثيره قوية في المجتمع وهو اتجاه مناقض للأول.

٣- الاتجاه الثالث: يرى أصحابه أن العلاقة بين الدين والثقافة، هي علاقة كل بكل، ولكنها علاقة تطابق واختلاف في نفس الوقت، بين جزء من كل مع جزء من كل آخر، أي الثقافة تمثل كلا مستقلا وبينهما أجزاء متطابقة فيما بينها وأجزاء مختلفة، دون أن يكون الدين جزءا من الثقافة أو تكون الثقافة جزءا من الدين.

٤- وهناك اتجاه رابع يرى أن علاقة الثقافة بالدين هي علاقة متكافئة أي علاقة كل بكل لأنه إذا كانت الثقافة أهم من الدين في مجالاتها الواسعة من حيث التعدد والتنوع الذي يشمل جوانب الحياة الإنسانية في أي مجتمع قائم ولا يقتصر "على جانب روحي أو سلوكي" إلا أن الدين له من التأثير في المجتمعات التي يسود فيها (في المجالات التي تدخل ضمن ضوابطه الروحية والغيبية والسلوكية) على الأنماط الثقافية للمجتمع مالا تملك الثقافة من عوامل التأثير في الدين، بأي حال من الأحوال، من هنا كانت الثقافة أهم من الدين في شمولية وتعدد المجالات باستثناء الدين الإسلامي) وكان الدين أكثر تأثيرا في بعض الأنماط الثقافية السائدة المتصلة بضوابطه.

والحقيقة أن هذا الموضوع هو موضوع الساعة: وأحد الأزمات الفكرية المطروحة هذه الآونة، وينجلي وجودها بين آونة وأخرى، كلما أدلى علماء الشريعة وأساتذة الثقافة الإسلامية بدلوهم في أي منتج ثقافي أو أدبي أو روائي، تبنى الترويج لبعض الأفكار، أو المفاهيم والتصورات، المخالفة لثوابت الشريعة الإسلامية والعقيدة الإسلامية. فنجد هجوما حادا من بعض التيارات الفكرية على هذه المشاركات الواجبة والتي تصدر من أساتذة مختصين وعلماء أجلاء، بحجة أن الدين لا علاقة له بالثقافة ويقولون ما دخل الدين بالثقافة ؟!

الصحيح الذي هو نتاج أممي يتأثر فيه اللاحق بالسابق لينقله بدوره إلى غيره.

أما الثقافة: فهي نتاج خاص بأمتها لا تصلح لغيرها بل ربما كانت أفسد الأشياء لغير قومها وبيئتها – فالثقافات متعددة بتعدد الملل، ولكل ثقافة أسلوبها في التفكير، والنظر، والاستدلال، فتنزع من الدين الذي به لا محالة، ولعل هذا يلفت النظر إلى المحاولات الحثيثة التي يبذلها الغرب الآن من أجل عولمة الثقافة الغربية والتي تهدف إلى إزالة الحواجز الوطنية والخصوصيات الحضارية، والهويات الثقافية لبلدان العالم النامي، وفي الأساس العالم الإسلامي والعربي، «وذلك من خلال التخفيض من قيمة الثقافات المنافسة وتسويد صحائفها لدفع نخبها إلى التنصل منها، إلى ثقافة العولمة»[1] ، وهي محاولات مآلها الفشل بكل تأكيد، لكن الأمر يحتاج إلى وجوب تكاتف الجهود من أجل تكثيف عمليات التحصين الثقافي من خلال بلورة استراتيجيات فعالة للحد من سيطرة الثقافات الأخرى، أو الالتفاف عليها، أو التعامل معها بطريقة تسمح لها بالاستمرار في البقاء والصراع والمشاركة في الإبداعات الحضارية، كما هو الحال اليوم بالنسبة للثقافات الأوربية في مواجهة الثقافة الأمريكية [2].

٦- باطل كل البطلان: أن يكون في هذه الدنيا على – ما هي عليه – ثقافة عالمية – أو عولمة ثقافية – يشترك فيها البشر جميع، على اختلاف لغاتهم ومللهم ونحلهم – فهذا تدليس كبير يراد به هدف آخر يتعلق بسيطرة أمة غالبة على أمم مغلوبة، لتبقى تبعا لها، فثقافة كل أمة. وكل لغة: هي حصيلة أبنائها المثقفين بقدر مشترك من أصول وفروع، كلها مغموسة في الدين المتلقى عند النشأة، فهو صاحب السلطان المطلق الخفي على اللغة وعلى النفس والعقل جميعا.

---

(١) برهان غليون، سمير أمين- ثقافة العولمة ص٤٠، دار الفكر دمشق سورية ط١ ١٩٩٩م.
(٢) المرجع السابق ص٥٠.

المبحث الثالث
الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى

قد يبدو من خلال ظواهر بعض التعريفات أن مفردات الثقافة (العوامل المكونة لها) من كل العلوم والفنون - لا تختلف في قليل ولا كثير في الثقافة الإسلامية عن غيرها من ثقافات الأديان والمذاهب الأخرى ...

انطلاقاً من بعض القوانين التي تواضع عليها بعض المثقفين من «أنه لا توجد ثقافة مستقلة كلياً عن الثقافات الأخرى باعتبار أن الثقافة توجد بالضرورة في حقل تفاعل محدد فيما بينها علاقات هيمنة وخضوع على درجات متباينة ومتفاوتة حسب الثقافات وميادين الإبداع والنشاط الثقافي» (١) لكن مع كل هذا فإن النظرة الواعية المتفحصة لتؤكد أن هناك فرقا - بل فروقا جوهرية - بين مدلول الثقافة في الإسلام وبين مدلولها في غيرها من ديانات الشرق والغرب على السواء.

وسأجتهد من خلال السطور القادمة أن أوجز بعض هذه الفروق الرئيسية على النحو التالي:

الفرق بين الثقافة الإسلامية وغيرها من الثقافات:

(١) محورية العقيدة في الثقافة الإسلامية:

هي الوحيدة التي تعد العقيدة فيها هي أساس كل شيء وقاعدة كل أمر. وليست كما في الثقافات الأخرى مظهرا كبقية مظاهر الحياة المختلفة المتشعبة (سياسة - اقتصاد - اجتماع - إدارة - قضاء ...الخ).

وهذا يعني أن كافة العلوم والمعارف لابد أن تكون في إطار العقيدة ملتزمة بأركانها وقواعدها غير متجاوزة حدودها (٢).

---

(١) برهان غليون، مرجع سابق ص٤٨.
(٢) د. مصطفى أبو سمك، أضواء على الثقافة الإسلامية، ص١٥.

وارتكاز الثقافة الإسلامية على العقيدة يكفل لها عديداً من المميزات. من أولها وأهمها أنه يجعلها موضع الثقة الكاملة لانبثاقها عن المنهج الإلهي الذي يعطيها مطلق الثقة الكاملة بها، ويعفيها من الوسائل التي يلجأ إليها.

وهنا يكمن الفرق بين المؤمن الذي يحمل في نفسه القوة الدافعة إلى العمل المستقيم والتعاون مع الناس وبين القانون الذي يضعه المجتمع ويفرضه بقوة الحراسة، فالقانون لا يستطيع أن يستقل بذاته في أي وقت من الأوقات بل لابد أن يقترن حتى ينفذ ويصان، بثقة الإنسان به – ومرتكز هذه الثقة في حقيقته مرتكز وجداني أخلاقي – لا تنشئه إلا العقيدة الدينية وحدها [1].

فليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة الإيمان با لله أو تدانيه في ضمان استقامة الفرد، ويقظة ضميره ومتانة خلقه، إن العقيدة – تملأ الحياة بالخير، والحق، والصدق، والاستقامة، والحياة بغيرها عبث وضياع وفراغ نفسي، وغرق في لجج المتاعب والأزمات، وهذا قول الحق سبحانه في بيان أهمية العقيدة وأثرها البالغ في استقرار الحياة.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى(١٢٣)وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(١٢٤)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا(١٢٥)قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى(١٢٦)﴾ [2].

وحريّ بالاعتبار أن العقيدة – التي قررها الإسلام – ليست موجة عاطفية تهز القلوب وتثير المشاعر فحسب بل هي قوة عقلية ووجدانية وطاقة ضخمة فعالة أنزلت لتعين الإنسان على عمارة الأرض ولتصوغ حياة البشر كلها على ما أراده الله عز وجل، فلم تنزل لتتحول إلى بطون الكتب وليتلاعب بها أهل الجدل والخلاف، ويوم كانت كذلك عند الصدر الأول صاروا سادة الدنيا وقادة العالم ورواد البشرية وتحقق فيهم قول الله جل وعلا ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ

---

(١) د. محمد البهي، الإسلام في الواقع الأيدولوجي المعاصر، مكتبة وهبه، ط٢ سنة ١٩٨٣م ص٣٧٢.
(٢) سورة طه: آيات ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ ... ﴾ (١).

وعلى هذا وانطلاقا من تلك الدعوة السامية التي تطلقها عقيدة الإسلام – لتثقيف الإنسان فلا يكون هناك في الثقافة الإسلامية مجال لنظرية إلحادية أو وجودية ولا لفكرة رأسمالية أو ماركسية ... الخ.

(٢) اختلاف مصادر التلقي:

هو الفرق الثاني بين الثقافة الإسلامية وغيرها من الثقافات؛ فالثقافة الأوربية المعاصرة لا تعترف بغير الحواس وسيلة إلى المعرفة أما الثقافة الإسلامية فإنها تعتمد الوحي – وسيلة معرفية ذات أهمية قصوى في تركيبها، فالقرآن الكريم هو شعلة الثقافة الإسلامية، التي اهتدت بها مدارس الماضي، كما تهتدي بها مدارس الحاضر وستهتدي به مدارس المستقبل. فهو أصل الثقافة الإسلامية فما ثبت من حديث نبوي، وما قام من إجماع، وما أسس من مذاهب، من أصل واحد هو القرآن الكريم، الذي جمع فأوعى، شمل بين دفتيه شؤون الإنسان عبادة، وعملا، وإدارة، وسياسة، وتحدث عن الحقوق والواجبات.

فهو بهذا أصل الثقافة الإسلامية في اتجاهاتها السياسية والإدارية، وأما ما ثبت من أحاديث نبوية أو إجماع، فهو تفسير لما جاء به القرآن الكريم – كما أن المؤلفات التي وضعت في المذاهب الإسلامية، والبحوث الدقيقة العميقة المستفيضة هي بلا شك ثروة ثقافية لها شأنها في بناء الفكر الإسلامي.

أما الثقافة الغربية: فنتيجة لإنكارها كل وسيلة معرفية غير الحواس فقد أنكرت كل وجود غير حسي (كوجود الله – والملائكة – والروح – والشيطان...الخ).

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي (٢):

(ما كان لزعماء الفكر الأوربي ليؤمنوا بحقيقة غيبية وراء المحسوسات ولا كان من الممكن أن تكون وسيلة إلى معرفة الحقائق الغيبية وإدراكها حق الإدراك إلا الوحي(وكانوا من الجاحدين له) ومن هنا كان عصر المادية هو عصر الإلحاد في أوربا.

---

(١) سورة النور: آية ٥٥.

(٢) أبو الأعلى المودودي، واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، دار الفكر لبنان، ط٣ سنة ١٩٦٨م، ص١٦٣.

كما أن زعماء المدرسة التوفيقية من مسلمي أوربا:

الذين أرادوا تطويع الدين للمذهب الحسي، وللمذهب المادي - اضطروا لإنكار الحقائق الدينية الكبرى - مثل السيد أحمد خان - الهندي - حين أراد إسباغ العقلانية المتطرفة على الدين فأنكر المعجزات ووجود الملائكة والجن ومولد عيسى من غير أب ... الخ. بل مضى إلى أبعد من هذا حين قرر أن الوحي هلوسات مرض عقلي(١) .

بهذا: فإن المبدأ الأساسي المسيطر في الثقافة الأوربية هو الإلحاد الناتج عن المنهب المادي والحسي - وإن أي محاولة لنفي المذهب الإلحادي عن الثقافة الأوربية إنما هي محاولة تزييف ساذجة.

ووجود بقايا للديانة النصرانية أو اليهودية أو وجود أفراد من المسلمين في أوربا وأمريكا، كل هذا لا يمكن أن ينفي، أن الخاصية الإلحادية هي المسيطرة على الثقافة الأوربية المعاصرة، وهاهي كلماتهم تصرخ بالنكبة القادمة التي لحقت بمجتمعاتهم من جراء الثقافات السائدة عندهم (٢) .

- وإذا كانت الثقافة الأوربية قد فشلت في إسعاد أهلها فكيف يرتجي منها أن تنقذنا من الفناء؟

وكيف تنقذنا من الفناء والأوربيون أنفسهم مشرفون عليه بسببها ؟!!

---

(١) د. أحمد عبد الرحمن، نقد الثقافة الإلحادية، دار هجر للطباعة والنشر .

(٢) أ - جون ستيوارت مل (١٨٠٦-١٨٧٣) الفيلسوف الإنجليزي المشهور، يرى أن أحد العيوب الأساسية في الفلسفات الأوربية الحديثة (عجزها عن النظر إلى الحياة الإنسانية نظرة شاملة - إنها كانت مصيبة فيما أثبتت مخطئة في ما أنكرت).

ب- أما بيتريم سوركين عالم الاجتماع الأمريكي (١٨٨٩-١٩٦٨). فيقول: (إن كل جانب من حياة المجتمع الغربي ونظامه وثقافته، إنما هو في أزمة طاحنة، إن جسد المجتمع الأوربي مريض وعقله ولا تكاد توجد نقطة صغيرة واحدة على جسده إلا ويعتورها الألم، ولقد اضطرب جهازه العصبي بجميع أليافه العصبية فلم يعد قادرا على أداء عمله على النحو السديد).

ج- أما نورث ثروب عالم الاجتماع فيقول: (إن عالمنا هذا عالم متناقض. فالمنجزات التي تمثل أمجاده هي التي تهدده بالدمار ويبدو أننا كلما تقدمنا في الحضارة. كلما فقدنا القدرة على الحفاظ عليها).

د- أما رينيه روبو / الحاصل على جائزة نوبل في العلوم لعام ١٩٧٦م فينادي بثورة فكرية وشعورية يكون هدفها إنشاء معتقدات إيجابية جديدة وأخلاق اجتماعية جديدة ودين جديد. ولذلك فإن من أهم الواجبات الملقاة على عاتقهم الأمريكيين والأوربيين هو البحث عن معنى لحياتهم أي الإيمان بهدف كبير بدلا من هذه العزلة والقلق والغربة النفسية التي تحيا فيها مجتمعاتنا .

د. أحمد عبد الرحمن، نقد الثقافة الإلحادية، دار هجر للطباعة والنشر ص١٢، ١٣.

(٣) اختلاف مفهوم الأخلاق: بين الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى

تصطدم الثقافة الإسلامية بالثقافة الأوربية صداما شاملا (١).

فبينما تتبنى الثقافة الإسلامية: نظاما أخلاقيا دينيا ثابتا قوامه الإيمان بثواب الله الأخروي، وجوهره الإيثار المتمثل في تقديم حظ الآخرين على حظ النفس بدرجة أو بأخرى، طلبا للفوز بالسعادة الأخروية.

وهذا هو النبي الأعظم والرسول الأكرم محمد (يحدد مهمته وجوهر رسالته بجوامع كلمه ﷺ : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وتذخر الأحاديث النبوية الشريفة بعدد هائل من التوجيهات نحو الأمانة، والوفاء، والعدل، والرحمة، والبر، والإحسان، وصيانة العهد - والتحذير من الرذائل كالغدر، والخداع، والظلم، والاعتداء، والغش، ولا يقف الأمر عند مجرد النصح والتوجيه، بل يتجاوز ذلك إلى التنفيذ والالتزام في التشريع والأحكام لتكون المسئولية الفردية والجماعية أساس الحماية والتطبيق لهذا الجانب الأخلاقي في حياة الأفراد والجماعات.

وقد ذخر التاريخ الإسلامي بوقائع لا تحصى من وفاء المسلمين بعهودهم التزاما بالمنهج الأخلاقي الذي حملته آيات القرآن ونقلته أحاديث السنة - وفي هذه الأمثلة

---

(١) وإن كانت ينبغي على المسلم الواعي أن لا يغض من شأن الفكر الغربي ولا يحتقره ولا يصرف وجهه عنه. فهو لا يعدو أن يكون فكرا إنسانيا في الأساس وإن انحرف في بعض مفاهيمه ولا يقفل المسلمون أبوابهم أمام الثقافات العالمية شرقية أو غربية لأنهم شاركوا في صنعها، وكان لهم دورهم الكبير في بناء هذه الحضارة، الدور الذي لم ينكره المنصفون من كتاب الغرب ومفكريه، لكن لابد قبل أن تفتح الأبواب لهذه الثقافات أن تكون على قدر من متانة الاستعداد النفسي والذهني والروحي بحيث لا تجرفنا ثقافات الأمم ولا تحولنا وجهة غير طريقنا، فلقد نقلت أوربا ثقافتنا العربية الإسلامية وأقامت عليها أسس حضارتها ومع ذلك لم يتحول وجهها عربيا أو إسلاميا أو شرقيا كذلك نحن أمة لها مقوماتها وكيانها ووجهها ذو الملامح الواضحة، فلابد أن يبقى هذا الأساس ثم لنأخذ ما نشاء من حضارات الأمم وثقافاتها، وما يزيد شخصيتنا قوة، وحياة، ويدفعنا إلى الأمام، في ركب الحضارة، لا مناحة أن الغرب قدم في مجال العلوم والأبحاث معطيات كثيرة، مكنت البشرية من التقدم نحو التحضر والتمدن - هذه المعطيات يجب ألا تختلط على المسلمين، وعليهم أن يأخذوا منها، ويتركوا، ويأخذوا ما يتصل بالماديات والآلات والتكنولوجيا ليصفوه، في إطار فكرهم الاجتماعي ونظرتهم الإنسانية، أما فيما يتعلق بالنظريات الخاصة بالنفسي والاجتماعي والأخلاقي والتربية، فينبغي أن يكونوا على حذر شديد، لأن للمسلمين منهجهم الرباني المحكم وأبرز مميزاته معالجة آفات النفوس والمجتمعات، علاجا واقعيا يستمد نظرته من حكمة عالية، فهو واسع الأفق له أبعاده العامة وإطاراته المرنة، فيه الرحمة والإيجابية، والسلامة، قريب إلى الفطرة مستمد منها لا تتعارض مع العلم أو العقل .

نقلا عن: أنور الجندي: التغريب أخطر التحديات في وجه الإسلام - دار الاعتصام ص١٣، ٢٤.

الجندي / روح الغرب سلسلة الإسلام دار الاعتصام ص٢٣.

دلالة على أن المسـلمين كانوا هـم أول من وضع هـذه القاعدة الأخلاقيـة الرفيعـة موضع التطبيق.

ولعل أبلغ الأمثلة على ذلك الحرص والالتزام والاستجابة لذلك المبدأ أسسـت عليه شريعة الإسلام وهو الوفاء بالعهد. ما أورده بن إسحاق في ذكر ما جرى عليه أمر قوم من المستضعفين بعد صلح الحديبية يقول: فلما قدم ﷺ المدينة أتاه أبو بصير عتبة ابن أسيد بن حارثة – وكان ممن حبس بمكة – فلما قدم على النبي ﷺ، كتب فيه أزهد بن عبد عوف والأخنس ابن شريف الثقفي إلى رسول ا لله ﷺ، بعثا رجلا من بني عامر بن لؤي، ومعـه مولى لهم، فقدما على رسـول ا لله ﷺ، فقال ﷺ: «يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا، ومخرجا، فانطلق إلى قومك » قال أبـو بصير: يا رسـول الله أتردني إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟ قال ﷺ: « يا أبا بصير انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا »[1].

– وكذلك ما جاء من أن سـهيل بن عمرو كان يفـاوض النبي ﷺ، فبينا رسول الله ﷺ يكتـب الكتاب، إذ جـاءه أبـو جندل بن سـهيل بـن عمرو وقد انفلت إلى رسول الله ... فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه ثم قال يا محمد قد لجت القضية بيـني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال صدقت: فقـام إليه فأخذ بتلابيبه، قـال وصرخ أبو جندل بأعلى صوتـه، يا معشـر المسـلمين، أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنونني في ديني، قال فـزاد الناس شـرا على ما بهـم، فقال رسـول ا لله ﷺ «يا أبا جندل اصـبر واحتسـب فـإن الله عز وجل جـاعل لك ولـمن معك من المسـتضعفين فرجا ومخرجـا، إنا قد عقدنـا بيننا وين القوم صلحـا فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهدا وإنا لن نغدر بهم » [2].

أما إذا انتقلنا من جانب الثقافة الإسلامية إلى الثقافة الأوربية.

فإننا نجدها على النقيض من ذلك تمامـا. ذلك لأن إنكارهم للآخرة يوجه ضربة

(١) أبي محمد عبد الله بـن هشام، السـيرة النبويـة، تحقيق مصطفى عبد الواحـد، عيسـى الحلـبي سنة ١٩٨٥م، ص٣٣٤، ٣٣٥.

(٢) الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، المسند، المطبعة الميمنية، أحمد البابي الحلبي سنة ١٣١٣هـ ج٤ ص ٣٢٥.

قاضية إلى الأخلاق إذ يصور لهم أن الإخفاق في هذه الحياة إخفاق إلى الأبد، لأنه لا أبد بعد هذه الحياة، لهذا أصبحت النتائج المادية هي المعيار الحقيقي لتقويم الأشياء، وجعلت كل شيء غير ممكن وزنه أو قياسه وهماً لا حقيقة، والوسيلة لبلوغ السعادة الحسية هي المال - الذي أصبح إلهاً جديدا في الغرب يعبد من دون الله !! (والعياذ بالله).

وإن مثالا واحدا تقدمه هنا عقب ما أسلفنا من أمثلة لوفاء المسلمين بعهودهم، يحق لنا أن نتساءل بعده أين هذه الصورة النقية الصافية مما فعله قواد الغرب وقادة حضارته.

المثال: (ما فعله ريتشارد قلب الأسد - الذي أمن حامية بيت المقدس من المسلمين على أنفسهم وعاهدهم على أن يفي لهم بعهده شرط أن يفتحوا الأبواب ويسلموا أنفسهم ولما فعلوا ذلك قتلهم جميعا - ثم أباح المدينة لجيوشه فبلغ عدة من ذبحه الصليبيون من العجزة والنساء والأطفال «سبعين ألفا»).

- لكن صلاح الدين الأيوبي: -

وقد أشربت نفسه تعاليم الإسلام لما استعاد بيت المقدس من أيدي الصليبيين بعد ٩٠ عاما، من مجزرة الغدر، والخيانة، ونقض العهد - لم يعاملهم بالمثل - إذ أنه لما سلمت الحامية المسيحية - أمَّنهم على حياتهم وكانوا أكثر من مائة ألف، وسمح لهم بالخروج، لقاء مبلغ قليل يدفعه المقتدرون منهم، وأعطاهم مهلة للخروج، أربعين يوما، وأطلق كثير من فقرائهم بغير فدية - وأدى أخوه الملك العادل الفدية عن ألفي رجل منهم - وأبى أن يقابل صنيع ريتشارد بمثله، بل آسى جراحهم وأرسل الأدوية إلى مرضاهم، وأرسل مع الذين أجلاهم من بيت المقدس من يحميهم ويوصلهم إلى الأماكن الصليبية بصور وصيدا[1] .

(٤) مظاهر الإخفاق الثقافي في الحياة الأوربية والأمريكية:

بعد ما تقدم من فروق يأتي هذا الفرق الختامي والذي يحمل أبلغ الأدلة على فساد وتهاوى تلك الثقافات المادية - لأنه يعتمد على الواقع ويستنطق أحداثه

(١) د. مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، المكتب الإسلامي بيروت، ط٢ سنة ١٩٧٧، ص١٠٤.

وذلك.

لأن الثقافة السليمة تنعكس سلامتها على المجتمع الذي تسيطر عليه وتحيا فيه، ويحيا بها، متمثلا في أمنه، واستقراره، وسلامة أفراده، نفسيا، وصحيا، وعقليا - وتحقيقهم السعادة المرجوة التي تسعى كل المجتمعات للوصول إليها، والعكس كذلك فإن أي شعور بالإخفاق في المجتمع أو تصدع في البنيان الاجتماعي، أو النفسي، دليل على عدم صلاحية أو سلامة ثقافته، التي تسيطر عليه، وتوجه حياته، وتفكيره.

وانطلاقا من هذه المسميات: فإن أدنى مراجعة لنماذج من إحصائيات الجريمة والتحلل الخلقي والاجتماعي في المجتمعات الغربية - لتقدم أوضح الأدلة على فساد ورداءة هذه الثقافات المسيطرة على تلك المجتمعات مثل:

أ- ما جاء في مؤتمر جامعة باث ببريطانيا في ٣٠/ ٩/ ١٩٨٠م:

من أن أحد عشر مليونا من الأمريكيين يعانون من الإدمان الحاد والمزمن[١].

ب-ما نشرته جريدة البرافدا لسان حال الحزب الشيوعي بموسكو:

بالتقرير الذي يقول إن إدمان الخمر قد أضحى من أكبر المشكلات التي تواجه الاتحاد السوفيتي ويعاني منها - وإن نسبة تعاطي المسكرات في الاتحاد السوفيتي أعلى من أي نسبة أخرى في العالم كله[٢].

ج- المركز الوطني للبحوث الجنائية الفرنسي[٣] :

يقول ٦٦ ٪ من جرائم الاعتداء على الأشخاص سببها إدمان الخمور وكذلك ٥٦ ٪ من جنايات الإخلال بالآداب - ٨٢ ٪ من جنايات العنف بصفة عامة و ٥٣ ٪ من جرائم القتل - ٧٠ ٪ من جرائم الضرب المبرح، ٥٧ ٪ هتك عرض.

نقول هل بقي بعد هذا مجال لمتحدث ممن ينصحونا باقتباس الثقافة الأوربية

(١) مجلة الأمة القطرية عدد (٣٠) جمادى الآخرة سنة ١٤٠٣ هـ.
(٢) جريدة الرياض السعودية ٢٩/١٢/١٤٠٣ هـ.
(٣) د. أحمد عبد الرحمن، التدابير الوقائية والإجرائية في التشريع الإسلامي، ص٤٥٩.

بخيرها وشرها - بل إننا نطرح عليهم هذا السؤال -

مـا قولكم في تحريـم الإسلام للخمر قليلـه وكثيره ؟ بعـد أن رأيتم هذه الجرائم البشعة في أكثر بلادكم تحررا. أتنصحونـا بإغفـال هذا التحريم أيضـا ؟ هداكم الله.

وفي النهاية:

فإنني سأكتفي بهذا القدر - منعا للاستطراد - لكنني أحببت أن يكتمل هذا الموضوع ببيان بعض اللمحات من الثقافة الأوربية، ونتائجها التطبيقية الحياتية، حتى يستحي أولئك الذين لا يملون الدعوة إلى استيراد هذه الثقافة الأوربية، بخيرها وشرها واستبدال آدابها بآدابنا، وقيمها بقيمنا بحيث نحيا حياة أوربية كاملة، وهم غاضبون علينا أشد الغضب لأننا نحاول أن نقتبس الحضارة دون الثقافة، أو العلم دون الفكر [أو متطلبات الجسد دون الروح].

يقول: ضياء كوك ألب (١٨٧٥-١٩٢٤) (علينا أن نختار إحدى الطريقتين إما أن نقبل الحضارة الغربية وإما أن نظل مستعبدين لقوى الغرب - وقد قرر هو اتخاذ الثقافة الغربية لبلاده تركيا)[١].

وأيضا ها هو د. طه حسين يقول: داعيا إلى أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا أو شركاء في الحضارة خيرها وشرها حلوها ومرها ما يحمد منها وما يعاب.

ثم يقول مهددا: فويل لنا إن لم ننتهز الفرصة ولم ننتفع بهذا التوفيق[٢].

أما د. صالح الشماع: رئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب ببغداد فإنه يقول: إن لم نجتهد في كل زمان ومكان لنوفق بين أسس الإسلام ومتطلبات الحياة الجديدة - فإن مصيرنا سوف يكون في نهاية الأمر شبيها بحضارة هنود أمريكا، بعد أن غزاهم المستعمرون الأوربيون، وانتشر بينهم المبشرون والعياذ با لله من هذه النهاية.

وأخيرا وبعد كل ما تقدم: هل بقى مجال لكاتب أو مفكر (أو من عنده مسحة

(١) أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص٥٠، دار القلم الكويت، سنة ١٤٠٥هـ سنة ١٩٨٥م.

(٢) د. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ص٤٨، مجلد ٩.

من عقل) ممـن ينتسبون إلى الإسـلام ويحاولون أن يجعلوا من أنفسـهم الطليعة المثقفة لهذه الأمـة، نقول: هل بقـى مجـال لواحد منهـم أن يقول: (إن النفعيـة الحسـية أو الإلحادية هي منجاتنا من الفناء).

وإذا كـان هذا حق: فكيف نفسر الدعوة المتناميـة من قِبل فلاسفة أوربا أنفسهم إلى إنشاء ثقافة جديدة ؟

الثقافة ومرادفاتها

الحضارة : (*civilization*)

يعود أصلهـا إلى الجذر اللاتيـني (*civites*) بمعنى مدينـة و(*civts*) بمعنـى سـاكن المدينـة، ومن ثـم فإن المشـتق يحمل كثـيرا من دلالات المشـتق منـه، فالمقصود لهذا المفهوم في جوهره، يدور حول نمط حيـاة المدينة، بما يعكسـه من قيم، وسلوكيات، ونظم، ومؤسسـات[1] . كل مـا ينشـئه الإنسان في كـل ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه، ونواحيه عقلا وخلقا. مادة وروحا، دينا، ودنيا.

أو هي: تصور للحياة الدنيا وغايتها، في نظـام اجتماعي يقود الإنسان إلى الرقي والرخاء والأمان[2] .

المدنية:

هنـاك مـن يرى أنهـا الرقـي في العلوم العلميـة والتجريبيـة كـالطب والهندسـة والكيمياء والزراعة والصناعة والاختراع الآلي[3] .

ويرى بعض الباحثين أن للمدنيـة مدلولا أوسع مـن مدلولها اللغوي – فهي غاية تدرج الأمـم في الوصول إلى وجهها الأعلى، تحت تأثير العلوم والفنون والصنائع. فالإنسان مدني بطبعه أي مفطور على حب التمدن[4] .

---

(١) نصر محمد عارف، الحضارة الثقافة المدنية، ص ٣٤.

(٢) محمد محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، ص١٤، المكتب الإسلامي بيروت ط١ سنة ١٩٧١.

(٣) د. أحمد شلبى، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٢٠.

(٤) محمد فريد وجدى، دائرة معارف القرن العشرين، دار الفكر بيروت، بدون رقم للطبعة ج٨، ص ٥٥٣.

التراث:

لغة ما يخلفه الرجل لورثته - فالورث والميراث في المال والإرث في الحسب - وقد جـــاء في القرآن الكريم بمعنى العلم والفضيلة ﴿**يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ**﴾[1] ، وحديث أبي هريرة ﷺ حينما مر بسوق المدينة فوقف عليها فقال: يا أهل السوق ما أعجزكم قالوا وما ذاك يا أبا هريرة قال ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم هاهنا، ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه، قالوا وأين هو قال في المسجد، فخرجوا سراعا، ووقف أبو هريرة لهم حتى يرجعوا فقال لهم ما لكم، قالوا يا أبا هريرة فقد أتينا المسجد فدخلنا فلم نر فيه شيئا يقسم، فقال لهم أبو هريرة وما رأيتم في المسجد أحدا، قالوا بلى رأينا قوما يصلون، وقوما يقرأون القرآن، وقوما يتذاكرون الحلال والحرام فقال لهم أبو هريرة ويحكم فذاك ميراث محمد ﷺ [2] .

الهوية:

هي حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية التي تميزه عن غيره - فهي كالبصمة - وتطلق على الثابت من الموروث الحضاري[3] .

---

(١) سورة مريم: آية ٦ .

(٢) الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مكتبة القدس القاهرة، بدون رقم للطبعة وبدون تاريخ ج١ ص١٢٣، ١٢٤.

(٣) د. محمد عمارة، بحث في ندوة الهوية والتراث، دار الكلمة للنشر بيروت، ط١ سنة ١٩٨٤م.

الباب الأول

جرجى زيدان سيرة وآثارا

الفصـــل الأول : إطلالة على العصر
الفصـــل الثانى : التعريف بجرجى زيدان
الفصـــل الثالث : التعريف بكتابات جرجى زيدان
الفصـــل الرابـع : جرجـى زيـدان فى كتابـــات القدامـى والمعاصرين وصلاته بالمستشرقين

الفصل الأول

إطلالة على العصر

توطئة وبيان

إن المتأمل في حياة العرب منذ ظهور الدعوة الإسلامية وعبر عصور الدولة الإسلامية المتعاقبة، سوف يلمس بوضوح كيف تطورت تلك الحياة وتقلبت بتقلب الحوادث، ففي عهد الخلفاء الراشدين. خرج العرب من جزيرتهم فاتحين فمدوا سلطانهم شرقاً وغرباً وما زالوا حتى انقضى ذلك العهد، وإذا هم بقيادة الأمويين: أصحاب ملك ضخم قاعدته الشام قد بلغوا أوج عظمتهم وقوتهم السياسية. فكانوا أصحاب السيادة في مملكة واسعة الأرجاء تمتد من حدود الهند شرقاً إلى الأندلس غرباً، ومنذ ذلك الحين أخذت لغتهم العربية تتغلب على سائر اللغات الأعجمية في البلدان المفتوحة – و لم تلبث أن أصبحت لغة الدواوين الحكومية في العالم الإسلامي – وهكذا تهيأت خطوة أخرى في سبيل التقدم والعمران.

فلما تحول ذلك الملك إلى العباسيين: كانت العربية قد أخذت تتوطد في مختلف الأقاليم و لم يمض إلا قليل حتى نقلت إليها علوم الآخرين، فأصبحت بفضل أهل الفكر والبحث من عرب ومستعربين، لغة العلم الرئيسية في العصور الوسطى.

ولكن الزمان لم يثبت على ولائه للعرب، فلم تكد تستقر الخلافة الإسلامية، حتى بدأت السيادة العربية تتقلص رويداً رويداً، وبمرور الوقت حلت في العالم الإسلامي عناصر أخرى فارسية، وتركية وسواها، و لم يبق أثر لسيادة العرب إلا للغتهم، التي ظلت زمناً طويلاً – رغم تغلب العناصر الأعجمية من الناحية السياسية والحربية – محافظة على مكانتها ونفوذها، إلا أنها لم تلبث أن خضعت لمؤامرات ومؤثرات الزمن، فأخذت تفقد مجدها تدريجياً، وما زالت حتى استبدت بها عوامل الضعف، فهوت فاقدة ما كان لها من نشاط لغوي وأدبي وعلمي. وعلى هذا الحال أدركها – من أطلق عليهم – رواد النهضة في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، ومعلوم أن القطر الشامي (سوريا ولبنان) هو منشأ أكثر الرواد في ذلك العهد وإن نشأ بعضهم في القطر المصري، والفرق بينهما، أن مصر منذ أن توطد فيها حكم محمد علي؛ أخذ يُكَوِّنُ لها شخصية مستقلة عن الدولة العثمانية، لتحقيق

طموحاته، فأخذ يسعى في إعداد الرجال ذوي الكفاءة العالية للقيام بمهام حكومته فأسس المعاهد اللازمة لذلك. وأرسل البعثات إلى أوربا لدراسة العلوم المختلفة وهكذا حدثت نهضة علمية تذكر له (وإن كانت على حساب دينه وأمته وعقيدتها وشريعتها).

على أننا إذا قابلنا هذه النهضة المصرية بالنهضة الشامية إبان القرن الماضي، أمكن القول أن النهضة المصرية كانت حكومية وللحكومة، فلما توفي محمد علي، حدث ركود للحركة العلمية بمصر واستمر هذا الركود حتى عهد الخديوي إسماعيل (١٨٦٣/ ١٨٧٩) في حين أن الحركة العلمية في القطر الشامي (ومركزها بيروت) ظلت سائرة دون توقف (لعل السبب في ذلك، أنها كانت ترعاها المدارس التبشيرية والدول الاستعمارية) فاستطاعت أن تزود مصر بعدد من أرباب الأقلام والفنون الأدبية في عهد إسماعيل وحتى الحرب العالمية الأولى، فأصبحت مصر بعدها صاحبة الزعامة في البلاد العربية)[١] .

واقع بلاد الشام في القرن الماضي (التاسع عشر)

قبل الحديث عن جرجي زيدان - صاحب مجلة الهلال - وواضع لبنتها الأولى - أسرته ومولده ونشأته .. وأعماله، وآثاره في مجالات التاريخ - اللغة - الصحافة - أجد لزاماً علي أن أقدم لذلك كله، بالحديث عن المجتمع الذي تربى فيه - جرجي - وعلى أرضه وجد آباؤه، وقضى طفولته وتقلب في أحضانه وتربى في ظل قيمه، وسلوكياته وتقاليده وعاداته، حديثاً يميط اللثام عن الأوضاع السياسية والإجتماعية والعلمية لحركة التأليف والنشر وغيرها.

أولا: الواقع السياسي:

كانت بلاد الشام[*] (في القرن التاسع عشر جزءاً من السلطنة العثمانية - كما كانت مصر والعراق والحجاز وسواها من الأقطار العربية، ولكن دولة الخلافة على

(١) أنيس المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة الأدبية الحديثة، دار الكتاب العربي، بدون رقم للطبعة وبدون تاريخ.

(*) كان مصطلح الشام في هذه الفترة يطلق على كل من (لبنان - سوريا - فلسطين - الأردن).

قوتها يومئذ لم تجار الزمن وعوامل الارتقاء، فبينما أخذ الغرب يسير في طريق التقدم المادي والفكري، محاولاً الانتفاع من التجارب العلمية والفنية المستحدثة، نرى تركيا قد توقفت مكتفيَةً بما أحرزته من توسع، بعيدة عن تيار الحضارة المندفع إلى الأمام وهكذا تسربت إليها عوامل الضعف.

ولم يبزغ فجر القرن التاسع عشر: حتى كانت قد أصبحت واهية القوى يسودها الاضطراب ويهددها الانحلال، فلا غرابة أن يطمع فيها الطامعون، وأن تتقد في أطرافها نيران الفتن والثورات الاستقلالية، وهذا ما حدث بالفعل في ممتلكاتها الأوربية، مما أفقدها اليونان، وبلغاريا، ورومانيا، والمغرب، وسواها من البلدان، وإذا هي خلال النصف الأول من القرن الماضي أشبه بطائر قص أحد جناحيه (إلا أقله) الجناح الأوربي ولم يبق له إلا جناح واحد يستطيع الاعتماد عليه، وهو الأقاليم الآسيوية وبعض الأقاليم الإفريقية، حتى الأقطار العربية لم تكن تحكم من قبل الدولة العثمانية حكماً حازماً منظماً، إذ طغت عليها إقطاعية مستبدة، وسادها فساد إداري مرهق، وَيصْدُق ذلك بنوع خاص، على كل من سوريا ولبنان، فقد بلغ العبث بهما أن كان السلطان العثماني يطلقهما في أيدي الإقطاعيين فيحكمون رعاياهم حكماً مطلقاً.

وكانت البلاد على هذا النحو يوم دخلها الجيش المصري سنة ١٨٣٠م بقيادة إبراهيم باشا بن محمد علي، وأصبحت البلاد تخضع للحكم المصري مباشرة، وتحالف إبراهيم باشا مع الأمير بشير حاكم لبنان، ولكن السكان أعلنوا الحرب على هذا التحالف، ولم ينته الحكم المصري إلا عقب تدخل الدول الأوربية، وفرض إرادتها على الباب العالي، وانتهى الأمر بعقد معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م، وخروج إبراهيم باشا وانتهاء حكمه بلبنان وتقلص نفوذ محمد علي، وبداية التدخل المباشر للدول الأجنبية في شؤون لبنان، لاسيما **فرنسا** التي وجدت في الطائفة المارونية ذريعة للتدخل، و**إنجلترا** التي تذرعت أولاً بحماية تجارتها ثم استطاعت بسياستها أن تكتسب صداقة الدروز، كما أن احتدام الصراع بين الموارنة والدروز أدى إلى طلب بعض المسيحيين حماية الدول الأجنبية.

وتدخل السلطان العثماني سنة ١٨٤١م ونزل الجيش العثماني إلى لبنان ليحول بين اتساع الفتنة بين الطوائف، وألغيت الامتيازات[1] الأجنبية أو الطائفية – وتقرر تنصيب والي عثماني على جميع لبنان، وكان لذلك أصداؤه المتفاوتة، فبينما رحب الدروز بالوضع الإداري الجديد – رفض النصارى الاعتراف به، واحتجت الدول الأوربية على ذلك، وحدثت مشاورات بين الباب العالي وقناصل الدول الأوربية بشأن مستقبل الحكم في لبنان – وكانت هوة الخلاف قد اتسعت بين الدروز والموارنة إلى حد الثورة، التي قادها الدروز ١٨٤٢م وراحوا يقطعون الطريق بين بيروت ودمشق، ويحتلون الهضاب المحيطة بقصر الحاكم ويحيطون به من كل اتجاه، وبعد محاصرة من جانب أسعد باشا وعمر باشا للثورة اضطر الدروز للاستسلام في ٧/ ١٢ / ١٨٤٢م، وأقيل عمر باشا، في نفس التوقيت تم التوصل إلى مشروع جديد لحكم لبنان (نظام القائمقامية) والذي حول لبنان إلى قائمقامين: **مارونية** في الشمال، مركزها بكفيا **ودرزية** في الجنوب، مركزها بيت الدين، يفصل بينهما طريق بيروت دمشق – وكان المفترض في هذا التقسيم اعتبار الأول آهل بالنصارى، والثاني بالدروز، غير أن هذا لم يكن مطابقاً لواقع الحال – فلم يحل مشكلة النزاع بل كرس الطائفية في البلاد، ويسر للدول الأوربية عملية التدخل في القضية اللبنانية عن طريق سفرائها في الأستانة وقناصلها ببيروت، مما أدى إلى توتر العلاقات بين الدروز والنصارى من جديد، حتى كانت مذبحة الستين – أو الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٨٦٠م (*).

(١) الامتيازات الأجنبية: تعني السيادة القضائية والتشريعية لقوانين الدول الأجنبية – في دولة الخلافة بالنسبة لرعايا هذه الدول.

(*) وبدأت بسيطة بشجار بين مواطنين من الطائفتين – جرى على إثره تراشق بالأسلحة أصيب خلاله عدد من أبناء الطرفين وتهيأ كل طرف إلى التربص بالآخر. وسارع النصارى إلى النزوح من المناطق الدرزية في حين بادر الدروز إلى ملاحقتهم، مما دفع بالنصارى إلى الخروج لمناصرة إخوانهم، فجرى اشتباك بين الجانبين في أواخر مايو ١٨٦٠م تراجع خلاله النصارى وتابع الدروز زحفهم نحو المتن وأشعلوا النار في قرى النصارى واحتجت القناصل الأوربية، وطالبوا خورشيد باشا بالتدخل لوقف القتال – غير أن الحرب لم تهدأ، وتقدم الدروز فهاجموا منطقة دير القمر التي استسلمت لهم في ٢ يونيو عام ١٨٦٠م و لم يغادروها إلا بعد حرق العديد من منازلها..، و لم يكن القناصل الأوربيون خلال هذه المعارك بمبعد عن تلك الأحداث وتطورها، إذا=

والتي تؤكد بعد دراستها وتأملها أن الأيدي الأجنبية لعبت دوراً بارزاً في إشعال نار الفتنة الطائفية، حيث عمل الفرنسيون على احتضان قضية الموارنة، القائمة على وجوب التخلص من الدروز، فبثوا الفرقة بين سكان الجبل، وتبنوا مواقف الموارنة الذين أصبحوا يجاهرون بولاء فرنسا، مما دفع بالعثمانيين إلى احتضان الدروز، فتفاقم الخلاف بين الطائفتين واتسعت الهوة بينهما فاستفاد من ذلك الأتراك وعملوا من خلالها على استعادة سلطتهم، التي طالما شكا الناس من ضياعها وانتقالها إلى يد الإفرنج.

أما الإنجليز فقد رأوا أن مصلحتهم تعتمد على مساندة الدروز بعد أن وضح لهم مساندة الفرنسيين للموارنة وذلك لإقامة نوع من التوازن بين الدولتين، حتى لا ينفرد الفرنسيون بالعمل في لبنان[1] .

ثانيا: الواقع الإجتماعي:

والحقيقة أنه لا يمكن فصل الحالة السياسية عن الحالة الإجتماعية في هذا العصر، فبينهما اتصال شديد وتشابك فوري أو هما وجهان لعملة واحدة، والذي يهمنا في هذا مقامنا هذا هو الناحية المعنوية من الواقع الاجتماعي ويتمثل فيما يلي:-

أ- المعتقدات العامة. ب- والحياة العائلية. ج- والعلاقات الطائفية.

أولا:- المعتقدات العامة:

كان صدر القرن التاسع عشر - من حيث نظر الناس إلى الحياة الطبيعية وما ورائها، امتدادا للقرون الوسطى المظلمة - حيث شاعت فيه الخرافات والأباطيل والتقاليد الغربية - ولا غرابة في هذا مع استحكام الأمية، فهي جو ملائم كل

=كان كل منهم ينظر إليها بمنظار مصلحة بلاده، ولذا اتجهوا باتهاماتهم إلى هذا الطرف أو ذاك وعقدوا الاجتماعات مع الوالي خورشيد باشا للبحث في وقف القتال، وانتهى الأمر بأن دعا خورشيد باشا زعماء النصارى والدروز إلى الاجتماع به في بيروت، حيث عرض عليهم مقترحاته لإقرار السلام في لبنان، وعقدوا ميثاقاً عزوا فيه أسباب الاضطراب إلى التراخي في تنفيذ الأوامر وتقسيم البلاد إلى قائمقامين. ولذا طالب المجتمعون بإلغاء التقسيم وإعادة الحكم المباشر.

(1) د. عباس الخصوصي، القضية اللبنانية في تاريخها الحديث والمعاصر، مطابع سجل العرب، ط1 سنة ١٩٨٧م، ص٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨ .

الملائمة لانتشار المعتقدات التي لا يقرها العقل المستنير بنور المعرفة.

وشغلت قضية الخرافات أقلام الكتاب وشاعت المناظرات بسببها على صفحات المجلات - فهذه بعض الرسائل الواردة إلى مجلة الهلال في عامها السادس سنة ١٨٩٨م تشكو من شيوع الخرافات وأنها لم تقتصر على الرعاع ولكنها منتشرة بين الأمراء والأعيان وأهل الشرف. الأمر الذي من شأنه أن يجعل الرعاع يعتقدون فيه - كذلك حدثت بعض المناظرات بين المقتطف وجريدة البشير في بيروت حول السحر وحقيقته، وغير ذلك.

وهكذا كان القرن الماضي على العموم ذا عقلية تميل إلى الاعتقاد في الخوارق والخرافات وما شاكلها - فإذا انتقلنا إلى مظهر آخر من مظاهر الحياة الاجتماعية.

ثانيا:- الحياة العائلية (علاقة الأبناء بالآباء):

يذهب المؤرخون لبلاد الشام في هذه الفترة إلى أن الإقطاعية كانت تلقي بظلالها على الحياة الاجتماعية ببلاد الشام في القرن (التاسع عشر)، فالوالد سيد البيت، طاعته واجبة على الجميع، فهو بمثابة شيخ عشيرة يتصرف في شؤونها كما يراه مناسباً للتقاليد المحيطة - فيزوج ابنته لمن يشاء من الخطاب، وعليها أن تقبله دون مناقشة (*) منها بل ربما لم تره حتى ليلة بنائه بها - وكذلك يخط لابنه سبيل العمل، وعليه السير في سبيله - لكن الإقطاعية العائلية على قوتها في بعض الأنحاء، أخذت تنهار رويداً رويداً بتقدم الحضارة فأصبحت الأسرة اليوم، هيأة قائمة على تبادل الآراء والولاء والاحترام والتعاون يديرها الوالدان بروح العطف والمحبة والتوجيه القويم، حتى إذا بلغ الأولاد سن الرشد عرفوا ما لهم وما عليهم وأدركوا معنى المسئوليات الإجتماعية والعائلية الملقاة على عاتقهم.

الباحث: وإن كنت أرى أن الروح الإقطاعية في العلاقات العائلية مخالفة لتعاليم الإسلام، فالأصل أن العلاقة قائمة على الحب والتقدير المتبادل والقوامة والرعاية

(*) ولا يخفى على القارئ: رفض الثقافة الإسلامية وتشريعات الإسلام في باب الأحوال الشخصية لهذا السلوك، فهذا القرار المصيري في حياة المرأة، لا ينفرد به الأب، ويستدل بهذا لحديث أبي هريرة بلفظ البخاري عن رسول الله ﷺ «لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن»، قالوا يارسول الله وكيف إذنها ؟ قال: «أن تسكت» ، ويتضح من هذا أن تسلط الآباء في هذا الموضوع تقليد اجتماعي خاطئ يتنافى مع تعاليم الإسلام.

والتربية بالإقناع وسيادة مبدأ الشورى في الحياة الأسرية والعائلية.

ثالثاً:- العلاقات الطائفية:

تضرب الطائفية بجذورها في أعماق التاريخ اللبناني على وجه الخصوص.

حيث كانت لبنان في العصور السابقة على التاريخ المسيحي بلداً فينيقياً[1] وظلت كذلك لفترات طويلة - وسكن الفينيقيون منطقة الساحل في عدد من المدن المتناثرة - كل مدينة تؤلف دويلة مستقلة، تنشر سلطاتها على المدن والقرى القريبة منها، وكانت تلك المدن تنافس بعضها البعض بسبب محاولة كل منها نشر نفوذ الإله الذي تعبده على المدن الأخرى.

وانتقل لبنان إلى عبادة أخرى - غير عبادة الأوثان - انتشرت فيه من أرض فلسطين وهي العبرانية[2] - وقد حافظ العبرانيين على عنصريتهم وتكتلهم الطائفي وعدائهم لباقي السكان مما جعلهم يلاقون الاضطهاد من جانب المواطنين الوثنيين، إلا أن هذا العداء اليهودي - الوثني بلبنان توقف نوعاً ما في القرن الميلادي الأول إثر انتشار الديانة المسيحية في البلاد، ثم دخل الإسلام لبنان على فترات متعددة

---

(١) الفينيقيون: شعب سام استوطن لبنان (القرن ٢٨ ق.م) وامتزج بشعوب ما قبل التاريخ. انتشروا على الساحل المتوسط بين أوغاريت وجبل الكرمل، وأنشأوا مدناً دولاً أهمها جبل وصور وصيدا وبيروتوأرواد، تعاقب على بلادهم المصريون، ثم الفرس، فاليونان ثم الرومان ٦٤ق.م كانت ديانتهم ذات الصلة بربانة السوم بين الأقدمين، تقوم على تآلفة القوى الطبيعية أهم آلهتهم البعل، والبعلة عشروت وهداد، خلفوا ورائهم آثارا هنسية رائعة كالهياكل والأسوار والقصور والنوارس واليوم) قاموس المتبحر في الأعلام واللغة ص٥٣٩ ط ٥٣٩ دار الشرق بيروت ط٢٧ سنة ١٩٨٤م.

(٢) جاء في دائرة المعارف - لبطرس البستاني - دار المعرفة بيروت - لبنان ج١١ ص٦٦٠ ما يلي:
يمتاز تاريخ العبرانيين عن تواريخ سائر الملل بامتزاج تاريخ الأمة بتاريخ دينها ولغتها فحيثما حلوا أو ارتحلوا، ارتحل معهم دينهم وآداب لغتهم المندمجة بآداب دينهم - ولولا هذا الرباط المتين بين الشعب والدين واللغة لضاعت أصولهم، وفروعهم واندمجت كل فئة منهم بين سكان البلاد التي حلتها.
وعلى هذا: فإن العبرانية، أو اليهودية، هي ديانة العبرانيين المنحدرين من إبراهيم عليه السلام والمعروفين بالأسباط من بني إسرائيل الذين أرسل الله إليهم موسى عليه السلام مؤيدا بالتوراة ليكون لهم نبياً، وقد انقسموا وأصبحت هناك توراة للعبرانيين وأخرى للسامرين، وقد علل بعض الباحثين هذه التسمية ما يلي:-
١. علة شخصية أن يكون إبراهيم عليه السلام منسوباً إلى جد من أجداده الأقدمين يعرف باسم عبر .
٢. علة حادثة: لارتباط الاسم بحادثة العبور فالاسم مشتق من الفعل عبر، ومعناه الانتقال من شاطئ إلى شاطئ آخر مقابل له.
٣. علة طبيعية لأن اليهود عرفوا بطبيعتهم البدوية التي حتمت الانتقال من مكان إلى مكان، طلباً للمرعى، وكل هذه العلل واردة وممكنة وليس بمستطاع إلغاء بعضها أو إثباته على وجه القطع والذي يمكن القطع به أن من أسماء اليهود العبريين أو العبرانيين وأن هذه التسمية من أقدم ما عرفوا به/ أحمد ربيع يوسف - كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة - بيت المقدس بين الفتح الإسلامي والواقع المعاصر/ ماجستير ص٢٧ لسنة١٩٨٦م.

بدأت في عهد الأمويين وتوالت بعد ذلك - آخذة في الازدياد. ومع هذا فقد ظل طابع لبنان العام مسيحياً حتى القرن الثالث عشر، و لم يصبح للمسلمين كيان واضح فيه إلا حين غزت الجيوش الصليبية الشرق الأوسط - فأرسل المماليك قواتهم المسلحة لتحاربهم وتحول بينهم وبين الاتصال بمسيحي لبنان الذين كانوا يمدون يد العون لهم، خاصة الموارنة الذين انحازوا إلى صف الصليبيين أثناء الهجوم على سوريا وأثناء إقامتهم فيها[1] .

ثم انتقل لبنان إلى الحكم العثماني وظلت تتحكم فيه طوال هذه الفترة طائفتان هما: طائفة الدروز وطائفة الموارنة - وكانت البلاد لا تهدأ من جرائمهما، فكلما آنست إحدى الطائفتين في نفسها القدرة على الانتقام أو التغلب على الطائفة الأخرى هاجمتها.

أبرز وأهم الطوائف في المجتمع اللبناني:

١- المسلمون السنة[*] :

وهم أتباع السلف الصالح من أئمة الدين وأهل الفقه والحديث ومن أخذ عنهم ويتركز معظمهم في مدينتي بيروت وطرابلس.

٢- الشيعة:

وهم المدعون أنهم من أتباع الإمام علي بن أبي طالب ﷺ وهم من الشيعة الإثنا عشرية - وهي طائفة تلي السنة من حيث العدد ويقيم معظم أبنائها في جنوب لبنان وبعلبك والهرمل، ويقيم فريق منهم في مدينة بيروت، وموقفهم من الكيان اللبناني مع المسلمين السنة، وهم يقولون بإمامة محمد بن الحسن العسكري، وأنه المهدي المنتظر - وبالنسبة للوقت الحاضر فليس للشيعة أحزاب سياسية إلا أن بعضهم ينتظم في أحزاب الطوائف الأخرى - وينتظم عدد كبير منهم في حزب الكتائب الماروني.

---

(١) د/ حمدي الطاهري سياسة الحكم في لبنان - المطبعة العالمية ط٢ ص٤٦ سنة ١٩٧٦م.

(*) يقصد به المسلمون المعتصمون بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ بفهم سلف الأمة.

٣- الدروز:

وهم غلاة الشيعة الإسماعيلية الذين ألهوا الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله - ويعتبر محمد بن إسماعيل الدرزي هو الداعية الأول، وهم من الطوائف الباطنية والمذاهب السرية، وظلت عقائدها مجهولة حتى من أبناء الطائفة أنفسهم - فالعلم بدين الطائفة وطريقة التعبد يعتبر قصراً على فئة معينة يطلق على كل منهم اسم الشيخ العقل) ويشترط أن لا يقل عمره عن أربعين عاماً. وقد صنف الدرزي كتاباً ذكر فيه أن روح آدم انتقلت إلى علي بن أبي طالب ومنه إلى الأسلاف الذين أعقبوا الحاكم - وعندما قرئ هذا الكتاب بالجامع الأزهر بالقاهرة هجم الناس على مؤلفه ليقتلوه ففر منهم بعد قتل الكثيرين من أصحابه. فخرج إلى الشام ونشر دعوته بوادي تيم الله بن ثعلبة - غربي دمشق - وعرف أنصاره بالدروز ولكنهم يفضلون أن يدعون بالموحدين(١) .

وينقسم الدروز إلى طائفتين:

١) طائفة الروحانيين ٢) طائفة الجسمانيين.

١) طائفة الروحانيين: (العقال)، وتتكون من العقلاء والرؤساء والأجاويد فالرؤساء: هم الذين بيدهم مفاتيح جميع أسرار الدرزية - والعقلاء: بيدهم أسرار التنظيم الداخلي للمذهب، والأجاويد بيدهم مفاتيح الأسرار الخارجية (أو علاقة مذهبهم بالمذاهب الأخرى).

٢) طائفة الجسمانيين: (الجهال)، وتتكون من الأمراء وبيدهم شؤون الحرب والزعامة - (والعامة: لا يعرفون عن أصول مذهبهم إلا اسمه) - ولا يسمح للجسمانيين بالانتظام في صفوف الروحانيين إلا بعد اختبار طويل يظهر فيه الشخص استعداده لتلقي أصول المذهب الدرزي(٢) .

ويذكر بعض الباحثين أن قوة الدروز تتركز في محافظة جبل لبنان جنباً إلى جنب مع أبناء الطائفة المارونية. لذلك كان موقفهم بالنسبة للكيان اللبناني يختلف عن

---

(١) د/ حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام الديني والثقافي والإجتماعي، النهضة المصرية ط١ سنة ١٩٦٧، ج٤، ص ٢٦٢.

(٢) د/ حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام الديني والثقافي والاجتماعي، ص٢٦٢.

بقية الطوائف الإسلامية فهم كانوا جزءاً لا يتجزأ من لبنان الصغير وكانو أحد أطراف مذبحة (١٨٦٠م) القوية وينقسم الدروز سياسياً إلى قسمين: آل رسلان - وآل جنبلاط.

٤- الموارنة:

طائفة من طوائف النصارى الكاثوليك الشرقيين، اتخذوا تسميتهم من (مارون) الراهب القائل بأن المسيح طبيعتين ومشيئة واحدة وفعلاً واحداً.

وقع خلاف بينهم وبين اليعاقبة القائلين بالطبيعة الواحدة (٥١٧م) مما أسفر عن تهديد أديرتهم - وخلال مدة رحيلهم تلقوا عطف الامبراطور هرقل (٦٢٨م) بعد انتصاره على الفرس - واحتكم الموارنة واليعاقبة (٦٥٩م) إلى معاوية بن أبي سفيان: لإنهاء الخصومة، لكنها استمرت وحدثت حروب انتقالية بين الطرفين، مما ألجأ الموارنة إلى شمال لبنان الذي أصبح موطناً دائماً لهم. وقد ظهر في موطنهم الجديد (القديس يوحنا مارون) صاحب المارونية الحديثة.

دخل الموارنة في خلافات عقدية مع الكنائس المسيحية حتى عقد مجمع القسطنطينية (٦٨٠م) لمناقشة فكرة الموارنة وانتهى إلى طردهم وحرمانهم. ثم حدث تقارب مرة أخرى بعد إجراء بعض التعديلات في الطقوس بيد البطريرك أرميا العمشيتي عام (١٢١٣م) - وبلغ التقارب نهايته عام ١٧٣٦م وأصبحت الكنيسة المارونية من الكنائس الأثيرة لدى بابوات روما - وكان **لويس التاسع** أول صديق فرنسي للموارنة إذ تقدم إليه عندما نزل إلى عكا - وفد مكون من (١٥ ألف) ماروني بالمؤن والهدايا، وقد سلمهم رسالة تاريخية يتعهد فيها بحمايتهم (١٢٥٠م) وقال فيها (... نحن نعتقد أن هذه الأمة المارونية جزء من الأمة الفرنساوية)[١] .

واستمر هذا التعاطف الغربي مع الموارنة في الأجيال التالية حتى أرسل نابليون الثالث فرقة فرنسية لتهدئة الجبل (١٨٦٠م).

ومن زعامات المارون المعاصرة: آل جميل - شمعون - فرنجية - إده.

(١) د/ حمدي الطاهري، سياسة الحكم في لبنان، ص٥٠، ٥١.

وتعتبر الثقافة الفرنسية من أقوى الثقافات الأجنبية الموجودة بلبنان حتى أنها تنازع اللغة العربية وتقوم بنشر هذه الثقافة (جامعة سان جوزيف) ويتبعها عدد ضخم من المدارس المختلفة، والسر في غلبة الثقافة الفرنسية:

١. ارتباط الكنيسة المارونية بالكنيسة الرومانية منذ القرن السادس عشر – مما أدى إلى تغلغل النفوذ الفرنسي تدريجياً.

٢. الحكم التركي وسياسته القائمة على إعطاء الحرية لكل الطوائف الدينية في تنظيم شؤونها التعليمية والإدارية، بحيث كان رأس كل طائفة مسئولاً لدى الحكومة – وله بعد ذلك أن يدير أمور طائفته على النحو الذي يرتضيه، مادام يقوم بأداء ما عليه من التزامات مادية ومعنوية تجاه الباب العالي.

لكن الدول الأجنبية وجدت أن هذه السياسة الجديدة تتنافى مع تحقيق مآربها التخريبية – فاحتجت لدى السلطان على هذا القرار ورضخ الباب العالي لتهديد الدول الأجنبية ووافق على أن يكون للوالي العثماني نائبان أحدهما درزي والآخر ماروني – كل منهما يرعى شؤون الطائفة التي ينتمي إليها – ولكن الأمور لم تحسم على هذا النحو وأطلت الفتن برأسها من جديد، فوقعت معارك عديدة بين الموارنة والدروز، حتى وصل الأمر إلى حد وقوع المذبحة الفاصلة التي يطلق عليها مذبحة الستين، أو مذابح دير القمر، ولم تكن وقفاً على الدروز والموارنة، لكنها عمت البلاد بأسرها وكان من نتائج هذه المذبحة أن عقدت دول أوربا في ٣/ ٨/ ١٨٦٠م مؤتمراً في باريس ضم كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا ثم انضمت إليه تركيا – وقرر المؤتمر: شرعية التدخل العسكري لإحباط الفتنة القائمة – وبالفعل نزل الجيش الفرنسي مدينة بيروت – وعقد مجلس ضم قناصل الدول في أكتوبر من نفس العام وانتهى إلى وضع (بروتوكول لبنان) وكان من أهم النقاط التي شملها:

أن يصبح لبنان إقليماً واحداً بدلاً من منطقتين إحداهما للدروز، والأخرى للموارنة، وكان من نتيجة هذا الاتفاق أن سلخت بعض الأجزاء عن لبنان ومعظمها مناطق إسلامية مثل: صيدا – وطرابلس – وبيروت – وانحصر لبنان

الجديد في ٣/ ٥ لبنان القديم بهدف أن يكون وجه لبنان الغالب مسيحياً، ولعل في هذا السبب ما يقطع كل طريق على هذه الاتجاهات الفكرية التي ترجع أسباب هجرة الشوام (السوريين، واللبنانيين) إلى الاضطهاد والظلم الذي كانت تعيش فيه الشام من جراء الحكم العثماني.

فهذا البحث العلمي القيم الذي قام به أحد الباحثين المصريين يثبت بالأدلة القاطعة أن السياسة التركية في لبنان قامت على إعطاء الحرية المطلقة لكل طائفة من الطوائف الدينية المختلفة فيما يتعلق بتنظيم شؤونها ووضع برامجها[١] .

ومن هذا المنطلق فإنني أرجح أن الأسباب المباشرة في هجرة الصحفيين والكتاب الشوام إلى مصر أثناء فترة الاحتلال الإنجليزي لم تكن بسبب التضييق السياسي واختلال أنظمة الحكم بلبنان ولكنه في المقام الأول:-

الولاء والقرابة الروحية التي تربط بين المستعمرين الإنجليز وهؤلاء النفر من نصارى الشام الحاقدين على الإسلام وتراثه وقيمه ومقدساته وأتباعه، والذين وجدوها فرصة سانحة للتنفيس عن حقدهم وترويج فكرهم المادي وبذر روح التغريب في المجتمع المسلم في مصر من خلال نشر الثقافة الغربية التي تقوم على الإلحاد والنظرة المادية.

وأكبر دليل على ذلك: هذه الحرية المصنوعة لهم في مصر عقب مجيئهم إليها، في مقابل التضييق على رجال الفكر الإسلامي وشيوخ الأمة وعلمائها حتى يكون العقل المصري خالصاً للأقلام الصليبية الحاقدة التي جاءته من الشام أو جيء بها لتعمل على إفساده وبلبلته وقطع كل أسباب الولاء والإعزاز بينه وبين هذا الدين العظيم الذي يؤمن به.

ثالثاً: الواقع العلمي:

للحياة العلمية في كل أمة ظواهر تعرف بها ويقاس من خلالها مدى تقدم

---

(١) سياسة الحكم في لبنان ص٥٤، ٥٥ ، وكذلك: موسوعة المذاهب الميسرة - إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض الصادرة في ١٩٧٢م مادتي الدروز ص٢٢١، والموارنة ص٤٣٩ .

وخصوبة هذه الحياة أو تخلفها وركودها وعقمها. وفي مقدمة هذه الظواهر: معاهد العلم - دور الطباعة والنشر والصحافة ...الخ.

أولاً: معاهد العلم والدراسة:

كانت مراكز التعليم حين أطل القرن الماضي على الأقطار الشامية منحصرة في نوعين هما:

١- مدارس بسيطة جداً، تابعة لبعض الأديرة والمساجد لا يتجاوز التعليم فيها مبادئ القراءة، والكتابة، وأولويات الحساب.

٢- بضعة معاهد دينية شبه عالية غايتها تخريج خدمة للدين، كعين ورقة في لبنان، وبعض الحلقات المسجدية في دمشق وحلب.

فالعالم في هذه الفترة أو ذلك الزمان إما كاهناً أو شيخ دين[١] .

وقد أمسى الشعب جاهلاً أمياً استحكمت فيه ظلمات الجهل - وأنوار المعرفة لم تنتشر إلا بعد أن كاد يطوى النصف الأول من هذا القرن - على يد الإرساليات التبشيرية التي اهتمت بالمدارس وتأسيسها.

وعن دور الإرساليات التبشيرية وهدفها لا يفوتني في هذا المقام أن أسجل ما كتبه الشيخ علي يوسف وهو أحد أعلام النهضة الإسلامية في مصر إذ يقول:-

(ما طمحت الدول الأوربية في الاستيلاء على بلد أو إقليم من الشرق عموماً إلا وسبقت إليه بافتتاح المدارس بمرسليها الدينيين ليعدوا لها طريق الاستعمار، علماً منهم بأن مأمورية هؤلاء المعلمين ليست إلا عبارة عن بث أخلاق وتعاليم دينية كانت أو فنية - حتى لا يلقوا معارضة أحد؛ لأن حجتهم نشر العلم ورفع لواء التمدن، ومن لا يرضى بذلك فليس له من اسم الإنسانية نصيب، وتقوم عليه قائمة حرب التعنيف والتنديد.

فلا مناص أن تقبل هذه الأقاليم الشرقية الوافدين إليها من المرسلين الذين هم نصراء الهداية والمعارف، والتمدن، في ظاهر العين، وسفراء الاستعمار والاستيلاء في الحقيقة.

---

(١) مارون عبود، صقر قريش بدون رقم للطبعة سنة ١٩٥٢، ص٥٢.

إننا نعلم حق العلم ونرى بأعيننا أن كل دولة غربية ما وضعت يدها على أمة إلا وجعلت مقدمة ذلك هي المدارس - فبات أن المقصد العظيم والباعث القوي هو سياسي وملّي في آن واحد)[1] . ومما ساعد على نمو الإرساليات (المدارس الأجنبية) في ذلك القطر:

١- الاستقرار الذي حدث في البلاد على يد (إبراهيم باشا المصري) بن محمد علي - حيث أنه شجع الإنجليز على الوفود إليها.

٢- تركيا: لم تكن تعنى في الولايات التابعة لها بأمور المعارف كما يجب.

لذا: كان المجال واسعاً أمام البعثات الأجنبية أوربية وأمريكية - فأسست المدارس الكثيرة وأصبحت ذات اليد الطولى في نشر الثقافة ورفع المستوى الفكري العام (وإن كان لصالحهم) وكان الفرنسيون والأمريكيون أكثر العناصر الأجنبية نشاطاً في تأسيس المدارس. مضافاً إليها البعثات الروسية، والألمانية، والإيطالية، والدانمركية وسواها...الخ.

حتى أنه قدر عدد المدارس في سوريا ولبنان سنة ١٨٨٣م بنحو (١٤٧٢ مدرسة) تضم نحو ٦٢.٥٦٦ تلميذاً من مجموع مليونين من السكان.

أما معاهد التعليم الأهلية: فقد بدأ عهدها الجديد منذ أسس المعلم بطرس البستاني في سنة ١٨٦٣م مدرسته الوطنية ببيروت والتي امتازت بصفتها اللاطائفية وروحها الوطنية وتدريسها العلوم على الطريقة العصرية. وظهرت بعد ذلك معاهد أخرى كان لها أثر يذكر في تنشيط الحركة العلمية. كالمدرسة البطريركية سنة ١٨٦٥م، ومدرسة الثلاثة أقمار سنة ١٨٦٦م، والحكمة سنة ١٨٧٤م، والمدرسة الإسرائيلية سنة ١٨٧٤م، والكلية العثمانية سنة ١٨٩٥م ...الخ.

والملاحظ: أن التعليم في سوريا الآن قائم على المدارس الرسمية - أما في لبنان فلا يزال السبق للمعاهد الأجنبية الخصوصية، وكذلك المعاهد الوطنية الخصوصية.

وإذا انتقلنا من معاهد العلم والدراسة إلى مظهر آخر من مظاهر الحركة العلمية.

---

(١) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي الحديث، مكتبة الآداب بالقاهرة، بدون رقم للطبعة، سنة ١٩٥٦، ص١٤٦، ١٤٧.

ثانياً: التأليف والنشر:

وهما ثمار التعليم وانتشار الثقافة، إلا أن معتمدهما الرئيسي هو الطباعة والصحافة، وقد ظهرت الطباعة في القطر الشامي قبل القرن التاسع عشر - على أنها لم تكن في ذلك القرن ذات شأن يذكر، والواقع أنها لم تخدم حركة العلم ونشر المعارف خدمة فعالة إلا بعد أن كاد يبلغ ذلك القرن منتصفه. وأول مطبعة عصرية دخلت سوريا ولبنان هي المطبعة الأمريكانية بيروت سنة ١٨٣٤م وهي أول مطبعة في الشرق العربي أديرت بالبخار سنة ١٨٦٧م[1] . والمطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٤٤م بيروت - وكذلك مطبعة القديس جاور جيوس ١٨٤٨م - ومطبعة المعارف بطرس البستاني سنة ١٨٦٧م[2] - والمطبعة الأدبية لخليل سركيس ١٨٧٤م[3] هذا عدا ما كان قد أسس بمصر. كمطبعة بولاق الأميرية[4] سنة ١٨٢٢م والتي ظلت نحو أربعين سنة المطبعة الوحيدة في القطر المصري، ومطبعة المعارف المصرية[5] سنة ١٨٦٨م ومطبعة وادي النيل[6] سنة ١٨٩٦م.

وقد أخرجت شتى المطابع العربية في القرن الماضي عدداً كبيراً من الكتب

---

(١) أنيس النصولي، أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، دار ابن زيدون بيروت ط١، سنة ١٩٨٥م، ص٣٧.

(٢) بطرس البستاني: (١٨١٩/ ١٨٨٣م) ولد في الدبية بلبنان، وتعلم في مدرسة عين ورقة . وعلم في مدرسة عبية الأمريكانية - ساهم في ترجمة التوراة إلى العربية - من آثاره (قاموس محيط المحيط) و (دائرة المعارف) ٦ ج، خلافا لنشاطه ودوره في الصحافة، وأسس مطبعة المعارف ببيروت سنة ١٨٦٧م وهي التي قدمت للعالم العربي الكتب المقدمة فضلاً عن مجلة الجنان والجنة أ.ه. أنيس النصولي، أسباب النهضة ص ١٠١، ١٠٣.

(٣)سركيس: أديب وصحفي لبناني، مؤسس المطبعة الأدبية وجريدة لسان الحال (١٨٧٧م)، وله عدة كتب مدرسية، امتازت مطبعته بالجمع بين حسنات القاعدتين الإسلامية والأمريكانية في الطباعة - أسباب النهضة ص ١٢٨.

(٤) مطبعة بولاق: هي في الأصل المطبعة التي أتت بها الحملة البونابرتية إلى مصر ١٧٩٨م لطبع المنشورات الخ وظلت عاملة حتى ١٨٠١م ثم حرمت مصر بعدها من المطابع إلى أن استقلت الولاية لمحمد علي، وقد اختلف في التوقيت الذي أسسها فيه رجل مصر على أنقاض الحملة (١٨٢٢م أم ١٨٢١م) على رأي المؤرخ ويكلسن الإنجليزي، المهم أن محمد علي استجلب لها الحروف واستخدم فيها العمال من أوربة وسورية - والحبر والورق من إيطاليا وعين لها أحد المديرين الوطنيين - وهي أكبر مطبعة في الشرق العربي وتمتاز بتمام معداتها وتدار أغلبها بالتيار الكهربي، لها فضل كبير في نشر العلوم والمعارف المختلفة عربية وفارسية أو تركية في علوم الرياضيات والفنون الحربية والطب ... الخ.

(٥) مطبعة المعارف المصرية: ١٨٦٨م شركة مساهمة برئاسة محمد عارف باشا أحد أعضاء مجلس الأحكام.

(٦) مطبعة وادي النيل: صاحبها أبو السعود أفندي أحد طلبة رفاعة الطهطاوي ١٨٩٦م وكانت لها نشاطات متعددة وطبعت مجلة روضة المدارس. أسباب النهضة ص١٣٢.

والصحف والرسائل تساعد على نشر العلم والثقافة في العالم العربي - وإذا كان هذا هو واقع المطبعة في الوطن العربي والقطر الشامي في هذا القرن بإيجاز شديد - والذي يظهر لنا من خلاله بوضوح أن معظم المطابع التي نشأت في هذه الفترة في القطر الشامي - نشأت بأيد صليبية وساهمت بشكل فعال في نشر الثقافة الأجنبية المادية في الوطن العربي.

فلننتقل الآن إلى مظهر آخر من مظاهر الحركة العلمية.

ثالثاً: الصحافة:

فيكاد يجمع المؤرخون على عدم ظهورها في البلدان العربية ألا بعد حملة نابليون المشئومة على مصر سنة ١٧٩٨م.

أما في القطر الشامي فقد بدأت الصحافة على أيدي البعثات الأجنبية في ١٨٥١م - صدرت مجلة دينية استمرت أربع سنوات - وفي سنة ١٨٧٠م صدرت مجلة النشرة - كما أصدر اليسوعيون جرنال الفاتيكان (مجلة الشرق) وجريدة البشير - كما أنشأ الوطنيون أمثال، خليل الخوري (حديقة الأخبار) ١٨٥٧م، تبعتها عدة صحف مثل الجنان لبطرس البستاني ١٨٧١م والمقتطف ١٨٧٦م ليعقوب صروف وفارس نمر، وكذلك أنشأ الشاميون المهاجرون عدة صحف ومجلات أخرى في البلاد التي هاجروا إليها.

والخلاصة:

أن الحالة العلمية في القرن الثامن عشر وكما يصورها أحد المعاصرين لها - والمؤرخين ومن رواد النهضة الشامية:

قائلاً (إن العرب في أيامنا هذه قنوعون جداً في أمر الآداب - فإنهم يكتفون بأقلها ويحسبون أنفسهم وصلوا إلى أ على طبقات العلم مع أنهم لم يقرعوا بابه. فمن تعلم منهم كتاب الزبور (المزامير) والقرآن قيل أنه ختم علمه ...)[1] . ثم

(١) ولكنني لا أسلم لهذا المفكر بالسخرية والاستهزاء بالقرآن الكريم، نعم قد أسلم له بأن الزبور بوضعه الحالي (بعد التحريف والتبديل) لا يفيد قارئه شيئا، لكن القرآن الكريم ذلك الكتاب الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم حميد فيه سعادة البشر جميعاً في كل زمان ومكان. نعم قد يقرأه بعض الناس قراءة آلية دون تدبر لمعانيه أو تأمل في أغراضه ومراميه وحلاله وحرامه وأحكامه وقوانينه - فلا يفيده ذلك شيئاً في دينه أو دنياه - ولا ينفي ذلك بأنه أصل العلوم كلها ومنبعها وفيه خيري الدنيا والآخرة ...

يواصل حديثه قائلاً (... وإذا تعلم شيئاً من أصول الصرف والنحو يقال فيه إنه قد صار علامة زمانه، وإذا نطق بالشعر فلا يبقى عندهم لقب يصفون به ولهذا - وما داموا كذلك - فلا يؤمل تقدمهم في العلوم والفنون)[1] .

---

(١) قاموس محيط المحيط - بطرس البستاني نقلاً عن الفنون الأدبية وأعلامها، ولكن لماذا اختيرت لبنان لتكون مركزاً لأخطر تجربة في خطة تمزيق العالم الإسلامي ؟ لأنها بتركيبها الطائفي وصلاتها مع أوربا قاعدة خطيرة لهذه الحركة التي كانت بعيدة المدى في تحطيم الرابطة الجذرية بين العروبة والإسلام، ولها أبعد الأثر في تمزيق الوحدة العربية التركية وإسقاط الخلافة الإسلامية. حتى ليمكن أن يقال أن هذا العمل الذي احتضنته لبنان وهو (فتح العالم الإسلامي سلمياً) هو الشق الثاني لمخططات الماسونية وهو المكمل لها. ويرد الباحثون علاقة فرنسا بالموارنة في لبنان إلى أقدم من القرن السابع عشر، يردونها إلى عام ١٢٥٠م بخطاب أرسله لويس التاسع ملك فرنسا - من عكا إلى أمير موارنة لبنان وبطريك وأساقفة الطائفة وفيه (نحن موقنون أن هذه الملة التي تنتسب إلى القديس مارون هي جزء من الأمة الفرنسية) وكذلك ما سجله كتاب (الأحوال الشخصية في الجمهورية اللبنانية) لبطرس حيقة (عن العلاقة بين فرنسا ولبنان إلى الحروب الصليبية) (... وكان لهم منها الهداة والقادة المخلصون في اجتياز طرق هذه البلاد الصعبة التي كانوا ينتقلون لفتحها، من حاضرة إلى حاضرة حتى أورشليم) - فلما انتعشت فكرة استرداد بيت المقدس منذ القرن السابع عشر وأخذت فرنسا تتجه إلى تركيز بعثاتها التبشيرية في لبنان هادفة مع الموارنة إلى تنصير الدروز، حتى لا تبقى في لبنان قوة معارضة إذا سنحت الفرصة للاحتلال - وقد أشار فيليب حتى إلى أهمية لبنان في مجال الغزو للعالم الإسلامي والبلاد العربية حين قال: إن لبنان أول بلد حرر نفسه من بوتقة القديم، فإنه أصبح مركز إشعاع فكري، يشع منه نور الفكر والتحرر إلى البلدان العربية، ومع تجاوبه مع الحضارة الأوربية يختلف لبنان عن تركيا في أن تركيا فرضت الحضارة الغربية على أبنائها بقانون كانت تعاقب بموجبه من لا يتقبل الحضارة الغربية، ثم أكد هذا الهدف مرة أخرى حين قال: (إن جميع الأحداث والتغيرات التي طرأت عليها (البلاد العربية) من سياسية وإجتماعية واقتصادية وروحية وعقلية يمكن ردها مباشرة إلى هذا العامل.

فقد كان المارونيين بولائهم لفرنسا عاملاً مهماً في مقاومة حكم الدولة العثمانية، خاصة بعد أن أعلنت خطة الجامعة الإسلامية، فكان هدف الإرساليات أن تكون - جيلاً لبنانياً يحمل الحقد والكراهية للعروبة والإسلام والدولة العثمانية - واستطاعت أن تقيم هذه الكراهية على أسس فلسفة علمية قوامها الاستقلال لسوريا العربية منفصلة عن الدولة العثمانية وعن مصر وعن الجزيرة العربية - وهكذا زرعت المدارس التبشيرية في لبنان والتي ندرك خطرها بمراجعة أسماء الصحفيين الذين أخرجتهم مدارس الإرساليات في بيروت، لنقف على أبعاد هذا الفكر السياسي لحساب الاستعمار البريطاني واليهودية العالمية سليم وبشارة تقلا، سليم سركيس - فرح أنطون، جرجي زيدان، فارس نمر، صروف، شاهين مكاريوس، مارون نقاشي، داود بركات، ولقد كان من أكبر أهداف حركة الإرساليات التبشيرية في لبنان - بعد استقلالها عن الدولة العثمانية - هو ضربها من هذا الموقع الحصين المفتوح على الشام والعراق والجزيرة العربية، وهي الأجزاء العربية التي لم يسيطر عليها الاستعمار الغربي آنذاك لهذا ركزت الجهود لا سيما بعد ١٨٦٠م الذي استغلت أحداثه وقتاً طويلاً، لإعلان الحرب العالمية وتأريث العداء في نفوس أهله، وهذا ما سجله جورج أنطونيوس حين قال: (انتشر التعليم الغربي في بلاد الشام في عهد عبد الحميد، على نطاق أوسع جداً مما كان في العهود السابقة، وأدى إلى قيام شبكة من المدارس، والكليات، امتدت في أنحاء البلاد، والتي أصبحت بعد أداة من أدوات التغلغل السياسي بالإضافة إلى أنه وسيلة للثقافة. كما وفر السبيل لرجال الدين المسيحي ليمتلكوا أسباب القوة السياسية بل كانت تدفعهم إلى ذلك دفعاً) مما يعني أن ترك بل ومضاعفة الإرساليات بعد ولاية السلطان عبد الحميد، وبعد إعلانه عن دعوته إلى الوحدة الإسلامية - كان عملاً منظماً، يراد به تحقيق الغاية التي تحققت من بعد. وهي إدخال فكرة جديدة كبديل للدعوة إلى الوحدة الإسلامية وتسريبها عن طريق التعليم الذي تركزت آلو يته في بيروت، مفتوحاً على أبوابه للمسلمين والنصارى ولليهود، مما أدى إلى تخريج أجيال مسيحية تزداد استمساكاً بهويتها وولائها الأوروبي، وأخرى مسلمة متخبطة لا تكاد تثبت أقدامها على=

الظروف السياسية قبيل إصدار جرجي زيدان لمجلة الهلال:

تحلل المجتمع الإسلامي وكاد أن ينهار في آخر العصر العثماني - ويصور المؤرخ الإسلامي الكبير - عبد الرحمن الجبرتي - طبيعة الحياة في المجتمع الإسلامي ابتداء من سنة ١٦٨٨م - البداية الحقيقية لبداية نور الغرب وأفول نور الشرق. وكيف سيطر العثمانيون والمماليك على هذا المجتمع، وتسلطوا على الناس الذين عانوا من ظلمهم أشد المعاناة، لما اتسم حكمهم بالظلم وعدم الفهم للإسلام - وكيف انقسمت الأمة الإسلامية في هذه العصور إلى حكام ومحكومين، تفصل بينهم هوة واسعة لا تلتئم. فالعثمانيون والمماليك يحكمون ولهم بلاطهم ومجتمعهم، المكون من بنيات غريبة عن المجتمع الإسلامي، (فهم في الأصل رقيق أجلاب خليط من أجناس شتى، وأصناف منفصلة، متفرقة تجمعهم المصلحة على إذلال الأمة - وكان أكبر جرائمهم أنهم قصروا الجندية على أنفسهم وحرموا أصحاب الأرض من حق الدفاع عنها - وصار المدافع عن الأمة والملة هم الغرباء، وتلك أكبر الأسباب التي تنسي المواطن وطنه، وتفقده روح الغيرة والجهاد وتميت في نفسه روح الانتماء والولاء للمقدسات وكذلك كثرة تعدي عسكرهم (المماليك والعثمانيين) وانتشارهم في القرى والمدن وفعل كل قبيح، وحبسهم الناس والتجار ومصادرة أموالهم وسلب ما بأيديهم.

وكان الاستعمار الفرنسي أول مبشر بالعلمانية في الشرق الإسلامي:

انهيار أي مجتمع وتحلله من الداخل - يمهد لقبول أشكال جديدة من الحياة والأفكار يحملها له غيره - من بيئة تخالف بيئته - وأوضاع تباين أوضاعه - وهذا

=طريق - لذلك: كانت الحركة الفكرية في لبنان في القرن ١٩ من حيث زعامتها المسيحية على طرف نقيض للتطورات المعاصرة في تركيا ومصر والبلدان الإسلامية الأخرى، فلم يشعر النصارى اللبنانيون، كما شعر المسلمون العثمانيون بمسئولية الحفاظ على دولة في طريق الانهيار (الدولة العثمانية) أو على دين مهدد بالخطر (الإسلام) وهم أيضاً - لم يشعروا بالأنفة في أخذهم عن الغرب المسيحي واعتماد طرقه، فرأينا شبلي شميل، داعياً للفلسفة المادية ونظرية دارون، وفارس نمر داعياً للولاء البريطاني، وجرجي زيدان: مزيفاً للتاريخ الإسلامي وداعياً للماسونية ومناقحاً عن الإحتلال ومظهراً لمآثره وأفضاله، ويعقوب صروف: داعياً للتغريب، فرح أنطون: داعياً للفكر الغربي.

أنور الجندي، موسوعة تاريخ الإسلام، دار الأنصار، بدون رقم للطبعة، وبدون تاريخ، سنة ١٩٧٩م، من ص ٦١٨ إلى ٦٢٤ بتصرف.

ما حدث للمجتمع المصري المسلم في أواخر العصر العثماني واحتلال الفرنسيين لأرضه. فقد جاء نابليون إلى مصر حاملاً معه أفكار الثورة الفرنسية التي بلورت فكر أوربا كلها في القرنين السابع عشر والثامن عشر، والقائم على: تأسيس مبدأ دنيوي خالص يقوم على احترام بحث الإنسان وفكره دونما ارتباط بعقيدة أو دين (فالإنسان يصنع عالمه بنفسه) منطلقاً نحو الرغبات الشهوانية الكامنة، رافضاً كل ما يعترض طريقها - ولعل أبلغ تصوير لهذه الحقيقة ما سطره قلم المؤرخ الإسلامي حين يقول: (**إن الفرنساوية لا يتدينون بدين، ويقولون بالحرية والتسوية ..**)[1].

ولكنه باعتباره مسلماً - عالماً بما يفيد الأمة وينفعها، نجده كذلك يلمح إلى إكباره حب الفرنسيين للعلم، وحرصهم على نشره، وتثقيف الناس ويصف باهتمام بالغ تلك الحركة العلمية التي بعثوها في مصر قائلاً: (وأفردوا مكاناً للمديرين والفلكيين، وأهل المعرفة، والعلوم الرياضية كالهندسة وغيرها). لكنه وفي الوقت نفسه يرفض لعبهم بالدين فيقول: (**فهم الذين صحبوا العلماء وأنشأوا أكاديمية علمية في حي الناصرية، وهم الذين زينوا للمصريين ممارسة كل فعل مخالف لدينهم، فعن طريقهم تبرجت المرأة المصرية المسلمة واختلطت بهم وصحبتهم في المراكب مع الرقص والشراب في النهار والليل**)[2] .

لقد أثر وجود الفرنسيين في معظم الناس، وجعلهم يقبلون على أشياء ينكرها دينهم وترفضها شريعتهم، بل وتحرمها، بل إن بعضاً من علماء الدين وقعوا في المنكر وقوعاً شديداً - (وكان الشيخ حسن العطار أكثر استجابة للوافدين وتعاوناً معهم - وكان الجبرتي متفقاً مع صديقه حسن العطار في ضرورة الأخذ بعلوم أوربا - لكنه خالفه في قوله: «بضرورة أن يغير الشرقيون عقولهم » وهكذا تسببت عزلة علماء الدين عن المجتمع أن جنح المصريون في القرن التاسع عشر إلى التمسك بفكر ديني عدمي، ونوعاً من الاستكانة الروحية المرتمية في محتوى غيبي في صورة تصوف سلبي جامد لا يتحرك، واعتقاد في كرامات البلهاء والمعتوهين

(١) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار والتراجم والأخبار، دار الشعب، سنة ١٩٥٨،١٩٥٩، ص١٦٣، ٤٦٣.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي، ص٤٢٣، ط الشعب، ١٩٥٨م.

والقبوريين)[١] .

(**حتى وصل المجتمع إلى أسوأ حال يمكن أن ينحدر إليها مجتمع، حال لم تكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء**). ازداد الناس بعداً عن الدين **حكاماً: لأنهم** رأوا أن في تطبيق شرائعه تضييقاً على شهواتهم، وتعطيلاً لمصالحهم- **ومحكومين:** لأنهم لم يعودوا قادرين على فهمه - وحرم المسلمون من تطبيق شريعتهم طيلة هذه الحقبة من الزمن - بدلاً من أن يخضعوا واقعهم للإسلام، أخضعوا الإسلام لواقعهم المخزي، فجمدوا وابتعدوا عن الفهم الصحيح لدينهم واطمأن الحكام إلى هذه الحال - فما كانوا ليقبلوا أن يقدم عالم مسلم على الربط بين الدين والحياة فيهدد سلطانهم من جذوره.

محمد علي وبنوه:

اعتلى محمد علي حكم مصر (١٨٠٥م) بعد خروج الفرنسيين - فأقدم على تثبيت دولته - بتعزيز جيشه وتدريبه على أحدث الوسائل الغربية - فأرسل البعثات العلمية[٢] إلى فرنسا وغيرها لتقف على مكتشفاتها وأسباب رقيها. ثم

---

(١) د/ السيد فرج، جذور العلمانية في مصر، دار الوفاء، ط١ سنة ١٩٨٥م.

(٢) البعثات العلمية هل تدل على عبقرية محمد علي خصوصاً في هذا العصر الذي لم يفكر فيه حاكم شرقي إيفاد مثل هذه البعثات. أم ماذا ؟ هذا ما تبناه المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي في كتابه تاريخ الحركة القومية جرجي‌زيدان٣ ص٤٥٢ - ولكن المفكر الإسلامي الكبير والعالم الجليل الشيخ محمود محمد شاكر له تحليل آخر لأمر البعثات أنه يقول: إن فكرتها لم تكن نابعة من عقل هذا الجندي الجاهل محمد علي، بل كانت نابعة من عقول تخطط وتدبر لأهداف بعيدة المدى استغلت ما في نفسه من المطامع وحبه للسيطرة، أحاطت به (القناصل) وهي تراقب أهواءه ومطامعه فجعلت تغذيها وتزيدها توهجا لتجعله قوة في قلب دار الإسلام، تنازع دار الخلافة التركية وسلطانها وتنشق عنها انشقاقاً يزيد في تفكك دار الإسلام ويمهد للمسيحية الشمالية السبيل إلى تخطف أقاليم دار الإسلام، بعد أن تصير أشلاء ممزقة عاجزة عن الدفاع عن نفسها على أن تكون هذه القوة الجديدة - قوة محمد علي - في قبضة المسيحية الشمالية تصرفها كيف تشاء، وتقضي عليها قضاء مدمراً يوم تحتاج إلى هذا التدمير - ولذلك: كانت هذه البعثات الصغيرة كلها منذ ١٨١٣م تتعلق بالصنائع التي تتعلق ببناء الجيش المصري لا أكثر ينتفع بها محمد علي في حروبه في جزيرة العرب من (١٨١١-١٨١٩م) وفي تخطف أجزاء أخرى كانت تحت سلطان الدولة العثمانية ودار الخلافة - ليزيد هذا التخطف من ضعفها وتفككها. هذه كانت غاية القناصل الذين أحاطوا بمحمد علي إحاطة كاملة وصاروا عقله الذي يفكر به وصار هو دمية في أيديهم يحركونها إلى غاياتهم ومقاصدهم.

ولما فرغ محمد علي من تحطيم (اليقظة) التي كانت في جزيرة العرب ١٨١٩م وعلا شأنه وأرسى قواعد ملكه في الديار المصرية، كان في فرنسا رجل كبير ممن شاركوا في الحملة الفرنسية كانت له منزلة خاصة عند نابليون هو المستشرق (فانتور) خليل نابليون ونجيه، وانتخب عند عودته إلى فرنسا عضواً عاملاً بالمجمع=

تعود لتبث ما يتعلمه أفرادها من المبادئ والعلوم بين شبيبة وطنهم، وكان على جميع الطلاب الذين وصلوا باريس أن يدرسوا الحساب، والهندسة، والجغرافيا، والتاريخ، والرسم، وبعد ذلك يتخصصون في الفنون التي ارتضوها لأنفسهم ... الخ، والتي عدها بعض المؤرخين فأوصلها إلى أربعة عشر فرعاً من فروع العلم والمعرفة منها

١. علم الاقتصاد وتدبير المعاملات والحسابات.

٢. علم التدريب العسكري.

٣. علم الأمور البحرية.

٤. علم السفارة والمراسلة، ومعرفة الألسن، والحقوق، والاصطلاحات الدولية.

٥. فن المياه (كما يسميه الطهطاوي) ويتناول صناعة القناطر والجسور والأرصفة ونحوها[1] .... الخ.

وبرغم هذه النهضة العسكرية التي حاول محمد علي تحقيقها لبلاده إلا أنه وفي نفس الوقت كان يعمل في خدمة المخططات الاستعمارية من جانب آخر.

وهاهي حروب محمد علي وابنه إبراهيم باشا في الجزيرة العربية ضد الحركات الإسلامية العظيمة التي قامت بنفض التراب عن كواهل المسلمين وإزالة الغشاوة عن

=العلمي الفرنسي، لما رأى هذا الرجل نجاح القناصل في إغراء محمد علي بإرسال البعثات إلى أوربا ما بين ١١١٨م و ١٨١٩م أسرع جومار يحث الاستشراق الفرنسي وقناصله في مصر على إغراء محمد علي بإرسال بعثات إلى فرنسا ليجعلها تحت إشرافه - وبالفعل نجح الاستشراق وقناصله في إغراء محمد علي بإرسال بعثة كبيرة من شباب مصر إلى فرنسا في يوليو عام ١٨٢٦م / ١٢٤٢هـ وتتابعت هذه البعثات حتى ١٨٤٧م / ١٢٦٤هـ، كانوا شباناً صغاراً ليس في عقولهم ولا قلوبهم إلا القليل الذي لا يغني من الثقافة المكتملة - التي عاشت فيها أمتهم قروناً متطاولة، يتم توجيههم من حيث لا يشعرون إلى الجهة التي يريدونها ويعطونهم القدر اليسير المتفق عليه بينهم من العلوم التي يدرسونها، ثم يردونهم بعد سنوات قلائل إلى مصر، ودولة محمد علي التي أسسها في قبضة القناصل، والاستشراق، لا يستطيع فكاكاً منهم، لأنه كان جاهلاً لم يتعلم علماً قط حتى الخط والكتابة لم يتعلمها إلا وهو في الخامسة والأربعين من ١٨١٥م / ١٢٢٩هـ وذهب محمد علي وجاء من بعده أولاده وهم في قبضة القناصل، والتصدع في ثقافة الإسلام يتفاقم، والبلبلة التي أحدثها الطهطاوي تتعاظم، وصار الأزهر يرسف في أغلاله متبذاً ناحية، لا يدخله إلا أبناء الفقراء والمساكين، ومضت الأيام والسنون حتى جاء الاحتلال الإنجليزي في ثاني من ذي القعدة ١٢٩٩هـ، ١٢/ ١٨٨٢/٩م.

نقلاً عن محمود محمد شاكر، الطريق إلى ثقافتنا، دار الهلال سنة ١٩٨٧م ص٢٠٩، ٢١١.

(١) أنيس النصولي، أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، ص٦٩، ٧٠.

عيونهم وقلوبهم كحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب[1] والحركة المهدية في السودان ...) أكبر شاهد على ذلك.

فكل ما يهم الدول الاستعمارية هو القضاء على وحدة الشعوب الإسلامية، ولما لم يستطيعوا تنفيذها في هذه الخطة بالذات وبسيف نابليون - فليكن بيد محمد علي وابنه إبراهيم - إمضاء الخطة - أي أنهم رأوا في البداية أن يستعمروا البلاد الإسلامية عسكرياً بقوى إسلامية (محمد علي وابنه إبراهيم) وسياسياً وفكرياً (بأبناء محمد علي بعد ذلك) وقد بلغت هذه الخطة درجة كبيرة في مرحلة الاحتلال الإنجليزي لمصر على يد اللورد كرومر.

وهكذا ترى معي أيها القارئ الكريم، كيف يعمل أعداء الإسلام بكل ما في وسعهم وبكافة الطرق والوسائل لخدمة مخططاتهم وأهدافهم ومؤامراتهم.

---

(١) حركة محمد بن عبد الوهاب: كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أول مظهر لليقظة الإسلامية الحديثة، وهي دعوة دينية خالصة قصد بها تنقية الدين مما تردى فيه من خلال الشرك وشوائب البدع والرجوع بالإسلام إلى بساطته الأولى ووحدانيته الخالصة - وقد نشأ الشيخ في العينية إحدى قرى نجد، وشب على دراسة المذهب الحنبلي ووجد في تعاليم شيخ الإسلام ابن تيمية منهلاً عزباً لأفكاره ومنحاه الروحي واتجاهه العقلي فتركت تعاليم ابن تيمية في نفس الشيخ بن عبد الوهاب صدى زاد من رجعه ما شاهده في طوافه ببعض بلاد العالم الإسلامي من انتشار البدع واتخاذ الناس من الأولياء والأضرحة زلفى إلى الله، فكانت لب دعوة الشيخ الرجوع بالدين إلى الوحدانية التي نادى بها سيد المرسلين (، ووحدة التشريع، فلا مصدر إلا الكتاب، ولا حكم إلا حكم السنة، وبدأ محمد بن عبد الوهاب دعوته في النصف الثاني من القرن ١٨ والنصف الأول من القرن ١٩ وضاقت بدعوته العينية فخرج إلى الدرعية، ووجد في أميرها محمد بن سعود قبولاً لدعوته فاعتنقها، وهنا تعاهد رجل الدولة ورجل الدين وأصبحت الدعوة دعوة دين ودولة - وبرغم المنغصات التي حاولت دولة الخلافة أن تقضي بها على الدعوة، إلا أن عبد العزيز آل سعود نجح في إقامة مملكة عربية سعودية وهابية في نجد والحجاز، بعد مائة عام من قيام الدعوة فقد وجدت صداها في العالم الإسلامي وقام مريدوها يتخذون مناهجهم الخاصة في الإصلاح الديني والدنيوي، وكان موسم الحج ميداناً صالحاً لنشر الدعوة بين أقطار العالم الإسلامي حملتها طوائف الحجيج والدعاة العائدين إلى بلادهم. نقلاً عن صابر طعيمة - تحديات أمام العروبة والإسلام - دار الجيل بيروت ص ٢٦١، سنة ١٩٧٦م.

ولقد عملت الدعوة على انضباط الأمة الإسلامية فكرياً بعد أن رانت عليها سجف من التخلف والخمول والتقليد الأعمى، كما عنت عناية خاصة بتعليم العامة، وتثقيفهم، وتفتيح أذهان المثقفين، ولفت أنظارهم إلى البحث عن الدليل ودعوتهم إلى التنقيب في بطون أمهات الكتب والمراجع قبل قبول أية فكرة فضلاً عن تطبيقها، وللشيخ محمد بن عبد الوهاب مصنفات كثيرة أهمها كتاب (التوحيد فيما يجب من حق الله على العبيد) و (كتاب الإيمان) و (كشف التنبيهات) و (آداب المشي إلى الصلاة) و (مسائل الجاهلية) وعدد من المختصرات والرسائل التي تدور حول أمور فقهية وأصولية، أكثرها في التوحيد - نقلاً عن الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ج١ سنة ١٩٨٨م ص٢٧٧.

الاحتلال الإنجليزي لمصر:

ولعل أبرز الأحداث التي سبقت هذه الفترة - فترة الدراسة - وكانت لها بصماتها الواضحة والقوية والمؤثرة على مجرى الأحداث لا في مصر وحدها بل في الوطن العربي كله تلك المأساة الدامية التي شهدتها مصر - بمجيء الاحتلال الإنجليزي للبلاد - بعد أن قطعت مصر علاقتها مع الإمبراطورية العثمانية وارتمت في أحضان أوربا، وغلت في توثيق صلاتها معها توثيقاً انتهى إلى احتلال لإنجلترا لمصر.

حقاً إن إنجلترا كانت تتحين هذه الفرصة منذ فترة طويلة وهي تتأهب لاحتلال مصر حتى جاءتها الفرصة بتورط الخديوي إسماعيل في الديون ...

وهنا لا ينبغي لنا أن نمر مرور الكرام على الخديوي إسماعيل وما أحدثه بالبلاد من نكبات متتالية على كل المستويات - فمن هو إسماعيل وكيف تسلم مقاليد الحكم في مصر ؟

الخديوي إسماعيل: تربى في فرنسا واستدعى لحكم مصر من هنالك - ولما يكمل تعليمه فيها، فعاد من باريس، بعد أن صاغته صالونات باريس، وصداقاتها المتعددة لرجالها ونسائها صياغة جديدة غريبة تماماً عن الأمة التي ابتليت بحكمه - فكان مبهوراً بما رأى وسمع وكانت أمنيته التي صرح بها أن (يجعل مصر قطعة من أوربا) - ويعجب دارس التاريخ كيف أغرق هذا الحاكم بلاده في الديون وفوائدها الباهظة نتيجة لبناء القصور والحدائق والمتنزهات ودور الغناء بلا ضرورة ولا وعي. وكيف أنفق الملايين على حفل افتتاح قناة السويس (١٨٦٩م) حتى اضطر إلى بيع حصة مصر فيها إلى ألد أعدائها. وهكذا كانت المدة التي حكم فيها هذا الشاب السفيه من (١٨٦٣/ ١٨٧٩م) كانت من أخطر المراحل في تدمير الشخصية الإسلامية وإذابتها وحل عروبتها وهدم شريعة الإسلام جملة هدماً غير مسبوق في تاريخها.

وتلاقت رغبة إسماعيل المبهور - برغبة أخرى أذكى وأنكى وهي (رغبة أعداء

الإسلام الطامعين في محوه واستعباد أمته) وذلك: أن إسماعيل لما أراد أن ينفصل - كلياً - بمصر عن الدولة العثمانية - وعد ملوك أوربا إن أيدوه من أجل تحقيق هدفه أن يبدل أحكام القرآن فيما يتصل بالحياة السياسية والاجتماعية، ويفصل الدين عن السياسة، ويطلق الحرية للنساء بحيث يسرن في أثر المرأة الغربية، وينقل إلى مصر معالم المدنية الأوربية)[1] ؟.

وسواء كان هذا اتفاقاً أو استدراجاً فلقد كانت النتيجة المروعة هي غرق مصر في الديون - والذي سهل لبريطانيا مهمة إمداده بالمال - حتى تضيق الحبل حول رقبته، بل حول رقبة مصر كلها - والتي حدثت بشراء أسهم القناة كما أسلفنا القول - حتى ملكتهم وأطلقت يدهم في توجيه اقتصاديات البلاد وسياستها، بحجة المحافظة على مصالحهم وأموالهم، وليتهم وقفوا عند هذا الحد بل تعدوه إلى الاحتلال الكامل - ولهذا انتهزوا فرصة تحرك العناصر الوطنية للمطالبة بتحقيق مطالب الشعب على أيدي عرابي وصحبه، ونفذوا مؤامراتهم الاستعمارية ليتخلصوا من تلك العناصر الوطنية أولاً، وليتم لهم ما طمعوا فيه من احتلال مصر ثانياً وبالفعل هزم عرابي وجنده بالتل الكبير وتم احتلال الإنجليز لمصر في ديسمبر سنة ١٨٨٢م. وتم نفي عرابي وصحبه، وصفيت كل العناصر الوطنية في الجيش وخارجه وسرح الجيش الوطني القوي الذي حارب مع عرابي - وبدلاً من زيادته إلى (١٨ ألف جندي) كما طالب الزعيم عرابي - أعيد تكوينه من (٦ آلاف فقط) على رأسهم سردار إنجليزي وهكذا أصبحت السيطرة للإنجليز في كل شيء - المستشار المالي إنجليزي - المستشار القضائي إنجليزي - والمستشار في وزارة المعارف إنجليزي - والمستشار في وزارة الداخلية كذلك وزاد عدد المواطنين البريطانيين من (١٠٠ موظف) أوائل سني الاحتلال إلى (١٦٠٠ موظف في ١٩١٩م) - والوزارة المصرية تأتمر بأمر الإنجليز، وهذه رسالة وزير خارجية إنجلترا في ١٤ /١/ ١٨٨٤م يقول فيها: (... ما دام الاحتلال قائماً في مصر فلابد من

---

(١) د/ ماهر حسن فهمي، قاسم أمين، سلسلة أعلام العرب، الكاتب العربي للطباعة والنشر، بدون تاريخ، ص٦٥.

أتباع نصائح حكومة جلالة الملكة، إلى الخديوي، يجب على الوزراء والمديرين المصريين اتباع هذه النصائح، ويتخلى عن وظيفته كل من لا يسير وفق هذه السياسة من المديرين والوزراء) وهكذا أصبح للاستعمار السيطرة السياسية. فالمعتمد البريطاني هو الحاكم بأمره - والدستور الذي فاز به الشعب (١٨٨٢م) قد حطم، والبرلمان المنتخب قد ألغي وأصبحت مصر بلا برلمان أو دستور[1].

وإذا انتقلنا من الأوضاع والظروف السياسية في ظل الاحتلال الإنجليزي لمصر وتلك القبضة الحديدية التي سيرت بها الأمور في المجتمع المصري والتي أحصت على الحركة الوطنية وأبنائها - أنفاسهم وتحركاتهم وأحكمت عليهم الحصار، إلى - الحديث أو التعرف على خطة الاحتلال مع الاقتصاد المصري - فستجد العجب العجاب.

الظروف الاقتصادية:

كيف كانت خطة الاحتلال مع الاقتصاد المصري ؟ إن المتابعة لهذه الخطة تكشف عن عدد من الوسائل والأساليب التي نفذها الاستعمار على النحو التالي:-

١. تحطيم الصناعات القائمة: بإغلاق المصانع الحكومية (كمصنع الورق ببولاق - دار صك النقود - وبيع مغازل القطن ومصانع النسيج- وعطلت الترسانة التي تصب المدافع وتصنع البنادق والذخائر ... الخ).
٢. تحطيم الحرف الصغيرة: حتى تحل السلع الإنجليزية محل المصنوعات المحلية وتم تشريد (٢٠٠ ألف من صغار الحرفيين) بما فرضه عليهم من ضرائب باهظة وقوانين جائرة.
٣. حطم الاكتفاء الذاتي للريف: دون استبداله بصناعة مصرية متقدمة مثلاً، ولكن طوال الثماني وعشرين سنة الأولى التي حكموا فيها مصر، قتلوا بالفعل كل ما من شأنه أن يعود ببعض التقدم الصناعي، وفتح أبواب الجمارك على مصراعيها أمام السلع الأجنبية.

(٨١) شهدي عطية الشافعي، تطور الحركة الوطنية في مصر، دار شهدي للطبع والنشر ط١، سنة ١٩٨٧م.

٤. محاربـة الصناعة المصريـة بالوسائل الفكريـة: حتى أصبح صبية المدارس تتلقى أول مـا تتلقى أن مصر بلد زراعيـة لا يمكن أن تكون فيهـا صناعـة، بسبب عدم وجود الفحم والحديد !!! فهم أرادوها مزرعة قطنية تمد مصانعهم في إنجلترا بـالقطن المصري بأرخص الأسعار[١] . وقـد زادت المساحة المنـزرعة مـــن ١/٢ مليـــون فـــدان في ١٨٧١م إلى ١,٧٠٠ مليـــون في ١٩١٣م وارتفعت نسبة الصـادرات من ٧٠ ٪ من جملـة الصادرات في ١٨٧٠م إلى ٩٣ ٪ ١٩١٣م وفي ســنة ١٨٧٠م صدرت مصـر ٣/٤ ٣ مليون قنطـار بســعر ١/٤ ٨ مليون جنيــه، وفي ســنة ١٨٩٨م صـدرت مصر ٦ مليون قنطار بثمن ٨,٥ مليون جنيه، أي ضعف الكمية بعد ٢٨ سنة بنفس كمية النقود وهكذا ... أصبحت مصر :

١. مزرعة قطنية بأرخص الأسعار. ٢. سوق لسلع الاستعمار.

٣. مورد ربح فاحش عن طريق الرهون العقارية[٢] .

وبعد هذه اللمحـة الســريعة عن الأوضـاع الاقتصاديــة التي فرض على مصر أن تعيشــها في ظل هـذا الاحتلال الإنجليزي، ننتقل إلى الحديث عـن جـانب آخر من جوانب الحياة في المجتمع المصري ألا وهو:

الظروف الثقافية والاجتماعية:

وإذا انتقلنـا إلى الظروف الثقافية والاجتماعيـة، فنجد أنـه كما حطـم الاستعمار اقتصـاد مصر وحريتها، وكرامة الحكـم فيها، فقد حطم ثقافتها وأصبح التدريس في المدارس الابتدائيـة باللغـة الإنجليزيـة - وأهملت اللغـة العربيـة، واستبعد من التعليم دراســة التـاريخ القومي لحســاب التـاريخ الاســتعماري، وهبط مسـتوى التعليم[٣]

---

(١) د/ سعيد عبد الفتاح عاشـور، ثورة شعب عرض للحركة الوطنية في مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار النهضة العربية، ط٢ سنة ١٩٦٥م، ص٨٠.

(٢) وهو المسمى بالرهن الرسمي وتعريفه: أنه عقد به يكسب الدائن على عقار مخصص لوفاء دينه حقاً عينياً - يكون له بمقتضاه أن يتقدم على الدائنين العاديين والتاليين له في المرتبة استيفاء حقه من ثمن ذلك العقار في أي يد يكون، نقلاً عن مدونة التشريعات المصرية مطبعة نهضة مصر ص٢٥٨.

(٣) د/ عبد المنعم النمر، الثقافة الإسلامية بين الغزو والاستغذاء، ص٢٢٣.

الثانوي - فأصبح يعادل على وجه التقريب التعليم الابتدائي بفرنسا، ولعل أبرز مظاهر هذا التخلف في التعليم على عهد الاحتلال تمثلت فيما يلي:-

١. **انخفاض نسبة المتعلمين في الأربع والعشرين سنة الأولى من الاحتلال إلى النصف وانخفاض ميزانية التعليم بشكل واضح عما كانت عليه قبل** الاحتلال - (١٨٨٣م كانت النسبة ١٦٪ فصارت في ١٩٠٧م نحو ٨٪) كما كانت الميزانية في ١٨٦٦م أكثر من (١٤١ ألف جنيه) فهبطت في ١٨٨٥م إلى ٨٤,٦٨٩ وزادت هبوطاً في ١٨٩٠م إلى ٨٠,٣٣٧.

٢. **ولم تترك للفصحى وسيلة للتعبير خارج قاعات الدرس**، لتنمو وتطرد وتصل المصريين بالماضي القريب المشرق، والتراث الإسلامي المجيد، وتجمعهم مع إخوانهم العرب والمسلمين في وحدة إسلامية جامعة - وإنما ظهرت دعوات خبيثة من خبراء الاستعمار تهاجم الفصحى وتنسب إلى المصريين التخلف والعجز بسببها، وتنادي باتخاذ العامية لغة للتأليف العلمي والأدبي.

وكان من أخطر الأدوات العصرية التي استخدمها الاستعمار في تحطيم ثقافة مصر الصحافة: باعتبارها أكثر شيوعاً وأبعد تأثيراً سواء كانت محلية أو مستوردة، تحمل للمسلمين قيماً جديدة وضروباً من الأفكار المخزية، والقصص البذيئة، والمقالات والبحوث التي تتناول كثيراً من المقدسات الدينية بالنقد والتجريح،عظيمة الأثر بالغة الخطر،وهكذا تحولت الصحافة وأمثالها على يد الاحتلال وعلى يد تلاميذه، من أسلحة للتثقيف الوطني إلى أسلحة فاسدة مرتدة إلى صدور أمتها إجتماعياً وفكرياً ودينياً[(١)].

وهذا هو المستشرق الإنجليزي (جب: حين يستعرض أنجح الوسائل لتغريب المجتمع المسلم تغريباً حقيقياً، يهضمون فيه الحضارة الغربية:-

(إن الصحافة هي أقوى الأدوات الأوربية وأعظمها نفوذا في العالم الإسلامي ...)

(١) د/ عبد الستار فتح الله سعيد، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، دار الوفاء، ط٤، سنة ١٩٨٨م.

فقد كان للصحافة الموالية للاستعمار دور كبير في تربية الشعب على الطريقة التي أرادها المستعمر، إذ كانت فضلاً عما سبق تعمل على إقناع الناس بضرورة احترام المحتلين لما نالت مصر من خير على أيديهم - ويطالبونهم بالارتباط بالحياة الأوربية[1] .

والخلاصة:

إنه بسقوط مصر في براثن الاحتلال البريطاني - وهزيمة عرابي - سيطرت قوى الاحتلال على الاقتصاد، والحكم، والقانون، والتعليم، وأنشبت أظفارها فيه بقوة. **فالنظام الربوي** الذي يقوم على السيطرة الاستعمارية على كل مقدرات البلاد مضى بكل قوة يحصد المزارعين المصريين ويحملهم الديون ويجعلهم عبيداً للأجنبي.

والقانون: الذي قام على المحاكم المختلطة والتي انتهت أيام إسماعيل إلى استجلاب القانون الفرنسي بنصه، ليكون قانوناً للمحاكم المختلطة - ولكن بقيت الشريعة محكمة بين المسلمين ورعايا الحكومة المصرية إذا لم يكن طرف الخصومة أجنبياً، ولكن بعد ٧ سنوات فقط من استجلاب القانون الفرنسي احتل الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢م وبعد عام واحد قدموا على أخطر الأمور وهي قصر القضاء الشرعي الإسلامي على ما سمي بالأحوال الشخصية - أما بقية المعاملات فقد أحالوها للمحاكم المختلطة.

كما عمل دنلوب: بكل الإخلاص على تغريب الفكر الإسلامي عن طريق مناهج التعليم - وحجب كل مقومات الإسلام واللغة والتاريخ الإسلامي عن هذه المناهج، **وكرومر**[2] : من وراء ذلك كله يدعو إلى تكوين جيل جديد من المتفرنجين المصريين ذوي الولاء الغربي لبريطانيا ليسلمهم زمام الحكم في البلاد،

---

(١) د/ السيد فرج، جذور العلمانية في مصر، ص٥٦.

(٢) كرومر: هو (ايفلين هنري بارنج) ١٨٤١ - ١٩١٧م سياسي بريطاني عين قنصلاً عاماً ومعتمد سياسياً وحاكماً فعلياً بعد الاحتلال البريطاني لمدة أربعة وعشرين عاماً ١٨٨٣ /١٩٠٧م، عبد الله عبد الحميد سمك، من مواقف علماء الأزهر في الدفاع عن الإسلام، دكتوراه سنة ١٩٩٠م، بكلية الدعوة ص٧٤.

وخلال ربع قرن كامل مضى كرومر يقاوم الحركة الوطنية، ويقاوم الجامعة الإسلامية، ويقاوم تعليم عموم الأمة، ويغرس ذلك البلاء الأجنبي الذي أثمر في مجموعة من الأفراد ولاهم أمور البلاد.

أمثال لطفي السيد في مجال الصحافة والذي كان من دعاة الدارونية ومنادياً بنبذ الإسلامية بل والعربية (الأمة العربية) متعللاً بأن المصلحة لن تعود على المصريين إلا بنبذها، فعندما احتلت إيطاليا المسيحية ليبيا الإسلامية العربية جمعت مصر ستة آلاف جنيه مصرياً ومثلها ذهباً لتقدمها للأشقاء الليبيين كما أرسل بعض المصريين البعثات الطبية لإسعاف المنكوبين – ولكن لطفي السيد أخذ يندد بهؤلاء البلهاء (على حد اعتقاده) الذين قدموا المساعدات[1].

وهكذا نجح الاستعمار بجهود كرومر في إيجاد هذه النوعية من الرموز والزعماء، بل إن حركة التحول تمثلت في جماعه من المثقفين يتكوكبون حول صالون الأميرة نازلي فاضل تحت نفوذ اللورد كرومر – ومن هؤلاء أنشئ حزب الأمة ... الذي قاد حركته الفكرية لطفي السيد. وكان سعد زغلول – كما ذهب إلى **ذلك** الخديوي عباس في مذكراته – هو الرأس المفكرة وراء هذا الحزب وتلك الجريدة في مستهل عهدها – وهكذا **كان هدف بريطانيا**: احتواء مصر في دائرة الفكر الغربي وصهرها وإخراجها من مفاهيم الإسلام عبر عدد من الوسائل منها:

(أ) ذلك التحول الذي أحدثه دنلوب في مناهج الدراسة.

(ب) دعوة لطفي السيد لقصر التعليم على أبناء الأعيان وحدهم.

(ج) كانت الدعوة إلى إحلال العامية في الكتابة من أخطر الدعوات التي حمل لواءها الاستعمار البريطاني.

(د) علمنة المجتمع المصري من خلال تلك الدعوة الملحة على أن الإسلام دين عبادة ومسجد، وأنه لا صلة له مطلقاً بالمجتمع أو قضاياه وذلك بهدف: تركيز القانون الوضعي وحجب الشريعة الإسلامية التي توقفت في عهد النفوذ الأجنبي لأول مرة منذ أربعة عشر قرناً من التطبيق– وكان العمل دائباً على تعميق الإقليمية

---

(١) د/ السيد فرج، جذور العلمانية في مصر، ص ص.٧٤.

المصرية وفصل المصريين عن العرب والمسلمين من ناحية. وأغلقت الجرائد الوطنية. فصودرت (مرآة الشرق) و(جريدة الزمان) والسفير، وظهرت **جريدة الأهرام في ٢٩/ ٩/ ١٨٨٢م** حاملة على العاصي عرابي ورفاقه البغاة ناشرة صورة في صدرها للجنرال ولسلسي **قائد الحملة الإنجليزية** على مصر - واستقبلت **جريدة الوطن** الاحتلال استقبالاً منقطع النظير فنراها تقول في أحد أعدادها (إن جريدة الوطن دون غيرها، طالما وافقت على سياسة إنجلترا، ونشرت مآثر أهلها ومكارم أخلاقهم. وهكذا بلغ الانحدار مبلغه بالثقافة الوطنية والصحف المحلية، وهكذا عمل الاستعمار على قتل القوتين الثقافية والأخلاقية، اللتين تمثلان عقل الأمة وضميرها. تماماً كما عمل على قتل القوتين العسكرية والاقتصادية اللتين تمثلان ساعد الأمة وقلبها. ومن ذلك كله. كانت التركة التي خلفها الاحتلال تركة مثقلة رهيبة تحتاج إلى نضال صابر وكفاح مرير حتى يصلح ما فسد ويقوم ما عوج. **وكان على البلاد أن تناضل في ميادين كثيرة جديدة.**

في ميدان السياسة: ضد المحتل وحليفة القصر، وفي ميدان التعليم: ضد الجهل والأمية، وفي ميدان الاقتصاد: ضد الفقر والاستغلال، وفي ميدان الثقافة: ضد العدوان على اللغة وتراث العرب والإسلام، وفي ميدان الأخلاق: ضد التفرنج والتبذل.

لمحة عن المقاومة الوطنية للاحتلال ومراحلها:

أن المتأمل في أحوال مصر في هذه السنوات التي أعقبت الاحتلال الإنجليزي المشئوم لمصر، يجد أنها اتسمت في العشرة الأولى بالسكون، وخيم عليها ما يشبه الذهول الذي يصيب المرء من أثر الصدمة، وكان للضغط الشديد الذي يفرضه الإنجليز، وللاضطهاد البالغ الذي يقع على المصريين أثر كبير في سيطرة هذا الجو الكئيب، الذي أوقف تقريباً كل نشاط سياسي للقيادات المصرية ووجه النضال إلى طريق الإصلاح الديني والفكري الذي تزعمه من رأوا أن الحالة غير ملائمة للعمل السياسي، وأن الواجب انتهاز الفرصة للإصلاح في ميادين أخرى، تؤهل المواطنين بعد ذلك لحياة أفضل. ودون دخول في تفصيلات كثيرة لا يتسع المقام لبحثها

واستقصائها فقد نبعت كل أوجه المقاومة الوطنية للاستعمار من منبعين رئيسيين:-

النبع الأول: النبع الإسلامي الأزهري [1]:

(١) لقد كان الأزهر، موقد الثورات الشعبية ومغذيها وقائدها ضد كل استعمار من الخارج أوظلم من الداخل، ولا زال التاريخ يسطر بحروف من نور موقف علماء أزهرنا الشريف من الحملة الفرنسية ومن ظلم بعض الولاة العثمانيين، ومن طغيان بعض المماليك، ويكفي كنموذج لهذه الحقائق موقف الأزهر من الاستعمار الفرنسي فقد (حسب نابليون أن مصر سوف تفتح له ذراعيها، لكنه فوجئ بثورات عارمة ومقاومة باسلة يقوم فيها الشعب الأعزل أمام القوات المسلحة بالحديد والنار، وشكلت لجنة لقيام الثورة وجعلت مقرها الأزهر بقيادة الشيخ السادات، وعلت صيحات الغضب من كل مكان وتجمع أفراد الشعب في المساجد حول العلماء يستمعون إليهم وهم يلهبون العواطف ويثيرون الهمم انبث الفقهاء في الشوارع - من كان موحداً أي من أهل التوحيد فليأت إلى الجامع الأزهر، لأن اليوم يوم المغازاة للكفار وعلينا أن نزيل العار ونأخذ الثأر، وخرج ثمانية آلاف مجاهد من باب الفتوح وتدفقوا منه إلى المرتفعات للاستيلاء على المواقع التي نصبت نيرانها، واستشاط الفرنسيون غضباً فسلطوا قذائف مدافعهم على الأزهر موطن الثورة وأخذت القنابل تترامى على الجامع والأحياء المجاورة، حتى تصدعت الجدران ودفن الألوف من النساء والأطفال والشيوخ تحت الأنقاض وجرى الدم في الشوارع من الفريقين، حتى بلغ عدد القتلى زهاء أربعة آلاف من الأنفس في هذا اليوم ولم يلبث الفرنسيون أن احتلوا الجامع الأزهر بخيولهم وجاسوا حلال أروقته، وقبضوا على زعماء الثورة من علماء الأزهر وأعدموهم دون محاكمة، وكذلك عندما انتفضت مصر انتفاضتها الكبرى بقيادة أحمد عرابي الذي تعلم أول أمره في الأزهر، وكانت الثورة على توفيق واستصدر الخديوي فرماناً بعزل عرابي من منصبه بالجيش لجأ عرابي إلى العلماء فأصدروا فتوى جريئة قالوا فيها (إن الخديوي توفيق خائن لدينه ولوطنه، وقد مرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية) !!

هذه هي بعض مواقف وصفحات الأزهر الشريف الخالدة، التي تعبر عن عميق أثره وعظيم خطره، ودوره العلمي والتربوي والديني في مجالات الحياة المختلفة اجتماعية وسياسية، دوره الذي أحس به الشعب ولمسه وعايشه وسجله التاريخ. لكن الأزهر في فترة الاحتلال الإنجليزي ومطالع النهضة المصرية الحديثة كما يزعمون قد اختفى أثره وتنحى عن مقعد القيادة ولنا أن نتساءل، لماذا أركدت ريحه وضعفت دولته، وهنا نجد أن الاستعمار الإنجليزي عندما قدم إلى مصر، وهو يريدها أن تسلم له قيادها وفكرها ومشاعرها وعواطفها، لم يستعص عليه إلا الأزهر الشريف، فلم يكن كما أرادوا سلس القياد سهل الانقياد، فوجد المستعمرون أن أفضل وسيلة للخلاص منه أن يترك وحده بعيداً عن تيار الحياة المعاصرة، حتى ينكمش أو يموت داخل جدرانه وظل الأزهر بالفعل - فترة من الزمن يدور حول نفسه لا يأتي بجديد ولا يرقى بقديم مما أتاح فرصة واسعة للاستعمار الثقافي ليعمل عمله في الفكر والتشريع والحياة الاجتماعية كلها وتمكن الغزو الفكري والروحي والاجتماعي الذي قام به التبشير والاستعمار أن يكسب انتصارات جزئية في ميادين شتى على حساب الإسلام وعقائده وتقاليده ونظمه وآدابه من خلال الأستاذ الذي يفسد الفكر، والعلم الذي يزرع الشك، والكتاب الذي يمرض اليقين، والصحيفة التي تنشر الرذيلة، والقلم الذي يزين الفاحشة..الخ ؛ [د/ يوسف القرضاوي، رسالة الأزهر بين الأمس واليوم، مكتبة وهبة ط١ سنة ١٩٨٤م، ص٤٧، ٤٩].

غير أن ما هو جدير أن يسجل هنا - أن نفي الاحتلال الإنجليزي لعلماء الأزهر وإبعادهم عن البلاد لم يوهن من عزيمتهم بل كان منهم من ضاعف العمل لمحاربة الاحتلال وهو منفي عن البلاد، وعلى رأس هؤلاء الشيخ الإمام محمد عبده فقد نفي إلى بيروت فلم يسكت، بل واصل المعارضة الغاضبة لأعداء الإسلام، وانتقل إلى باريس لينضم لصديقه الأفغاني ليصدرا معا مجلة العروة الوثقى لمحاربة الاحتلال أو مقابلة أساطين الساسة من الوزراء والنواب ويكتبان في الصحف العالمية منددين بفظائع الاستعمار في كل بلد إسلامي، بل سافر محمد عبده إلى إنجلترا نفسها ليصارع الاستعمار في عقر داره، وفي مصر تنشر جريدة اللواء في ٢٥يناير١٩٠٩م مقالا يتحدث عن إضراب الطلاب بالأزهر إذ رفضوا العودة حتى تجاب مطالبهم الإصلاحية وعقدوا عدة اجتماعات كثرت فيها الخطب الحماسية التي لم تقف عند حدود الإصلاح التعليمي بل تجاوزته إلى المناداة بالحرية والاستقلال، مما أهاج الخديوي عباس الذي ظن أن حركة الإمام محمد عبده قد ماتت، لكنه يجد=

الذي بدأ ينتعش ويخرج من القوقعة، ويفكر في تحرير العقيدة وإحياء اللغة العربية، وأداء الدور الصحيح لبناء الثقافة الإسلامية، وقد قاد هذا العمل المصلح الإسلامي - جمال الدين الأفغاني (٢)، والأستاذ الإمام محمد عبده (٣) وتلاميذهم

-تعاليمه تمتد وتنتشر وتحظى بالإجماع لدى الشبيه الأزهرية، وتشكلت لجنة برعاية وكيل الأزهر محمد أبي الفضل الجيزاوي وحاول أعضاء اللجنة أن يطمئنوا الطلاب بالوعود المعسولة، لكنهم لم يجدوا منهم غير الكلام فقط فاندلعت مظاهرة أزهرية كبرى في ٢٧/ ١ / ١٩٠٩م حيث تقدم طلبة الأزهر في صفوف متوالية إلى ساحة عابدين واصطدم البوليس بهم وطالب الأزهريون بأن يكون للأزهر سيطرته على أوقافه التي كان يتلاعب الخديوي بمقدراتها في إطار تبعيتها للأوقاف، وفي أول فبراير احتمع بمجلس الأزهر الأعلى برئاسة الخديوي وقرر حرمان جميع من اشتركوا في المظاهرات من الدراسة، والسماح للباقين، ولكنهم رفضوا وتضامنوا مع إخوانهم وتأزم الموقف، وتشدد الخديوي مما أدى إلى استقالة الشيخ حسونة النواوي، ونكلت الحكومة بالطلاب واعتقلت مائة وعشرين طالباً وارغمت مئات على الرحيل الجبري إلى مواطنهم الأصلية في القرى ومنعت العلماء من الصلاة بالجامع الأزهر؛[د/ محمد رجب البيومي، الأزهر بين السياسة وحرية الفكر كتاب الهلال مارس ١٩٨٣م ص٨٤، ٨٥].

(١) السيد جمال الدين الأفغاني: (١٨٣٩/١٨٩٦) ولد بإسلام أباد في افغانستان وتلقى تعليمه الديني في كابل حيث تعلم اللغة العربية والتفسير والحديث والفقه.. الخ، جمع بين الثقافة القديمة والحديثة - ثم رحل إلى مكة حاجا ١٨٥٧م وعاد إلى أفغانستان فتولى رئاسة وزرائها في عهد الأمير محمد أعظم ثم ارتحل إلى مصر ١٨٧٠م وبناء على دعوة السلطان عبد العزيز انتقل إلى الأستانة وعين عضواً في مجلس المعارف وحدث خلاف بينه وبين شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي فترك دار الخلافة إلى مصر ١٨٧١م فاستقبله الخديوي إسماعيل ورئيس وزرائه رياض باشا بالترحاب - إلا أن توفيق أمر بنفي جمال الدين في ١٨٧٩م فغادرها إلى الهند حيث أقام ثلاث سنوات أكب خلالها على الدراسة والتأليف ثم ذهب لباريس والتقى بالشيخ الإمام وأصدرا معاً مجلة العروة الوثقى ١٨٨٤م - وقامت آراؤه الإصلاحية على عديد من المرتكزات:

١. رأى أن العامل في تدهور الحضارة الإسلامية وضياع مجد المسلمين هو إهمال ما كان سبباً في النهوض والمجد وعزة الملك وهو ترك حكمة الدين والعمل بها وعلى هذا الأساس دعا الأفغاني إلى وحدة الشعوب الإسلامية وإزالة الفوارق بين الفرق الإسلامية.

٢. تحرير الفكر الديني من قيود التقليد وفتح باب الاجتهاد، فهو يقول بأي نص سد باب الاجتهاد ؟ وأي إمام قال لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهد ليتفقه في الدين ؟.

٣. التوفيق بين العلم والإيمان: يقول (إن الدين لا يصح أن يخالف الحقائق العلمية فإن كان ظاهره المخالفة وجب تأويله، وقد عم الجهل وتفشى الجمود في كثير من المتزدين برداء العلماء حتى اتهم القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة والقرآن بريءٌ مما يقولون، ويجب أن يجل عن مخالفة العلم الحقيقي خصوصاً في الكليات. " أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث النهضة العربية، سنة ١٩٤٨م، ص١١٤.

٤. التدقيق في النصوص الدينية واستخلاص الصحيح منها بالاعتماد على القرآن الكريم والحديث المتواتر وعلى إجماع المسلمين في صدر الإسلام أما ما عدا ذلك من آراء ونظريات للفقهاء المسلمين فيستأنس بها كرأي ولا يعتمد عليها كقاعدة.

٥. رفض تقليد الغرب في مختلف نواحي الحياة دون ضرورة يقول (علمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث بأن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى، لتطرق الأعداء إليها ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين) محمد عمارة، الأعمال الكاملة للأفغاني، ص١٩٦.

٦. إطلاع العلماء المسلمين على كافة التيارات الفكرية الحديثة ضرورة لابد منها لقبول ما يتفق والشريعة الإسلامية ويفيد المسلمين في حياتهم ورفض ما يتعارض وعقيدتهم.

٧. الطريق إلى التمدن الحقيقي هو الإصلاح الديني أي (اهتمامنا بقلع ما رسخ في عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية على غير وجهها الصحيح مثلهم حملهم القضاء والقدر على معنى يوجب أن لا يتحركوا لطلب مجد ولا لتخلص من ذل.

٨. الدفاع عن الإسلام والحضارة الإسلامية، ومجادلاته مع أرنست رينان الأستاذ بجامعة السوربون حول محاضراته التي ألقاها ١٨٨٣م عن الإسلام والعلم وكيف الإسلام يدعو إلى الجهل والتخلف والرجعية وانتهز الأفغاني هذه المناسبة ليبرز دور الإسلام في الحض على طلب العلم وتنمية الفكر الإنساني ودلل على ذلك بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية - وكذلك بالإنجازات التي حققها العرب.

(٢) الأستاذ الإمام محمد عبده: ١٨٤٩/١٩٠٥م ولد بمحلة نصر وتعلم فيها القراءة والكتابة ثم انتقل إلى المسجد-

في الأزهر الشريف وخارجه أمثال حسن الطويل (١) وشكيب أرسلان (٢) وعبد القادر المغربي (٣) ورشيد رضا (٤) صاحب مجلة المنار وتفسيره، والشيخ المراغي،

-الأحمدي بطنطا ليجود القرآن الكريم ثم انتقل للقاهرة وبعد دراسة اثني عشر سنة نال شهادة العالمية من الأزهر في ١٨٧٧م وعين مدرساً بدار العلوم وكتب بجريدة الأهرام وتولى تحرير الوقائع المصرية واشترك في ثورة عرابي فسجن ثلاثة أشهر ونفي ثلاث سنوات التقى خلالها بالأفغاني ثم عاد إلى مصر بعد ٦ سنوات من المنفى ١٨٨٨م بوساطة صديقه رياض باشا - ولما تولى الخديوي عباس ١٨٩٢م عينه بمجلس إدارة الأزهر وتولى الإفتاء في مصر ١٨٩٩م واختير عضواً بمجلس شورى القوانين اعتمد في دعوته على الأسس التالية:

١. تطهير الإسلام من البدع والخرافات والعودة به إلى نقائه الأول وهاجم التقليد والمقلدين كما فعل الأفغاني.

٢. إعادة النظر في عرض المذاهب الإسلامية على ضوء الفكر الحديث وعمد إلى استخدام العلم الحديث في تفنيده للآيات القرآنية.

٣. الدفاع عن الإسلام ضد التأثيرات الغربية وضد حملات المبشرين المسيحيين بصفة خاصة.

٤. إصلاح التعليم العالي الإسلامي بإدخال العلوم الحديثة، نقلاً عن د/ علي الحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ط٥، سنة ١٩٨٧م، ص٧٧: ٨١

(١) ولد سنة ١٩٠٦/ ت ١٩٤٩ مصري مالكي المولد ولد بمنية شهالة بالمنوفية وتعلم بطنطا ثم بالأزهر، واشتغل بالتدريس وتولى تصحيح ما يطبعه ديوان الجهادية ثم مفتشاً بوزارة المعارف، ولما قام المهدي بالسودان وعظم أمره جاهر حسن الطويل بنصرته وساء الإنجليز ذلك وكاد أن يصيبه أذاهم، وكان رحمه الله شديد الإنكار على المبتدعة وصفه تلميذه أحمد بن تيمور بالورع وله عنوان البيان في التفسير.

نقلاً عن: خير الدين الزركلي الأعلام ج٢ ص١٨٣ دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٨٤م.

(٢) شكيب أرسلان ولد سنة ١٨٦٩/ ت/ ١٩٤٦م، عالم من أكابر الكتاب والأدباء ينعت بأمير البيان- من أعضاء المجمع العلمي العربي ولد بالشويفات (بلبنان) وتعلم في مدرسة: دار الحكمة ببيروت، عالج السياسة الإسلامية قبل انهيار الدولة العثمانية وكان من أشداء المتحمسين من أنصارها، من مؤلفاته (الحلل السندسية في الرحلة الأندلسية ط ثلاثة مجلدات)، (غزوات العرب في فرنسا وشمالي إيطاليا وفي سويسرا - طبع) (لماذا تأخر المسلمون؟ طبع) (حاضر العالم الإسلامي).

نقلاً عن: خير الدين الزركلي الاعلام ج٣ ص١٧٥ دار العلم للملايين بيروت.

(٣) إنه علامة الشام الشيخ عبد القادر المغربي تلميذ جمال الدين الأفغاني وصديق محمد عبده والعلامة الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين رئيس هيئة الهداية الإسلامية وشيخ الأزهر فيما بعد، ونائب رئيس المجمع العلمي بدمشق، وعضو بمجمع اللغة العربية، وصاحب المصنفات الرائعة في التاريخ واللغة والأدب والتفسير والأخلاق صاحب الخلق الرفيع والخصال الحميدة، نقلاً عن د. محمد رجب البيومي (العلامة عبد القادر المغربي ورواية الحديث).

(٤) محمد رشيد رضا (١٨٦٥/ ١٩٣٥) ولد بالقلمون قرب طرابلس بالشام ودخل المدرسة الوطنية الإسلامية وتتلمذ فيها على عدد من العلماء والأدباء أشهرهم الشيخ حسين الجنيد، - والتقى بالشيخ محمد عبده في طرابلس ١٨٩٤م ثم ارتحل إلى مصر عام ١٨٧٩م واتصل من جديد بمحمد عبده وأصدر في العام التالي مجلة المنار ولخصها بقوله (إنما أنشئ المنار للدعوة إلى الإصلاح الإسلامي بجميع أنواعه لا سيما الديني بإصلاح التربية والتعليم).

وظلت تصدر حتى وفاة صاحبها - وإلى جانب إصدار المنار ألف الشيخ رشيد رضا مجموعة من الكتب أبرزت اتجاهاته في الإصلاح الديني والسياسي والاجتماعي بلغت سبعة عشر مؤلفاً- وقامت آراؤه على الأسس التالية:

١. استقلال الفكر وحرية العقل في العلم واجتناب تقليد العلماء

٢. إبطال البدع والخرافات والتقاليد والعادات التي أفسدت العقائد والأخلاق والأعمال.

٣. إصلاح نظام التربية والتعليم ووجه اهتمامه بشكل خاص إلى الأزهر مطالباً بإصلاح نظام التعليم فيه. -

وإبراهيم المويلحي .. وغيرهم.

وتنحصر فكرة هذا النبع ومنطلقاته في القضية الاستعمارية في ما يلي: هذا الاتجاه: يرى أن المشكلة الأولى هي مشكلة جلاء الإنجليز وإنهاء الاحتلال، مع الإيمان بأن الجامعة الإسلامية هي طريق القوة وبأن الولاء للخلافة ولاء ضروري تفرضه فكرة الإيمان بضرورة وجود جامعة إسلامية تتكتل ليواجه بها الاستعمار، وبهذا فقد صبغت دعوتهم الإصلاحية بطابع إسلامي عربي واضح، وذلك لارتباط الإسلام بالتراث العربي ارتباط لا انفصام له، ومن هنا: عنوا بالتراث العربي والاهتمام به. كما نافحوا عن اللغة العربية وتصدوا للدعوات المحاربة لها أو الغاضة من شأنها- مهتمين بإشاعة القيم الإسلامية والاعتماد على الأسلوب الحضاري الذي عرفته حضارة العرب والإسلام.

النبع الثاني: النبع الوطني:

وهو نبع ملتزم بالوحدة الوطنية الإسلامية الجامعة، يهدف إلى مقاومة الاستعمار خاصة استعمار بريطانيا، ويعارضها معارضة ضخمة واسعة، ويأتي في مقدمة هذا التيار مصطفى كامل- محمد فريد، وعبد العزيز جاويش، وأمين الرافعي، وقد كان هذا التيار أشد على الاستعمار من التيار الأول في المعارضة.

بينما كان هدف التيار الأول: بناء الإنسان المسلم بعيدا عن مجالات السياسة وتكوينه ثقافيا وتربوياً. وهذا هو العمل الذي توفر عليه الشيخ محمد عبده الذي كان يرى أن أسلوب التربية هو الطريق الوحيد لتحرير هذه الأمة وبناء عزها، وكان هدف الاستعمار القضاء على ثلاثة أمور:

(١) الوحدة الإسلامية: وقد اصطنع لذلك فكرة الجامعة العربية والتي نادى بها [الشيخ علي يوسف [1] - وعبد الرحمن الكواكبي [2]] وفكرة الجامعة المصرية

-٤. الدعوة إلى الإسلام في العالم وذلك بتهيئة جيل من المثقفين ثقافة دينية والملمين باللغات الأجنبية.
نقلاً عن د/ علي الحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، ص٩٤.

(١) الشيخ علي يوسف صحفي كبير قام بدور كبير في إذكاء الحركة الوطنية المصرية في أواخر القرن الماضي ١٨٨٩/١٩١٣م.

(٢) الكواكبي: أحد المصلحين الإسلاميين العباقرة صاحب طبائع الاستبداد، وأم القرى ١٩٠٢/١٨٥٤م.

[لطفي[(١)] السيد ومدرسته الجديد].

(٢) اللغة العربيـة: وقد اصطنع لذلك ويلكوكس ودعوتـه إلى العامية وولاء لطفي السيد وقاسم أمين[(٢)] لها ودعوتهما إليه.

(٣) التعليم العلماني المفرغ من الإسلام:وقد اصطنع لذلك سعد زغلول على خط دنلوب.

(٤) الشريعة الإسلامية: وقد ركز في ذلك على نظام المحاكم الأهلية والقانون الوضعي، وبجانب هذين النبعين السابقين اللذين وقفا في وجه الاستعمار البريطاني فقد شهدت البلاد في هذه الفترة اتجاها ثانيا يمثله.

التيار القومي: وقد كان ينطلق من حماس قومي. داع إلى إلغاء الخلافة الإسلامية أو الانفصال عنها وانه لا ولاء لمصر ولا عمل إلا من اجل المصريين ومن الملاحظ:

سبق المسيحيين العرب إلى التحسس بالشعور القومي، والمجاهرة بالحركة القومية. ففي بداية القرن التاسع عشر دخل المذهب البروتستانتي إلى البلاد العربية وترجم الإنجيل إلى اللغة العربية، وأخذت طوائف الروم الأرثوذكس في بلاد الشام تطالب بتعريب كنيستها وكانت الكنائس الكاثوليكية بما فيها الموارنة قد استقلت عن روما وصار لها بطاركة ومطارنة من العرب وغدت لها مدارسها العربية وتخرج من المدارس التي أنشأتها الإرساليات التبشيرية والطوائف المختلفة. رواد الحرية القومية العربية وعلى يد العرب المسيحيين تشكلت أولى الجمعيات السرية العربية التي نددت بالحكم التركي وطالبت باستقلال الولايات العربية عن الدولة العثمانية إلا أن هذه الحركة اقتصرت على آسيا العربية دون غيرها من البلاد العربية [(٣)].

---

(١) لطفي السيد، من أطلق عليه - أستاذ الجيل - صاحب صحيفة الجريدة والدعوة إلى قصر التعليم على أبناء الأعيان.

(٢) صاحب الدعوة إلى تحرير المرأة وأن يكون لها ما للرجل تختلط بمن تشاء .... الخ، ١٨٧٥/
ولكن أثبت الأستاذ أنور الجندي رجوعه عن هذه الآراء الخطيرة من خلال تصريح مطول أدلى به إلى صحيفة الظاهر لصاحبها المحامي محمد أبو شادي عدد أكتوبر ١٩٠٦م.

(٣) فقد تأسست جمعية بيروت السرية ١٨٧٥م على يد بعض الطلاب بالكلية الأمريكانية السورية البروتستانتية وأخذت توزع منشوراتها في الشوارع مطالبة ١. بمنح سوريا الاستقلال. ٢. الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية. ٣. جعل الخدمة العسكرية محلية، وكان فارس نمر الذي هاجر إلى مصر عام ١٨٨٣م وأنشأ المقطم والمقتطف أحد أعضاء هذه الجمعية - كما كان يعقوب صروف كذلك ونظم=

وهكذا كان رواد هـذا التيار القومي من نصارى العرب- يعطون ظهورهم للخلافة ويولون وجوههم شطر البـلاد التي نشأت فيها القوميات- ومن هنا شكل أصحاب هذا الاتجاه شطرا كبيرا من حيـاتهم ونشاطهم بألوان الإصلاح المستمد من حضارة الغرب ومدنيـة أوربا. فنادوا بـالفصل بين الدين والدولة. كمـا نادوا بفكرة الوطنية بمفهوم عقلي مصلحي، لا بمفهوم وجداني حماسي. كذلك دعوا إلى تفسير نصوص الدين بمـا يلائم الحضارة ويتفق مع التطـور وظهرت في هذا المجال دعـوة قاسم أمين لتحرير المرأة !!! [1] .

إذاً وخلاصة ما انتهى إليه الاتجاه الأول. (اتجاه الجامعة الإسلامية).

من الناحيـة السياسية: أخذ يضعف شيئا فشيئا حتى أصبحت دعوته السياسية أشبه بالحلم الذي يعيشه بعض المتحمسين له.

لكن من الناحية الفكرية فقد كان في المحل الأول في وجدان الجماهير المسلمة في

=الشاعر إبراهيم اليازجي قصائد ثورية دعا فيها العرب إلى الاتحاد والمقاومة الترك. يقول:

أقد أراكم في عيون الترك نازلة ... وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

لا يستقيم لهم عهد إذا عقدوا ... ولا يصح لهـم وعد إذا ضربـوا

لا دولة لكم يشتد أذركـم ... بهـا ولا ناصر للخطب ينتصر

وأنشـئت عام ١٨٨١: جمعيـة سرية أخرى هـي (جمعية حقـوق الملة العربيـة) من المثقفـين العرب في بيروت ودمشق وطرابلس وصيدا - منادية بالوحدة الإسلامية المسيحية ضمن الإطار القومي العربي وتوزع المنشورات التي تحث العـرب على التمرد علـى الاستبداد الحميدي فهي تقول (يـا أهل الوطن قـد علمتم بفجور الأتراك وظلمهم، وإن فئـة منهم قد تحكمـت في رقابكم، واسـتعبدتكم، وإنهم قد داسـوا شـريعتكم، وامتهنـوا حرمة كتبكم وسدوا أبواب النجاح في وجوهكم، واتخذوكم أرقاء، وقديماً كنتم أصحاب الحلّ والعقد، ومنكم ظهر أولو العلم والفضل، وعلى قواعد لغتكم بنيت أصول الخلافة التي اختلسها منكم الأتراك ..).

وفي نفس الوقت ظهرت دعوة جديدة بإقامـــــــة خلافة عربية مقام العثمانية على يد عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤/ ١٩٠٢) في كتابـه أم القرى بمصر - تناول فيـه مسـألة الخلافة وألقـى بذور الشك في صحـة اعتبار السـلاطين خلفاء للمسلمين وكيف أن الكتب الفقهية الأساسية تركز على شرط (قرشية الخليفة)

وأنشأ نجيب عازوري (عصبـة الوطن العربي) في باريس بهدف تحرير الولايات العربية من الحكم التركي ونشرت العصبة حوالي ٥٠ نداء موجـهاً للعـــرب تدعوهم إلى الثورة على الأتراك كما نشر كتاباً بالفرنسية (يقظة الأمة العربية) دعـا فيه إلى فصل الولايات العربية عن الدولة العثمانية على أن تكون الحجاز مقراً لخلافة عربية - وطالب بتوحيد الكنائس الكاثوليكيـة تحت اسم الكنيسـة الكاثوليكيـة العربية، كما أصدر مع مجموعة من الكتاب الفرنسيين بمجلة شهرية هي (استقلال العرب) صدر عددها الأول منها في نيسان ١٩٠٧م - كان الغرض منها التعريف بـالبلاد العربية وإثارة اهتمـام الناس بقضية تحريرها، نقـلاً عن / على الحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب ص١٣: ١٣٥.

(١) أنور الجندي، عقبات في طريق النهضـة، دار الاعتصام للنشر والتوزيـع، بدون رقم للطبعة، سنة ١٩٦٤م، ص٥٧.

تلك الفترة – ثم استمرت دعوتها وعاشت عبر سنوات طويلة، كتيار فكري يرى أن الانطلاق إلى الثقافة، واللحاق بركب الحضارة يجب أن يبدأ مما عرفه العرب أيام مجدهم الزاهر والذي تمثله أصدق تمثيل مقولة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أثناء توجهه لفتح بيت المقدس – إلى الصحابي الجليل أبي عبيده.. قال خرج عمر ﷺ إلى الشام فأتى علي فخاطبه وعمر على ناقة له- فنزل وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته فخاض: فقال أبو عبيدة يا أمير المؤمنين أأنت تفعل هذا؟ أما يسرني أن أهل البلد اشتشرفوك: فقال: أوه ولو يقول ذا غيرك أبا عبيدة؟! جعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ « إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»[1] .

بعض الاستنتاجات العامة من هذا التمهيد:

بعد هذه الجولة السريعة التي تعرفنا من خلالها على ملامح البلاد الشامية في القرن الماضي. على الصعيد السياسي، والاجتماعي، والعلمي (المعاهد العلمية – الطباعة ودور النشر) يمكننا أن نقف على بعض الاستنتاجات التالية:

أبرز ما يستوقفنا عقب هذه الجولة. تلك **الطائفية المقيتة** التي يحيا في إطارها المجتمع اللبناني- قديما وحديثا- والتي تعتبر بحق واحدة من أخطر المشكلات التي تواجه الوطن العربي بأسره- وكانت- ولا تزال- الذريعة الأولى والسبب المباشر في تعاقب الاستعمار بأشكاله المختلفة. على هذه البقعة الغالية من الوطن العربي كما نتج عنها في الواقع انقسام المجتمع اللبناني إلى فريقين:

أ. فريق يضمر الولاء للبنان دون سواه وللغرب (الذي هو باعث القضية الطائفية السياسية في لبنان) .

ب. وفريق يضمر الولاء للبنان وللعروبة، التي لا يمكن أن ينفصل واقعاً وتاريخاً

---

(١) الحافظ أبي عبد الله الحكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين كتاب معرفة الصحابة ج٣ ص٨٢، نشر دار الكتاب العربي بيروت مصورة من طبعة حيدر أباد بالهند ونصه: عن طارق بن شهاب قال لماقدم عمر الشام عرضت له مخاضة فنزل عمر عن بعيره ونزع خفيه أو قال موقيه ثم أخذ بخطام راحلته وخاض المخاضة فقال له أبو عبيدة لقد فعلت يا أمير المؤمنين فعلاً عظيماً عند أهل الأرض نزعت خفيك وقدمت راحلتك وخضت المخاضة قال فصك عمر بيده في صدر أبي عبيدة فقال أوه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة أنتم كنتم أقل الناس وأذل الناس فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله تعالى.

عن وعي كيان واستقلال لبنان، وأزكت الدول الاستعمارية المختلفة الشعور بالعداء وتعميقه لدى كل من الطائفتين، مما أورث أبناء كل من هذه الطوائف كتلاً ضخمة من الأحقاد والضغائن ضد الطائفة الأخرى.

وبلغ التوتر الطائفي ذروته بين الدروز والنصارى لا سيما الموارنة منهم وما زال يشتد حتى انقلب إلى فظائع دموية في حوادث الستين ١٨٦٠م، والتي أحرقت فيها قرى كاملة للمسلمين من قبل الموارنة.

وفي ظل هذا الجو ولد جرجي زيدان وتربى وقضى طفولته وشطراً من شبابه، تلقى تعليمه في المدارس الصليبية ببيروت – وكما رأينا كانت تدار من قبل القساوسة الذين يعيشون على أرض لبنان، ويستنشقون روائحها المنتشرة في أجوائها المليئة بالحقد والكراهية المتبادلة بين طوائف المجتمع – ولا شك أن هذه الروح التي كانت تشيع في المجتمع اللبناني كانت تنتقل عن طريق المعلمين بطرق مباشرة أو غير مباشرة – إلى تلاميذ وطلاب هذه المدارس من أمثال جرجي زيدان وغيره، ولا أحب أن أسبق بنتيجة معينة، ولكني سأترك البحث في النهاية يقدم لنا النتائج المدعمة بالأدلة والمستندة إلى البراهين القوية – وبعد الحديث عن البلاد الشامية واستظهار ملامحها العامة والسياسية والاجتماعية والعلمية، واستنتاج بعض الحقائق من هذه الملامح.

أنتقل الآن وعبر السطور القادمة – إلى الحديث عن جرجي زيدان صاحب الهلال – أو صاحب البحث ....

أسرته – نشأته – تعليمه – ثقافته – هجراته المتتالية إلى: مصر – والسودان – ولندن – وعودته واستقراره في القاهرة وكذلك: أعماله – آثاره – مؤلفاته في المجالات المختلفة – صلاته بالمستشرقين – إنشائه مجلة الهلال طوال اثنين وعشرين سنة – ما قدمه فيها من موضوعات – وما فجره خلالها من قضايا – وأجاب عليه من تساؤلات.

الفصل الثاني

التعريف بجرجى زيدان

مولده:

ينتمي جرجى زيدان إلى عائلة أرثوذكسية لا يعرف أصلها وليس لها خبر في أنساب العرب. كما اعترف هو بذلك في مذكراته:-

يقول:- (أما أصل عائلتنا فليس له خبر مدون، لأن والدي برح بيت والده مع سائر العائلة أشبه بالهاربين وهو طفل، لا يعرف شيئاً، فلا ندري إن كان لها خبر مدون في عين عنوب[1] ؟ وربّي في بيروت أميا فقيراً، وشغل بإعالة العائلة فلم يهتم بالبحث عن أصل عائلته (أرومته).

أما تاريخ مولده:- فيقول عنه «ولم أكن أعرف يوم ولادتي بالتدقيق، لأن أبي لم يكن يكتب ولا أمي، فلما كبرت أخذت أبحث عن تاريخ ميلادي في سجل الكنيسة، ولاعتقادي أنها تؤرخ عمادات[2] رعاياها، فلما رحت إلى بيروت في السنة التي تزوجت فيها ١٨٩١م. سألت قسيسنا القديم، فقال: ليس عندنا قيد، ولا سجلات يا بني، لأننا لم نكن نسجل المعمَّدِيْن، وكان والدي حاضراً ورأى استغرابي ودهشتي فقال لي: إنك ولدت في اليوم الذي مات فيه ملك الإنجليز، فقلت له وكيف علمت ذلك ؟ قال: لأني أذكره جيداً فقد كنا ساهرين وسمعنا طلق مدافع من البحر من دوارع إنجليزية، فسألنا عن السبب فقيل لنا أن ملك الإنجليز قد مات (ألبرنس ألبرت).

يقول جرجى زيدان فعلمت إذ ذاك أني ولدت في ١٤/ديسمبر/١٨٦١م وهو اليوم الذي توفي فيه ألبرنس ألبرت زوج ملكة الإنجليز[3] .

---

(١) قرية عين عنوب:- إحدى قرى جبل لبنان.

(٢) عمد الولد: غسله بماء المعمودية: واعتمد قبل المعمودية، أول أسرار الدين المسيحي وباب النصرانية وهي غسل الصبي وغيره بالماء باسم الأب والابن والروح القدس، واللفظة سريانية الأصل أو مولده مأخوذة من العمد أي البلل. قاموس المنجد في الأعلام واللغة، ط٢٧، ص٥٢٩، منشورات دار المشرق ١٩٨٤م بيروت.

(٣) نقلاً عن مذكرات جرجى زيدان من المجلد الحادي والعشرين من مؤلفات جرجى زيدان الكاملة، ص١٤، ١٥- نشر دار الجيل للنشر والتوزيع بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

وتربى زيدان:- في هذه الظروف المتواضعة وبين جنبات تلك الأسـرة الفقيرة حتى بلغ الخامسة من عمره حوالي سنة ١٨٦٦م فأرسله والده إلى مدرسة صغيرة.

تعليمه:

كان أول عهد جرجى زيدان بالتعليم يوم أن دفعه والده في الخامسة من عمره إلى مدرسـة المعلم إلياس شفيق، و لم يكن هدف أبيه أن يخطو به في التعليم إلى نهايته:-

أ. لكن الحاجة هي التي دفعته إلى المدرسة ليتعلم القراءة والكتابة والحساب - حتى يستطيع أن يضبط لوالده حسابات المطعم الذي يديره، و لم تكن تلك المدرسة ذات شـأن يذكر في مجال التعليم مما جعل حديث جرجى زيدان عنها مشـوباً بالسخرية والتندر. فهو يقول: (أرسلني أبي وأنا في الخامسة من عمري إلى المدرسة عند المعلم إلياس شفيق - قسيس عائلتنا - وكانت مدرسته: عبارة عن قبو واسع في بناية ليعقوب ثابت بجوار مدرسة اليسوعيين الآن. ثم صار ذلك القبو فرناً بعد ذلك، فكان أشبه بالذريبة منه بالمدرسة يجتمع فيه أبناء الحي الواحد من سن الرابعة إلى العاشرة يجلسون على حصر بسطها في أرض القبو ... وأذكر أنني كنت أتعلم عنده القراءة في المزامير، فكنا نحفظ المذمور من كثرة قراءته ولا نفهمه)[1] . هذا هو حديث جرجى زيدان من خلال مذكراته عن تلك المدرسة التي شهدت أول خطوة لـه على طريق الدرس والتحصيل، يحمل بين طياتـه بعض السـخرية والاستهزاء[2] ، وينتهي جرجى زيدان - من الحديث عن معلمه، إلى أن الفوضى وسوء المكان، وسوء العقاب كانت تسود مدرسته الأولى لصاحبها إلياس شفّيق، لذلك ما إن أطلت سنة ١٨٧٦م حتى انتقل إلى مدرسة أخرى.

ب. في مدرسة الشوام ١٨٦٧/ ١٨٦٩م: وهنا نجد - جرجى - يثني ثناء كبيراً على هذه المدرسة، التي كان يديرها المعلم ظاهر خير الله الشويدي، وأنها يسودها

---

(١) جرجى زيدان - المذكرات مجلد ٢١ من المؤلفات الكاملة ص١٧، ١٨.

(٢) ولو رجعنا إلى ما كتبه طه حسين في الأيام، عن الكتّاب، والشيخ، والعريف، لوجدناه قريب الشبه بما كتبه جرجى زيدان هنا عن مدرسة المعلم إلياس، إنه حديث يفيض بالسخرية دون أدنى مراعاة لحرمة المعلم الذي حثت الرسالات السماوية كلها على تقديره وتوقيره.

النظام، والحزم، وصرامة القوانين، بفضل حنكة صاحبها، وحسن إدارته، والذي كان في الأصل بناء، فتعلم على نفسه وتثقف - فطارت شهرته وأصبح معلماً ذا هيبة ووقار، وبقي زيدان في هذه المدرسة زهاء سنتين، تعلم العربية، والفرنسية، والحساب، وأصبح على حد تعبيره يمضغ الكلمة فيجد لها لذة، ويبتلعها فيرى فيها غذاء، ثم ينتقل معلمه ظاهر خير الله من مدرسة الشوام، لكي ينشئ مدرسة خاصة به فينتقل معه تلميذه - جرجي زيدان - ويقضي معه عامين آخرين من ١٨٧٠/ ١٨٧٢م.

نهاية المطاف بالمدارس: انتهت الدراسة الابتدائية - وبنهايتها كانت فاتحة الويل على الغلام - جرجي زيدان - فقد اضطر إلى ترك التعليم بالمدارس لمساعدة والده في تقييد الحساب بالمطعم - ورغم معارضة والدته لذلك، لخوفها على مستقبل ابنها الثقافي - إلا أن الوالد غلبه على أمره، وأقنعها بأنه لا يريد لابنه أن يكون معلماً، فأقنعته بأن يعلمه مهنة غير المطاعم، لعدم ملائمة صحته لها، فاتفقا أن يعلماه صناعة الأحذية، ودفعا به إلى أحد الإسكافيين ليأخذ في تعليمه - واستمر معه جرجي فترة امتدت إلى عامين، غير أن طول جلوسه على الكرسي جلب لصحته السوء والاعتلال، فقرر ترك هذه المهنة، فعاد إلى المطعم من جديد حتى يجد عملاً آخر، وبدأت مرحلة جديدة في حياته ذلك أنه تعرف على أحد أصحاب المدارس الليلية - كان يتردد على مطعمهم يسمى المعلم مسعود الطويل، فانتظم في مدرسته وأخذ في تعلم اللغة الإنجليزية، وأجهد نفسه حتى أتقنها وقد أصبح في الخامسة عشرة من عمره - وتمكن من اللغة إلى حد أنه أخذ يشتغل بوضع معجم إنجليزي/عربي وبلغ فيه إلى حرف (E) خامس حرف من حروف الهجاء الإنجليزية - لكنه توقف عن العمل لقلة جدواه.

وفي رحلته الأخيرة لتعلم اللغة الإنجليزية، تعرف على كثير من خريجي الكلية الأمريكية وطلابها، والتي كان يديرها في أول أمرها جماعة من المبشرين الأمريكيين - مما سهل عليه الانتظام في سلك جمعية شمس البر[1].

(١) جمعية شمس البر:- جمعية أدبية كانت فرعاً لجمعية الشبان المسيحيين بإنجلترا - وأكثر أعضائها من=

وكفاحه في سبيل تعلم الإنجليزية، مقدمة لكفاحه في عدد وافر من اللغات، فبعد أن أنس زيدان في نفسه، القدرة على مواجهة الصعاب، بعد تعلمه الإنجليزية، صمم على مواصلة رحلته التعليمية، وصناعة مجده الأدبي عله يرتفع شأنه فيرفع شأن هذه الأسرة المعدمة، فقرر أن يدرس الطب، ذلك العلم الذي يعالج الأبدان وينقيها من الأخلاط الخبيثة التي قد تحتوي على هلاك الإنسان، وتؤدي إلى حتفه، واختمرت في ذهنه هذه الفكرة - لكنه وجد في سبيل تحقيقها بعض العوائق والحواجز من ذلك كثرة العلوم التي ينبغي له تحصيلها قبل الالتحاق بمدرسة الطب، والتي لم يكن قد سمع ببعضها، من قبل كالجبر والهندسة والطبيعة - غير أنه كعادته لم يأبه بها فراح يدرس بنفسه ويستعين بأصدقائه أحياناً، حتى تم له أن يحضر المواد اللازمة في صيف ١٨٨١م.

التحاقه بمدرسة الطب بالكلية الأمريكانية في١٨٨١م:

بعد أن اجتاز امتحان القبول بها - وقد كان في السنة الأولى مجتهداً في دراسته منكباً على تحصيل علومه، ويبدو أن إلمامه السابق باللغة الإنجليزية أكسبه ثقة شديدة في نفسه - دعته إلى أن يقفز هذه القفزة الهائلة (من صبي لصانع أحذية إلى مدرجات كلية الطب) تلك القفزة التي تحمل في طياتها (الغرور، التطلع، الطمع، الطموح) ربما الثقة لست أدري ؟؟ أو ربما كلها مجتمعة.

المهم، أن المتتبع لسيرة جرجي زيدان من خلال مذكراته الشخصية ومقالات أصدقائه ومعاصريه، يشعر أن قفزته تلك، كانت تعتمد على الطموح المدعوم بالعزم، والتصميم، والعمل المتواصل، وليس على الطمع المشلول، ولهذا وفق في دخول مدرسة الطب ونال الامتياز في الصف الأول.

ثم توجه إلى الصيدلة:

ونال منها شهادة في الطبيعيات والجيولوجيا والكيمياء العضوية والمعدنية

-تلامذة المدارس الكلية الأمريكانية - كان زيدان يحضر احتفالاتها ولقي التشجيع من خلالها لمواصلة الدراسة والتعليم. المذكرات م٢٠ ص٥٦٩ الأعمال الكاملة - ويلاحظ: انتساب جميع أعضاء هذه الجمعية إلى الماسونية - وهم أصحاب الغزو الصحفي والتفكير الغربي الصليبي أمثال (يعقوب صروف، فارس نمر، شاهين مكاريوس، سليم نقاش ... الخ).

والتحليل الكيمي، وكان امتحانه مع بعض رفاقه أمام لجنة من أشهر أطباء سوريا في جملتهم الكولونيل مراد بك، والمرحوم د. فانديك[1] وغيرهما. وفي هذه السنة حدث اضطراب بمدرسة الطب بسبب تدريس المواد بالعربية بدلاً من الإنجليزية، وانجلى الحادث عن مغادرة الطلبة جميعاً وتركهم المدرسة الطبية، وتوقفت الدراسة، لكنه قرر المثابرة والمكافحة حتى يتم له بناء صرح من المجد يساعده على تألق نجمه في سماء الفكر والأدب العربي لذا كانت هجرته إلى مصر.

هجرته إلى مصر:

ومهما قيل في أسباب الهجرة وأنها كانت لتكملة دراسة الطب بالقصر العيني، فإنه يبدو أن الظروف قد هيأته لدور آخر في هذه الرحلة، ذلك أن الاحتلال الإنجليزي كان قد بسط يده على مصر قبل عام من هذا التاريخ - وأصبح بمثابة الصدر الحنون، والأب الروحي لهذه العصبة، التي كانت تعيش على أرض لبنان، وقلوبها عامرة بالحقد الدفين، ومشحونة بالكراهية والنقمة على الخلافة العثمانية الإسلامية - لا سيما بعد المذابح الرهيبة التي شهدتها لبنان عام ١٨٦٠م والتي راح ضحيتها آلاف القتلى من المسلمين والنصارى على حد سواء. فلما انتقلت هذه الطائفة المهاجرة من لبنان إلى مصر، حملت معها كتلة ضخمة من الأحقاد - ووجدت الفرصة سانحة وقوية للتنفيث عنها في حماية الاحتلال البريطاني لمصر.

وبالفعل فقد أتوا إلى هنا - في ظل حماية إنجليزية وأشعلوها حرباً لا هوادة فيها على الخلافة الإسلامية، وأعملوا معاولهم الهدامة في التراث الإسلامي، تشويهاً، وتجريحاً، ورمياً، بكل النقائص، وسلباً لكل الفضائل وخلعوا عليه كل الصفات

---

(١) د. كرنيلوس فانديك: ١٨١٨/ ١٨٩٥م - هولندي الأصل أمريكي المولد بيروتي الموطن، قدم لبنان طبيباً مع البعثة الأمريكية ١٨٤٠م فتعرف على المعلم بطرس البستاني وأخذ عنه العربية وأنشأ معه مدرسة عبية ١٨٤٧م نقلها د. دانيال بلس إلى بيروت ١٨٦٦م ثم عرفت بالجامعة الأمريكية، من آثاره:- اشتراكه مع المعلم بطرس البستاني والشيخ ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الأسير في تكملة ترجمة التوراة إلى العبرية، التي باشرها سميث سنة ١٨٤٨م وله مصنفات علمية عديدة مثل المرآة الوطنية في وصف الكرة الأرضية، والأصول الجبرية، وأصول الكيمياء، وأصول علم الهيئة، نقلاً عن نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف، ط٤، ج٣، ص١٣١، سنة١٩٨٠م.

الذميمة وقدموه في أسوأ صورة. وكانت مجلة المقتطف وجريدة المقطم لصاحبها يعقوب صروف وفارس نمر - أستاذَيْ جرجي زيدان، رائدتان في هذا المجال، فقد قضى الإنجليز على ثورة عرابي، وصار لهم في مصر الأمر والنهي - وأخذوا يضربون بيد من حديد واعتمدوا في تصريف أمورهم على إخوانهم نصارى الشام، الذين فروا من بلادهم إلى مصر، رغم الامتيازات[1] الأجنبية التي كانوا يتمتعون بها.

وعهد الإنجليز لنصارى بلاد الشام بإدارة شئون الصحافة والترجمة والثقافة والأدب، كما استعانوا بهم في غزو السودان وبلاد الشام.

حضر جرجي زيدان إلى مصر - لدراسة الطب - كما يذكر - لكنه فوجئ بطول فترة الدراسة فضلاً عن قلة إمكانياته المالية والتي بلغت حد استدانته مبلغ ستة جنيهات من أحد أصدقائه، حتى يستطيع أن يصل إلى مصر.

فانصرف عن دراسة الطب إلى البحث عن عمل يكفل له ضرورات الحياة - وبعد بحث وجد عمل بجريدة الزمان - التي كان يديرها علكسان صرافيان - وكانت الجريدة اليومية الوحيدة التي أبقى عليها الاحتلال بمصر (لأنها كانت تقف بجانبه وتعبر عن حاجاته وتتحدث بلسانه) مكث بها جرجي زيدان عاماً وبعض عام، وفي سنة ١٨٨٤م انتظم في سلك المخابرات البريطانية[2]، ورافق الحملة

(١) ويكفي دليلاً على روح التسامح وكفالة الحقوق للنصارى في الدولة العثمانية أن نذكر هاتين الواقعتين اللتين تدلان أبلغ دلالة على تلك المعاملة الراقية التي كانت تعامل بها الخلافة العثمانية رعاياها من النصارى.

ما يرويه الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، عن واقعة حدثت أمامه عندما كان نائباً عن (نوقاد) إحدى مدن الأناضول إذ حدث نزاع بين الأروام والبلغار العثمانيين على الكنائس الموجودة بمقدونيا، باعتبارها جزءاً من البلاد العثمانية وادعى كل من الفرقين استحقاقه لها، فأحالت الحكومة موضوع النزاع إلى مجلس النواب للفصل فيه فقام (آدي بسندي باشا) الرومي نائب أزمير خطيباً فقال: إن لهذه الدولة داراً للفتوى تفصل في المسائل المعروضة عليها بموجب القوانين الشرعية فحيلوا الأمر على رأي تلك الدار، ونحن الأروام (النصارى) راضون عما تصدره - من هنا نرى أن الباشا النصراني احتكم لدار الفتوى ليقينه أن الوزارة بسلطانها لا تقدر على استمالتها إلى خلاف الحق.

وحدث مرة أخرى أن السلطان سليم الأول أراد توحيد عناصر السلطنة وإجبار المسيحيين على إحدى خطتين (الإسلام أو الرحيل). فقام في وجهه شيخ الإسلام (زنبسيلي علي أفندي) وقال له لا يحق لك هذا والمسيحيون واليهود متى خضعوا ودفعوا الجزية فقد عصموا منك دماءهم وأموالهم، بل لقد بلغ من شدة التسامح في إعطاء الحريات أن ذهب مشاهير أساتيذ الحقوق والعلوم السياسية (المسيسو لويس دنول) معللاً أحد أعظم عوامل انحلال الدولة العثمانية، بالحرية المذهبية والمدرسية للأمم المسيحية.

(٢) دراسات في السيرة النبوية محمد سرور بن نايف زين العابدين دار الأرقم برمنجهام ١٩٨٨م ص١٩٤. -

الإنجليزية إلى السودان - مترجماً في قلم الاستخبارات البريطانية- وفي هذا دلالة على أنه كانت لديه الكفاية لممارسة هذا العمل الخطير الذي يتطلب قدراً من الولاء والانتماء للجهة التي يعمل لها، لأنه يطلع على بعض أسرارها عبر الترجمة، ولعل فترة عمله بالجريدة الوحيدة التي كانت تصدر في هذه الفترة (الزمان) بخطها المعروف والمؤيد لسياسة الاحتلال - أهله للقيام بهذا الدور - فرافق الجيش الإنجليزي للسودان - وقضى فيها عشرة أشهر - شهد خلالها عشرات المواقع الحربية وتعرض لخطر الموت مرات كثيرة، ونال في نهاية الحملة عدداً من الأوسمة مكافأة له على مجهوداته في هذه الحملة، وقفل عائداً إلى مصر.

سفره إلى بيروت سنة ١٨٨٥م:

وسرعان ما هزه الشوق والحنين إلى وطنه - فقرر السفر إلى بيروت - وكان المجمع العلمي الشرقي فيها حديث الإنشاء على أيدي: يعقوب صروف [١]، وفارس نمر [٢]، ود.فانديك [٣]، والشيخ إبراهيم اليازجي [٤] وغيرهم، فرأوا أن يكرموا زيدان بتقدير ضمه إلى جماعتهم.

وخلال إقامته ببيروت هذه المرة تعلم اللغتين العبرية والسريانية وكان من ثمرة هذا أن ألف كتابه (الفلسفة اللغوية) وسيأتي في الفصل القادم بيان موضوعه

=جرجي زيدان محمد عبد الغني حسن سلسلة أعلام العرب رقم (٩٠) ط١٩٧٠ ص١٠، أ.د. شوقي أبو خليل ص ١٢هـ. أثبت قيام محمد عبد الغني حسن بإلقاء محاضرة عن جرجي كال له خلالها المديح. ولما انتهى من إلقاء محاضرته قال له أحد الحاضرين نسيت شيئاً لتكتمل موضوعيتك عن جرجي، لم تقل إنه رجل استخبارات بريطانية - فضحك الجميع وبهت محمد عبد الغني حسن، واعترف بعمالة جرجي للمخابرات البريطانية ومحضر الجلسة محفوظ في الجامعة (جامعة دمشق).
د. شوقي أبو خليل أستاذ الحضارة العربية والإسلامية بجامعة دار الفكر، نقلاً عن كتابه جرجي زيدان في الميزان.

(١) يعقوب صروف: ولد في بلدة الحرث ١٨٥٢م كان في طليعة الكتاب الذين طوعوا العربية لتصبح أداة صالحة لنقل العلوم الطبيعية كالكيمياء والفيزياء والفلك والرياضيات - أصدر مجلة المقتطف ببيروت والقاهرة.

(٢) فارس نمر: ولد في ١٨٥٤م بماصبيا ثم التحق بمدرسة أمريكية وبعدها بالكلية السورية الإنجيلية ترأس إدارة جريدة المقطم الجريدة العربية التي حملت حملة شعواء على الخلافة العثمانية وظلت تصدر حتى ١٩٥٢م.

(٣) د.فانديك: سبق ذكر ترجمة له ص٥٦ من هذا البحث.

(٤) الشيخ إبراهيم اليازجي: عالم لغوي ماروني لبناني ذاع صيته في علم اللغة هاجر إلى مصر وأصدر بها. مجلتي البيان والضياء.

ومحتوياته إن شاء الله تعالى – وقد كان من أثر هذا الكتاب أن عينه المجمع الآسيوي الملكي عضواً عاملاً فيه.

سفره إلى لندن عام ١٨٨٦م صيفا:

سافر – المترجم له – إلى لندن – مكافأة له على خدماته بقلم الاستخبارات البريطانية وزار المتحف البريطاني وغيره من المكتبات والمجامع العلمية وعاد في شتاء العام نفسه بعد انتهاء زيارته – ووقوفه بنفسه على نظم الحضارة الغربية وموازنته بين حضارتي الشرق والغرب قديماً وحديثاً – حتى ينضم بعد عودته لفريق العاملين من أجل تحقيق النهضة، أو بمعنى آخر المساهمة في تنفيذ المخططات الصليبية الحاقدة التي حملتها الهجمات المتلاحقة من الدول الأوربية بما تحمله من ضغائن للإسلام ودولته الممثلة في الخلافة الإسلامية العثمانية آنذاك.

إدارته مجلة المقتطف:

عاد – زيدان – من الطواف في البلاد الإنجليزية وأنديتها ومتاحفها، وقد حمل منها الكثير في قلبه وفكره، فرأى أن يكون رجوعه إلى مصر حيث يتاح للقلم أن يكتب، وللخيال أن ينطلق وما أن وطئت قدماه أرض النيل حتى دعاه صاحب المقتطف [1] لتولي إدارتها – وكان لها شهرتها آنذاك وبريقها، ولندع جرجي زيدان يحدثنا عنها في كلمات تبين لنا مدى تأثره بها وتفاعله مع موضوعاتها وما كان لها من شهرة وجاذبية حتى كان اقتناؤها محلاً للتفاخر بين الشبان إنه يقول محدثاً عن نفسه في المرحلة الأولى من عمره: (وكنت قد اشتركت في مجلة «المقتطف» لأطالعها فصرت أفخر بذلك وأحب أن يعرف الناس أني أطالعها....

ثم أردت أن أكون ممن يكتبون فيها – فكتبت مقالة بالغت في تنقيحها وتنسيقها على قدر استطاعتي – ولم أكن حتى ذلك الحين على شيء من علوم

---

(١) مجلة المقتطف: إحدى المجلات المسيحية التي قدمت إلى مصر في ظل الاحتلال البريطاني لتعمل معولها الهدام في تغريب المجتمع الإسلامي في مصر على يد صاحبها د.يعقوب صروف وفارس نمر وكان قد سبق إصدارها ببيروت ١٨٧٦م وظلت هناك حتى قدمت مصر سنة ١٨٨٥م.

اللغة. لكني كتبت المقالة بإحساس صادق، منتقداً فيها الآباء الذين يهملون تعليم أولادهم في صغرهم (ولعله كان متأثراً في مقاله هذا بظروفه الشخصية) وتفويت فرصة التعليم عليهم، ثم أرسلتها إلى المقتطف باسم (شاهين مكاريوس) وترقبت نشرها فصدرت عدة أعداد و لم ينشر فيها، فانتهزت فرصة مجيء مدير المقتطف للغداء عندنا، وتجرأت فسـألته عن مقالتي ففهمت أنها لم تنشر لضعف أسلوبها)[1]. وقضى في مجلة المقتطف - بعد أن أسندت إليه إدارتها - عقب عودته من عاصمة بلاد الإنجليز عاماً ونصف - لم يشترك في التحرير فيه إلا بمقالة صغيرة واحدة هي ختام السنة الحادية عشرة، ومعنى هذا: أنه لم يشترك في تحرير المجلة بل كان عمله قاصراً على الإدارة، بناء على ما ذكره د/ يعقوب صروف نفسه خلال ترجمته لجرجى زيدان عقب وفاته في عدد سبتمبر ١٩١٤م من مجلة المقتطف [2].

تدريسه اللغة العربية بالمدرسة العبيدية ١٨٨٩م:

وبعد استقالته في مجلة المقتطف - انتدبته المدرسة العبيدية الكبرى لتدريس اللغة العربية وآدابها فيها - ومع أنها كانت مدرسة أجنبية تدار من قبل طائفة الروم الأرثوذكس إلا أنها كانت تهتم بتعليم اللغة العربية اهتماماً عظيماً وتختار لتدريسها أكفأ المعلمين من المصريين والسوريين ومؤسسها روفائيل عبيد السوري، ظل جرجى بهذه المدرسة سنتين، ألف خلالهما رواية المملوك الشارد أولى رواياته، وهذه هي الفرصة الوحيدة التي مارس فيها زيدان التعليم النظامي بمدرسة نظامية. وإنه كان قد تهيأت له فرصة أخرى - أو كادت - بالجامعة المصرية بعد ذلك

(١) مجلد ٢٠ من الأعمال الكاملة - مذكرات جرجي زيدان ص٥٦٧ - مرجع سابق.

(٢) جاء في مجلة المقتطف عدد ذي القعدة ١٣٣٣هـ / مايو ١٨٩٦م، صلاح الدين ٣٢٥ على لسان د. يعقوب صروف: يقول فكل ما لم ينسب إلى غيرنا هو من قلمنا إنشاءا وترجمة أو تلخيصاً ولا يستثنى من ذلك إلا خاتمة السنة الحادية عشرة وهي نصف صفحة كتبها صديقنا جرجى أفندي زيدان - وقد رجعت إلى المجلة في هذه السنة وهي عدد سبتمبر ١٨٨٧م - ١٣ ذي الحجة ١٣٠٤هـ - وفيها يقول جرجى زيدان تبشر إخواننا الشرقيين أن العلم قد عمد للعودة إلى وطنه الأول بعد مفارقة أباه زماناً ليس بقليل، وإنها لبشرى تخفق لها قلوبنا سروراً، وكدنا لا نصدقها أننا رأيت شباناً وشابات يقدمون بغيرة شديدة على احتناء ثمار المعارف فيقتطفون منها أينعها، وأقوى دليل على تقدم الأمة إنما هو إقدام خاصتها على نشر المعارف وعامتها على اكتسابها - ونحن نعد حضرات القراء بأن نبذل قصارى الجهد في جعل السنة الثانية عشر أكثر تشويقاً للمطالعة من ذي قبل بأن نزيد المواضيع وننقي أفضلها ونقتطف لهم أشهى ما ينبت في حديقة العلم.

ليقوم بتدريس كتابه تاريخ التمدن الإسلامي - ولكن الله حمى الجامعة المصرية منه - بقيام بعض الغيورين بالتنبيه إلى خطورة الفكر الذي يحمله هذا الرجل من خلال كتبه التي ألفها. وأنه لابد أن يحال بينه وبين عقول أبناء مصر في الجامعة المصرية القديمة وعدم انضمامه لأعضاء هيئة التدريس بها منعاً لبلبلة الأفكار وإثارة الفتن[1].

اشتراكه في إنشاء مطبعة التأليف ١٨٩١م:

وفي تطور مفاجئ وقفزة هائلة تحيط بها الألغاز ويكتنفها الغموض - نرى جرجى زيدان في هذا العام - ١٨٩١م - ينشئ - وهو الفقير المعدم الذي استدان ستة جنيهات ليستطيع دفع تكاليف سفره وانتقاله إلى مصر منها - إذ به ينشئ مطبعة ضخمة بالاشتراك مع نجيب متري المؤسس الأول لدار المعارف - ويغلب على الظن - أن شراكته لنجيب متري كانت لمجرد التغطية، لأنه فسخها في العام التالي واحتفظ لنفسه - جرجى زيدان - بالمطبعة (مطبعة التأليف) على حين قام نجيب متري بإنشاء مطبعة مستقلة (مطبعة المعارف).

إنشاؤه مجلة الهلال ١٨٩٢م:

وفي هذه السنة أصدر جرجى زيدان مجلة الهلال - التي ينتصب هذا البحث لدراستها، وتحليلها، وفحصها، وتمحيصها، وبيان أهدافها، ومقاصدها، ودورها في تنفيذ المخطط التغريبي في المجتمع المسلم في مصر، عن طريق ضرب التاريخ الإسلامي، وتدمير الشخصية الإسلامية، وإعلاء الشخصية غير الإسلامية. ومحاولاتها المستميتة تقطيع كل صلة تربط المسلم بهذا الدين العظيم، متخذة في سبيل ذلك كل الوسائل ومختلف الأساليب - تدعمها في هذه الفترة، وتقف وراءها

---

(١) يهمني هنا أن اثبت موقف المفكر الإسلامي الكبير الشيخ محمد رشيد رضا - صاحب تفسير المنار وأنه قد اعترض على اللجنة التي شكلتها نظارة المعارف المصرية لتنظر في مدى صلاحية الكتاب للتدريس بالجامعة - وانتهت إلى عدم صلاحيته لكثرة أغلاطه وتعمد صاحبه التشويه وهاجم الشيخ رشيد رضا هذا القرار، لكنه عاد، بعد أن تكشفت له حقيقة جرجى زيدان - فاعتذر عن ذلك، وأثبت كراهية جرجى الشديدة للعرب والمسلمين - وأنه من الشعوبيين. (مجلة المنار ج١ م١٥ ص٥٩) ١٩١٣م.

أجهزة الاحتلال الغاشمة التي كانت تجثم على صدر الشعب المصري آنذاك. لماذا ؟ لأنها تنشر فكر المحتل وتروج لمبادئه وتحقق أهدافه ... فلماذا لا يكفل لها الحماية ويوفر لها الاستمرارية ويواليها بالدعم المستمر والتشجيع الذي لا ينقطع، وهكذا فإنه في يوم: ١٠ صفر سنة ١٣١٣هـ - الموافق أول سبتمبر سنة ١٨٩٢م **صدر الهلال: مجلة شهرية** شعارها (علمية تاريخية أدبية) لمؤسسها جرجى زيدان - تصدر عن مطبعة التأليف بأول شارع الفجالة شهرية لمدة عام - وبعد استطلاع رأي القراء تحولت إلى مجلة نصف شهرية مدة: أربع سنوات - ثم عادت شهرية بعد ذلك ظل يصدرها ويشرف عليها حتى وافته منيته في ٢١/ ٧/ ١٩١٤م - وقد أعطاها جرجى زيدان كل وقته وقوته الجسمانية والفكرية حتى داهمته الأقدار فوضع عصا التسيار في درب الحياة. وهكذا مات جرجى زيدان بجسده ليلقى عند الله عز وجل ما قدمته يداه، لكن - رغم موته - فقد بقيت كتبه ومؤلفاته وآثاره العلمية والأدبية في المكتبة العربية والإسلامية يتغنى بأمجادها وعظمتها ورقي موضوعاتها ودقة تناولها الكثيرون.

الفصل الثالث

التعريف بكتابات جرجى زيدان

وصف المستشرقين لشخصية جرجى زيدان:

« روت مجلـة الهلال في عـدد أكتوبر ١٩١٤م – وهـو أول عدد مـن المجلة صدر عقب وفاة جرجى زيـدان، أن مستشرقاً جاءه مرة لزيارته لأول مرة، فلما رآه سأله: أأنت زيـدان ؟ قال نعم! فقال: مـا أبعد صورة شـخصك المرسومة في مخيلتي عن شـخصك الحقيقي! فإني كنت أنتظر أن رجلاً شـيخاً، ذا لحية بيضاء، لأن من يطلع على مؤلفاتك لا يقدر عمرك بأقل من ثمانين عاماً! »

لا أكتم سراً، إنني وقفت أمـام هذه الواقعة طويلاً لا سيِّما بعد أن اطلعت على عدد المؤلفـات الكثيرة التي سـطرها جرجى زيـدان في مجـالات العلـوم المختلفـة، التاريخيـة والـتراجم والسـير، والجغرافيـا، واللغـة العربيـة، وآدابهـا، والاجتمـاع والمخطوطات ..الخ، فضـلاً عن تلك المجلة التي أصدرهـا وظل يشـرف عليها إشرافاً كـاملاً يؤلف ويحرر ويصحح موادهـا المختلفة، فسـألت نفسـي هل يمكـن لشخص واحد مهمـا بلغ ذكاؤه واشتد جلـده وصبره ومثابرته وعطاءه. أن يقوم وحده بهذا العبء الضخم؟ وسـرعان مـا قفزت إلى ذهني تلـك العلاقـة الحميمـة التي ربطتـه بالحركة الاستشـراقية عن طريق صداقتـه لكثيرين من روادهـا– الذين كانوا يجعلون زيارة مجلـة الهلال وصاحبها هدفاً من أهدافهم فضـلاً عن المراسلات التي كانت تتم بينـه وبينهم، واللقاءات الشـخصية بهم. وتلمذته على أعلامهم عن طريق أخذه من مؤلفاتهم، وقـد أفاض بمدحهـم والإشـادة بفضلهم على الإنسـانية في كتابـه تاريخ آداب اللغـة العربية. حتـى أن أحد المعجبين بجرجي زيدان والمدافعين عنه يقول في وصف علاقتـه بالمستشـرقين: « لقـد كان زيـدان أشـبه مـا يكون بهمزة وصل بين الحركـة العلميـة العربيـة الناهضـة وحركـة الاستشـراق المتدفقـة النشـاط في أوربا

وأمريكا » [١].

ومن خلال ما سبق فقد انتهيت إلى عدد من المقدمات ونتيجة:

١- الكتابة الموسوعية الضخمة التي طرق فيها زيدان مجالات العلوم المختلفة.

٢- إنشاءه مجلة الهلال وإشرافه عليها طيلة اثنين وعشرين عاماً.

٣- وفاته عن (٥٣) سنة مما يصعب معه أن يكون قد أنشأ بنفسه كل هذه الأعمال.

٤- صلاته العميقة بالحركة الاستشراقية وعلاقته القوية بالمستشرقين.

النتيجة:- أنه كان على إطلاع واسع في الثقافتين العربية والغربية وبخاصة نتاج الحركة الاستشراقية ويشهد لهذا علاقاته الواسعة بالمستشرقين وظهور آرائهم جلية في معظم كتاباته، وإلى الحد الذي يمكن القول معه بأنه كان ملخصاً لأقوالهم، ومروجاً لنظرياتهم، ومعرباً لفلسفاتهم تارة باسم تاريخ التمدن الإسلامي، وأخرى باسم روايات تاريخ الإسلام، وثالثاً باسم تاريخ آداب اللغة العربية...

هذا وإن نظرة سريعة إلى المؤلفات التي تركها جرجى زيدان تبين لنا أنها تنوعت في موضوعاتها ومجالاتها المعرفيه على النحو التالي:-

(أ) **المؤلفات التاريخية:** وقد وصلت إلى ثماني مؤلفات بدءاً بتاريخ التمدن الإسلامي حتى أنساب العرب.

(ب) **التراجم والسير:** وكتب فيها تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر.

(ج) **اللغة العربية وآدابها:** أربعة كتب من الفلسفة اللغوية حتى البلغة في أصول اللغة.

(د) **مؤلفات في الاجتماع:** وتشتمل:

---

(١) د/ حسين مؤنس - أحد الكتاب المعاصرين له دراسات متعددة في التاريخ الحديث، ومن كتاب مجلة أكتوبر القاهرية - التي تصدر عن دار المعارف.

١. علم الفراسة الحديث. ٢. مختارات جرجى زيدان.
٣. ردّ رنّان على نبش الهذيان.
٤. روايات تاريخ الإسلام: وعددها ثلاثة وعشرين رواية تاريخية حاول فيها جرجى زيدان إعادة كتابة التاريخ الإسلامي من وجهة نظره - ابتداءً من عصر ما قبل البعثة وانتهاءاً بالخلافة الإسلامية العثمانية، وآخر سلاطينها السلطان عبد الحميد الثاني رحمة الله عليه- وذلك في روايته الانقلاب العثماني.
(و) **المخطوطات**: ولجرجي زيدان - مخطوطة موضوعها - مصر العثمانية تشمل تاريخ مصر منذ الفتح العثماني إلى الحملة الفرنسية.

عرض موجز لمؤلفات جرجى زيدان:

منهجي في العرض: سأكتفي بكتابة بعض الأسطر القليلة- عن كل مؤلف- لبيان موضوعه العام، وطريقة عرضه لهذا الموضوع- بأسلوب البرقيات السريعة، وذلك لأنني مضطر للوقوف معها مرة أخرى بصورة أكثر تفصيلاً في الباب الثاني في مجال النقد والتقييم وتسجيل الاعتراضات والمآخذ الموجهة لهذه المؤلفات أو عليها باعتبارها المادة المنشورة على صفحات المجلة خلال فترة البحث.

أولا: المؤلفات التاريخية

تاريخ التمدن الإسلامي:

يقع هذا الكتاب - في مجلدين - من المؤلفات الكاملة لجرجى زيدان - نشر دار الجيل ببيروت - ضما بين دفتيهما ما يزيد عن ألف وخمسمائة صفحة تقريباً، ويعد هذا الكتاب من أشهر مؤلفات جرجى زيدان، حتى أنه عرف به.

موضوعه:

عنى المؤلف في البداية بالحديث، عن التمدن ونشأته، والعوامل التي عملت فيه،

ومقدار تأثيره في العمران. فتحدث عن تاريخ العرب قبل الإسلام يوم كانوا قبائل شتى ليس لها من الروابط سوى وجودها في بلاد واحدة وأحوال متماثلة- وتدرج في وصفهم، حتى بلغ أيام ظهور وميلاد الدعوة الإسلامية- فبين: استعداد تلك القبائل لتلقيها وتهيؤ العصر لظهورها !! وما خص به ذلك الزمان، من قيام رجال أكفاء توفرت فيهم شروط السياسة والحكومة !!!

ثم أتى على خلاصة تاريخ الدعوة وما واجهها من اضطهاد والمعارك التي نشبت بين أنصار صاحب الدعوة ﷺ، والمنكرين رسالته - إلى أن عظم أمر هذا الدين واعتز شأنه في أيام أبي بكر وعمر... رضي ا لله عنهم أجمعين.

أتى في الكتاب بتقرير عن عصور الإسلام التي قسمها إلى ثلاثة أدوار:-

١. دور الخلفاء الراشدين. ٢. دور بني أمية. ٣. دور بني العباس.

تحدث عن ثروة الدولة الإسلامية في كل عصر من هذه العصور وذكر مواردها ووجوه إنفاقها مع الإسهاب التام في عصر الدولة العباسية، لأن الثروة الإسلامية لم تتضح إلا في هذا العصر- وتحدث في مصادر إيراد الدولة. وأنها كانت في أوائل الهجرة قاصرة على الزكاة، ثم حدثت الغنائم بعد واقعة بدر الكبرى ثم الجزية لمن صالح من نصارى العرب ويهودها.

ولما فتح الشام والعراق ومصر، وضع الخراج (*)، والعشور (**) على الأرض - والمكس (***) على التجار - ثم زادت مصادر الجباية شيئاً فشيئاً حتى بلغت ٣٠٦ هجريه ١٤ مليون دينار ونصف على ما ذكره تقرير الوزير علي بن عيسى الذي رفعه إلى المقتدر.

تاريخ مصر الحديث:

يقع هذا الكتاب في المجلد- التاسع- من المؤلفات الكاملة لجرجي زيدان- والتي

(*) الخراج: ما يوقع على الأرض غير العشرية من حقوق تودى عنها إلى بيت المال.

(**) العشور: نوعان (١) عشور الزكاة وتؤخذ في زكاة الزروع والثمار (٢) ما يؤخذ من الكفار في أموالهم المعدة للتجارة إذا انتقلوا من بلد إلى بلد في دار الإسلام (الرسوم الجمركية) بالتعبير المعاصر - نزيه حماد، معجم المصطلحات الاقتصادية، ص١٩٨.

(***) المكس: هي الضرائب بالتعبير المعاصر.

تربو عدد صفحاته على سبعمائة وخمسين صفحة. وهو من مؤلفاته المشهورة.

موضوعه:

يقول- جرجي زيدان - عن سبب تأليفه لهذا الكتاب- أنه على كثرة الأفاضل الذين كتبوا عن تاريخ مصر لم أرى من اعتنى بوضع تاريخ لها مستوف، على أسلوب قريب من فهم العامة، ورضي الخاصة، تتعاقب فيه الحوادث بتعاقب السنين، مع علاقة كل ذلك بالدولة الإسلامية عموماً وسائر الدول المعاصرة.

وقد رأيت الناس يلهجون باحتياج البلاد إلى مثل هذا التأريخ، فأخذت على نفسي أن أبذل الجهد في سد هذا العوز معتمداً على أصح الروايات وأصدق الكتبة، من ثقات المشرق والمغرب، فجاء بحمد الله كتاباً وافياً في موضوعاته وقضاياه وها هو ملخص ما تضمنه:

١. فذلكة في تاريخ مصر القديم من أول عهدها إلى الفتح الإسلامي.

٢. تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامي إلى هذه الأيام مرتبة حسب أزمان حكمها فنبدأ بدولة الخلافة الراشدة - فبني أمية - فالعباسيين وهكذا حتى العائلة المحمدية العلوية الحاضرة (يقصد دولة محمد علي باشا) قسم تاريخ مصر بالنسبة إلى تمدنها لثلاثة أدوار كبرى:

١- الدور الجاهلي: يبتدئ عند أول دخولها في سلك المماليك ويبدأ هذا الدور ويمتد من سنة ٥٠٠٤ ق.م حتى سنة ٣٨١ ب.م وذلك عندما أنهى الملك تيورسيوس عبادة النصب والتماثيل، وأمر باتباع الدين المسيحي.

٢- الدور المسيحي: وهو عبارة عن استمرار الدولة الرومانية بعد شيوع سنة تيورسيوس إلى فتوح الإسلام من ٣٨١ ق.م إلى ٦٤٠ ب.م.

٣- الدور الإسلامي: وهو أهم ما في الكتاب ويروي فيه كيفية دخول الخلفاء الراشدين، واستيلاء محمد بن أبي بكر على ولايتها، وبعده عمرو بن العاص، ثم تعاقب الدول عليها، من الأموية ٤١-١٣٢هـ، والعباسية ١٣٢-٢٥٧هـ، حتى ولاية الدولة العثمانية من ٩٢٣-١٢١٦هـ، والدولة المحمدية العلوية ١٢١٦هـ، حتى وقت كتابة الكتاب، ثم يذكر المؤلف بعد

ذلك، المصادر التي اعتمد عليها في هذا الكتاب، وقد أورد جرجي زيدان في الكتاب وعلى وجه التحديد صفحات (٩١٨، ٩٨) أسماء المؤلفات العربية والإفرنجية التي اعتمد عليها في مؤلفه، كما أثبت في نهايته جدولاً عاماً بأسماء حكام مصر منذ الفتح الإسلامي حتى هذه الأيام.

تاريخ الماسونية[١] العام:

يقع هذا الكتاب - في صدر المجلد السابع عشر من المؤلفات الكاملة لجرجي زيدان ويحتل مساحة تصل إلى مائة وخمس وثمانين صفحة تقريباً، من القطع العادي.

موضوعه:

التأريخ للماسونية، بالاعتماد على بعض الكتب الإنجليزية، والفرنسية - المؤلفة في هذا الموضوع - وكذلك بالاتصال بكبار أعضاء الماسونية الموجودين في عصره - من زملاءه وأصدقائه.

ويبتدئ الكلام بالإلماح إلى بعض الجمعيات السرية ويعقبه بحديث مسهب عن نشأة الماسونية منذ ٧١٥ق.م.

---

(١) الماسونية: جمعية سرية يهودية، يقال بأن تاريخها يرجع إلى أيام اليهود الأولى وقد أنشئت لخدمة أهداف اليهود وتسهيل عملية استيلائهم على عقول القادة والرؤساء، وتحطيم نفوسهم، وتحويلهم إلى عبيد، يؤمنون بالماسونية ويكفرون بالله سبحانه وتعالى ويتنكرون لأئمتهم ويضعون أنفسهم تحت تصرف القيادات الماسونية العليا - وكلهم من اليهود - لتستخدمهم كمعاول هدم في كيان الشعوب والأوطان والحكومات غير اليهودية، وقد احتفل في فلسطين المحتلة بوضع حجر الأساس لأكبر محفل ماسوني في العالم، وتحدث في هذه المناسبة الحاخام الإسرائيلي فقال (... أيها الأخوة الماسون من كل بلاد العالم نحتفل اليوم بوضع حجر الأساس لأكبر محفل ماسوني في العالم وسيضيء الطريق أمام الماسونية لتحقيق أهدافها، أننا جميعا نعمل من أجل هدف واحد هو العودة بكل الشعوب إلى أول دين محترم أراده الله لهذه الأرض، وما عدا ذلك فهي أديان باطلة، أوجدت الفرقة بين أهل البلد الواحد وبين أي شعب وآخر - ونتيجة لمجهوداتكم سوف يأتي يوم تتحطم فيه الدين المسيحي والدين الإسلامي، ويتخلص المسلمون والمسيحيون من معتقداتهم الباطلة المتعفنة ويصل الجميع إلى نور الحق والحقيقة، كما تقدم الحفل أعقاب ١٩٦٧م إلى بلدية القدس لشراء المسجد الأقصى، لإقامة هيكل سليمان مكانه، حكومة العالم الخفية ص١٣، ١٤ ترجمة مأمون سعيد نقلا عن الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية، دراسة لكتاب شيخ الإسلام مصطفى صبري، نشر دار الدعوة، ط١، ص١٢٣، سنة ١٩٨٥م.

ونلمح بوضوح دفاعه المستمر عن هذه الأفكار الهدامة وذلك المذهب الفتاك وإقناعه به يقول « ومما يذكر لشرف الماسونية، أنها اتخذت الفضيلة غاية لها منذ أول نشأتها ... الخ » ويستفاد من الكتاب أن نابليون هو أول من أدخل الماسونية إلى مصر ١٧٩٨م وبعد مشاورة مع كبار معاونيه أسسوا محفل إيزيس بالقاهرة ودعوا طريقته بالطريقة الممفية.

تاريخ العرب قبل الإسلام:

يقع هذا الكتاب في النصف الأول من المجلد العاشر من المؤلفات الكاملة لجرجى زيدان ويحتل مساحة قدرها (٣٤٦ صفحة) – ولا أدري كيف حسبها الشيخ[1] أحمد السكندري في مقال له بمجلة المنار أنها (٢٥٠ صفحة فقط) !

موضوعه:

قدم المؤلف في (٤٠ صفحة) مقدمة طويلة ليست من صلب الكتاب أو موضوعه لكنه ذكر فيها كعادته في كتبه – غموض تاريخ العرب وصعوبة التأليف فيه، أو تعذره، إلا على أهل الجسارة والاطلاع الواسع والمعرفة الكثيرة باللغات الحية، وغير الحية، والبحث والتنقيب في آثار الأمم الخالية، أعقب ذلك بإيراد ما يشبه الفهرس المطول، وألحق به تمهيداً عن مصادر تاريخ العرب بدءاً بالكتب العربية، ثم بالكتب غير العربية من اليونانية، والرومانية، والنقوش الأثرية – وبالكتاب ترجمة وافية لآراء بعض قدماء اليونان في الجغرافية المصرية، والعربية،

---

(١) الشيخ أحمد السكندري: من أبرز العلماء الذين تتبعوا جرجى زيدان في كتاباته وما ورد فيها من أخطاء وتحريفات – ففي عام ١٩٠٨م نقد كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام – وسنة ١٩١٢م نقد كتاب آداب اللغة العربية – وفي كلا المنحيين نجد السماحة والإنصاف وتقدير عمل العاملين، وهو لا يذكر مآخذه على الكتاب إلا بعد ذكر محاسنه – وقدم للنقد بتمهيد كريم – يعطي مفهوم الباحث النزيه القصد المتطلع إلى معرفة الحق والكشف عن الأخطاء التي جاءت نتيجة قصور المراجع، وضعف الاستنتاج، وتدل كتاباته على عمق خبرته في دراسة تاريخ العرب، ولد عام ١٨٧٥م وتوفي ١٩٣٨م، عاش حياة عريضة في مجال التعليم بدار العلوم وجامعة القاهرة وفي مجال البحث العلمي بمؤلفاته في خدمة اللغة العربية، وبمشاركته في مختلف المجامع وكانت دعوته أن تكون اللغة العربية لغة العالم الإسلامي كافة – أنور الجندي، أعلام وأصحاب أقلام، نهضة مصر، ط١، بدون تاريخ ص١٣، ١٤.

وبعض الصور والرســوم والخرائط، والخطوط، والنقود التي نقلها من رحلات السياح الأوربيين في شمال جزيرة العرب وجنوبها مثل رسم سد مأرب، وبعض قصور اليمن وهيكل تدمر وبطرا ... الخ.

وينهي الكتاب بالحديث عن مكة واختلاف المؤرخين في أصل اسمها وبدء بنائها، والأمم التي توالت عليها، وكنانة، وقصي بن كلاب صاحب لواء الحرب وحجابة البيت – وبطون قريش – ثم ينتقل إلى المدينة (يثرب) تاريخها وقبائلها – وحروب الأوس والخزرج، ويذكر نبذة عن الطائف كذلك. أ.هـ.

طبقات الأمم:

يقع هذا الكتاب في المجلد العاشر – من مجموعة مؤلفات جرجي زيدان– ابتداء من نصفه الأخير، تصل عدد صفحاته إلى (٣٤٥ صفحة تقريباً).

موضوعه:

صدَّر المؤلف كتابه هذا بعدد من المقدمات التمهيدية في عمر الأرض الجيولوجي، وأصل الإنسان في مهده الأول، وتاريخه قبل التاريخ – وكيف تدرج في غذائه من أكل الثمار إلى اصطناع الخبز وطبخ اللحم، وكيف تدرج في مأواه من الكهوف، إلى بناء الأبنية والقصور، وفي كسائه من الالتفاف بورق الشجر أو الجلود، إلى الغزل والنسيج والخياطة – ويتعرض كذلك لتاريخ نطقه، منذ كانت لغته أصواتاً حتى صارت لغة نطقية، وكيف تدرج في اختراع الكتابة، والأرقام وغير ذلك.

ثم عرف علم طبقات الأمم: بأنه علم يعني بمعرفة أحوال الناس ودرس أخلاقهم وعاداتهم – فهو يشرح أخلاق الأمم، وطبائعها، فضلاً عن ملامحها وظواهرها، فيساعد الباحث على تحليل أسباب سقوط الأمم ونهوضها، وبين كذلك اختلاف علماء الإنسان في تقسيم طبقات الأمم وتبويبها – فمنهم من قسم الناس إلى ثلاثة فروع (سام – حام – يافث) نسبة إلى أبناء نوح عليه السلام، ومنهم من ذهب إلى تقسيم البشر حسب ألوانهم – كما قسمهم آخرون حسب شكل الجمجمة،

أو القامة، أو الملامح أو القوى العاقلة، أو اللغات أو غير ذلك - ولكل تقسيم حسناته وسيئاته، من حيث تحديد خصائص كل نوع، وتطبيقه على ما هو معروف في الأمم الحية، بين المؤلف هذا كله ثم انتهى إلى توضيح المنهج الذي اعتمده هو في تقسيم طبقات الأمم إلى ما يلي:

١. الزنوج أو السود. واعتبرهم أحط الطبقات.
٢. المغول أو الصفر.
٣. الهنود الحمر، أو هنود أمريكا.
٤. القوقازيون أو البيض والسمر - وهم أرقى طبقات البشر (*) - كما يدعي.

وشفع الكلام عن كل أمة بوصف طبائع أهلها البدنية والعقلية وأخلاقهم، والكتاب مليء بالرسوم والأشكال التي تسهل فهمه واستيعابه. ومذيل بفهرس لأسماء الأمم، والمواضيع على الترتيب الأبجدي.

كما حوى كذلك: حديثاً عن أشهر الأديان ذكراً إجمالياً، ليهون على المطالع، فهم ما يعرض له في أثناء مطالعته من أسماء الأديان، أو طبقات المدينة في بني الإنسان.

ثانيا: المؤلفات اللغوية

الفلسفة اللغوية:

يقع هذا الكتاب في جزء من المجلد السادس عشر - من مجموعة المؤلفات الكاملة لجرجى زيدان - وبالتحديد من ص٥١٩ إلى ص٦٧٢ أي أن عدد صفحاته

(*) تعليق الباحث: يعتبر هذا المنهج الذي استخدمه جرجى زيدان تطبيقا عمليا للتوظيف الثقافي والسياسي لتسخير علم الاجتماع في خدمة الأهداف القومية الغربية !؟ والقائم على تبرير مشروعية استغلال الاستعمار الغربي وتثبيت سيطرته على شعوب العالم عبر ترسيخ قاعدة تفوق الأجناس الشهابية والجرمانية وربط التقدم الغربي بالصفات الوراثية للجنس الأوربي، وهو ما ذهب إليه كثيرون من علماء الاجتماع مثل فاكس فيبر الذي يقرر تفرد الحضارة الغربية والنمط الثقافي الغربي «فالعلم في نظره لم يتم إلا في الغرب وهو وحده الذي صنع تاريخاً علمياً، وهو وحده الذي تمتع بنظم سياسية واقتصادية» ولقد انتهى به الأمر إلى التساؤل عن إمكانية عزو هذه الأصالة إلى صفات وراثية " علم الاجتماع عند ماكس فيبر ترجمة تيسير شيخ الأرض ص١٣٣ منشورات وزارة الثقافة سوريا ١٩٧٦م.

١٥٣ صفحة تقريباً، وهو أول كتاب ألفه جرجي زيدان.

موضوعه:

يشتمل الكتاب على مقدمة وخمس قضايا.

المقدمة: في تقسيم اللغات وماهية اللغة العربية.

القضية الأولى: أن الألفاظ المتقاربة لفظاً ومعنى مثل (سكب - سبك وبرق - بلق) هي تنوعات لفظ واحد، وقد بين ذلك في مقابلة اللغة العربية، بالسريانية، والعبرانية، ولغة العامة.

القضية الثانية: أن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في غيرها كالحروف (الجر والزيادة) هي أيضاً بقايا ألفاظ ذات معنى في نفسها،وأتى بأدلة على ذلك من بعض اللغات الإفريقية والآرية والعبرانية.

ونتناول هذه القضية (البحث في مزيدات الأفعال وتصاريفها)

القضية الثالثة: أن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها كالاسم والفعل، يرد مظهرها بالاستقراء إلى أصول ثنائية أحادية المقطع، تحكي أصواتاً طبيعية.

القضية الرابعة: أن جميع الألفاظ المطلقة كالضمائر وأسماء الإشارة قابلة للرد إلى لفظ واحد وبضعة ألفاظ.

القضية الخامسة: في أن ما استعمل للدلالة المعنوية من الألفاظ وضع أصلاً للدلالة الحسية، ثم حمل على المجاز للتشابه في الصور الذهنية.

النتيجة:

أن لغتنا العربية مؤلفة أصلاً من أصول قليلة أحادية المقطع، معظمها مأخوذ من محاكاة الأصوات الخارجية، وبعضها من الأصوات الطبيعية التي ينطق بها الإنسان غريزياً.

تاريخ اللغة العربية:

يقع هذا الكتاب في نهاية المجلد السادس عشر.

موضوعه:

جاء في مقدمة الكتاب، ليعلم حملة الأقلام أن اللغة كائن حي تام خاضع لقاموس الارتقاء، بتجدد ألفاظها، وتراكيبها على السواء، فلا يتهيبون من استخدام لفظ جديد لمعنى جديد لم يستخدمه العرب من قبل.

وقد قسم كتابه إلى ثمانية فصول:

الفصل الأول: العصر الجاهلي.

الفصل الثاني: العصر الإسلامي.

الفصل الثالث: الألفاظ الإدارية في الدولة العربية.

الفصل الرابع: الألفاظ العلمية (الطبية – الرياضية – الفلسفية).

الفصل الخامس: الألفاظ الاجتماعية.

الفصل السادس: الألفاظ النصرانية أي ما دخل العربية من الاصطلاحات الدينية لأهل الكتاب في العصر الجاهلي (كالقسيس – والدير ... وما إلى ذلك).

الفصل السابع: الألفاظ الأعجمية في دول الأعاجم.

الفصل الثامن: النهضة الحديثة والتغيير الذي أصاب اللغة العربية من ناحية ألفاظها، وتراكيبها، وبعضه دخل من اللغات الأجنبية أو تولد فيها بالتنوع والتفرع، وأورد أمثلة مفصلة على كل ذلك.

وقد حقق المؤلف أصل كلمات كثيرة أشكل على علماء العربية معرفة أصلها، وبحث عن تاريخ كثير من الكلمات العربية وتنوعها في اللغات السامية فقال إن (كلمة إنبو) مثلاً تدل على الثمر مطلقاً ثم قلبت إلى عنبو وعنب واختصت في العربية بثمر الكرم، وكذلك العبرانية والسريانية وفي النهاية أفرد المؤلف حديثاً عن لغة الحكومة المصرية في دواوينها، يقول إن في هذه اللغة من الركاكة، والغرابة، ما بلغ الذروة في أواسط القرن الماضي، لأنه عندما جاء الفرنسيون إلى مصر، كان فيهم جماعة من التراجمة ليتوسطوا بينهم وبين الأهالي والعلماء ويترجموا لهم المنشورات والمراسلات، ونحوها فكانوا إذا ترجموا عبارة صاغوها في قالب إفرنجي، وما لم يجدوا له لفظاً عربياً تركوه بلفظه الإفرنجي، أو وضعوا له لفظاً عامياً، فلما

استنار الناس على إثر نشر الصحافة تم تنقيح كثير من تلك الغرائب.

تاريخ آداب اللغة العربية:

يحتل هذا الكتاب المجلدين الثالث عشر، والرابع عشر، وجزءاً من المجلد الخامس عشر، استغرق حوالي ٤١٩ صفحة تقريباً والكتاب مكون من أربعة أجزاء.

موضوعه:

الجزء الأول: بعد المقدمات التمهيدية التي شرح فيها المقصود بآداب اللغة ؟ وأكد على أهمية دراستها وكيف أنه من أهم الوسائل لتفهم التاريخ السياسي، مبينا أن تاريخ آداب اللغة هو تاريخ عقول أبنائها، وتأثير ذلك في نفوسهم وفي أخلاقهم، وما بلغته الأمة من الرقي العلمي وامتازت به عما سواها، ثم تعرض المؤلف لآداب اللغة العربية قبل الإسلام، وحالها حين مجيء الإسلام، وفروع اللغة، والشعر، في العصر الجاهلي ... وهل كان عند العرب شعر تمثيلي، وكيف بدأ العرب ينظمون الشعر، وماهية شاعرية العرب، وطبقات الشعراء، وخصائص الشعر الجاهلي، وأشعر الشعراء، وعرض لرجال المعلقات، كامرئ القيس، وزهير، والنابغة، والأعشى، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، وطرفة، وعنترة وغيره، ثم قسم الشعراء حسب موهبة كل منهم، الشعراء والحكماء والفرسان، الأمراء العشاق، الصعاليك، الهجائين، النساء الشواعر ... الخ، ويترجم لهؤلاء جميعاً ... وينتهي الجزء الأول بالكلام عن الخطابة والإنشاء في العصر الأموي.

الجزء الثاني: يتناول فيه العصر العباسي إلى دخول السلاجقة ببغداد ٤٤٧هـ - ويعرض من خلال العصر العباسي بعض اللغات التي انتشرت في هذا العصر، كالهندية، والفارسية، واليونانية ... الخ، كما يعرض للشعراء في هذا العصر وطبقاتهم كشعراء الشيعة والبرامكة، وصنف الشعراء إلى مجموعة لم تتكسب بالشعر، وآخرين يتكسبون به، ويعرض كذلك لبعض العلوم كالتاريخ ورجاله، وعلم اللغة ورجاله كالخليل بن أحمد وغيره .. والنحو كسيبويه والكسائي والفراء، ثم يتناول العصر العباسي الثاني: فيتحدث عن أشهر شعرائه: كابن الرومي،

والبحتري، وابن المعتز وغيرهم. كما يعرض للأدباء: كالجاحظ، وابن قتيبة، وابن المقفع، وينهي الكلام عن هذا العصر بالحديث عن العلوم الإسلامية ورجالها، والطب والأطباء كالرازي وغيره - ثم ينتقل إلى العصر العباسي الثالث وإقليمية الأدب، حيث انفصمت عرى الخلافة، وأصبح لكل قطر أدبه الذي تميز به. وهكذا عرض لدولة بني بويه، والزيادية، والحمدانية، والفاطمية بمصر، والمروانية بالأندلس، وقد ترجم للدول التي ذكرها.

الجزء الثالث: يحتوي على تاريخ آداب اللغة العربية من دخول السلاجقة بغداد ٤٤٧هـ ويتحدث هنا عن العصر العباسي الرابع والانقلابات السياسية التي جرت فيه، وكذا مميزات هذا العصر وطابعه العام، ثم يتكلم عن أشهر الشعراء: كابن الفارض، وأبي قلاقش، وبهاء الدين زهير وغيرهم.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى العصر المغولي:- متحدثاً عن اللغة والتاريخ والجغرافية والرحلات، والموسوعات، والعلوم الإسلامية والدخيلة إلى أن يصل إلى العصر العثماني: فيتحدث فيه عن الشعر وبعض رجال المذاهب كالشيخ محمد بن عبد الوهاب ... الخ.

الجزء الرابع: والأخير يعرض فيه لتاريخ آداب اللغة العربية من ١٢١٦هـ إلى أوائل القرن العشرين، ويتناول فيه حال مصر والشام تحت حكم العثمانيين ويعرض للنهضة فيها، وحال الأزهر في ذلك الوقت، وكيف أدى دوره كاملاً في ذلك العصر، حين حافظ على كيان اللغة العربية وعمل على نشرها بكل وسيلة بعد أن أتت إليه الوفود من كل صوب، لتنهل من علمه وأدبه، كما بحثت أيضاً عن المدارس والمطابع بمصر والشام - ودور التمثيل والمتاحف، وعرض لجهود المستشرقين، والمترجمين، في اللغة العربية وآدابها، وعرض لبعض القصص الحديثة والروايات ثم انتقل إلى الشعراء وترجم لبعضهم كالسيد إسماعيل الخشاب المصري[1] ومحمد المهدي المصري ١٨١٥م ويختم هذا الجزء بالحديث عن رجال

(١) إسماعيل بن سعد بن إسماعيل بن مدكور بن عبد الله الوهبي المعروف بالمصري الخشاب من أدباء مصر، عين مدوناً للحوادث اليومية في عهد الاحتلال الفرنسي لمصر، مولده ووفاته في القاهرة له (ديوان الخشاب) وله (تاريخ حوادث وقعت بمصر من سنة ١١٢٠ إلى دخول الفرنسيين).

القضاء والعلوم والحديث - ثم عن علم الاجتماع وما يتعلق به. أ.هـ.

تاريخ اليونان والرومان:

يقع هذا الكتاب في المجلد التاسع عشر من المؤلفات الكاملة لجرجى زيدان وتحديدا فإنه يبدأ من ص٢٥٧ – ص٣٣٠ تحت عنوان خلاصة تاريخ اليونان والرومان، أي أنه لا تزيد عدد صفحاته عن ثلاثة وسبعين صفحة.

موضوعه:

يقدم المؤلف – لبحثه هذا – بحديث عن قارة أوربا، ملخصاً لجغرافيتها – وأنها هي القارة الثالثة بحسب الترتيب الجغرافي – وأصغر القارات مساحة. ومع ذلك فإن عدد سكانها، يبلغ ٢٨٠٠ مليون نسمة (إحصائيات ١٨٩٢). وهي أسبق القارات في التمدن الحديث ففيها المدن الجميلة والطرق المنظمة، وتنقسم أوربا إلى قسمين: شمالي: وبه أعظم الأمم الأوربية. روسيا والدنمارك، وهولندا، وبلجيكا وسويسرا وفرنسا ....الخ، وجنوبي: مثل البرتغال وأسبانيا وإيطاليا، واليونان، وتركيا....الخ. ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن بلاد اليونان موقعها، ومنظرها، ومناخها، واتساعها، وأن أول من أدخل التمدن إلى بلاد اليونان سيكروبس – أحد الرجال المصريين أسس مدينة أثينا ١٥٥٦ ق.م وتوالى رجال من أمم مختلفة بعد ذلك.

ثم انتقل للحديث عن الشرائع اليونانية، وعن ليكورغوس الذي عاش في الجيل التاسع قبل الميلاد، وكيف أنه كان حكيماً عادلاً حتى أنه أمر أن يأكل الإسبارطيون على موائد عمومية – لكي لا يتمتع الأغنياء بما لا يناله الفقراء ... وكيف أن السبارطيون كانوا يبالغون في تنفير أولادهم من المسكرات، واحتفظوا بتشريع هذا الرجل ٥٠٠ سنة، ثم انتقل إلى الحديث عن ديانة قدماء اليونان وخرافاتهم، وكيف كانوا يعتقدون بثلاثة صفوف من الآلهة وهي: السماوية، والبحرية، والسفلي ... وأتبع ذلك بالحديث عن فلاسفة اليونان طاليس في القرن السادس ق.م، بياس ٦١٧ ق.م، فيثاغورس، هراقليطوس، انكساغورس الزاعم بأن

الفضاء مصنوع من الحجارة وأن الشمس قطعة من الحديد على درجة عظيمة من الحرارة، ثم سقراط أعظم حكمائهم الذي حكم عليه بشرب السم ... الخ، ثم انتقل للحديث عن الشعراء وأنواع المعيشة عند القدماء، وموت الاسكندر ونهاية الاستقلال اليوناني - تاريخ اليونان الحديث وفتح العثمانيين لها ١٤٥٠م - ودخول اليونان في حوزتهم، وأورد جدولاً لحوادث اليونان - وانتقل للحديث عن إيطاليا، ورومية أشهر أقسامها وغزو الغاليين لها - ورومية تحت سلطة البابوات.

تاريخ انكلترا:

يقع هذا الكتاب في جزء من المجلد التاسع عشر وتحديداً من ص١٤٩ - ص٢٥٦ أي أن عدد صفحاته حوالي مائة صفحة تقريباً.

موضوعه:

يقول نظراً لخلو العربية حتى الآن من تاريخ لهذه الدولة واف بالمراد، مع إلحاح حضرات القراء واستحسانهم - لاح لنا أن لا تنتهي السنة الثانية من الهلال حتى نكون قد قدمنا تاريخ انكلترا كله مفصلاً - وقدم لذلك بالحديث عن جغرافيتها، وأصل شعبها، وقديم عوائدهم، فتحدث أولاً عن جزائر بريطانيا العظمى، وأيرلندا، وموقع كل منهما وأقسامها وأورد قائمة بأسماء الدول التي تعاقبت على انكلترا، و بلغت عشر دول. ثم تحدث عن البريطانيين الأصليين، الدولة الرومانية - الدولة السكسونية ٤١٠-١٠٦٦م والحالة الاجتماعية الأنجلو سكسونية - طريقهم في توليه ملكهم ... الخ، وتحدث عن الدولة الفورمندية من ١٠٦٦ إلى ١١٥٤م فتحدث عن وليم الظافر، والملوك المعاصرين له، ثم تحدث عن الدولة البلانتاجشة الحقيقية ١١٥٤-١٣٩٩م أول ملك لها هنري الأول، والملوك المعاصرين له - وتوليه ريكاردس قلب الأسد، وحروبه مع البطل صلاح الدين الأيوبي وتحدث عن هنري الثالث ١٢٠٧-١٢١٦م ومعاصريه، ويختم الكتاب بالحديث عن ريكاردوس الثالث ١٨٥٢-١٤٨٥م.

ثالثا: التراجم والسير

تراجم مشاهير الشرق:

يقع هذا الكتاب في جزء - من المجلد الخامس عشر وصدر المجلد السادس عشر وبلغ عدد صفحاته التي احتلها بالمجلدين (٨٥٠ صفحة).

موضوعه:

ركز موضوع الكتاب كما يتضح من عنوانه، على تقديم تراجم لعديد من الرجال الذين، لا يختلف اثنان في شهرتهم، وإفادتهم لأبناء العربية، وقد قسمهم - المؤلف - إلى:

١. رجال البر والأعمال.

٢. أصحاب الجرائد.

٣. سائر رجال العلم والأدب .. بصرف النظر عن انتماءاتهم العقدية وميولهم المذهبية، فأورد ترجمة للشيخ ناصيف اليازجي - ورفاعة بك الطهطاوي، والمعلم بطرس البستاني - وعلي باشا مبارك - ود.كرنيلوس فانديك وتراجم غيرهم، ولم تتوقف ترجماته لمشاهير العرب فقط، بل ذكر بعضاً من الهنود والأتراك، كالسير أحمد خان الهندي(*) ، ومحمد نامق كمال(**) التركي.

واقتصر الكتاب على ذكر - المتوفين - من المشاهير فقط، ونشر بعض ما جادت به أقلامهم، ودون دخول في تقييم هذا الكتاب أو الشخصيات التي ورد ذكرها فيه ومعيار اختياره لهم، ودورهم الحقيقي في إفادة شعوبهم، أو تنفيذ مخططات أعداء هذه الشعوب. فإن الكتاب جمع عدداً كبيراً من الشخصيات التي ترجم لها، وعرف القراء بها. فعلى أقل تقدير - بالكتاب معلومات غزيرة وكثيرة ويعتبر من الكتب المتميز في بابه.

(*) ستأتي ترجمته في فصل الشخصيات والتراجم التي قدمها جرجي زيدان.

(**) نامق كمال ولد في ١٨٤٠م كان ينتمي لأسرة ثرية، درس اللغات العربية والفارسية والفرنسية، وتولى وظيفة رسمية في السابعة عشرة من عمره، أشرف على تحريره مجلة «تصوير أفكار» في ١٨٦٥م وكنتيجة لمقالاته الانتقادية للحكومة نفي إلى الخارج أكثر من مرة ثم عاد بعد خلع السلطان عبد الحميد.

علم الفراسة الحديث:

ويقع الكتاب في القسم الثاني من المجلد السابع عشر ويبلغ عدد صفحاته مائتي صفحة تقريباً.

موضوعه:

الاستدلال على أخلاق الناس وعاداتهم من أعضائهم الخارجية، يقول المؤلف: (وأفضل الجباه دلالة على الأخلاق الحسنة عند العرب، المعتدلة الموافقة لوجه صاحبها التي ليس فيها تربيع، ولا تعجرف، ولا هي مسحاء الرأس ولا مشرفة على الوجه، ولا عظيمة، ولا صغيرة، ولا شعر الرأس مالك أعلاها بكثرة، بل مستوية الخلقة، لينة، عالية في موضعها، حسنة المنظر، نقية من الشامات، ومن الخيلاء ومن الشعر النابت بها، كالزغب) .

وهكذا يمضي الكتاب إلى آخره، في محاولة لرسم خريطة لأعضاء الإنسان ودلالتها على الأخلاق، مقدماً معها زبدة ما ذكرته كتب الفراسة. وأدمج فيها أقوال العرب في هذا الموضوع، ورصعه بعديد من الأشعار العربية التي جاء أكثرها منطبقاً على ما ذكرها فيه أشد الانطباق.

كاستشهاده على الشمم بقول كعب بن زهير:

شم العرانين أبطال لبوسهم   من نسج داود في الهيجا سرابيل

والفرزدق حين يقول:

في خيزران ريحه عبق   من كف أروع في عرنينه شمم

وكذلك التعاويذي في دلالة العين في قوله:

عيناك قد دلتا عيني على   أشياء لولاهما ما كنت تبديها

والعين تعلم من عيني محدثها   إن كان من حزبها أو من أعاديها

وبالكتاب ما يقرب من مائتين وخمسين رسماً - بينها صور كثيرة للمشاهير،

والفلاسفة، والقواد، والخطباء، والمخترعين، والمكتشفين، منذ أقدم العصور وإلى الآن. أ.هـ.

أنساب العرب القدماء:

يقع هذا الكتاب في القسم الرابع في المجلد السابع عشر - من المؤلفات الكاملة لجرجي زيدان وتحديداً من ص٤٩٧ - ص٥٦٢ أي أن عدد صفحات الكتاب لا تتجاوز الستة والستين.

موضوعه:

توضيح العلاقة بين الإنسان والإنسان عن طريق الأنساب - ويركز على العرب بصفة خاصة فيذكر أنسابهم، ويرد في بداية - كتابه هذا - على القائلين بأن أنساب العرب كلها أكاذيب، رداً مترفقاً دون تعنت، ولا استفزاز ويدعم ذلك باستشهادات عديدة. ويذكر في بداية الكتاب. حديثاً طويلاً عن الطوتمة(*) وهي إحدى عبادات القبائل المتوحشة خلاصتها كائنات حية تحترمها بعض القبائل، ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسميه طوتمة. وقد يكون الطوتم حيواناً أو نباتاً أو غير ذلك، يحمي صاحبه الذي يقدسه. فإذا كان حيوانا لا يقتله أو نباتا لا يقطعه ولا يأكله، ثم بين اختلاف الطوتمة عن عبادة الحيوانات والنباتات السابقة عند بعض القبائل المعبر عنها (بالديانة الفشية) فهذه عبارة عن عبادة صنم بصورة حيوان - وتلك تقديس نوع من أنواع الحيوانات أو النباتات أو عبادته ... وبعد أن انتهى المؤلف من الحديث عن الطوتم عقب بذكر العرب القدماء وأنسابهم فقرر: أن قبيلتي عاد وثمود التي ظن البعض أنهما قبيلتان خرافيتان - حقيقيتان ويؤكد وجودهما، بما وجد في أعالي الحجاز، ويستشهد بالتوراة في ذكر أخبار العرب ... ويذكر مشاهير النسابين العرب، وكيف كان

(*) الطوطمية وهي عبادة كانت منتشرة بين المصريين القدماء، تمثلت في تقديس بعض الحيوانات والطيور مثل الصقر، النسر، النسناس، التمساح، عجل أبيس، باعتبارها رموزاً للآلهة التي كان يعبدها المصريون د. حسن الهواري، الأديان القديمة ص٣٩.

العرب إجمالاً لا يحافظون على تسلسل النسب إلى الجد الأول، ويعلل ذلك برد جميل على القائلين بعدم ثبوت الأنساب، وكيف يجتمع الناس بعضهم ببعض. فالقرابة بين الناس تأتي من المصاهرة والزاوج، ثم يذكر الألقاب والتسمية: أي تسمية بعض القبائل بجميع أسماء الحيوانات والكلاب. ويذكر بعد ذلك عبادة العرب وأصنامهم: ويفرد لهبل ذكراً .. ولآساف ونائلة، ويغوث، ويختم بحثه بود: وهو التمثال الذي عبده العرب مع باقي الأصنام.

وينتقد الطوتمية - في نهاية بحثه - لمخالفتها قواعد العمران الثابتة - ناهيك عن مخالفتها للحكم العقلي. فكيف يخطر على الإنسان أن يعتقد تسلسله من ثعبان، أو خنفسة، أو بصلة، أو نحو ذلك. وعلى هذا: فالطوتمية من الآراء العلمية الضعيفة المبنية على الاستقراء الناقص.

عجائب الخلق:

يقع هذا الكتاب في القسم الثاني من المجلد السابع عشر من المؤلفات الكاملة وتحديداً من ص٣٩٣ - ص٤٩٥ أي أن عدد صفحاته تصل إلى ١٠٢ صفحة.

موضوعه:

البحث في عجائب المخلوقات، وما في الكون من أشياء يعسير على الإنسان تعليل أسباب حدوثها، أو اختلافها، فيذكر التوائم المتناسبة والمتفاوتة. ثم أطوال الرجال والنساء، وأتبع ذلك بالحديث عن الأقزام وتفحص أحوالهم وطبائعهم، ويأتي بعد ذلك بحث حول القردة لمشابهتها البشر في بعض الأشياء (ويورد بعض الغرائب في ذلك) ثم يتحدث عن لغة الحيوان: فلا يترك فصيلة من فصائل الحيوان حتى يأتي على ذكر طبائعها، وكيفية دفاعها عن نفسها - وذكر حديثاً عن النمل الحلاب وطريقته العجيبة في بنائه لقريته. ثم انتقل إلى موضوع الطيور فذكر أهمها وطبائعها وفصائلها - ذاكراً عمر بعض الطيور الببغاء (١٠٠ سنة) التمساح (٣٠٠ سنة) الحوت (٢٠٠ سنة) الباز (١٥٠ سنة) وينتهي جرجي زيدان -

من العوالم الحيــة المتحركـة - لينتقـل إلى عـالم النبـات فيذكر خواصـه وكيف أن النبـات الحســاس يشـعر بـالألم كـالحيوان. فالنبـات أنواع يتوالد وينمـو ثم يموت كـالحيوان ... الخ. وينتقل للحديث عن الزنابـير والتجـارب الـتي أجريت عليهـا، والنحل وكيفية تناسلها. ويذكر عن عجائب بعض الحيوان أنه يهضم طعامه خارج المعدة، ثم ينتقل **جرجي زيدان** - من الطيـور والحشرات - إلى الحديث عن اللحى وأطوالهـا وأعظمهـا، وتمسـك الإسـرائيليين بإطلاقها، وافتخـارهم بأنهم خرجوا من وادي النيل ولحـاهم معهـم، وكيف أن المصريـين يرســلون لحــاهم ولكنهم كـانوا يوقرونها حتى أنهم كانوا يلبسـون اللحى المستعارة في الاحتفالات الدينية الكبرى. أما العرب فكانت اللحيـة عندهم تعد من شعائر التقوى والعلم والوجاهة - أطلقها الأمراء، والفقهاء، والعلماء، بل إنهم كانوا يحتفظون بما يقع منها أثناء التمشيط ... الخ. ثم يختم حديثـه عن اللحى بقولـه: والناس في كل عصـر يتفاوتون بطول لحاهم وكثافتهـا باختلاف الأمزجـة والأعمار والأقـاليم، ثم ينتقل زيـدان إلى عالم الأسماك بعد ذلـك وهل ينـام السـمك ؟ فذكر أنهـا تنـام إما طافيـة علـى سـطح المـاء، وإما غائصـة في قاعه وسـابحة في وسـطه. وختم بحثـه بالحديث عن آلات التنفس وكيف أنها تنقسـم إلى آلات خيشـومية وتكون في الأسماك - وآلات رئويـة مثل الإنسان، وينتهي هذا البحث عن هذا الحديث. أ.هـ.

مختصر جغرافية مصر:

طبـع هذا الكتـاب بمطبعـة التـأليف - وهـي المطبعـة التي أنشـأها جرجى زيدان ونجيب متري - ١٨٩١م.

موضوعه:

لم يرد لهذا الكتاب ذكر في مجموعـة الأعمال الكاملة لجرجى زيدان - اللهم إلا عدة صفحات لا يتجاوز أصابع اليدين في صدر كتاب تاريخ مصر الحديث - تحت عنوان جغرافيــة مصر الحديثـة - حـدود مصر وأقســامها بـين فيــه أن مصر قبل

الحوادث السودانية - الأخيرة كانت تمتد شمالاً إلى البحر المتوسط، وتسير جنوباً فتضم شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة حتى تلتقي بالبحر الأحمر.

أما بعد الحوادث السودانية فانحصرت المملكة المصرية في القطر المصري مع استيفاء سواكن، وشبه جزيرة سيناء، وواحات صحراء ليبيا. وينقسم القطر المصري إلى قسمين عظيمين: الوجه القبلي، والوجه البحري، وكل من هذين القسمين، ينقسم إلى إقليم ومديريات (محافظات) في كل منها، مدينة كبرى تقيم فيها حكومة تلك المديريات. وأورد جدولاً بأسماء تلك المديريات وعواصمها. ثم تحدث بعد ذلك عن سكان مصر ومزروعات مصر والحيوانات المشهورة بها.

خامسا: مؤلفات أدبية وروائية

وتشمل روايات تاريخ الإسلام:

أو - روايات جرجي زيدان - والتي أعاد من خلالها كتابة التاريخ الإسلامي من وجهة نظره - ابتداء من عصر الرسالة مروراً بعصر الخلفاء الراشدين - والدولة الأموية - ثم العباسية ... وانتهاء بالخلافة العثمانية والسلطان عبد الحميد الثاني - وهاهي أسماء هذه الروايات في إيجاز سريع حيث أننا وكما سبق أن ذكرت- سأقف معها وقفة فاحصة مدققة نقف من خلالها على إجابة للتساؤل الذي طرحناه في بداية البحث، هل تجرد جرجي زيدان حقاً من أيديولوجيته وهو يكتب تاريخ الإسلام أم أنه قدم وجهة نظره في هذا التاريخ وإلى مدى تطابق وجهة نظره مع الحقائق العلمية والتاريخية ؟

١. فتاة غسان.
٢. أرمانوسة المصرية.
٣. عذراء قريش.
٤. ١٧ رمضان.
٥. غادة كربلاء.
٦. الحجاج بن يوسف.
٧. فتح الأندلس.
٨. شارل وعبد الرحمن.
٩. أبو مسلم الخراساني.
١٠. العباسة أخت الرشيد.

١١. الأمين والمأمون. ١٢. عروس فرغانه.
١٣. أحمد بن طولون. ١٤. عبد الرحمن الناصر.
١٥. فتاة القيروان. ١٦. صلاح الدين الأيوبي.
١٧. شجرة الدر. ١٨. الانقلاب العثماني.
١٩. أسير المتمهدي. ٢٠. المملوك الشارد.
٢١. استبداد المماليك. ٢٢. جهاد المحبين.

الفصل الرابع

جرجي زيدان في كتابات القدامى والمعاصرين وصلاته بالمستشرقين

إن سؤالاً يطرح نفسه مع بداية هذا الفصل. من هو جرجي زيدان ؟ حتى تفرد له دراسة جامعية تستغرق من الوقت والجهد ما لا يخفى على أحد من أهل العلم وطلابه.

ما حجمه وما وزنه وما تأثيره في مسيرة الحركة الثقافية والفكرية في عصره.

ودون دخول في تفصيلات كثيرة - حول هذا البحث وأهميته ومدى مساهمته في الكشف عن غموض فترة من أخطر فترات حياتنا الثقافية والفكرية .

فإنني أظن أن أهمية أي عالم من العلماء أو كاتب من الكتاب عبر الأزمنة المختلفة، والعصور المتعاقبة، إنما تكمن في محورين:

١. طبيعة الموضوعات العلمية التي كانت محل بحثه واهتمامه، وقيمة إسهامه العلمي فيها .

٢. حجم هذا العطاء الذي قدمه - وغزارته وكثرته وانتشاره - وبالتطبيق على هذين العنصرين، يظهر ما يلي:

أولاً: من ناحية طبيعة الموضوعات التي كتب فيها جرجي زيدان:

فلاشك في أهميتها الكبرى وضرورتها القصوى بالنسبة للمسلم ذلك أنها تدور حول الإسلام تاريخاً وحضارة، ولغة، يكفي أنه أعاد كتابة التاريخ الإسلامي كله - من وجهة نظره - ابتداء من البعثة مروراً بعصر النبوة، وبعدها عصر الخلفاء الراشدين، وبقية دول الإسلام التي تعاقبت بعد ذلك حتى آخر خليفة للمسلمين في الدولة العثمانية المفترى عليها - السلطان عبد الحميد الثاني له من الله الرحمة -

ومـن المسلمين في مشـارق الأرض ومغاربهـا أخلص الدعوات بالمغفرة والرضوان - والذي أعمل فيه معولـه الهدام طعناً وتحدياً واسـتهزاء - وهذه هي رواية الانقلاب العثماني - شاهد سوء، وعلامةً ظاهرةً جلية على سـوء نية هذا الصليبي الحاقد - وفسـاد طويتـه، ولا أحب أن أستطرد هنـا في مجال تقييـم هذا الرجل الذي سـخر حياته وحبس عمره كله من أجل تدمير تاريخ المسلمين وتراثهم وتشويه الشخصية الإسلامية، وقطع جسور الثقة بين المسلمين وسلفهم الصالح.

قضـى سـني عمره يكتب الكـذب وينفث السـم، ملخصاً لأقـوال البـاطنيين الحـاقدين، والمستشـرقين الماكرين، وإخراجهـا بعد ذلـك تارة باسـم تاريخ التمدن الإسـلامي، وأخرى باسم روايات تاريخ الإسـلام. والتي كانت منتشرة - ولا تزال - في أوساط الشباب يلتهمونها التهاماً، ويقرءونها بشغف ونهم بالغين، لما فيها من تشويق وجاذبيـة وحنكـة فنية - دونما التفات إلى مـا يدس بين صفحاتها من سموم وتخريـب - وهم معـذورون - يأخذونهـا على أنهـا حقـائق تـترك في نفوسـهم وعقولهم، غبشـاً في التصور وانطباعـاً سيئاً عن أعلام المسـلمين - هذا من ناحيـة طبيعـة وأهميـة الموضوعـات التي طرقها بقلمـه وتناولهـا بفكره وأعمل فيهـا عقله - دون قلبه - بكل التأكيد، وذلك لاعتبـارات عديدة على رأسها وأهمها - أنه كان لـه من عقيدتـه - ما يجعل على الأقل غير متحمس لإنصاف المسـلمين في تاريخهم، لاسيما في الظروف التي بـدأ يكتب فيها هذه المؤلفـات - والعالم الغربي كله ينقم ويحقـد أشـد مـا تكـون النقمـة والحقد، على الخلافـة العثمانيـة، وخليفـة المسـلمين السلطان عبد الحميد الثاني، ويعمل ما وسعه الجهد على تلطيخ صورة هذه الخلافة، وإضافة كل الشنائع والبشائع إليها.

ثانيـاً: حجـم العطـاء الذي قدمـه جرجـي زيدان - وغزارة الانتـاج - وكميـة المؤلفات التي تركهـا وراءه. فلا شـك أنهـا أعمال هائلـة ضخمـة جمعتها أخيراً دار الجيل للنشـر والتوزيع ببيروت فبلغت واحداً وعشـرين مجلـداً يتراوح المجلـد ما بين سبعمائة وخمسين صفحة إلى ثمانمائة صفحة تقريباً.

فضلاً عـن أعداد مجلـة الهلال في الفـترة من ١٨٩٢-١٩١٤م والـتي بلغت اثنين

وعشـرين مجلداً ضمـت بين دفتيهـا جميع الأجـزاء التي صدرت مـن المجلـة في عهده أشرف عليها وحرر موضوعاتها، وأدار سياستها حتى أدركته الوفاة.

يبقى بعد ذلك نقطـة جديـرة بالتنبيه عليهـا. وهي أن جرجى زيـدان رغـم وفاته منـذ ما يزيد عن خمســة وثمانين سـنة إلا أن مـا تركـه وراءه من أعمـال وخلفه من آثـار، لا تزال تحيا في بلادنا، وتجد لها مدافعين ومروجين وناشرين لها، يطيرونها في آفاق المجتمع الإسـلامي، وسـوف يتضح عـبر صفحات هذا الفصل «جرجى زيدان في كتابات القدامى والمعاصرين» ما تحقق لهذا الرجل من مكانة، وما تركه من تأثير في مجريـات الحركـة الثقافيـة في عصره وإلى الآن، وقـد قسـمته إلى مبحثين، المبحث الأول: جرجـي زيدان في كتابـات القدامى ، والثـاني : جرجي زيدان في كتابـات المعاصرين.

المبحث الأول

جرجى زيدان في كتابات القدامى

أولا: رأي صاحب المنار العلامة الشيخ رشيد رضا[1] :

يقول (... عندما تقدم جرجى زيدان – صاحب الهلال – بمؤلفه تاريخ التمدن الإسلامي إلى نظارة المعارف المصرية وطلب منها أن تقرره للتدريس في مدارسها. عهدت النظارة إلى بعض أساتذتها بمطالعته. فتبين لهم أن فيه غلطاً كثيراً، وأنه غير جدير بأن يعتمد عليه في التدريس ورفضته نظارة المعارف، فانتقدت الأساتذة الذين طالعوا الكتاب لأنهم لم ينشروا على الناس أغلاطه، لكننا حملنا ما يصدر عن الرجل من أخطاء تأخذ عليه أنها ليست من قبل التعمد، ولكنها ترجع إلى عدم فهم بعض المسائل. **كتفسيره خلق القرآن بأنه غير منزل من عند الله ! .. وذلك** ما انتقدناه عليه في المنار .. ولكن: ظهر لنا مما كتبه بعد ذلك، ومن بعض حديثه معنا ومع غيرنا من أصحابه، أنه يكاد يكون من الشعوبية الذين يتحاملون على العرب، ويفضلون العجم عليهم، وكان هذا هو السبب في ترجمة هذا الكتاب إلى التركية.

---

(١) مجلة المنار ج٢، م١٥، ص٥٩، ٦٠، ١٩١٣م-١٣١٣هـ.
محمد رشيد رضا ١٢٨٢/ ١٣٥٤/ ١٨٦٥/ ١٩٣٥م محمد رشيد رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين البغدادي الأصل الحسيني النسب صاحب مجلة المنار وأحد رجال الإصلاح الإسلامي من الكتاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير، ولد ونشأ بالقلمون (من أعمال طرابلس بالشام) وتعلم فيها ونظم الشعر وكتب في بعض الصحف ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥هـ فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ عليه وكان قد اتصل به في بيروت، أصدر مجلة المنار وقدم على صفحاتها آرائه في الإصلاح الديني والاجتماعي وأصبح مرجع الفتيا، في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة، ولما أعلن الدستور العثماني سنة ١٣٢٩هـ زار بلاد الشام واعترضه في دمشق وهو يخطب على منبر الجامع الأموي أحد أعداء الإصلاح، فكانت فتنة، فعاد إلى مصر ثم قصد إلى سوريا وانتخب رئيساً للمؤتمر السوري، وغادرها لمجيء الفرنسيين إليها سنة ١٩٢٠م فأقام بمصر مدة ثم رحل إلى الهند والحجاز وأوربا، وعاد فاستقر بمصر إلى أن توفي فجأة في سيارة، أشهر آثاره (مجلة المنار صدر منها ٣٤ مجلداً، وتفسير القرآن ١٢ مجلداً، وتاريخ الأستاذ الإمام ٣ مجلدات، الوحي المحمدي، وشبهات النصارى، وحج الإسلام، ...)، خير الدين الزركلي، الأعلام ص١٢٦ – دار العلم للملايين.

ثانيا: الشيخ العلامة المصلح الإسلامي الشهير شبلي النعماني:

يقول: إن الدهر دار العجائب ومن إحدى عجائبه أن رجلاً من رجال العصر – جرجى زيدان – يؤلف في تاريخ التمدن الإسلامي كتاباً يرتكب فيه تحريف الكلم، وتمويه الباطل، وقلب الحكاية، والخيانة في النقل، وتعمد الكذب ما يفوق الحد، وينتشر هذا الكتاب بمصر وهي قبة الإسلام وغرة البلاد، ومغرس العلوم، ثم يزداد انتشاراً في العرب والعجم. وكنت مشغولاً فيما مضى بأمر ندوة العلماء بالهند – لكن لما عم البلاء واتسع الخرق وتفاقم الشر، لم أطق الصبر، فاختلست من أيامي أوقاتاً وتصديت للكشف عن عوار هذا التأليف والإبانة عما فيه من أنواع الإفك والزور وأصناف التحريف والتدليس[1] .

ثالثا: أما العلامة الشيخ أمين حسن حلواني المدني:

فيقول: إن التاريخ المنسوب إلى جرجى زيدان المسيحي، المدرس للغة العربية بالمدارس اليسوعية بمصر المعزية، طالما تبجح فيه مؤلفه ومدح نفسه وتاريخه، وأطنب في وصفه، مع ما في هذا التاريخ من الكذب والبهتان والخلط والتغيير لأسماء المشاهير من العرب، التي هي ملاك فخرهم.

والتحريف في أسماء الصحابة، والخلط في نفس التاريخ الذي هو المقصود بالذات، والعلة الأولى في نشر هذا التاريخ الحديث بمصر مع ما عليه من الكذب، هو أن المصريين لما أغفلوا أمر بلادهم واستولى على بعض أمرائهم الجهل المركب، دخل فيهم نصارى الشام، وامتزجوا بهم امتزاج اللحم بالدم، واستحوذوا عليهن

---

(١) الشيخ شبلي النعماني، الانتقاد على كتاب التمدن الإسلامي، مخطوطة من جامعة عليكرة بالهند، سنة ١٩١٢م.

شبلي النعماني: باحث من رجال الإصلاح الإسلام في الهند، برهمي الأصل، اعتنق الإسلام، جده الثالث عشر ولد بقرية «بندول» من أعمال «أعظم كره» وتعلم في رامبور، ولاهور، وسهارنبورد، وانتدبته جامعة عليكرة لتدريس العلوم العربية سنة ١٣٠٠هـ فكان عوناً له على النهوض بالجامعة وصنف كتبا جليلة بلغته، وبعضها بالعربية وشارك في إنشاء دار العلوم التابعة لندوة العلماء في لكهنو ، وأنشأ دار المصنفين في بلدته (أعظم كره) أصدرت مئات الكتب، ولها مجلة اسمها «معارف» وكان وثيق الصلة بالعالم الإسلامي ونهضاته السياسية، ومما كتبه بالعربية (انتقاد تاريخ التمدن الإسلامي) (والجزية) وكان يجيد العربية والفارسية مع الهندية . (خير الدين الزركلي الأعلام ص١٥٥ – دار العلم للملايين، ج٣).

من الجهات الست، ولم يتركوا شفيعاً يتوسلون به إليهم إلا وقدموه، من كل منتعل، وحفيان، ومتذر وعريان وأكثر ما يستعمونهم، ويستغفلونهم بالأكاذيب، والدعاوي، المموهة، والأزرار الألماس الملصقة في رقابهم، وقولهم كنت عند المستر فلان، وعزمني اللورد هيان، وأخي ترجمان قنصل الألمان، وبأمثال هذه الأكاذيب والاتهامات التي لا تروج إلا على ضعفاء العقول، اعتبرهم بعض الأعيان وروج لبضائعهم وجرنالاتهم مع عدم التأمل لما هي محشوة به من الإضلال والبين، وطالما ألفوا تواريخ، وكتبوا فرى (جمع فرية) هي مخازن للخلط والهذيان حتى أنهم ألفوا تآليف يدعون الناس فيها إلى مذهب «الماسون» (يقصد تاريخ الماسونية لجرجي زيدان) وطبعوها بمصر، كل هذا بمرأى ومسمع من بعض الأمراء المصريين، فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة، وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم. ولكونهم لا يعرفون مقاصد نصارى الشام، وعلماء مصر أكثرهم لا يحسن علم التاريخ، **كما يدعي جرجي زيدان**، أو يحسنه لكنه استكبر أن يرد على نصارى مثلاً، أو محسن لكنه يخاف من نصارى الشوام، لأن أزِمَّةَ الحكومة المصرية بأيديهم كيف لا ؟ ومنهم خمسمائة موظف بالديار المصرية، منهم قضاة في المجلس، ورؤساء كتبة في الدواوين ورؤساء في الكمارك ... الخ [1].

آراء بعض الكتاب المؤيدين لجرجي زيدان:

د. طه حسين [2]:

(١) أمين بن حسن الحلواني المدني، نبش الهذيان من تاريخ جرجي زيدان، مخطوطة بدار الكتب المصرية، تحت رقم ١٩٣٢/٢٧٨٤.

أمين حسن الحلواني المدني: رحل فاضل له اشتغال بعلم الفلك كان مدرساً في الحرم النبوي بالمدينة، ورحل إلى أوربا وغيرها في سنة ١٣٠٠هـ وصل إلى أمستردام وليدن واشترت منه مكتبة ليدن بعض نفائس الكتب وانصرف إلى بومباي بالهند فعكف على الأدب ونشر رسائل من تآليفه وقتل في رحلة ببادية طرابلس الغرب قادماً من المدينة له (تحصر مطالع السعود - ط)، نشر الهذيان من تاريخ جرجي زيدان - قرب المخطوطة التي اعتمدنا عليها - (السيول المفرقة على الصواعق المحترقة) - الرتاف الغرب من عمود النسب وله شروح لغوية لزوم ما لا يلزم، خير الدين الزنكلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، سنة ١٩٨٤،ص١٥.

(٢) د. طه حسين أديب عربي كبير له إسهاماته وأعماله المتميزة في العديد من مجالات الفكر إختلفت الآراء حول شخصيته ما بين مؤيد ومعارض، وتميل معظم الكتابات الإسلامية إلى وصفه بأنه أحد صنائع الاستعمار التي ذرعها في المجتمع الإسلامي ليقوم بهدم الإسلام من داخله، تحقيقاً لذلك الشعار الذي رفعه المبشر=

إن جرجي زيدان هو الذي نقل إلى الأدب العربي مذهباً من مذاهب الأدب الأوربي هو القصص التاريخي [1].

د. محمد حسين هيكل [2]:

جرجي أفندي زيدان من أكبر كتاب التاريخ في مصر. بل لا أبالغ إذا قلت أنه الرجل الوحيد المتفرغ في الوقت الحاضر لكتابة التاريخ [3].

مصطفى لطفي المنفلوطي [4]:

يصف أسلوب جرجي زيدان في الكتابة قائلاً: (كنت أقرأ ذلك الأسلوب العذب الذي يكتب به، فأتخيله مرآة نقية، قد ارتسمت فيها نفس الكاتب جلية واضحة لا غموض فيها ولا إبهام، كنت أرى عذوبة نفسه في عذوبة لفظه، وطهارة قلبه، في طهارة لسانه).

مقتطفات لما نشرته الصحف والمجلات عن جرجي زيدان:

١. **مجلة المقتطف** [5]: رزئت العربية بفقد كاتب من نخبة كتابها، عالم بحث في خزائن كتبها، وما كتبه الإفرنج عنها، بحثا مستفيضا، واستخلص من ذلك كتبا ممتعة في آدابها تشهد له بسعة الاطلاع، وأصالة الرأي، والبراعة في التبويب

=المعروف زويمر في أحد مؤتمرات التبشير (لا يقطع الشجرة إلا أحد أعضائها) . كان داعية للفناء في الغرب تحت خدعة زائفة ظل يروجها وكانت موضع سخرية الناس لسذاجتها، وهي قوله (إننا لن نستطيع مساواة الغرب إلا إذا سرنا سيرته – واستوردنا الحضارة الغربية بخيرها وشرها حلوها ومرها ما يحمد منها وما يعاب) وأعماله كلها مليئة بالسموم في أقدس مقدسات المسلمين، القرآن الكريم، فأنكر قصة إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام سنة ١٩٢٦م.

(١) محمد عبد الغني حسن – جرجي زيدان – ص٣٩٠، سلسلة أعلام العرب، ط١٩٧٠م.

(٢) د. محمد حسين هيكل: ولد عام ١٨٨٨م وتوفي ١٩٥٦م كان أستاذاً ومحاميا عاش للعرب والمسلمين مجاهدا في سبيل إستقلال بلادهم، وإيلائها النهضة والإرادة والحرية – وكان من أولئك الذين دافعوا عن حقوق الشعب الفلسطيني من على منبر الأمم المتحدة، وحذر الجميع حينما كانوا في غفلة من الخطر، وتطور في اتجاهه الفكري من دعوته إلى الفرعونية، إلى دعوته إلى الإسلامية، ويعتبر هذا التحول انتصارا للفكر الإسلامي الحديث. أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق والتبشير، دار المعارف،ط١، ص٣٩٠، سنة ١٩٧٤م.

(٣) المرجع السابق ص٣٩١.

(٤) مصطفى لطفي المنفلوطي: من أدباء مصر المحدثين ينسب إلى مدينة منفلوط – نشأ بها وتعلم في الأزهر – وكتب في جريدة المؤيد – واشتغل بالمعارف ثم بالحقانية وكان كاتبا يجيد الأدب الحزين في أسلوب جزل محكم النسج – وله كتابات نثرية غاية في الروعة والبيان له شعر قليل توفي في سنة ١٩٢٣م تاركا تراثا أدبيا رائعا.

(٥) مجلة المقتطف: أنشأت ببيروت في ١٨٧٦م على يد معلمان نصرانيان من أساتذة الكلية البروتستانتية هما يعقوب صروف، وفارس نمر، ثم انتقلت إلى القاهرة في ١٨٨٥م وبقيت تصدر نصف قرن.

والتنسيق، فكان لهذه الكتب شأن كبير شرقا وغربا، وترجم بعضها إلى كثير من اللغات الشرقية والغربية، هذا عدا اشتغاله بمجلة الهلال التي مر عليها الآن اثنتان وعشرون سنة، وهي تبحث في المواضيع التاريخية والاجتماعية والعلمية والأدبية والصحية (١).

٢. **جريدة الأهرام** (٢): تقول: استيقظت العاصمة فجر أمس على نبأ مروع وخبر مفجع، دوى دويّ الرعد في جوانبها، فوجفت النفوس لهوله وأبى الناس لأول وهلة تصديق هذا النعي قائلين: هل هوى ذلك الطود الراسخ ؟ نعم مات وانقصف ذلك القلم الحديدي الذي ملأ الطروس علما، وبحثا، وتدقيقا، وجفت تلك الدواة التي سيبيض التاريخ صحيفة صاحبها، كما بيض صاحبها صحائف التاريخ بقطرات مدادها السود، لو قاس المؤرخون غداً عمره على آثاره لاعتقدوا أن صاحب الهلال بلغ المائة سنة وهو لم يتجاوز نصف هذه المرحلة من العمر ... وقد رحل اليوم عن دنياه مشيعا بأحسن ما يشيع به الراحل بدموع الأهل والأبناء وحسرات الاخوة والأصدقاء وثناء الكاتب الفاضل (٣).

٣. **جريدة المقطم** (٤): تقول فوجئنا صباح أمس بنعي العالم الفاضل والكاتب النحرير جرجى بك زيدان - صاحب مجلة الهلال ومنشئها - وافاه القدر المحتوم بغتة في الليل، وما ذاع نعيه في العاصمة حتى أقبل الأصدقاء، والمحبون، والفضلاء،

---

(١) سامي عزيز: الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي ص١١٢ دار الكاتب العربي ط١٩٨٥م.

(٢) جريدة الأهرام: قام بتأسيسها رجلان لبنانيان وهما (سليم وبشارة تقلا ١٨٧٥م) نشأت في أول أمرها أسبوعية بمدينة الاسكندرية، حيث تقيم الجاليات الأجنبية، ثم انتقلت إلى القاهرة بعد ذلك - وقد نشأت هذه الجريدة بتشجيع من الاحتلال الإنجليزي والفرنسي - وكانت الصحف في هذا الوقت تفخر بانتمائها إلى الدول الأجنبية فيمن يقدم على إنشاء جريدة يبدأ أولا باختيار الخطة السياسية التي يتخذها وأشهرها: الحزب الوطني المصري، أو الحزب العثماني، أو حزب الاحتلال أو الحزب الفرنسي .
نقلا عن د/ سامي عزيز، الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، دار الكاتب العربي، بدون رقم للطبعة، ص١١٢، سنة ١٩٨٥م.

(٣) المرجع السابق.

(٤) جريدة المقطم: ظهرت هذه الجريدة عام ١٨٨٩ م لصاحبها صروف ونمر وشاهين مكاريوس - وقد جرت سياستها على خطة مناصرة الإحتلال البريطاني، وبث الدعاية للإنجليز، وتصويرهم بصورة إنسانية صورة الذين جاءوا لدفع الظلم الواقع على المصريين، وتحسين اقتصادهم - وإليهم يرجع الفضل في إنقاذ مصر - كما كانت المقطم صريحة في معاداتها للخديوي وللحركة الوطنية، ومقاومة الصحف الإسلامية، وعلى تناقض واضح مع تيار المجددين الإسلاميين بقيادة الإفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، وكانوا يتخذون من حياة أوربا الحديثة مثلا أعلى لهم عاملين على نقل مظاهر الحياة الأوربية في المجتمع المصري.

والأعيان، والعلماء، والأدباء، على منزله يشـاطرون نجليه، وأشقاءه الحزن والأسى، ويذكرون له آثاره الأدبية والعلمية وأخلاقه الحميدة [1].

لقد فجعت بـه هذه الديار، وسـائر الأقطار العربيـة، وكل مكـان انتشـرت فيه مجلتـه، وتآليفه، فطـارت بذلك شـهرته، وارتفع قدره بـين العلماء، وأنصار الأدب. وكـان الفقيد عضـوا بعدة جمعيـات علميـة، وتاريخيـة، وجغرافيـة في أوربـا، وكان معروفا عند العلماء المستشرقين وله عندهم منزلة رفيعة.

٤. **جريـدة المؤيد** [2]: اغتـالت يد المنـون ليلـة أمس فقيـد الأدب الطيب الأثر جرجى بك زيدان، الذي لم يكن لـه في نبوغه واشـتهاره فضل إلا لجدِّه الذي كان سنده، وعضـده الوحيد، فقد أقـدم على إنشـاء الهلال وليـس لديـه من وسـائله إلا العزيمة والنشاط، وكوَّنَ مركزه الأدبي بهذه العدة الأدبية وحدها [3].

ومن قصيدة حليم دموس:

جزع الصيب مع الهلال	أسفا على رب الهـلال
وممالك التاريخ والـ	آداب دالت حيـن زال
فأبكي أيالغة البيـــان	فكوكب العلم استحال
وأرثى الهلال وربـه	من كان منقطع المثـال
فاليوم لا زيدان فيـك	ولا اقتراح ولا سؤال
صبرا (أميل) ولا تكن	جزعا فغايتنا انفصـال
هذا أبوك وقـد قضى	متزودا حسن المـآل

(١) محمد عبد العزيز منصور، صحافة إسرائيل وصحافة بني إسماعيل، ص١٣٤، مكتبة مدبولي.

(٢) جريدة المؤيد: أنشـأها الشيخ علي يوسـف ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م، بين الشيخ أهدافها قـائلا: (إن الناس حـاكم ومحكوم وبينهمـا مطالب متبادلـة، وحقوق متكافئـة. إن سكت عنهـا صريح المقـال أبانها لسـان الحال ووظيفـة الجرائد الصادقة في البلاد، شـرح مطالب الفريقـين، وترجمة أفكـار الهيئتين ... والمؤيد جريـدة وطنية يقصد أن تكون على هـذا المبدأ سـفير الخير ظل يصدرهـا حتى ١٦/ ٣/ ١٩١٢م حيث أسـندت إليـه مشيخة السـادة الوفائيـة. نقلا عن محمد عبد العزيز منصور، صحافة بني إسـرائيل وصحافة بني إسماعيل، مكتبة مدبولي، بدون رقم للطبعة، ص١٣٤، سنة ١٩٧٨م.

(٣) المرجع السابق.

فانسج على منواله واطلع هلالا في هلال

ونقتطف من قصيدة ليوسف نعمان البربري:

خسف الهلال فيانجوم تبرقعي بسواد ليلك واحذري أن تلمعي
خسف الهلال ولا معاد لنوره فتساقطي من أفقك المترفع
دفنوا (ابن زيدان) ولو أنهم عدلوا لأنزلناه بين الأضلع
أفنيت عمرك باحثا فجمعت أشتاتا لتاريخ لنا متضعضع
هذا هلالك وهو أكبر شاهد و به لنا برهان جد مقنع
أأميل يا نجل الفقيد ألا اصطبر فالصبر مرهم كل جرح موجع
واحرص على قدر الهلال ولا تدع نور الهلال يغيب تحت البرقع

أما إيليا أبو ماضي [1] - أمريكا فإنه يقول:

ثكل الشرق فتاه ليتني كنت فداه
ليتني كنت أصما عندما الناعي نعاه
قد نعى الناعون زيدانا إلى البدر سناه
وإلى التاريخ والعلم أباه وأخاه

المبحث الثاني
جرجى زيدان في كتابات المعاصرين

الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق:

« لم "يكن جرجى زيدان" مصرياً أصيلاً، بل كان من هؤلاء النازحين، الذين آوتهم مصر، ورحبت بهم، وأنزلتهم منزلة التكريم، من أمثال أصحاب "المقتطف" و"شبلي شميل" و"يعقوب صروف" فلم يرعوا إلاَ ولا زمة، ولم يقدروا حرمة ولا

(١) إيليا أبو ماضي: ولد سنة ١٨٨٩م بلبنان وهاجر إلى أمريكا عام ١٩١١م وانضم إلى الرابطة القلمية (والتي تأسست في نيويورك سنة ١٩٢٠م وكانت ريادتها لخليل جبران) وصار إيليا شاعرها المفضل وأنشأ مجلة سمير سنة ١٩٢٩م، ظلت تصدر حتى وفاته في ١٩٥٧م.

كرامـة، وإنما غلبهم سـوء الطبع، وسـاقهم لؤم النزعـة، إلى الإسـاءة إلى الجو الإسـلامي، بل وإلى الجـو المسيحي - اللذيـن أفسـحا لهم، مكاناً رحيبـا، يسـوده الأمن، والإطمئنان وتمثلت هذه الإساءة في نشـر " الإلحاد، والمادية، والشك " كما عاشوا في كنف الإستعمار يسيرون في ركابه، ويمكنون له في الأرض » [١].

الكاتب والمفكر الإسلامي الأستاذ أنور الجندي:

يقول: منذ توفي مؤسس الهلال عـام ١٩١٤م، ولا تزال آثاره تجد اهتماما كبيرا مـن جهات بعينهـا، فمـا تلبـث بين وقت وآخـر أن تظهر روايـات الهلال مطبوعـة طباعة فاخرة، تلك **الروايـات التي تزيل من هيبة زعمـاء الإسلام وأبطاله في نظر الشـباب المسـلم وتجعلهـم يحسـون نحوهم بانتقـاص شـديد، وهذه هي المحاولـة** الخطيرة التي يستهدفها الكاتب أساسا وإن أخفاها وراء مظاهر براعة التصوير الفني والعـاطفي، **لكن الحقيقـة أن جرجى زيدان شـوه التـاريخ الإسـلامي برواياتـه الفاسدة.**

حيـث اعتمدت عليه المخابرات الأجنبيـة، وكان عضوا في الجمعيات الماسونية في الشـرق العربي ورافق الحملـة النيلية إلى السـودان عـام ١٨٨٤م بصفة مترجم في قلـم الاستخبارات، ثم عـاد إلى بـيروت فدرس فيهـا اللغتين العبرانيـة، والسـريانية، ورحل إلى لنـدن ١٨٩٠م ورجع إلى مصـر فأنشـأ مجلـة الهلال، كـان موازيـا لمجلة المقتطف وكـان مختصـا بالدراسـات التاريخيـة في الأغلـب، وقد خـدم الاستشـراق والتغريـب في هذه المرحلـة خدمـات جلـى، منهـا موقفـه من السـلطان عبد الحميد والجامعـة الإسلامية، وهـو موقف خصومة وكراهيـة (فقد كان المـارون هم عصبة الحرب على الخلافة الإسـلامية والدولة العثمانية، والسلطان عبد الحميد الذي وقف في وجه الصهيونيـة فسلطوا عليـه، كذلك موقفه المؤسـف من الإمام المهدي [٢] في

---

(١) د. عبد الحليم محمود - شيخ الأزهر - الحمد لله هذه حياتي ص١١٢ ط دار المعارف.

(٢) الثورة المهدية: كانت للتدخل البريطـاني في حياة السـودان الدينيـة على الأخص السـبب الأول في الثورة الدينيـة التي أثارهـا محمد بن أحمد المعروف بـالمهدي في رمضان سـنة ١٢٩٨هـ، (صيف ١٨٨١) وحرصت بريطانيا على قمع الحركة في السودان من وراء الجيش المصري فأيدت النجدات المصرية التي أرسلت للسودان - ولكن في ربيع الآخر سنة ١٣٠١هـ أرسلت بريطانيا حملة على السـودان بقيادة غوردن لكنها خابت وقتل غوردن نفسه لما سقطت الخرطوم في يد أتباع المهدي في ربيع سنة ١٣٠٢-١٨٨٥/١م، وبعد ستة أشهر من مقتل غوردن توفي المهدي ٦ / ١٨٨٥م / ٨ رمضان سنة ١٣٠٢هـ. -

السودان الذي تؤكد وثائق التاريخ أنه قام بحركة استقلالية إسلامية ناصعة.

كذلك فقد وسع - جرجي زيدان - دائرة الخلاف بين الصحابة. وجدد الخلافات بين الأمويين والعباسيين، وجرى في ذلك مجرى المستشرقين.

والواقع: أن طبيعة تكوين جرجي زيدان ووقائع حياته توحي بأنه عمل في دائرة الاستشراق والتبشير الغربي وفق مخطط دقيق ماكر. لم يكتشف إلا بعد وقت طويل، ذلك أنه في بداية حياته وضع تحت إعداد دقيق وخاصة خلال إقامته في لندن حيث اتصل بمعاهد غير المسلمين للعمل في الشرق. وفي هذه الفترة اتصل بالماسونية، ولما عاد ألف كتابه (تاريخ الماسونية) الذي ما زال أكبر مراجع الماسونيين، وهو في صف دعوتهم، **وقد كانت مجلة الهلال**، محاولة لنقل مفاهيم الفلسفة الماسونية الملحدة الإباحية، إلى أفق الفكر الإسلامي، بذكاء ومكر

= عبد الله بن محمد الفقيه المعروف بخليفة المهدي، وفي ١٣١٤هـ أعد الإنجليز حملة مشتركة بريطانية مصرية بقيادة كتشنر استطاعت أن تقضي على حركة لمهدي في معركة أم درمان في ١٨٩٨م وقسم السودان إلى شمالي مسلم أنشأت به المدارس الرسمية، وجنوبي (وثنيين وبدائيين) ترك للمبشرين يقومون فيه بالتعليم والتبشير، نقلا عن ص٢٤٠ التبشير والاستعمار في البلاد العربية - د. مصطفى خالدي، د/ عمر فروخ المكتبة العصرية - بيروت صيدا - ط٥، سنة ١٩٧٣.

المرتكزات الرئيسية لدعوة المهدي:

١. نادى بالعودة المباشرة إلى الكتاب والسنة دون غيرهما من الكتب التي تبعد بخلافتها وشروحها المسلم البسيط العادي عن الفهم الصحيح للإسلام .

٢. أوقف العمل بالمذاهب الفقهية المختلفة، وحرم الاشتغال بعلم الكلام، وفتح باب الاجتهاد في الدين.

٣. ألغى جميع الفرق الصوفية وأبطل جميع الأوراد، داعيا الجميع إلى نبذ الخلافات والإتفاق حول الطريقة المهدية مؤلفا لهم وردا يقرؤونه يوميا.

٤. عندما تحركت الحكومة لضرب الحركة المهدية في جزيرة أبا، كتب خمس رايات رفع عليها شعار (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وعلى أربعة منها كتب على كل واحدة منها اسم واحد من الأقطاب الأربعة عند الصوفية (الجيلاني، الرفاعي، الدسوقي، البدوي) أما الخامس فكتب عليها (محمد المهدي خليفة رسول ا لله) وعلى ذلك فهو يزعم أنه الإمام، والمهدي وخليفة رسول ا لله.

٥. أبرز ما في دعوته إلحاحه الشديد على موضوع الجهاد والقوة والفتوة.

٦. يزعم أن مهديته جاءته بأمر من رسول ا لله.

٧. ينسب إلى نفسه العصمة نظرا لامتداد النور الأعظم فيه من قبل خالق الكون إلى يوم القيامة.

٨. يلح على ضرورة التواضع وعدم البطر، وتشديد النكير على الانغماس في الملاذ والبذخ والعمل على التغريب بين طبقات المجتمع، عاش حياته يلبس الجبة المرقعة هو وأتباعه، يسر الزواج بتخفيف المهور وبساطة الولائم.

٩. أقام حدود الشريعة في أتباعه كالقصاص وحيازة خمس الغنائم، ومصادرته للسارقين، والخمارين، وسك العملة باسمه وعين جباة لجمع الزكاة.

الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض.

شديدين، إن إعادة النظر في كتابات جرجى زيدان، تكشف بوضوح أنه يمثل اتجاه الاستشراق والتبشير والتغريب حاملا شبهاته وسمومه وعاملا على غرسها في أبحاث التاريخ الإسلامي [١].

د. محمد سرور بن نايف زين العابدين [٢]:

يقول: لا أعرف أحدا من الصليبيين في دنيا العرب، عمل على تلويث تاريخنا الإسلامي كما فعل جرجى زيدان .. لقد أمضى سني عمره يكتب، وكان محرفا كذابا في معظم ما حشره، من أخبار، وتعليقات في كتبه، وكأن مهمته في هذه الحياة تلخيص أقوال الباطنيين الحاقدين، والمستشرقين الماكرين، وإخراجها تارة باسم تاريخ التمدن الإسلامي، وأخرى باسم روايات تاريخ الإسلام.

وما كنت مهتما بقراءة مؤلفاته، لولا ماشاهدته من انتشارها بين الشباب الذين لا يعرفون تاريخ أمتهم وسيرة نبيهم ﷺ ويأخذونها على أنها حقائق، تترك في نفوسهم وعقولهم غبشا في التصور، وانطباعا سيئا عن أعلام المسلمين.

لقد صور خلفاء المسلمين وعظمائهم بأبشع الصور وأحطها، فتارة يتحدث عن استبدادهم وطغيانهم، وتارة يتخيل قصصا غرامية يلصقها بهم، وفي غير هذه وتلك، يزعم بأنهم مغامرون، يعيشون من أجل المرأة ومتاع الدنيا، وإذا مر ذكر النصارى تراه يشيد بهم، وينعتهم بأحسن النعوت وأجلها [٣].

أ.د/ سيد حامد النساج:

ينتهي من خلال دراسته التي قدمها لرواية أرمانوسة المصرية إلى عدد من الحقائق أحاول إجمالها فيما يلي:

---

(١) أنور الجندي، إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام، دار الاعتصام، بدون رقم للطبعة، سنة ١٩٨٥م، ص١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢.

(٢) كاتب إسلامي صاحب مؤلفات أصيلة في خدمة السيرة النبوية والدفاع عن الإسلام ويرأس تحرير مجلة السنة التي تصدر ببرمنجهام.

(٣) محمد سرور بن نايف زين العابدين، دراسات في السيرة النبوية، دار الأرقم، برمنجهام، ط٣، سنة ١٩٨٨م، ص١٩٣.

١. **استبعاد رغبة جرجي زيدان في إحياء التراث العربي**، من خلال هذه الروايات، ولكن سيطر عليه إرادته التفرد عن أقرانه من معاصريه (كاليازجي، والشدياق، والبستاني، ونقولا حداد ... الخ).

٢. **اتهمه بالتحيز الواضح وعدم استطاعته مداراة ما يعتمل في نفسه تجاه** القضايا التي يطرحها، حتى أن حديثه عن أقباط مصر، وعاداتهم، وأفكارهم وتقاليدهم، يتوارى أمامه أي حديث آخر.

٣. القارئ المصري الواعي: لم تنطلي عليه أساليب جرجي زيدان **وشكك في صدق الدافع لإقدام زيدان للكتابة عن التاريخ الإسلامي**، واستشهد بما كتبه مؤرخ الإسلام رفيق العظم في مجلة الهلال ١١٥، ١٨٩٩من انتقادات واتهامات قوية وجهها إلى جرجي زيدان.

٤. أيضا أخذ **على جرجي زيدان عدم اعتماده على المصادر الدينية المعتمدة، والمرتبطة بالعقيدة الإسلامية** وكتب التفسير، والحديث، والسيرة وكيف يمكن الكتابة عن الإسلام وتاريخه وقادته وفرقه دون التسلح بالأدوات والمعارف الخاصة بذلك.

٥. جرجي زيدان: **فصل بين الماضي والحاضر وحال دون معايشة القارئ** المعاصر لحاضره، وكذلك دون تمثله الجيد لماضيه، فقد غفل عن إحضار أحداث العصر بكل ما ساده من ملابسات اجتماعية واقتصادية، وسياسية.

٦. **انتقد جرجي زيدان: في الكسل الفني الملحوظ في رواياته** والذي أدت به إلى نقل صفحات وصفحات من كتب التاريخ باللغة التي دونت بها دون إمعان فكر، ومن غير تحوير، أو تبديل، واللازم أن يختار المثقف ويبحث الحادثة ويؤلف بين الشخصيات ويشكل لغة الحوار في صياغة جديدة ومن خلال رؤية جديدة [١].

---

(١) تقديم ودراسة – د. سيد النساج، رواية أرمانوسة المصرية، مطبعة دار الهلال، ١٩٨٤م، وهو أستاذ بكلية التربية جامعة حلوان.

أ. فؤاد دوارة:

يرى عدم تثبت جرجي زيدان في معلوماته فهو ينقل روايات ضعيفة مغرضة، مثل ما أورده في رواية (١٧ رمضان) من اتهام لسيدنا علي بن أبي طالب :

١. بأنه هو الذي قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان (ص٤٠) مما لم يقل به أعدى أعدائه، وكذلك ما ورد بنفس الرواية من القول بتمثيل أبناء الإمام علي بابن ملجم قاتله – وكذلك إيراد عبارة التقى والإيمان المطلق على لسان بن ملجم عند قتله.

٢. يورد الأحداث بصورة مخلة، ولم يعن بتقديم صورة حية متكاملة للشخصيات الرئيسية في تلك الأحداث، مع شرح خلفياتها السياسية والاجتماعية بالقدر الكافي، **يستهدف جرجي زيدان في هذه الروايات – هدفا خفيا يتمثل في صرف القراء عن التعمق في دراسة ماضيهم المرتبط بمشكلات واقعهم وآمال مستقبلهم، كما هو معروف من الارتباط الوثيق بين الماضي الحاضر وخروج المستقبل من رحم الحاضر** [1].

حسين أحمد أمين:

على عكس سابقه إذ يرى أن مؤرخ التمدن الإسلامي أكثر احتفالا بوقائع التاريخ، ومظاهر حضارة الإسلام، في حقبه المتتالية منه برسم الشخصيات، التي تشعل مسرح رواياته، وإن عظمة جرجي زيدان تتجلى في التزامه الصارم بالحيدة إزاء الصراع الذي يروي أحداثه، وما يبدو من بعض الخلل، مرده ليس إلى عجز وقصور في الموهبة، والعلم، لدى زيدان بل إنما سببه العجلة، والإحساس، بفداحة المهمة التي فرض على نفسه أن يؤديها في مجتمعه العربي المتخلف في سنوات معدودات [2].

(١) فؤاد دوارة: تقديم ودراسة رواية ١٧ رمضان، مطبعة دار الهلال،سنة ١٩٨٥م.
(٢) حسين أحمد أمين: تقديم ودراسة، الأمين والمأمون، مطبعة دار الهلال.

د. طه وادي [1]:

يطرح في بداية دراسته لرواية أحمد بن طولون رأيه في جرجي زيدان من خلال سؤال قدمه: إلى أي حد التزم زيدان بالشعار الذي رفعه لهذه السلسلة، **روايات تاريخ الإسلام ؟ فهل ما كتبه رواية حقا ؟ وإذا كان فأين التاريخ فيها ؟ وفي حالة وجود التاريخ فأين يقف هذا التاريخ من الإسلام ؟** وينتهي أ.د. طه وادي من خلال دراسته إلى عدد من الحقائق على الوجه التالي:

١. أثبت تدليس – جرجي زيدان – من خلال إيهام القارئ بصدقه التاريخي عن طريق ذكر مصادر – مع انه يكتبها بشكل مستهتر. ولا يكتب اسم الكتاب كاملا ولا اسم مؤلفه.

٢. اختار المؤلف – في هذه الرواية – أحمد بن طولون – مع أنه لا يظهر في دائرة الأحداث إلا للحظات خاطفة، في حين أنه اختار لبطلة الرواية إسما قبطيا – دميانة – بهذا فقد ضللنا الكاتب كثيرا حين ذكر أنه كتب هنا رواية تاريخية إسلامية !!! مع أنه كتب في المقام الأول حكاية عاطفية – تصور حياة فتاة مسيحية؟!.

٣. لم يخلص الكاتب للتاريخ ولا للفن، فظلم الشخصية التي سمى الرواية باسمها، وبقيت مجرد مشجب تعلق عليه أحداث الحكاية، لا الرواية.

٤. المنظور الروائي: ينتهي د. طه وادي من خلال دراسته وكشفه للعلاقة بين المضمر الغائب، والمعلن الحاضر، فيما تبناه زيدان من وجهة نظر أراد أن يطرحها في هذه الرواية من خلال الجدول التالي:

المضمر الغائب	الغائب الحاضر
رواية	حكاية
تاريخية	عاطفية
إسلامية	مسيحية
البطل أحمد بن طولون	البطلة دميانة

(١) دراسة بن طولون، دراسة د. طه وادي، مطبعة الهلال، سنة ١٩٨٤م إيداع ٤٩٠٩/ ٨٤.

وهكذا لم يلتزم - جرجي - شيء مما صرح به على مستوى الفكر والفن، فما أعلنه هو ما أراد أن ينفيه، وما أضمره هو ما أراد أن يثبته - من حق كل كاتب أن تكون له وجهة نظره - لكن المرفوض هو الزيف والخداع - والغموض وعدم الشجاعة في إبداء الآراء والأفكار.

الدلالة الثقافية في تباين الآراء حول شخصية جرجي زيدان:

يلمس القارئ لهذه الآراء السابقة وجود اتجاهين متناقضين:

الأول: أحدهما يرفض توجه جرجي زيدان وعطاؤه بعد مناقشة علمية هادئة ونقد لأفكاره.

والثاني: يؤيده ويصفق له، ويعتبره واحدا من رواد الفكر العربي - وللقارئ حينئذ أن يتساءل عن السبب ؟ ويمكن لنا أن نضع أيدينا بسهولة ويسر على هذا التناقض إن نحن أمعنا النظر، والتأمل في أصحاب كل من الاتجاهين وموقفهما من الثقافة الإسلامية ونظرتهما إلى التراث الإسلامي، فعندما تجد منهجا علميا سليما قويما يناقش الأفكار التي طرحها جرجي زيدان، عن التاريخ الإسلامي، والخلافة الإسلامية وممارسات الخلفاء للحكم في الدول الإسلامية المتعاقبة، يكشف في النهاية عن تجني هذا الرجل وافترائه وتدليسه، وخداعه، وتعميمه الوقائع الجزئية واستنباط أحكام كلية عامة منها - فلا عجب أن يصدر مثل هذا النقد الموضوعي من أعلام الفكر الإسلامي ورواده أمثال الشيخ أمين بن حسن المدني، والشيخ العلامة شبلي النعماني، والشيخ رشيد رضا والإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود وغيرهم من كبار رجال الفكر الإسلامي وعلماء المسلمين وشيوخهم بل ومن المختصين من علماء الأدب العربي، وأساطين الرواية العربية كالكاتب الكبير الأستاذ فؤاد دوارة، والعالم الكبير أ. د. طه وادي، والدكتور حمدي السكوت، **أما أصحاب الاتجاه الثاني** الذي أيد جرجي زيدان وأثنى عليه وسار وراء وروج لأفكاره، وقدمه على أنه أحد الرواد العظام، والمفكرين الكبار، الذين حفظوا للأمة ذاتيتها ! بالرغم مما كشفه أصحاب الاتجاه الأول من خبث وكيد، وحقد دفين، وتجن على كل

الحقـائق في كتابـات جرجى زيدان، فـلا عجب أن نرى أصحـاب هـذا الاتجاه يتقدمهـم طـه حسين، ومحمد حسـين هيكل، والمنفلوطي، هـؤلاء الذين تربوا على موائد الفكر الغربي والثقافة الغربية وآمنوا بمعطياتها وتأثروا بأفكارها ونظرياتها بل كانوا رسلا إليها في مجتمعاتنا الإسلامية والعربية. فلا عجب.

المبحث الثالث
صلات جرجى زيدان بالمستشرقين

المطلب الأول: التدليل على صلته بالمستشرقين:

إذا حاولنا أن نتتبع صلات جرجى زيدان بالمستشرقين فسوف تتضح لنا الحقائق التالية:

أ) تضرب صلات جرجى زيدان - بالمستشرقين- بجذورها في أعماق التاريخ - ومنذ مطلع حياته ولعل أول اتصال له بواحد من المستشرقين سنة ١٨٨١م حيث أدى امتحانا في علوم الصيدلة أمام لجنة حرة تألفت في بيروت وكان على رأسها د. كرينلوس فانديك المتوفي سنة ١٨٩٥م وحين توفي نشر جرجى له ترجمة مطولة في مجلة الهلال يعترف فيها بفضله عليه وأستاذيته له.

ب) كما أن تلمذة جرجى زيدان على يد المستشـرقين وإفاضتـه في مدحهم وإشادته بفضلهم على الإنسانية، واضحة كل الوضوح في كتبه ومؤلفاته التي تركها ورائه، فهـو يقول في مقدمـة كتابه - تـاريخ آداب اللغـة العربيـة. (يطول بنا ذكر الكتب التي اطلعت عليهـا في تـأليف هذا الكتـاب، وهي طويلـة وكثيرة، ومتعددة، نورد أهمها - فذكر عشر كتب عربية - ثم أتبعها بالكتب الفرنسية فإذا بها أربعة عشر كتابا، والانكليزية فإذا بها ست كتب وكذلك الألمانية فيكون المجموع عشر كتب عربية في مقابل ستة عشر كتابا من كتب الاستشراق باللغات المختلفة [١].

(١) تاريخ آداب اللغة العربية مجلد ١٣ ج١ ص١٤، ١٥ الأعمال الكاملة - دار الجيل بيروت.

ج) كذلك من أهم الكتب التي اعتمد عليها في كتابه الذي اشتهر به تاريخ التمدن الإسلامي ما يلي:

١. تمدن العرب – للمستشرق جوستاف لوبون.

٢. تاريخ الدولة الرومانية البيزنطية – المستشرق لينو.

٣. تاريخ تمدن الشرق – المستشرق فون كريمو.

د) وها هو د. حسين مؤنس (أحد المعجبين بجرجي زيدان) يقول عنه: **كان أشبه بهمزة الوصل بين الحركة العلمية العربية الناهضة وحركة الاستشراق المتدفقة النشاط في أوربا وأمريكا. واتصلت العلاقات بينه وبين أعلام الاستشراق مثل:**

١. تيودور نولدكه. ٢. مارجليوس.

٣. جولد تسيهر. ٤. أمدروز.

٥. إدوارد سخاو. ٦. وليام رايت.

٧. ماكدونالد.

كما كانت علاقاته مع أغناطيوس كراتشكوفسكي، بالمراسلة واللقاء الشخصي، وكانت دار الهلال مقرا للمستشرقين الزائرين لمصر وكان جرجي زيدان هدفا من أهداف زياراتهم ومبرمجا لرحلاتهم.

هـ) وفي مقدمة كتابه تاريخ التمدن الإسلامي، يقول جرجي زيدان: ونغتنم هذه الفرصة للثناء على العلماء الأفاضل الذين تلقوا خدماتنا بالرضا وذكروها بما هم أهله. ونخص منهم كبار المستشرقين في أوربا ممن وصل إليهم كتابنا المذكور. فقد جاءتنا كتبهم ورسائلهم بعبارات الاستحسان والتنشيط وكتب بعضهم التقاريظ في المجلات الأجنبية – فاستحثنا ذلك إلى الاقتداء بهم في خدمة هذه اللغة إلى إحياء علومها وآدابها، ومهدوا لنا السبيل لبحثها، فنستأذن الذين كتبوا إلينا متفضلين أن ندون أسمائهم في صدر هذا الجزء إقراراً بفضلهم، وهذه أسماؤهم حسب الترتيب الهجائي:

الأستاذ دي جويه – ليدن

الأستاذ دير نسبرج – باريس
الأستاذ روزون – بطرسبرج
الأستاذ جولد تسهير – بودابست
الأستاذ جوبري – روسيا
الأستاذ مرجليوث – اكسفورد

هذا وقد سجل كراتشكوفسكي، في ترجمته لجرجى زيدان اعتماده على المصنفات الأوربية، وكان المستشرقون يترجمون مؤلفاته فور صدورها إلى اللغات الإفرنجية، والفارسية، والهندية، والتركية – كما كان المستشرق بروكلمان شديد الإعجاب به، وقد أفرد له فصلا مطولا في تاريخ الآداب العربية، وعلى الرغم من انقطاع زيدان في صومعته في دار الهلال أو بيته بالفجالة، فإنه كان يتلقى رسائل المستشرقين، تأتيه بانتظام، وتؤكد قيام التبادل العلمي بينه وبينهم – فضلا عن استقباله لطوائفهم عند زيارتهم للقاهرة [(١)].

المطلب الثاني: التعريف بالمستشرقين الذين اتصل بهم جرجى زيدان:

نقدم في هذا المطلب تعريفاً بأهم الشخصيات الاستشراقية التي اتصل بها أو استقى آراءها جرجى زيدان على النحو التالي:

١. كرينلوس فانديك:

١٨١٨/ ١٨٩٥م هولندي الأصل أمريكي المولد بيروتي الموطن، قدم لبنان طبيباً مع البعثة الأمريكية (١٨٤٠) فتعرف على المعلم بطرس البستاني، وأخذ عنه العربية وأنشأ معه مدرسة عبية ١٨٤٧م والتي أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية – من آثاره: اشتراكه مع المعلم بطرس البستاني والشيخ ناصيف اليازجي، والشيخ يوسف الأسير، في تكملة ترجمة التوراة إلى العربية، وله مصنفات عديدة مثل المرآة الوطنية في وصف الكرة الأرضية، والأصول الجبرية، وأصول علم الهيئة.

---

(١) محمد عبد الغني، جرجى زيدان، سلسلة أعلام العرب.

٢. نولدكه:

١٨٣٦/ ١٩٣٠م ولد في هامبورج - التي أطلقت اسمه على أحد شوارعها، من أسرة عريقة قاتل قدماؤها الرومان، وشغل أفرادها مناصب علمية وإدارية كبيرة، تعلم اللغات السامية، والفارسية، والتركية ونال الدكتوراه (١٨٥٦) واستكمل دراسته في مدينتا ليدن وبرلين - عرف عنه تضلعه في العربية، والسامية، والإيرانية، والتركية، والحبشية.

آثاره: ما تزال في استراسبورج وأشهرها: أصل وتراكيب سور القرآن، وله ديوان عروة بن الورد، متنا وترجمة ألمانية ١٨٦٣م، وفكرة عامة عن حياة محمد، وقواعد اللغة العربية الفصحى، وتراجم المسلمين الشيعة - وقد عدد له الأستاذ: نجيب العقيقي ما يقرب من ٥٢ عملا علميا.

٣. مرجليوث:

١٨٥٨/ ١٩٤٠م ولد وتوفي في لندن - وتخرج باللغات الشرقية من جامعة اكسفورد - وأتقن العربية وكتب فيها بسلاسة - وأقام أستاذا لها في جامعة اكسفورد منذ عام ١٨٨٩م ورأس تحرير مجلة الجمعية الملكية الآسيوية، وكان لآراءه قدرها عند علماء العرب المعاصرين.

آثاره: عدد له نجيب العفيفي [١] آثارا عدة منها: ترجمة مختارات البيضاوي، ومحمد ونهضة الإسلام، وترجمة الجزء الرابع من تاريخ التمدن الإسلامي، كما عاون أمدروز في الجزئين الخامس والسادس من تجارب الأمم لابن مسكويه متنا وترجمة.

٤. أمدروز [٢]:

١٨٥٤/ ١٩١٧م سويسري الأصل إنجليزي الجنسية والثقافة تفرغ لدراسة العربية لا سيما مخطوطاتها، وحرر في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية، عاون مرجليوث في تحقيق الجزئين الخامس والسادس من تجارب الأمم لابن مسكويه،

---

(١) نجيب العقيقي، المستشرقون ١/ ج٣ ص٣١٣، ٢/ج٢ ص٣٧٩، ٨٠، ٨١، ٣/ ج٢ ص٧٧، ٧٨، ٧٩.
(٢) نجيب العقيقي، المستشرقون ج٢ ص٧٤.

وذكر له الأستاذ نجيب العفيفي آثاراً عديدة.

٥. وليام رايت [١]:

١٨٣٠/ ١٨٨٩م ولد في البنغال وكان والده قائدا في الجيش البريطاني ووالدته ابنة الحاكم - خبيرة بعدة لغات شرقية فشجعته على تعلمها، فدرسها في اسكتلندا وعين أستاذاً للغة العربية في جامعة لندن ١٨٥٦م وعمل في مكتبة المتحف البريطاني ١٨٦١م - ثم استدعى استاذا في كمبريدج ١٨٧٥م، وحصل منها على الدكتوراة في الحقوق والفلسفة، وظل أستاذا حتى وفاته. آثاره: صفة السحاب والغيث وأخبار الرواد، وما حمد من الكلام لأبي دريد الأزدي، ونشر كتاب الكامل للمبرد لأول مرة في العالم في ثلاثة أجزاء مع حواش وفهارس وافية، كما صنف بالانجليزية كتابا في النحو العربي والأدب السوري في دائرة المعارف البريطانية وكان قد باشر نقائض جرير والفرزدق فأتمهما تلميذه.

٦. ماكدونالد [٢]:

١٩٤٣/١٨٦٣م: تعلم في جلاسجو ثم رحل إلى برلين (١٨٩٠) وأخذ اللغات الشرقية على سخاو، ثم قصد رتفورد لتعلم اللغات السامية ١٨٩٣م وأسس فيها بعد طوافه بالشرق الأدنى (١٩٠٧-١٩٠٨) مدرسة كفيري للبعثات (١٩١١م) كما أشرف على القسم الإسلامي سنوات طويلة، وانشأ بمعاونة صموئيل زويمر مجلة العالم الإسلامي١٩١١م.

آثاره: علم الكلام في الإسلام. دراسة اشتملت على مصطلحاته وما جاء عنه في القرآن والحديث والتفسير والمؤلفات اللغوية والدينية، وترجمة إحياء علوم الدين للغزالي (١٩٠١ - ١٩٠٢) ومختارات من الغزالي وابن خلدون (ليدن ١٩٠٥م) والدين والحياة في الإسلام (١٩٠٩) وعرض المسيحية للمسلمين (١٩١٦) وجمع من ألف ليلة وليلة نسخا فريدة، وله الآله وحدة أم اتحاد ؟ في الفقه الإسلامي (١٩١٣) وعقيدة الوحي في الإسلام (١٩٣٢) وما الإسلام (١٩٣٣)

---

(١) نجيب العقيقي، المستشرقون ج٢ ص٦٢.

(٢) نجيب العقيقي، المستشرقون ج٣ ص١٣٦.

والتصوف الإسلامي المسيحي (١٩٣٥) والعلوم الطبيعية في الإسلام، مجلة إيزيس في أعداد متتابعة.

٧. أغناطيوس كراتشكوفسكي [1]:

١٨٨٣/ ١٩٥١م: نشأ بفيينا - وكان أبوه مديرا لمعهد المعلمين فيها - دخل المدرسة الإعدادية ١٨٩٣م وقرأ في مكتبتها تصانيف المستشرقين وتخرج منها (١٩٠١م) وله ثمانية عشر عاما، سبب أخذه باللغة العربية يرجع إلى التحاقه بقسم اللغات الشرقية بجامعة بطرسبرج، فاستهواه الشرق بسحره فانصرف إلى لغاته، وقد أوفدته جامعة بطرسبرج إلى الشرق لتعلم العربية العامية فأخذ يطوف في سوريا، ولبنان، وفلسطين، ومصر، مترددا على خزائن كتبها متعرفا على كبار أدبائها وعلمائها، وزائرا مواطن العلم فيها، ولما آب إلى روسيا (١٩١٠) عين مديرا لمكتبة قسم اللغات في جامعة بطرسبرج وفي خريف تلك السنة عين معيدا فيها وفي عام ١٩١٧ أصبح أستاذا للعربية في جامعة بطرسبرج، وكتب عنه أعلام المستشرقين وناشئوهم وأجمعوا على الاعجاب به، ومنحته الحكومة السوفيتية وسام لينين، اعترافا بفضله على الثقافة الروسية العالمية.

آثاره: قيمة وافرة تربوا على أربعمائة وخمسين أثرا، ما بين مصنف ومترجم ومفسر، ومنقود، ورسالة. باللغات الروسية، والفرنسية، والألمانية، والعربية في كبرى المجلات من أشهرها: دراسة في إدارة الخليفة المهدي، نال عليها وساما ذهبيا ١٩٠٥م وشاعرية أبي العتاهية ١٩٠٦م والمتنبي والمعري (١٩٠٩م)، وترجمة لمختارات من الكتاب: كقاسم أمين، وأمين الريحاني، واليازجي، وغيرهم، ترجمة كسابها المعاني العربية صياغة روسية، وكذلك كتاب (ذكريات وخواطر عن عالم الاستشراق كتبا ورجالا) وهو وصف رحلته إلى لبنان وسوريا ومصر، وإقامته سنتين بجامعة القديس يوسف وأخذه العربية على لامانس، وشيخو، وجرجي زيدان وكذلك الأب لويس شيخو، وكرد علي، ومحمود تيمور.

ومن خير ترجماته نقله القرآن الكريم إلى الروسية، ويقوم بجمع العلوم السوفيتي

(١) نجيب العقيقي - المستشرقون ج٣ ص٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩.

بإصدار منتخبات أبحاث كراتشكوفسكي، في ستة مجلدات صدر منها خمسة، وبعض هذه المجلات، صدر كتاب على حدة بترجمة كراتشكوفسكي للقرآن الكريم ١٩٦٤م.

والخلاصة أن نشاط كراتشكوفسكي قام على المحاور الثلاثة التالية:

١. تاريخ الشعر العربي ونقده منذ أقدم العصور وإلى اليوم.

٢. الأدب العربي لدى الأدباء النصارى.

٣. الأدب العربي منذ بدء النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر.

جولد تسهير:

١٨٥٠/ ١٩٢١م: تخرج باللغات السامية على كبار أساتذتها في بودابست وبرلين وليدن – وألمانية، عين أستاذا محاضرا في كلية العلوم بجامعة بودابست (١٨٧٣م) وانتدبته الحكومة لرحلة لسوريا، فصحب فيها الشيخ طاهر الجزائري مدة، ثم تركها إلى فلسطين ومصر، تضلع من العربية على شيوخ الأزهر، لاسيما الشيخ محمد عبده، واشتهر بتحقيقه في تاريخ الإسلام وعلماء المسلمين، وفرقهم وحركاتهم الفكرية، واعترف له عظماؤهم بطول الباع، وصدق النظر، وقد انتخب عضواً في مجمع العلوم المجري (١٨٩٣م) ونال لقب دكتور شرف من جامعتي أدنبرا وكمبريدج، وأشهر كتبه صنعها بالألمانية، والفرنسية، والإنجليزية وقد صُنِّفَ كتابٌ لتكريمه (١٩١٠م) وآخر لذكراه (١٩٤٨م) وكانت له مكتبة أربت على أربعين ألف مجلد في العلوم والفقه والفلسفة والفنون واللغة والأدب.

آثاره: له آثار وافرة منوعة نفيسة، عن الإسلام وفقهه، والأدب العربي وأشهرها اليهود بالإنجليزية (١٨٧٠م) آداب الجدل عند الشيعة بالألمانية (١٨٧٤م) الإسلام بالألمانية ألفه ١٨٨١م ثم نقله إلى الفرنسية بإشراف المؤلف بعنوان العقيدة والشريعة في الإسلام باريس (١٩٢٠م) ثم نقله إلى العربية د. محمد يوسف موسى، والأستاذ عبد العزيز عبد الحق.

ومن بحوثه كذلك: مقالة من كتاب إسرائيلي في أسماء ا لله الحسنى ١٨٩٣م، وتفسير بعض أسماء الله السريانية التي وردت في القصيدة الجلجوفية لنولدكه

١٩٠٦م، وله أيضا إخوان الصفا ١٩١٠م، وتكريم الأولياء في الإسلام ١٩١١م.

خلاصة الفصول الأربعة:

بعد هذه الرحلة التي طوفنا فيها مع جرجي زيدان - ووقفنا من خلالها على المجتمع الذي تربى في أحضانه، وشهد طفولته وخطى على أرضه أولى خطواته، ورضع من ثقافته وتنفس في أجوائه، وكيف كانت حال المجتمع في الوقت الذي ظهر فيه زيدان وما هي المفاهيم العامة التي كانت مسيطرة عليه وتسري بين جنباته - بعد هذه الجولة التي عشنا فيها مع جرجي زيدان - وتتبعناه في مراحل حياته المختلفة. ننتهي إلى هذه الحقائق التالية: أبرز ما في حياة جرجي زيدان:

١. صنعت شخصيته المدارس التبشيرية.

٢. رجل استخبارات بريطانية، نال مكافأة على ذلك. عددا من الأوسمة.

٣. سافر عام ١٩١٢م إلى أوربة في زيارة طويلة، فزار فرنسا وانكلترا وسويسرا، وتنقل بين مرسيليا [1]، وليون، وباريس، ولندن، وكمبيريدج، وأكسفورد، وجنيف، ولوازن، وأفيان، وزار متاحفها وتفقد مكتباتها.

٤. عمق صلة جرجي زيدان بالمستشرقين منذ عام ١٨٨١م حتى كان بمثابة همزة الوصل بين الحركة الاستشراقية والوطن العربي - وظلت هذه العلاقة سنوات طويلة حتى أصبحت دار الهلال مقرا للمستشرقين الزائرين إلى مصر وأصبح جرجي زيدان هدفا من أهداف زياراتهم ومبرمجا لرحلاتهم.

٥. التهليل لما كتبه جرجي زيدان. والتقاريظ التي كتبت في المجلات الأجنبية يقول جرجي زيدان - في مقدمة كتاب من كتبه:

ونغتنم هذه الفرصة للثناء على العلماء الأفاضل الذين تلقوا خدماتنا بالرضا وذكروها بما هم أهله. ونخص منهم كبار المستشرقين في أوربا ممن وصل إليهم كتابنا المذكور. فقد جاءتنا كتبهم ورسائلهم بعبارات الاستحسان والتنشيط وكتب بعضهم التقاريظ في المجلات الأجنبية - فاستحثنا ذلك إلى الاقتداء بهم في

(١) مدينة فرنسية.

خدمة هذه اللغة إلى إحياء علومها وآدابها، ومهدوا لنا السبيل لبحثها، فنستأذن الذين كتبوا إلينا متفضلين أن تدون أسمائهم في صدر هذا الجزء من تاريخ التمدن الإسلامي، ج٣، إقراراً بفضلهم، وأورد عددا من أسماء مشاهير المستشرقين.

هذا وقدم جرجى زيدان الكتب التالية:

١. تاريخ التمدن الإسلامي.

٢. تاريخ مصر الحديث من الإسلامي إلى الآن.

٣. العرب قبل الإسلام.

٤. التاريخ العلم منذ الخليفة إلى الآن.

٥. تاريخ انكلترا منذ نشأتها إلى هذه الأيام.

٦. تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى هذه الأيام.

٧. تاريخ اليونان والرومان (جزء من تاريخ أوربة).

٨. طبقات الأمم والسلائل البشرية.

٩. أنساب العرب القدماء.

١٠. تراجم مشاهير القرن التاسع عشر.

١١. عجائب الخلق.

١٢. مختصر جغرافية مصر.

١٣. الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية.

١٤. تاريخ اللغة العربية باعتبارها كائناً حياً.

١٥. تاريخ آداب اللغة العربية.

١٦. البلغة في أصول اللغة (غير موجود).

١٧. علم الفراسة الحديث.

١٨. روايات تاريخ الإسلام:

فتاة غسان - أرمانوسة المصرية - عذراء قريش - ١٧ رمضان - غادة كربلاء - الحجاج بن يوسف الثقفي - فتح الأندلس - شارل وعبد الرحمن - أبو مسلم الخراساني - العباسة أخت الرشيد - الأمين والمأمون - عروس فرغانة - أحمد بن

طولون - عبد الرحمن الناصر - فتاة القيروان - صلاح الدين الأيوبي - شجرة الدر - الانقلاب العثماني - أسير المتمهدي - المملوك الشارد - استبداد المماليك - جهاد المحبين.

الباب الثاني

القضايا التي عالجها جرجي زيدان في كتاباته

الفصـــل الأول : القضايا الاستشراقية

عرض ونقد

الفصـــل الثانى : القضايا التاريخية

تاريخ التمدن الإسلامي نموذجا

الفصـــل الثالث : القضايا الفلسفية

* م/١ شبهة العداء بين الدين والعلم
* م/٢ نظرية التطور

الفصـــل الرابع : القضايا الاجتماعية

جرجي زيدان وقضية تحرير المرأة

الفصـل الخامس: القضايا السياسية

موقفه من الخلافة العثمانية نموذجا

الفصل الأول

القضايا الاستشراقية
عرض ونقد

المبحث الأول
شبهة انتشار الإسلام بالسيف
عرض ونقد

شغلت هذه القضية الاستشراقية مساحة كبيرة على صفحات المجلة ولكن من خلال تغيير أو تحوير عنوانها إلى التمدن الإسلامي وبماذا قام هل بالسيف أم بالقلم؟

وقد جاء طرح هذه القضية في صفحات المجلة على النحو التالي:

١. اقتراح أرسل به أحد القراء في رسالة لمنشئ الهلال - جرجى زيدان - راجيا الإجابة على السؤال التالي مع ترجيح أحد وجهيه

هل قام التمدن الإسلامي بالسيف أم بالقلم ؟

٢. توالت الإجابات بعد ذلك وطالت متخذة شكل المساجلات المستمرة على مدار تسعة أعداد كاملة من المجلة[1] حملت وجهتي النظر التاليتين:

أ- اتجاه المدافع عن الإسلام ونفي هذه التهمة التي يلصقها به أعداؤه من المستشرقين وأذنابهم، وهذا الاتجاه كان واضحا في ردوده وأسمائه (رفيق العظم[2]، أحمد محمد الألفي[3] .....).

ب- اتجاه آخر يتبنى الوقوف إلى جانب هذه التهمة مدعيا أن الإسلام لم ينتشر بغير السيف ولولاه لما تحقق له هذا الذيوع والانتشار.

وقد عملت المجلة على تنكير صاحبه مذيلة مقالاته وردوده بحرفين اثنين هما (ر.ن) ولست أدري ما هي الحكمة في ذلك التجهيل إلا إذا كان هذا هو رأي

---

(١) المجلد الثالث السنة الثالثة سنة ١٨٩٥م - ج٩ ص٣٣٩، ج١٠ ص٣٤١، ج١١ ص٣٧٩، ج١٢ ص٤١٦، ج١٣ ص٤٩٦، ج١٤ ص٥٤٥، ج١٥ ص٥٤٧، ج١٦ ص٦١٥، ج١٧ ص٦٥٥.

(٢) رفيق العظم: عالم بحاث من رجال النهضة الفكرية في سوريا، زار مصر واستقر فيها سنة ١٣١٦هـ، واشترك في كثير من الأعمال والجمعيات الإصلاحية والسياسية والعلمية، ونشر بحوثا قيمة في بدايات الصحف والمجلات، وصنف أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة، والبيان في كيفية انتشار الأديان، والجامعة الإسلامية وأوربا.

(٣) أحمد محمد الألفي الطوخي، فقيه شافعي من أهل طوخ بمصر - تعلم في الأزهر وصنف مواهب المنان ومنح الرحمن، مطبوع. نقلا عن خير الدين الزركلي الأعلام - دار العلم للملايين ص٢٤٨ - بيروت مجلد ١.

المجلة وكاتب تلك المقالات ليس إلا جرجي زيدان مختفيا في (ر.ن) .

وعلى كل حال، فنحن أمام فريقين أو اتجاهين

أولهما: مجهول الهوية عجز عن كشف شخصيته للمجتمع، وجبن عن مواجهته، لأنه يروج لاتهامات ظالمة لا يسندها دليل من نص، أو واقع تاريخي، فهي لا تقوم إلا على الافتراء.

وثانيهما: لمفكري المسلمين، اتجاه أعلن عن نفسه بكل وضوح، وشجاعة حتى يمكن مناقشته والحوار معه، لأنه يقف على أرض صلبة يقدم الدليل تلو الدليل، والحجة تتبعها الحجة، في بيان سماحة الإسلام وفضله وعدالته شعاره قول الحق تباركت أسماؤه ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ [1].

وكذلك قوله سبحانه ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ [2].

والخلاصة: أننا أمام اتجاهين: أحدهما يزعم انتشار الإسلام بالسيف والثاني: يؤكد انتشاره بالقلم (والموعظة الحسنة والكلمة الطيبة) وقد ساق كل منهم حججه على النحو التالي:

الاتجاه الأول: **أصحاب الاتهام** حججهم وأدلتهم:

١. يقولون انتشرت الشريعة بالسيف، وهذا هو معنى الجهاد في الإسلام وأوردوا عددا من الآيات الداعية للجهاد مثل قوله تعالى: ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾[3] وكذلك قول النبي ﷺ (الجنة تحت ظلال السيوف) [4] (لا

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ٢٥٦.

(٢) سورة يونس - آية رقم ٩٩.

(٣) سورة التوبة - آية رقم ٢٩.

(٤) ونصه: عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري قال سمعت أبي يحضره العدو يقول قال رسول الله ﷺ إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف، فقال رجل من القوم رث الهيئة آأنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال نعم فرجع إلى أصحابه فقال أقرأ عليكم السلام وكسر جفن سيفه فضرب به حتى قتل !!
نقلا عن: الحافظ بن العربي المالكي، عارضة الأحوزي بشرح صحيح الترذي - دار الكتب العلمية بيروت ج٧ ص١٥٩.

هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية) [1].

٢. التمدن الإسلامي قام بالسيف لأن الشريعة هي العامل الوحيد في قيامه، وقد قامت بالسيف فالنتيجة قيام التمدن الإسلامي بالسيف.

٣. عدم نزول آيات الجهاد في بداية الدعوة لا يقوم دليلا على نقض الاتهام، لأن العبرة بالأكثرية التي دخلت الإسلام وليست بالنذر اليسير الذي دخل عن طريق الدعوة اللسانية فقط وقيام (٢٧ غزوة + ٣٨ سرية) في عهد **صاحب الشريعة – حسب تعبير جرجي زيدان المتكرر –** ألم يكن ذلك دعوة للإسلام بالسيف ؟

٤. لا يمكن التفريق بين الشريعة الإسلامية، والدولة الإسلامية فلا يقال إن المسلمين فتحوا المدن والأمصار بالسيف، لكنهم نشروا الدين الإسلامي بالدعوة إليه بالموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن !!

٥. الإدعاء بأن الشريعة الإسلامية والدولة الإسلامية معا قامتا بالموعظة الحسنة قول مردود، بمجرد ذكر السيف، وهو التهديد بالقتل ولا يعترف بأنه آخر شروط الجهاد.

٦. دعوة الناس بالموعظة الحسنة لا حاجة معها إلى ذكر الجزية أو السيف، لأن في ذكر أحدهما خروج على الموعظة الحسنة إلى التهديد والترهيب، كما أن تخيير المدعوين بين الإسلام أوالجزية فقط خروج كذلك عن الموعظة الحسنة لأنه يكلف ثمنا ربما لا يستطيع القيام به فلا يزال مهددا بالسيف.

وهكذا يتضح من مجمل كلام صاحب الاتهام ومناصريه: أنهم عملوا على مسخ فكرة الجهاد وتشويه صورتها في نفوس المسلمين، وغيرهم، فردوا انتشار الإسلام إلى (سفك الدماء وإزهاق الأرواح) بصورة تقضي على الحريات وتقتل الحقوق – عمداً منهم، دون أن يسعفهم نص أو واقعة وذلك حتى تموت فكرة الجهاد في نفوس المسلمين، فيقنعون بالعيش في الظل، خاصة وأنهم في ظل الاستعمار، أو

---

(١) عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال لما نزلت هذه السورة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها وقال الناس حيز، وأنا وأصحابي حيز، وقال لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، نقلا عن الأمام أحمد بن حنبل – المسند – مطبعة البابي الحلبي سنة ١٣١٣هـ.

بمعزل عن أسباب نشر دينهم، وانبعثت هذه العقيدة عندهم لمعرفتهم أن الجهاد في الإسلام إنما يهدف إلى تحقيق السلام القائم على العدل، فحينها تستحيل الموادعة بين المسلمين والمخالفين لدينهم، فلم يقبلوا إسلاما و لم يدفعوا جزية فأعاقوا عرض الإسلام على الناس، ووجب الصد والوقوف أما الطغاة لينتشر النور وتكفل الحريات لكل البشر ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1].

أما أدلة الفريق الثاني: الذي كشف عن نفسه وأفصح عن هويته لأنه لا يبغي إلا المعرفة المؤيدة بالبرهان فاستقام له أن الإسلام لم ينتشر إلا بذاتيته ودعاته فهذا له جهد مشكور لأنه أدى الأمانة التي حملها وبلغ الرسالة التي كلف بها – فلن نقف مع أدلته ودفاعاته لأننا بطبيعة الحال ننتصب في هذه الرسالة لمناقشة الاتهامات وكشف الزيوف ورد الافتراءات التي أفسحت لها المجلة صفحاتها عاملة من خلالها على زعزعة عقائد المسلمين وإفساد أخلاقهم وتثبيت صفوفهم.

مناقشة جرجى زيدان [مجلة الهلال] في شبهة انتشار الإسلام بالسيف

جذور الشبهة وتاريخها:

بادئ ذي بدء فإن جرجى زيدان – أو مجلة الهلال – ليست أول من تبنى تلك التهمة المفتراة، التي يحاول أعداء الإسلام أن يرموه بها ... لكنه كان سائرا في فلك المستشرقين، المغرضين، من السابقين له واللاحقين، الذين اتخذوا منهج الإفساد والتجريح، واختلاق الاتهامات لهذا الدين العظيم – الذي قضى على باطلهم وقطع دابر فسادهم، وأزال من الوجود دولهم الظالمة وكسر أنوفهم في عديد من معاركه الخالدة التي أثاروها ضده.

وتلك أقوالهم وكلماتهم تنطق بذلك الاتهام الفاسد.

كارل بروكلمان: (يقول: يحتم على المسلم أن يعلن العداوة على غير المسلمين حيث وجدهم لأن محاربة غير المسلمين واجب ديني) [2].

---

(1) سورة الكهف جزء الآية رقم ٢٩.

(2) كارل بروكلمان – تاريخ الشعوب الإسلامية ص٧٨ نقلا عن شوقي أبو خليل، الإسلام في قفص الاتهام ص٩٢، دار الفكر، دمشق ط٥ – سنة ١٩٨٢م.

(من الثابت أن الإسلام لم يكن يصادف نجاحا إلا عندما كان يهدف إلى الغزو)[1]. (إن تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحرب والمذابح)[2].

(في القرن السابع للميلاد بزغ في الشرق عدو جديد، ذلك هو الإسلام، الذي أسس على القوة وقام على أشد أنواع التعصب .. لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق .. ثم سمح لأتباعه بالفجور، والسلب، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات[3] (إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس: أسلموا أو موتوا، بينما أتباع المسيح ربحو النفوس من برهم وإحسانهم) من أقوال غيومان، ولوسيثر، في كتاب تاريخ فرنسه (... وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم كله على الإسلام بالسيف إذا اقتضت الضرورة)[4].

وهذا حاقد آخر يقول: (... إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا، بل هي مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول، والكسل، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء[5].

تفنيد الشبهة والرد عليها:

وهكذا بعد نقل هذه الأقوال المتناقضة، لفريق من المستشرقين المغرضين – والتي تمثل الجو الذي سبحت فيه مجلة الهلال – بل قاع السحيق الذي انغمست فيه أقوال صاحب الهلال قبل أن ينشرها – يتضح أن جرجى زيدان – لم يكن بدعا من الحاقدين على الإسلام، أو الكارهين له، أو الناقمين عليه، بل هو تلميذ وفي

---

(١) فردريك دينسون، نقلا عن السابق ص٩٣.
(٢) لطفي ليقونيان نقلا عن شوقي أبو خليل ص٩٢.
(٣) المنسيئور كولي، البحث عن الدين الحقيقي، ص٢٢٠، بدون رقم للطبعة سنة ١٩٢٨، نقلا عن الإسلام في قفص الاتهام ص٩٤.
(٤) تاريخ محاضرات ج إيزاك، للشرق الأدنى – كتاب يدرس لطلاب الصف الخامس في المدارس الفرنسية ببيروت، نقلا عن شوقي أبو خليل، الإسلام في قفص الاتهام ص٩٥.
(٥) كيمون، المستشرق الفرنسي، باثولوجيا الإسلام، نقلا عن محمد سرور بن نايف زين العابدين، دراسات في السيرة النبوية، دار الأرقم للنشر والتوزيع، برمنجهام ط٣ سنة ١٩٨٨م ص١٢٢.

للمغرضين والحاقدين من المستشرقين.

ننتقل إلى مناقشة هذه الدعوى التي روجتها الهلال - ونشرتها في أعدادها المختلفة - بادئين ببيان فضيلة الجهاد في الإسلام حكمته، أهدافه، مبادئه، ومتى يلجأ المسلمون إليه ؟ وهل يمثل حقا نوعا من إذلال الشعوب وقهرها وإكراهها على الدخول في الإسـلام ؟ أم أن الحقيقة أبعد ما تكون عن ذلك ؟ من أوائل الآيات القرآنية التي تطالعنا في بيان بطلان جريمة إتهام الإسلام بالإكراه في الدين قول الله عز وجل ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[1] فلا إكراه في الدين الإسلامي لأنه قام على الحجة والبرهان، لا على الضغط والإكراه، فإن المكره على شيء لا يلبث أن يتركه، متى سنحت له الفرصة وتهيأت الأسباب للتخلص منه، إن ديننا يحذر من استخدام أية قوة لحمل الناس على الدخول فيه، فإن نوره جدير بأن يخترق الحجب ويضيء القلوب ويأسر العقول، فالإسلام يريد من الناس عقولهم وقلوبهم، لا أجسامهم وصورهم، وهذا قول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾[2].

يبين ربنا جل وعلا لرسوله ﷺ قائلا له، قل إن ما جئت به هو الحق من عند ربكم فمن شاء فليؤمن خير له، ومن شاء أن يكفر فليكفر، فإنه لا يضر، ولا يظلم إلا نفسه. إنا أعددنا لمن ظلم نفسه بالكفر ناراً تحيط بهم كالسرادق وإن يستغث الظالمون بطلب الماء في جهنم، يؤت لهم بماء كالزيت العكر الشديد الحرارة، يحرق الوجوه بلهيبه. أقبح بهذا الشراب لهم، وقبحت جهنم مكانا لراحتهم، فالحقيقة تظهر جلية واضحة أنه ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [3]، لأن الإيمان خضوع وإذعان، وذلك لا يكون بالإكراه أو الالتزام، إنما يكون بالحجة والبرهان، فهذه الآية

(1) سورة البقرة آية رقم ٢٥٦.
(2) سورة الكهف آيات رقم ٢٩، ٣٠.
(3) جلال الدين السيوطي، لباب النقول.

ومثيلاتها، شاهد قاطع وحجة قائمة، على إبطال زعم أعداء الإسلام، ورميهم له بالتناقض تارة، أو تظاهر بعضهم تارة أخرى بأنه يدفع عن الإسلام هذه التهمة، وهو يحاول في خبث أن يخمد في حس المسلم روح الجهاد، ويهون من شأن هذه الأداة في تاريخ الإسلام وفي قيامه، ليوحي للمسلمين بطريقة ملتوية ناعمة ماكرة، أنه لا ضرورة اليوم أو غدا، للاستعانة بهذه الأداة، وذلك كله في صورة من يدفع التهمة الجارحة عن الإسلام، وهؤلاء وهؤلاء كلاهما من المستشرقين الذي يصدرون عن هدف واحد، هو حرب الإسلام، وتحريف منهجه، وقتل إيحاءاته الموحية في حس المسلمين، كي يأمنوا انبعاث هذا الروح الذي لم يقفوا لها مرة في ميدان، والذين آمنوا واطمأنوا منذ أن خدروه وكبلوه بشتى الوسائل، وكالوا له الضربات الساحقة الوحشية في كل مكان، وألقوا في خلد المسلمين أن الحرب بين الاستعمار وبين وطنهم ليست حرب عقيدة أبدا تقتضي الجهاد، إنما هي فقط حرب أسواق، وخامات ومراكز وقواعد، ومن ثم فلا داعي للجهاد، والحق الذي لا مراء أن الإسلام قد نضد السيف وناضل وجاهد[1] في تاريخه الطويل لا ليكره أحدا على الإسلام، لكن ليحقق أهدافا سامية أخرى.

فتاريخ الإسلام والمسلمين، أكبر شاهد على كذب من يتهم الإسلام بإكراه الناس على الدخول فيه، وما على المكابر إلا أن يستعرض هذا التاريخ من البداية للآن، ليرينا في أي موطن من المواطن استخدم المسلمون القوة لإكراه الناس على الدخول في الإسلام، وسبب نزول هذه الآية: ما رواه ابن جرير[2] عن ابن عباس قال: نزلت ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ...﴾ في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان، وكان هو مسلما، فقال النبي ﷺ ألا استكرهما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله عز وجل هذه الآية، وقال الحق

---

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط١٢ سنة ١٩٨٧م ج١ ص٢٩٣، ٢٩٤.

(2) ونصه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي. قال نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان، وكان هو مسلما، فقال النبي ﷺ ألا استكرهما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله من ذلك. نقلا عن الأمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري – جامع البيان في تفسير القرآن دار المعرفة للطباعة والنشر مصورة على الطبعة الأميرية سنة ١٩٨٦م ج١ ص١٠.

سبحانه ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[1] ومخاطبا رسوله ﷺ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾[2].

الإسلام والحرب:

وإذا ذهبنا إلى تحليل الأسباب التي دعت الإسلام إلى الحرب فإننا نجده في حروبه كلها كان مظلوما لا ظالما، مضطرا لا مختارا، فقد سار المسلمون في دعوتهم وهم يرفعون راية السلم، لكن خصوم الإسلام لم يسالموهم وأذاقوهم العذاب ألوانا وصبوا عليهم العذاب صبا، مضى على ذلك ثلاثة عشر عاما استشهد فيها بعض المسلمين تحت العذاب، والمشركون لا يزدادون إلا تفننا في التعذيب، وطغيانا في الظلم، ودبروا المؤامرة الكبرى لقتل الرسول ﷺ حتى يموت وتموت دعوته، ولكن الله أبطل كيدهم فاضطر المسلمون إلى الهجرة، متسللين فرارا بدينهم، وصادرت قريش ديارهم وأموالهم بمكة، واشتدوا في تعذيب من لم يستطع الهجرة وقعدوا للمسلمين في المدينة كل مرصد، وسدوا عليهم أبواب الرزق وألبوا ضدهم قبائل العرب، وحاكوا معهم المؤامرات للقضاء على الإسلام، حتى تموت دعوة التوحيد أمام جحافل الشرك والوثنية، عند ذلك أذن ا لله للمسلمين في قتال أعدائهم حماية لدعوة التوحيد وعبادته وأماكنها، فقال تعالى﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[3]. وهنا نأتي إلى بيان:

أسباب مشروعية القتال في الإسلام:

إن الله سبحانه حينما شرع القتال في الإسلام دفعا للضرر عن المسلمين شرعه لأحد الأمور التالية:

١. دفع العدوان على الأنفس والأموال والأوطان فقال تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي

---

(١) سورة يونس – آية رقم ٩٩.
(٢) سورة الغاشية – آيات رقم ٢١، ٢٢.
(٣) سورة الحج – آية رقم ٣٩.

سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[١].

٢. منع فتنة المسلمين في دينهم، ليكون الدين خالصا لله قال سبحانه ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه﴾[٢].

٣. الأخذ على أيدي العابثين بالأمن الذين يخونون العهود ويشوهون حقائق الإسلام وينفرون الناس منه ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾[٣].

٤. تخليص الجماعات والشعوب المستضعفة من بطش الأقوياء وسطوتهم ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾[٤].

فإذا بسط الأعداء يد السلام للمسلمين، وأرادوا حل النزاع فيما بينهم بالتحكيم، فرارا من إزهاق الروح، وجبت مسالمتهم وقبول التحكيم ليعيش الناس في محبة ووئام ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٥].

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ...﴾[٦]. كونوا جميعا مسالمين فيما بينكم ولا تثيروا أسباب النزاع والخلاف ولا تسيروا في طريق الشيطان الذي يدفعكم إلى الشقاق.

وهكذا يؤثر الإسلام السلم على الحرب، ما لم يكن من الحرب بد، ولا من القتال مفر.

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا فما حيلة المضطر إلا ركوبها

(١) سورة البقرة - آية رقم ١٩٠.
(٢) سورة الأنفال - آية رقم ٣٩.
(٣) سورة التوبة - آية رقم ١٢.
(٤) سورة النساء - آية رقم ٧٥.
(٥) سورة الأنفال- آية رقم ٦١.
(٦) سورة البقرة - آية رقم ٢٠٨.

وعلى هذا وانطلاقا مما سبق فإننا نرى:

أن الإسلام حمل السيف في كل الحروب لكي يكرم الإنسان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ﴾[١] بكرمه حين يمنع عن الفتنة ﴿حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[٢] والفتنة أشد من القتل ... والجهاد: يحقق الله به الأمن على العقيدة (والدين والنفس والنسل «النسب والعرض» والمال والعقل) وهي الضرورات الخمس في الإسلام، وفي كل الشرائع السابقة، حتى يعيش كريما في الحياة، لأن الاعتداء على واحدة من هذه الضرورات، هو اعتداء على الحياة نفسها، فحكمة الجهاد الأولى وغيرها أن يبلغ صوت الإسلام إلى كل الآذان والقلوب على وجه الأرض) ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾[٣] ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٤] مع منع كل المعوقات والسدود والحواجز، على اختلاف ألوانها، وأشكالها مكشوفة، أو مستورة، تلك التي تقف لتمنع أو تشوش، أو تحول دون بلوغ هذا البلاغ غايته، فإن كان نظاما طاغيا أسقطه ليقيم مكانه نظاما عادلا[٥] يضمن حرية الدعوة والداعية، وهو هدف باق بقاء الحياة، فالجهاد باب من أبواب الدعوة، والقتال لإزالة الحواجز التي تقف في وجه هذه الدعوة وتمنع وصولها إلى الناس، هو آخر درجاتها وأعلى مستوياتها، فالمسلم يقدم نفسه للموت وهو أغلى ما في الإنسان، وهذه أعلى درجات الإيمان[٦] هذا هو الإسلام.

أما النصرانية فلنقرأ بعض أقوالها في هذا الموضوع:

إنجيل متى: يقول (لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما على الأرض ما جئت لألقي سلاما بل سيفا)[٧]، وقال البابا أنوثان الثالث: في مصادرة أموال الذين يخالفون العقيدة من الكاثوليكيين (لا يجوز أن يترك لأولاد الجاحدين سوى الحياة

---

(١) سورة الإسراء جزء الآية رقم ٧٠.
(٢) سورة الأنفال جزء الآية رقم ٣٩.
(٣) سورة المائدة جزء الآية رقم ٩٩.
(٤) سبق توثيقها.
(٥) علي أحمد الكافوري غزوة بدر في قضايا معاصرة، الزهراء للإعلام العربي ط١٩٩٠/١م.
(٦) د/ عبد الغفار عزيز، الخطابة الدينية بين النظرية والتطبيق، موسسة الوفاء للطباعة، بدون رقم للطبعة، سنة ١٩٨٢ – ص٤٥٩.
(٧) متى – الإنجيل إصحاح ٣٤١١٠.

وترك الحياة لهم منّ وإحسان)[1] فلم يقصر الجزاء على الجاحدين بل عداه إلى أولادهم، «وإن من يتأمل أحوال الدولة الرومانية – مثلاً – ليتملكه العجب والاستغراب لماذا ؟ لأن الدولة ضنت على من يعتنقون مذهباً غير مذهبها بحق الحياة الكريمة، فقد كان الرومان – بشيء من التجوز – كاثوليك، وكان المصريون أرثوذكس، وأبى "هرقل" أن يعطي المصريين الحق في أن يحيوا على مذهبهم هذا، وصب عليهم جام غضبه، وأصدر أوامر مشددة بالاضهاد والعسف، وهرب البطريرك المصري من وجه السلطة الرومانية، وأما أخوه – وكان رجلاً بدينا – فقد حرق، حتى قيل سال دُهنه على جوانبه، ثم أبى أن يترك معتقده فرموا به في البحر الأبيض، فمات غريقاً بعد أن حرق !! »[2].

أين هذا مما جاء به الإسلام على لسان نبيه محمد ﷺ في القرآن الكريم؟

﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾[3].

وما رواه أبو داود عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال « انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخا فانيا، ولا طفلا صغيرا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين »[4].

وجاء في انجيل متى: (الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض، يكون مربوطا في السماء، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا في السماء) [5].

أين هذا مما قاله الله لرسوله ﷺ حينما دعا على بعض أعدائه **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾**[6] أي ليس لك التصرف في أمر عبادي، بشيء، بل الأمر كله لله ، وهكذا الإسلام: لا يحكم علماء الدين في غيرهم مهما كانوا، كما تفعلون أنتم، ولا يكره أحدا على عقيدة، أو يجبره على مذهب، كما هو شأنكم، فالتحكم في

(١) محمد عبده، الإسلام والنصرانية.
(٢) الشيخ محمد الغزالي، محاضرات الشيخ الغزالي ص١٩٥.
(٣)سورة النجم آيات ٣٨و ٣٩و ٤٠.
(٤) الإمام أبي سفيان بن الأشعث السجستاني الأزدي، سنن أبي داود نشر وتوزيع محمد علي موسى بحمص، ج١ ص٤٠٨.
(٥) متى – الإنجيل اصحاح ١٨/١٨.
(٦) سورة آل عمران جزء الآية رقم ١٢٨

عقائد الناس وإكراههم في الدين، عند النصارى لا عند المسلمين وهذا هو الدليل:

١. أصدرت محكمة التفتيش في ٣٠/ ٣/ ١٤٩٢م أمرا: بأن كل يهودي لم يقبل المعمودية في أي سن كان، يجب أن يترك بلاد أسبانيا قبل شهر يوليو ومن رجع منهم إلى هذه البلاد عوقب بالقتل.

٢. عاهد فردناند العرب على منحهم حرية الدين، واللغة، بعد أن انتصر عليهم ١٤٩٢م ولكنها لم تحل سنة ١٤٩٩م حتى حل بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب الذي دام قرونا و لم ينتهي إلا بطردهم من أسبانيا.

٣. بل إن الراهب التقي أوكردينال طليطلة الذي كان رئيسا لمحاكم التفتيش نصح بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالا ونساء وشيوخا، و لم ير الراهب الدومنبكي (ببلدا) الكفاية في ذلك، فأشار بضرب رقاب من تنصروا من العرب، ومن بقوا على دينهم، لأنه من المستحيل معرفة الصادقين من الكاذبين في تنصرهم، فمن المستحب إذاً قتل جميع العرب بحد السيف ليحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى (١).

٤. وفي الحروب الصليبية استولى الغرب على الأراضي المقدسة، وتم انتخاب «جود فروي» دوق لورين وقائد الحملة، ملكا على أورشليم، بعد ظهر يوم الجمعة ١٥ يوليو ١٠٩٩، في مشهد تاريخي رهيب يقول عنه جتيون (إن خدام رب المسيحيين "رأوا باعتقادهم الأعمى" أن يكرموه بذبح سبعين ألفا من المسلمين تعظيما وإجلالا وقربانا له استمرت المذبحة ثلاثة أيام) (٢). **وبعد تسعين سنة من مجزرة القدس هذه:**

فتحها صلاح الدين فماذا فعل ؟ لقد كان فيها ما يزيد على مائة ألف غربي بذل لهم الأمان على أنفسهم، وأموالهم، فخرج منهم أربعة وثمانون ألفا، لقاء مبلغ زهيد يدفعه القادرون، وأطلق كثيرا من الفقراء من غير فدية، وأدى أخوه الملك

---

(١٨) جوستاف لوبون، حضارة العرب ص٣٣٤ نقلا عن د/ محمد جمعة عبد الله رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم،ص٢٣٤، ط١ سنة ١٩٨٥م.

(١٩) من الحروب الصليبية إلى حرب السويس (محمد علي الغتيت) نقلا عن د/ محمد جمعة عبد الله، رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم ص٢٣٦.

العادل الفدية عن ألف رجل منهم (١).

وهكذا كان المسلمون رحماء لا يمثلون بالقتلى، ولا يخربون العمران، ولا يجبرون أحدا على نبذ دينه واعتناق الإسلام.

أما إذا انتقلنا إلى **الجزية** التي يرى أعداء الإسلام في مجرد ذكرها لون من ألوان القهر والتهديد وإجبار الآخرين على ترك دينهم فنرى: أن الشريعة الإسلامية عندما فرضت على أهل الذمة دفع الجزية لم تفرضها عقابا لهم على عدم اعتناقهم الإسلام، بل كانت – وبخلاف أقوال المستشرقين – ضريبة عادلة تماما في كل صورها، فالحياة في كل مجتمع وفي كل عصر يقوم على أساس الحقوق والواجبات، وقد تمتع أهل الذمة في مقابل دفعهم الجزية بالمرافق العامة مع المسلمين، كالقضاء، والشرطة، والطرقات والجسور، ومشاريع الري ... الخ تلك المرافق التي تحتاج إلى نفقات كثيرة يدفع المسلمون قسطها الأكبر، ويسهم أهل الكتاب بالجزية في تكاليف هذه المرافق (٢).

ويقوم المسلمون أيضا بالدفاع عن أهل الذمة وإعفائهم من حمل السلاح، فهي مفروضة على القادرين من الذكور، مقابل الخدمة العسكرية، وعلى الرغم من ذلك فثمة أحوال تكشف بجلاء عن قمة العدل ومبلغ التسامح الإسلامي في جباية (الجزية) من غير المسلمين، إذ كانت كما تقدم، لا تجبى إلا من الذكور، القادرين على الكسب، والعمل، ولا تجبى من النساء، والصبيان، ولا من الذي يتصدق عليه، وكذلك الشيخ الفقير الفاني، كما أعفى الأعمى، والأعرج، وأعفى المترهبون في الديارات، وأهل الصوامع، الذين يعيشون على الصدقة (٣)، ولكن مع كل ذلك: فلم تسلم الجزية من طعن المستشرقين إذ جعلوها دليلا على الظلم والقهر والاضطهاد وعلى حد تعبير صاحب الهلال (إن الموعظة الحسنة لا حاجة معها لذكر الجزية التي تنطوي على الترغيب والتهديد ؟؟؟).

---

(١) د/ مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا .
(٢) د/ أحمد شلبي، مقارنة الأديان، مكتبة النهضة المصرية طبعة..، سنة ١٩٧٨م ص٢٥٢.
(٣) السيد أحمد المخزنجي، العدل والتسامح الإسلامي، رابطة العالم الإسلامي، سلسلة دعوة الحق عدد رقم ٦٧ صادر في شوال ١٤٠٧هـ ص٧٤.

وهذا يقتضي إظهار عدد من الحقائق:

أ- يعلن الإسلام من نفسه رسالة عالمية للبشر كافة فلم يبعث محمد ﷺ رسولا لقريش فقط، كما جاء المسيح لهداية خراف بني إسرائيل الضالة، ولكن ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1]. وتبعا لنظرة الإسلام للإنسانية فإنه يريد الخير للبشرية كلها، ولكنه في الوقت نفسه لا يحاول قسر الناس على اتباعه، بأي وسيلة من الوسائل، ومن باب أولى، وسيلة القهر المادي، فلا يجعلها سببا لحمل الناس على اعتناقه، و لم يضق ذرعا باختلاف الناس في المنهج والعقيدة، بل اعتبر هذا غرضا من أغراض الإرادة العليا، وتبعا لهذه الفكرة، فلا يبت الإسلام الصلة بينه وبين من لا يؤمنون به، ما داموا لا يحاربونه ولا يمنعون دعوته أن تبلغ للناس، بل - يفتح للداخلين في سلطانه - من غير المسلمين، مجال الحياة كاملا، ويفسح لمن لا سلطان له عليهم، مجال التعاون العالمي في الخير والصلاح، ويكفي في دحض شبهة المستشرقين وأذنابهم والتي تعتبر الجزية وسيلة للإرهاب ما قرره (الفرد بتلر) عن الحكم الروماني في مصر مثلا يقول (إن حكومة مصر الرومانية لم يكن لها إلا غرض واحد هو ابتزاز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين الذي اعتمد حكمهم على القسوة وعدم العطف [2].

و لم يكن فيه من معنى الإنسانية شيء يذكر، على أن الجزية في الإسلام تمتاز عما كانت عليه في ظل النظم الرومانية والفارسية الأخرى إذ نقلها الإسلام إلى معنى إنساني كريم، فجعلها ثمنا لحماية أعراض المغلوبين وأموالهم ودمائهم وعقائدهم وتعويضا عن عدم اشتراكهم في الحروب الإسلامية، وتُعيَّنُ بمقدار حالتهم الاقتصادية، فترتفع على الموسرين، وتقل على الفقراء، ويعفى منها الذين لا معاش لهم أو هم عالة على غيرهم [3].

بل إن الذمي المعاهد إن رضي أن يدخل الجيش الإسلامي، ويقاتل في صفوف المسلمين، ترفع عنه الجزية أيضا، وقد فعل ذلك الصحابي الجليل سيدنا أبو عبيدة

(١) سورة الأنبياء الآية رقم ١٠٧.
(٢) أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة شباب الأزهر .... ص٦٧.
(٣) د/ شوقي أبو خليل، الإسلام في قفص الاتهام، ص١٤٩.

بن الجراح بفلسطين، وأكثر من ذلك أن نظام التكافل الاجتماعي الذي جاء به الإسلام كان يمد مظلته فيشمل بالكفالة الاجتماعية غير القادرين على الكسب سواء كانوا أطفالا أم مرضى أم عجزة، أم شيوخا، وهو يفرض لهؤلاء جميعا ما يكفيهم، دون نظر إلى جنسهم أو لونهم ودون النظر إلى ديانتهم [١].

ب- كما سجل التاريخ الإسلامي بالفخار مواقف لفقهاء أعلام انتصروا لغير المسلمين من الحكام أنفسهم ومن أبرز المواقف التطبيقية في ذلك موقف شيخ الإسلام بن تيمية (حينما تغلب التتار على الشام وذهب ليكلم (قطلوشاه) في الأسرى، فسمح القائد التتري للشيخ بإطلاق أسرى المسلمين، وأبى أن يسمح له بإطلاق أسرى أهل الذمة، فما كان من شيخ الإسلام إلا أن قال له لابد من افتكاك جميع الأسارى من اليهود والنصارى، فهم أهل ذمتنا، ولا ندع لكم أسيرا من أهل الذمة أو الملة، فأطلقهم له) [٢].

وإلى هؤلاء المستشرقين والمستغربين ومن شايعهم، في الترويج أو الترديد لتلك التهمة المفتراة - ويريدون أن يعرفوا فضل الإسلام على الناس كافة، أقول عليكم أن ترجعوا متصفحين (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) وانظروا أين حقوق المسلمين أو حقوق الأقليات المسلمة فيه ؟ أين تلك الحقوق وموقعها على خريطة الدولة التي تديرها حكومات نصرانية متعصبة أو شيوعية أو هندوسية .... الخ، أين هم من المشردين والمضطهدين في فلسطين - كشمير - البوسنة - الشيشان ... !؟.

وهاهي الحبشة وما يعانيها سكانها المسلمون من الفتن والاضطهاد وإهدار الحقوق، مع أن غالبيتهم من المسلمين، ألا فلتعلموا أن الإسلام ما قام ولا انتشر إلا بحب الخير للجميع.

وفي نهاية الحديث عن تلك التهمة الممجوجة التي يطيرها أعداء الإسلام في كل زمان ومكان، وبعد مناقشتها وبيان تهافتها، وافتقادها أوهى دليل يسندها، فإننا مع

---

(١) سيد قطب، نحو مجتمع إسلامي، دار الشروق - ط٢ سنة ١٩٧٥ ص١٠٦.
(٢) د/ يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، مكتبة وهبة، ط١ سنة ١٩٧٧م ص٣٠.

ذلك نسجل شهادات بعض المنصفين من الأوربيين الذين أنطق الله بالحق ألسنتهم (والفضل ما شهدت به الأعداء) فلقد اعترف عدد غير قليل من هؤلاء المستشرقين الغربيين بعدل الإسلام وسماحته يقول توماس أرنولد [1]: (إن محمدا قد عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم في أمن وطمأنينة، وكانت رسالته إلى رهبان دير سانت كاترين بجبل سيناء دليلا ناصعا على تسامح الحكومة الإسلامية الوليدة في معاملة رعاياها من غير المسلمين مهما كان دينهم[2]).

(... لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي قضى بها فردوايزابيلا على دين الإسلام في أسبانيا) [3].

العلامة دريبر: يقول (إن المسلمين ما كانوا يتقاضون من مقهوريهم إلا شيئا ضئيلا من المال لا يقارن بما كانت تتقاضاه منهم حكوماتهم الوطنية) [4].

وتكلمت لورا فيشيا فاغليري [5]: عن المعاهدات التي وقعها المسلمين مع الذميين قائلة (... منحت تلك الشعوب حرية الاحتفاظ بأديانها القديمة شرط أن يدفع الذين لا يرضون الإسلام دينا، ضريبة عادلة إلى الحكومة تعرف بالجزية، لقد كانت هذه الضريبة أخف من الضرائب التي كان المسلمون ملزمين بدفعها إلى

---

(١) سير توماس أرنولد (١٨٦٤-١٩٣٠م) :Sir Tomas Arnold من كبار المستشرقين البريطانيين صاحب فكرة كتاب (تراث الإسلام) الذي أسهم فيه عدد من مشاهير البحث والاستشراق الغربي، وقد أشرف على تنسيقه وإخراجه، قضى عدة سنوات في الهند أستاذا للفلسفة بجامعة عليكرة الإسلامية، ذاع صيته بكتابيه (الدعوة إلى الإسلام) و (الخلافة).

(٢) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، نقلا عن السيد المخزنجي، العدل والتسامح، ص١٠١.

(٣) السابق ص٩٨.

(٤) عفيفي طبارة، روح الدين الإسلامي ص٣٩٢.

(٥) لورا فيشيا فاغليري : Lreccia Vaglieri باحثة إيطالية معاصرة انصرفت إلى التاريخ الإسلامي قديما وحديثا وإلى فقه العربية وآدابها، من آثارها (قواعد العربية) جزءين (١٩٣٧-١٩٤١م) (الإسلام) (١٩٤٦م) (دفاع عن الإسلام) (١٩٥٢م) والعديد من الدراسات في المجلات الاستشراقية المعروفة - نقلا عن د. عماد الدين خليل، قالوا عن الإسلام ط ١٩٩٢م، مهموشة ص٧٥.

حكوماتهم نفسها، ومقابل ذلك منح أولئك الرعايا (المعروفون بأهل الذمة) حماية لا تختلف في شيء عن تلك التي تمتعت بها الجماعة الإسلامية نفسها، ولما كانت أعمال الرسل والخلفاء الراشدين قد أصبحت فيما بعد قانونا يتبعه المسلمون فليس من الغلو أن تصر على أن الإسلام لم يكتف بالدعوة إلى التسامح جزءا من شريعته الدينية) [1].

بعد كل ما تقدم تسقط تلك الدعوى الزائفة التي نشرتها وأفسحت مجلة الهلال لها مكانا على صفحاتها.

(١) د/ شوقي أبو خليل، الإسلام في قفص الاتهام، ص١٥٤.

المبحث الثاني

شبهة إحراق المسلمين مكتبة الإسكندرية
عرض ونقد

في سعي جرجي زيدان الدؤوب لطمس معالم الخير في مسيرة الإسلام الخالدة، فيحاول في هذه الشبهة، تقديم الجيل الأول من خير القرون بأنهم كانوا من أنصار الجهل ومحاربة العلوم وإبادتها.

فيقول: **هذا هو خليفتهم الراشد عمر بن الخطاب، رمز الحق والعدل في التاريخ الإسلامي، وأعدل حاكم عرفته مسيرة الإسلام المباركة بعد النبي ﷺ يأمر عامله على مصر – الصحابي الجليل – عمرو بن العاص – بحرق مكتبة الإسكندرية حينما وقعت تحت أيدي المسلمين.**

وقد تناول هذه القضية في ثلاثة أعداد من مجلة الهلال على النحو التالي:

ففي العدد الأول [1] نراه يعرض القضية كما يلي:

١- أوردت رأي المؤرخين الإفرنج: أن المكتبة أحرقها عمرو بن العاص بمشورة ابن الخطاب.

٢- كما أوردت رأي مؤرخي المسلمين: بتبرئة الخليفة عمر (عن هذه الفعلة الشنعاء.

٣- رأيها الخاص – المجلة – يقول جرجي زيدان – وقد أبديناه في كتابنا تاريخ مصر [2] الحديث وأجللنا الإمام عمرو بن العاص عن ذلك (ولم يثبت على هذا – بل رجع فنقضه).

٤- غير أن المسألة كانت لا تزال تحتاج إلى زيادة البحث والتدقيق فنهض

---

(١) مجلة الهلال السنة الثالثة العدد الصادر في ١/ ١٠/ ١٨٩٣م.

(٢) والحقيقة أنه لم يدفع التهمة عن سيدنا عمرو بن العاص في كتابه هذا – كما يدعي – فقط أورد آراء كتبة الافرنج – على حد تعبيره – ثم قال ما نصه (أما كتبة العرب فإنهم ينزهون الخليفة عمر عن هذه الفعلة الشنعاء، وربما كان الأقرب إلى الصواب أن هذه المكتبة ومكتبة أخرى كانت بالإسكندرية قبلها، ذهبتا فريسة النار، في عهد البطالمة، و لم يبق منها شيء إلى الفتح الإسلامي ، تاريخ مصر الحديث، مجلد ٩ من مؤلفات جرجي زيدان ص١٢١، دار الجيل للنشر والتوزيع بيروت ط بدون رقم، سنة ١٩٨٢م.

حضرة صديقنا العلامة شبلي النعماني، لوضع كتاب في هذا الموضوع، أثبت فيه بطلان هذا الإدعاء المنسوب، إلى الإمام عمر - ونحن نشكره على هذه الخدمة.

وفي العدد الثاني - لتناول هذه القضية - بعد ست سنوات كاملة [1]. رأيناه يقدم ملخصا لما جاء في العدد الإول بنفس الإجابة السابقة مما يعني أن ست سنوات كاملة مرت عليه - وهو الباحث المدقق كما يقدم نفسه ويقدمه أتباعه - لم تغير من نظرته إلى الإمر.

ولكنه ما إن جاء العدد الإخير [2] - لتناول القضية - الصادر في السنة العشرين من عمر المجلة حتى فاجأنا بتغير موقفه على النحو التالي: يقول:

١- إنني ذكرت فتح الإسكندرية في الطبعة الإولى من كتابي تاريخ مصر الحديث، وكذلك في تاريخ التمدن الإسلامي [3] - وفي كلا الكتابين، حاربنا كتبة الإفرنج في إنكار ما رواه المؤرخون - والحق أنه لم يحارب لكنه أورد الإراء - عن إحراق مكتبتها على يد عمرو بن العاص بأمر عمر بن الخطاب.

٢- لكننا رأينا أرباب الإقلام في مصر والشام عادوا لبحث هذا الموضوع وفيهم من يصر على إنكار ذلك، رغبة في تنزيه الإمام عمر عن هذه الفعلة.

٣- فرأينا أن نعيد النظر في هذا الموضوع فإننا نعتقد [**ولست أدري إذا كانت تلك عقيدته فلماذا خبأها في داخله ثمانية عشر عاما منذ أول عدد طرح فيه هذه القضية ؟!]**.

يقول فإننا نعتقد أن إحراق مكتبة الإسكندرية، إذا ثبت وقوعه بأمر عمر بن الخطاب لا يحط من قدره، ولا يناقض ما عرف من مناقبه - فإحراق الكتب كان معروفا عند الساسة القدماء ومن ضروريات الفتح، ثم ساق عدة أمثلة للتدليل على ذلك:

---

(١) مجلة الهلال العدد الصادر في ١/ ٦/ ١٨٩٩.
(٢) هذا العدد صادر في ١/ ١٠/ ١٩١١ س٢٠ ج١.
(٣) المجلد الحادي عشر من المؤلفات الكاملة لجرجي زيدان دار الجيل بيروت ص٦٣٥.

منهـا ما فعلـه هولاكو التتري ببغداد سـنة ٦٥٦هـ بإلقـاء الكتب في نهر دجلة، وما فعله الإفرنج عند فتح طرابلس الشام، في أثناء الحروب الصليبية، وكذلك هدم الهيكل بيد عمال قياصرة الروم عندما انتصروا ...

تعليـق: وهكذا يظهر لك عزيـزي القارئ أن جرجي زيـدان في آخر رأي له في هذه القضية لم يـبرئ ساحة خليفة رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، بل سواه بجبابرة الأرض من أمثال هولاكو، وعمال قياصرة الروم ؟ !

مناقشـة شـبهة إحراق مكتبـة الإسـكندرية بأمر أمـير المؤمنين عمر بن الخطاب:

وكـأن جرجي زيدان عز عليـه مخالفـة مغرضي المستشـرقين في قذفهم رجالات الإسلام، ورموزه، بكل تهمة باطلة - فأبى إلا أن يسير خلف هواه - الذي يترسم خطاهم، في رمي المسـلمين بكل خصائص الجهل والخرافة ومحاربة العلم. فقد ناقش هذه القضية كثير من المستشرقين أمثال:

جون، وبتـلر، وسـيد يولوث، وغـيرهم. لكنهـم لم يجزموا فيهـا برأي وارتـاب بعضهم في صحـة تهمة إحراق هذه المكتبـة التي وجهت إلى عمرو بن العاص **ويجزم د. غوسـتاف لوبـون بخرافـة القصـة فيقول:** (وأمـا إحـراق مكتبـة الإسـكدرية المزعوم، فمن الإعمال الهمجية الـتي تأباها عادات العرب المسلمين، والتي تجعل المرء يسـأل: كيف جـازت هذه القصـة على بعض العلمـاء الإعلام زمنـا طويلا ؟! ولا شيء أسهل لدينا من أن تثبت بمـا لدينا من الإدلة الواضحة، أن النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الإسكندرية قبل الفتح الإسلامي) [1].

تعليق: ولست أدري كيـف جازت أيضا تلك التهمـة على جرجى زيدان وهو صاحب الموسـوعة الكاملـة التي تعرض فيهـا لكل صغـير وكبـير، في حيـاة العرب والمسـلمين، أمـا قرأ هذا الكلام لواحـد من أعلام المستشـرقين أم أنـه أهملـه لأنه لا يوافق هواه ؟.

(١) حضارة العرب - غوستاف لوبون ص١٢٣ نقلا عن شوقي أبو خليل، الإسلام في قفص الاتهام.

كما أن هذه القضية لم ترو في كتب الإقدمين كاليعقوبي، والبلاذري وابن عبد الحكم، والكندي [*] ولا في تاريخ الإسلام من جاء بعدهم وأخذ عنهم كالمقريزي، والسيوطي، وغيرهم.

وأول من نسب الحريق إلى **عمرو بن العاص**: هو عبد اللطيف البغدادي (٦٢٩هـ/١٢٣١م) ومن بعده بن القفطي (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) ثم أوردها أبو الفرج غريوس الملطي (٦٨٥هـ/١٢٨٦م) دون ذكر السند الذي استقوا منه هذه القضية، ونقلوها عنه.

أدلة الاتهام:

يقدم القائلون باتهام عمر بن الخطاب ﷺ عدة حيثيات لهذا الاتهام على النحو التالي:

١- أن المسلمين كانت لهم رغبة عظيمة في محو كل كتاب غير القرآن والسنة، وهذا ما ذهب إليه جرجى زيدان في قوله أنه من عادة الفاتحين.

٢- أن رواية الحريق لم يروها أبو الفرج فقط، بل رواها أيضا مؤرخان مسلمان هما البغدادي، وابن القفطي.

٣- أحرق الفاتحون كتب الفرس كما ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون.

٤- أن إحراق الكتب كان أمرا معروفا وشائعا، يتشفى به كل مخالف بمن خالف رأيه، وهذا ما ذهب إليه - جرجى زيدان - في الهلال كما فعل هولاكو التتري ٦٥٦هـ بإلقاء خزائن الكتب في دجلة. وقد قام صاحب كتاب الإسلام في قفص الاتهام [1].

(*) الكندي: أبو عمر محمد (٨٩٦-٩٦١) مؤرخ مصري استقل بالحديث وعنى بتاريخ مصر، له كتاب الولاة والقضاة (وسميه ولاة مصر).

(١) د. شوقي أبو خليل ص٢١٨، ٢١٩.

رواية أبو الفرج عن كيفية الحريق على يد عمرو بن العاص يقول:

كان في وقت الفتح - رجل اكتسب شهرة عظيمة عند المسلمين يسمى يوحنا النحوي، كان قسيسا من أهل الإسكندرية واشتهر بين المسلمين (بيحي) وكان يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية، ثم رجع عما يعتقده النصارى في التثليث، فاجتمع الأساقفة بمصر، وسألوه الرجوع عما هو عليه، فلم يرجع فأسقطوه من منزلته وعاش إلى الفتح - فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية - ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم، فأكرمه عمرو - وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها معرفة ففتن به. =

بمناقشة الأدلة المتقدمة على الوجه التالي:

١- الدليل الإول: غير مسلم به لأن المعروف من أخلاق المسلمين أنهم كانوا يشجعون العلم، بدليل ما ذكره أبو الفرج من أن عمرو بن العاص، كان يصغي إلى أقوال يوحنا النحوي - كأقرب مثال - ولأن الأدلة أكثر من أن تحصى.

٢- الدليل الثاني: الرواة الثلاثة عاشوا في عصر واحد وروايتهم واحدة تقريبا، ولا يبعد أن يكونوا قد أخذوا عن مصدر ضائع، معاد للعرب والإسلام.

٣- الدليل الثالث: لم نر من المؤرخين من ذكره إلا حاجي خليفة، ومثله لا يؤخذ بكلامه ولا يعول عليه، في المسائل المتقدمة، لأنه توفي سنة ١٦٥٧م/ ١٠٦٧هـ فلو أن المسلمين أحرقوا هذه المكتبات لذكره المؤرخون المتقدمون على حاجي خليفة.

٤- الدليل الرابع: لا يثبت دعواهم لأنه لا يمكن بحال أن يقاس هولاكو - السفاح - بعمر بن الخطاب ولا من جاء يحصد الحضارات بمن جاء ينشر الحضارة في العالم.

ولبعض الباحثين إضافات أخرى في مناقشة هذه الرواية من ناحية المتن، يجدر بنا إثباتها هنا بعد أن سقطت الرواية من ناحية سندها.

وقبل أن أورد تعليقات الباحثين على متن الرواية ومناقشتها أجد من تمام العرض أن أبادر بتسجيل الرواية بنصها حتى تكون المناقشة واضحة جلية: ويلاحظ على هذه الرواية من ناحية المتن عدة ملاحظات:

١- أنها أشبه بالخرافة فقد ذكر فيها ابن العبري أن كتب المكتبة كفت (غطت

=وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع، صحيح الفكر، فلازمه وكان لا يفارقه، ثم قال له (يحى) يوما (إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية، وحجبت على كل الأشياء الموجودة بها فمالك به انتفاع فلا أعارضك فيه، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به، فقال عمرو وما الذي تحتاج إليه ؟

قال: كتب الحكمة التي في خزائن الملوكية.

فقال له عمرو: لا يمكنني أن آمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين وكتب إليه فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: (وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففيه غنى، وإن كان فيه ما يخالف فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها، فشرع عمرو في تقديمها - أو تفريقها على حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقدها فاستنفدت في ستة أشهر. فاسمع وتعجب!.

احتياجات) (٤٠٠٠ حمام) عدد حمامات الإسكندرية لمدة[1] ستة أشهر وهذا غير معقول! فضلا عن أن عمرا لو قصد تدمير المكتبة لآحرقها في الحال ولم يتركها تحت رحمة أصحاب الحمامات، وإلا لتمكن يوحنا النحوي الذي بنى بن القفطي روايته عليه من أخذ ما يلزمه من هذه الكتب بثمن بخس، ولتسرب قسم كبير من الكتب ليظهر فيما بعد.

٢- كما ذكر بتلر: أن يوحنا هذا مات قبل الفتح الإسلامي لمصر بـ٣٠ أو ٤٠ سنة[2].

٣- لو كانت هذه الرواية صحيحة لتعرض لها المتقدمون من قريب أو بعيد.

٤- هذه المكتبة أصابها الحريق مرتين الإولى سنة ٤٨ق.م على أثر إحراق أسطول يوليوس، والثانية في عهد القيصر تيودومس ٧٣٨/٣٩٥ وذلك سنة ٣٩١م هذه الحكاية على منوال الحريقين.

٥- التعاليم الإسلامية تخالف رواية القصة، لأنها تحترم الكتب الدينية اليهودية والمسيحية - لأنه لا يجوز أن ينتفع بها المسلمون.

٦- لو فرض بقاء هذه المكتبة إلى الفتح الإسلامي فما الذي منع من نقلها إلى القسطنطينية، على أيدي الروم في أثناء الهدنة التي عقدت مع المسلمين، فقد أجاز لهم عمر في الصلح أن يحملوا كل ما يقدرون عليه.

٧- أنهى أبو الفرج روايته: بقوله (**فاسمع وتعجب!**) وهذا يعني أن الخبر مدسوس وإنما أراد من روايته تأكيده وجعله واقعيا، بالتعجب من الإفتراء على عمر، وعمرو، أو أنه أراد أن يدعونا إلى إحكام العقل بأنه ليس من الممكن أن يفعل عمر، وعمرو هذا (اسمع واعجب) وهذا ما لا يريده، فكأنما يوحي لنا بكذب الخبر، وإن لم يكن كذلك فلم يقول في نهاية روايته اسمع واعجب ؟!.

---

(١) د/ محمد زيتون، دراسات في تاريخ مصر الإسلامية، دار الوفاء للطباعة سنة ١٩٨٣م ص٢٤.

(٢) محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، ط٣ سنة ١٩٦٨م لجنة التأليف والنشر والترجمة، يقول إن صداقة يوحنا لعمرو باطلة لأن يحى المذكور هذا وسميه اليونان (فيلوبولس) قد كان قبل الفتح الإسلامي بقرن، فبينه وبين فتح الإسكندرية حوالي ٩١ سنة كما حقق ذلك المستشرق د/ يوسف فوزلاي، أستاذ اللغة العربية بالمدرسة الطليانية ببولاق ص٢٣.

أما **العلامة الشيخ شبلي النعماني** فقد عالج نقطة أخرى في هذه القضية ضمنها رده على جرجي زيدان. فلقنه درسا في علم التاريخ وأصوله يقول: **إن فن التاريخ له أصوله ومبادئه – وإن الرواية ما لم تكن مطابقة لهذه الإصول الفنية فلا يلتفت إليها أصلا، فالناقل للرواية لابد أن يكون شهد هذه الواقعة، فإن لم يشهدها فليبين لنا سند الرواية ومصدرها، حتى تتصل الرواية إلى من شهدها بنفسه، ومنها أن يكون رجال السند معروفين بصدقهم وربانيتهم، والإ تخالف الرواية الدراية ومجاري الأحوال،** ولذلك اهتم مؤرخو الإسلام قبل كل شيء، بضبط أسماء الرجال، والبحث عن سيرهم، وأحوالهم، وديانتهم، ومحلهم من الصدق، فدونوا كتب أسماء الرجال،

وأول ما يقابلنا عند تطبيق هذه القواعد على الرواية محل البحث ما يلي:

هل ذكر بن القفطي والبغدادي هذه الرواية مسندة فذكر مصدر الرواية وأسماء رواتها أم لا ؟ وأنت تعلم أنهما من رجال القرن السادس والسابع، فأي عبرة تتعلق برواية في القرن الأول يذكر أنها من غير سند، ولا إحالة على كتاب، أما كتب القدماء الموثوق بها فليس بها أثر لهذه الرواية.

هذا تاريخ الطبري، واليعقوبي، والمعارف لابن قتيبة، وفتوح البلدان للبلاذري، والتاريخ الصغير للبخاري، وثقات بن حبان، والطبقات لابن سعد، ومع أن فتح الإسكندرية مذكور فيها بقضها وقضيضها، فليس لحريق الخزانة فيها ذكر، فضلا عن الكتب الخاصة بفتح مصر: مثل خطط مصر للكندي، كشف المماليك لابن شاهين، تاريخ مصر لأبي بركات النحوي، كل هذه الكتب لم تذكر شيئا عن تلك الواقعة، كما أن مسئلة حرق مكتبة الإسكندرية مهمة جدا عند أهل أوربا، وأطالوا البحث فيها، وحاصل بحثهم أو بحث محققي أهل أوربا، أن الواقعة غير ثابتة أصلا، منهم (جيبون المؤرخ الإنجليزي الشهير، ودبير الإمريكي، وسيديو الفرنسي، وكريل الإلماني) وعمدتهم في الإنكار:

١. الواقعة ليس لها عين ولا أثر في كتب التاريخ الموثوق بها.
٢. عبد اللطيف البغدادي والقفطي لم يذكرا مصدرا لهذه الرواية.

٣. إن الخزانة ضاعت قبل الإسلام (١).

وبعد كل هذه الإدلة الإوضح من الشمس في رابعة النهار التي قدمها العلماء من المسلمين وغير المسلمين على بطلان تهمة إحراق المسلمين للمكتبة فلا يزال فريق الإثبات مصرا على رأيه (ومنهم صاحب مجلة الهلال) لأن هذا العمل مما يحط من رجال الإسلام.

وهذه فرصة قلما تسنح للمتعصبين، حتى يثبتوا أن الرجل الذي يفاخر به المسلمون، هو همجي، ودينه دين الهمجية، ولذلك كانت تنتقل هذه الفرية من الخلف عن السلف، بكل أمانة كأنها حقائق، وكأنهم يشيرون إلى أن هذه الخزانة لو سلمت لغيرت وجه الكون.

أما إذا وقع شيء من هذا من - جماعتهم - كحريق الكردينال كسيمنس كتب المسلمين في ساحات غرناطة فإنهم: يحاولون أن يبرئوه من هذه التهمة - ويقللوا من شأن خزائن الكتب التي أحرقتها أسبانيا يوم قضت على العرب في بلادها، ولولا تلك الترجمات إلى العبرية واللاتينية لقضى على الحضارة العربية التي امتد رواقها على أسبانيا ثمانية قرون.

فلا نذكر أننا قرأنا لبعض النقاد الغربيين نبذه وتقبيحه ما فعله الصليبيون يوم غارتهم على طرابلس ويوم أمر صنجيل بإحراق كتب دار العلم فيها وكانت تقدر بأكثر من مائة ألف مجلد (٢).

وأخيرا: فإن النتيجة التي ينبغي أن ننتبه إليها، أنه مهما روج المتعصبون، والمغرضون، ومهما ألصقوا بهذا الدين من تهم، فالفيصل هو التاريخ ووقائعه، وإننا لو سألنا التاريخ الإسلامي الطويل المفعم بعظائم الأمور، وجلائل الوقائع والأحداث، لم يحدثنا مرة واحدة أن الإسلام قد حاول أدنى محاولة، أن يحطم مدنية من المدنيات لأية أمة من الأمم التي فتحها، ووضعها تحت إمرته، وأخضعها لرايته، وإنما كان دائما يصيغها بصيغته، ثم يهضمها، ويحولها إلى غذاء صالح، يفيد

(١) أنور الجندي، مقدمات العلوم والمناهج، دار الأنصار للنشر والتوزيع ط١ ص٣٩٢، ٣٩٣ سنة ١٩٧٩م.
(٢) محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية ج١ ص٢٥.

أصحابه، وأتباعه، في دنياهم أو ينبههم إلى ذكرى تنفعهم في أخراهم، **ولا ريب أن هذا الاتهـام البعيد عن الحقيقة بعد العدم عن الوجود، إما أنه ناشئ عن سوء الفهم، وهذا ما نستبعده في حالة جرجي زيدان لأنه لم يضع نفسه في موقع الجاهل، بل قدم من نفسه رجلا موسوعيا يؤلف واحدا وعشرين مجلدا في تاريخ العرب وآدابهم وعلومهم.**

والأغلب أنه شرر متطاير من نار الحقد، والحفيظة، وسوء النية، واسوداد الطوية.

وفي النهاية فقد يرد اعتراض أخير على موقف المسلمين من العلوم الأجنبية[1] مستدلا بما كتبه عدد من علماء المسلمين كحجة الإسلام الغزالي، وأمثاله، إذ أنهم حملوا على بعض المعارف الأجنبية وكتبوا فيها فصولا لاذعة، **فهذا اعتراض واه:** بل لا موضع له، لأن أكثر ما ورد من التحفظات كان متجها إلى ما خالف لب الإسلام من الآراء العقلية، والنظريات الفلسفية، ومنشؤه: أن أولئك العلماء قد رأوا أن الكافة من المسلمين لم يتحصنوا بالقدر الكافي ضد ما قد يصادفونه في هذه الفروع العلمية، من شبه في تعاليم دينهم، أو مشكلات في عقيدتهم فلم يطمئنوا إلى زيوع هذه المعارف بين جماهير الأمة الإسلامية، و لم يأمنوا عافية تغلغلها في عقولهم.

فهذا الاجتهاد من أولئكم العلماء ما دفعهم إليه إلا تيقنهم من أن السواد الأعظم من المسلمين، غير محصنين تحصينا عميقا بالإسلام، ولكن **الأصل الذي يتجه إليه الإسلام ويرسخه في جميع عصوره هو الحض على اقتطاف زهور العلم والمعرفة أيا كانت الأرض التي نبتت فيها أشجارهما بشرط أن يهضمها ولا يدعها تتحكم فيه.**

---

(١) د/ محمد غلاب، هذا هو الإسلام، بدون رقم للطبعة ص٢٣ سنة ١٩٥٩.

المبحث الثالث

موقف جرجى زيدان من الفكر الاستشراقي
مارجليوث نموذجا

الهدف من هذا البحث:

تقديم نموذج عملي على موقف جرجى زيدان من أفكار المستشرقين وتبنيه لاختياراتهم العلمية الفاسدة، التي تفتقد لأدنى قواعد المنطق والموضوعية والنزاهة العلمية وبادئ ذي بدء أبادر إلى القول بأنني ل أحمل موقفا عدائيا للاستشراق في حد ذاته، وذلك لتباين الآراء والاتجاهات حول هذا الموضوع في العالم العربي والإسلامي، فهناك **(١)** من يؤيده ويتحمس له إلى أبعد الحدود، وهناك **(٢)** من يرفضه جملة وتفصيلا، وبين الاتجاهين نشأ **(٣)** اتجاه ثالث يحاول أن يكون لنفسه رؤية موضوعية عن الاستشراق وأهدافه وأعماله ومنشوراته العلمية - فينقد ما يراه سلبيا من وجهة النظر الإسلامية ولا ينسى في الوقت نفسه أن يذكر الإيجابيات التي تذكر للاستشراق في المجالات العلمية المتعلقة بالدراسات العربية والإسلامية.

وهذا الاتجاه: هو ما عبر عنه بالاتجاه الإسلامي الحقيقي لاتفاقه مع ما يطلبه الإسلام انطلاقا من قول الحق سبحانه ﴿**بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا ...**﴾[1] وأيا كان الأمر فينبغي أن نتذكر دائما الحقيقة التي لا مناص من الاعتراف بها، وهي **أن نتاج المستشرقين الذي ملأ الساحة الفكرية، والأكاديمية، طوال القرن الماضي والذي** لا يزال يملأ الساحة بدرجة **أو** بأخرى حتى الآن بل ويشكل المرجع والمصدر لكثير من الكتابات في العلوم الإنسانية.

لقد جاء هذا الإنتاج ثمرة لغيابنا العلمي، وتخاذلنا الثقافي، ومواجهاتنا العابثة، حيث اكتفينا بالإدانة والتفاخر، والتعالي بالأصوات والخطب الحماسية، بينما انصرف المستشرقون للإنجاز والانتاج والتصنيع الفكري، والتسويق في بلادنا الخالية من إنتاجنا «لقد نشر المستشرقون وحققوا عددا ضخما من المؤلفات العربية، لا

---

(١) سورة المائدة، آية رقم ٨.

تزال مرجعـا للباحثين والدارسـين مـن الأوربين والعرب أنفسـهم. و لم يكتفوا بالتحقيق والنشر لأمهات الكتب، في السيرة، والتاريخ، وعلوم القرآن، والتراجم، والنحو، والتفسير، بل تجاوزوا ذلك إلى التأليف في الدراسات العربية والإسلامية حتى بلغ عدد ما ألفوه في قرن ونصف منذ أوائل القرن التاسع عشر، حتى منتصف القرن العشـرين، ستين ألف كتاب في التاريخ، والشريعة، وفلسفة، والتصوف، وتـاريخ الأدب، واللغـة العربية [1] فمـاذا فعلنـا نحن إذا مـا قيس إنتاجنـا لتراثنـا بإنتاجهم لتراثنا ؟!.

ونعود إلى موضوع هـذا المبحث وهو موقف مجلة الهلال من الفكر الاستشراقي، وبعد تعامل طويل مع أعمال وكتابات جرجي زيدان وبخاصة مع المجلة، لم أرى فيما عرضته ميلا إلى الانتصاف للحقيقة - ولا أقول الإسلام .. لأنها لا تدين به - ولكن يبدو أن صاحب الهلال آلى على نفسـه، ألا يقترب مـن المنصفين أو يغترف من معينهم.

ونقرأ في هذا المبحث مـا سـجلته مجلـة الهلال في عرضهـا وتقديمها لكتـاب استشـراقي بقلم واحد من غلاة المستشرقين ومتعصبيهم إنه " مرجليوث " وكتابه "محمد وظهور الإسـلام" كيف عرض جرجي زيدان هـذا الكتاب على صفحات مجلتـه وكيف قدمـه إلى جماهـير القراء الذين يعمل على تثقيفهـم وإرشـادهم واستنارتهم وهل كان أميناً معهم ؟.

أولاً: قدمت الموضوع بكلمة عن الشرق والمستشـرقين والأطوار التي مر بها الاستشراق - ثم عرج بعد ذلك - صاحب الهلال على مؤلفات المستشرقين في السيرة النبوية، باعتبارها الأصل الذي يندرج تحتها هذا الكتاب، موضوع العرض والانتقاد - فبينت اشـتغال كبار المستشرقين في القرن التاسـع عشر، من الألمان، والهولنديين، والفرنسيين، وغيرهم في نشر كتب التاريخ والأديان.

كمـا ألف سـيرنجد الفرنسـاوي، والسـير وليم الإنجليزي كـل منهمـا كتابا في

---

(1) د/ عبد العظيم محمود الديب، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، كتاب الأمة رقم ٢٧ ص٢٢ عدد نوفمبر سنة ١٩٩٠م.

السيرة النبوية. كما ألف جولدتسهير [1] ونولدكه [2] وفلهاوزن [3] كتبا أقرب إلى الصواب والدقة، تدبر في هذا كله صديقنا الأستاذ مرجليوث المستشرق الإنجليزي الكبير، واطلع على هذه الكتب المتقدمة واستخرج صحيحه من فاسده. ثم ألف كتابا نفيسا في السيرة النبوية وظهور الإسلام، بحث فيه بحثا فلسفيا واجتماعيا في أحوال العرب قبل الإسلام، والأسباب التي ساعدت على ظهور الدعوة الإسلامية إلى وفاة النبي ﷺ ملتزما الاختصار ومع ذلك بلغت (٥٠٠ صفحة) فكم يكون فيها من فوائد ؟ وشهرة المؤلف وسعة علمه ودقة نظره مما عرفه قراء الهلال.

ثانيا: عرض الكتاب:

ثم بدأ جرجي زيدان في عرض الكتاب على صفحات المجلة (... وتقدم المؤلف إلى سيرة النبي ﷺ فذكر ولادته، وصبوته، وإنه كان عصبي المزاج تنتابه نوبات الصرع وقد نشأ في كفالة عمه أبو طالب بعد وفاة جده عبد المطلب، وبحث بحثا

---

(١) غولدزيهر (Goldziher; y ١٨٥٠م-١٩٢١م) مجري الأصل درس اللغات السامية في بودابست وبرلين وليدن وعمل أستاذا بجامعة بودابست (١٨٧٣م) رحل لسوريا، وفلسطين، ومصر، حيث درس العربية على يد الشيخ محمد عبده، اشتهر بتحقيقه في تاريخ الإسلام، وعلوم المسلمين، وفرقهم، وحركاتهم الفكرية تحقيقا فريدا، من مؤلفاته: اليهود (١٨٧٠م) الإسلام (١٨٨١م) العقيدة والشريعة في الإسلام (١٩٢١م) دراسة عن النبي (١٩١٢م). نقلا عن العقيقي المستشرقون ج٣ ص٩٠٦-٩٠٨.

(٢) تيودور نولدكة (Noldek; Th) ١٨٤٤-١٩١٨م) ألماني ولد بهامبورغ وتعلم اللغات السامية والفارسية والتركية والعربية. عمل أستاذا للتاريخ الإسلامي بجامعة دوتنجن (١٨٦١م) وأستاذ التوراة واللغات السامية في ليتل (١٨٦٤م) من مؤلفاته (تاريخ الشعوب الإسلامية) (هل كان لمحمد معلمون نصارى ؟) عاون شبرنجر (Sprenger) في كتابه (سيرة محمد). العقيقي جرجي زيدان٢ ص٧٣٨.

(٣) يوليوس فلهاوزن (wellhausen) ١٨٤٤-١٩١٨م) ولد في مدينة هاملن في سكسونيا السفلى بالمانيا- درس اللاهوت وعمل مدرسا في ميدان تاريخ العهد القديم منذ ١٨٧٠م- عمل استاذا للاهوت في جامعة هامبورغ، عنى بالدراسات العربية، وله كتابا (بقايا الوثنية العربية) اعتمد فيه على كتاب (الأصنام) للكلبي، وترجم كتاب (المغازي) للواقدي بعنوان (محمد في المدينة) نقلا عن عبد الله محمد الامين- الإستشراق في السيرة النبوية ص٥١١ (١٩٩٧م).

وحكم جرجي زيدان لصالح كتاباته وأنها أقرب إلى الدقة والصواب ليس صحيحا، والدليل على ذلك ما يلي: (١) ادعاؤه أن الإسلام كان تابعا ومقلدا لليهودية، يقول "واعتبرت مكة مركزا للإسلام، ومن هذا الطريق فصل الإسلام عن اليهودية فصلا تاما ونهائيا، وجعله دينا عربيا قوميا" "وحاول محمد أن تظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد، وفي غضون سنوات قليلة أخرج كل الجماعات اليهودية، أو قضى عليها في الواحات المحيطة بالمدينة، والتمس لذلك أسبابا واهية " فلهاوزن: تاريخ الدولة العربية ترجمة عبد الهادي أبي ريدة المقدمة. ويقول" كان محمد في مكة ثائرا على قومه أما في المدينة فقد بلغ ما كان يرمي إليه، ولقد أحدث هذا **تغيرا جوهريا ! لأن المعارضة دائما تتغير عندما تصل إلى الرئاسة** ... فصار الطابع السياسيّ يزداد بروزا، والطابع الديني يزداد تراجعا " **وهكذا يسقط فلهاوزن المنهج العلماني على رسول الله ﷺ !.**

دقيقا في حوادث صبوته، فتبين له: أنه :

(١) عاشـر بعض النصارى، واليهود فاستفاد منهم كثيرا من أقاصيص التوراة واقتبس بعض أساليب التعبير التي لم تكن في العربية مثل (ذاق الموت) (ونفخ الصور) (وفي آذانهم وقر).

(٢) **وحول السبب في قيام النبي ﷺ بدعوته يقول مرجليوث:** إن النبي رأى الأذهان معدة لها فأخذ يدبر الوسائل ويترقب الفرص، حتى بلغ هذا السن فهَمَّ بإظهارها. ثم رأى من الحكمة وسداد الرأي أن يتكتم الأمر.

(٣) وإنه نظر في تعاليم اليهود والنصارى فأخرج منها ما لا يسلّم به العقل.

(٤) **وكان (الله) أحد آلهة الكعبة قبل الإسلام** - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - يزعم مرجليوث أن محمدا وفقه مع إله اليهود والنصارى، وجعل منهما إلهاً واحدا.

(٥) ورسم لنفسه خطة يدعو الناس بها إلى ما رآه الأقرب إلى الصواب، بعد أن أقنع نفسه بصحته [1].

تعليق: بعد كل هذه الأكاذيب السابقة لم نجد ردا واحدا ولو في بضع كلمات، يعقب به جرجى زيدان، الذي يدعي أنه ينتقد الكتاب، ولست أدري والله ما هو الانتقاد الذي يريد المستر جرجى أن يسجله على هذا الكتاب ؟ وأين موطنه أو موضعه ؟ إن لم يكن في هذه **الأكاذيب الخمس السابقة**، ولكن سكوته عنها لا يعني إلا أنه يقرها، ولا يرى فيها على خطورتها وشدة صفاقتها، ما يستوجب الرد أو يستدعي التكذيب فيمر عليها دونما اعتراض، لأنه يتفق مع صديقه مرجليوث عليها - على حد تعبيره - وتنهج المجلة منهجا غاية في الغرابة والدهاء حتى لا ينكشف أمرها، فإنها تورد نقداً بعد ذلك لقصة أخرى، غاية في الركاكة والضعف والتهافت فتقول (حول اتهام النبي ﷺ بقيامه بالدعوة، رغبة في الدنيا) وهذا ما لا نوافقه عليه ! وهذا بدهي بطبيعة الحال.

---

(١) كل ما ورد متعلقا بعرض الشبهة منقول عن مجلة الهلال ص٣٥٧ العدد الصادر في ١/٣/١٩٠٦ السنة الرابعة عشر.

وعن الوسائل التي استعان بها محمد في تأييد مشروعه: يقول مرجليوث: (إنه أنشأ جمعية سرية مستخدما فراسته في انتقاء الرجال فاختار أبو بكر صديقاً لما لمسه فيه من الإنقياد الأعمى أو استخدمه بعد ذلك في نشر الدعوة !!.

ويمضي جرجى زيدان ناقلا عن مرجليوث قوله: (**وكانوا يجتمعون سرا على نحو الاجتماعات الماسونية – برموز يتعارفون بها**) وهكذا نرى: كيف أن ظلال الجمعيات السرية، والإجتماعات الماسونية، تخيم على هذا السياق الذي يتحدث فيه زيدان عن النبي ﷺ، دونما حياء أو خجل ولا احترام لمقامه العالي ﷺ، بل إنه يورد مزية لمرجليوث – على حد تعبيره – أنه رد على من انتقد تكرار بعض الآيات في القرآن ونقض اتهامهم ! بأن بين لهم: (أن ذلك هو أسلوب العظماء إذا أرادوا تنفيذ أمر، ونشر رأي، عمدوا إلى تكرار ذكره، كما يفعل نابليون بونابرت!!)[1].

ولست أدري كيف عميت بصيرة جرجي إلى هذا الحد، إن كان مرجليوث قد حجزه حقده وكراهيته للمسلمين عن رؤية الحقيقة فشبَّهَ النبي الكريم المعصوم من الخطأ المنزه عن العبث، بالكفار والملحدين ومن لا دين لهم ؟ **ولكن جرجي زيدان لا يمكن أن ينسى هواه ومذهبه**، وإلا فأي علاقة تلك التي تجمع بين نابليون – الذي صبغ وجه العالم بالدماء – والنبي الأمين محمد ﷺ الذي أرسله ربه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وتمضي المجلة – لتنقل على لسان مرجليوث – أسباب الهجرة إلى الحبشة على النحو التالي: فيقدم تعليلا حسنا لسبب هذا اللجوء – على حد تعبير جرجى زيدان – ما هي التعليلات الحسنة يا مستر جرجى ؟

(١) نقمة الأحباش على أهل مكة نتيجة لردهم ضد محاولة فتحها بقيادة أبرهة.

(٢) استغل النبي وأصحابه قرب النجاشي من دينهم، ونقمته على القرشيين في توجيه أصحابه إلى الالتجاء له.

(٣) أراد النبي أن يستنصر النجاشي، لعله يأتي بجيش يفتح مكة، ويبطل عبادة

(١) مأخوذ من المرجع السابق بجلة الهلال ص٣٥٨، ٣٥٩ عدد ١/ ٣/ ١٩٠٦م.

الأوثان من الكعبة، وظلوا يذكرونـه بما كان للحبشة من سلطة على اليمن من عهد غير بعيد. لكن النجاشي كان في حرب على الحدود، فأجل الأمر حتى يفرغ[1].

ثـم يعقب – جرجى زيدان – بقولـه: وتعليل الحوادث على هذا النحو وتخريجها على هذه الصورة يجلو عن البصـيرة كثيرا من الشـكوك التي تخامر الذهن المطالع من غير المســلمين إذا قرأ كتب السـيرة !! فلما طـالت مدة إقامـة المهـاجرين بالحبشـة وتهيب القرشــيون من نجـدة الأحباش فضـلا عن عدم ثقــة المسـلمين بنجـاح تلك النجدة، تصـالح الفريقان: على أن يكـف محمدا عن الطعن في آلهـة الكعبـة، ويحسن القول في اللات والعـزى، وآل ذلك إلى مـا ذكـروه من حديـث الغرانيق والرجوع عنـه – وأفـاض المؤلف في إيراد الأدلـة على صحـة تعليلـه ممـا يدل على علم واسـع وبحث طويـل !!)[2] ولســـت أدري أي علـم غزير هـذا الـذي يقـدم مثـل تلك الأكاذيب وهذه الترهات ؟ **ويمضي جرجى زيدان في تقديم كتاب** – مرجليوث – بقوله:

وتكلم المؤلف عن تنظيـم أحوال المدينة ومؤاخاة المسـلمين، وبناء المسجد، حتى تغير النبي على اليهود: وســبب تغيره اعتقـاد اليهود أن النبي سـيأتيهم من فلسـطين يتحـدث بالعبريـة، **يبعث وجوده علـى السـلام**، فلمـا رأوا مـا يخـالف ذلك انقلبوا عليـه، وأخذوا يسعون في نقض دعوتـه، وامتنعوا عن إقراض المال للمسلمين، **فعمد النبي إلى مناوأتهم، بتحويل القبلة إلى الكعبة، فعظم ذلك عليهم**، وازدادوا تباعدا فعزم على إبادتهم ومنع أصحابه من التشبه بهم في شيء من أعمالهم).

تعليق: لاشـك أن هـذا فهم مغلوط للوظيفـة التي كلف بها النبي ﷺ وأنه مبلغ عن رب العالمين، لا يصـدر في أمر ولا نهي ولا كبير ولا صغير إلا بالوحي المعصوم من قبل السـماء، وما كـانت الشـريعة أبدا ردود أفعال، ولا تصفيـة حسـابات بين الأنبياء ومعـارضيهم، وتظهر مغالطـة هذا المستشـرق المتعصب **والذي أيده جرجى**

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مأخوذ من المرجع السابق بحلة الهلال ص٣٥٨، ٣٥٩ عدد ١٩٠٦/٣/١م.

زيدان، حيث عرض لكلماته بلا أدنى تعليق في أكثر المواضع التي تحتاج إلى تعليق لا سيما عندما كان مرجليوث يعرض حقائق الإسلام وتاريخه - بهذا الخبث. كادعاءه أن **سبب تغير النبي على اليهود**: مسألة مادية، لأنهم امتنعوا عن إقراض الأموال للمسلمين، لهذا أراد النبي ﷺ أن ينتقم لأصحابه من تعنت اليهود، فحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وقرر أن يقضي على اليهود وأن يستأصل شوكتهم ويقطع دابرهم. **فهو من جانب**: يكذب على النبي ويتهمه بأنه في شريعته يصدر عن ردود أفعال، **ومن جانب آخر**: يهدد اليهود، ويقدمهم في صورة المظلومين، والمضطهدين، دون ذكر لجرائمهم التي ارتكبوها مع المسلمين، أو تآمرهم على قتل النبي ﷺ مرات، أو نقضهم عهودهم ومواثيقهم مع المسلمين، في أحرج الأوقات، ليضربوهم من الخلف، **وإذا كان السيد مرجليوث** قد تعمد أن يسقط هذه الحقائق لصلة بينه وبين اليهود **فما الذي دفع مجلة الهلال أو الخواجا جرجى زيدان** - الذي يقول عنه د. محمد حسين هيكل (إنه من أكبر كتاب التاريخ في مصر بل لا أبالغ إذا قلت أنه هو الرجل الوحيد، المتفرغ في الوقت الحاضر، لكتابة التاريخ)[1] - إلى السكوت عنها.

مرجليوث: يتهم الرسول وصحابته باللصوصية، والغزو، والنهب لقوافل العرب بغزوة بدر.

وجرجي: يعلق تعليقا ضعيفا لا يتناسب مع قدر هؤلاء الأصحاب، وعفتهم ونزاهتهم، و لم يتحدث عن الأموال والتجارات التي حرم أهل مكة منها أصحاب النبي ﷺ، ولكنه فقط يقول: (إن الغزو كان متعارفا عليه ولا يعد مرتكبه سارقا) - تأمل في سخافة هذا التعليق.

وينهي جرجى زيدان حديثه عن الكتاب وصاحبه بأنه بليغ العبارة مع إيجازها ودقة تعبيرها، بل إنه أفضل ما كتب في هذا الموضوع دقة وتحريا وتنقيبا، وله فيه آراء لم يسبقه إليها أحد.

---

(١) سبق توثيقه.

نتائج هذا المبحث:

وبعد عرض هذا النموذج الذي قدمته مجلة الهلال للدراسات الاستشراقية نخلص إلى عدد من النتائج على النحو التالي:

أولاً: تبين من خلال عرض المجلة لكتاب (محمد وظهور الإسلام) لمرجليوث أنها اختارت مؤلفا لواحد من أعلام المستشرقين، الذين لم يعرف عنهم إنصاف للإسلام وقضاياه، حتى أنه زعم أن هناك قصور في القرآن الكريم [1] فهو من هؤلاء الذين يهاجمون الإسلام والمسلمين هجوما لا مواربة فيه، ولا خداع، فهم لا يلجئون إلى دس السم في العسل مثلما يفعل بعض المستشرقين - وإنما يجعلون كتاباتهم عن الإسلام كلها سما فكلامهم يقطر بالسم وينضح بالحقد [2].

ثانياً: كما أن جرجي زيدان قد انتهج في مجلته منهجا خبيثا، وذلك بمحاولة إيهام القارئ أن المجلة تقدم له ثقافة إسلامية، عن طريق عرضها لبحث علمي راقٍ عن النبي ﷺ، وهو أبعد ما يكون عن العلم والنزاهة والرقي، كيف وقد تضمن أبشع التهم وأكذب الحديث والتطاول على ثوابت الإسلام.

ثالثاً: يدَّعي جرجي زيدان أنه ينتقد الكتاب ويقرظه، (أي يبين محاسنه ومساوئه)، ولكنه اتخذ منهجا غاية في الغرابة إذ سكت عن كل الاتهامات التي جاء بها الكتاب مثل:

١. اتهام النبي ﷺ بأنه كان تأتيه نوبات الصرع.

٢. عاشر بعض اليهود والنصارى فاستفاد منهم كثيرا في أقاصيص التوراة.

---

(١) د/ محمود حمدي زقزوق في تصورات الغرب، مكتبة وهبة ط١ ص٤٧. .

(٢) د/ محمد عبد الفتاح عليان، أضواء على الاستشراق، دار البحوث العلمية ط١ وهاهي أقوال علماء المسلمين في هذا المستشرق:

يقول د/ محمد البهي عن مرجليوث - إنه إنجليزي متعصب ضد الإسلام ومن محرري دائرة المعارف الإسلامية، كان عضوا بالمجمع اللغوي المصري، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، مكتبة وهبة ط١١ ص٤٥١.

أما د/ مصطفى هدارة يقول: على كثرة ما كتب المستشرقون في قضايا اللغة العربية، والأدب، لا نجد مقالة تمثل سوء المنهج العلمي وخضوعا للتعصب المقيت ضد العروبة والإسلام، أشد وقعا وأبعد تأثيرا من كتابات المستشرق الانجليزي، ديفيد صمويل مرجليوث - وبحوثه المتصلة بالإسلام تتسم بالتعصب المقيت والبعد عن المنهج العلمي، والجهالة الفاضحة. وأوضح مثل على ذلك كتاب (محمد ونشأة الإسلام) المنشور العام ١٩٠٥م ص٣٩٦ ج١ مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

٣. رأى الأذهان معدة للدعوة، فترقب الفرص حتى بلغ سن الأربعين فأظهرها.

٤. كان (الله) أحد آلهة الكعبة قبل الإسلام، وفقه محمد مع إله اليهود والنصارى، وجعل منهما إلهاً واحدا، كما يزعم ﴿ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا** ﴾.

٥. ادعى أن النبي أقام جمعية سرية تشبه الماسونية، كان يجتمع فيها مع أصحابه.

٦. تكرار آيات القرآن من قبل أساليب العظماء كما فعل نابليون.

كل هذه الاتهامات الكاذبة والمفتراة والتي تكفي أولاها فقط، إن صحت لهدم الدين كله، لأن الوحي مصدره، وما دامت لحظات الوحي هذه ليست إلا نوبات من الصرع، فلا وحي إذاً ولا رسالة ولا رسول، وهذا هو أهم ما يسعى إليه كذبة المستشرقين، وأذنابهم أقول كل هذه الاتهامات لا تحرك لجرجي زيدان ساكنا ولا تطرف له جفنا، وذلك فيما يبدو لأنها وافقت هواه وأصابت هدفه، الذي جبن عن أن يفصح عنه فترك غيره ينطق به وهو يصفق.

رابعاً: ذراً للرماد في العيون ردت المجلة على اتهام واحد وهو حب محمد للمال والدنيا.

الفصل الثاني

القضايا التاريخية

تاريخ التمدن الإسلامي – عرض ونقد

يعتبر هذا الكتاب من أهم كتب جرجي زيدان، حتى صار يذكر مقرونا باسمه، فلا يذكر أحدهما إلا دل على الثاني (وكانت بداية هذا الكتاب مقالات أوابتدأ تقديم مواد هذا الكتاب على هيئة مقالات عبر صفحات مجلة الهلال[1] – كعادة جرجي زيدان في معظم كتبه، والتدليل على أهمية هذا الكتاب ودعوة المثقفين إلى قرائته والوقوف منه على تاريخ تمدن الأمة الإسلامية، وما رافق تمدنها من أسباب الحضارة وثمارها، وتاريخ العلم والأدب والصناعة ولوازمها، كالمدارس والمكاتب والجمعيات، وبسط حال الدولة ومناصبها وما انتهت إليه من الرخاء.

يقول جرجي زيدان: (إنه في سبيل كتابة هذا الكتاب زاد عدد ما طالعناه من الكتب العربية والإفرنجية على مائتي مجلد ... من الكتب العربية يذكر، مؤلفات البلاذري، والمسعودي، وابن الأثير، وابن خلدون، وأبي الفداء، والسيوطي، من المؤرخين، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني والعقد الفريد لابن عبد ربه، والكشكول والمستطرف، وكذلك تفسير الرازي، والزمخشري، وصحيح البخاري، ومشكاة المصابيح [2] ، وكذلك كتاب الخراج لأبي يوسف، والأحكام السلطانية للماوردي، ... الخ.

غير أن الأسئلة التي تطرح نفسها بعد طرح كل هذه المقدمات التي قدمها جرجي زيدان ليقنع قراءه بأهمية كتابه، من خلال إيقافهم على ما بذل فيه من

(١) الأعداد التي وردت بها مواد كتاب تاريخ التمدن الإسلامي تتابعت على الوجه التالي: ١٥/ ٥/ ١٩٠٢م – ١/ ١٠/ ١٩٠٣م – ١/ ١٠/ ١٩٠٤م – ١/ ١٢/ ١٩٠٤م – ١/ ١١/ ١٩٠٥م – ١/ ٤/ ١٩٠٦م – ١/ ١١/ ١٩٠٧م – ١/ ١٠/ ١٩١٠م – ١/ ٣/ ١٩١٢م – ١/ ٦/ ١٩١٢م.

(٢) وإنه لأمر يدعو إلى العجب أن يقرأ إنسان يدعي العلم والثقافة كل هذه الكتب الإسلامية في التفسير والحديث وأمهات المراجع الإسلامية ويعيش عمره بين ظهراني المسلمين ثم لا يدخل في الإسلام إلا إذا كان قد وصل من غلاظة القلب وتبلد الإحساس حدا بعيدا.

جهد كبير هي أسئلة كثيرة ومتعددة وتبحث عن إجابة، مثلاً: **إلى أي مدى التزم جرجى زيدان بالموضوعية العلمية ونزاهة البحث في هذا الكتاب ؟ وهل وقفت عقيدته المسيحية الرافضة للإسلام وأحقيته في توجيه – حياة المسلمين – حجر عثرة أمام ما كتبه وسجله عن المسلمين وتراثهم وتاريخهم وأسباب رقيهم وتمدنهم، ثم أسباب تدهورهم، وسقوطهم، وسير خلفائهم وحكمائهم ؟** ودون إنحراف وراء تيار الأسئلة التي يمكن أن تتوارد على الأذهان عقب قراءة تلك المقدمات، التي أوردها جرجى زيدان، أو الدعايات التي قدمها لكتابه.

أقول: إن من بين العلماء الذين تنبهوا مبكرا لما في هذا الكتاب من دس وتلبيس وخداع، العلامة **الشيخ شبلي النعماني المصلح** الشهير مؤسس جمعية ندوة العلماء في الهند، ومحرر مجلتها، وقد اتخذ من مجلة المنار الإسلامية للشيخ محمد رشيد رضا، منبرا له ينشر من خلالها مقالاته[1] في مناقشة هذا الكتاب، والتدليل على فساد محتوياته، وكذلك الكاتب **الشهير رفيق بك العظم**، والذي سجل اعتراضه على منهج الكتاب[2] في رسالة أرسل بها لمجلة الهلال وقد نشرتها بالفعل لكنها – أي المجلة – دافعت عن نفسها بما يشكل الإدانة، فضلا عن بعض الإعتراضات الفنية المتعلقة بكيفية إثبات المراجع وغيرها، سجلها على الكتاب، رجل مسيحي وكان أستاذا لجرجى زيدان في الكلية الأمريكية ببيروت هو **د/ يعقوب صروف في مجلة المقتطف** [3] وعلى كل حال فسيتم عرض كافة الاعتراضات التي سجلت على هذا الكتاب، لكي نقف من خلال ذلك على إجابة للأسئلة التي تم طرحها في بداية هذا المبحث.

أهم المحاور التي دارت عليها الانتقادات:

دارت الانتقادات التي وجهت إلى هذا الكتاب حول عدد من المحاور أو الخطوط العريضة إجمالها: ما عبرت عنه مجلة المنار في قولها (إن الغاية التي توخاها المؤلف

(١) مجلة المنار مجلد ١٥ ص٦٠، ١٩١٢م.
(٢) هذه الرسالة في ج٢ السنة الثالثة عشرة العدد الصادر في ١/ ١١/ ١٩٠٥م.
(٣) مجلة المقتطف رقم ٢٨ ج١ من يناير - يونيو ص٦٥، سنة ١٩٠٣م.

ليس إلا تحقير الأمة العربيـة، وإبداء مساوئها، ولكن لما كان يخاف ثورة الفتنة، غيَّر مجرى القول، ولبس الباطل بالحق.

فقد قسم عصور الإسلام على ثلاثة أدوار:

١– دور الخلفاء الراشدين. ٢– دور بني أمية. ٣– دور بني العباس.

فمدح الدور الأول – وكذلك الثالث (ظـاهراً لا باطنا) ولمـا غرَّ الناس بمدحه الخلفاء الراشدين، وهم سادتنا وقدوتنا في الدين، وبمدحه لبني العباس وهم أبناء عم النبي ﷺ وبهم فخارنا في بث التمدن وأبهة الملك.

ورأى أن بني أميـة ليسـت لهـم وجهـة دينيـة فلا نـاصر لهـم – تفرغ لهم وحمل عليهم حملـة شـــنعاء، فمـا ترك سـيئة إلا وعزاهـا إليهم ولا حسـنة إلا وابتزها منهم)[1].

ومن أول مـا أخذ على هذا الكتـاب تلك الدعوى العريضـة التي حاول أن يبثها المؤلف في ثنايا كلمـات كتابه والتي تخـالف أصلا من أصـول الدين، وهو مـا تمثله الآية الكريمة ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2] – وأكدتـه أحاديث النبي ﷺ، ولكن جاء السيد جرجى زيدان ليقول بعصبية العرب على العجم، وأطال واطنب في هذه الدعوى مـن خلال اعتســاف بعض الوقـائع الجزئيــة أو اقتناصهــا وانتزاعهـا من سياقاتها للتدليل بها على دعواه.

يقول:

أ– (فـإن العرب كـانوا يعـاملون الموالي معاملــة العبيد – وإذا صلوا خلفهم في المسجد عدوا ذلك تواضعا لله) !.

ب– (وكانوا يقولون لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة حمار، أو كلب، أو مولى).

ج– (ومنعوا غـير العرب من المناصب الدينية المهمة، كالقضاء، فقالوا لا يصلح للقضاء إلا عربي، وحرموا منصب الخلافة على بن الأمة ولو كان أبوه قرشيا)[3].

---

(١) المنار مجلد ١٥ ص٦٣ سنة ١٩١٢م.
(٢) سورة الحجرات، صدر الآية رقم ١٣.
(٣) كل هذه النصوص منقولة من المجلد الثاني عشر من الأعمال الكاملة لجرجى زيدان ص٢٨١، ٢٨٣.

وفي هذه النقول المتقدمة تظهر طريقة جرجي زيدان في تأليف هذا الكتاب، وهي أنه تعمد تعميم الواقعة الجزئية - والخيانة في النقل - وتحريف الكلم عن مواضعه، والاستشهاد بمصادر غير موثوقة مثل كتب المحاضرات والفكاهات.

ففي المثال الأول: يعتبر من قبيل تعميم الواقعة الجزئية، وهذا ما يؤكده صاحب العقد الفريد عند حديثه على هذه الجزئية، فإنه يصَدِّر كلامه بقوله (قال أصحاب العصبيَّة من العرب) ولكن المؤلف ينسب كلام هذه الشرذمة المغمورة من الناس، إلى العرب كلهم.

وفي المثال الثالث: المتعلق بمنع غير العرب من المناصب الدينية والذي نسبه جرجي زيدان إلى ابن خلكان، فهذا مردود عليه بالوقائع التاريخية والسجل الحافل للموالي الذين تبؤوا في الأمة أعلى مكانة- وها هم قادة الأقاليم في الدولة الأموية، خير دليل على كذب جرجي زيدان: فهذا قائد مكة وسيدها: **عطاء بن أبي رباح من الموالي**، وهذا **طاووس**: سيد اليمن- وَهذا مكحول سيد الشام- وهذا **الحسن البصري** سيد البصرة **وإبراهيم النخعي** سيد الكوفة وهذا **ضحاك بن مزاحم** سيد خراسان، وكل هؤلاء غير إبراهيم النخعي، كانوا من الموالي، وبعضهم أبناء الإماء ومع كونهم أعجاماً، وكونهم أولاد إماء كانوا سادة الناس وقادتهم، تذعن لهم العرب وتحترمهم خلفاء بني أمية وولاة الأمر، وتقدمهم وتذعن لهم رافعة شأنهم، **فهل يصح قول المؤلف** بعد ذلك أن الموالي وأبناء الإماء كانوا في عصر بني أمية مرذولين ساقطين يزدري بهم ولا يقام لهم وزن؟.

وانتقل المؤلف بعد ذلك من عصبية العرب على العجم إلى الحديث عن

● **مثالب بني أمية:** لما مدح دولة الخلفاء الراشدين - كما قدمنا - لم يفته أن يبين أن سياسة الخلفاء الراشدين (ليست مما يلائم طبيعة العمران أو تقضيه سياسة الملك، وإنما هي خلافة دينية توفقت إلى رجال يندر اجتماعهم في عصر - **فأهل العلم بالعمران** لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك في غير ذلك العصر العجيب [1] فأثبت بذلك أن سياسة الخلفاء الراشدين ليست فيها أسوة للناس،

---

(١) مجلد ١٢ من الاعمال الكاملة ج٤ ص٢٥٠ التمدن الاسلامي.

لأنها من مستثنيات الطبيعة.

أما **دور العباسيين:** فمدحه ولكن لا لأجل أنهـا دولة عربية، بل لكونها فارسية مـادة وقواما، مؤتلفـا ونظامـا. ثم انتقـل إلى دولـة بني أميـة مشـيراً إلى أنها الدولـة الساذجة وأخذ يعدد مثالبها تحت عنوانات مستقلة فأورد تحت عنوان:

الاستهانه بالقرآن والمسجد الحرام ما يلي:

(أما عبد الملك فكـان يجاهر بطلب التغلب بالقوة - لأنـه صرح باستهانة الدين منذ ولي الخلافـة ... لمـا جـاءوه بخـبر الخلافـة، كـان قـاعداً **والمصحف في حجره فأطبقـه وقـال هذا آخر العهد بك،** فلا غـرو بعد ذلك أن أباح لعاملـه الحجاج أن يضرب الكعبة بالمنجنيق، ويحتز رأس بن الزبير بيده، داخل مسجد الكعبة، وهدموا الكعبة، وهي بيت الله عندهم، وأوقدوا النار بين أحجارها وأستارها) [1].

وانظـر كيف يكون التعســف في الفهـم وانتزاع النصوص مـن سـياقاتها وإلقاء التهم على عواهنها دون التثبت من المصادر الأصيلة ؟!

فإن الأصـل في قول عبد الملك للقرآن هـذا خلاف بيني وبينك، أو هذا آخر العهـد بك: أنه كـان قبل الخلافـة ناسـكا منقطعا إلى العبـادة، لا يشتغل بشـيء من الدنيـا، حتى أن ابن عمر سُـئل إلى من نرجع في الفتوى بعدك ؟ قـال ولد لمروان، وقـال الإمام الشعبي: ما جلست إلى أحد إلا وجدت عليه الفضل، إلا عبد الملك بن مروان، فلمـا جائته الخلافة وهو يقرأ القرآن تصور خطورة الأمر، فقال تحسرا، **هذا آخر العهد بـك، أي الآن لا يمكنني الانقطـاع إلى العبـادة وقراءة القرآن،** وليس على سبيل الاستهانة بالدين مطلقا، لاسيما مع اشتغاله بالفرائض والسنن بعد ذلك.

أما قتل ابن الزبير وقطع رأسه بالكعبة:

فهذا خلاف المذكور في الطـبري، وابن الأثير، مـن أنه قتل بـالحجون، ومـا احتز رأســه داخل الكعبـة، **وما نقلـه المؤلف عـن كفر الوليد:** وأنـه علق المصحف وأخذ

---

(٦٧) نفس المصدر ص٣١٢.

يرميه بالنبل [1] حتى مزقه وأنشد يقول:

أتوعد كل جبار عنيد فها أنذاك جبار عنيد

إذا لاقيت ربك يوم حشر فقل لله مزقني الوليد

فإنه نقل هذه الرواية عن الأغاني: ومعلوم أن صاحبه أبو الفرج الأصفهاني شيعى، ديانته شنآن بني أمية، والحط منهم، **أما جهابذة المحدثين الذين يرجع إليهم للفصل في مثل هذه الروايات، فيجحدون هذه الروايات المختلفة.**

بل إن صاحب العقد الفريد، نقل عن الوليد ما ينبئ عن تعظيمه للقرآن وتفخيم شأنه (وأنه شكا رجل من بني المخزوم ديناً لزمه فقال له الوليد أقضيه عنك إن كنت مستحقاً، ثم قال له هل قرأت القرآن ؟ قال لا، فنزع عمامته، وقرعه بقضيب في يده على رأسه، فقام آخر فاستقرأه عشراً من الأنفال وعشراً من براءة فقرأ فقال نعم فقضى دينك وأنت أهل لذلك)[2].

وبعد هذا فإن المؤلف، لو خص رجلا أو رجلين أو رجالاً من بني أمية بالمطاعن لما وجه له لوم في ذلك، ولكن من سوء مكيدة المؤلف أنه يجعل الفرد جماعة، والنادر عاما، والشاذ مطردا، وينتقل جرجى زيدان إلى الحديث عن جور عمال بني أمية فيقول:

وفي كلام القاضي أبو يوسف في عرض وصيته على الرشيد بشأن عمال الخراج ما يبين الطرق التي كان أولئك الصغار يجمعون الأموال بها قال: (بلغني أنه قد يكون في حاشية العامل أو الوالي، جماعة منهم، من له به حرمة، ومنهم من له إليه وسيلة، ليسوا بأبرار ولا صالحين، يستعين بهم ويوجههم في أعماله، يقضي بذلك الذمامات، فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه، إما بنهبهم وأخذ شيء من الخراج، أو أموال الرعية، بالعسف والظلم، والتعدي، ويقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد، ويعتدون عليهم بما يمنعهم من الصلاة ... وهذا عظيم عند الله شنيع في الإسلام) [3].

---

(١) السابق ص٣١٥.

(٢) رشيد رضا المنار مجلد ١٥ ص١٢٤ سنة ١٩١٢م.

(٣) مجلد ١١ ج٢ ص٣٦٦ الأعمال الكاملة.

تعليق:

وهـذا من أعظم التدليس، إذ يشـتكي القـاضي أبو يوسـف مـن عمـال هارون الرشـيد، ورفع القضية إليه، مبينـا له ما بلغـه مما يرتكب عماله، في أخذ الأموال من الرعايـا فيـأخذ - جرجى زيدان - هذه الأقوال وينقلهـا من حيث أنهـا هي الطرق التي كان عمال بنو أميـة يجمعون الأموال بها، وإن كتاب الخراج من أوله إلى آخره لا توجد به كلمة في شـأن عمال بني أميـة، ولكنه العجز الذي لحق جرجى زيدان، في البحث عن تهمـة يلصقها بعمال بني أميـة، ألجأه تقديم سـيرة عمال الرشيد على أنها سيرة عمال بني أمية.

وتحـت اتهام الخلفاء بجمـع الأموال عن طريق عمـالهم غير مبالين بكيفيـة جمعها، يدعي: أن معاويـة كتب إلى زيـاد يقول لـه (اصطف لي الصفـراء والبيضاء) فكتب زياداً إلى عمالـه بذلك وأوصـاهم أن يوافوه بالمال، ولا يقسـموا بين المسـلمين ذهباً ولا فضةً وأرجع هذه الرواية إلى العقد الفريد.

ولكن صحتها في العقد الفريد كمـا يلي: قال صاحب العقد (ونظير هذا القول ما رواه الأعمش عـن الشـعبي، أن زيادا كتـب إلى الحكم بن عمر الغفـاري، وكان على الطائف، أن أمير المؤمنين كتب إليَّ أن أصطفي له الصفراء والبيضاء، فلا تقسم بين النـاس ذهبـا ولا فضـة، فكتب إليـه أني وجـدت كتاب الله قبـل أمير المؤمنين، والله لو أن السـماوات والأرض كانتـا رتقـا على عبد فـاتقى الله لجعل لـه منهما مخرجا، ثـم نادى في النـاس فقسـم فيهم مـا اجتمع لـه من الفيء)[1]. ومن خلال هذه الروايـة الحقيقية التي أوردهـا صاحب العقد الفريد نلحظ كذب جرجى زيدان في نقلها على الوجه التالي:

١- ليس في الروايـة أن معاوية كتب إلى زياد، بل إن زيادا كتب إلى الحكم، أن أمير المؤمنين كتب إليَّ، ولعل زيادا كذب في ذلك، أو فهم غير ما أراد معاوية.

٢- حذف - جرجى زيدان - كـل ما قالـه الشـعبي ومـا عمل بـه من تقسيم

---

(١) أبي عمر محمد بن عبـد ربـه الأندلسـي، العقـد الفريد، دار الكتـاب العربي ببيروت، بـدون رقم للطبعـة ج١ ص٥٨، سنة ١٩٨٣م، وكذلك طبعة دار الكتب العلمية بيروت ج١ ص٥٥ سنة ١٩٨٣م.

الفيء، ودلالتـه على أن في عمـال بني أميـة من لا يمنعـه عن الصدع بـالحق وأداء الواجب أحد، لا ولاة الأمصار، ولا من فوقهم - أي الخليفة نفسه.

٣- ليس في الرواية مـا يستدل بـه على أن معاوية اسـتأثر بالمال لنفسه بل مراده أن العمال ليـس لهم تقسيم الفيء بل الأمر موكول للخليفـة، فعلى العامل أن يجمع الأموال ويرسلها إلى الخليفة حتى يضعها موضعها [1].

وحول اتهام خلفاء بني أمية بجباية الجزية حتى من الذين أسلموا كتب يقول:

(كان عمال بني أميـة يشددون في تحصيل الجزيـة، فأخذ أهل الذمة يدخلون في الإسـلام فلم يكن ذلك لينجيهم منها، لأن العمال عـدوا إسلامهم حيلة، للفرار من الجزية، وليس رغبة في الإسلام، فطالبوهم بالجزية بعد إسلامهم وأول من فعل ذلك الحجاج، فارتد الناس عن الإسلام، وهم يودون البقاء فيه) [2].

وهكـذا يقدم المؤلف هذه المسـألة بتلك العبـارات المؤثرة التي يـتراءى لقارئها أن النـاس أحبطـوا من كل جـانب، جورا وعدوانـا، فـإذا بقـوا على الكفر يعـانون من الشدة ما يلجئهم إلى الإسلام، وإذا أسـلموا فالجزية باقية على حالها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

وقد رد على هذه الفرية الشيخ العلامة شبلي النعماني باستفاضة حين قال:

١- إعلم أن الجزية ليسـت إلا بدلا عسـكريا فمن ندب عن بيضـة الملك بنفسه فهو غير مأخوذ بها، أمـا من ضن بالنفس، أو كان لا يصلح لذلك، فعليه أن يؤدي شيئا مـن المال ليكون عـدة للعسـكر وعونا لـه. وكم نجـد في البلاذري، والطبري، وغـيره أن أقواما من النصـارى في عصر عمر بن الخطـاب ﷺ لما قـاموا بالدفاع عن الملك أو دخلوا في الجند سقطت عنهم الجزية.

٢- ولـما لم ينفصـل الأمر بتــه، وبقي للاجتهـاد موضـع، ومتسـع، كـان بعض العمال يضرب الجزية على حديثي العهد بالإسلام.

٣- ولكن لم يتفق ذلك في مـدة الخلافة الأمويـة إلا مرات معدودة يشهد بذلك

---

(١) الشيخ شبلي النعماني، مجلة المنار مجلد١٥ ص٢٧٢ سنة ١٩١٢م.
(٢) تاريخ التمدن الإسلامي مجلد ١١ ج٢ ص٣٦١.

الفحص، والنقص وإمرار النظر، والكد في البحث، والتنقيب، ومع ذلك فكلما وقع مثل هذا لم يكن له بقاء **فأما أن تكون الأمة هي التي تقيم النكير على العامل، أو يصل الخبر إلى الخليفة فيرد عامله ويمنعه من الوقوع في مثله أبداً** - ففي سنة ١٠١ لما كتب الحجاج إلى البصرة برد من أسلم من أهل القرى إلى مساكنهم، وضرب الجزية عليهم، ضج القراء وخرجوا يبكون مع البكاة من أهل القرى، وبايعوا عبد الرحمن بن الأشعث، مشمئزين من عمل الحجاج، منكرين عليه، كما هو مشروح في تاريخ الكامل لابن الأثير، وكذلك لما اقتدى الجراح الحكمي بصنيع الحجاج، كتب إليه عمر بن عبد العزيز يأمره بإسقاط الجزية. والواقعة مذكورة سنة (١٠٠هـ) في تاريخ الكامل، أما خيانات المؤلف في الرواية فكما يلي:

١- ذكر واقعة الحجاج وترك نكير القراء عليه، وبيعتهم لابن الأشعث إنكارا على صنيع الحجاج.

٢- ذكر واقعة الجراح [١] وترك إنكار عمر بن عبد العزيز عليه، ومنعه من ضرب الجزية عليهم، قائلا له (انظر من صلى قبلك، فضع عنه الجزية) **ولا يكتفي جرجي زيدان بهذا بل يدعي مغرضا** (أن أهل الذمة لما رأوا أن اعتناق الإسلام لا ينجيهم من الجزية، عمدوا إلى التلبس بالرهبنة، لأن الرهبان لا جزية عليهم. فأدرك العمال غرضهم من ذلك فوضعوا الجزية على الرهبان، وأول من فعل ذلك منهم عبد العزيز بن مروان عامل مصر، فأمر بإحصاء الرهبان وفرض على كل راهب دينارا) [٢] وأسند هذه الرواية إلى المقريزي مع أن الرواية المذكورة لا يشم فيها رائحة تشديد في الجزية أو غيرها، حتى ألجأوا النصارى للرهبنة فما نفعتهم، وإنما فيها: أن عبد العزيز بن مروان وضع الجزية على كل راهب ديناراً، وهي أول جزية أخذت من الرهبان، وإن كانوا معافون من الجزية، لكن المسئلة اجتهادية وليست منصوصا عليها في كتاب أو سنة - فاجتهد عبد العزيز وأخطأ - وبعد كل ما تقدم

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي مجلد ١١ ج٢ ص٣٦٧.
(٢) تاريخ التمدن الإسلامي مجلد ١١ ج٢ ص٣٦١.

من إيراد لمساوئ بني أمية، وتشويه لحكمهم، ودولتهم، نقول لجرجي زيدان مع الشيخ شبلي النعماني [1] ونردد معه أما رأيت لأحد من بني أمية مأثرة تذكر، ومنقبة تنقل، وسياسة تنفع البلاد ومعدلة تعم الناس ؟؟

تعليق:

نعم إنهم لا يوزنون بالخلفاء الراشدين، وليس هذا عاراً عليهم، ولا فيه حط لمنزلتهم فإن إدراك شأن الراشدين واللحوق بهم، أمر خارج عن طوق البشر وليس فيه مطمع لأحد، ولكن التوازن والتكايل بين الأموية والعباسية، فهم ملوك فيهم المحسن، والمسيء، والناسك، والخليع، فلو أن المؤلف لزم الإنصاف ! لكنه مال إلى واحد فأطرى في مدحه، مع أنه أورد له أيضا عددا من الجرائم، التي لو صحت لخرجت بصانعيها من دائرة الإسلام، ودخلت بهم مدخل الكفر من أوسع أبوابه، لكنه مع ذلك يلتمس لهم الأعذار، ويسوق تلك الاتهامات بلهجة خفيفة، لأنه معجب بالدولة لفارسيتها، ولن نسبق الأحداث فإننا سنترك الاتهامات تتحدث بنفسها:

١) الخليفة المنصور حقر من شأن الكعبة:

يتهم (الخليفة المنصور بأنه أقام بناء سماه القبة الخضراء تصغيرا للكعبة، وقطع الميرة في البحر عن المدينة) [2].

٢) الخليفة المعتصم أنشأ كعبة جديدة:

فيذكر عنه (أنه بنى سامرا بالقرب من بغداد، وأقام فيه جنده، **فأنشأ كعبة وجعل حولها طوافا، واتخذ منى وعرفات !!**) [3].

٣) الخليفة المأمون أنكر نزول القرآن:

فيذكر عنه (أنه لما أفضت إليه الخلافة أخذ يناظر أشياعه، وصرح بأقوال لم يكونوا يستطيعون التصريح بها، خوفا من غضب الفقهاء، وفي جملتها القول بخلق

---

(١) مخطوطة الشيخ شبلي النعماني، مرجع سابق.
(٢) مجلد ١١ من الأعمال الكاملة بتاريخ التمدن ج٢ ص٣٧٦.
(٣) ص٣٧٨.

القرآن أي أنه غير منزل)! (١).

ولست أدري والله أية اتهامات أبشع من تلك يمكن أن تلصق بخلافة إسلامية - كان كل فخرها أنها تلتقي مع الرسول ﷺ في أبناء عمومته وسدنة بيت الله الحرام، ودعاة الإسلام ونقباء القرآن !.

لكن جرجي - يتعامى - عن ذلك كله - ليقول أن المنصور وهو مؤسس دولتهم، وفاتحة خلفائهم، بنى القبة الخضراء، إرغاما للكعبة وقطع الميرة عن المدينة، تضييقا على أهلها، وأن المأمون - كان ينكر نزول القرآن! وأن المعتصم - واسطة عقدهم، بنى كعبة في سامراء وجعل لها طوافا !

هذا الخليفة العظيم الذي ما إن سمع صيحة المرأة المسلمة التي أهينت بأرض الروم، فصرخت وامعتصماه ! حتى جيش لها جيشا قوامه مائة ألف ليخلصها - لا تزال هذه الصيحة وذلك الموقف يدوي من أعماق التاريخ ويرن في سمع الزمان !

لكن المؤلف - انتهج نهجا غريبا كعادته في كل ما يكتب، فإنه لما ذكر بني أمية عقد لمثالبهم أبوابا منها:

استخفافهم بالدين - وذكر فيه قتال عبد الملك مع ابن الزبير، فقلب الرواية فلو كانت الحقيقة غايته، لعقد للعباسية أبوابا، يذكر فيه استخفافهم بالكعبة وإنكارهم نزول القرآن - كما يدعي !

وهنا تكمن مكيدة المؤلف وحسن احتياله

كما ذهب إلى ذلك العلامة النعماني - فإنه يريد من طرف الغض من الكعبة، والحط من القرآن، ومن طرف آخر الانتصار للعباسية، والذب عنهم، لأجل أنهم كسروا شوكة العرب، واتخذوا العجم بطانتهم وعمود دولتهم، فذكر استخفافهم بالكعبة مغموراً تحت عنوان ثروة الدولة الإسلامية.

أما كشف الجلية فيما سبق:

فقد كان كل من يدعي الخلافة، ويرشح لها نفسه، لا يجد سبيلا إلا باحترام مشاعر الأمة، من خلال إظهار التزامه بشعائر الإسلام، والتصبغ به، ونصب نفسه

---

(١) مجلد ١٢ ص١٥.

لإعلاء كلمته، ورفع مناره، وحمل الناس على تعظيم شـعائره، ولذلك كان الخلفاء (بنو أمية والعباسيين كلاهمـا) يصلّون بالناس، ويؤمونهـم، ويخطبون على المنابر، ولذلك لما أراد أهل الشام المكيدة بعلي ﷺ، ورفعوا المصاحف، كف أصحاب علي عن القتـال، ولما قـال لهم هذه خديعـة منهـم، قالوا إذا لم تذعن خلعنـاك، فلم يقدر على خلافهـم، ولما أراد الحجـاج قتال ابـن الزبير أغراهم بأنـه ألْحد في الدين، وزاد على الكعبة، ولذلك نصب المنـاجيق على الزيادة التي كان زادها بن الزبير، ولما قال أبو نواس يمدح الأمين وصدر القصيدة بهذا البيت:

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر   ولا تسقني سرا فقد أمكن الجهر

اتخذ المأمون هذا وسيلة لإغراء الناس على مخالفة الأمين، فهل نصدق بعد ذلك أن المنصـور أو المعتصم كـان يقدر أو يسـوغ لـه، أن يصغر شـأن الكعبـة ويمس من شرفها ؟ وهل كان يقدر المأمون أن يحمل الناس على إنكار القرآن والعياذ با لله ؟!

جرجى زيدان:

[العربي بمنزلة الكلب ارم له كسرة واضربه على أم رأسه]:

يعتـبر جرجى زيدان أن أحســن أعمـال العباسيين، أنهم صغـروا شـأن العرب، وساموهم الخسـف، وسـلطوا عليهم الأعاجم، والأتراك، وجعلوا هؤلاء ولاة البلاد بيدهـم الأمر والنهي، والرفـع، والخفـض، والنقض، والإبـرام، يقـول: (ولـمـا تولى المعتصم الخلافـة ٢١٨هـ واصطنـع الأتراك والفراعنة، ازداد العرب احتقارا في عيون أهل الدولـة، وتقاصرت أيديهم عن أعمالها، حتى في مصر **حتى أصبح لفظ عربي، مرادفا لأحط الأوصاف عندهم، حتى قـالوا العربي بمنزلة الكلب ارم لـه كسرة واضربه على أم رأسه)** [(١)].

ولا يفوتني هنا أن أسجل كلمة عن المنهج الذي اتبعه جرجى زيدان – في كتابه هذا، فصـار يلقـي بسـببه التهـم جزافـا ويرمي بهـا رجـالات الإســلام، من مختلف مراحل دولة الإسلام الخالدة – لماذا ؟

---

(١) مجلد ١١ ص٣٧٨.

لأنه يجمعها من مزبلة التاريخ - وتأمل ما سجله معه رفيق بك العظم من بعض الاعتراضات المتعلقة بضعف الروايات التي يعتمد عليها ويوردها مستندا لاتهاماته وتخرصاته:

فقد وجه إليه رفيق العظم هذه الاتهامات:

١- أخذ - جرجي زيدان - ببعض الأحاديث الضعيفة اعتمادا على ما نقله المؤرخون بغير توثيق للنصوص.

٢- إجماله في بعض المواضع التي تقتضي التبسيط، وأهمها عندي كلامه على العلوم التي اشتغل بها العرب، في إبان مدنيتهم وما أخذوه منها عن غيرهم.

٣- إكثاره من جمع مسالب الأمويين ودولتهم العربية ... الخ.

ونلتقط من بين هذه الملاحظات أو الاتهامات التي قدمها رفيق بك العظم بأسلوب مهذب، قدم له بالثناء العاطر على الكتاب وكاتبه - نلتقط الاتهام الأول لأنه يتعلق بالمنهج. لنرى كيف رد عليه جرجي زيدان في نفس العدد بمجلة الهلال إنه يقول [1]:

● جرجي زيدان يتحدث عن منهجه في كتابة التاريخ الإسلامي:

(... إن ما اعتمدته واتخذته طريقا في كتاباتي، أن أسلك طريق أصحاب التاريخ دون سواهم، **ولا عبرة عندي بدرجة الحديث أو صحته** ما دام قد ثبت من الجهة التاريخية، فلا أرى مسوغا لإنكاره ... **فأنا أعتمد على المؤرخين، دون المحدثين، والمفسرين، وذلك لاختلاف أهل الدين في أبحاثهم، وتناقضهم في آرائهم، تبعا لما توحيه إليه أغراضهم**، ومن خلال رد مجلة الهلال هذا يتضح لنا المنهج، الذي سار عليه السيد جرجي زيدان في كتابته في تاريخ الإسلام والمسلمين، الذي يرد فيه خاصية من أهم خصائص التاريخ الإسلامي وهي طريقة إسناد الروايات إلى أصحابها عبر الأجيال المتلاحقة.

وهذه الطريقة تدعو إلى فحص ما في الكتب القديمة بدقة وتمحيص لشخصيات الرواية وفقا للمنهج العلمي الفريد في (الجرح والتعديل) المعروف لدى علماء

---

(١) نقل هذا الحوار من عدد مجلة الهلال الصادر في ١/ ١١/ ١٩٠٥م ج٢ ص٤٤.

الحديث الذين يحاول أن يتهمهم الخواجا - جرجى زيدان - بتناقض أهوائهم وانعدام ضمائرهم وصدورهم في كل أبحاثهم عن الأهواء والنزعات الشخصية ؟!

وما فتئ العلماء المدققون ينبهون إلى مراعاة ذلك، في علاج الروايات التاريخية. فقد كتب في مصر الأستاذان الجليلان محب الدين الخطيب ومحمود محمد شاكر، فصولا متعددة يدعوان في حرارة وأمانة، للأخذ بهذا المنهج العلمي السلفي الدقيق - كما كتب في العراق د. جواد علي، بحثا مفصلا عن (موارد تاريخ الطبري) قامت نظريتهم على:

(أن المؤرخين الأوائل لجأوا إلى تدوين ما استوعبته الذاكرة بالنقل عن فلان عن فلان من الحفاظ الموثوق بهم، وهو ما يعرف بالأسانيد - فكان الحفاظ هم الواسطة الحقيقية، بين الحقيقة التاريخية والمؤرخين - وهذه الطريقة عينها في التاريخ، كانت قد اتبعت عند جمع الأحاديث النبوية مما يبين أن التاريخ أخذ طريقة الحديث في أول تأليفه، بل إن التاريخ كان يجمع من نفس رواة الحديث، سلسلة من الأنباء الموثوق بهم، ومن ناحية أخرى اعتبر التاريخ نفسه من وسائل الحديث في (الجرح والتعديل) بالكشف عن أقوال رواة الحديث والتمييز بين أهل الغفلة والوهم وسوء الحفظ [١] والكذب والإختراع.

وحقا: فإن من أعظم المفارقات في ديننا، أن نكون أغنى الأمم بالنصوص السليمة التي نستطيع أن نصحح بها تاريخنا، فنبنيه على أساس قويم من الحقائق العلمية التي لا يتطرق الشك إليها، وأن نكون مع ذلك - أشد أمم الأرض إهمالا للإفادة من ذلك - حتى بقى تاريخنا مضطربا كما أراده الذين دسوا فيه ما ليس منه، وشوهوا من جماله، كما ارتكب ذلك صاحب الهلال - مما جعل المسلمين يسيئون الظن بأنصع صفحاتهم ويجهلون أن الجيل المثالي الوحيد الذي عرفته الإنسانية في تاريخها منذ وجد الناس في الأرض إلى الآن، هو الجيل الذي شوه المغرضون سيرته، بما دسوه فيه من باطل وما اختزلوه فيه من حق) [٢].

(١) د/ محمد رشاد خليل، المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره، دار المنار القاهرة ط١، ص٦٠، سنة ١٩٨٤م.

(٢) فتحي عثمان، أضواء على التاريخ الإسلامي، دار العروبة القاهرة ص٢٩٢ بدون رقم للطبعة أو تاريخ.

وهكذا نصل إلى نهاية هذا المبحث الذي خصصناه للحديث عن أشهر كتب جرجي زيدان وأكثرها التصاقا به ودلالة عليه، والذي حشد له من المغريات في مقدمته ما يجبر أي باحث على قراءته - كيف لا ؟ وقد قرأ مائتي مجلد بأكملها فضلا عن عشرات غيرها من القواميس العامة والموسوعات على اختلاف اللغات والموضوعات -مع ما رسخ في ذهننا من مطالعة تاريخ المشرق بتوالي الأعوام، على حد تعبيره - لكي يقدم هذا الكتاب !!!

ولكنه وللأسف برغم الجهد - الذي يدعي أنه بذله في كتابه هذا، والوقت الذي استغرقه في كتابته - لم تعد له قيمة، فقد أضعف كثيراً قيمته العلمية فضلا عن قيمته الإسلامية، بعد أن وضحت تلك الروح الظالمة، المبتعدة عن الموضوعية، السابحة في أجواء الحقد والكراهية للعرب والمسلمين، والمشوهة لصورة الحكم في التاريخين الأموي والعباسي، والتي تنقص حتى من قدر الراشدين، لأن حكمهم وسياستهم لا يصلح لتدبير الممالك في هذا العصر ؟ نحن نتساءل ما الذي لا يلائم طبيعة العمران وتدبير الممالك في عصرنا من حكم الراشدين ؟ أهي السماحة ؟ أم العدل ؟ أم الأمن والرخاء ؟ أم الحب والإيثار ؟ أم الانتصاف للمظلومين من الظالمين، والذي تعبر عنه أجمل تعبير، كلمات النور التي خرجت من فم الصديق عمر ﷺ (القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له) ؟ أم تراك نقصد أيها المؤرخ الصليبي الماسوني، إلى روح الجهاد التي كانت تحيا بها الأمة في ساحة العزة والكرامة - والشهادة على الناس، والسيادة على الأرض والقيادة للبشرية حقا، إنها بهذا المنطق لا تصلح لهذا العصر الذي كانت تسود فيه أعلام الكفر، وتخفق فيه رايات الاستعمار، وارتفعت فيه رايات الشرك، حتى أصبحت معظم بلاد المسلمين ترزخ تحت نير المستعمرين من أبناء دينك وأعضاء جماعتك - الماسون - من اليهود والنصارى إنجليز وفرنسيين ؟؟.

• المشكلة في المنهج:

هذا المنهج الذي استخدم في تاريخ أمتنا الإسلامية هو سبب هذا البلاء الذي

نراه الآن يتردد على ألسنة غالبية المستشرقين والمستغربين على السواء، وهاهو يتضح جليا في كتابات جرجى زيدان وأمثاله: ويتمثل في التركيز على الجانب السياسي على حساب بقية المجالات الأخرى العقدية - الفكرية - الحضارية - العلمية - الاجتماعية ... الخ.

إن إظهار هذا الخط الذي قد يشوبه السواد في تاريخ الأمة - والاقتصار عليه في عرض التاريخ، يعطي صورة غير حقيقية لذلك التاريخ صورة مشوهة ممسوخة، لا تعبر عن الحقيقة، ولنفترض جدلا أن كل ما نسب إلى المنحرفين في المجال السياسي صحيح، ولم تدخل فيه المبالغات الناشئة عن العداوات الحزبية والمذهبية التي يشنع منها كل فريق على خصمه بما يشاء، أقول لو سلمنا جدلا أن الخط السياسي خط أسود، فليبق كذلك ! ولكنه خط أسود في صفحة يغلب البياض ! فهل من الأمانة ياكتبة التاريخ أن نغطي على بياض الصفحة كلها ؟ وأن لا نبرز إلا هذا الخط الأسود وحده ؟ وما هو الأثر الذي يتركه هذا العمل في نفس القارئ ؟

أيمكن أن يكون هو ذات الأثر لو اطلع على الصفحة بكاملها، بياضها كله وسوادها كله ؟ أم يختلف التأثير حتما بين هذه الصورة وتلك ؟

تلك هي القضية ... وهي قضية خطيرة سواء من الناحية العلمية: حيث يصبح هذا التاريخ مزورا ولو صحت كل كلمة كتبت فيه إلا أنه يعطي الأمة حجماً أصغر بكثير من حجمها الحقيقي.

ومن الناحية التأثيرية: فشتان بين أن ترى أمامك كائنا حياً متماسكا يتحرك حركة الأحياء الأقوياء، وإن كان يتعثر في حركته أحياناً، ويقع أحياناً، ويدمى جسده أحياناً، ولكنه يعود فيقوم ويتحرك، وبين أن ترى مسخاً كسيحاً يختلج في حركته، كلما مشى خطوات انتكس ووقع على الأرض ! الأول تتفاعل معه وتحب حركته، والثاني تعافه نفسك وتنفر منه.

الخواجا جرجى زيدان والمستر دوجلاس دنلوب:

إن المنهج الذي كتب به جرجى زيدان التاريخ الإسلامي، هو نفس المنهج الذي استخدمه مستشار وزارة المعارف المصرية آنذاك «المستر دنلوب» حيث ركز على

التاريخ السياسي للمسلمين - بعد فترة البعثة وصدر الإسلام - وتجريد التاريخ الإسلامي من محتواه الشامل، وحصره في النزاعات السياسية، وسعي كل حاكم إلى التوسع على حساب جيرانه، وما صحب ذلك من الفتك بالأعداء السياسيين.

وبينما ينتهي الطالب من هذه الصورة الكئيبة، يفتح له تاريخ أوربا صفحة مشرقة حافلة بالنشاط الحضاري والتقدم العلمي والمادي فيحدث من جراء ذلك

١) إيهام الطالب أن الإسلام قد انتهى بعد فترة الخلفاء الراشدين - وهو ما حاول زيدان أن يقوله في المجلة والكتاب.

٢) أن التاريخ الذي يستحق الحفاوة والإعجاب هو تاريخ أوربا، فيتم بذلك صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام ولي أعناقهم إلى أوربا " [1].

● بدعة تقسيم التاريخ الإسلامي إلى أسر حاكمة:

لقد كان المؤرخون المسلمون الأقدمون يكتبون عن تاريخ الأمة الإسلامية منذ نشأت، على يد الرسول ﷺ بمكة، ثم المدينة، وفي أثناء تتبع التاريخ، كانوا يتحدثون حديثا طبيعيا - عن الحكام الذين تولوا أمر هذه الأمة في عهدهم في المجالات المتعددة - ولم يقسموا التاريخ إلى مراحل سياسية وإقامة حواجز كأن هناك حدوداً فاصلة في مجرى التاريخ.

إن تاريخ الأمة الإسلامية هو أمجادها، وارتفاعاتها وقوتها عندما تكون مؤدية لرسالتها، وانتكاساتها، وانخفاضاتها، ووهداتها، عندما تكون ناكلة لرسالتها هذا هو الذي يحدد معالم تاريخها، أنه ليس تاريخ الدولة أموية أو عباسية أو مماليك أو عثمانية، إنما هو تاريخ الأمة الإسلامية.

---

(١) محمد قطب، كيف يكتب التاريخ الإسلامي، ص١٥، ١٦ ط ١٤١٢هـ.

الفصل الثالث

القضايا الفلسفية

المبحث الأول
شبهة العداء بين الدين والعلم
عرض ونقد

وحول هـذه القضيـة الهامـة والخطـيرة التي تتبناهـا – أغلب –َ التيـارات المعاديـة للإسلام سـواء أكانت، من داخل صفوف المسلمين – المستغربين ومن يدعون أنهم أهل التنوير – أم من خارجها، نجـد أن المجلة تحاول إرساء عدد من المفاهيم الخاصة، جـاهدة أن تعممها علـى كل الأديـان متجردة من كل الأقنعـة الزائفـة، التي حاول صاحب المجلة، أن يتقنع بها مثل (الموضوعية – الحياد – الإنصاف العلمي).

فعندما وجهـت إليـه الأسـئلة حـول ما جـاءت بـه الكتب المقدسـة، عن ثبوت الأرض وتحرك الكواكـب جميعـا، ومناقضـة ذلك لما يقـول بـه علمـاء الطبيعـة من دوران الأرض، وإقامتهم الأدلة على إثبات ذلك ؟

تقول المجلـة: (... أما الكتب المقدسـة فإنها تورد ما يوافـق أفهام العامة وتطابق ما يقع تحـت حواسهم !!! والظاهر للعين أن الشـمس تتحرك لأنها تشرق وتغرب، والأرض ثابتة ولذلك جاءت الكتب به !) [1].

انظر إلى تدليسـه وغشــه، يعمم القول على الكتـب كلها دونما اسـتثناء للقرآن الكريم ليخلطـه ببقيـة الكتب المحرفـة، التي عملت فيهـا الأيدي البشــرية عملها – وأدخلت عليها الأكاذيب والتحريفات، ولكي يتضح لنا أن هذا ليس موقفا عارضا للمجلة، ولكنه خط ثابت للمجلـة نجده يكرر نفس الكلام بعد سـت سنوات، من نشـر كلامـه الأول يقول: (إن محاولة تطبيق الحقـائق الطبيعية، علـى الآيات الدينية من الأمور الشاقة التي تجر إلى الشكوك وتوجب قلق الأفكار) [2].

ثم يقول: إن هناك جماعة تنادي بوجوب مطابقة الدين للعلم، والحال أن في كل دين من الأديـان (اليهويـة .. النصرانية .. الإســلام) تتناقض الحقـائق الطبيعية مع

---

(١) مجلة الهلال العدد الصادر في ١٥/ ٤/ ١٨٩٤م ص٦٧.
(٢) ١/ ٣/ ١٩٠٠م ج١ ص٣٢٩.

الدين على خط مستقيم، كالاستحالة (١) والتثليث (٢) ونحوها ؟!

إننا لو ألغينا مثل هذه الاعتقادات، لهان القول علينا بفساد أكثر الأديان المشهورة، وهو ضلال بين، **ثم تنتهي المجلة إلى هذه النتيجة:**

فالأولى بنا اعتبار كل من العلم والدين مستقلا بنفسه، نستعين بالعلم على الدنيا، وبالدين على الآخرة.

وهكذا تدعو المجلة إلى فصل الدين عن العلم - انطلاقا إلى الإلحاد الذي شهدته أوربا في عصورها الوسطى، عندما قامت الثورة على الكنيسة من رجال العلم، والمفكرين، والأحرار، الذين نكلت بهم الكنيسة، وصبت عليهم البلاء صباً، فتحول الصراع من رجال الدين والعلم - إلى الكنيسة والعلم، إلى كل دين وكل علم، فانتقل الغرب من دين يحارب العلم إلى علم يحارب الدين، وهكذا سرت هذه الروح في أوربا، واجتهد أعداء هذه الأمة في تسريبها إلى المجتمع الإسلامي، ضمن مخطط الغزوالفكري العام، أو الإحلال الفكري، لأنه ليس غزوا ولكنه إحلال مفاهيم وقيم غربية محل المفاهيم والقيم الإسلامية.

وللوقوف على هذه الدعوى وحقيقتها، والدعاوي التي يروجها جرجي زيدان وأمثاله من سماسرة الإستعمار ورافعي ألوية الإحلال الثقافي لمسخ هوية هذه الأمة، نقول:

بادئ ذي بدء وحتى ننطلق من أرضية صلبة في هذا الموضوع، فإننا ملزمون بتحديد المصطلحات التي سنتعامل معها في هذه القضية، على النحو التالي:

أولاً: ما هو الدين ؟

ثانياً: ما هو العلم ؟

وحينئذ نرى: أن الدين: عند العلماء وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إياه إلى الصلاح في الحال، والفلاح في المآل، وهذا يشمل العقائد والأعمال ويطلق على كل ملة، وعند الأئمة قد يخص الإسلام كما ورد في القرآن ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ**

(١) الاستحالة: هي تحول الخمر والعجين في عيد الفصح إلى جسد المسيح ودمه تحولا حقيقيا كما يزعم ذلك كهنة النصرانية.

(٢) التثليث: المحور الرئيسي الذي تقوم عليه الديانة المسيحية (الأب، والابن، والروح القدس).

اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾[1].

والدين: عند الماديين العصريين: يناقض العلم، والسبب أنهم جعلوا أو قصروا الكون على المحسوسات، وأنكروا ما وراء المادة جملة وتفصيلا فلا روح، ولا خلود، ولا ملائكة، ولا غير هذا من العلوم الغيبية.

عندئذ تتحدد القضية: وهي اختلاف مفهوم مصطلح (الدين) وتباين وجهات النظر حوله، بين أهل العلم بالأديان، وبين الماديين الذين لا يؤمنون بغير الحواس وما تدركه، ولكن متى نشأ هذا الانفصام الذي أخرج بمقتضاه العلم عن دائرة الدين ؟ إن المتتبع لمسيرة التاريخ البشري والإنساني، يظهر له بوضوح أن هذه المشكلة نشأت في أوربا، بعيدة عن الجو الإسلامي، **فهي قضية مستوردة مستلهمة** من موقف الكنيسة كسلطة حاكمة في القرون الوسطى، إزاء البحث والمعرفة وضرورة الرجوع إليها في موضوع البحث، وتطور الأمر في عصور النهضة الأوربية وأصبحت حرية البحث، مكفولة لعلماء الطبيعة، والرياضة، دون الحاجة إلى الرجوع لسلطة الكنسية، فضلا عن استهجان هذا الموقف باعتبارها معادية للعلم وبذلك صارت العلاقة بين الكنيسة، والعلم، علاقة خصومة وتحولت إلى مشكلة طرفاها: العلم القائم على التجربة، فهو يقين، والدين الذي يعود إلى غير السماء – فهو مشكوك فيه وأساطير [2].

بعد استعراض النشأة البعيدة لهذه القضية في المجتمع الأوربي حري بنا أن نستعرض **موقف الإسلام من العلم** وهل كان العلماء والمخترعون المسلمون بحاجة إلى استئذان علماء الدين من رجال الفقه والحديث والتفسير مثلا لكي يقدموا إبداعاتهم ويجروا تجاربهم – أم أن الإسلام منذ لحظة ميلاده الأولى على يد النبي الأمين محمد ﷺ كان له موقف آخر ؟

وهنا نفخر بأن نسجل، أنه لا يوجد دين من الأديان، ولا نظام اجتماعي من النظم المعروفة قديما وحديثا، يبلغ شأو الإسلام في رفع العلم، والتنويه بقيمته،

(1) سورة آل عمران جزء من الآية رقم ١٩.
(2) د. محمد البهي – عقبات في طريق الإسلام في المجتمعات الإسلامية، مكتبة وهبة.

والدعوة إليه، والتعويل عليه بقول الحق سبحانه ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾[1]. فقد اعتد الله في هذا الأمر الجليل، بشهادة أهل العلم، فرفع من قدر العلم، إلى حيث لا مرتقى بعده ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[2] وفي هذا تمييز عن سواهم لأنهم القائمون برفع كشف الجهل عن العقول قال تعالى ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[3] وقد ربط الله فهم الأمثال التي يضربها للناس ليهديهم إلى طريق السعادة، أو يستنهض هممهم للخير والعلم ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[4] والعلم الذي يدعو إليه الكتاب وتحث عليه السنة النبوية هو كل ما يدفع به الجهل، والخبط سواء أكان في العقائد الدينية، أم في الشؤون المادية، فقد سبق علم الله سبحانه أن البشرية كما تحتاج لعلم صحيح فيما يتعلق بعقائدها، تحتاج كذلك إلى علم بما نستصلح به معيشتها وتبني به اجتماعها، وتستكمل له وسائلها، وقد فهم آباؤنا الأولون هذا الفهم، فهبوا بعد وفاة النبي ﷺ لطلب العلم، بأوسع ما يحتمله هذا اللفظ من معاني، فتخصص بعضهم لعلوم الدين من ضبط قراءة كتابه وتفسير معانيه، وطرق استنباط الأحكام منه، إلى غير ذلك، ومنهم من وقفوا أنفسهم لدراسة السنة، ونقد رواتها وتمييز أصيلها من دخيلها ... الخ، وفرق أخرى: استهدفت العلوم الكونية على اختلاف موضوعاتها من فلك ورياضة، وطب، وصيدلة، وكيمياء، وغيرها، فاستوعبوا كل ما وجدوه شائعا من كتبها، فلما لم يرو لهم غلة شرعوا يترجمون ما ادخره اليونان والرومان والفرس في مكتباتهم فاستخرجوا منها ما كان في حكم المعدوم فألفوا من ذلك كله مجموعة من العلم، لم تتفق لأمة قبلهم، كما وصاهم رسولهم ﷺ ونطقت به آثارهم الخالدة (خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت) وهكذا قام المسلمون بدافع من دينهم إلى تلمـــــس العلم من جميع مظانه وشغفوا به شغفا لم يرو التاريخ مثله عن

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨.
(٢) سورة الزمر آية رقم ٩.
(٣) سورة المجادلة آية رقم ١١.
(٤) سورة العنكبوت آية رقم ٤٣.

أمة[1].

وهكذا يظهر من خلال ما سبق

أن الدين في المفهوم الإســـلامي: أشمل من العلم، ذلك لأن الدين: يبحث في موضوع الكون كله ليعرف دلالته على خالقه، وعلى صفات ذلك الخالق، وعلى مصير الكون، والإنسان، فالدين محاولة للكشف عن سر الكون كله والتعرف إلى الخالق والتعامل معه معاملة تليق بمقامه.

بينما العلم بمعناه العصري: هو حصيلة التجارب، ونتيجة لمحاولة مستمرة لمعرفة أسرار جزئيات الكون المادي، ثم إستخدام ذلك وتسخيره للإنتفاع به، وعلى هذا تظهر عمومية الدين، وشموله للعلم لأنه لا يبحث في الجزئيات، بل في الكون كله.

والحقيقة التي تنتهي إليها بعد هذه الجولة: أنه لا مجال في الإسلام لدعوى التعارض والعداوة بين الدين والعلم-كما حاولت مجلة الهلال أن تؤكد ذلك- فالدين في الإسلام علم، والعلم فيه دين كما نشهد بذلك أصول الإسلام وتاريخه، شهد بذلك كثير من الباحثين والمؤرخين حتى الغربيين (والفضل ما شهدت به الأعداء).

العلامة هورتن يقول: " في الإسلام وحده تجد اتحاد الدين والعلم فهو الدين الوحيد الذي يوحد بينهما- فنجد فيه الدين ماثلاً متمكناً في دائرة العلم ".

أما إيتان دينيه[2] فإنه يقول: " إن العقيدة الإسلامية لا تقف عقبة في طريق سبيل الفكر، فقد يكون المرء صحيح الإسلام، وفي الوقت نفسه حر الفكر، ولا تقتضي حرية الفكر أن يكون المرء منكرا لله، لقد رفع محمد ﷺ قدر العلم إلى أعلى الدرجات، وجعله من أول واجبات المسلم بقوله (يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء).

---

(١) محمد فريد وجدي، مهمة الإسلام في العالم، تحقيق د/ محمد رجب البيومي، إصدار الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالإزهر الشريف ط١ ص١١٩ سنة ١٩٨٩.

(٢) إيتان دينيه (ET. Dinet ١٨٦١-١٩٢٩م) تعلم في فرنسا، وقصد الجزائر فكان يقضي في بلدة بوسعادة، نصف السنة من كل عام، وأشهر إسلامه وتسمى بناصر الدين (١٩٢٧م) وحج إلى بيت الله الحرام (١٩٢٨م) ومن آثاره: اشترك في تأليف (محمد في السيرة النبوية) وله بالفرنسية (حياة العرب) و(حياة الصحراء) و(أشعة خاصة بنور الإسلام) و(الشرق في نظر الغرب).

أما الأستاذ الفيلسوف "دابر" المدرس بجامعة نيويورك فإنه يقول [١]: (إن اشتغال المسلمين بالعلم، يتصل بأول عهدهم باحتلال الإسكندرية سنة ٦٣٨م أي بعد وفاة - محمد - بست سنين ولم يمضي عليهم بعد ذلك قرنان، حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية، وقدروها قدرها الصحيح .. ثم تمضي السيرة إلى ان تولى هارون الرشيد سنة ٧٨٦م، فأمر بإضافة مدرسة إلى كل مسجد، في أرجاء ملكه لكن عصر العلم الزاهر في القارة الآسيوية لم يشرق، إلا في خلافة المأمون، الذي تولى الخلافة من سنة (٨١٣-٨٣٢م) فإنه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى وجمع إليها وقرب إليها العلماء وبالغ في الحفاوة بهم ...)، وهذا هو العالم الفرنسي الشهير موريس بوكاي: يقول في عبارات واضحة ومحدودة (... بفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث)[٢].

وبعد: فهذا هو نذر يسير من الحقائق التي توضح موقف الإسلام من العلم وأنه لا مجال فيه لهذا التعارض المزعوم بين الدين والعلم، فوضع العلم الحقيقي في الإسلام، عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله ويبتغي بها مرضاته - وهذا الوصف ينطبق على كل العلم، ما دام لا يخرج عن الحدود التي رسمها الله وإلا فلننظر كيف ينفذ المسلمون هذا الأمر الرباني ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ**﴾ [٣]، هل يستطيعون ذلك بغير العلم الذي يشمل اليوم الفيزياء، والكيمياء، والرياضيات، والميكانيكا، وعشرات غيرها من العلوم، وكيف يستطيعون تنفيذ قول الحق سبحانه ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ**﴾[٤] هل يتحقق التسخير بغير علم ؟ هل يقول الإنسان للشيء كن فيكون !؟ أم يحتاج التسخير إلى تحقيق جهد علمي ؟ وعشرات الأمور تقطع بأن المقصود بالحديث كل علم نافع،

---

(١) السابق ص١٢٢.
(٢) موريس بوكاي - القرآن والتوراة والانجيل والعلم،ص١٣.
(٣) سورة الأنفال جزء الآية رقم ٦٠ .
(٤) سورة الجاثية جزء الآية رقم ١٣.

بيد أن هنــاك: علم يصعـد إلى مرتبـة فـرض العين، وعلـم يبقـى في درجـة فرض الكفايـة، ولكنـه فريضـــة في جميع الأحـوال وحين يكون كذلـك، نصل إلى نتيجـة حتمية، وهي أن العلم لا يمكن أن يكون عدوا للعقيدة، ولا عدوا للدين.

العلم في ميزان الأديان الأخرى:

ومن تمام الفـائده بعد تسـجيلنا موقف الإسـلام من العلم بكافـة أنواعه والعلماء بشتى تخصصاتهم، حريّ بنا أن نذكر بإيجاز موقف أتباع الأديان الأخرى من العلم حتى تظهر لنا الحقيقة في هذه الدعوى التي ساقتها مجلة الهلال بالادعاء بوجود عداء أبـدي بين الدين- كل الديـن- والعلم - لنرى كيف أنهـا خلطت أوراق الدعوى، وكان ينبغي عليهـا أن تفصل فيما بينهـا حتى تبرأ سـاحة ديننـا العظيم، الذي اعتبر العلم فريضـة مـن أقدس فرائضـه، وركنـاً مـن أعظم أركانـه، لكنهـا النيـة المغرضـة والطوية الفاسدة، التي يتحلى بـها أعداء الإسلام دائما في سلبه كل فضيلة.

وفي هذا نسـجل عددا من أقوال الباحثين الذيـن تتبعوا حركة البحث العلمي في العالم الأوربي:

يقول الشـيخ الإمام محمد عبده: (... أنشـأت المراقبة على المطبوعات، وحتم على كل مؤلف وكل طابع، أن يعرض مؤلفه، أو مـا يريد طبعه، على القسيس، أو المجلس، الذي عينتـه الكنيسـة للمراقبـة، وصـدرت الاحكام المقدسـة مـن المجامع، بحرمان من يطبع شيئاً لم يعرض على المراقب، أو ينشر شيئاً لم يأذن المراقب بنشره، وأوعـز اليـه أن يدقق النظر حتـى لا ينشـر مـا فيـه شــيء يوميء إلى مخالفـة العقيدة المسيحية الكاثوليكية، ووضعت غرامات نقدية على أرباب المطابع يعاقبون بها فوق حرمان الكنيسة).

وعن نشـأة محكمة التفتيش وأسبابها – يقول (أنشأت محكمة التفتيش لمقاومة العلـم والفلسـفة، عندمـا خيف ظهورهمـا بسـعي تلامـذة ابن رشـد وتلامذتهم، خصوصا في جنـوب فرنسا، وإيطاليا، بطلب من الراهب نوركماندا، قامت المحكمة بأعمالها حق القيام ففي مدة ثمانية عشر عاما من (١٤٨١/ ١٤٩٩) حكمت على عشـرة آلاف ومائتين وعشـرين شـخصا بأن يحرقـوا وهم أحيـاء، فأحرقوا، وعلى

(٦٨٦٠) بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا، وعلى (٩٧٠٢٣) بعقوبات مختلفة فنفذت ثم أحرقت كل توراة بالعبرية).

وعن نتائج تلك العقوبات وآثارها على العقول والقلوب يستمر فيقول أوقعت هذه المحكمة المقدسة، من الرعب في القلوب، لدى أهل أوربا، ما خيل لكل من يلمع في ذهنه شيء من نور الفكر، إذا نظر حوله، أو التفت وراءه، أن رسول الشوم يتبعه وأن السلاسل والأغلال أبق إلى عنقه من يديه، ومن ورود الفكرة العلمية إليه).

ولكن بعد كل ذلك **هل اقتصر موقف الكنيسة في حجر حرية الفكر والنظر على اتباعها فقط، أم إنها وسعت دائرة حجرها على العقول وتسلطها على الأفكار لكي تشمل غيرهم من أهل الأديان الأخرى؟.**

وهنا نجد: أنه لما كان ابن رشد هو الينبوع الذي تفجر منه ماء العلم والحرية في أوربا، على زعم القسوس، وكان ابن رشد أستاذا يتعلم على يديه كثير من اليهود فقد صبت الكنيسة غضبها على المسلمين واليهود معاً، فصدر الأمر في ٣٠/ ٣/ ١٤٩٢م (أن كل يهودي لم يقبل المعمودية في أي سن كان، يجب أن يترك بلاد أسبانيا، قبل شهر يولية) وهكذا خرج اليهود تاركين ورائهم كل ما يملكون بأرواحهم على أنه لا نجاة لكثير منها، فقد اغتالتها يد الجوع، ومشقة السفر، مع العدم والفقر - ولم يقتصر الأمر على اليهود وحدهم في فبراير (١٥٠٢م) نشر الأمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من إشبيلية وماحولها، ومن لم يقبل المعمودية منهم يترك بلاد أسبانيا قبل شهر أبريل، واشترطوا عليهم إذا باعوا أملاكهم أن لا يأخذوا في الثمن، ذهبا، ولا فضة، وأن لا يذهبوا في طريق يؤدي إلى بلاد إسلامية، ومن خالف ذلك فجزاؤه القتل.

ومن عداء المسيحية للعلم (إحراق الكاردينال في غرناطة (٨٠٠٠ كتاب) بخط القلم، منها كثير من ترجمة الكتب المعول عليها عند علماء أوربا اليوم، لذلك العهد فضلا عن العديد، من الجمعيات العلمية (الأكاديمية) التي ألغيت لا لشيء كان، سوى هداية البشر إلى منافعهم وتنوير بصائرهم - بكشف ما حجب عنهم

من سر الخلقة من غير استئذان المسيطر الإلهي - وهي الكنيسة) [1].

وهكذا يتضح لنا الموقف المتعنت من الكنيسة في حجرها على العقول وحربها على العلم. وحرقها للعلماء وكيف أن سياطها الملتهبة لم تقتصر على أتباعها فقط، بل جلدت كل من سولت له نفسه الاقتراب من دائرة العلم، أو السباحة في عالم الفكر، غير أن سؤالا يطرح نفسه في نهاية هذا المبحث وعقب تلك المقدمات والنتائج. كيف تعامل المسلمون مع أهل العلم من الأديان الأخرى، وهل وسعتهم دائرة العلم الإسلامي أم أنها لفظتهم وأحرقت كتبهم وأضاعت جهدهم ؟؟

وعند الإجابة على هذا السؤال والتي نتركها لواحد من علماءهم وكبار فلاسفتهم حتى لا نتهم بالتحيز - قال المستر دارير: أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة الأمريكان: (إن المسلمين الأوائل، في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين، ومن اليهود على مجرد الاحترام بل فوضوا إليهم كثيرا من الأعمال الجسام ورقوهم إلى مناصب الدولة) [2].

وهذه بعض النماذج السريعة لعدد من العلماء والحكماء من غير المسلمين الذين حظوا بالمكانة الرفيعة في الدولة الإسلامية.

١- بختشيوع بن جورجيوس: كان نصرانيا طبيبا في أيام أبي العباس السفاح وصحبه، وعالجه، وعاش أيام الرشيد، وخدمه حتى جعله رئيس الأطباء ... كما لحق عصر الأمين والمأمون.

٢- يوحنا بن البطريق: كان أمينا على الترجمة في عهد المأمون.

٣- حنين بن إسحاق: الطبيب النصراني أبو زيد الصيادي كان تلميذا، ليوحنا بن ماسويه، عاش أيام المتوكل، كان يأخذ وزن ما ترجم ذهبا [3].

وهكذا مع أدنى تأمل فيما سبق، يتضح موقف الإسلام من العلم والعلماء، وحسبه فخراً في مجال طلب العلم، أنه يجعل الأمة كلها آثمة إذا لم يتوفر منها العلماء

---

(١) محمد عبده، الإسلام والنصرانية، ص٣٦، ٣٧، مكتبة صبيح القاهرة بدون رقم للطبعة سنة ١٩٧٧م.

(٢) د/ عابد منصور، موقف الإسلام والديانات الأخرى من العلم، بحث غير منشور، من مطبوعات هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، قدم في المؤتمر الدولي للإعجاز العلمي، المنعقد بباكستان في ٢١/ ١٠/ ١٩٨٧م.

(٣) القفطي - إخبار العلماء بأنباء الحكماء- مكتبة المتنبي بالقاهرة ص١٧١، ٢١٢ سنة ٦٤٦هـ.

في شتى الاختصاصات، وكذلك: تسقط دعوى الهلال التي ساقتها، دون سند من علم أو تاريخ يدعمها. ولكنها لغرض في نفس صاحبها - روجت لهذه الفرية في محاولة لتشويه وجه الإسلام العظيم. ولكنها ومن يصدق دعواها ويرددها من صحف اليوم كما قال الشاعر:

كنا طح صخرة يوما ليوهنها   فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1]

وصدق الله العظيم إذ يسجل في أول آية نزلت من كتابه الكريم تلك الدعوة إلى العلم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2].

---

(١) سورة الصف آية رقم ٨.
(٢) سورة العلق آيات من ١-٥.

المبحث الثاني

نظرية التطور الدارونية على صفحات الهلال

مناقشتها والرد عليها

احتلت هذه القضيــة مســاحة كبــيرة على صفحات مجلــة الهلال في أعدادهـا المختلفـة، فتوالت الدراســات والمقـالات: التي تشـرح النظريــة، وتقدم الأدلـة التي استندت إليها، وتحـاول أن تظهر العمق التـاريخي للنظرية وإيجـاد علاقـة بينها وبين مفكري العرب وفلاسـفتهم، ناقلة أقوال بعض منهم مثـل أبي مسكويه وحديثه عن علاقة الموجودات بعضها ببعض - والقـرود الشبيهة بالإنسـان، وأصل الإنسان هل هـو واحد أو غير واحد ؟ وتحسين الجنس البشـري - واقتراحات حول هذه القضية مستقاة من مبدا النشوء والارتقاء.

طارحـة بعض الأبحـاث في صيغـة أسئلة: مثل هـل للحيوان عقل ؟ ونشـر صور لبعض القرود الشبيهة بالإنسان ؟ وهل للحيوانات لغة ... الخ [١].

وهكذا حملت المجلـة هذه النظريـة إلى مجتمعنا العربي والمصـري مستغلة ضخامة توزيعهـا، والصورة الذهنيـة التي حاولت أن ترسمهـا عن نفسـها لدى جماهير القراء، من ناحية أنها مجلـة تعنى بنشر تـاريخ العرب والمسلمين وربطهم بماضيهم وتراثهم، عن طريـق رواياتـه، عـن تـاريخ الإسـلام، وكتبــه التي تتحـدث عن تـاريخ الدولـة الإسلامية، مثل تاريخ التمـدن الإسلامي، أقول استغلت المجلة اقتناع القراء - بحسن نية - بما تكتبه لهم، مثل هذه النظرية التطورية موضوع هذا المبحث.

وهنا حقيقـة جديرة بالتسجيل وهي أن هذه النظرية، وإن مضى على تقديم مجلة الهلال لها مـا يزيد على الثمانين عامـا [٢] إلا أنها وبكل أسـف لا تزال تحيا في بلاد المسلمين، ومناهجهم في المراحل التعليمية التي تشرف عليها وزارات التربية والتعليم

(١) ١/ ٧/ ١٩٠٢م - ١/ ١٢/ ١٩٠٤م - ١/ ١/ ١٩٠٥م - ١/ ٢/ ١٩٠٧م - ١/ ١٢/ ١٩١٠م - ١/ ٤/ ١٩١١م - ١/ ٥/ ١٩١١م - ١/ ٢/ ١٩١٢م - ١/ ٣/ ١٩١٢م - ١/ ٤/ ١٩١٢م - ١/ ٦/ ١٩١٢م - ١/ ١٠/ ١٩١٢م - ١/ ٣/ ١٩١٣م - ١/ ٣/ ١٩١٤م.

(٢) ذلك سنة ١٩٨٨م.

- وغم أنها سقطت في مهدها الذي ولدت فيه وبلادها التي أنشأتها، الرد على نظرية التطور التي قدمتها مجلة الهلال إلى المجتمع وأفسحت لها صفحاتها دراسة وتحليلا:

ونجدنا ملزمين عند مناقشة هذه النظرية لبيان فسادها وآثارها المدمرة أن نرجع إلى الوراء قليلا. لنرى أبرز الشخصيات التي حملت هذه النظرية، وقد سجلت موسوعة المذاهب الميسرة، ثلاث شخصيات كان لها ريادة بذر هذه الفتنة إن جاز التعبير وتقديمها إلى العالم هم على التوالي:

١- تشارلز داروين: صاحب هذه المدرسة وهو باحث إنجليزي نشر في عام ١٨٥٦م كتابه (أصل الأنواع) وقد ناقش فيه نظريته في النشوء والارتقاء، معتبرا أصل الحياة خلية كانت في مستنقع آسن قبل ملايين السنين - وقد تطورت هذه الخلية ومرت بمراحل، منها مرحلة القرد انتهاء بالإنسان. يقول داروين في كتابه أصل الأنواع: (يمكن أن يقال أن الانتقاء الطبيعي مستمر في تفحصه في كل يوم، وكل ساعة، وفي العالم كله لكل تغير وإن دق، رافضاً للسيء، حافظا وجامعاً لكل ما هو جديد، عاملا في صمت ولطف كلما سنحت فرصة، لتحسين كل كائن حي، بالنسبة لظرف حياته المادي وغير المادي، نحن لا نرى شيئاً من هذه التغيرات البطيئة وهي تحدث) [1].

٢- أرثركيه: دارويني متعصب، يعترف بأن هذه النظرية لا تزال حتى الآن بدون براهين - لكنه يؤمن بها، لأن البديل الوحيد الممكن لها، هو الإيمان بالخلق المباشر، وذلك غير وارد على الإطلاق.

٣- جوليان هكسلي: دارويني ملحد، ظهر في القرن العشرين وهو الذي يقول (... هكذا يضع علم الحياة الإنسان، في مركز مماثل لما أنعم عليه كسيد للمخلوقات، كما تقول الأديان، وإنه من المسلم به أن الإنسان في الوقت الحاضر سيد المخلوقات، ولكن قد تحل محله القطة أو الفأر، زاعما أن الإنسان قد اخترع فكرة (الله) إبان عصر عجزه وجهله ؟! أما الآن فقد سيطر على الطبيعة بنفسه،

(١) نقلا عن د. جعفر شيخ إدريس، الفيزياء ووجود الخالق، ص٣٧ ط١٩٩٧م.

ولم يعد بحاجـة إلى الله !! فهـو العـابد والمعبود في آن واحـد إلى أن يقول (وبعد نظرية داروين لم يعد الإنسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانا).

وتضيف الموسـوعة رجلا آخر أخذ علـى عاتقـه من البدايـة الدفـاع عن نظريـة دارون وهو:

٤- د. سكوت: وهـو من المتعصبين للدارونية يقول (إن نظرية النشوء جاءت لتبقـى ولا يمكـن أن نتخلى عنهــا، حتى ولـو أصبحـت عمــــــــلا من أعمــال الاعتقاد!!!)[1]

وإذا كان هؤلاء هم الذين قامت تلك النظرية على أكتافهم فما هي أفكارهم ؟

دارت أفكار نظرية داروين حول عدة افتراضات:

أ- يفـترض داروين أن أصـل الكائنات العضويـة ذات الملايـين من الخلايـا كائن حقير ذو خلية واحدة.

ب- يفــترض كذلك تطور الحيـاة في الكائنــات العضويـة مـن الســهولة وعدم التعقيد إلى الدقة والتعقيد فتتدرج هذه الكائنات من الأحط إلى الأرقى.

ج- **الطبيعــة وهبـت !!** الأنواع القويــة عوامل البقـاء، والنمـو، والتكيف، مع البيئـة لتصـارع الكوارث، وتتدرج في ســـلم الرقي، ممـا يـؤدي إلى تحســن نوعي مســتمر، ينتج عنـه أنواع راقيـة جديدة كـالقرد، وأنواع أرقى تتجلى في الإنسـان، بينما نجد ان الطبيعة قد سلبت تلك القدرة من الأنواع الضعيفة فسقطت وزالت.

د- الطبيعـة إذ تهـب هذا، وتحرم ذاك، لا تنتهج خطـة مرســومة بل تخبط خبط عشواء على حد قوله.

ذلك هو لب النظريـة التي اضطلع بها داروين في كتابه أصل الأنواع [2] **وعلى هذا فصفوة القول في نشأة الإنسان وتكوينه في ميزان التطوريين:**

أن الإنسـان كائن لا يتفرد بشـيء - في نشأته وتكوينه عـن بقية الكائنات الحية

---

(١) الموسـوعة الميسرة في الأديـان والمذاهب المعـاصرة ص٢١٢ ط١٩٨٨م إصدارات الندوة العالميـة للشـباب الإسلامي الرياض.

(٢) المصدر السابق.

من عالم الحيوان، وهو خاضع لقانون التطور الذي يسود عالم الحياة على الإطلاق، ومن هنا ينتفي الاستقلال والتفرد عن نشأة الإنسان وتكوينه، كما ينتفي قصر البشرية والآدمية عليه وحده، إذ أنها صفة تدور بينه وبين جنس الحيوان [1]، وإذا كانت هذه الأفكار والمعتقدات الخاصة بنظرية التطور، فما هي الآثار التي تركتها تلك النظرية على بساط البحث وفي حقل العلم ؟

تسجل أغلب الدراسات التي عنيت ببحث قضية التطور، أنها لم ترق بعد إلى مستوى الحقيقة العلمية الثابتة – فلا تعدو أن تكون فرضية بيولوجية أبعد شيء عن أن تكون نظرية فلسفية عامة، فضلا عن أن تكون حقيقة علمية ثابتة، غير أن السؤال الأهم:

ما هي الأضرار التي يمكن أن تترتب عليها للإنسان ؟

١- قبل ظهور النظرية كان الناس يدعون إلى حرية الاعتقاد بسبب الثورة الفرنسية لكنهم: بعدها أعلنوا إلحادهم الذي انتشر بطريقة عجيبة.

٢- لم يعد هنـــاك أي مدلول (لكلمة آدم – حواء – الجنة – الشجرة) (الخطيئة – حسب اعتقاد النصارى) [2].

٣- سيطرت الأفكار المادية على عقول الطبقة المثقفة وأوحت كذلك بمادية الإنسان وخضوعه لقوانين المادة.

٤- عبادةالطبيعة لقول داوين (الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق) كما قال (إن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله ، هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت).

٥- لم يعد هناك جدوى من البحث في الغاية والهدف من وجود الإنسان، لأن

(١) د/ مصطفى أحمد أبو سمك، أضواء على الثقافة الإسلامية ص٧٦.
(٢) فطبيعة الديانة النصرانية تجعلها أكثر الأديان تعرضا للانهيار في حالة ثبوت النظرية، فالمسيحية البولسية تعتقد أن الله خلق آدم وحواء، ونهاهما عن الأكل من شجرة معرفة الخير والشر – فأغرتهما الحية فأكلا فارتكبا خطيئة لا تغتفر، وظل الجنس البشري يرسف في أغلال الخطيئة، حتى رحم الله العالم، فأرسل ابنه الوحيد فقتل على الصليب، ليخلص البشرية من الخطيئة – وهذه العقيدة هي محور التعاليم الكنسية، ولا يعد المرء مؤمنا بغير اعتقادها – فبدهي أن نقض نظرية داروين يؤدي إلى إلغاء الخطيئة إذا لم يكن ثمة خطيئة فإن الصرح التاريخي للمسيحية ينهار كبيت من الورق.

داروين قد جعل بين الإنسان والقرد نسبا، بل لم يجد للبشرية جدا إلا في عالم القرود.

٦- ساعدت الظروف السيئة التي شهدت ميلاد النظرية (لحظات الصراع بين الدين والعلم) وتحفز الإنسان الأوربي للأخذ بثأره من رجال الكنيسة، الذين أذاقوه ألوان الذل، والاستعباد، فعمل على تثبيت النظرية شماتة في الكنيسة ورجالها - لاسيما مع افتقار الإيمان المسيحي للإقناع العقلي.

٧- كانت نظرية داروين إيذانا وتمهيدا لميلاد نظريات:

فرويد في التحليل النفسي - ونظرية برجسون في الروحية الحديثة - ونظرية سارتر في الوجودية - وماركس في المادية.

٨- انتقلت نظرية التطور البيولوجية: لتكون فكرة فلسفية، داعية إلى التطور المطلق في كل شيء، تطور لا غاية له ولا حدود، وانعكس ذلك على الدين والقيم والتقاليد وساد الاعتقاد: بأن كل عقيدة أو نظام أو خلق، هو أفضل وأكمل من غيره، ما دام تاليا له في الاعتقاد الزمني.

يقول برتراندرسل (ليس ثمة كمال ثابت، ولا حكمة، لا تقوم بعدها حكمة، ولو تخيلنا أن اعتقادا يحتوي على الحق الأبدي فإن المستقبل كفيل بأن يضحك منا)[1].

دور اليهود والقوى الهدامة في نشر النظرية:

غني عن البيان أن يقال أن اليهود يخططون للقضاء على البشرية واستحمارها عن طريق القضاء على دينها، وأخلاقها، وتقاليدها، مستغلين في ذلك ضعف الشعوب وقابليتها للاختراق والتبعية، والاستعمار، وإن الزمن ليكشف تدريجيا خيوط هذه المؤامرة الشيطانية التي يدبرونها ضد الجنس البشري بجملته، ومع أن داروين لم يكن يهوديا - بل كان نصرانيا - لكن اليهود والقوى الهدامة وجدوا في هذه النظرية ضالتهم المنشودة فعملوا على استغلالها لتحطيم القيم في حياة الناس.

---

(١) سفر عبد الرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة ص١٧٨، ١٧٩بدون رقم أو تاريخ، وهي رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة أم القرى .

تقول بروتوكولات حكماء صهيون: (لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء، ولاحظوا أن نجاح داروين، وماركس، ونيتشة، قد رتبناه من قبل، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي سيكون واضحا لنا على التأكيد) [1].

وليس التطبيق العاجل للنظرية والرواج المنقطع النظير، هو السبب في عدم موت هذه النظرية بل إن هناك أسباباً أخرى منها:

١- الإهمال الكامل للنظريات التطورية اللاهوتية - حتى إن والاس، قرين داروين وشريكه في اكتشاف النظرية، لا يكاد يعرف عند غير المتخصصين، وليس لذلك من سبب، إلا قوله بأن وراء عملية التطور قوى مدبرة.

٢- الطريقة الغريبة التي قوبلت بها النظرية، والتي جعلت الناس يتلقفونها لا بوصفها نظرية علمية، بل كما لو كانت ديناً جديدا، بالفعل، وطرحت لا كمناقض للمسيحية، بل كبديل لها.

٣- التمجيد والتقديس الخارق، والعجيب، لصاحب النظرية، داروين، والذي حاز من الشهرة ما لم يظفر به أعظم خدام البشرية، وجعله مؤرخو الفكر الغربيون أعظم محرر للفكر البشري، بل إن بعضهم ليشبهه بالمسيح عليه السلام.

٤- الحملة الصحفية المكثفة للتشهير بأعداء النظرية، وتحيز الصحف الكامل ووقوفها بجانب داروين ضد الكنيسة - مع أن نظرية داروين كانت مجرد افتراض، وصل إليه استنادا إلى جزئيات مختلفة، لم يستوعبها إلا بقدر ما سمحت له ظروف عصره، وبالرغم من أن الحفريات المتوالية جاءت مكذبة لدعواه. لكن الصحافة كانت واقعة في قبضة المرابين اليهود وأتباعهم - وهذه جميعا دلائل واضحة على أن المعركة لم تكن طبيعية:

وأن عنصرا غريبا كان ينصب شباكه في الظلام، للاجهاز على القيم الدينية والأخلاقية وهو غاية ما تهدف إليه البروتوكولات.

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون، البروتوكول الثاني، ص٣٨، الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ط١ مطبعة دار القادسية بالإسكندرية .

أما بالنسبة للموقف الإسلامي من هذه النظرية:

فإنه يرفض نظرية التطور جملة وتفصيلا، ذلك أن القرآن الكريم قد أوضح لنا كيف خلق الله الإنسان الأول من ﴿صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾[1] هذا بالنسبة لخلق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام أبو البشر.

أما عن خلق أبنائه من بعده فقد قال سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾[2]. وفي معرض الأطوار التي يمر بها خلق الإنسان تسجل آيات سورة الحج ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ..﴾[3].

هذه الآيات الكريمة تبين أن الإنسان خلق نوعا مستقلا، وليس متطورا من نوع آخر من أنواع الحيوانات أيا كان هذا النوع وكيفما كان التشابه.

فلو كان خلق الإنسان بطريقة الإرتقاء والتطور، لكان ما أخبر به القرآن عن خلقه، لا يطابق الحقيقة، ولا يتفق مع الواقع، وهذا أمر باطل من أساسه، ثم إن نظرية داروين: تنفي تلك النفخة الإلهية عن الإنسان، كما أن مسئلة خلق الإنسان الأول، من الأمور الغيبية، التي لا يتناولها الحس، ولا التجربة، وليست هناك مقدمات عقلية، تهدي العقل إلى معرفة واقعها، فلا يستطيع بشر مهما ادعى المعرفة أو التجريب، أن يفصل فيها بعقله وقلبه ورأيه.

ولأمر ما، أراده الله سبحانه وتعالى، ولعلمه المطلق بأنه سوف يأتي نفر من بني آدم يحاول تخريج القضية عن حدها الصحيح، لاوياً عنق الحقيقة بعقله فإنه سبحانه قد سجل في محكم كتابه أن هذه مسئلة لم يشهدها مخلوق حتى يستطع أن يجزم فيها برأي. ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾[4].

---

(١) سورة الحجر جزء الآية رقم ٢٦.
(٢) سورة الطارق آية رقم ٥-٨.
(٣) سورة الحج آية رقم ٥.
(٤) سورة الكهف آية رقم ٥١.

كما أن الحق تباركت أسماؤه أفاض الحديث في القرآن، والسنة، على لسان رسوله (فيما يتعلق بأصل الإنسان - وقدم له صورة كريمة تنفي حيوانيته التي يزعمها له الفكر الغربي - وتقدمه على أنه مخلوق متفرد بنفسه على غيره من المخلوقات في نشأته وتكوينه، وحسبه من تفرده هذا أن يكون بشرا، فهو ليس إلهاً أو شبيها به، وقد خلقه الله سبحانه بيده، ونفخ فيه من روحه، سيدا لهذا الكون، ثم هو ليس ملكا، وقد تقاسم العالم الروحي كيانه، وكان في العالم العلوي نشأته، وهو ليس حيواناً، وإن تقاسم معه الحياة الظاهرة، وشابهه في قضاء حوائجه البدنية[1] كرمه الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[2] وجعله في أحسن صورة وقيمة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3] والتقويم ذو علاقة وثيقة بالقيمة المعنوية، كما حظي الإنسان وتفرد بالنفخة الإلهية القدسية من روح الله ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[4] فاستحق بذلك تكريم ملائكة الله في الملأ الأعلى.

• الملحدون هم القائلون بنظرية التطور:

إن من أسباب تشبث الملحدين بهذه النظرية: توهمهم وجود تناقض بين فكرة الخلق وفكرة الأسباب، أي أنه لكي يكون الشيء مخلوقا لله ، فلا ينبغي أن تكون لحدوثه أسباب طبيعية ! كان دليلا على أنه لم يحدث بقدرة الخالق، فما عليه أهل السنة والجماعة أنه لا تناقض بين كون الشيء مخلوقا، وكون حدوثه تفسيرا طبيعيا، فهم يقولون، أن التطور والارتقاء يفعل كذا، وكذا، ويضعونه في موضع الخالق سبحانه[5] مع أن الطريقة التي تحدث بها الأشياء لا تتنافى مع وجود خالق لها، يحدثها، ويطورها، بتلك الطريقة. **من أجل هذا:**

---

(١) د/ مصطفى ابو سمك، أضواء على الثقافة الإسلامية.
(٢) سورة الإسراء آية رقم ٧٠.
(٣) سورة التين آية رقم ٤.
(٤) سورة الحجر آية رقم ٢٩.
(٥) جعفر شيخ إدريس مرجع سابق ص٣٧.

فإن الإسلام يرفض هذه النظرية التي أبطلها الواقع، وكذبها العلم وفندها العلماء، هذه النظرية التي يستخدمها أعداء الإسلام كسلاح آخر لزعزعة عقائد الشباب وصرفهم عن الإيمان بحقائق الإسلام، مع أن الإسلام دين علم ومعرفة وتوحيد، وعلى المسلم أن يكون حذرا من مثل هذه الأباطيل، التي يكمن ورائها القول بأن الإنسان خلق عن طريق المصادفة، وأن الحياة نشأت عن المادة ذاتيا وأن تولد الأحياء جاء عن الطبيعة، وهذا كفر صريح [١].

ما ذكرته مجلة الهلال
عن بعض علماء المسلمين في القول بالتطور
مناقشته والرد عليه

أوردت مجلة الهلال في سنتها السابعة عشر تحت عنوان مذهب النشوء [٢] والعرب، بعض النقول عن ابن مسكويه المتوفي سنة ٤٢١هـ، في كتابه «الفوز الأصغر في فصل مراتب الوجود» قوله: (فأما اتصال الموجودات التي تقول أن الحكمة سارية فيها، حتى إذا أوجدتها وأظهرت التدبير المتفق من قبل الواحد الحق في جميعها، حتى اتصل آخر كل نوع بأول نوع آخر، كالسلك الواحد الذي ينظم خرزا كثيرا).

مستدلة بهذه الأقوال أو مؤكدة من خلالها، نظرية النشوء من حيث تفرع العوالم بعضها عن بعض، والإشارة إلى وحدة أصلها.

والحقيقة التي ينبغي تسجيلها أنه لا يوجد عالم من علماء المسلمين بحق، يصدر في رأي أو اجتهاد، كبيرا كان أو صغيرا، وهو يعلم أن هناك نصا قاطعا في بحثه !!

وإذا نظرنا وجدنا أن مفكري الإسلام، يرون أن العالم وما فيه من مخلوقات قد صدر عن الله عز وجل، وأن هذه المخلوقات منتظمة في سلك واحد مرتب محكم،

---

(١) مجلة الأزهر، ج٤، ص٢٨٨، سنة ١٩٣٧، مقال عن نظرية التطور بقلم محمد فريد وجدي.
(٢) مجلة الهلال ١/ ٤/ ١٩١١م ج٧ ص١٩.

فهذا ابـن خلـدون: يقول: (إعلم أرشـدنا الله وإياك أنا نشـاهد هذا العـالم بما فيها من المخلوقات كلها، على هيئة مـن الترتيب والإحكام، وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض، لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته) [1].

والقزويني: يقول: (فـأول مراتب هـذه الكائنات تـراب، وآخرها نفـس ملكية طـاهرة، فإن المعـادن متصل أولهـا بالتراب والمـاء، وآخرها بالنبـات، والنبات متصل أولـه بالمعـادن وآخره بـالحيوان، والحيـوان متصل أولـه بالنبـات وآخـره بالإنسـان، والنفوس الإنسانية متصل أولها بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية) [2].

ومعنـى الاتصال في هـذه المكونات، أن آخـر كل أفق منهـا مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول الأفق الذي بعده.

ولكن مفكري الإسـلام علـى كل حـال، لا يفهـم مـن كلامهـم القـول بالتطور العضوي الداروينـي، بمعنى أن الكائنـات قد نشـأت من أصـل واحـد، ثم أخذت تـترقى، نتيجـة لتأثير البيئـة والانتخـاب الطبيعي، التنـازع في سـبيل البقـاء وبقـاء الأصلـح، والوراثـة والطفرة، وإنما الذي يفهـم مـن آرائهم أن هنـاك تدرجا في خلق الكائنـات، بحيث وجـدت المعـادن ثـم وجد النبـات، ثم وجـد الحيوان، ثـم وجد الإنسان، وفي داخل كـل مرتبة من هذه المراتب درجات متعددة، وهذا التطور قائم على مبدأ الأفضلية والشـرف، وحتى لو أنطقنـا مفكري المسـلمين - **كما حاولت أن تفعل ذلك مجلة الهلال.**

نظرية التطور بين دارون ومفكري الإسلام:

لو حاولنـا انطاق مفكري الإسـلام بنظريـة داروين، فسـيكون هناك خلاف بين نظريتهـم ونظريـة داروين، حيث أنـه في **نظريـة داروين**: ينتهي التطـور بوجود الإنسان فقط، فهو الغاية من التطور.

أما مفكرو الإسـلام: فـإنهم يعتبرون الموت مرحلـة من مراحل التطور كمـا أنه

(١) مقدمة ابن خلدون - طبعة دار الشعب القاهرة ص٨٨.
(٢) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ط٤ مصطفى البابي الحلبي القاهرة ١٩٧٠م.

ليس الغاية للكائنات الحية هي المحافظة على الحياة، فهناك أمور جمالية في الكائنات، ليست لازمة للمحافظة على الحياة، كما أن ما قد يتبادر إلى الذهن من مثل قول ابن خلدون (استحالة بعض الموجودات إلى بعض) ينبغي أن يفهم في إطاره الصحيح وبالمعنى الذي قصده هؤلاء المفكرين لا أن يتعسف في فهمه، بحجة سبق علماء المسلمين بالنظريات الحديثة، فالاستحالة هنا، لا تعني بالضرورة إنقلاب الأجناس، فقد يقصدون باستحالة المعادن إلى نبات، أن النبات يتغذى على الأرض بما فيها من معادن، وكذلك استحالة المعادن والنبات إلى الحيوان، وكذلك إستحالة المعادن والنبات والحيوان، إلى الإنسان، فهذا الحيوان الذي يذبح ليأكله الإنسان قبل ذبحه كان يتغذى على النبات المتغذي من الأرض بما فيها من معادن وغيرها.

فالتطور الدارويني: يسقط العلل والأسباب والأهداف والغايات، ويرد كل شيء إلى الطبيعة، أما **المفكرون المسلمون** فيردون هذا التطور إلى القوة الإلهية الخلاقة، ويرون أنها تسير وفق غاية محدودة مرسومة وهو بذلك (دليل عناية ونظام وضبط وتوازن) [1].

وفي الختام:

نصل إلى نهاية المبحث بهذه النتيجة الهامة بالنسبة للإنسان: وهي أن القرآن الكريم لم يتحدث عن أصل النبات أو الحيوان، ولهذا يجوز للعقل الإنساني أن يجد في البحث عن هذا الأصل، دون أن يلوي عنق الحقائق أو يزيف فيها - أما فيما يتعلق بالإنسان، وأصله فقد أفاض القرآن الكريم ومعه السنة المطهرة في الحديث عنه، لهذا لابد من الأخذ بإخبارهما عن هذا الأصل دون مناقشة أو جدل[2] وصدق الله العظيم إذ يحسم هذه القضية من خلال آيات القرآن التي تبين خلق الكائنات خلقا مستقلا، استقلالا تاما، فمنها الإنسان الذي يمشي على رجليه، ومنها الدواب التي تمشي على أربع، ومنها الزواحف التي تمشي على بطنها، قال

---

(١) د/ عبد المعطي محمد بيومي، الإسلام والتيارات المعاصرة، ١٧ ص١٢٥.

(٢) د/ محفوظ عزام، نظرية التطور عند مفكري الإسلام - دراسة مقارنة، دار الهداية، ٤٨ ش يوسف عباس مدينة نصر. ط٢ ص٢٤٤، سنة ١٩٨٦م.

سبحانه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

وهكذا: تتضافر أدلة العلم مع أدلة الدين ويلتقي كتاب الله المسطور مع كتاب الله المنظور على تأكيد فساد نظرية داروين وعلى أنها أسطورة انهارت، وصدقت الكشوف العلمية رأي الدين، في أن الإنسان خلق من جنس مستقل، وكما يبين الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ أنور الجندي (٢) فإن ما أثبته العلم أخيرا لم يكن مفاجاة، فإن علماء كثيرين متجردين أعلنوا أن الأنواع كلها، ظهرت إلى عالم الوجود دفعة واحدة كاملة، فلم يكن هناك حاجة إلى سلسلة من الأجيال المتعاقبة أو الإنتخاب الطبيعي أو تنازع البقاء، ولكن أنصار داروين وأنصار التطور كانوا كالكلاب الضارية، يأكلون كل من يحاول أن يكتشف زيفهم في محاولة لئيمة، تهدف لإفساد الفكر البشري كله، وتسميم الأديم الإنساني كله، بما وراء ذلك من غايات وأهداف، لقد كانت جماعة داروين من الملاحدة والمعطلة، يهدفون إلى تدمير الإنسان يقول: إن المؤمن يرى كل تطور نتيجة فعل القوة الإلهية في الطبيعة لا نتيجة تطور ذاتي، وإن داروين خطر على الدين لأن مذهبه لا يعطي المقام الأول للعزة الإلهية في تطور الكون.

وإننا لنرجو أن يرفع هذا التناقض الصارخ في البرامج الدراسية بين ما يتصل بالعقيدة الإسلامية، وبين هذه النظريات الوافدة، حتى يحال دون تمزق شباب الأمة الإسلامية، بين عقيدة الدين وفرضيات العلم، خاصة بعد أن سقطت نظرية داروين في الحقل العلمي وانكشف فسادها.

---

(١) سورة النور آية رقم ٤٥.
(٢) أنور الجندي، سقوط نظرية داروين، دار الاعتصام.

الفصل الرابع

القضايا الاجتماعية

لقد أولت مجلة الهلال اهتماما خاصا بالمرأة وقضاياها، منادية على صفحاتها لأول مرة في تاريخ الصحافة المصرية، والمجتمع العربي بمساواة المرأة بالرجل في الحقوق ... ورفع الحجاب عنها حتى تساهم في تنمية المجتمع وعمرانه وتقدمه ...

وكانت من أشد المناصرين والمدافعين عن قاسم أمين[1] ودعوته إلى تحرير المرأة، وخلع لباس الحياء والاحتشام، لتلبس ثوب السفور، والتبرج وتغشى المنتديات، وتخالط الرجال، وتقتدي بأختها الأوربية وتصنع صنيعها.

وقد طرحت المجلة هذه القضية على صفحاتها في وقت مبكر جدا - فالمقالات التي عالجت هذا الموضوع على صفحات المجلة سبقت قاسم أمين وكتابيه تحرير المرأة، والمرأة الجديدة بخمس سنوات كاملة، وجاء طرح الموضوع بالشكل التالي:

١- سؤال تقدم به أحد القراء - حول السر في انقضاء أكثر من عام على الهلال، ولم يكتب أحد، عن كفاءة النساء للقيام بأعمال الرجال ؟ وأخذ يصول ويجول هو في الإجابة، وانتهى إلى الكفاءة المطلقة في القيام بالأعمال البدنية والعقلية مما يستوجب المساواة في الحقوق[2].

٢- في العدد التالي، توالت المقالات على المجلة استجابة لما نشر بالعدد السابق بقلم د. أمين الخوري، بحث بيولوجي يبين الفوارق الكثيرة بين الرجال والنساء[3].

٣- ردود على مقال الخوري تحمل عليه وتعنفه فيما انتهى إليه وقد حملت - توقيعات جرجس إلياس (طرابلس) - استير زهدي [4] ؟؟ التي هبت تدافع عن

---

(١) قاسم أمين: (١٨٦٣-١٩٠٨م) ولد بمدينة الإسكندرية من أب تركي وأم مصرية صعيدية، تلقى تعليمه بالإسكندرية والقاهرة حيث تخرج من مدرسة الحقوق وحصل على شهادة الإجازة في القانون سنة ١٨٨١م، واشتغل فترة بالمحاماة، ثم سافر إلى فرنسا لدراسة القانون، ومكث بها ثلاث سنوات (١٨٨٢-١٨٨٥م) والتقى هناك بالشيخ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، واطلع وأعجب بمجلة العروة الوثقى، عاد لمصر سنة ١٨٨٥م وعمل بسلك القضاء، ثم وكيلا للنيابة، ثم رئيسا لها ببني سويف وطنطا، أهم مؤلفاته: كتاب تحرير المرأة ١٨٩٩م، وكتاب المرأة الجديدة عام ١٩٠٠م، وأحدث، ولا يزال، ردود أفعال بسببه.

(٢) مجلة الهلال العدد الصادر في ١٥/ ١/ ١٨٩٤م.

(٣) السابق ١٥/ ٢/ ١٨٩٤م.

(٤) ١٥/ ٣/ ١٨٩٤م.

بنات جنسها مسفهة كل رأي ينتقص من المرأة.

٤- مقال من الخوري، يؤكد فيه وجهة نظره السابقة مبيناً فضل الرجل على المرأة، موردا أقوال علماء الأجيال الوسطى واختلافهم هل للمرأة نفس[1] ؟

٥- مقال آخر عنوانه (نعم يحق للمرأة المطالبة بكل حقوق الرجال[2] بمقتضى التمدن الحديث المؤسس على السلام، والمحافظة على الإنسان وتربية عواطفه على الرقة والحنو وحسن المعاملة.

٦- مقال في نفس الموضوع لبيان معنى الحق والحقوق الواجبة للرجل في الهيئة الاجتماعية - وبيان أن حجة الضعف لا تقوى دليلا لمنع النساء من طلب حقوق الرجال[3].

٧- مقال آخر في العدد التالي بنفس المضمون [4].

٨- مقال بقلم سيدة من الإسكندرية تبين فضل الرجل والمرأة [5].

وهكذا احتلت قضية المرأة مساحة مكثفة على صفحات المجلة في هذا العام والذي طرحت فيه لأول مرة، بصورة سافرة تعمل على إيجاد التنازع بين شقي المجتمع، وتسريب التصور الغربي للمرأة في المجتمع المصري المسلم والمطالبة برفع الحجاب عنها حتى تكون مبتذلة، تنهشها ذئاب البشر على قوارع الطرق، وتكون سببا في هدم المجتمع، وهذا ما ظهر بجلاء ووضوح في موقف المجلة من انتهازها فرصة ظاهرة قاسم أمين - وكتابيه تحرير المرأة، والمرأة الجديدة - لكي تقف وراءه بكل قوة، مؤيدة له ومدافعة عنه تقول: (**لا تظن أحدا من أهل القطر لم يسمع بذكر قاسم بك أمين - (محرر المرأة المسلمة) المطالب بحقوقها والقائم بنصرتها** - وهم منذ قرأو كتابه الأول - تحرير المرأة - انقسموا إلى فئتين. **فئة أعجبت** بآرائه **واستحسنت حريته، واستبشرت بإتمام معدات النهضة الأخيرة على يده- وفئة:** عدت قوله بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، ونقموا عليه

---

(١) هلال ١/ ٤/ ١٨٩٤م.
(٢) الهلال ١٥/ ٤/ ١٨٩٤م عدد ١٦.
(٣) الهلال ١/ ٥/ ١٨٩٤م ج١٧.
(٤) ١٥/ ٥/ ١٨٩٤م.
(٥) الهلال ١/ ٦/ ١٨٩٤م.

بألسـنة حداد، وأوسـعه بعضهم طعنا قبيحا جارحا، ومهما قيل عنه: فإنه من المصلحين الأفاضل ولا نظنه قام بنصرة المرأة المسلمة إلا وهو يتوقع تلك المقاومة - وهي شجاعة أدبية يندر مثالها - وليس فضل قاسم أمين في معرفة حقوق المرأة، وواجباتها، ونسبتها إلى إصلاح الهيئة الاجتماعية بعشر معشار فضله، في التصريح بذلك على رؤوس الملأ ومقاومة تيار العادات والتقاليد(*) وسيرى أهل العصور المقبلة فضل قاسم أمين ويذكرونه بالاحترام والإعجاب، إذ تكون المرأة المسلمة قد تحررت، فتعرف قدر انتصاره لها في عصور جهالاتها.

والخلاصة: إننا نهنئ صاحب المرأة الجديدة - بما نالته من المنزلة السامية، والقدر الرفيع، في عيون العقلاء، وإن كنا لا نكتفي بإعجابهم بالكلام - إذا لم ينهضوا معه، وينصورونه في جهاده بأقلامهم. إن فعلوا ذلك شاركوه، فيما سيناله من الذكر الخالد في تاريخ الإسلام (١).

وهكذا لخصت مجلة الهلال رأيها، وموقفها التي سبقت قاسم أمين، في طرحه على صفحاتها - في السنة الثالثة من إصدارها - مضافا إلى الفصول الكاملة التي نشرتها من كتاب تحرير المرأة في أعدادها (٢).

على النحو التالي:

١- فتحت المجلة صفحاتها وعلى مدار سنة كاملة للدعوة إلى المساواة بين المرأة و الرجل.

٢- انتهزت فرصة - إصدار قاسم أمين لكتابه الأول تحرير المرأة - لتعيد من خلاله تأييدها للقضية ونشرت معظم فصول الكتاب.

٣- استمراراً على نفس السياسة التي انتهجتها فساندت وبقوة كتاب المرأة الجديدة - ودعت عقلاء الأمة على حد تعبيرها إلى الوقوف خلف قاسم أمين،

(*) قام حاكم مصر آنذاك الخديوي عباس الثاني بمنع المستشار قاسم أمين من دخول القصر، ولزم أصدقاؤه من صفوة المثقفين، الصمت، وابتعدوا عنه حتى لا تلصق بهم التهم الموجهة إليه.

(١) مجلة الهلال العدد الصادر في ١ مارس سنة ١٩٠١م.

(٢) نفس المصدر بتاريخ ١٥/ ٦/ ١٨٩٩م.

بأقلامهم وكتاباتهم حتى يذْكَرَهُمْ تاريخ الإسلام !!

وبعد بيان موقف المجلة ننتقل إلى مناقشتها ببيان:

الظروف والملابسات التي نشأت فيها هذه القضية ؟ ومتى تسربت إلى المجتمع الإسلامي ؟ دور الاستعمار في تسرب وترسيخ هذه القضية في المجتمع عن طريق بعض الكتاب والمفكرين المناصرين له ؟ لكي يثيروا قضايا أخرىٰ في محاولة لصرف النظر عن جحافل الاستعمار الجاثمة على صدر مجتمعاتهم، كذلك موقع هذه القضية على خريطة الفكر الإسلامي - أو بمعنى آخر هل استعبد الإسلام المرأة طوال ثلاثة عشر قرنا من الزمان، حتى انطلق قاسم أمين أو غيره في القرن التاسع عشر الميلادي، ليحررها من قيوده التي كبل بها المرأة ؟؟

إنها أسئلة عديدة، تتوالى على الأذهان، عند قراءة هذه القضية وبحثها يحتاج إلى إلقاء الضوء الكاشف عليها، حتى تنجلي الحقيقة ويظهر الصبح لذي عينين ؟

مناقشة شبهة تحرير المرأة

بادئ ذي بدء متى ظهرت القضية في المجتمع المصري ؟

إذا حاولنا البحث للإجابة على هذا السؤال فسنجد أن حملة نابليون على مصر ساهمت في التعريف بوضع المرأة في أوربا، وفيما وصلت إليه من حرية واستقلال - مزعومين - وقد سجل ذلك المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي في كتابه عجائب الآثار في وصف أحداث ١٨٠٠م غير أن الحملة الفرنسية لم تكن السبيل الوحيد الذي تعرف المصريون من خلاله على وضع المرأة الاوربية، فقد كان لطلبة البعثات الذين أوفدهم محمد علي إلى أوربا، والخبراء الأجانب، الذين استقدمهم للعمل في مصر سبيلا آخر - فهذا رفاعة الطهطاوي الذي أقام في فرنسا بين ١٨٢٦-١٨٣١م يعود إلى مصر ويؤلف كتابا (تخليص الإبريز) يتحدث عن وضع النساء في فرنسا ويمتدح تصرفاتهن بخلاف ما ذهب إليه عبد الرحمن الجبرتي فمما قاله (وعادة نساء هذه البلاد كشف الوجه، والرأس، والنحر وما تحته، والقفا وما تحته،

واليدين أقرب إلى المنكبين) (... إن وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سترهن، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة) [١] ولاشك أنه فهم مغلوط يتنافى مع النزعة الفطرية، فحركة تحرير المرأة، وإن بدت هادئة تدعو إلى تعليم المرأة، في كتاب الطهطاوي (المرشد الأمين إلى تعليم البنات والبنين) وكتابه السابق (تخليص الإبريز) من تهوين اختلاط المرأة بالرجل في أوربا، مما يكاد أن يكون دفاعا عنه – وهو واضح الدليل أو الدلالة، على تأثر الطهطاوي، بما شاهده في المجتمع الأوربي، أثناء إقامته في باريز، كما ظهر بعد ذلك أحمد فارس الشدياق صاحب كتاب (الساق على الساق) صدر عام ١٨٥٥م داعيا إلى تحرير المرأة العربية من الجهل لأن (... المرأة إذا اشتغلت بالعلم كان لها به شاغل عن استنباط المكايد واختراع الحيل ...) [٢].

هذه الكتابات وإن مثلت العمق التاريخي لهذه القضية، إلا أنها كما يسجل زيدان ربما لم تلق من الأهمية ما لاقته أقوال قاسم أمين يقول: (بالنظر إلى استعداد الأذهان اليوم إلى هذا الإصلاح، وهكذا جاء قاسم أمين ليثير هذا الموضوع بعنف في كتابه تحرير المرأة (١٨٩٩م) والذي حاول فيه قاسم أمين، أن يخفي دوافعه الحقيقية، وهي الافتتان بالحضارة الغربية ليبدو وكأنه يستنبط أحكامه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وقد تناول أربعة مسائل في هذا الكتاب:

المسئلة الأولى:

الحجاب ويزعم فيها أن الإسلام أباح للمسلمة أن تظهر بعض أعضائها متوسعا في تفسيرقوله تعالى ﴿إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [٣] متجاهلا لما يدل عليه قوله تعالى ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ﴾ [٤] وزعم أن قصر المرأة في بيتها، وحظر مخالطتها الرجال تشريع خاص بنساء النبي ﷺ فقط، لا يتعداه إلى نساء المسلمين.

(١) د/ محمد عمارة، تخليص الإبريز للطهطاوي من الأعمال الكاملة، الموسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ص٢٥٨ سنة ١٩٧٣م.
(٢) أحمد فارس الشدياق، الساق على الساق، منشورات مكتبة الحياة، سنة ١٩٦٦م.
(٣) سورة النور جزء الآية رقم ٣١.
(٤) سورة الأحزاب جزء الآية رقم ٥٩.

المسئلة الثانية:

تعدد الزوجات واعتمد فيها على صدر الآية الكريمة ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[1] وركب منه ومن قوله تعالى ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ مقدمتين يصل منهما، إلى تحريم التعدد متجاهلاً عجز الآية الأولى التي تبين أن العدل المقصود هو العدل القلبي وهو غير مستطاع. ومتجاوزا صدر الآية الثانية ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾ [2].

المسئلة الثالثة:

الطلاق: واتخذ من قول الحق سبحانه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾[3] مستندا إليه في تقديم مشروع قانون لا يتم فيه الطلاق إلا بحكم قضائي متجاهلا كل ما سبقه من آيات وما ورد في غير هذه السورة من نصوص صريحة تقرر ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[4] وأن عقدة النكاح بيد الرجل، وأن التحكيم الذي تشير إليه الآية الكريمة لا يخرج عن نطاق الأهل، وليس القضاء طرفا فيه.

والكتاب في جملته: نموذج للمحاولات التي تبذل لتطوير الإسلام وحمله على الحضارة الغربية بتفسيره على الوجه الذي يلائمها، وحمل الحضارة الغربية عليه، بتبرير مذاهبها وأنماطها بنصوصه، بعد تحريفها وخلعها من سياقها، باختيار ما يناسبه مما تقوم به حجته في مراغمة، وتجاهل، ما لا يناسبه مما يعارض أهوائه معارضة صريحة محكمة، وتتبع الشواذ والرخص، والضعيف من الحوادث والأحكام، وتصيدها على مدى القرون، واختلاف الظروف، ولتبدو حين تحشد مجتمعة وتضم بعضها إلى بعض في حيز واحد، كأنها عرف جار وأمر شائع.

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٢٩.
(٢) سورة النساء آية رقم ٣.
(٣) سورة النساء آية رقم ٣٥.
(٤) سورة النساء صدر الآية رقم ٣٤.

وهذا الطريق الذي سلكه قاسم أمين عند إثارته لهذه القضية:

صار طريقا ومنهجا، لكل من يهدف إلى تحريف شريعة هذه الأمة، ونقلها عن جبلتها، وتمييع شخصيتها، وإفساد كيانها وتفريقها فيما جمعها الله عليه.

يعتمد هذا الأسلوب: الذي ينتهجه أعداء الإسلام وخصومه على اختلاق قضايا لا حقيقة لها - وافتعال مشاكل يتوهمون وجودها تحت أسماء خلابة براقة كالنهضة - التحرر - التطور - متابعة ركب الحياة - وهذا هو عين ما صنعته مجلة الهلال، في تبنيها وطرحها لهذه القضية، على مسامع الشعب المصري، في وقت كانت البلاد أحوج ما تكون إلى مناقشة وعرض قضاياها الحقيقية، والملحة، والمصيرية، فقضية الاحتلال الإنجليزي للبلاد، والاستعمار الجاثم على صدر الشعب المصري ومحاولة طمس معالمه وطعنه في أعز ما يملك: ثقافته - بما تشمله من لغة، ودين، وعادات وتقاليد مستمدة من ذلك الدين، بدل مناقشة هذه الموضوعات التي تشكل احتياجات الجماهير الحقيقية والملّحة، حاولت المجلة اختراع موضوعات منوعة، تهول من شأنها، وتكثر الأخذ والرد حولها، حتى تلفت أنظار الناس إليها لتأخذهم بعيدا عن مشكلاتهم الملحة وقضاياهم الآنية.

والأثر المترتب على هذا الأسلوب في المعالجة، أن تنشأ أجيال من الناس مرنت آذانها، منذ وعت على سماع المناقشات حول هذه الموضوعات فتتوهم أنها مشكلات حقيقية، لابد لها من حل، وتتجه في أغلب الأحيان إلى الحل الوسط الذي يرضي الطرفين المتخاصمين، حسب وهمه، والخاسر في حقيقة الأمر هو صاحب الحق، والربح كله للباطل وأصحابه.

المرأة الجديدة:

وفي محاولة لتأكيد هذه المقدمات **نجد أن قاسم أمين في كتابه الثاني (المرأة الجديدة)**[1] **١٩٠٠م تقدم خطوة إلى الأمام إن صحت التسمية !!** فأعلن ما أخفاه في كتابه الأول، فدعا الناس إلى أن يتخلصوا مما وقر في نفوسهم، من أن

(١) قاسم أمين ، المرأة الجديدة، طبعة أخبار اليوم، ص٥٨، ديسمبر سنة ١٩٨٩م.

عـاداتهم هي أحسـن العـادات، وأن مـا سـواها لا يسـتحق الإلتفـات، وقال: «إن طالب الحقيقة لا يجب أن يجري في إصدار أحكامه على هذا الضرب من التساهل»، فاختار المؤلف في كتابه هذا أسوأ ما في الحضارة الإسلامية من صورالفساد النادرة ثـم يختم كلامـه بقوله (فسـيان عندنا إن احتجـاب المرأة المسـلمة كـان من أصول المدنيـة الإسـلامية أو لم يكن وسـواء صح أن النسـاء في أزمـان خلافـة بغداد، كن يحضـرن مجـالس الرجـال، أو لم يصح، فقـد صـح أن الحجـاب هـو عـادة لا تليق استعمالها في هذا العصر) [1].

غير أن سـؤالا يطرح نفسه تلقائيا بعد الكلام عن قاسم أمين وكتابيه السابقين ؟ وربما كـان مقامه في المقدمـة، لكن يرد على كل حـال وعقب كل كلام يثار حول هذه القضية مضمونه:

إذا كـانت مطالب قاسـم أمـين لتحرير المرأة قد تحققت وتخطاهـا وضع المرأة الآن فلمـاذا يستمر الخلاف حولهـا إلى اليوم بل وبهذه الحدة والإلحاح عليها إلى الحد الـذي تنادي فيه اليوم بما يسـمونه التحرير الثاني للمرأة العصرية ؟ حتى تصدر كتابـات حديثة تقول أنـه: (... بعد مائة عـام من صدور كتاب قاسـم أمين، يأتي برنامج المجلس الأعلي للمرأة، بمثابة التحريـر الثاني للمرأة المصرية، فلم يعد الحديث عن دور المرأة حديث صالونات أو ميكروفونات بل حديث عن الواقع) [2].

والإجابـة التي ينبغي أن تكون واعيـة في أذهـان العاملين للإسـلام، القائمين على خدمتـه هي: الحيثيات ولا شيء غيرها، فهي التي تطرح قضية المنهج وهي التي تحدد الإختيار الحضاري، أي الموقف من هوية الأمة وتطلعاتها.

أما المطالب فهي في المرتبة الثانية وهي بالطبع تفقد أهميتها بمرور الزمن.

فالحركة التي قادها قاسم امين- ودافعت عنه فيها مجلة الهلال- ويخوضها في هذا العصر، كل مـن يثير هذه القضيـة من دعـاة الاسـتنارة المظلمـة، من العلمـانيين، والماسونيين، والشيوعيين، هي معركـة الحيثيات التي قامت عليها دعوته والتي تمثلت

(١) د/ محمد محمد حسين، أزمة العصر، مؤسسة الرسالة ط٢ ص٢٠١، ٢٠٩.
(٢) أحمد يوسف القرعي – القضية وأبعادها – مقال للأهرام ٢/ ٦/ ٢٠٠٠م.

فيمـا أورده من هجوم خـاطيء على الدين والتراث والهويـة، ومـا طرحه من مفهوم خـاطيء للمشـكلة والحـل، إنهـا معركـة الرمز: أي العلاقـة المفترضـة بـين الحجاب والدين، أو ما يسميه بعض الكتـاب[1] الانتساب الحضاري - **هل نحن ننتسب إلى الحضارة الإسـلامية التي وضـع لبنتها الأولى محمد ﷺ، أم إلى الحضـارة الأوربية الملحدة التي أدارت ظهرها لكل الأديان ؟**

غير أن ما ينبغي التأكيد عليه والتنبه له:

أن قاسـم أمـين في الحقيقـة وإن فتح أبواب الفتنـة على المجتمع، كمـا ذهب إلى ذلك فضيلة الشيخ الدكتور/ عبد الفتـاح بركة[2] إلا أنـه لم يطالب بغير الحجاب، الذي أيدته بعض النصوص والاجتهادات المعاصرة له كما سجل في مقدمة كتابه - فقد كان الحجاب الذي أعلن الحرب عليه (هو حجز المرأة في البيت وحرمانها من التعليم وإنكـار الكثيرين للحقوق التي منحها لها الإسـلام) أما رواد عصر الاستنارة المظلمة الذي نعيشـه - والذين يعتبرون الحجاب ردة حضارية، حين يعلنون الحرب على الحجـاب (فـإنهم يصـرون على أن التنقيـب، والحجز في البيت، هـو الإسـلام الصحيح، وحكم الشـرع، ومن هذا المنطلق يحرضـون الحرب، فهدفهم عندئذ كما يقول الأسـتاذ محمد جلال كشـك - رحمـه الله - ليس تعريـة رأس الفتيات ولا تحريرالمرأة من الحجـاب، بل قطع رأس الإسـلام والتحرر من الديـن، كما أن موقفا آخر نسارع بتسجيله هنا ونأخذه على (مجلة الهلال) كما نأخذه على قاسم أمين: وهو أولا: موقف قاسـم أمين مـن الاحتلال الذي كانت تـرزخ البلاد تحت نيره في هذه الفـترة ؟ وموقف مجلـة الهلال وهـي تنشـر بعـض فصول هـذا الكتـاب المرأة الجديدة، وقول قاسم أمين فيه (إن الاستبداد السياسي أصبح في حال النـزع..)[3].

أنا أفهم أن تسكت مجلة الهلال وصاحبها جرجى زيدان، عن هذه القضية ليس هروبـا من الأبحـاث أو القضايـا السياسـية كمـا كانت تزعم - ولكـن لأنها تجد في

---

(1) محمد حلال كشك، جهالات عصر التنوير، مكتبة التراث الإسلامي ط1 سنة ١٩٩٠ م.
(2) د/ عبد الفتاح بركة، دور الاستشراق في تغريب المرأة المسلمة، هدية بمجلة الأزهر ص٣٥ عدد محرم سنة ١٤٠٦هـ.
(3) قاسم أمين - المرأة الجديدة - طبعة أخبار اليوم عدد ٣٠/ ١٢/ ١٩٨٩م ص٢٤.

المحتلين للبلاد عونا لها، فهم أبناء دينها وملجأ ظهرها، بل إن لهم بعض المآثر والأيادي على صاحب الهلال، فقد كرموه وأعطوه ميدالياتهم مكافأة له على تعاونه معهم في قلم المخابرات في حملتهم على السودان، كما سجلنا ذلك في الباب الأول.

لكن لا أفهم مبررا لسكوت سعادة المستشار المصري المسلم قاسم بك أمين، عن أخطر قضية كانت تعيشها بلاده فلا يعلن حربه على الإستعمار، ولا يسخر قلمه ومواهبه في جهاده، بدل أن سخره في إشغال الناس بقضية هامشية، راميا من ورائها إلى ضرب هذه الأمة في مقتل، بأن يزين لها الإنفصال عن تاريخها، وعدم تلقي كل موروثاتها الدينية بالتسليم والانقياد.

جرجى زيدان يشيد بعدل الاحتلال:

يقول (نحن اليوم متمتعون بعدل، وحرية، لا أظن أن مصر رأت ما يماثلها في أي زمن من زمانها) [١].

وفي وصف دقيق، ودراسة عميقة، لنفسية كتاب مصر – في القرن التاسع عشر يضع يدنا صاحب كتاب ودخلت الخيل الأزهر على مكمن الداء يقول: (إن المشكلة الحقيقية لقاسم أمين وأمثاله هي هزيمتهم السابقة أمام التحدي الأوربي، والقناعة بأنه من العبث مقاومة أوربا – وقد صرح في كتابه (إذا كان أمام مصر طريقان – العودة إلى تاريخ الإسلام – أومحاكاة أوربا – فقد اختارت الطريق الثاني، وليس علي أن أحكم على جدارة هذا الاختيار، لقد مضت في إثر حركة الحضارة الأوربية التي تجتاح كل مكان والتي يندر استحالة مقاومتها).

وهكذا يظهر مفتاح شخصية قاسم أمين ومن شايعه، إنه الانسحاق والاقتناع بالهزيمة – أو التسليم مقدما وبدون قتال بأنه لا سبيل إلى مقاومة أوربا [٢].

---

(١) نفس المصدر ص٢٨.

(٢) وهو نفس ما ذهب إليه طه حسين في مستقبل الثقافة حيث يقول (الطريق إلى النهضة: هي أن نسير سيرة الأوربيين، ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحسن منها وما يعاب) مستقبل الثقافة في مصر، ص٣٩، ط٢ .

وممـا يفجر ينابيع الحسرة أن هذه النخبة- لم يكن ينقصها الوعي بالمواجهة، وأن أوربـا أو الغرب، هو السـبب في تخلفنا - بـل الوعي بـالحل أيضـا ويدلل على هذا الأستاذ جلال كشـك، بموقف قاسـم أمين في كتابـه، الذي قدمـه سنة ١٨٩٤م في مواجهة الدوق الفرنسي حين قال (بأن أوربا تقف في طريق مصر) فيواجهه قاسم أمين بقولـه (إنني أعـترض بكل قوتي على هـذا المنهج في الرؤية، إن الإسـلام الذي ظل طويلا يمثل القـوة والنور، ما يزال يملك ذخيرة ثقافية وعظمة خلقية، تتيح له أن يصل حلقات السلسلة المقطوعة، وأن يعيد إيقاد الشعلات المنطفئة)[1].

بل إنــه يعرف صيغـة الحل (... فـلا سـبيل إلى المواجهـة أو الحـل إلا طريقـة واحدة، هي أن تسـتعد الأمة لهذا القتـال، وتأخذ لـه أهبتها، تسـتجمع من القوة ما للقوة الـتي تهاجمهـا، من أي نوع كـانت، خصوصـا (قوة العقـل والعلم التي هي الأسـاس)[2] وهنا يتضاعف الجرم فهـم كانوا يعرفون، بيد أنهم لم يكونوا يحملون طاقة ذاتية، تمكنهم من الصبـر على متطلبات هذا الحال بل كانت لاتؤمن بالشعب، ولا تضعـه في اعتبارهـا فهو يقول (نحن لا نكتب طمعـا في تصفيق الجهـال، وعامة الناس).

وهكذا فإن قاسم أمـين يمثل الفتى الشرقي الذي شـاهد التفوق الساحق لأوربا، ففقد حتى الرغبة في المواجهة، وتحول من الفخر بميراثه إلى الرغبة، في هدمه تماما !! فلأنهم ينتجـون المدافع في أوربـا مـن عيـار أفضـل، وهزمت هـذه المدافع سـيوفنا، ومدافعنا المتخلفة، فلابد أن تكون معاييرهم الخلقية والاجتماعية أفضل ؟!

لذا يبكتنـا محرر المرأة المسـلمة - كمـا تصفـه مجلـة الهـلال - بقولـه (هل يظن المصريون، أن رجال أوربا بعقولهم، ونفوسهـم، التي تعجب بآثارها يمكن، أن يغيب عنهم معرفة وسائل صيانة المرأة وحفظها ؟؟!).

وهذه والله مغالطة خطـيرة: لأن الأمر ليس حسابا لآلة بخارية أو تصميم جهاز أمان لعفـة المرأة، فالواقع الاجتمـاعي والأخلاقي، لا دخل له أو فيـه بالتقدم العلمي

---

(١) محمد جلال كشك، جهالات عصر التنوير، مكتبة التراث الإسلامي ص٢٨.
(٢) نفس المصدر ص٢٨.

واكتشـاف البحـار، **وإلا فهـذا هو الغرب**: يصعد علمـاؤه إلى القمر مـع إقرار العديد، من الممارسـات الشـاذة، والمنحرفـة، والمخالفـة للفطرة التي خلق الله الخلق عليها، ونسـتطيع أن نسرد عشـرات ومئات الأمثلـة على ذلك منها مثلا « **قاعدة:** أن كل التصرفات الشـخصية مصونـة إذا لم تؤثر على شـخص آخـر، كأن ينتحل الرجل شـخصية المرأة بزيهـا وعلاقاتها، وأن يظهـر ذلك أمـام أطفالـه، ومنها مثلا السـماح بزواج الشواذ داخـل الكنيسة، وبلغ الأمر حـد التبجح بالعلاقات الشاذة، والضغط علـى الحكومات، من أجل اعـتراف المجتمع والدولـة بحقوقهم، وإقامة نواد أو نقابـات لهم، بل وانضمـامهم إلى القوات المسـلحة، وأصبحـن ورقـة ضغط في الانتخابات وغيرها ... الخ » [1].

إن النسـاء في الغرب عشــن مراحل التحرر، واسـتعبدن من قبل أفكـار المجتمع الداعية لتحرير المرأة، وقد ناضل النساء لنيل مـا يسمى (حقوق المساواة في أماكن العمل) وطـالبن بالمعاملـة بـالمثل مسـاواةً بالرجل، والسـؤال هل اسـتمتعن بهذه الحقوق ؟ إن واقع الحال أن هؤلاءالنسـاء أنفسهن، أصبحن مطالبات بحقوق تختلف عن الرجال العاملين، مثل إجازة وضع الحمل، والتفرغ لرعاية الرضع، ... الخ، وفي هذا تناقض مع دعوة المساواة حيث أن الرجال ليس لهم مثل تلك الحقوق[2].

مما يخالف الفطرة السليمة، والانتشار العام للمخدرات والإيدز ؟!! فهل يبلغ بنا العته أن يُتَصوَّر أنه لن يمكننا دخول عصر الفضاء إن استمرت بناتنا في الحرص على عذريتهن !!! أو أنه لا يمكن اكتساب التكنولوجيا إلا مع مرض الإيدز ؟ – وهكذا من خلال ذلك العرض السـابق لدعوى قاسـم أمين، وملابسـاتها، وكتابيـه **تحرير المرأة، والمرأة الجديـدة** – وعرضهما ومناقشـتهما – يظهر تهـافت تلك الدعوى، وأن عرضهـا كـان من قبيل الخيانــة للمجتمع المصري، الذي كـان يرزح تحـت نير الـذل ويفترسـه الاحتلال الصليبي البريطـاني، يجرده من هويتـه، وثقافتـه، وأموالـه، ودينـه. ومن ينتسـب إلىهذا البلد ممن يسـمون بكبـار مفكريـه، بدل أن يشـهروا

(١) ندوة واقع المرأة في الغرب، مجلة البيان ص٧٨ عدد١٥٠ صفر ١٤٢١هـ.
(٢) المصدر السابق ص٨٠.

أقلامهم ويستخدموا مواهبهم في تبصير هذه الأمة، بالحقيقة المرة التي تحياها ووجوب تجمعها تحت راية الجهاد، حتى تحتفظ بتراثها، وحضارتها- إذ بهم يغذّون سياسة الاستعمار، ويساعدونه على احتلاله، بجر الأمة إلى هذه المعارك الجانبية.

أما مسألة المساواة بين المرأة والرجل:

في الحقوق والواجبات التي طرحها جرجي زيدان في **مجلة الهلال**، قبل أن ينطق قاسم أمين بكلمة من الدعوة التي أثارها في المجتمع المصري، وأثارت ردود الأفعال العنيفة ولا تزال، فللإسلام فيها منهج واضح مميز، راعى فيه الحق سبحانه وتعالى - الذي خلق المرأة والرجل - ما يصلح شأنهما، ويحقق مصالحهما يتمثل في عدد من الحقائق:

قرر الإسلام المساواة بين المرأة والرجل في كل شيء إلا ما دعت إليه الحاجة الواضحة وتلك آيات القرآن الكريم تؤكد هذا المعنى **﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾**[1]، **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾**[2]، **﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾**[3].

ومن الحقوق التي أقرها الإسلام للمرأة:

أولا: حق التعليم والثقافة: فعندما بين ﷺ أن (طلب العلم فريضة على كل مسلم) لم يكن مقصوده حصر الأمر في دائرة الرجال بل اشتماله واتساعه للمسلمات كذلك، باتفاق علماء الإسلام، وذلك لحاجة كل من الرجل والمرأة إلى معرفة خصائص الإنسانية، ووسائل تنميتها، بوجه عام ومعرفة خصائص الرجولة والأنوثة، ووسائل المحافظة عليها بوجه خاص أمر أساسي، لإحسان قيامها

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٧١.
(٢) سورة آل عمران جزء الآية رقم ١٩٥.
(٣) سورة النساء آية رقم ٧.

بوظائفها، في البيت، والحياة، هذا وقد ضرب النبي ﷺ أروع مثل في الحرص على تعليم المرأة وتثقيفها وتهذيبها بما فعله مع أم المؤمنين حفصة - فقد روي البلاذري في فتوح البلدان أن الشفاء (*) العدوية كانت كاتبة في الجاهلية كانت تعلم الفتيات، وأن حفصة بنت عمر الخطاب، أخذت عنها القراءة، والكتابة، قبل زواجها بالرسول ﷺ ولما تزوجها ﷺ طلب إلى الشفاء أن تتابع تعليمها وتثقيفها، وأن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة) [1].

كما روى البخاري في صحيحه عن أبي بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ (أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران) وتدل الشواهد الكثيرة على أن أبواب التعليم، والثقافة المختلفة، كانت صفوفها مفتوحة على مصارعها للمرأة، منذ عصر النبي ﷺ حيث كان ﷺ يولي المرأة عناية واهتماما كبيرين، يتضح ذلك جليا بمراجعة الأحاديث النبوية، من ذلك ما رواه بن عباس رضي الله عنهما قال (خرجت مع النبي ﷺ يوم فطر أو أضحى فصلى ثم خطب، ثم أتى النساء فوعظهن وذكرهن وأمرهن بالصدقة)[2]. ولم يقتصر الأمر على هذه اللقاءات العابرة، فقد روي أن سعيد الخدري قال « قالت النساء للنبي ﷺ غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوما من نفسك، فوعدهن يوما، لقيهن فيه فوعظهن، وأمرهن، فكان فيما قال لهن: (ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجابا عن النار) فقالت امرأة واثنتين، فقال واثنتين » [3]. وكان من أثر تلك الرعاية النبوية للمرأة المسلمة، أنه

(*) الشفاء العدوية: كانت من عقلاء النساء وكان رسول الله ﷺ يزورها ويقيل عندها في بيتها، وكانت قد اتخذت له فراشا، وإزارا ينام فيه، فلم يزل عند ولدها، حتى أخذه منهم مروان بن الحكم، وقال لها رسول الله ﷺ علمي حفصة، رقية النملة كما علمتها الكتابة، وكان عمر يقدمها في الرأي، ويرعاها، ويفضلها، وربما ولاها شيئا من أمور السوق، روى عنها ابنها سليمان، وحفصة أم المؤمنين، وأخرج بن منده عن طريق الثوري عن ابي المنكدر عن حفصة أن امراة من قريش كانت ترقي في الجاهلية، وأنها لما هاجرت إلى النبي ﷺ وكانت قد بايعته بمكة قبل أن تخرج فقدمت عليه، فقالت يارسول الله إني كنت أرقي برقى الجاهلية، فقد أردت أن أعرضها عليك فقدمتها، ومنها رقية النملة فقال بها، وعلميها حفصة.

شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني الإصابة في تمييز الصحابة، دار الفكر ببيروت - بدون رقم للطبعة ج٤ ص٣٤٢ سنة ١٩٧٨م.

(١) البلاذري، فتوح البلدان ..

(٢) رواه البخاري ح/٩٧٥، ومسلم ح/٨٨٤.

(٣) رواه البخاري ح/١، ومسلم ح/٢٦٣٤.

قد نبغ بفضل ذلك عدد كبير من نساء العرب والمسلمين، وبرزن في علوم القرآن، والحديث، والفقه، وشتى أنواع المعارف، وكان منهن معلمات فضليات، تخرج على أيديهن كثير من أعلام الإسلام، وعلى رأسهن أمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ ورضي الله عنهم جميعاً، معلمات يأخذ عنهن الرجال، كما تأخذ عنهن النساء، كما أن الرجال، حتى الخلفاء كانوا يرجعون إليهم فيما أشكل عليهم، في بعض الأحكام الشرعية، ولاسيما السيدة عائشة رضي الله عنها (1).

هذا بالإضافة إلى أن الإسلام لا يمنع المرأة أن تتعلم العلوم النافعة للمجتمع، بشرط عدم الاختلاط بالرجال، وقد بين الفقهاء أن ما تتعلمه المرأة نوعان:

١- فرض عين: وهو الذي تصح به عبادتها، وعقيدتها، وسلوكها، وتحسن به تدبير منزلها وتربية أولادها، إن كان العرف يلزم أمثالها التدبير والتربية.

٢- فرض كفاية: وهو ما تحتاج إليه الأمة من طبيبات لأمراض النساء والطفولة، تكفين حاجة المجتمع، وممرضات لتمريض النساء، ومدرسات لتعليم الفتيات بمدارسهن، أما إذا لم تكن هناك ضرورات ملحة، فلا داعي أن تصرف المرأة المسلمة عن رسالتها الحقيقية في الحياة، وهي إعداد الرجال، ففرض على الأمة إعداد النساء لثقافة معينة، فإن المسلمة تعرف أن ثقافتها يجب أن تتجه إلى ما يخدم وظيفتها الطبيعية، وهي رعاية البيت من طهي، وحياكة، وحضانة، ودراسة علم نفس الطفل، وأساليب تربية الأولاد ... الخ.

ثانيا: حق العمل: فقد أباح الإسلام للمرأة أن تقوم بالوظائف والأعمال المشروعة التي تحسن آدائها ولا تتنافر مع طبيعتها، كقيامها على رعاية ابنتها وزوجها وأولادها، ولم يقيد هذا الحق إلا بما يحفظ للمرأة كرامتها ويصونها عن التبذل وينأى بها عن كل ما يتنافى مع الخلق الكريم، وإذا اضطرت المرأة للعمل خارج بيتها، فيشترط أن تؤدي عملها في وقار وحشمة، بأن تبتعد عن نطاق الفتنة، وألا يؤدي عملها إلى ضرر اجتماعي أو خلقي، أو يعوقها عن آداء واجباتها الأساسية نحو زوجها وبيتها وأولادها، وألا تخرج في زيها وملبسها وزينتها

(1) د/ علي عبد الواحد وافي، المرأة في الإسلام، مكتبة نهضة مصر، بدون تاريخ أو رقم ص٢٥، ٢٦.

واختلاطها بغيرها [1].

وقد كانت المرأة تقوم بهذه الأعمال على عهده ﷺ رعاية لبيتها وزوجها وأولادها، تقول أسماء بنت أبي بكر وهي أخت عائشة أم المؤمنين – وزوجة الزبير بن العوام (كنت أخدم الزبير خدمة البيت وكان له فرس، وكنت أسوسه، فلم يكن من الخدمة شيء أشد علي من سياسة الفرس كنت أحتش له ... الخ، الحديث وفي رواية. كنت أسوسه وأدني النوى وأعلقه وأستقي الماء، وكنت أفرز قربة الدلو، وأعجن، وأنقل النورى، على رأسي من أرض له، على ثلثي فرسخ)[2]. وعن أنس ﷺ قال (كان النبي ﷺ يغزو بأم سليم، ونسوة من الأنصار معه، إذا غزى، فيسقين الماء ويداوين الجرحى) وفي الخبر أن أم سليم، اتخذت خنجرا يوم حنين فلما سألها النبي ﷺ قالت (اتخذته إذا دنا مني أحد من المشركين بقرت بطنه)[3].

وهكذا أباح الإسلام للمرأة، حق العمل مساواة بالرجل، مع الاحتفاظ للرجل بحق القوامة، وهي قوامة توجيه، ونصح، وحب، ورعاية، وود وتفاهم، وليست كما يحاول بعض الجاهلين القول بأنها قوامة تسلط وعنف وكراهية.

وهكذا يتبين أن الإسلام كان أسبق الشرائع في السماح للمرأة للمساهمة على نحو فعال في بناء المجتمع، بالاسهام بالعمل في ميادين الحياة المتنوعة.

ثالثا: حق النفقة: لقد ضمن الإسلام للمرأة من أسباب الرزق ما يصونها عن التبذل، ويحميها من شرور الكدح في الحياة، فأعفاها من كافة أعباء المعيشة، وألقاها جميعا على كاهل الرجل، فما دامت المرأة غير متزوجة، ولا معتدة من زوج، فنفقتها واجبة على أصولها، أو فروعها، أو أقربائها، فإن لم يكن لها قريب قادر على الإنفاق عليها، فنفقتها واجبة على بيت المال، فإذا تزوجت ألقيت جميع الأعباء الاقتصادية والمعيشية على كاهل الزوج، أصبح هوالمسئول عن النفقة عليها مع الاحتفاظ بحقوقها المدنية كاملة غير منقوصة، قال ﷺ (اتقوا الله في النساء

(١) د/ خليفة حسين العسال – مكانة المرأة في التشريع الإسلامي – ط١٩٨٩ ص٣٠.
(٢) أرجه مسلم في صحيحه ج١ ص١١ ط دار التحرير.
(٣) السابق ج٥ ص١٩٦.

فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف) [1].

ويقول (لمعاوية بن حيدة حين سأل ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال (أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت) [2]. ويحث الإسلام الرجل على الإنفاق على أهله ويحببه إليه (إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت صدقة) [3]. وإلزام الإسلام النفقة للمرأة على الرجل تمشيا مع طبيعتها وصونا لها من الخروج للعمل والتكسب والارتزاق إلا في الظروف الضرورية، أما أن يصبح اشتغال المرأة بأعمال التكسب والكدح قاعدة عامة، فهذا هو الفساد بعينه، لأنه ابتغاء مصلحة من غير وجهها، مما قد يؤدي إلى خلل في بناء المجتمع، يظل ينخر في قواعده كالسوس حتى يقضي عليه، دون أن يشعر الناس، وتلافيا لهذا الهلاك المدمر وتلك النهاية المفجعة، أوجب الإسلام على الرجل أن ينفق علىَ امرأته وأولاده دونما استغلال لهذا الواجب في الاستهانة بالمرأة أو مكانتها في البيت ودون إسراف أو تقتير.

رابعا: حق المرأة في اختيار شريك حياتها: فقد منع الإسلام الأولياء من الاستبداد في تزويج مولياتهم، من بنات وأخوات، وغيرهن بغير رضاهن وكان من ظلم الجاهلية فلا يصح أن يتدخل الآباء بغير رغبة المرأة ما دامت لم تسئ الاختيار هكذا تجمع الآيات[4] بين الذكر والأنثى في حكم واحد، ومما ينبغي التأكيد عليه في هذا المقام: أن الإسلام دين الفطرة والواقع، فالرجل يفضل المرأة، وفي بعض الأحيان الأمور من حيث القوة، وتحمل الصعاب، والكد والإرهاق، وعضلاته أصلب من المرأة، لأنها يعتريها الحيض في كل شهر أياما فيهتز جسمها، وهي تتعب فتحمل عوارض الحمل والولادة.

وهذا ما انتهى إليه كبار المفكرين بعد بحث ودراسة: إذ سجلوا بأقلامهم (...

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج٤ ص٤١.
(٢) مسلم ج٢ ص٩٥ وسنن أبي داود ج٢ ص٢٤٤ ط دار التحرير.
(٣) مسلم في صحيحه ج٢ ص٦٩١.
(٤) الآيات السابقة حسب ترتيبها من سور التوبة ٧١، آل عمران ١٩٥، النساء ٧.

ولا تساوى المرأة بالرجل في أي عمل اشتركا فيه، ولو كان من الأعمال التي انقطعت لها المرأة منذ عاش الجنسان في معيشة واحدة. لا تطبخ كما يطبخ، ولا يتقن حتى الأزياء كما يتقنها، ولا تبدع في صناعة التجميل كما يبدع منها ...[1].

فالإسلام يشرع تشريعا مثاليا للخاصة، ويحث أتباعه على اتباع هذا المنهج المثالي، وهناك أناس لا يقوون على الوصول لهذه الأخلاق السامية المثلى، فلا يدعهم يهيمون في الضلال بل يشرع لهم ما يوفق بينهم بين طباعهم الشاردة، وبين القيم الصحيحة.

وضع المرأة في الماضي قبل الإسلام:

في الحضارة الرومانية: قضت أن تكون المرأة رقيقا تابعا للرجل لها حقوق القاصر أو لا حقوق لها على الإطلاق.

شرائع الهند القديمة: تقول أن الوباء والموت، والجحيم، والسم، والأفاعي، والنار، خير من المرأة، وحقها في الحياة، ينتهي بأجل زوجها.

عند اليونانيين: المرأة من سقط المتاع، تباع وتشترى، وتعد رجسا من عمل الشيطان [2].

وعند اليهود: في التوراة سفر الجامعة (أمر من الموت المرأة، التي هي شباك وقلبها شراك ويداها).

الكنيسة الكاثوليكية: أوضح الكاتب الدانمركي (وزكوندس) مكانة المرأة في العصور الوسطى يقول (كانت العناية بها محدودة جداً تبعا لاتجاه المذهب الكاثوليكي، الذي كان يعد المرأة مخلوقا في المرتبة الثانية).

أما المرأة في العصر الحديث: فقد عقدت فرنسا اجتماعا ١٨٥٦م لبحث شأن المرأة، فأثبتوا إنسانية المرأة، تلك التي كان مشكوكا فيها من قبل، ولكن جعلوها

---

(١) عباس محمود العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.
(٢) د/ أحمد شلبي، مقارنة الأديان، مكتبة النهضة المصرية.

تابعة خاضعة للرجل (١).

المادة ٢٢٧ من القانون الفرنسي: تقول (المرأة المتزوجة حتى لو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها، لا يجوز لها أن تهب، ولا أن تنقل لملكيتها، ولا ترهن، ولا تملك بعوض أو من غير عوض - بدون اشتراك زوجها في العقد او موافقته عليه موافقة كتابية) (٢).

وفي انجلترا: بقيت النساء حتى ١٨٥٠م غير معدودات في المواطنين وظلت المرأة حتى سنة ١٨٨٢م ليس لها حقوق شخصية فلا حق لها بالتملك وإنما كانت المرأة ذائبة في أبيها وزوجها.

جامعة أكسفورد: لم تسو بين الطلبة والطالبات في الحقوق (الأندية واتحادات الطلبة) إلا بقرار صدر في ٢٦ أغوز ١٩٦٤م (٣).

أما عن وضع المرأة في الشريعة الإسلامية التي حررت المرأة من فوضى الجاهلية فضلا عن عشرات الأحاديث النبوية التي تبين مكانة المرأة وتوصي الرجل بها. فقد سجل المستشرقون - شهادتهم في ذلك. يقول:

المستشرق الفرنسي (أندريه سرفيه): يعترف بفضل الرسول ﷺ قائلا: (لا يتحدث هذا النبي عن المرأة إلا في لطف وأدب. كان يجتهد دائما في تحسين حالها ورفع مستوى حياتها. لقد كان النساء قبله لا يرثون. بل كانوا متاعا يورث لأقرب الرجال، وكأنهم مال أو رقيق) ويستمر قائلا: (لقد حرر محمد المرأة العربية ومن أراد التحقيق بعناية هذا النبي بها فليقرأ خطبته في مكة، التي أوصى فيها بالنساء خيرا، وليقرأ أحاديثه المتباينة، ما أصدق هذا القول أو ما أكثر دفاع النبي عن المرأة وحقوقها ! ألم يقل في خطبة الوداع (إن لنسائكم عليكم حقا، وإن لكم عليهن حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم. ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجرونهن في المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن

---

(١) السابق ص١٩٠.

(٢) د. علي عبد الواحد وافي - حقوق الإنسان في الإسلام - مكتبة نهضة مصر ص٦٠.

(٣) الإسلام في قفص الاتهام - مرجع سابق - ص٢٢٦.

وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عوان عندكم لا يملكن لأنفسهن شيئا. أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بالنساء خيرا).

وصدق الرسول ﷺ حين قال موصيا بالنساء أيضا (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا، وخياركم خياركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، وما أكرم النساء إلا كريم. ولا أهانهن إلا لئيم) [1].

أما العالم الألماني (درسيمان): فإنه سجل قوله [2] (لقد كانت دعوة محمد إلى تحرير المرأة، السبب في النهوض العربي وقيام مدنيته – وعندما عاد أتباعه وسلبوا المرأة حقوقها وحريتها كان ذلك من عوامل ضعفهم وانحلال قوتهم).

جريدة المونتيور الفرنسية: كتبت تقول مصورة احترام الإسلام للمرأة (لقد أحدث الإسلام ونبيه تغيرا شاملا في حياة المرأة، في المجتمع الإسلامي، فمنحها حقوقا واسعة تفوق في جوهرها الحقيقي الحقوق التي منحها المجتمع الفرنسي، أما تعدد الزوجات فقد صار اليوم أخف وطأة مما كان عليه، ويخف انتشار هذه الظاهرة يوما بعد يوم ويجب أن نلفت الأنظار إلى شرط موجود عند المسلمين، وهو أن من حق المراة أن تشترط على زوجها في عقد زواجها عدم الزواج بأخرى، فإذا لم يحترم هذا الشرط كانت امرأته في حل من أمرها) [3].

وهكذا بشهادة الخصوم: وإذا كان الفضل ما شهدت به الأعداء – تسقط هذه الدعوى التي روجت لها مجلة الهلال فليس غير الإسلام الذي حرر المرأة وكفل لها كل الحقوق.

أما ول ديورانت: فيقول: (... كان مركز المرأة المسلمة يمتاز عن مركز المرأة في بعض البلاد الأوربية، من ناحية مهمة، تلك أنها كانت حرة التصرف فيما تملك، لا حق لزوجها أو لدائنيه في شيء من أملاكها) [4].

---

(١) ونصه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)، حديث رقم ١٩٧٧ رواه الحافظ أبي عبد الله محمد بن القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، باب حسن معاشرة النساء، ج١.

(٢) د/ عز الدين فراج، حياة محمد في الفكر الغربي، دار الفكر العربي، بدون رقم للطبعة ج٦٤، ٦٥.

(٣) د/ عز الدين فراج، حياة محمد في الفكر الغربي، دار الفكر العربي، بدون رقم للطبعة ص٦٧.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ج١٣ ص١٤٠ لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٤م.

وأخيرا: ينبغي على الدعاة أن يركزوا على نصرة قضية المرأة والدفاع عن فهم أولى الناس بنصرة قضية المرأة والدفاع عن حقوقها المشروعة، وأبعاد الظلم الذي ينالها، وما أكثر الأمثلة على ذلك كحقها في حسن الرعاية والعشرة، وتنبيه الأزواج على عدم مشروعية إساءة معاملة الزوجات، وإهانتهن، وكالمغالاة في المهور، والدعاة عندما يفعلون ذلك فإنهم يتأسوا برسولنا الكريم ﷺ.

الفصل الخامس

القضايا السياسية

الخلافة العثمانية – نموذجا

تمهيد

نشأة الدولة العثمانية وأهدافها

كانت الدولـة العثمانيـة دولـة إسـلامية بكل معنى الكلمـة، وكـان العرب المسـلمون التـابعون لها ينظرون إليهـا كتتمة للخلافـة الإسـلامية وحلقـة متصلة بالتاريخ الإسلامي ومتمة له [1].

وقد حملت هذه الدولـة لواء الإســلام سـتة قـرون وربع قرن (١٣٠٠–١٩٢٣م) كـانت خلالها حاميـة للمسـلمين رافعـة لواء الخلافـة. وكانت روح الجهاد الديني غالبة في إسلام العثمانيين وازدادت قوة وصلاحيـة عندما استقروا في الأنـاضول علـى مقربـة مـن الكيانـات المسـيحية المتنـاثرة وقتـذاك في هذا الإقليم، فـاحتفظوا بهـذه الـروح في مسـيرتهم الحربيـة، فالإسـلام عند العثمـانيين دين محاربين، وشعارهم الصيحة للحرب وحمل السلاح، حتى أنـه كان من مراسم تقليد السلاطين العثمانيين أن يقلدوا سيف عثمان (مؤسس الدولة) من قبل إمام جامع أيـوب على القـرن الذهبي، وبذلـك يتقبلون البيعـة، [2] لأنهـم كـانوا في مواجهـة تكتلات صليبية متعاقبة واسعة النطاق تتنادى تحت ظل البابوية .

أهداف الدولة العثمانية:

كما هدفت الدولـة العثمانيـة: إلى تحويل (دار الحرب) إلى (دار السـلام)

---

(١) الاتجاهـات الفكرية عند العرب مـن ١٧٩٨–١٩١٤ / على المحافظة – الأهلية للنشر والتوزيع ط بيروت ص١١٨ سنة ١٩٨٧م.

(٢) عماد الدين خليل، حول انتشار الإسلام وقائع وملاحظات ص٤٨ .

وسار في إثر القوات الإسلامية العثمانية: القضاة والمفتون ومن إليهم من رجال الهيئة الإسلامية العثمانية، وذهب في أعقابهم أتباع الطرق الصوفية، ورجال الفكر، وأسهم الجميع في غرس بذور الإسلام في الأقاليم المفتوحة، مما ساعد على نشر الإسلام في أوربا. ولذلك اقترنت حركة الفتوح الإسلامية العثمانية سواءً في الأناضول أو في أوربا بنشر الإسلام، ونظر الأوربيون إلى الفتوح العثمانية، على أنها فتوح إسلامية، ووقر في أذهانهم، أن أي نصر عسكري تحققه الدولة العثمانية، إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للمسيحية، لذلك لم يكن عجباً أن الأجيال المتعاقبة من الأوربيين قد ربطت في عقولها بين الإسلام والدولة العثمانية. وبمضي السنوات والأحقاب، إزداد هذا الربط عمقاً ورسوخاً فكان إذا دخل أحد المسيحيين من أهل أوربا في الإسلام، لم يقولوا عنه أنه أصبح مسلماً، بل قالوا إنه أصبح عثمانياً، **وهكذا أصبح لفظ الدولة العثمانية مرتبط بالدين الإسلامي**، مما أدى إلى تصاعد موجات الحقد والعداء، بين الغالبية العظمى من الحكومات والشعوب الأوربية للدولة العثمانية، بصفتها دولة إسلامية، تحكم شعوباً مسيحية أوربية[1] وامتدادا لهذه الروح الحاقدة الخبيثة، عملت دول الغرب كلها على إثارة الفتن والقلاقل، ضد الدولة العثمانية، حتى إنها كانت تعمل بكل طريق على استقطاب الأقليات المسيحية الموجودة في الوطن العربي، ضد دولة الخلافة - والحوادث التي نتجت عن ذلك قام التاريخ بتسجيلها على أنها وصمة عار في جبين دولة الخلافة - وهذا من التوظيف المغرض لتاريخ حجبت منه الحقيقة، وكتبته أقلام موالية للغرب والمستعمرين.

من ذلك حوادث ١٨٦٠م بلبنان التي نشبت بين الدروز والموارنة، والتي أشعلت فرنسا - حامية الكاثوليكية - نيرانها حتى تهز دولة الخلافة وتعمل على التدخل في الشؤون الداخلية للبلاد العربية، بحجة حماية الأقليات من رعاياها.

أقول: ساهمت هذه الفتن التي كانت تقيمها دول الغرب الصليبي بأيدي الأقليات المسيحية، في ترسيخ الشعور بالأحقاد والكراهية للدولة، حتى هربت -

(١) أنور الجندي - مقدمات العلوم والمناهج مجلد٢ - التاريخ الإسلامي - ط دار الأنصار .

على زعم صاحب الهلال جرجى زيدان - عناصر الأحرار، والكتاب، إلى مصر، لكي تنجو من الاستبداد الحميدي المزعوم !!!

لكن الماسونية العالمية التي خططت لإزالة دولة الخلافة من الوجود، وزعت الأدوار على أعضائها، الذين تعتمد عليهم في تنفيذ هذه المهمة، فرأينا **جرجى زيدان،** يقوم بأخبث الأدوار على الإطلاق في هذه المهمة، بكل الخبث والدهاء والمكر، لا يدخل أبداً في صدام مباشر مع نظام الخلافة، حتى لا يخسر المعركة من أول جولة، بل إنه يعلن في افتتاحية العدد الأول (**إنه يختار رمز الهلال شعارا لمجلته تبركا بشعار دولتنا العلية العثمانية أيدها الله**)[1] وذلك تملقا للجماهير، التي سيتوجه لها برسالته وهي في غالبيتها مسلمة، وتحرص على دينها، وتدين بالولاء لهذه الخلافة وترى فيه امتدادا للخلافة الإسلامية، **فلابد أن يخدعها جرجى زيدان،** وأن يتعامل معها بهذا المنطق التضليلي، وهذا التحرك الإعلامي المخادع، فيختار الهلال شعارا لداره الصحفية، ومجلته الشهرية، أو رواياته التاريخية، والأدبية بدلا من الصليب، حتى تجد طريقها إلى بيوت المسلمين، وتنفسح لها مجالسهم ومنتدياتهم، **وتمضي المجلة على هذا الأسلوب مستمتعة بالحماية الإنجليزية،** التي كانت تصطلي مصر بنارها، في هذه الفترة، فلا ترفع صوتا واحدا في وجه هذا المستعمر الغاشم، الذي يجثم على صدر البلاد، بحجة أنها (مجلة ثقافية أدبية تاريخية) !! لا علاقة لها بالمباحث السياسية - وأنا أرجو رموز الثقافة والفكر في أي مكان في العالم وبخاصة في مصر المحروسة أن يجيبوني على هذا السؤال ماهي وظيفة الثقافة والمثقفين ؟ وما هو دور المثقف في المجتمع إن لم يكن التعبير عن هموم مجتمعه وآلامه وآماله ؟

خطة المجلة في الهجوم على الخلافة:

تمضي المجلة سنوات عديدة من عمرها الأول، لا تتعرض لذكر دولة الخلافة بقليل أو كثير، اللهم إلا أخبار سفر الخديوي عباس باشا حلمي الثاني إلى حضرة

---

(١) مجلة الهلال افتتاحية العدد الأول سبتمبر ١٨٩٢م.

السلطان، الإنعامات السلطانية التي لحقته هناك، وكبار الوفد الذي سافر معه،.. الخ، لكنها تتجنب تماما ذكر ما يمكن أن يشكل هجوما على الخليفة أو نظام الحكم أو سياسته، وذلك فيما أحسب - وتتبعا للدور الذي مارسه جرجي زيدان في هذه المجلة:

لأنها كانت تقوم بمهمة غاية في الخطورة تتمثل في: هدم الأساس الذي تقوم عليه دولة الخلافة، وبسببه يرتبط المسلمون بها - إنها كانت تقوم بالتشكيك في عقائد الأمة، وبث شبهات المستشرقين، ونشر أفكارهم على صفحاتها، وتزور تاريخ المسلمين، وتشوه معالمه. ولسان حالها يقول **لماذا تتمسكون بهذه الخلافة وتعطون ولائكم وانتمائكم لها ؟؟** هل لأنها تمثل تاريخكم وأمجادكم، والنظام الذي أسسه له رسولكم، وحفظ عليكم أمتكم من التبعثر، والتمزق، والضياع وسط الأمم ؟ إذا كنتم تتمسكون بها من هذا الباب، فانا أدلكم على خلافتكم كلها، وأخذ يعمل على تشويه الخلفاء والخلافة منذ عصورها الأولى حتى عصر الدولة العثمانية، من خلال الأكاذيب، والافتراءات التي قدمها، في أشهر كتبه، تاريخ التمدن الإسلامي، وكذلك رواياته التاريخية ومنها - الانقلاب العثماني - التي سيكون لنا معها في هذا البحث وقفة مستفيضة، لنرى كيف قدم من خلالها صورا مشوشة، مقززة، للخلافة وبيوت الخلفاء، وكيف جمع كل نقيصة ليلصقها بهم، وينسبها إليهم، حتى يقطع حبال الولاء والإنتماء والحب، الذي يربط بين المسلمين وتاريخهم، **والعجب كله** أن يتم ذلك تحت اسم ترغيب الناس في تعلم تاريخهم وتبسيطه لهم، يقول:

(وأخذنا نهيئ أذهان القراء على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ومداركهم، لمطالعة هذا التاريخ بما ننشره من الروايات التاريخية الإسلامية تباعا في "الهلال" لأن مطالعة التاريخ الصرف، تثقل على جمهور القراء وخصوصا في بلادنا، فلا بد من الاحتيال في نشر العلم، والروايات أفضل وسيلة لهذه الغاية) [1] ؟!!

سكت دهراً ونطق ...

---

(١) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج١ ص٧.

لعلك تعجب معي أيها القارئ الكريم عندما تجد أن جرجي زيدان ظل ساكناً طوال أربعة عشر عاماً لم ينبس ببنت شفة عن الخلافة العثمانية بل إنه كان يتمسح بها من خلال شعار المجلة وغيره - إن جاز التعبير - وبعد مرور أربعة عشر عاماً بدأ ينصب مدافعه على صفحات مجلة الهلال لدك الخلافة العثمانية.

ولكن العجب يزول وتنتفي أسبابه عندما نعلم أن هذه الكتابات جاءت في وقت كانت شمس الخلافة العثمانية آذنت بالمغيب، وتكالبت عليها دول الكفر من كل مكان، وما كان يؤجل قرارهم في الانقضاض عليها، إلا خوفهم من أن يتمكن الخليفة من إعلان الجهاد المقدس، فيجتمع حوله المسلمون من كل أنحاء الأرض، فلا تقوى دول الكفر مهما اجتمعت وتكالبت عليهم، **لذلك قام جرجي زيدان ورفقائه من** أذناب الاستعمار وأقلامه، بشن حملات التشويه على نظام الخلافة الإسلامية، من الأساس، تمهيدا لتلك الحملة التي انتصبت لها مجلة الهلال على الخلافة العثمانية وتلطيخ وجهها، وهكذا ابتداء من العدد الصادر في ١/ ٢/ ١٩٠٦م يممت وجهها شطر الخلافة العثمانية، فأخذت تنشر سلسلة مقالات مطولة عن تاريخ الدولة العثمانية حتى ١/ ١٠/ ١٩٠٧م وفي ١/ ١٠/ ١٩٠٨م **بداية القصيدة:**

بدأت تنشر سلسلة مقالات أخرى تحت عنوان «الانقلاب السياسي العثماني» **وقدمت له بالحديث عن النصارى والظلم الذي يقع عليهم من دولة الخلافة،** واستغلال الدول الأوربية لهذا الظلم في إشعال نار الفتن، حتى أصبحت الدولة العثمانية بين خطرين عظيمين طمع الدول الأوربية من الخارج، وحقد رعاياها النصارى من الداخل، **لكن يلتمس العذر للنصارى في أن حقدهم ما كان، لولا الظلم الذي يقع عليهم من الدولة، ثم انتصبت المجلة بعد ذلك للحديث عن** جمعية الاتحاد والترقي، ولخطورة أمر هذه الجمعية ودورها الرئيسي في إسقاط دولة الخلافة الإسلامية، فسنرى كيف قدمتها - الهلال - لقرائها وعرفتهم بها، وهل كانت أمينة بحق على التاريخ، التي زعمت أنها تبسطه وتعلمه لقرائها ؟ أم أنها خانت الأمة التي منحتها ثقتها، وظنتها تدافع عن تاريخها، وترعى شؤونها ومصالحها ؟ فبينت لها خطورة هذه الجمعية وفساد القائمين عليها، وأنهم لا هدف

لهم من تجمعهم هذا إلا استئصال دولة الخلافة، وتمزيق صف الأمة، وتشتيت شملها، وتقديمها طعاما هنيئا لدول الشرق والغرب ؟

جرجي زيدان والاتحاد والترقي:

فنجدها في الدراسة التي قدمتها عن هذه الجمعية تقول: أعضاؤها: إسحاق سكوتي - عبد الله جودت - حكمت أمين - محمد رشيد التركي اجتمعوا وقرروا إنشاء هذه الجمعية بعد أن فكروا في حال الدولة.

وهي جمعية سرية يعمل أعضاؤها تحت طي الخفاء، وأسموها «الاتحاد والترقي» **موضوعها:** طلب الإصلاحات الدستورية، والمساواة بين أصناف الرعية ! حرية القول، وضمان الأرواح والأموال، تقييد الملك والسلطان، بالقوانين، **طريقتهم في إدخال الأعضاء في هذه الجمعية:** تشبه الطرق الماسونية وتزيد عليها، فالعضو الواحد لا يعرف من سائر الأعضاء، ولو كانوا مئات أو ألوف، إلا اثنين فقط العضو الذي أدخله، والعضو الذي توسط هو في إدخاله، وتختار الجمعية لنشر أفكارها صحفا، تنشئها بواسطة أفراد منها، يظهرون للناس وقد لا يظهرون، وقدمت المجلة أشهر رؤساء هذه الجمعية على النحو التالي:

١- مراد بك الداغستاني: صاحب جريدة ميزان التي كان يصدرها من القاهرة منذ عدة أعوام، وله شأن كبير في تاريخها، كانت له مكانة كبيرة بين أرباب الأقلام في الشبيبة العثمانية، كتب تقريرا عن الحالة الحاضرة ورفعه إلى السلطان، فلم يعبأ به رجال المابين لكنهم خافوا عاقبة عمله، فخرج من الأستانة، فبثوا حوله العيون للقبض عليه، فتتبعت الجمعية فقبض على شعبها بيد من حديد، وعزمت على تنفيذ مهمتها، فقررت مفاجأة الوكلاء في أثناء الاجتماع بالباب العالي، وخلع السلطان عبد الحميد، وإعادة السلطان مراد مكانه، لكن أمرهم انكشف بوشاية على السلطان، فوجه الضابطة (الضباط) للقبض عليهم وعائلاتهم، وفصلت بعضهم وقتلت، ونفت آخرين، ومن نجا من المعركة تفرق في أوربا، ومصر والتفوا حول مراد بك، وأحمد رضا بك، والذي كان مديرا للمعارف

العمومية سنة ١٨٩٢م، والذي أخذ في جمع صفوف أتباعه في باريس وأنشأ جريدة (مشورات) ١٨٩٦م بالفرنسية فسعت المابين لتعطيلها، ولكنها انتقلت إلى جنيف بعد ذلك، لتديرها الاتحاد والترقي من هناك، وأخذت المجلة على عاتقها وعبر أعدادها المتتابعة، حمل قضية الإتحاد والترقي وتعريف الأمة بها وبرجالها الأحرار المطالبين بالدستور !!!

أهداف الاتحاد والترقي كما قدمها جرجي زيدان:

١- علم عقلاء الأمة أنهم لا يرجون فلاحا إلا، بالإتحاد والترقي، فنهضوا لمقاومة حزب التقهقر (الخليفة والفقهاء) ! والذي كان على زعم المجلة مؤلفا، من الجهلاء، والطامعين، والقتلة، **فتألف حزب الأحرار** من العلماء، والكتاب، والشعراء، والفلاسفة، كأنها حرب بين الجهل والعلم أو بين الرذيلة والفضيلة !

٢- اعتمادهم على العمل - دون القول - أعواماً عديدة يجتمعون خفية ويخاطبون همسا، ويتكاتبوا سرا، لا يصيحون ويصخبون، وإنما يجتمعون مرة باسم الماسون، او الجمعيات الخيرية، ومبالغين في التستر.

٣- صبرهم على المكاره، فذهب بعضهم قتلا، ومات آخرون نفيا.

٤- نبذ التعصب الديني، والجنسي، مما حمل الدول على نصرتهم، والأخذ بيدهم.

٥- اشتراك المصلحة لأن الحالة الماضية كانت تخالف مصالحهم، ولا ينتفع بها إلا شرذمة من أبناء المطامع. **فتعانق الشيخ والقسيس والحاخام.**

٦- **مصافاة الدول الأجنبية:** فنصرتهم إنجلترا وفرنسا، ولا تعلم مقدار هذه النصرة، لكننا علمنا أنهم يعترفون لهم بالفضل في هذا السبيل ؟!

٧- انتشار - الأحرار - بين البلاد المتمدنة التي تخفق فوقها ألوية الحرية، مما أطلق ألسنتهم، وأقلامهم للشكوى والتظلم، ولا ينبغي أن ننسى فضل مصر في هذا القبيل فقد كانت وسيلة لنشر آراء الأحرار.

ثم تختم المجلة هذا المقال - أو الدراسة - بقولها وهكذا: نطلب من ا لله تعالى أن

يأخذ بأيدي أحرارنا لإتمام العمل الذي شرعوا فيه، ووالت المجلة حديثها عن جمعية الاتحاد والترقي.

جمعية تركيا الفتاة:

بل واهتمت بكل جمعية حاربت الخلافة، وناوأتها، فذكرت حديثا مطولا عن جمعية تركيا الفتاة [1]: فبينت دورها في الانقلاب العثماني، وأنها تأسست على يد مصطفى فاضل باشا، وخليل شريف باشا، وأنها لم تشمل في بداية أمرها. سوى:

١- صغار الموظفين وضباط العساكر.

٢- والذين قرأوا شيئا في اللسان الفرنساوي أو الانجليزي.(!)

٣- أو الذين أصلهم من أوربيين أسلموا ودخلوا وظائف الدولة.(!)

٤- أو الذين تزوجوا من نسوة أوربيات، وربوا أولادهم تربية إفرنجية فكانت هذه الفئة متحدة الفكر بإعجابها بالمدنية الأوربية وميلها إليها.

وتمضي المجلة فتترجم لواحد من أشهر رجال الماسون الذين قاموا بأخبث الأدوار وأخطرها في تخريب دولة الخلافة، والتمهيد لإسقاطها وإزالتها إنه **مدحت باشا** - الذي سمته مجلة الهلال - أبو الأحرار [2] تقدم المجلة ترجمة وافية له، مبينة ان ترجمته عبارة عن تاريخ الانقلاب العثماني، لأنه رحمه الله وافق أهم الحوادث السياسية، في زمن السلاطين: **عبد المجيد، عبد العزيز، عبد الحميد**، وكان له دخل في أكثرها، لاسيما المطالبة بالدستور، وخلع عبد العزيز.

ثناء جرجى زيدان على جمعية الاتحاد والترقي:

نجد المجلة تتحدث عن **وصف جمعية الاتحاد والترقي**: (تقول لقد قامت بهذا الانقلاب جمعية مؤلفة من خيرة الشبان الأذكياء، وخبرة الكهول، العقلاء، الذين حنكتهم التجارب، وعلمتهم الأيام، وفيهم أرقى رجال الأمة العثمانية، علما وأدبا

---

(١) الهلال عدد المجلة الصادر في ١/ ١١/ ١٩٠٨م.
(٢) الهلال عدد ١/ ١/ ١٩٠٩م.

وتربية واستقلالا - لماذا ؟ لأنهم قضوا زهرة أعمارهم في أشهر بلاد الحرية، وتفرغوا لدراسة أحوال الأمم، وأسباب ارتقائها ... وأخذت تذكر أعمالهم بالإعجاب!! وانهم لو رجعوا عن انقلابهم فإن الأمة لا ترجع، بعد ان شعرت بالحرية الشخصية [1] ؟!

جرجي زيدان يدافع عن استبداد الجمعية ويشجعها عليه:

وتستمر المجلة في الدفاع عن الجمعية بكل قوة: بعد ارتفاع الأصوات متهمة الإتحاد والترقي بالتدخل في انتخابات مجلس المبعوثان، وإبعاد العرب عن هذا المجلس، يقول جرجي زيدان في المجلة:

١- لا يمكن للجمعية التي بهرت العالم بتعقلها وحكمتها، أن تخرق القانون، فتقع في هذا الخطأ لكنها فعلت ذلك رغبة في سلامة الدولة وصيانة الدستور!!

٢- وقد يعترض على جمعية الإتحاد والترقي **بالاستبداد** لكنا نقول نعم! ولكنه استبداد العاقلين، العادلين، والشرق لا ينهض به، إلا عاقل مستبد.

بل إنه يصل إلى درجة التعصب لهذه الجمعية وسياستها فيقول:

ولو خيرنا: لاخترنا أن تتولى هذه الجمعية أمور الدولة وحدها، بلا شورى بضع سنين [2] ريثما يتوطد دعائم البناء الذي تفانت في إقامة جدرانه، وهب أنها ارتكبت خطأ، أو قدمت حيفا بالعرب لأنها رأت مصلحة، فالحكمة تقضي علينا الكظم والتسامح، رغبة في مصلحة الدولة، لأنه من ضعف الرأي أن نتهم شريكنا بالشطط والخيانة، لمجرد الوهم، لاسيما وأنه صاحب المشروع.

ولا زالت المجلة تواصل دفاعها عن جمعية الاتحاد والترقي فكتبت تحت عنوان: (وثوب المستبدين بأهل الدستور: [3] يقول لما وافق السلطان عبد الحميد الجمعية على إعلان الدستور، دخلت الأستانة وقبضت على أزمة الحكم، لكنها خالفت قواعد الانقلاب السياسي، فعاملت بقايا عصر الاستبداد، معاملة الأخوة ولهذا ما

(١) نفس العدد السابق.
(٢) الهلال عدد المجلة الصادر في ١/ ٤/ ١٩٠٩م.
(٣) الهلال عدد المجلة الصادر في ١/ ٥/ ١٩٠٩م ج٨ ص٤٨٤.

لبث أن وثب عليها أهل التقهقر.(!)

جرجى زيدان يهاجم مشايخ الأستانة:

يقول: (كما أن في الأستانة حزب ديني يسمى (الصوفته) المشائخ ولا يهمهم إلا نصرة الدين لأنـه مصـدر تعيشـهم، اعتمدوا واغتنمـوا تطرف بعـض أعضـاء الجمعيـة، في كلامـه عن الإسـلام، فـأخذوا ذلك حجـة على الجمعيـة وفسـادها والتشنيع عليها.

جرجى زيدان يدافع عن إهمال الشريعة:

كما أن الجمعية ولت على الجند ضباطـا تعلموا الفنون الحربية في أوربا، فعاملوا الجنود بما تقتضيه الحرية الدينيـة **!! فأبطلوا النفير الذي يضرب للصلاة**، وتركوا النـاس أحرارا يصلون متى شـاءوا، فاغتنم المشـائخ ذلك، وأثاروا خواطر الجند على ضباطهم وأنهم يريـدون إهمال الشـريعة، وأن الدسـتور يخالفهـا، فتجمهروا حول المبعوثان في ١٣/ ٤ الماضي يطلبون إسقاط الوزارة، لأنها اتحادية، وعزل أحمد رضا عن إدارة المجلس، ولكن المجلـة - وكأنهـا تتشـفى بفشـل هيجانـاتهم - أعلنت الأحكام العرفية للتخلص من بقايا العهد القديم، واجتمع مجلس المبعوثان ونظروا في حال السلطان بعد هذه الفتن، فقرروا خلعه وبايعوا محمد رشاد، وأخرجوا السلطان السـابق إلى سلانيك مع بعض أهلـه، بعد الفتوى التي أصدرها شـيخ الإسلام بخلعه، بحجة أنه تلاعب بالكتب المقدسة وأهدر دماء رعيته، وبدد الأموال، فنصبوا مكانه ولي العهد محمد رشاد أفندي باسم (السلطان محمد الخامس) وهو شقيق السلطان عبد الحميد عمره ٦٥ سنة.

وأخذ جرجى زيدان يكيل الثناء له !! لأنه قال (إن الإنجليز دائما كانوا أصدقاء وإن موقـف الأمـة موقـف حرج، وكـان أعدائي يتهمونني بالبلـه، ولكن مشـيئة الله اختارتني اليوم لأتولى مصلحـة الإسلام، والصحافة كلهـا خصوصا الإنجليزية أمامها فروض ينبغي ان تؤديهـا، وأثنى جلالتـه على تركيـا الفتاة، واعلـن أنـه طوال حياته

كان مؤازرا لها.

وأخذ [جرجى زيدان] الهلال: تكيل الثناء وتسهب في بيان فضل الجمعية على سواها من أصحاب الإنقلاب في كل زمان، لعل إخواتنا الناقمين عليها يرجعون عن رأيهم فيها: فقد قضت السنين الطوال في حرب مع الحكومة الذاهبة التي طاردتهم واقتفت آثارهم نيفا وثلاثين سنة، وهم هاربون شاردون يقاسون العذاب والفقر – فلما مكن لهم – أظهرت فضلها ومنحت عفوها لهذه الحكومة، لكن الفضل لم يصب محله – وكان أجدر لها أن تستبد حسب سنة الفاتحين ليتجنب القلاقل !!

لأن الاستبداد لازم في تأييد الدولة عند أول انقلاب، ونحن – الهلال – نسوغه لها رغبة في انجاز العمل لاعتقادنا صدق نيتها.

جرجى زيدان والسلطان عبد الحميد:

وحول السلطان عبد الحميد وتشويه صورته وتلطيخ سمعته وإفساد سيرته نجد المجلة – أو جرجى زيدان – يقول(1):

فلا عجب إذا قلنا أن عبد الحميد – وليس السلطان – وحكومته أفسدت أخلاق الناس ؟!!

وتفصيلا لذلك تقول: وهل فات عبد الحميد، باباً من أبواب الشر لم يفسد به أخلاق الناس ؟ ألم يجعل الجاسوسية من أوسع أبواب الرزق (!) وهي من أقبح الرذائل، وكم حمل الناس على القتل، إغراء بالمال والحياة، وكم كافأ المفسدين، ورقى الخائنين، وضرب على أيدي الأمناء، وأبعد الأحرار المخلصين !!!

وتواصل الحديث قائلا: لم يُخلَع عبد الحميد عن العرش إلا بعد أن أفسد الأمة العثمانية، بسوء سياسته لأن الناس مولعون بالرذيلة، بضعف طبيعتهم، فكيف إذا شجعهم عليها ملكهم، وإمامهم، وجعل الثروة والجاه جزاء الخيانة والغدر(2).

---

(1) الهلال العدد الصادر في ١/ ٧/ ١٩٠٩م ص٢٩٥.
(2) الهلال عدد ١/ ١٢/ ١٩٠٩م.

ولا تكتفي المجلة بهذا القدر من الهجوم على الخليفة السابق - السلطان عبد الحميد - بل تكشف عن وجهها القبيح. وحقدها الدفين فتطالب: بإبادة نصراء العهد السابق، لأن النفي الآن لا يمنع صاحبه من مخابرة أصحابه، ونشر مبادئه، ودس الدسائس، وإنشاء الجمعيات السرية للوثوب عند الحاجة، فعلى الحكومة مراقبة حركات الإرتجاعيين، حتى لا تقوى شوكتهم ويثبون على الدولة [1].

وفي نفس العدد تورد المجلة أسماء الأعضاء الذين تم على أيديهم إقرار الدستور، وبيان أن جمعيتهم لم تنشأ سنة ١٨٩٤م -كما سبق له القول - في الأستانة ثم انتقلت إلى باريس، ولكنها جمعية أخرى نشأت مستقلة سنة ١٩٠٦م لكنها تنظمت على مثال الجمعية الأولى من حيث طرق الدخول، والغرض الأساسي، فالجمعية الأولى كان اسمها (جمعية الترقي) فلما صارت في باريس سميت (جمعية النظام والترقي) وكان أهم أعضاءها: أحمد وضا بك - خليل غانم - ناظم بك، وكان الأحرار استبطأوا النجاح، فنهض جماعة منهم في سيلانيك، وفيهم (طلعت بك - رحمي بك - مدحت بك) فألفوا جمعية على مثال السابقة سموها (الاتحاد والترقي) وهي أول جمعية من جمعيات الأحرار سميت بهذا الإسم، وأخذت تسعى في طلب الدستور من أقرب طريق وأعجلها على يد الجيش، فانتظم في سلكها صغار الضباط، من الملازم فما فوق، وهم قوام الجند وأهل القوة، فبلغ خبر هذه الجمعية إلى (جمعية النظام والترقي) بباريس - فطلبت الانضمام إليها، ولكن جمعية سيلانيك، لم تقبل في عضويتها إلا الذين تحققت من ثباتهم في الغرض الأصلي، و لم تغرهم أموال عبد الحميد ولا مواعيده، وجاهدت حتى نالت الدستور وهي صاحبة الكلمة النافذة، وأكثر أعضاؤها مجهولون، و لم يظهر غير جماعة من كبار الموظفين منهم ثلاثة وزراء.

وإليك ما عرفناه من أحوال أشهر أعضاء الجمعية وهم:

١. طلعت بك: ناظر الداخلية ٣٨ سنة أصله من أدرنة.

٢. رحمي بك: أصله سيلانيك ٣٩ سنة، انتظم في الجمعية وهو غني فبذل ماله

(١) مجلة الهلال عدد ١/ ١٢/ ١٩٠٩م.

كله في ســـبيلها، ونسبته إلى الجمعية **كنسبة أبي بكر الصديق إلى الصحابة !!؟** (كان يتجسس على جواسيس عبد الحميد) الذي قال عنه (**إن رحمي الفوضوي حامل علم الفوضوية**).

٣. كارسوا: يهودي يعمل بالمحاماة ٥٣ سنة يمتاز عن رفاقه بأنه ماسوني ؟! وأدخل كثيرين من شبان الأتراك في الجمعية الماسونية.

٤. رفيق منياسي بك: كان في جملة المحامين، عن مدحت باشا فنقم عليه عبد الحميد.

٥. جاويد بك: من سيلانيك عمره ٣٥ سنة، أخطب رجال الدولة العثمانية اشتغل بتحرير الجرائد، والمجلات وله مؤلفات في الاقتصاد.

٦. **د. ناظم بك**: طبيب أصله من سيلانيك كان مبتعثا لأوربا وكان كاتبا لسر الإتحاد والترقي، والمبشر بمبادئها، ورسولها في الأطراف، كان يخرج متنكرا، **في ثياب شيخ أو قسيس أو بائع**، أو جندي، والبوليس يعلم بخروجه ويتفقده فلا يعثر عليه.

٧. أحمد رضا بك: كان مديرا للمعارف العمومية بولاية خداوند كار، ثم فر منها إلى باريس، واشتدت ثقة الأعضاء به، فولوه نيابة الجمعية بأوربا، فأنشأ جريدة مشورت بالتركية، مع ملحق بالفرنساوية ١٨٩٦م - فصار للجمعية نائبان هو، والثاني مراد بك (صاحب جريدة ميزان مصر).

٨. محمد عارف بك: أصله من الروملي، وانتخب نائبا عنه، بمجلس المبعوثان.

٩. حبيب بك: قائم قام في العسكرية عمره ٤٢ سنة من المجاهدين في نشر مبادئ الجمعية.

١٠. د. بهاء شاكر بك: ٣٤ سنة كان طبيب البرنس يوسف عز الدين ولي العهد.

١١. إسماعيل جان بلاط: استخدمته جمعية الاتحاد في مهمات ذات بال، من جملتها، مهمة سار بها مع نجيب بك للفتك بناظم بك، صهر أنور بك، كان من كبار الجواسيس في عهد عبد الحميد.

١٢. حسين جاهد بك: محرر جريدة " طنين " لسان حال جمعية الإتحاد والترقي، يقول عنه **جرجي زيدان:** إنه من أكتب رجال الصحافة التركية وأقدرهم على استنباط المواضيع، وتوليد الأفكار، وأشدهم لهجة إذا خاطبتهم رأيته يذوب رقة ولطفا وهو صغير.

وتنهي المجلة دراستها بقولها: والجمعية صاحبة السيطرة الفعلية الآن على الوزارة ومجلس المبعوثان لها فيه ١٦٠ عضوا يؤيدون مشروعاتها فضلا عن ثلاثة وزراء.

ومن أهم أسباب نفوذها:

فتكها بمن يحيد عن الخطة المرسومة لحفظ الدستور، وبمن تخافه على نفسها من رجال عبد الحميد.

جرجي زيدان يستعدي الاتحاد والترقي على العثمانيين:

ونحن – **أي مجلة الهلال: نطالب حكومة الإتحاد والترقي بالاستمرار على سياسة الحكم العرفي، فكيف ترفعون السيف، وبين العثمانيين من يجاهر أنه لا يعرف غير عبد الحميد خليفة، وأنه كان باذلا جهده في ترقية شؤون الأمة**[1].

وخلاصة لما سبق:

إننا نجد أن مجلة الهلال قد انتهجت لنفسها خطة غاية في الخبث والمكر مع دولة الخلافة.

١- أعلنت في عددها الأول تزلفها وتقربها وانضواء لوائها تحت علم الخلافة حتى أنها اختارت «الهلال» شعاراً لها لأنها على حد قولها أو ادعاءها «شعار دولتنا العلية العثمانية أيدها الله !!!».

٢- لم تتعرض تعرضا مباشرا للخليفة وسياسته، منذ بداية إصدارها حتى بروز الجمعيات المناهضة لدولة الخلافة، والساعية في إسقاطها، اللهم إلا الأخبار العامة،

(١) نفس المصدر السابق ١/ ١٢/ ١٩٠٩م ص١٤٠.

عن استقبالات السلطان لوفود الدول، وسفر الخديوي عباس حلمي الثاني إلى الأستانة، هو ورجال الدولة المصرية، والانعامات السلطانية، التي اختصوا بها، وشرفهم بها الباب العالي.

٣- عملت المجلة طوال الفترة التي سكتت فيها عن الخلافة العثمانية والتي استمرت قرابة أربعة عشر عاما، بالحديث عن الخلافة الإسلامية بصفة عامة منذ الخلفاء الراشدين ومرورا بالدولة الأموية والعباسية .. الخ - حديثا يتسم بتشويه دول الخلافة الإسلامية والانتقاص من قدرها، والعمل على قطع الصلات النفسية والوجدانية، بين جماهير المسلمين، وهذا النظام من أنظمة الحكم الذي أسسه صحابة رسول الله ﷺ والأمناء على هذا الدين، وأطهر من عرفتهم هذه االأرض- تمهيداً لمرحلة أخرى بيت لها أعداء الأمة، من اليهود والنصارى - وهي مرحلة إزالة الخلافة من العالم الإسلامي.

٤- لما استفرغت المجلة جهدها - الخبيث - في إشاعة المفاهيم المغلوطة، وتقديم الصور القبيحة المفتراة، لبيوت الخلفاء المسلمين الذين تابعوا على حمل رايات الخلافة التي تسلموها من أصحاب رسول الله ﷺ، وقادوا بها الأمة بعد ذلك، يممت وجهها شطر الخلافة العثمانية - التي كانت في ذلك الوقت، قد تكالبت عليها دول الكفر من كل ناحية، **وأخذت الهلال أو جرجي زيدان** تعمل فيها معولها الهدام، وتنفث حقدها الدفين، وتصفق للجمعيات المناهضة للخليفة، الساعية في إسقاطها وإزالتها بالتآمر، والتواطؤ مع اليهودية العالمية، التي توعدت السلطان عبد الحميد !! عندما رفض أن يرضخ لهم، وعنفهم وردهم على أعقابهم في عرضهم الذي قدموه بشأن أخذ بعض الأراضي في فلسطين، وجعلها وطنا قوميا لليهود، مقابل خمسة ملايين ليرة ذهبية لخزانة السلطان الخاصة، وعشرين مليون أخرى للديون المستحقة على الدولة !

٥- قدمت هذه الجمعيات (الاتحاد والترقي ، تركيا الفتاة) على أنها جمعيات مناضلة، تسعى في سبيل تحقيق مصالح الأمة، وإخراجها من كهوف الظلم، والقهر، والاستبداد التي وضعها فيها، وأحاطها بها السلطان عبد الحميد، ونصرائه، **وتدعو لهذه الجمعيات بالتوفيق في هدم الخلافة وإزالتها من الوجود، وإبادة كل من يدافع عنها !**

مناقشة الدعاوي التي روجتها مجلة الهلال وإشاعتها لتشويه الخلافة العثمانية والسلطان عبد الحميد

كما سبق فلقد نشأت الدولة العثمانية نشأة إسلامية خالصة مشوبة بإيمان عميق، متوجهة إلى أهداف عقائدية صريحة، تخوض حروبها بحمية دينية شديدة، وكانت أحلى عبارة على ألسن العثمانيين عند التنادي على الجهاد، والزحف إلى الفتوحات، عبارة «**إما غاز وإما شهيد**».

فمنذ **بداية تأسيسها** أطلق على زعيمها لقب الغازي – **أي** المجاهد في سبيل الله – وظل هذا اللقب الغالي، والعزيز يسبق كل الألقاب، وينعت كل أسماء السلاطين العظام، **وكانت غايتها**: كما حددها مؤسسوها المجاهدون الأوائل، وسار على نهجهم خلفاؤهم من بعدهم، الدفاع عن الإسلام ورفع رايته على الأنام، كما كان السلاطين يؤكدون دائما أنهم لا ينتسبون إلا للإسلام، وتراث الإسلام، وحضارة المسلمين، وما أبلغ كلمات القس " استيفان نيل " في كتابه «تاريخ الإرساليات المسيحية»" وهو يصور خسارة المسلمين بفقد دولة الخلافة (... إن الحرب العالمية الأولى وهزيمة تركيا قد حددت نهاية الحلم الإسلامي، بالسيادة على العالم، ولم تسقط دار الإسلام إلى مثل هذه المنزلة الوضيعة من قبل، فالصليبيون واليهود: يعلمون أن الذي حفظ ديار العرب من الإحتلال وصد عنها الغزو الأوربي من القرن الخامس عشر، إلى نهاية القرن التاسع عشر – هم العثمانيون، الذين خلصوا موانئ العرب وشواطئهم من الاستعمار الأسباني، والبرتغالي، واستعادوها مرة أخرى عربية وإسلامية، وبعد أن فقد العرب صناعة الحرب، منذ استنام خليفة بغداد في قصر دجلة، في أواخر العصر العباسي الثاني، ويوم اجتاحت جحافل التتار ديار الإسلام، لم تكن هناك دولة للعرب والمسلمين، والذي تبقى في بغداد لقب لا يتعدى سلطانه حدود الأريكة التي يجلس أو ينام عليها، صاحب اللقب في قصر قد أفرغ من كل سلطة قادرة على صنع القرار !!!)[1].

(١) محمود ثابت الشاذلي، المسألة الشرقية دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية مكتبة وهبة ط١ سنة ١٩٨٩م.

ومع ذلك يزعم – رواد الاستنارة المظلمة من المثقفين والمبدعين – من العلمانيين والشيوعيين وغيرهم – إن الأتراك قد أضعفوا قوتنا وفتتوا وحدتنا، وضيعوا إستقلالنا، يوم احتلونا، وأخضعوها للتبعية العثمانية البغيضة، كأفظع أنواع الاستعمار، الذي تعرضت له الأمة العربية – وهذه هي النغمة التي سادت مجلة الهلال – **أو خطاب جرجى زيدان الثقافي** – عندما فتحت نيرانها على دولة الخلافة – مؤيدة للجماعات الخارجة على الدولة، لأنها ستخلص الأمة من هذا الاستبداد العثماني البغيض !!

وعند هذا نجدنا مدفوعين إلى مناقشة هذا الاتهام:

هل كانت الخلافة العثمانية – حقا – سيفا مسلطا على رقاب الأقليات في المنطقة العربية تسومهم الخسف وألوان الظلم والاضطهاد ؟.

وعند بحث هذه الفرية:

يظهر بوضوح عدد من الحقائق على الوجه التالي:

حقا أقام الأتراك دولتهم للدفاع عن بيضة الإسلام، ونشر رايته على الأنام، ويوم رفعوا هذه الراية الغالية العزيزة على الربوع الإسلامية، حسب كل الغزاة من القراصنة والسفاحين الصليبيين، حساب الاقتراب من ديارنا، على مدى سبعة قرون من الثالث عشر وحتى مطلع العشرين.

وهذا في التاريخ الإيماني لدولتنا المسلمة أروع إنجاز للدولة العثمانية منذ أسسها المجاهد الغازي – عثمان – وإلى أن سلم " هرقل " الجديد " ممثلا في بريطانيا وفرنسا وأمريكا واليونان والطليان – مفاتيح القلعة في أنقرة لمصطفى كمال " أتاتورك ".

حقا ربما أن العثمانيون قد أخطاوا في عدم تركيزهم على أهمية التنمية الحضارية، في ميادين السلم، والإبداع، لحماية دولتهم وتمكينها من البقاء، لكنهم في توجهم القتالي وتكوينهم العسكري، قدموا خدمة كبيرة للإسلام بتحقيق واحدة من أكبر موجات الفتح ، والانتشار في التاريخ أو كما يسميها بعض الباحثين (الموجة الثالثة) بعد الموجتين الراشدية، والأموية، لقد اكتسحوا الجدار البيزنطي،

وأسقطوا قاعدته التي ارتدت عنها مرارا قوات الأمويين، والعباسيين، وانطلقوا على جناح الإيمان الشاب إلى قلب القارة الأوربية، لا يلوون على شيء، فتهاوت أمام ضرباتهم دول وممالك وكيانات [1].

وقد كانت ممارساتهم الداخلية في الولايات التابعة لهم غاية في الروعة والتحضر، ولكن ليس هناك خيط رفيع بين الخلافة الإسلامية العثمانية، وما نسب إليها من تعصب ديني مزعوم، إنما هناك بون شاسع وعميق بين الحمية التركية وحماسها الديني، وبين اضطهاد البشر وفرض العقائد والمذاهب واستئصال الشعوب ومحاكم التفتيش !!!.

حيث أنهم لم يجبروا أحدا على اعتناق الإسلام، فحسب، بل إنهم حموا أديان، ومذاهب، وثقافة، وتراث الشعوب غير الإسلامية، التي تمتعت بالعدل الإسلامي الشهير، في ظلال الحكم العثماني الأمين، بل إنهم تحرجوا أن يكونوا قضاة في أمور غيرهم الشخصية، وتلك ميزة لا نظير لها في التاريخ البشري كله، ميزة دولة كبرى في حجم الإمبراطورية العثمانية مساحة وأجناسا وديانات وطوائف.

يقول الزعيم الوطني المصري مصطفى كامل (إن الدولة العلية هي الدولة الوحيدة في دول الأرض، التي عاملت رعاياها الذين يدينون بغير دينها، بالتسامح والتساهل والاعتدال، فقد اتبعت أوامر الشرع الشريف، وتركت للمسيحيين حرية ديانتهم، واحترمت عقائدهم كل الاحترام، بل عينت الكثيرين من المسيحيين في المناصب السامية، والوظائف العليا، وجعلتهم محل ثقتها، ويختم مقاله بنداء: لو أنصفت الدول الأوربية قليلا لاعترفت بهذه الحقيقة الواضحة.

ويعترف " مورو بيرجر " - أحد مبشري الجامعة الأمريكية في بيروت بهذه الحقيقة فيقول: (وقد اتخذ حكم الأقليات الدينية تحت سلطان الإمبراطورية العثمانية شكل المِلَلْ، تختص كل منها بشؤونها الاجتماعية، وتنظيم الأوضاع الفردية لكُل أعضائها، وكم كان شعور المسلمين بالتساهل شاملا، إلى درجة أن العثمانيين منحوا حتى الأوربيين، الحقوق الشخصية والتجارية والدينية، وقدرا من

(١) د. عماد الدين خليل، حول انتشار الإسلام وقائع وملاحظات ص٤٧ ط١٩٨٥م.

الحكم الذاتي على الأرض العثمانية [1]. بل إن بيزنطة مركز العداوة للمسلمين ومبعث العواصف على الأوطان الإسلامية مدة ثمانية قرون، عندما سقطت في أيدي المسلمين، ما استبيحت حرمتها الدينية، ولا تسلط الفاتحون على العقائد والأديان فيها.

محمد الفاتح في القسطنطينية:

وهذا ما سجلته أقلام المؤرخين المسيحيين أمثال فنلي، بنزيوس، دهون، كما يقول أرنولد: (**وكانت أولى الخطوات التي اتخذها محمد الثاني، بعد الاستيلاء على القسطنطينية؛ أن طمأن المسيحيين بالتعهد بحماية الكنيسة الأرثوذكسية،** ومنع اضطهاد النصارى منعا باتا، وصدرت الإدارة السنية بأن للبطريق والأساقفة في النظام الجديد، جميع الحقوق والامتيازات التي كانت لهم في النظام السابق للفتح، واستلم البطريق "جناديوس" من يد السلطان، الأداة التي كانت شارة ولايته، ومعها ألف قطعة من الذهب، وحصان مطهم بعدة فاخرة، ليركبه في موكبه بالمدينة، ولم يكتف بهذا بل مكنه من سلطات مدنية واسعة على الرعايا المسيحيين، ويقضي بالغرامة والحبس والقتل، وكان حكومة السلطان تنفذ ما يقضي به مجلس البطريقية، التي كانت لها السلطة المطلقة في الشؤون الروحية. ولما كان البطريق معتبرا من كبار رجال الدولة، في نظر السلطان، ومعترفا به، فقد كان له أن يتدخل لرفع الظلم الذي يقع من بعض الولاة على النصارى، باتصاله المباشر بالسلطان، حتى انتهى الأمر إلى أن صاروا في مناطق سلطانهم الديني، كأنهم مأمورو الدولة وولاتها، فحلوا محل الأرسقراطية البيزنطية، التي انقرضت بسقوط دولتها، ذلك ما فعل المسلمون في المشرق).

وقد سقطت غرناطة للأسبان بعد سقوط القسطنطينية للترك بأربعين سنة، فهل كان للفرنجة فيما فعل المسلمون أسوة) [2].

---

(1) محمود الشاذلي، المسألة الشرقية دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ص١٠٠.
(2) عبد الرحمن عزام – الرسالة الخالدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ص٢٤ سنة ١٩٤٦.

بعد هذه الشهادات المتتالية من قبل المؤرخين المسلمين، وغير المسلمين، لم يبق مجال لصحة هذه الادعاءات الكاذبة المفتراة، التي يروجها أعداء هذه الأمة الإسلامية، تشنيعا على دولة الخلافة العثمانية، والتي أقرت الأمن وحققت الإتحاد والتواصل والتلاحم بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، حتى دوخت دول الكفر كلها، والتي تكالبت عليها في نهاية أمرها، بفضل غفلة أبناء المسلمين من العرب، وانسياقهم وراء دعاوي واهمة، ووعود خادعة، جعلتهم يتخلون عن الخلافة بل يحاربونها.

نأتي إلى الاتهام الثاني الذي شاع على ألسنة الحاقدين والنصارى ومن شايعهم من بعض كتاب المسلمين حول رمي الخلافة العثمانية بالفساد، وتصوير الخلفاء العثمانيين على أنهم لا يعلمون عن أحوال الأمة شيئا، غارقين في الملذات وسط الحريم، **وهذا ما شاع بشدة على لسان جرجي زيدان ونضحت به رواياته خاصة الانقلاب العثماني!!**

والحقيقة كما يراها الأستاذ محمود الشاذلي: (١)

إن القصص الوهمية عن قصور السلاطين التي رواها كتاب الغرب ونقلتها عنهم أدوات التخريب الثقافي في بلادنا، لا تصلح إلا زادا عفنا لأحلاس الحانات، ولا أعرف كيف سولت لمدعي العلمية في دراساتهم المنهجية، أن يلفقوا حكايات خرافية، أرقى منها ألف مرة، حكايات ألف ليلة وليلة !! إن هؤلاء الخلفاء هم الذين تساقطت المجر في أيديهم، وتحت ركابهم في ساعات، لا تتعدى نصف نهار، وهم الذين طبقوا القرآن وطبعوه، وقاموا على تعليمه، وإشاعة علومه بين الناس، وأنشأوا له الدور والمعاهد، وكونوا من خلاله أمة مسلمة، لا تدين إلا به عقيدة وشريعة، ولا تعمل إلا له غاية واحتسابا، هم الذين كانوا يلقبون باللقب المهيب، الغازي أي المجاهد في سبيل الله، أشرف الألقاب عندهم وأغلاها على الإطلاق، أو يجدر بنا نحن المسلمين أن نصدق أن قصة جهاد آل عثمان هي قصة الجواري

---

(١) محمود الشاذلي، المسألة الشرقية دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية، مكتبة وهبة ص١١٨، ١١٩، ط١ سنة ١٩٨٩م.

والحريم ؟ هـل ينقم الحاقدون على خلفـاء المسلمين من آل عثمـان أنهم فور سماع صوت المؤذن عند الفجر، يلبون النداء، فيقومون للوضوء ثم يؤدون الصلاة جامعة، في مسجد القصر مع كل من فيه، يؤمهم السلطان خليفة المسلمين !؟

إن سلاطين آل عثمان كانت لهم عبارة أصيلة أثيرة يرددونها أمام رجال الحكم، عندما تنقل إليهم، مطالبة بعض المنحرفين من العائدين من الغرب، أو أدوات المحافل الماسـونية بنوع من " البحبحة " في الحجـاب والخمور أو القمار، كانوا رحمهم الله يقولون: علينا إرسـال الرسـل إلى الخـارج، ولنعمل سـريعا على تعلم مـا وصل إليه الغرب " ويرسـل المجاهدون من سلاطين آل عثمـان البعثات العلمية، ويعود الأتراك المسـلمون ليسـاهموا في تطوير الدولـة، فتقوم المصانع للإنتـاج المدني، والعسكري، وتنشأ المدارس والجامعـات وتمد الطرق والجسور وسـكك الحديد، وشبكات البرق والهاتف.

ويعـاود أفراد الطابورالخـامس العائدون الفاشـلون وقد جندوا في بـلاد ابتعاثهم يطـالبون بالمشروطية، وحريـة الممارسة الجنسية، عادوا بمرض الزهري، وسمن العدو على خبزهم.

ويجيب السـلطان الحارس اليقـظ، على أمانـة الأمـة في يديـه " ليتهم عـادوا لنا بطريقة صناعـة آلة جديدة أو فن جديد - إن للشـرق حضارته الإسـلامية المتكاملة المتفوقة علـى حضارة الغرب - إنهم يحسبون المسـلمين قـد صرفوا عن دينهم كما فعلـوا هم، إن شـعبي المؤمن شـديد الغيرة على الإسـلام، هـؤلاء الأغرار يقلدون النصارى في كل أمورهم، يعـاقرون الخمر، ويغازلون النسـاء، ويرتكبون كل محرم، إن هذه المطالب تؤدي إلى خروج نساء المسـلمين حاسرات الوجوه كنساء الإفرنج الكفـار، إنا أعلـم تمسـك عامـة المسـلمين بالحجـاب" قالها السـلاطين العظام من " الغـازي عثمـان " المؤسـس، والسـلطان " محمـد الفـاتح " و" سـليم الاول " وآخر خلفاء المسلمين السلطان عبد الحميد.

أما عـن تهمـة الفسـاد التي رميت بهـا الخلافـة العثمانيـة التي مـا فتئ العلمانيون والمستغربون، من أبناء هذه الأمة يبـدءون فيها ويعيدون، فلا يتبادر إلى الذهن، أننا

نريد أن نداري على هذه الانحرافات التي وقعت من بعض رجالات الدولة، أو نكذب على التاريخ، باختلاق وقائع مزورة بدلا منها، فإن المسلم إذا فعل ذلك، فإنه يرتكب جريمة دينية وجريمة دنيوية بحق الأجيال التي ستقرأ هذه الكتابات بعد فترة تطول أو تقصر، وربما تصورت أنها الحق - لكن الفرق بيننا وبين المتغربين أننا نورد الصورة كاملة، ونقدم الصفحة كلها بياضها وسوادها، أما هم فلا يظهرون إلا الخط الأسود، فلا ينكر ولا يعتذر عن ذلك المحظور، الذي وقع فيه بعض من رجالات الدولة، وعدد من المشتغلين بالشعر والأدب، ومع ذلك فإن هذا الفساد كان محظوراً في بعض البيوتات المتغربة، وجواسيس الماسونية أمثال " مدحت " أحد الصدور العظام، وذوي الصلة أو العمالة بالإنجليز، الذي قرر يوم أن كان واليا على " الطونة " أن تكون اللغة البلغارية لغة الدراسة، في جميع مراحل التعليم، نشر ذلك والتزم به وأمر بإضافة الصليب على العلم العثماني ذي الهلال والنجمة !!! وهكذا أصبح الوالي التركي الذي يسميه جرجى زيدان - أبو الأحرار- أصبح يشجع حركة الإنفصال، وكذلك رشيد باشا الذي وجد في الغرب مُثُلَهُ، وفي الماسونية فلسفته وغيرهم ... الخ. فريق الدونمة والماسون وعملاء كل عالم العدو، وهم بالقطع لا يحسبون على جماهير الشعب التركي المسلم النظيف، لكن المجتمع التركي - وعلى رأسه سلاطينه - وبخاصة في الأناضول كان من أتقى مجتمعات الدنيا، طهرا وإيمانا ونظافة، إن سر الكره الحاقد على الأتراك عند كتاب الغرب، وتلامذتهم من العرب أنهم لا يستطيعون أن يفصلوا بين ما هو مسلم وما هو تركي، وتركيا تعني عندهم الإسلام، والأتراك عندهم المسلمون، وهذا صحيح من تجربة أوربا مع الدولة العثمانية المسلمة.

بعد هذه الكلمات السابقة عن الاتهامات الغشومة التي ألقيت جزافا في وجه الدولة العثمانية، والتي وصمتها بالفساد، وظهر بطلانها، ننتقل إلى نقطة أخرى وهي حقيقة هذه الجماعات الناهضة للدولة، وللخلافة، أمثال (الاتحاد والترقي - تركيا الفتاة ...) التي قدمتها مجلة الهلال - **أو جرجى زيدان** - على أنها جماعات مناضلة، مجاهدة، سعت في مصالح الأمة، من أجل تخليصها من ظلمات العصر

حقيقة مدحت باشا:

وكذلك ها هو مدحت باشا [1] الذي خلعت عليه المجلة كل **ألقاب الشهامة والبطولة والحرية وسمته أبا الأحرار من هو** ؟ وهل حقا اضطهده السلطان عبد الحميد، كما سجلت ذلك أغلب الكتب والمراجع، وانه أمر بمحاكمته لإتهامه في قتل عمه السلطان عبد العزيز، وعندما أصدرت المحكمة حكمها بإعدامه، عفى عنه ونفاه إلى الطائف، وأمر بقتله هناك ؟! وما نسجه خصوم السلطان حول هذه القصة من نسج خيالهم للإمعان في اتهام الرجل بالاستبداد، ألم يضطهد المدافع عن الدستور وأمر بقتله ؟ [2].

ولكنه إظهاراً للحقيقة، وكلمةً للتاريخ، فقد تتبع العلماء المخلصون هذه الفرية، بالفحص والمتابعة، في محاولة مستميتة للكشف عن حقيقة دور هذا الرجل في دولة الخلافة ؟ فظهرت عدة أمور:

١- ارتكب مدحت باشا أخطاء قاتلة تمس الدولة وتقوض دعائمها، في الداخل والخارج، فقد عين ولاة من الأقلية في ولايات الأغلبية فيها مسلمون، وقرر قبول طلبه من الأروام في المدرسة الحربية التي هي عماد الجيش، كما أراد الزج بالدولة في حرب لا قبل لها بها، بينما كان يجهل قوة الجيش الذي سيزج به في المعركة، ضد كل من روسيا وانجلترا والنمسا، والمجر، وألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا. يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته (كنت أرى أن الصدر الأعظم - مدحت باشا - يؤيد الإنجليز ويتعاون معهم سواء بدافع من ماسونيته، أو بدافع من أسباب خاصة جداً به، و لم أعد أحتمل فاستندت إلى صلاحياتي في القانون الأساسي، وعزلته عن الصدارة العظمى وأبعدته خارج الحدود) [3].

---

(١) عبد الله التل الافعى اليهودية في معاقل الإسلام، المكتب الإسلامي بيروت ط٢ بدون تاريخ ص٧٦، فصل هدم الخلافة الإسلامية.

(٢) د/ مصطفى حلمي، الأسرار الخفية وراء إسقاط الخلافة العثمانية ، دار الدعوة ص٤٣ .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد، تحقيق محمد حرب، دار الأنصار ط بدون رقم ص٤٤ سنة ١٩٧٨م.

٢- حصول مدحت على رشاوي من الإنجليز ومعنى (أن يأخذ مالا من دولة أخرى لابد وأن يكون قد قدم لها خدمات، لم يهزني شيء في حياتي هزاً ضخما، قدر شخص يرتفع إلى مقام قيادة الجيش، أو الصدارة العظمى، ويقبل نقوداً من دولة أجنبية ...) وزاد وقع ذلك في نفس الخليفة عندما عزله ولم يثر الشغب، ولم يبحث عنه أحد، حتى من أقرب المقربين إليه !! ولم يتدخل سوى انجلترا أقامت الدنيا وأقعدتها (فمن الطبيعي - وقد تعاون مدحت باشا مع إنجلترا أن تعاونه وتؤيده - كان الإنجليز يعرفون أن الإصلاحات التي يوصون بها من شأنها أن تغرق الدولة العثمانية سريعاً ...) [١].

والعجيب أنه مع كل هذه الأخطاء الجسيمة، التي ارتكبها مدحت باشا فإن السلطان عبد الحميد، كان على استعداد للصفح عنه، لأن السلطان عنده يعني العفو، ولا يعني توقيع الجزاء. لكنه لم يستطع تجاهل اشتراك مدحت في قتل عمه السلطان عبد العزيز، لما يحمله من دلالات إجرام ضد الدولة، والأسرة الحاكمة.

وعندما أدين في المحاكمة، كان السلطان أيضا عنده استعداد للصفح عنه، لكنه - مدحت - قتل نفسه بنفسه، فقد لجأ إلى القنصلية الإنجليزية فلما كانت في عطلة لجأ للقنصلية الفرنسية، واحتمى بها وكانت (هذه الجريمة أو التصرف الذي أقدم عليه مدحت أثقل وطئا من الجريمة المدعى عليه فيها إنه تصرف لا يمكن الصفح عنه...)[٢]. ولكنه عندما تذكرت للمرة الأخيرة خدماته للدولة، خففت حكمه من الإعدام إلى السجن !! بعد كل ذلك هل تصدق رواية القتل ؟!!

ماذا يقول السلطان عبد الحميد في رد هذه التهمة (يريدون أن يلقوا علي تبعة مسؤولية موته، فليلقوا، فغداً عندما نمثل أمام رب العالمين سيكون وجهي أبيض، وجبهتي ناصعة، وإذا كنت سأحاسب في هذه المسئلة، فإن ربي سيحاسبني على تهاوني مع صدر أعظم أهان دولته، وعفوت عنه، وإنني راض بجزاء الله في هذا السبيل) [٣].

(١) المذكرات ص٤٤.
(٢) ص٤٦.
(٣) السابق.

بهذا التعليق المفعم بالإيمان الممتلئ بالتقوى، تحسم هذه التهمة، فإذا مدحت هذا الذي اعتبرته **مجلة الهلال** بطلا ومناضلا، وأبا للأحرار، لم يكن إلا خائنا لبلده، ودولته، عميلا لأعدائها، مرتشيا، من العاملين على إسقاطها وإزالتها محتضنا للجماعات المناهضة للدولة التي كان رئيسا لوزرائها !!!

أما الاتحاديون بصفة عامة، أو جماعات الإتحاد والترقي الذين قدمتهم مجلة الهلال، على أنهم المناضلون الأحرار، الساعين إلى فك إسار الدولة من طائفة المستبدين، وجحافل الجهال، والظالمين، من آل عثمان - فهاهي حقيقتهم وتلك هي أعمالهم وتواطئاتهم، مع أعداء هذه الأمة أكبر شاهد وأعظم دليل على خيانتهم وعمالتهم، وفساد عقائدهم، وانعدام ضمائرهم.

ولكن من هم الاتحاديون أو جماعة الاتحاد والترقي ؟

إنهم جماعة سرية كانت - بإيعاذ من النفوذ الإستعماري والمنظمات الماسونية العاملة لحساب الصهيونية العالمية - تعمل على إسقاط السلطان عبد الحميد، حامل لواء الدعوة للجامعة الإسلامية - وتعد العدة لتمزيق الدولة العثمانية وتسليم الأجزاء العربية وغير العربية منها، إلى الدول الأوربية، على النحو الذي وقع بالفعل بعد ذلك [1] بلغ نجاحهم قمته: حين قاموا بثورة عسكرية في شهر يوليو عام ١٩٠٨م والتي أبطلها السلطان عبد الحميد بإعلان المشروطية (الدستور) واستأثرت الجمعية بالنفوذ على إثرها، وغدا السلطان في الظل، هذه الجمعية التي ضمت أخلاطا شتى من عناصر ذات جنسيات مختلفة، وديانات متعددة، لكن الكثرة والغالبية فيها كانت من الأتراك العثمانيين، يليهم اليهود، ثم بعض العرب، ومعظمهم من ضباط الجيش، كان هدفهم الأساسي القضاء على السلطان عبد الحميد [2] ولكنهم لم يقنعوا بالانقلاب الدستوري !! قاموا بانقلاب عسكري (١٩٠٩) متذرعين بقيام حركة مضادة في ١٢/ ٤/ ١٩٠٩م تزعمها الدراويش، وأئمة المساجد، وفرق من علماء الدين الإسلامي، وطلبة المعاهد الدينية، ولقيت

---

(١) أنور الجندي، الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي، دار الاعتصام، ص٣١٨.
(٢) د/ عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة جامعة القاهرة ج٢ ص١٠٠٨ سنة ١٩٨٣م.

استجابة من جماهير العامة، وتنادوا إلى إلغاء الدستور، بحجة أن مبادئ الشريعة الإسلامية باتت في خطر، وطافت المظاهرات الشوارع، تهتف فلتعيش الشريعة المحمدية ! وامتدت الحركة بسرعة من استانبول إلى أنحاء الأناضول، فأسرع رجال الإتحاد والترقي، إلى تجريد قوات عسكرية (جيش الحركة) زحفت من سالونيك على استانبول، واحتلتها يوم ٢٤/ ١٢/ ١٩٠٩م بعد قتال مرير، ثم قادت الجمعية بعد ذلك حملة عنيفة للتشهير بالسلطان عبد الحميد بعد أن خلعته، وذلك لتحقيق عدة أهداف:

١- الدفاع عن الجمعية عن طريق تبرير تصرفاتها بأن أعضاءها - حماة الدولة -! لم يكن سوى طريق واحد، هو إنهاء حكم السلطان عبد الحميد، كي تستعيد الدولة مكانتها.

٢- تغطية الفشل الذريع في حكم الدولة داخليا وخارجيا، كي يعتقد الرأي العام في الدولة وخارجها، أن حكمهم لم يكن أسوأ من حكم عبد الحميد، الذي منعت فيه الحريات، مع أن الثابت تاريخيا، أن رجال الإتحاد والترقي، حين استأثروا بالنفوذ ثم انفردوا بالحكم، انقلبوا طغاة مستبدين من الطراز الأول أو كما يسميهم الأستاذ محمد شفيق غربال (رجال الطغيان العسكري) فقد لجأوا إلى أساليب استفزازية دلت على الحماقة والجهالة بأصول الحكم، وأثاروا مزيدا من الفرقة، بين العناصر التركية الأصل، والعناصر المسيحية والإسلامية غير التركية، كما عمدوا إلى طرد عدة آلاف من الموظفين العرب، والألبانيين والأكراد، من مناصبهم الحكومية والاستحقاق) ولو كانت هذه الحركة من أجل الصالح العام وتأمينهم نظام الحكم فلا لوم عليهم، لكن اتضح بما لا يدع مجالا للشك أنها حركة عنصرية، لأنهم عينوا موظفين طورانيين في جميع المناصب التي خلت بطرد شاغليها، وكانت الدولة إبان حكمهم الذي استمر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، تفقد كل عام أقاليم هامة في أوربا، وأفريقية، وآسيا، فضلا عن الأخطار الداخلية والخارجية التي واجهتهم وجعلتهم يزدادون تمسكا بمقاليد الأمور، فقبضوا على البلاد بيد من حديد، واعتمدوا سياسة الحزب الواحد، هو حزب الاتحاد والترقي. وهي سياسة ساد في

ظلها الكبت والرهبة، والحكم الاستبدادي العنيف، وفرض الرقابة على الصحف، وإنشاء المحاكم العسكرية، وتوزيع المناصب على الأنصار ومن إليهم من أهل الثقة(١).

وكانت دعوتهم في ظاهرها، تقوم على الدعوة للتجمع تحت لواء الخلافة، وفي نفس الوقت تجرى دعوى الطوارنية من خلفها، وتجرى دعوة العرب إلى دعم الوحدة العثمانية، في نفس الوقت الذي يقتل فيه العرب على المشانق، حتى لا يقوم لقاء جزئي الأمة الإسلامية (العرب والترك) إنها **سياسة التمويه التي اعتمدتها الجمعية بعد خلع السلطان عبد الحميد:**

لقد كان لهذه السياسة دور كبير في تعبيد الطريق وكانت أعمالها هي التي عبدت الطريق أمام الخطوة الأخيرة وأهمها (٢):

١- فتحوا الطريق أمام الصهيونية على فلسطين.

٢- سلموا طرابلس الغرب للإستعمار الإيطالي.

٣- أدخلوا الدولة العثمانية في الحرب العالمية - في صف الألمان - دون أن يكون لها فيها ناقة ولا جمل. ثم عمدوا إلى تتريك العرب وإثارتهم على الدولة، وتحريضهم على الإلقاء بأنفسهم في أحضان الخلفاء، وهو ما حدث فعلا.

ولما انتهى دور الإتحاديين وحملوا مسئولية خراب الدولة العثمانية، بما كبدوها إياه خلال الحرب الأولى اختفوا ظاهريا ليظهروا في صورة جديدة، تحت لواء مصطفى كمال.

الاتحاديون والكماليون:

وهكذا كان الإتحاديون طلائع للكماليين. نسقا واحدا، ومخططا واحدا، وجبهة واحدة، قسمت نفسها على العمل، تحت أسماء (نيازى - طلعت - جمال) ثم تحت (٣) اسم (مصطفى كمال، عصمت اينونو) من بعد، وهم ماسون ودونمة،

(١) الدولة العثمانية ص١٠١٩ ج٢.

(٢) أنور الجندي - مقدمات العلوم والمناهج - تاريخ الإسلام مجلد ٢ - دار الأنصار ص٤٦٨.

(٣) السابق ص٤٧٠.

وأتباع ثقافة الثورة الفرنسية، المعلون لشأن جنكيز خان، والكارهون للإسلام والقرآن والعرب، والمؤمنون بتحطيم الوحدة الإسلامية، والتفريق بين العرب والترك، الداعون على القضاء على الشريعة الإسلامية والخلافة، الذين قتلوا شخصية الأمة، وعملوا على طمس هويتها فأشهروا حربا على الحجاب بالنسبة للسيدات، وعلى الأزياء القديمة بالنسبة للرجال، الذين كان عليهم أن يرتدوا الملابس الأوربية، والقبعات ومنعوا أئمة المساجد من إرتداء العباءة خارج المساجد، وحولوا عددا كبيرا من المساجد الكبرى، والصغرى، إلى أغراض مدنية، فقد أصبحت كاتدرائية القديسة يوحنا في القسطنطينية، المسجد الجامع على يد السلطان محمد الفاتح، عقب فتح هذه المدينة التي سماها (استانبول) أو دار الإسلام - فلما جاء الكماليون حولوا هذا المسجد إلى متحف وطني، و لم يشيد الكماليون أي مسجد آخر في أنقرة، - عاصمة الجمهورية - وجعلوا الإجازة الأسبوعية الرسمية في وزارات الحكومة ومصالحها يوم الأحد، بدلا من يوم الجمعة، وأبطلوا كتابة اللغة التركية بالحروف العربية، واتخذوا لها حروفا لاتينية ليسهل نطقها باللغة التركية[1].

الكماليون وتتريك العبادة:

وفي ذات الوقت عمل الكماليون على تتريك العبادة، فأذان الصلاة يجب أن يكون باللغة التركية، من مآذن المساجد. وأن يتلى القرآن باللغة التركية، وأمروا بترجمته إلى اللغة التركية ترجمة رسمية معتمدة من الحكومة، وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة، وأن تكون الصلاة باللغة التركية، وأن يرتدي أئمة المساجد قبعة من نوع الطاقية، حتى يكون في مكنتهم السجود، ولكن منعوهم، من ارتداء العباءة خارج المساجد، وكان ارتداؤها مقصوراً على الأئمة، ونفر من علماء الدين، هذه الإشارة السريعة والعابرة لبعض الإجراءات التي اتخذها الكماليون تبدو على طرف نقيض من تصرفات السلاطين السابقين، فبينما ولت الجمهورية التركية وجهها شطر أوربا، تقتبس منها العلوم، والثقافة، ونظم التعليم، والقانون المدني،

(١) الدولة العثمانية ج٢ ١٢٠٣ سابق.

والجنائي، والتجاري، والبحري، ونظم الحكم، والإدارة، وما إلى ذلك، بعيدا عن مبادئ الشريعة الإسلامية، والقاعدة الإسلامية، والشرقية، التي أقام عليها أجدادهم السابقون دولة مترامية الأطراف، اكتسحت جيوشها لأول مرة في التاريخ، أقاليم في شرقي ووسط أوربا، نجد أن السلاطين - محمود الثاني، وعبد المجيد الأول، وعبد العزيز، وعبد الحميد الثاني، وفي سنوات حكمهم من سنة ١٨٠٨ -١٩٠٩م كان لهم تحفظات في كل ما اقتبسوه من الحضارة الغربية، وقد حرصوا على هذه التحفظات، حتى لا تفقد الدولة طابعها الإسلامي البارز، ولهذا فقد احتاطوا في النقل عن القوانين الأوربية، فاحتفظوا لحياة الأسرة، أي لكيان الأمة الاجتماعي بأساسها الشرعي الإسلامي، وفي التزيي بالأزياء الأوربية، أنكروا القبعة، بينما اعتبر الكماليون، عدم استخدام القبعة، والإصرار على لبس الطربوش، جريمة يعاقب عليها القانون، كما كان لهذه الحملات الظالمة العنيفة، ضد السلطان عبد الحميد هدف أخير، وهو رغبة القائمين على الحركة الصهيونية في تدمير سيرته، انتقاما منه لسياسته المعادية لأهدافهم في فلسطين، لاسيما وأنهم أسهموا في تأليب أعضاء جمعية الإتحاد والترقي، الناقمين على حكم السلطان عبد الحميد فتلاقت دوافع الفريقين، الصهاينة يحقدون على السلطان لسياسته الرامية إلى الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وكذلك لأنه اتخذ من بعض كبار العرب مستشارين له في حاشيته، وشجعوا السلطان على المضي في معارضته للحركة الصهيونية، أراد الصهاينة حاكما من طراز آخر، يبعد المستشارين العرب من ناحية، ويتيح عديد الفرص أمام الصهاينة، لتحقيق أهدافهم في فلسطين من ناحية أخرى، وأرادت بريطانيا حاكماً جديدا يعيد إليها مكانتها التي كانت لها في استانبول، قبل أن تتبوأ ألمانيا مكان الصدارة على سائر الدول في العاصمة العثمانية.

اليهود وراء الانقلاب العسكري في دولة الخلافة:

ولهذه الأهداف وتلك الدوافع رحب الصهاينة بالإنقلاب الدستوري عام ١٩٠٨م، وبالانقلاب العسكري عام ١٩٠٩م، وتغلغلوا في مجالس جمعية الاتحاد والترقي، التي تولت الحكم، وكانوا من حيث النفوذ يعتبرون، بعد الأتراك

العثمانيين، وبرز منهم عدد ليس بالقليل في الدوائر العليا، في حكومة استانبول، منهم على سبيل المثال، طلعت باشا والذي شغل منصب وزير الداخلية، وهو يهودي اعتنق الإسلام (١) ويطلق عليه وأمثاله في التاريخ العثماني طائفة الدونمة.

طائفة الدونمة:

وهم جماعة من اليهود أظهروا الإسلام وأبطنوا اليهودية للكيد بالمسلمين، أسهموا في تقويض الدولة العثمانية، وإلغاء الخلافة، عن طريق إنقلاب جماعة الاتحاد والترقي، التي كانوا وراء تأسيسها، وهم في الأصل من يهود أسبانيا، والبرتغال، الذين هاجروا إلى تركيا على إثر خروج العرب من الأندلس، أخذ بعضهم منذ عام ١٦٨٣م يزعمون الإسلام، وكشف بعض الأتراك مخططهم، فأطلق عليهم كلمة **دونمة**: وهي **تعني المرتد أو الملحد أو الزنديق**، ويعيشون بوجهين، مقتدين بمسيحهم الكاذب شيتاي بن نسفي، الذي خيره السلطان بين أن يقتل أو يعتنق الإسلام، فاختار اعتناق الإسلام، وأسمى نفسه محمدا، وسار على نهجه أتباعه من اليهود، أسلموا وأصبحوا يصلون ويصومون ويحجون كالمسلمين، لكنهم في الخفاء يقرأون التلمود والعهد القديم، ويرتلون بالعبرية، ولا تزال هذه الطائفة، منذ زعمت الإسلام، تعيش في تركيا بوجه مسلم وقد عاونها ذلك على التدخل في شؤون تركيا السياسية والاقتصادية، والتربوية والتوجيه الفكري، ومنهم من هاجر إلى فلسطين، ومنهم من تمنى لو أراح نفسه من هذه الازدواجية وهبط إلى وطنه القومي فلسطين (٢).

وهكذا فإن سياسة الاتحاد والترقي، أو الأتراك الاتحاديين، كانت تقوم على الإرهاب وتتريك الشعوب العثمانية، وإرتكاب أنواع المظالم التي فاقت كل ما كان يوجهه الحاقدون ويروجه الخبثاء – على العهد الحميدي من تهم، وكان لهذه

---

(١) أنيس صايغ – الهاشميون وقضية فلسطين.

(٢) الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي الرياض ، ص٥٦٠، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ج٢ ص١٠٢٩، يامسلمي العالم اتحدوا – عبد الفتاح عبد الحميد – دار الأنصار ص١٦٠ ط ١٩٧٦م.

السياسة أثرها الواضح في تحويل إتجاه القضية العربية من مجرد دعوة إلى الإصلاح، واللامركزية في إطار الدولة العثمانية الموحدة، إلى حركة سياسية جادة، ترمي إلى إستقلال البلاد ثم إلى ثورة مسلحة ضد الأتراك [١].

كما أثبتت الوثائق الرسمية ولاء جمعية الاتحاد والترقي للصهيونية فيما يتعلق برفع الحظر على الهجرة إلى فلسطين، وامتلاك الأراضي فيها فقد سجلت الوثائق أنه في يوم ٢١ ديسمبر ١٩١٣م بعث السفير البريطاني في القسطنطينية تقرير إلى سر إدوارد جراي وزير الخارجية، بالوثيقة التي كان يتعين على اليهود الأجانب حملها، عند وصولهم أرض فلسطين والتي كانت تحدد إقامتهم فيها بثلاثة أشهر.

وهكذا نصل إلى نهاية ذلك المبحث، والذي تعرضنا فيه لما أوردته مجلة الهلال حول الخلافة العثمانية والطريق الذي اتبعته في تعاملها مع الباب العالي، منذ بداية أمرها، وكيف أنها تميزت أو انتهجت لنفسها سياسة التزلف في بداية صدورها. معلنة أنها لا تريد الانخراط في الأبحاث السياسية ثم انقلبت بعد.

السياسة التي اتبعها جرجي زيدان تجاه الخلافة العثمانية:

١- اتبعت سياسة التزلف للخلافة العثمانية في بداية صدورها حتى تجد لنفسها طريقا بين جمهور القراء الذين ينبغي لها أن تتودد إليهم.

٢- وضحت مباحثها بأنها أدبية تاريخية ثقافية، ليس لها بالسياسة علاقة حتى لا تتعرض لما يوغر الصدور ويغير الأفئدة !

٣- في مباحثها التاريخية سواء في كتاب تاريخ التمدن الإسلامي - أشهر كتب صاحب الهلال، أو رواياته التاريخية، شنت الهلال حربا ضارية على الخلفاء المسلمين، عبر عصور الإسلام المتعاقبة، شوه فيها جرجي زيدان سمعتهم وأفسد سيرتهم، وقدمهم على أنهم مجموعة من رجال الحكم كانت غارقة في بحار الشهوات، والملذات، والجواري، والأغاني، والخصيان !!

---

(١) محمد الخير عبد القادر - نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية ص٢٠٩، مكتبة وهبة ط ١٩٨٥.

٤- بعد أن وصل إلى هذه المرحلة وسرَّب هذه الكتل السوداء - من المفاهيم - عن الخلفاء وبيوتهم عبر التاريخ الإسلامي، وعبأ جماهير القراء نفسياً ضد نظام الخلافة حتى لا ينتابهم التفكير لحظة واحدة في استلهام حلول مشكلاتهم الحاضرة من تراثهم المجيد، وحتى يمهدهم لمرحلة قادمة.

٥- ما إن قامت الحركات المناهضة للخلافة، والتي قادتها جماعات الماسون والدونمة في تركيا أمثال: جمعية تركيا الفتاة، والتي تفرع عنها جماعة الإتحاد والترقي، والتي قادت انقلابا دستوريا غاشما، في مقر الخلافة اتبعته بانقلاب عسكري، خلعت على إثره السلطان عبد الحميد الثاني.

كان لمجلة الهلال في هذه المرحلة دور غاية في الخطورة، والعمالة والكشف عن وجهها الحقيقي البغيض، فقد ساعدت هذه الجماعات الخارجة على دولة الخلافة بكل ما تملك، وعملت على تحسين صورتها، وأنها تسعى إلى تخليص الأمة من عهود الاستبداد والظلم التي عاشتها في ظل الخلافة العثمانية، وفي المقابل ألحقت بشخصية السلطان عبد الحميد، من الغبن والظلم والإعنات، ما لم تلقه شخصية في التاريخ الإسلامي المعاصر، فأخذت تلح على تصويره بصورة الطاغية المتسلط، فترة تزيد على ثلاثين عاما - **(إنه السلطان الأحمر - المستبد - الظالم - الذي يأخذ بالظنة - الذي يضطهد الأحرار ويغدر بهم ... الخ).**

كل ذلك بسبب: تصديه لأطماع اليهود، والنصارى، في بلاد المسلمين، وفهمه العميق للمؤامرة اليهودية الصهيونية، الممتدة من الماسونية، إلى الدونمة، إلى جماعة الإتحاد والترقي، بكل أبعادها وأهدافها، التي كانت خافية، على ظاهر المواقف السياسية في البلاد العربية الإسلامية، في ذلك الوقت.

٦- استمرت المجلة في دعم هذه الجماعات الماسونية، التي هدمت الخلافة، ودعتهم إلى الضرب بأيدي من حديد على يد هؤلاء (المتقهقرين) من العلماء وطلبة العلم، الذين لا يسلمون لحكومة الإتحاد والترقي، ولا يعترفون بغير عبد الحميد، خليفة للمسلمين، وحاكما للبلاد ! وأنها ينبغي ألا تسلك مع أمثال هؤلاء سبيل الرحمة، بل ولا تقوم بنفيهم خشية تجمعهم وتناصرهم، ثم وثوبهم على الدولة بعد

ذلك، لهذا فلابد من قتلهم حتى لا تقوم لهم قائمة، أو لا يعودون لذكر اسم عبد الحميد، بين كهل يحرق الإرم أسفا على ما ذهب من شبابه عبثا في معالجة أسباب الرزق، وسجين يدعو ربه خلسة ! أن يقتص له من القوم الظالمين، وأرملة أغرق بعلها، في مياه البسفور ضحية الجواسيس، ويتامى يتضورون جوعا ولا ذنب لهم إلا أنهم ولدوا في عصر طاغية لا ينام عن الأذى، تتنابهم المخاوف حتى في الأحلام، فتصور لهم عبد الحميد، كالتنين فاغراً فاه، أو كالثعبان ينساب بين أسرتهم ينفث سمه في جراحهم، كذلك كان عبد الحميد سلطان البرين، وخاقان البحرين، الذي دانت له الرقاب وقبض على الحياة والموت ...) [1].

٧- والحمد لله فقد أتينا على هذه الافتراءات واحدة واحدة، وبينا من خلال الدراسات فسادها، وأوضحنا الحقيقة في هذا الأمر قدر ما يسر الله تعالى وأذن، فله الحمد في الأولى والآخرة.

(١) جرجي زيدان، هذا النص منقول عن رواية الانقلاب العثماني ص٩١، ٩٢، ط دار الهلال سنة ١٩٨٥م.

الباب الثالث

الشخصيات والتراجم
عند جرجي زيدان

فصـــل تمهيدي : الشخصية ، تحديد المفهوم
الفصـــل الأول : الشخصيات الماسونية في
كتابات جرجي زيدان
الفصـــل الثانى : الشخصيات القومية في
كتابات جرجي زيدان
الفصـــل الثالث : الشخصيات الاستعمارية في
كتابات جرجي زيدان
الفصـــل الرابع : الشخصيات الإسلامية الغامضة؟!

فصل تمهيدي
الشخصية المفهوم والمعنى

الشخصية في اللغة العربية :

جرت تعبيرات اللغويين اللفظـــية على أن لفظ شـــخص المأخوذ منها كلمة (شخصية) يدل على معين محدد واضح المعالم التي تميزه عن غيره وشخص الشيء إذا عيَّنه، وميزه عما سواه، ويقال: شخص الداء، وشخص المشكلة، وشَخُص الأمر مَثُل وتَبَيَّنْ.

والشخص: يطلق على الهدف والعلامة البارزة.

والشخصية: صفات تميز الشخص عن غيره، ويقال فلان لا شخصية له، أي ليس له ما يميزه عن الصفات الخاصة.

والبطاقة الشـــخصية: بطاقة رسمية تبين صفات الشخص وصورته لإثبات هويته[1].

الشخصية عند علماء النفس :

كان معنى الشخصية في القديم، يعني الحالة الخاصة التي يظهر عليها الشخص أمام الناس أي أنها لم تكن تحمل أكثر من معنى المظهر الخارجي، ثم اتسع هذا المعنى وأصبح يطلق على مجموع صفات الفرد الجسمية والعقلية.

وتنوعت التعريفات على هذا الأســاس، في محاولة الإحاطة بالمعاني المختلفة للشخصية:

١- فهي: تنظيم الفرد لأفكاره وأعماله، واتجاهاته في العمل، تنظيما من شأنه أن تجعل شخصية الفرد وحدة في أساسها [2].

وعلى ذلك فكل صفــة تميز الشخص عن غيره من النــاس تؤلف جانبا من

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص١، سنة ١٩٨٨م. ج١، ص٤٧١.

(٢) د/ سيد محمد غنيم، سيكولوجيا الشخصية محدداتها، قياسها، نظرياتها، دار النهضة العربية، ص١، سنة ١٩٧٣م.

شـخصيته، فالشـخصية هي «جملـة الصفـات الجسـمية والعقليـة والمزاجيـة والإجتماعيةوالخلقية التي تميز الشخص عن غيره تميزا واضحا» (1).

٢- ويرى علماء النفس أن معنى الشخصية من أشد معاني علم النفس، تعقدا وتركيبا، لأنه يشمل جميع الصفات، الجسمانية، والعقلية، والخلقية، في حالة تفاعلها بعضها مع بعض، وتكاملها في شخص معين يعيش في بيئة اجتماعية معينة (2).

ومن خلال التعريفات العديدة، والمتنوعة للشخصية لدى علماء النفس يظهر **اتجاه غالب فيها**، ينحو بالتعريف نحو معالجة الشخصية، كمثير، أو مؤثر، ومحاولة ربطها بالمجتمع وقدرتها على التأثير في أفراده.

وهذا الاتجاه: ينظر إلى الشخصية باعتبار أنها مؤثر اجتماعي في آخرين، متفقة في ذلك مع الاستخدام العادي لكلمة شخصية، عند وصف شخص ما، بأنه قوي الشخصية، أو ضعيفها.

وقد استعمل هذا عدد من علماء النفس مثل:

(ماني) الذي عرفها بأنها «ما يجعل الفرد مؤثرا في الآخرين - أو ما للفرد من تأثير اجتماعي» ومن الممكن أن نعتبر كل فرد مؤثرا فيمن يتصل به.

وكذلك (فلمنج: الذي عرفها بأنها العادات والأعمال التي تؤثر في الآخرين).

وهناك **اتجاه آخر** يقدم عددا من التعريفات المعالجة للشخصية كاستجابة: **فهي** تنظر إلى الشخصية كمتأثر، ومستجيب للموقف وبه، ومنها **تعريف فلون ألبورت للشخصية** بقوله: هي استجابة الفرد المميز للمثيرات الاجتماعية، وأسلوب توافقه، مع المظاهر الاجتماعية في البيئة.

وهناك **اتجاه ثالث**: ينظر إلى الشخصية باعتبارها حالة من الحالات الداخلية يمكن استنتاجها، وهي أساس سلوك الإنسان وتصرفاته ويظهر هذا في تعريفات (وارن، كاربيل): اللذين اعتبرا أن الشخصية هي التنظيم الكلي للإنسان في أي مرحلة من مراحل نموه (3).

---

(1) د/ أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، بدون رقم للطبعة سنة ١٩٦٣م ص٤٩٦.

(2) د/ يوسف مراد، مبادئ على النفس العام، دار المعارف ط٤ ص٣٦٣.

(3) د/ سامية الساعاتي، الثقافة والشخصية، نقلا عن د/ حلال البشار، تكوين الشخصية السوية في الإسلام، ماجستير غير منشورة كلية أصول الدين بالقاهرة.

من خلال تلك التعريفات المتعددة للشخصية عند علماء النفس: يتضح أن مفهوم الشخصية هو ذلك النظام الكامل المتوازن، بين الاستعدادات الجسمية، والعقلية، والوجدانية، حيث يحدد طابع السلوك والتفكير الذي ميز الرد عن غيره، وعلى ذلك فاستعدادات الإنسان العادي هي:

١- استعدادات جسمانية. ٢- استعدادات عقلية وفكرية.

٣- وجدانية وانفعالات وعواطف. ٤- سلوكيات.

وهذه الاستعدادات لا تنفصل بعضها عن بعض، وكلها تعمل في تكامل وتنسيق وتوازن في الشخصية السوية.

ومن استعراض تلك النبذة المتقدمة عن الشخصية ومعانيها ومدلولاتها اللغوية والنفسية، وحتى لا نغرق في قواميس اللغة وعلم النفس، فإننا نخلص إلى أن هناك وعبر مراحل التاريخ المختلفة، وأزمانه المتعاقبة، ظهرت شخصيات إنسانية، بلغ توازنها النفسي مبلغا بعيدا، حتى أصبحت مصدر تأثير وريادة لبني البشر، في أزمانها، يقتدي بها معاصروها، ويتأمل سيرتها ويبحث عن أسرار عظمتها، ويدرس ويحلل شخصيتها، أبناء كل جيل وزمن، على قدر ما لتلك الشخصية من تبرز وظهور.

فإذا قرأنا في سفر التاريخ وقلبنا بين صفحاته، نجد أنه مضى في سالف الأيام، كثير من العظماء، دعوا الناس إلى أن يقتدوا بأخلاقهم وأعمالهم.

منهم ملوك جبابرة، عاشوا في قصورهم الشامخة بين ندمائهم وجلسائهم، وملأوا القلوب مهابة، وجلالة، ومنهم قادة جيوش عاشوا بين ضباطهم وجنودهم، وهم يرهبون الناس ويخيفونهم بشدة بأسهم، وضخامة أجسامهم، ورواء هندامهم، ومنهم حكماء وفلاسفة، كانوا إذا نطقوا أبانوا، وإذا خطبوا أبدعوا، ونثروا درر الحكمة، ما شاءت بلاغتهم، وطلاقة ألسنتهم، فملكوا القلوب وبهروا النفوس، وبجانب هؤلاء الشعراء ممن إذا نشروا أطربوا، وإذا رتلت أناشيدهم، غلبوا السامعين على أهوائهم ولعبوا بالقلوب كيف شاءوا.

كما خلا كثير من الفاتحين الذين دوخوا البلاد واستولوا على الممالك، كما مر

في مواكب التاريخ كثير من المثرين والاغنياء، الذين كانت أقدامهم تطأ البسط الناعمة، ويمشون على الحرير الفاخر - أكثروا القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، واسترعوا أنظار الناس بما كانوا فيه من ترف وعظمة وسعة.

فقد كان الإسكندر المقدوني، وقيصر الروم، ونابليون الفرنسي ...الخ، يملأ كل منهم عيون بني آدم بعظمتـه، وأحداث حياته، ومختلف أعماله، وكذلك نجد سقراط، وأفلاطون، وديوجنس، وغيرهم من حكماء اليونان وغير اليونان مثل سبنسر، وأضرابه، تجتذب سيرتهم النفوس، وتروق القلوب، وإن اختلفت مظاهر عظمتهم عن الآخرين، فهل يا ترى في حياة هؤلاء وأولئك ما يضمن فلاح بني آدم؟

ومن منهم تؤدي سيرته ودعوته إلى إصلاح الإنسانية وسعادتها ؟

إن في هؤلاء وأولئك لقادة فتحوا البلاد، ودوخوا الممالك واقتحموا أقصى الارض وأدناها وذللوا ما اعترض سبيلهم من صعاب، ولكن من منهم ترك، لمن أتى بعده، أسوة يأتسي بها في تعميم الخير ؟

ومن منهم إذا اهتدى الناس بهديه، ينجون من المهالك ويسلكون سبيل السعادة؟

ومن من هؤلاء استعملوا سيوفهم البواتر، لقطع دابر العقائد الفاسدة وتخليص العقول من الأوهام الواهية، والأفكار الباطلة، ومن منهم وقف حياته على حل معضلات بني آدم مع حرصه على عقد أواصر الإخاء بينهم على الحق والتواصي بالخير ؟ أم في أخلاقهم وأعمالهم ما ييسر للإنسانية الشفاء من أمراضها الخلقية وأوصابها النفسية ؟

أم في دعوتهم ما يجلوا صدأ القلوب ودينها أو يرتق فتقا في الحياة الاجتماعية ؟

بعد هذه المقدمات نصل إلى السؤال (المحور) إن جازت تسميته بذلك لارتكاز فصلنا هذا بأكمله عليه. هذا السؤال:

ما هي طبيعة الشخصيات والتراجم التي ينبغي تقديمها من خلال رمز من رموز الثقافة والفكر وعبر مجلة ثقافية تصدر في مجتمع إسلامي وتدعي لنفسها

أنها تحمل هم تعليم المسلمين تاريخهم وتراثهم وتبسطه لهم حتى يتفاعلوا به ويتأثروا بأمجاده ؟

أو بعبارة أخرى: ما هي المواصفات التي ينبغي توفرها في الشخصيات التي تقدم عبر صفحات وأعداد مثل هذه المجلة، التي تقدم إلى جماهير المسلمين في المجتمعات الإسلامية، والتي تنتشر هذا الانتشار الواسع الذي كانت تحظى به مجلة الهلال (التي كانت توزع عشرات الآلاف في نهاية القرن التاسع عشر في كافة أنحاء العالم، تلك المجلة العربية الوحيدة بين المحيط، والخليج التي توالى الصدور بلا انقطاع قرابة المائة عام) ؟ وتزعم أنها كانت تستهدف تقديم تاريخ العرب والمسلمين وإجلاء الغبار عنه، وتحبب قرائها في دراسة التاريخ الإسلامي، والوقوف على أسراره ومغازيه والاستفادة منه.

فلسفة دراسة الشخصيات:

بداية: فإن أهمية دراسة الشخصيات تنبع من قضية أو نقطة بدهية ومسلمة، في تاريخ الفكر البشري، وهي (**أن نظرية مهما تبلغ من الصحة ودقة الفكر، وأن تعليما مهما يكن رائعا، ويقع من الناس موقع الإعجاب، وأن هداية مهما تجمع من صنوف الخير، كل هذا لا يغني غناء** ولا يثمر ثمرة، ولا يبقى على الدهر، إلا إذا كان له من يمثله بعمله، ويدعو إليه بأخلاقه، وفضائله، ويعرفه إلى الناس بالقدوة والأسوة، فيقتدي الناس بدعاته من طريق العمل بعد العلم، معجبين بسجايا هؤلاء الدعاة معظمين لأخلاقهم، مكرمين طهارة قلوبهم وزكاء نفوسهم وحصافة عقولهم وسداد أفكارهم.

كما أن سيرة الرجل العظيم الكامل لا تفرض على الناس ليشغلوا بها أوقات فراغهم ويروحوا بها عن أنفسهم في حالة الملل والضجر، بل تعرض عليهم لتدعوا إلى الإقتداء بها، واتخاذها نبراسا لحياتهم، يسيرون على ضوئها في ظلمات الحياة لاقتحام العقبات) [1].

---

(١) السيد سليمان الندوي، الرسالة المحمدية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط١، سنة ١٩٨٨م، ص٤٢.

نوعية الشخصيات التي تقدم عبر منابر الثقافة الإسلامية:

إنني أتصور أن أي وسيلة ثقافية تهتم بتقديم الشخصيات تحرص عند تقديمها على انتهاج السبل الآتية:

١- تقدم الشخصية التي تمثل التطبيق العملي للإسلام بما أتى به من خير وحب وسلام للبشرية كلها.

٢- تقدم الشخصية التي عبرت عن منهج الإسلام في التعامل مع أهل الأديان الأخرى.

٣- تقدم الشخصية التي تمثلت منهج الإسلام في إقامة العدل والسلام والساعية في خير البشرية وأمنها واستقرارها على أوسع نطاق.

٤- تقدم الشخصية التي لا ترضى بالذل والهوان، ولا تهاب الطغاة، إنطلاقا من تعاليم الإسلام السامية (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر).

٥- تقدم الشخصية التي تبرزمنهج الإسلام في الوقوف على أحكام الدين، والرجوع إلى الحق (أصابت امرأة وأخطأ عمر).

٦- تقدم الشخصية التي تظهر منهج الإسلام في بناء الأمة الواحدة، ذات النسيج المحكم المتجانس والمتلاحم (فالمسلمون أمة واحدة يسعى بذمتهم أدناهم).

هذه فقط بعض الأفكار والخطوط العريضة، للمواصفات التي يفترض أن تلتزم بها أي وسيلة ثقافية – تصدر في مجتمع يدين بالإسلام – وتدعي لنفسها أنها تخدمه.

فهل قامت الهلال – باعتبارها – مجلة واسعة الانتشار تصدر في مجتمع إسلامي بهذا ؟ أو هل قام جرجي زيدان برد الشباب المسلم إلى نفسه وعطفه على تاريخه، وقدم له من سيرة عظماء الإسلام ما ينهض بهمته إلى العلياء ؟ ويخلصه من إرهاق الجزر النفسي، الذي أوقعه فيه أولئك النقلة المترجمون، الذين سقطوا في مناخ التبعية للمؤرخين الأوربيين، فيما بيضوا من تاريخهم وفيما " سودوا " أو شوهوا من تاريخ الإسلام والمسلمين ؟

ونسجل هنا في هذا المقام قول العلامة المفكر الإسلامي الكبير د. مصطفى

السباعي - عليه رحمة الله - [1]:

إن الفكرة هي التي توجد العظيم، ويخدمها العظيم، وبمقدار نجاحه في إبرازها تظهر فيه صورة البطولة والعظمة.

وعلى هذا: فإن أي دراسة جادة لأدوار العظماء والأبطال في التاريخ لابد أن تتوجه إلى القضايا التي دافعوا عنها، والأفكار التي نهضوا بها- ورفعوا منارها وثبتوا دعائمها، قبل البحث عن مكامن هذه الموهبة في العناصر والملامح والسلالات.

ولا زال البحث يتساءل ؟؟؟

أية شخصيات تلك التي قدمتها الهلال عبر اثنتين وعشرين عاما من عمرها ؟

وفي الإجابة على هذا السؤال (المحور) إن جازت تسميته بذلك نجد أن الشخصيات التي ركزت - مجلة الهلال وصاحبها جرجى زيدان - على إبرازها وتقديمها وكثفت الأضواء عليها، يمكن ان تندرج تحت التصنيف التالي:

١- شخصيات ماسونية.

٢- شخصيات دعت للقومية العربية.

٣- شخصيات مناهضة للخلافة العثمانية، ساعية في إسقاطها وإلغائها.

٤- شخصيات استعمارية

أمثال: اللورد كرومر - اللورد دفوين ....الخ

٥- شخصيات إسلامية تحيط بها علامات استفهام ؟؟؟

أمثال: السيد أحمد خان بالهند، السيد أبي الهدى الصيادي بالأستانة، عمر الخيام.

---

(٣) د/ مصطفى السباعي، عظماؤنا في التاريخ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤ سنة ١٩٨٥م، ص٢٦.

الفصل الأول

الشخصيات الماسونية في كتابات جرجي زيدان

يقتضي هذا المقـام، أن أقدم لهذا المحور - ببيان حقيقة الماسونية، وعلاقة (الهلال - جرجي زيدان - بهذا المذهب الفكري الهدام).

فما هي الماسونية ؟

وهنا يلاحظ المتتبع لظاهرة الماسـونية، أن مـا كتب عنهـا يعد من الغزارة بحيث يصعب حصره في حيز ضيق، حتى في العربيـة، ولكن هذه الغزارة تكـاد تنقسم إلى فئتين من الكتابة متعارضتين كل التعارض- فئة تمدح، وأخرى تقدح، ومبعث ذلك السرية التي تحيط بها نفسها.

فالمنتمي إليهـا يحرص على الدفـاع عنهـا، لتبرير إنتمائـه علـى الأقل، والخارجين عليها يحرصون على مهاجمتها لتبرير خروجهـم عليها، أما الذين لم ينتموا إليها، فلا يمكنهم أن يتوصلوا إلى الحقيقة، لأنهم لم يعرفوها من الداخل بحواسهم، ولا يملكون إلا الموازنة بين الدفاع والهجوم، للتوصل إلى نقطة ترضي رغبتهم في المعرفة.

يقول محرر مادة الماسونية في دائرة المعارف البريطانية ط ١٩٨١م:

إن الماسونية هي: التعاليم والممارسات الخاصـة بالطريقة الأخوية السرية للبنائين الأحرار والمقبولين (من غير البنـائين) وهي أكبر جمعية سـرية في العا لم، نشأت من النقابـات التي ألفهـا البنـاءون، عندما تولـوا بناء القـلاع، والكاتدرائيات في العصور الوسطى، فلما توقف البناء استقبلت أعضاء فخريين بها لتقوية تدهور الإقبال على عضويتها، ومن هذه المحافل نشأت الماسـونية الحديثة، النظرية أو الرمزية، ولكنها لم تلبث أن اتخذت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، شعائر وتقاليد الطرق الدينية القديمـة، وفي سـنة ١٧١٧م تأسـس المحفل الأكـبر، وهو رابطـة تجمع جميـع المحافل بإنكلترا، وقـد واجهت معارضـة شـديدة من الأديـان المعروفـة، لاسـيما الكنيسـة

الكاثوليكية الرومانية، لكن الماسونية ليست مؤسسة مسيحية كما فهمت خطأ في كثير من الأحوال، فهي تضم كثيرا من عناصر الأديان وتعاليمها، ويشترط في طالب عضويتها: أن يكون ذكرا، بالغا، مؤمنا بوجـــود كائن أسمى، وبفناء الروح[1].

وإذا انتقلنا إلى دائرة المعارف الأمريكية فإنها تقول عن الماسونية:

(إنها اسم ودي لجمعيات تطوعية من الرجال، تستخدم أدوات البنائين كرموز في تلفيق الحقائق الأخلاقية الأساسية، التي تؤكد أبوة الله ، وأخوة البشر، ولا يتقدم أحد للإنضمام إليها، لكنها هي التي تختار من يقع عليه الترشيح، من قبل أحد الأعضاء العاملين بها، هادفة إلى خلق رابطة أخوة عالمية بين البشر.

ومع أنها ليست جمعية دينية، فهي دينية من حيث أفكارها، تتضمن أسس كثير من الأديان فضلا عن أنها كثيرا ما تنهي اجتماعاتها بصلاة، وهي ليست جمعية سرية، كما يزعم البعض لأنها لا تخفي وجودها وأهدافها وعملها، وتتوحد محافلها عادة تحت إشراف محفل كبير في كل بلد، أو ولاية، أو وحدة سياسية، لكن لا توجد سلطة ماسونية مركزية على مستوى العالم كله، لكن يوجد في العالم كله نحو (٥ مليون ماسوني معظمهم في أمريكا) وقد انضم إلى هذه الجمعية (١٥ رئيسا أمريكيا بدءاً من جورج واشنطن حتى جيرالد فورد) .

أما عن دائرة المعارف اليهودية فإنها تسجل عن الماسونية ما يلي:

(تقول: إن الماسونيون أعضاء جمعية سرية، نشأت من روابط المهنيين ومنذ القرن السابع عشر ظهرت كمؤسسة اجتماعية (مبادئها وكلمات سرها، ورموزها وشعائرها، تعتقد أنها مستمدة من شعائر بناء أول معبد في القدس، بدأت بإنجلترا سنة ١٧١٧م كانت المحافل تعد نفسها مرتبطة بأخوة واحدة، وكانت تسمح بالتحاق أي شخص صادق شريف من أي ملة، عن طريق الاختيار وكان دستورها (يقضي بأن يلتزم العضو بذلك الدين، الذي يوافق عليه جميع البشر، محتفظين

---

(١) دائرة المعارف البريطانية، ج٤ ص٣٠٢ ط ١٩٨١م نقلا عن د/ علي شلش، اليهود والماسون في مصر، الزهراء للإعلام العربي، ط١، سنة ١٩٨٦م، ص١٩٥.

لأنفسهم بآرائهم الخاصة، انضم إليه اليهود في منتصف القرن الثامن عشر بانجلترا، وهولندا وفرنسا وألمانيا، ومع ذلك أصيب التسامح الماسوني بالضعف، نتيجة لهجوم القطاعات التقليدية من جميع الأديان على الماسونية وتشككها في نواياها النهائية.

فقد حرمتها الكنيسة الكاثوليكية – وما زالت – في إعلان أصدره البابا كلمنت السابع في ١٧٣٨م، وشكك فيه البرتستانت، واليهود والمحافظون، ورد الماسون باعتذار، حاولوا فيه البرهنة على أن الماسونية ليست مؤسسة معادية للمسيحية، وأنها لا تقبل إلا المسيحيين أما اليهود والمسلمون والوثنيون فليسوا أهلا لها، ولكن الحقيقة كانت أبعد ما تكون عن التصريح، **وتمضي دائرة المعارف اليهودية فتقول:**

(**إن القدس** تعد عند الماسونيين مسقط رأس الماسونية، منذ إقامة معبد الملك سليمان، ولكن المحافل لم تعرف هناك إلا في القرن الماضي، فقد تأسست خلال الحكم العثماني ستة محافل بفلسطين، كان أولها في القدس ١٨٧٣م ثم ازداد عدد المحافل مع الزمن حتى شكل المحفل الأكبر المتحد، وكانت الماسونية، تهدف إلى توحيد العالم، في إتحاد أخوي ديني، ثم اتخذت طابعا أرستقراطيا في أوربا، وازداد إلحاحها على الصوفية بدلا من العقلانية، ولكن دورها ونشاطها يختلفان من بلد إلى بلد، ومن عصر إلى عصر) [1].

والخلاصة:

يتضح من هذا العرض الموجز من دوائر المعارف عدد من الحقائق على الوجه التالي:

١– أن الماسونية نشأت في إنجلترا متأثرة بالشكل التنظيمي لنقابات البنائين، والتي كانت منتشرة في الشرق، ممثلة في أوعية تنظيمية مغلقة فقد كان لكل حرفة شيخ يتبعه (أسطوات) وصبيان ينتمون إليه عادة بحكم القرابة، حفاظا على سر المهنة من الضياع، وهكذا انتفعت الماسونية بما كان معروفا عند أصحابها، من

(١) دائرة المعارف اليهودية، ج١٥ ص٥٣٢، نقلا عن د. علي شلش، اليهود والماسون في مصر، ص٢٠٢.

التخفي والتعاون والمحافظة على سر المهنة، وعلى هذا فما يقال في كثير من الكتب عن قدم الفكرة وممارستها قبيل ظهورها بإنجلترا أمر لا يوجد عليه أي دليل تاريخي.

٢- الماسونية: أكبر جمعية سرية في العالم، (كما قال محرر الدائرة البريطانية) وإن أنكرت الدائرة الأمريكية السرية، وإذا صح ذلك؟ فلماذا لا تصبح مثل الأندية ذات العضوية الخاصة ؟ وإذا صح ذلك اليوم فلم لم يكن صحيحا بالأمس) وهي حتى الآن تحيط اجتماعاتها بسياج من التكتم، والسرية، وستظل هذه السرية، سواء كانت مزعومة، أو صحيحة مكمن الخطر دائما في الماسونية.

٣- إن الماسونية تصر على عنصر الدين (بمعنى أنها تدعو أعضاءها إلى أن يكونوا على دين من جهة، وأن يتفقوا على أن الكون يسيره مهندس أو بناء أعظم.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا:

إذا كانت الأديان المعروفة، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فما هو الجديد الذي تقدمه الماسونية ؟ وإذا كانت الماسونية قد انتشرت هذا الإنتشار وأغرت الملوك، والرؤساء، والقواد بالانتماء إليها، فهل استطاع هؤلاء أن يقدموا من خلالها خدمة واحدة للبشر ؟ لا شك أن عمل الخير كثير الأبواب، لكن الإنسان العادي حين يقرأ أو يسمع عن تلك الأسماء الرنانة داخل المحافل الماسونية، يتوقع من أصحابها شيئاً كثيرا، أكبر من بناء مستشفى، أو التبرع بمنحة دراسية لطالب أو زجاجة دم لجريح، وكما أن ملاحظة الدائرة الأمريكية أن الماسونية ليست جمعية دينية، لكنها دينية المبادىء لا تحل المشكلة.

وواقع الماسون ومضابطهم تصرح بكذب هذا الإدعاء. فقد سجلت مضابط المؤتمر الماسوني العالمي بباريس ١٩٠٠م ما يلي: **(إننا لا نكتفي بالانتصار على المتدينين، ومعابدهم. إنما غايتنا هي إبادتهم من الوجود.. إن النضال ضد الأديان لايبلغ نهايته إلا بعد فصل الدين عن الدولة – إن هدف الماسونية العالمية هو تكوين جمهورية عالمية لا دينية)** وعندما انتخب (لمي) رئيساً أعلى للماسونية علق صورة المسيح عليه السلام مقلوبة على قصر الماسونية وكتب تحتها هذه العبارة التالية: (قبل مغادرتكم هذا المكان ابصقوا على وجه هذا الإبليس الخائن)!!!

-كما سجلت إحدى نشرات الماسون، التي عمت أرجاء المعمورة في سرية، وكتمان، نشرة المستشرق الأعظم الفرنسي سنة ١٩٢٣- ٣٠٠ ما نصه: (على الإخوة الماسونيين أن ينفذوا في صفوف الجمعيات الدينية وغيرها، بل عليهم إن احتاج الأمر، أن يقوموا بتأسيس هذه الجمعيات، على أن لاتشم منها أي رائحة حقيقية للدين... عليكم أن تلموا شمل قطيعكم أينما كنتم، حتى في المعابد الصغيرة... وعليكم أن تولوا أمورهم للسذج من رجال الدين. ولتطعموا خفية ذوي القلوب الكبيرة من الرجال بقطرات من سمومكم) [1].

والماسونية كما يعرفها المستشرق الهولندي دوزي:

(جمهور كبير من مذاهب مختلفة، يعملون لغاية واحدة، هي إعادة الهيكل - إذ هو رمز دولة إسرائيل - لكن لا يعلم هذه الغاية الا القليلون، تضم السواد الأعظم من الملوك والحكام والقضاة والأثرياء والزعماء والمثقفين، وفريق من الذين يرتدون ثوب القديس بطرس، ويضربون بعصا نيرون، أو يصعدون المنابر !! - وإن سيف التضييق المصلت على رقاب جميع الناس أظهر أصناف ذلك الجمهور على النحو التالي:

١- مخدوع بالطلاء الخارجي، لكن لا يكاد ينحل الطلاء حتى يعود ذلك المخدوع، وإن حافظ القوم على استغلال إسمه.

٢- حريص على حطام يحقق ذاته، أو كرسي، أو لقب، أو وسام يشبع أنانيته.

٣- ذو غاية فردية، يستعذب الحبة ولو في شبكة الصياد، ويطمع بالغنيمة ولو أصبحت أمته غنيمة.

٤- تاجر كلام، أراد لجريدته، أو مجلته، الرواج بين رواد المحافل، فأخذ يتغنى بخطبائها.

٥- موظف انتهت أعوام خدمته، فأخذ يجد في المحافل ألقابا تشبع جوعته.

٦- شخص بلغ قمة الدرجات ، وظهرت له الحقيقة ، لكنه يخاف أن يقال

---

(١) أبو اسلام أحمد عبد الله، الماسونية سرطان الأمم ٢٠، ٣١. سلسلة دعوة الحق، اصدار رابطة العالم الإسلامي، عدد ٧٤، سنة ١٩٨٧م.

عنه (أما عرفت الخطر إلا بعد نصف القرن).

٧-أسير أقســام ترتعد فرائصه، وتنحل عزيمته، كلما ذكر الدم الذي وقع به صك العبودية، والحبل الذي اقتيد به لردهة الهيكل، ويتضاءل عزمه حين يرى نفسه قبل التكريس رجماً، دعياً زنيماً، دخيل النســب، وقد طهره المحفل، فأصبح حر النسب، إنه لا يزال يرى تنفيذ الأقسام التي كررها بين العمودين واجباً) [١].

وبعد بيان أصناف المتنسبين إلى هذه المنظمة المشبوهة، يتواصل الحديث حول موقف الماسونية أو خطرها على الأديان: يقول الأستاذ (كوفلين) في محفل ممفيس بلندن:

(إننا إذا سمحنا ليهودي أو مسلم، أو كاثوليكي، أو بروتستانتي، بالدخول في أحد هياكل الماسونية، فإنما ذلك **بشرط أن الداخل يتجرد من أضاليله السابقة ويجحد خرافاته**).

وتقول النشرة الألمانية بتاريخ ١٥ كانونَ الأول ١٨٦٦م:

(إنــه ليس فقط يجب على الفرمسون أن لا يكترثوا للأديان المختلفة، ولكن يقتضي عليهم أن يقيموا نفوسهم، فوق كل اعتقاد بالإله أيا كان).

بل أكثر من هذا (قرر محفل الشرق الفرنساوي السامي في نشرة ١٨٩٥م ما يلي:

(قدرت عشيرة الماسون بأنها تأبى اعتقاد أي حقيقة دينية كانت ..).

فالماسونية: لا تهتم بالأديان جملة، ولا تعيرها أدنى اهتمام، ابتداء من الإيمان بالله - كإله لهذا الكون - وإن قالوا بإله فإنهم يريدون الطبيعة، وقواها المادية، فليست الماسونية سوى نكران جوهر الدين مدعين (أن الإنسان من جنس الله ، وروح الإنسان من روح الله، فنحن البشر نؤلف الكل، الذي يقدم بـه الكائن العظيم وكل شيء يرجع إلى هذا، نحن الله)!

وهكذا تتفق الماسونية في الإلحاد والتجديف في حق الله سبحانه وتعالى، وإن كانت المحافل تتباين وتفترق في حقيقة الإعتقاد.

---

(١) د/ محمد علي الزغبي، الماسونية في العراء، مؤسسة الزغبي، بيروت ط٣ ص٢٤.

أ- فبعضهم يرى وحدة الوجود وأن الكون، والإله، شيء واحد.

ب- وتسمى بعض المحافل (الإله أدويزام "وهو أوزوريس" إله المصريين القدماء أو (ميترا) إله الفرس و "بافوس" إله الرومان).

وكما يثبت كتاب (كرستا مسدو) عن الماسونية وتعاليمها، أن:

(الماسونية هيكل عظيم، كهيكل رومية القديم، تحفل بجميع الآلهة فترحب بهم).

ويقول دي فزنيك أحد زعماء المحفل الأسكتلندي (إن إلهنا ليس له اسم مخصوص، فهو مهندس الكون الأعظم) ولكن يعود قائلا: (إن اسم مهندس الكون الأعظم، عندنا اسم بلا مسمى، إن الطبيعة هي الله)!

ج- وهناك بعض المحافل، تدين بالولاء للشيطان، وتتخذه إلهاً، قالت جريدة الملحد، لسان حال الماسونية في لبفورنه: (**إبليس هو رئيسنا) !!!**

ويقول الجنرال بابك الكاهن الأكبر لعقيدة الشيطان: (**والحقيقة الفلسفية الخالصة هي أن الله، والشيطان إلهان متساويان، لكن الشيطان هو إله النور والخير، وهو الذي ما زال يكافح منذ الأزل ضد إله الظلم والشر**)[1].

ويصل سعار - الحرب مداه، من الماسونية على الأديان - قاطبة - أن يرددوا أن **الأديان تخدر** وتقتل روح الفكر والبناء.

أما الماسونية فهي توقظ وتبعث الأمل وتحقق الوجود، وتجمع الذين فرقتهم الأديان وتنتزع منهم الأمل المعدوم الرصيد، وتدرك أن الأديان - إلا اليهودية - أفيون ورجعية، تناسب عصور الانحطاط.

بل إن تيودور هرتزل (نبي الماسون) ينادي في مؤتمره الذي عقده سنة ١٩٠٣م والذي ضم كبار الماسونيين الكونيين، يبارك الحملة على الأديان، التي ورثتها الماسونية وتواصت بها عبر العصور وجددها بما يلي:

١- إبادة البشرية والأجناس والأديان.

٢- الإكثار من الجمعيات التي تتفق مع الماسونية بالهدف، وإن اختلفت الأسماء.

٣- حصر الأديان بالمعابد، تمهيدا لإزالتها عن المعابد.

---

(١) د/ علي جريشة، الاتجاهات الفكرية المعاصرة، دار الوفاء ط١، سنة ١٩٨٦م، ص٢٦٠.

٤- يجب سحق عدونا الأزلي- الدين - مع إزالة رجاله.

٥- لا بأس أن يدخل الماسونيين بين المتدينين، ويؤسسوا الجمعيات الدينية، ليلعبوا بالسذج.

ماذا بقي بعد قول هرتزل (نعترف بجميع الأديان، ثم نضع عليها إشارات استفهام، فإذا تزعزع معتنقوها عدنا، وقلنا لا خالد إلا نواميس موسى، ولاختصار الطريق، ندخل أديان الناس، ونحفظ إسرائيل في قلوبنا **لإحالة الأديان، فرقا، ومذاهب، وطوائف**، إذ من فوائد تعددها انتطاحها، واقتتالها، لأن الناس خراف ترعى بأرضها، وما علينا كي نوقعها بحوزتنا ونأكل لحمها، وننتزع أرضها، إلا أن نؤجج بينها نيران العداوة لتسهل إبادتها بأيدينا) [١].

وبعد: فإذا ظهرت لنا كل هذه الأخطار التي تمثلها الماسونية لكل الأديان والمذاهب الفكرية، الموجودة على الأرض - عدا اليهودية - التي تسعى إلى إحيائها، وجمع الناس جميعا حولها - بكلّ الوسائل المشروعة وغير المشروعة - الممكنة وغير الممكنة (إثارة الفتن - تخريب الأديان - إيقاع العداوات بين الجماعات والدول - سفك الدماء - الاغتيالات) فياترى

ما علاقة جرجي زيدان صاحب الهلال بالماسونية ؟

لقد حرص جرجي زيدان على عدم إعلان ماسونيته طوال حياته -إعلانا صريحا - رغم تأليفه لأهم كتاب عن الماسونية في العربية- (تاريخ الماسونية العام) والذي يتعاطف فيه بدرجة قصوى مع الماسونية والماسون، إلا أنه لم يعلن انتسابه إليها.

غير أن الأب لويس شيخو - وهو معاصر لجرجي زيدان، ومن أشد الكتاب الذين ردوا على الماسونية في كتابه الشهير - السر المصون في شيعة الفرمسون يقول (... فلتسمعن الآن أقوال أخ ∴ يعده الماسون من مشاهير رجالهم وهو الأخ∴ **جرجي زيدان** وقد أفادنا في كتابه (تاريخ الماسونية العام) أن كتابه مبني على أساس الحق، وقد راجَعَ لمعرفة الصواب شيوخ الماسونية، كالأخ المحترم نقولا

---

(١) د/ محمد علي الزغبي، الماسونية في العراء، ص١٣.

حجي، رئيس محفل لبنان سابقا، والأخ المحترم وليم أسعد الخياط، رئيس محفل فلسطين، والأخ كلي الاحترام «سوليتوري أفندي أفنتوري زولا» رئيس أعظم محافل مصر سابقا)[1].

وقد طبع لويس شيخو كتابه في حياة جرجي زيدان ورفاقه ١٩١٠م، ولم يعترض على ذلك أحد قط من الماسون.

تعليق:

مما يدل على أن جرجي زيدان لم يكن ماسونيا مجرداً أو مجرد ماسوني - بل كان كما أثبت الأب لويس شيخو - من مشاهير رجال الماسون، لكن لعبة توزيع الأدوار التي تنتهجها أغلب المنظمات السرية، هي التي جعلته لا يصرح بماسونيته تصريحا عنيفاً وحاداً، حتى يكون صوتا مسموعا للماسونية تكسب به أنصاراً ومواقع.

إذ من غير المعقول بل ومن المستحيل على رجل كجرجي زيدان أو غيره - وفقا لقواعد الكتمان والسرية التي تغلف الماسونية - أن يتصل بكبار الماسون ورؤساء المحافل في مصر، وفلسطين، ولبنان، وغيرها، ويعرض عليهم ما كتبه عن الماسونية، لتوثيقه منهم، إلا إذا كان مصدر ثقة كبيرة بالنسبة لهم، وعضوا ضليعاً، ورجلاً كبيرا في جماعتهم، فمن أعلمه أن هذا رئيس محفل، وذاك أستاذ أعظم وذاك كذا وهذا كذا ... الخ.

٢- ثم يواصل الأب لويس شيخو إثباتاته فيقول:

(أما الأخ .·. جرجي زيدان في كتابه، لا يصرح بغاية الجماعات الماسونية، وإنما يكرر مرارا بعد لغطه في سرد تاريخها، أن الماسونية يحتاج إليها البشر، لنشر

---

(١) الأب لويس شيخو، السر المصون في شيعة الفرمسون، الكراس الأول ص ٦، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين بيروت للطبعة سنة ١٩١٠م.

لويس شيخو: منشئ مجلة المشرق في بيروت، أحد المؤلفين المكثرين كان اسمه قبل الرهبنة (رزق الله يوسف يعقوب شيخو) ولد في ماردين بالجزيرة الفراتية وانتقل إلى الشام يافعا، وتعلم بمدرسة الآباء اليسوعين في سنة ١٨٧٤م وتنقل ببلاد أوربا والشرق، فاطلع على ما في الخزائن من كتب العرب، وانصرف إلى تعلم الآداب العربية في كلية القديس يوسف، ثم انشأ مجلة المشرق سنة ١٨٩٨م فاستمر يكتب أكثر مقالاتها خمسا وعشرين سنة وكان همه خدمة طائفته وتوفي ببيروت، له مؤلفات عدة منها - شعراء النصرانية، الآداب العربية في القرن التاسع عشر. أ.هـ. خير الدين الزركلي الاعلام - جرجى زيدان٥ ص٢٦٦.

العلم، لأن العلم ينمو وينتشر بفضل الجماعات السرية) [1].

هكذا سجل شيخو - جرجي زيدان - مسبوقا بلقب الأخ، مع النقاط الثلاث المثلثة، [∴] وهي الرمز الذي يضعه الماسون قبل أسمائهم، وأيضا لم يعلق أحد من الماسون على هذا !

٣- ثم يضعه شيخو بين زمرة الكتاب الماسون بل في مقدمتهم يقول: (... الاخوة المكرمين - جرجي زيدان ... شاهين مكاريوس - أنيس الخوري - إيليا الحاج).

٤- كما أن الأستاذ/ حسين عمر حمادة في كتابه شهادات ماسونية: أورد جرجي زيدان باعتباره، أحد الماسون العظام، وذلك في ص٩٢ ط دار قتيبة الصادرة عام ١٩٨٣م.

٥- كما أورد ذلك د/ علي شلش - يرحمه الله - في كتاب (تاريخ الماسونية العام لجرجي زيدان) على رأس الكتب الَّتِيَ قدمها مشاهير الماسون في القاهرة عام ١٨٨٩م، وعلى حد تعبيره **بذل جرجي زيدان أقصى الجهد في جمع مادته وتحبيبها للقارئ**) [2].

وإن قراءة في هذا الكتاب لجديرة بأن تظهر بجلاء موقف زيدان المدافع عن الماسونية يقول (... إن هناك من أعداء الماسونية مشددي النكير، ومختلقي الأراجيف عليها، يقولون أقوالا ما أنزل الله بها من سلطان ...).

جرجي زيدان: الدين والماسونية غايتهما واحدة !!

ويقول في موضع آخر (... إننا نعتقد قياما - بواجب الإخلاص والحرية - **بصحة مبدأ هذه الجمعية الشريفة، أما اتهام بعض رجال الدين الماسونية بالكفر، وأنها تسعى لهدم أركان الدين، وتشتيت شمل الفضيلة !!! فنحن نجل هذه الجمعية عن هذه التهمة - وإن كان بعض أعضاءها كذلك، فمثلهم مثل وجود**

---

(١) جرجي زيدان، تاريخ الماسونية العام، دار الجيل، بيروت، بدون رقم للطبعة، سنة ١٩٨٢م، ص٢٩ - الأب لويس شيخو، السر المصون في شريعة الفرمسون، المطبعة بدون رقم للطبعة، ١٩٠٠م ص٦.

(٢) د/ علي شلش، اليهود الماسون في مصر، ص٣٦، ٤٤، ٤٧.

بعض رجال الدين كذلك، لكن في كل الحالات فإنه ليس بين (الدين، والماسونية) مناقضة أو مخالفة، لأن الفئتان ساعيتان معا، نحو غاية واحدة، وغنما كل ساع إليها من جهة وعلى سبيل مخالفة لما تسعى إليه الأخرى).

ويقول في موضع آخر: (كان العامة يقولون عن اجتماعات الماسون أقوالا ما أنزل الله بها من سلطان، كلها اختلاق ذوي الأغراض، يموهون بها على عقول السذج، تكريها لهم بتلك الجمعية، التي ربما كانت في مبادئها ما يكشف الغطاء، عن خداع أولئك، وكان العامة ينقادون إلى تلك الأراجيف انقياد الأعمى، ولكن الحال تغير حتى أصبح الخوارج (المتهمين للماسونية) يودون لو أنهم في عداد الماسون، ليحترو من ذلك الشرف الذي تحقق لهم !!!

تعليق:

وهكذا نلمس من هذه الأقوال انتصاراً مطلقا للماسونية، ودفاعا مستميتا عن مبادئها، واتهاما لمن يحاربها ! ويكشف زيفها - بأنه من الخوارج أو أنه يغرر بعقول العامة !

وهكذا **فإن جرجى زيدان .·. الأخ الذي بلغ الدرجة العظمى** في الماسونية، والتي عدته من أشهر رجالها، وصاحب اول كتاب في العربية عن تاريخها ونشأتها، والدفاع عنها - ومن منطلق التعاليم الماسونية التي تعتبر أساس الولاء ومعقده قبل كل شيء (للأخوة الماسونية) فقد قام جرجى زيدان عبر مجلة الهلال تطبيقا عمليا لهذه التعاليم، بهذا الحشد الهائل من الشخصيات، والتراجم الماسونية التي قدمها للأجيال القارئة، من جماهير العرب والمسلمين، على صفحات مجلته، التي اتخذ منها منبرا لخدمة الماسونية وتنفيذ مخططاتها.

تارة بتقديم الشخصيات الماسونية للناشئة والشباب، حتى يلتمسوا فيها مواطن القدوة، وتارة بترديد شبهات المستشرقين، وأكاذيبهم حول الإسلام العظيم، وتارة بقيامه بنفسه بتشويه التاريخ الإسلامي، ومحاولة ضرب الإسلام من داخله، وقطع هيبته، وتوهين قوته في نفوس المسلمين، تحت شعار أو ستار نشر التاريخ الإسلامي.

وبعد: فهذا هو موقف المجلة وصاحبها من الماسونية.

والآن إلى الشخصيات والتراجم الماسونية التي عرض لها جرجى زيدان في المجلة لكي نكشف عن هويتها وطبيعتها ودورها المشبوه في مسيرة الماسونية العالمية ؟

وينبغي تسجيل نقطة هامة هنا في بداية الوقوف مع الشخصيات - الماسونية - التي قدمها جرجى زيدان في مجلته الماسونية - وهي أن هذه الشخصيات إما أنها كانت مرتبطة بالماسونية ارتباطا عقديا أيديولوجياً مطلقا بها، وبغاياتها، وأهدافها، أو أنها شخصيات إسلامية هُيِّئَ لها في بادئ الأمر أن هذه الجمعيات الماسونية، جمعيات خيرية ترفع شعارات الحب، والعدل، والسلام، وأنه يمكن استغلالها كأحد المنابر المتاحة، والمشروعة في رفع أغشية الظلم، وأردية التعسف، والاضطهاد، التي كانت تكبل بها شعوبهم، نظرا للظروف القاسية في فترة نهاية القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، والتي كانت تعيشها المجتمعات العربية والإسلامية - من ناحية أنظمة الحكم ومساحة الحريات، التي كانت متاحة، ولكنها لما سارت في هذا الطريق، وانكشف لها حقيقة الماسونية وأوضاعها - أسرعت بالإنسلاخ منها، والتبرؤ من الانتساب إليها، غير أن الماسونية وهي تتحرك داخل مجتمعات إسلامية، تحيا بمشاعر فياضة بالحب تجاه دينها، وإجلال علمائه ورموزه - حرصت على أن تبرز دائما إلى الجماهير صلاحيتها لتحقيق أهدافهم، وتطلعاتهم، وآمالهم، وأنها لا تعارض دينها بدليل انتساب بعض أعلام العلماء المسلمين إلى محافلها.

بعد بيان هذه النقطة وتوضيحها أنتقل إلى التعرف على الشخصيات التي وردت خلال فترة البحث دارسا لبعض النماذج ولماذا وقع الاختيار عليها - أي من قبل المجلة - عليها دون غيرها.

أرنست رينان

قدمت له الهلال ترجمة في سنتها الأولى [1] ثم أتبعتها بأخرى أكثر توسعا

---

(1) مجلة الهلال العدد الصادر في ١/ ١٢/ ١٨٩٢م.

وتفصيلا في سنتها السابعة [1] نظرا لسمو مقامه، بين رجال الفضل والفلسفة، على حد تعبيرها! فهو الفيلسوف اللغوي والمؤرخ الفرنساوي الشهير - تحدثت عن مولده، نشأته، طبيعته، تحصيله العلمي واللغوي، موقفه من العقائد المسيحية، رغم ولادته من أبويه الكاثوليكين، شديدي التمسك بالدين، أسفاره العلمية إلى بريطانيا ١٨٤٩م - إنتخابه عضوا بالأكاديمية الأدبية ببلاده، وإرساله إلى لبنان من قبل حكومته، باعتباره أشهر علماء الشرقيات، وتعيينه أستاذا للغات العبرانية ١٨٦٠م،... الخ.

هذا فقط هو ما سجلته الهلال عن هذا الرجل...

غير أنها أخفت جانبا أكبر من الحقيقة - عن قرائها - في حياة هذه الشخصية، إذ عند البحث في مصادر أخرى يتبين ما يلي:

١- نقرأ في كتاب (السر المصون في شيعة الفرمسون: للأب لويس شيخو

---

(١) السابق في ١/ ٨/ ١٨٩٩م.

وفضلا عن ماسونية أرنست رينان فإنه من كبار المستشرقين المتعصبين، فقد جاء في موسوعة مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية التي أصدرتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، على لسان أ.د/ محمد السويس أستاذ تاريخ العلوم: قوله (.. لقد رمى فيلسوف العلمانية - أرنست رينان - الدين الإسلامي بالتحجر، والتعصب، والرجعية، لأن فيه سذاجة الفكر السامي، المفزعة المقلصة للمخ البشري، التي تغلق منافذه في وجه كل لطيفة، وكل إحساس رقيق، وكل تأمل منطقي، جاعلة إياه وجه لوجه مع حلقة مفرغة مستمدة، الله هو الله) فمنذ القدم كان الفكر السامي، بطبيعته مضادا للفلسفة رافضا للعلم، ج١، ص٣٠٩.

كما أن رينان: هو أول من قرر أن الجنس السامي دون الجنس الآري، كما صرح بذلك في كتابه (تاريخ اللغات السامية)، د/ زقزوق، الإسلام في تصورات الغرب، مكتبة وهبة ط١ سنة ١٩٨٧م، ص٨٢.

وتتواصل ادعاءات رينان الكاذبة وحقده الأعمى إذ يقول:

(... كثيرا ما يردد القول عن ال (العلم العربي) والفلسفة العربية، وفعلا أن العرب كانوا أساتذتنا فيها طوال قرن أو قرنين من العصر الوسيط، ولكننا ما لجأنا لذلك إلا ريثما نحصل على الأصل اليوناني - ثم واصل بذاءاته يقول (فهذا العلم العربي وهذه الفلسفة العربية لم يكونا إلا نقلا حقيرا للعلم، والفلسفة اليونانيين - ومتى تركزت اليونانية الحقة - أصبحت النقول الهشة عديمة الجدوى. ولأمر ما شن عليها علماء اللغة في عصر النهضة، حربا صليبية شعواء، هذا إلى جانب أننا إذا تمعنا النظر في كل هذه الآثار نجد أن العلم العربي لا شيء عربي فيه - ثم يزداد تطاوله واستهزاءه فيقول: وإن صفحة واحدة من روجر بيكن - لتحوي من التفكير العلمي الحق، أضعاف ما في هذا العلم ! غير الأصيل بأكمله ! فهو دون شك حلقة محترمة من حلقات التراث إلا أنه لا يشتمل على شيء وافر من الطرافة ..)

رينان - الإسلام والعلم - محاضرة ألقيت بالسربون فى ٢٩/ ٣/ ١٩٨٨م ط باريس، ص١٤.

نقلا عن مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، المنظمة العربي للتربية ةالثقافة والعلوم، ص٢٤، وكذلك أحمد أمين، زعماء الإصلاح، ص٩٢ نقلا عن د/ عبد العزيز الشناوي الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الأنجلو المصرية، بدون رقم للطبعة سنة ١٩٨٣م ص١١٨٥، ١١٨٦.

فنجد أنه كان يلقب أرنست رينان - (بالكافر العظيم) وهو من أبرز ماسون فرنسا، وأشهرهم في القرن الماضي وهو القائل:

(... ليس في الشرق بل ليس في العالم عبادة موافقة للعقل السليم ولمبادئ العالم، كعبادة الشمس، فهي إله كرتنا الأرضية)

ومن المعروف أن الماسون يعبدون الشمس ويقدسون آلهتها في الحضارات القديمة (... أوزوريس: عند الفراعنة، ميترا: عند الفرس، باخوس: عند الرومان)

وكان رينان يكتب في كل المجلات الماسونية المتخصصة في ذلك الوقت وبرغم، أنه كان مشتهرا بمقاومة النصرانية، وأنكر لاهوت المسيح - **وأثبت جرجي ذلك،** لكنه لم يعلق عليه أدنى تعليق باعتباره مسيحيا يدافع عن دينه، ومعتقده، يتعرض لهزة عنيفة في جذوره، لكن أغلب الظن أن الأخوة الماسونية التي تجمع بين جرجي زيدان وأرنست، هي التي ألجمت فمه، وأمسكت قلمه، عن أن يسطر انتقادا له - حتى وهو يمس أقلس **أفكاره** ويزلزلها (أقصد الأفكار النصرانية التي تمثل عقيدة جرجي زيدان)، **فهذه هي الماسونية !**

الأمير عبد القادر الجزائري

قدم جرجي زيدان في مجلة الهلال عدد ١/ يناير ١٨٩٣م ترجمة كاملة صدر بها هذا العدد تحدث فيها عن مولد الرجل - وعائلته - وتعلمه -وجهاده تجاه المستعمرين لبلاده.

ولكن مع إجلالنا الكامل للأمير عبد القادر الجزائري، وجهاده ضد مستعمري بلاده،

هل عرضت له الهلال حبا له وترسيخا لمبادئه ودعوة إلى سلوك طريقه، والتأسي به في وجوب مقاومة المحتلين، والمغتصبين للبلاد الإسلامية ؟ أم لهدف آخر ؟ لاسيما وأنها لم تسجل اعتراضا واحدا على الاحتلال البريطاني لبلادنا الحبيبة - ولم تبين خطره، ووجوب مقاومته وآثاره المدمرة على حاضر البلاد،

ومستقبلها، فما الذي يدفعها إلى تقدير شخصية اشتهرت بمقاومة الاحتلال في بلادها ؟

وهنا نجد أنفسنا بإزاء بعض الحقائق التي تسلط لنا الأضواء على هذا السؤال وهو لماذا اختارت الهلال الحديث عن هذا الرجل وتقديمه كمصدر للتأسي وعنوان للإقتداء - من خلال الترجمة له والحديث عنه.

عبد القادر الجزائري في كتب الماسونية:

إذا فتشنا الكتب التي أرخت للماسونية فسوف نجدها تقدم أدلة متلاحقة على انضمام الأمير عبد القادر الجزائري إلى المحافل الماسونية من ذلك ما جاء في الكتب التالية:

١- كتاب الفضائل الماسونية لشاهين مكاريوس جاء فيه ما نصه:

(إنه في سبتمبر ١٨٨١م انتقل - شاهين مكاريوس - إلى حاصبيا (بولاية سوريا) لنجدة أحد الأخوان الماسون فيها، استغاث من قائم مقام المدينة، فلما وصلت دمشق مساء، فوجئت بجمهور غفير مقبل من دمشق، ليستقبلني فتفرست فيهم فإذا هم إخواني من الماسون فسلمت عليهم وعانقتهم، وشكرتهم على معروفهم لمقابلتي تلك المقابلة الأخوية وفيهم الأمير/ عبد القادر الجزائري، وسعادة نجليه الأخوين محمد باشا، ومحي الدين باشا وغيرهم ..) [1].

وفي موضع آخر:

يقول (.. وعندما زرت الأمير عبد القادر الجزائري الحسيني، بمنزله في دمشق، قال لي الحمد لله، فإن ولدي محمدا ومحي الدين أخوان أيضا ..).

ثم يعقب بقوله (.. إن الجمعية التي يسعى الوالد - **أي الأمير عبد القادر**- لضم ابنه وفلذة كبده إليها ، ليست إلا جمعية طاهرة أنشأت على دعائم الفضيلة)[2].

---

(١) شاهين مكاريوس، فضائل الماسونية، مطبعة المقتطف، بدون رقم للطبعة سنة ١٨٩٩ ص٣٥.

(٢) نفس المرجع، ص١٥٢، ١٥٣، وشاهين مكاريوس ولد في قرية ابل السقا من قرى مرج عيون بلبنان في ٢٠/ ٣/ ١٨٥٣م، ارتبط تاريخه بالحركة الماسونية، التي كان واحدا من أقطابها البارزين في ١٨٧٤م، دخل=

ويقول في موضع آخر عند ترجمته لحياة الأمير عبد القادر:

(.. وقد سمع كثيرا عن الجمعية الماسونية، وما لها من صحيح المبادئ وفعل الخير، فتاقت نفسه إلى الانضمام إليها، واغتنم فرصة مروره بالإسكندرية، أثناء عودته من الحجاز في ١٨٦٤م، فانتظم في سلكها بمحفل الأهرام، التابع للشرف السامي الفرنساوي، ووافقت مشاربه من كل الوجوه، فأحبها، وأهلها، ومال إليها، وإليهم كثيرا، وطالما جاهر بأنه من أعضاءها) (١).

٢- كما سجل جرجي زيدان نفسه، في تاريخ الماسونية العام ما يلي:

(.. ودخلت الماسونية الرمزية إلى دمشق بمساعي طيب الذكر، المغفور له الأمير عبد القادر الجزائري ..) (٢).

٣- كما أكد بعض الثقات من أسرة الأمير، عندما سأله الأب لويس شيخو **هل كان الأمير عبد القادر ماسونيا ؟** كما أخبر بذلك الماسون وكما جاء في الجريدة الماسونية المحررة بقلم صاحبها نقولا سابا:

فأجاب: (**إن الأمير لم يدخل الماسونية إلا ليطلع على أسرارها فقط، لكن لما انجلت له الحقيقة، تخلف عن الحضور إلى محافلهم، ولم يأت بشيء يدل على ماسونيته فعلا**) (٣).

تعليق:

ولعل الصواب ما ذكره شيخو، وتسنده حجة قوية عند التأمل: إذ كيف يحارب الأميرعبد القادر الجزائري في بلاده ضد الاحتلال الفرنسي ويصب عليه نيرانه ويجمع القلوب عليه، وعندما يجيء إلى مصر ينضم إلى مجمع الأهرام الفرنسي ! هذا

=محفل لبنان الماسوني التابع لشرف فرنسا الماسوني، في باريس ثم دخل محفل فلسطين الاسكتلندي وفي ٢٧/ ٣/ ١٨٩١م نال رخصة بإنشاء مجلة اللطائف بمصر، وعقد أول جلسة له في ١٦/ ٤/ ١٨٩١م وترأس المحفل في هذا العام، وذكرت المقطم أن المجتمع الأعلى الماسوني في شيكاغو بأمريكا قد انتخب شاهين، عضوا شرفيا فيه، توفي شاهين مكاريوس في ١٤/ ٦/ ١٩١٠م نقلا عن تيسير محمد أبو عرجة جريدة المقطم ودورها في الدعاية للاحتلال الإنجليزي من سنة ١٨٨٩م إلى سنة ١٩١٩م رسالة ماجستير بكلية الإعلام جامعة القاهرة.

(١) الأب لويس شيخو، السر المصون في شيعة الفرمسون، ك٥، ص١٦، وشاهين مكاريوس فضائل الماسونية ص١٧٨.

(٢) جرجي زيدان، تاريخ الماسونية العام، ص١٤٣.

(٣) الجريدة الماسونية لصاحبها نقولا سابا كانت تصدر سنة ١٩٠١ نقلا عن شيخو ، السر المصون، ك٥، ص١٦.

أقرب إلى البطلان، إذ كيف يلتحق الأمير بمحفل ينتمي لفرنسا التي تحتل بلاده !

وهكذا نخلص إلى نقطتين هامتين في هذا الموضوع:

١- جرجي زيدان لا يقدم ترجمة الأمير عبد القادر لما له من فضل وجهد في مواجهة الاستعمار الغاشم لبلاده، لكن باعتباره ماسونيا (ليس عربيا ولا مسلما).

٢- سوق الأدلة الكاذبة على إلتحاقه بالماسونية، وبالمحفل الفرنسي في مصر ونشر الماسونية في دمشق، مما يتعارض مع ما ذكره الأب لويس شيخو، حين قال:

(.. ومما أثبته بعض العارفين بأسرار الماسونية، ممن أمكنهم كسر طوقها من عنقهم، أن لزعماء الماسونية طرقا شتى من المكر يخدعون بها من دونهم، فإنهم إذا رأوا رجلا مستعدا لقبول أسرار الماسونية، متهيئاً لخدمة مصالحها، يكشفون له أغمض الأسرار دون أن يمر بالدرجات السفلى والعليا، فيصبح رئيساً، ولا أحد يعرفه من الماسون غير الذين اختاروه.

كما صنعوا مع بعض وجوه بلادنا، فإن الماسون في دمشق بعد سنة ١٨٦٠م أرسلوا إلى الأمير عبد القادر شهادة بديعة الألوان أعلنوا فيها أنهم اختاروه كأحد مقدميهم، من ذلك الوقت كانوا يفتخرون باسمه) (١).

تعليق:

وهنا يتأكد ما ذكرناه في البداية: من أن الماسونية كانت تسعى وراء الرموز الإسلامية، من المصلحين والعلماء، لكي تقدم نفسها من خلالهم إلى الجماهير، ويؤكد هذا المعنى ما جاء في كتاب شهادات ماسونية:

ينقل عن عارف بك، الكاتب الأول لمختار باشا الغازي، المفوض السامي للدولة العثمانية، لدى الديار المصرية، المتوفى سنة ١٣١٥هـ وضمن ترجمة ما كتبه على حديث (العلماء أمناء الله في خلقه ..) قوله (أراني مضطرا لأن أتكلم عن علماء مصر فأقول: لا أدري هل علماء مصر موجودون أم لا ؟ فقد أخذ كثير منهم يدخلون هذه الجمعية الماسونية بإغراء علوم الرسوم، وإغرائهم، لأن الماسونيين عرفوا حقيقة حالنا وطبيعة مزاجنا، فأخذوا يدخلون في دائرة أخوتهم شيوخا

---

(١) شيخو، السر المصون، ك٥، ص٤٢.

وعلماء، من ذوي الشـهرة، يستفيدون بواسطتهم استفادات مهمـة، مع أن هذه الجمعية التي أصلها أوربـا، وفرعها في مصر، لا نفع فيها، ولا فـائدة من ورائها غير تفريق شملنا والعمل على إضمحلال قوتنا) [1].

خلاصة لما سبق:

١- فقد قدم جرجى في الهلال - ترجمـة للأمير الجزائري ومقاومتـه للإستعمار بسبب زمالته له في الماسونية، أو انطلاقـا من الأخوة الماسونية التي كانت تجمعهما، على حد أقوال من يثبتون انضمام الأمير إليها.

٢- نـبرئ سـاحة قياداتنـا الإسـلامية في المـاضي - من علمـاء ومفكرين، ومجـاهدين، من مسـبة الإنضمـام إلى هذه المنظمـات المشـبوهة، لقناعـة شـخصية بمبادئها، أو انقيادهم انقيادا مطلقا لزبانيتها، لكنهم ربما كانوا يحاولون عرض هموم أمتهم عن طريقهـا، في الوقت الذي كانوا يظنونهـا جمعيـة خيرية كمـا كانت تقدم نفسها للأمة.

نابليون بونابرت

أوردت الهلال ترجمة وافية لـه باعتباره من أعظم الرجال وأشهرهم، مصدِّرةً بها أحـد أعداد سنتها الثانيـة [2]: (فهو عمدة القواد، ومثـال الفاتحين الذي يغني ذكره عن فعله).

ولكن لماذا نابليون وهل هو حقا مثال الفاتحين ؟ وفي ماذا ؟!

وإذا ذهبنـا نبحث عن السـر: نجد أن نـابليون هو مؤسـس أول محفل -ماسـوني بمصر - وواضع البذرة المسمومة لها في بلادنا العزيزة - في أغسطس ١٧٩٨م، وقد ضم نائبـه كليبر وكبار قـواد الحملة الفرنسـية على مصر من الماسـون، وبعض عمد البلاد المصرية وأعيانها! وسمى محفله (إيزيس) على الطريقة المصرية.

---

(١) حسين عمر حمادة، شهادات ماسونية، دار قتيبة، بدون رقم للطبعة وبدون تاريخ، ص٨٦.
(٢) مجلة الهلال، العدد الصادر في ١/ ٨/ ١٨٩٣م.

نابليون والتبشير بالدولة الصهيونية:

وتفصيل ذلك: أنه عندما دُمِّرَ الأسطول الفرنسي كله من الشواطئ المصرية، سار بونابرت بجيشه عبر صحراء سيناء إلى فلسطين، مضمراً في نفسه أن ينشئ دولة يهودية بها، استجابة لطلب المحافل الصليبية الباريسية اليهودية وفي ٤ أبريل ١٧٩٩م: خطب نابليون في صهيوني يافا، وحيفا، والقدس الذين انتظروه مع غيرهم من اليهود القادمين من رومانيا فقال:

(.. أيا ورثة فلسطين الشرعين، الأمة العظيمة تناديكم لتستردوا ما أخذ منكم بالغزو، أسرعوا لقد حانت اللحظة، لحظة المطالبة بحقوقكم وكيانكم السياسي كأمة للأبد ..)

فكان ذلك الوحش الآدمي الذي احتمى بمحافل الماسون منضما إلى صفوفهم منحه مجلس الشيوخ الماسوني (١٨٠٤م) منصب الإمبراطور الوراثي.

ولقب نابليون الأول، ونقشت أمجاده الإجرامية على قوس النصر، الذي شيده الملك الماسوني (فيليت ايجالينيه) بميدان لتوال (النجمة السداسية) [1].

كما سجل جرجي زيدان في كتابه تاريخ الماسونية العام:

(أن نابليون لما أفتتح مصر، كان في معيته نخبة من رجال فرنسا، منهم الجنرال كلابر المشهور، فاتفق نابليون وعدد من الضباط، على تأسيس محفل يجتمعون إليه - فأسموه في أغسطس من تلك السنة - (محفل إيزيس) !

لكنها لم تسجله في عددها، لأنه لا يخدم غرضها الذي تهدف إليه، من تقديمها على صفحاتها لـ (باب أعظم الرجال)، فقط، سجلت مولده، ونشأته، وتعليمه، ونبوغه، وتطلعه إلى الهمم العالية، من صغره ! **متجاهلة إهانته للأزهر الشريف - قلعة الإسلام الحصينة - في أكتوبر ١٧٩٨م** - حيث دخلت خيول الفرنسيين الأزهر، وأعمل جندهم السيف في طلبته وشيوخه، ونهبوا الكتب، ومزقوا المخطوطات (الذات الثقافية للأمة) تلك المخطوطات التي تجاوز عمرها عدة

(١) أبو إسلام أحمد عبد الله، الماسونية في المنطقة ٢٤٥، ص٢.

قرون، ألقتها أرضا، ووطئتها بسنابك الخيل، **هذا ما لم يجرؤ جرجي زيدان – المؤرخ الموضوعي المنصف !!! كما يحلو لبعض من يسمون بكبار المثقفين في بلادنا أن يسموه – أن يسجله لأنه لا يبرز إلا المحاسن**، والمواقف البطولية لإخوانه الماسون،وهذا عمل في منتهى البربرية والتخلف، وإلا فكيف يطاوعه قلمه أن يكتب عن نابليون – أنه اتخذ والفرنسيون بقيادته وتوجيهه، من ساحة المسجد الأطهر اسطبلا للخيل وظلت فيه – حتى جأر الشيخ الجوهري – الذي لم يقابل في حياته حاكما – ظالما أو عادلا – لكنه – دفاعا عن الأزهر – خرج عن المنهج، وتوجه إلى نابليون، طالبا خروج الخيل من الأزهر، وأدرك نابليون خطورة الأمر من احتلاله المهين للأزهر، وعمق تأثيره على المصريين، فبادر بالجلاء عنه ليلقي القبض على عدد من مشايخه ويقطع رؤوسهم ويسجن الباقين بالقلعة (١).

كل هذا ولم يمكِّنْ جرجي زيدان قلمه من أن يكتبه – وليس ذلك عن جهل منه بالتاريخ – لأنه بكل تأكيد يعرفه وأضعافهَ – لكنه لم يسجله لأنه ينقض ويهدم ويكشف حقيقة هذا الماسوني اللعين الذي أهان الإسلام والمسلمين، الذي **يقدمه** لقرائنا – في القرن التاسع عشر – الخواجه جرجي زيدان، على أنه واحد من أعظم الرجال !

فيكتور هيجو

قدمته الهلال في صدر أحد أعدادها (٢) على أنه: **الشاعر الفرنسي الشهير**، الكاتب الجهبز النحرير، المولود ١٨٠٢م الذي كان ميالا بفطرته إلى الشعر حتى أنه نال الجائزة الأولى ١٨١٧م على قصيدة اقترحها المجمع العلمي الفرنساوي على الشعراء في فوائد الدرس.

فحازت قصب السبق، ونشر ديوانه (القصائد والأناشيد) الذي قربه بسببه

---

(١) محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، دار المعارف، بدون رقم للطبعة سنة ١٩٧٨م، ص٧.
(٢) مجلة الهلال، العدد الصادر في ١/ ٦/ ١٨٩٣م شخصية العدد.

الملك لويس الثامن عشر، ورقاه ليستفيد من براعته وشاعريته.

لكن مع التسليم ببراعته وتفوقه ونبوغه في مجالات اختصاصه، لكن السؤال يظل قائما ما هو سر اهتمام جرجى زيدان بهذه الشخصية ؟ - وعند الإجابة فإنه لا يمكننا أن ننسى الخط الفكري لفيكتور هيجو، الذي جعله يحتل تلك المكانة المتميزة على صفحات الهلال،

فضلا عن المكانة المتميزة التي تحتلها فرنسا في قلب وعقل **جرجى زيدان،** والموارنة، بصفة عامة، منذ صرح - لويس التاسع لهم - عندما تقدم إليه عندما نزل إلى البر في عكا، وفد مؤلف، من خمسة عشر ألف ماروني معهم المؤن والهدايا - فسلم لهم رسالة مؤرخة في ٢١/ ٥/ ١٢٥٠م فيها تصريح بأن فرنسا تتعهد بحمايتهم مما جاء فيها (.. ونحن مقتنعون بأن هذه الأمة التي تعرف باسم القديس مارون هي جزء من الأمة الفرنسية ..)

حتى أرسل نابليون بونابرت فرقة فرنسية تقف إلى جوارهم لتهدئة الجبل عام ١٨٦٠م وكذلك بعد الحرب العالمية الأولى عندما صار لبنان تحت الإنتداب الفرنسي (١).

أقول فضلا عن هذه المكانة المتميزة لفرنسا، إمبراطورها، وأدبائها، وشعبها، في نفوس الموارنة بصفة عامة، فإن فيكتور هيجو:

كان يعد من أشهر شعراء فرنسا الماسون - وقد أنشأ ماسون مصر محفلا يهوديا باسمه في القاهرة برقم ٧٢ وكان يعمل باللغة الفرنسية، وكان يرأسه " هارون كوستي " ثم " جاك ليفي " في أواخر الثلاثينات.

جورج واشنطن

قدمته الهلال (٢) على أنه أحد نوابغ القرن الثامن عشر، وأعظم رجال الحرية

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة للندوة العالمية للشباب الإسلامي ص٤٤٠.
(٢) عدد الهلال الصادر في ١/١/١٨٩٣م.

ومقدامهم، تحدثت عن مولده في (٢٢/ ٢/ ١٧٣٢م) بولاية فرجينيا.

ثـم سردت صفاتـه ونبوغه بين أقرانـه، وميله للأعمـال الشاقة، والأطوار التي مر بها في حياته حتى أصبح رئيسا للجمهورية بعد انتخابه.

لكـن مـا لم تذكره الهـلال ومـا لم تكن أمينـة في نقلـه للقـارئ هو: أن جورج واشنطن أول رؤسـاء الولايـات المتحدة، الماسـون، وفي انضمامـه للماسـونية سجل شاهين مكاريوس [1] ما يلي:

١- أنـه انضـم أولا إلى محفل فردريســبرج هزه (٤) التـابع لولايـة فرجينيـا، واقتبل الدرجة الأولى في أكتوبر ١٧٥٢م وعمره آنذاك ٢١ سنة ودفع رسم التكريس.

٢- وفي ٣/٣/١٧٥٨م ترقى إلى الدرجة الثانية.

٣- وفي شهر أغسطس نفس العام أحرز درجة الأستاذ.

٤- ثم أنشأ محفلا دعاه محفل اسكندرية نمرة (٢٣) وانتخب رئيسا له، وبعد وفاته أجمع الأعضاء علـى تسـميته محفل واشـنطن الاسـكندري، رغبـة في أن يبقى رئيسـهم المجيد في الأفواه، وأن تكون آثـاره الماسـونية غرضـا تصوب إليـه الأفكار، للإقتداء به.

٥- ثم أحرز درجـة العقد الملوكي، في أحد المحافل المتحدة مع المحافل الإنجليزية، وأصبحـت الماسـونية شغله الشـاغل معتقـدا أن قوانينها، وشـرائعها، وتعاليمها، هي التي يجب على الإنسـان العاقل أن يجعلهـا نصب عينيه، ليسـير بموجبها في كل زمان ومكان، وفي أثناء الحرب التي حدثت في أيامه، وأشعل جذوة نارها، جاهر بأنه بناء حر، لما أجراه من الأفعال الحسنى.

احتفل بـه الماســون عمومـا بعد نهايـة الحرب، ولـما انتخـب رئيســا للولايات المتحدة، احتفل بتأدية اليمين، للقيـام بما يفرضـه عليه منصبـه كرئيـس للجمهورية إحتفـالا عظيمـا، وذلك في محفل القديـس يوحنا رقـم (١) بمدينـة نيويورك، ويقول شاهين مكاريوس:

والحق أن هذا الاحتفـال كـان أعظم مـا يتصوره العقـل، فـالذي انتخب رئيسـا

(١) شاهين مكاريوس، فضائل الماسونية، ص١٠٣، ٣٧.

للولايات المتحدة الأمريكية، قد عين رئيسا أعظم لمحافل أمريكا الماسونية. وفي عام ١٧٩٦م وضع حجر الزاوية لبناء عاصمة الولايات المتحدة ودعيت باسمه، وقد بنى محفلا في الساحة التي جرى فيها القتال في البرية.

كما نشر محفل ماسوستش الأعظم في شهر يناير ١٨٠٠م، منشورا على جميع المحافل التابعة لـه، لحضور احتفـال بجنازة الأخ المحترم جورج واشنطن رئيس الولايات المتحدة الأول، يوم السبت ٢٢/ ٢/ ١٨٨٠م تبتدئ الجنازة في العاشرة صباحا، فاستدعى حضور كل الإخوان الماسون المقبولين الأحرار في الوقت المعين، للاشتراك معنا، ويلزم أن يلبس الإخوان مآزر بيضاء وكفوفا بيضاء، وعلى الماسونيين العظام أن يلبسوا نياشينهم الماسونية المعتبرة بشرائط سوداء،

(إمضاء الكلي الاحترام. رئيس محفل ماسوستش الأعظم - ١٥/ ١/ ٥٨٠ للنور الحقيقي).

فحضر جميع الإخوان الماسون من جميع أطراف الولايات المجاورة.

رعمسيس الثاني

وتواصل الهلال تقديمها لرجال الماسونية ورموزها.

ففي سنتها الثانية (١) وفي صدر أحد أعدادها تقدم لنا - رعمسيس الثاني.

أكبر ملوك الفراعنة القدماء وثالث ملوك العائلة التاسعة عشرة، ولد بأوائل القرن (١٥ ق.م) يقال له رعمسيس الأكبر، بلغت مدة حكمه ستا وستين سنة، كلها حروب وغارات، استقل بالحكم بعد وفاة والده، وقبض على أزمة الأمور، فدانت له الأمم الخاضعة للدولة المصرية، ولكن لماذا ترجم الهلال لهذا الملك ؟

فضلا عن إحياء التاريخ الفرعوني - الوثني - وزرع الإقليمية الضيقة (٢) فإن

(١) مجلة الهلال العدد الصادر في ١/ ٨/ ١٨٩٣م.

(٢) ويلاحظ بصفة عامة تركيز مجلة الهلال على الحضارة الفرعونية، وأبرز الآثار الضخمة التي خلفتها تلك الحضارة فنرى زيدان يقول (.. طالما تحدثنا بعظمة تلك الأمة - الفرعونية، وأعجبنا بآثارها، لما كانت فيه=

بعض المراجع الماسونية التي تؤكد قدم هذه الجمعية تعبر عن تسجيل رعمسيس هذا في قائمة الماسون، لاسيما مع إعتبار الفرعونية أحد الروافد الماسونية – فيما يتعلق بالرموز، وقد أنشأوا محفلا في القاهرة في منتصف الثلاثينات – يحمل اسمه – وكان من أبرز المحافل الماسونية في ذلك الوقت، وضم العديد من أقطاب الماسونية في مصر، وكان يحمل رقم ٢١، ضم مختلف العقائد (الإسلام– اليهودية – النصرانية).

أديب بك إسحاق

صدرت الهلال أحد أعداد سنتها الثالثة [١] بترجمة للمنشئ البليغ والخطيب المصقع، الذي ظهرت على محياه ملامح الذكاء والنباهة منذ نعومة أظفاره، والذي

=من التمدن والعمران، وودِدْنا أن نقتفي آثارها، ونتمثل بأعمالها، ثم أخذ يدافع عن عبادتها، ويلتمس لها الأعذار فإنها لم تعبد الأصنام عبثا) ١/ ١٢/ ١٨٩٦م.

ويتحدث عن الأهرام وكيفية بناءها في عدد آخر ١٥/ ١٢/ ١٨٩٦، ويشيد ببناء المتحف الجديد الذي استودع فيه ذخائر الكنوز المصرية ١٥/ ١/ ١٨٩٧م، وأوردت المجلة ترجمة وافية مستفيضة، لماريت باشا مؤسس المتحف المصري، مقدمة لذلك بالحديث عن الآثار المصرية، وكيف أن مصر صارت منذ أزمان متطاولة مطمحا لأنظار الرواد المستطلعين من سائر الأمم والشعوب، يعجبون بما تركه الفراعنة من الهياكل والأهرام والمدافن والأصنام مما يبهر العقل – وقد تعرضت فيما مضى للإهمال والسرقات، حتى تولى المغفور له محمد علي باشا وأصدر أوامره بمنع الإفرنج من حمل هذه الآثار، وقيض الله لها ماريت باشا الفرنسي ! – فجمع ما بقى من شتاتها في بناء سماه المتحف المصري من مقال طويل ١٥/ ٤/ ١٨٩٧م.

كما أفردت حديثا مطولا عن قبر أوزيريس – ١٥/ ١٢/ ١٨٩٨م.

وعن آثار قدماء المصريين، بمتاحف أوربا وحوب العناية لها – ١٥/ ٥/ ١٩٠٠م.

وعن مركبة تحوتمس الرابع – جاء مقال ١٥/ ١١/ ١٩٠٣م.

وعن فن التحنيط وعبقرية قدماء المصريين – ١٥/ ١/ ١٨٩٩م.

وهكذا: حفلت الهلال بالعديد من المقالات – والأخبار الموجهة والإجابة على التساؤلات الوهمية في كثير منها – التي تتحدث عن الفراعنة وآثارهم وعبقريتهم – مما يمثل دعوة متقدمة: للاهتمام بالحضارة الفرعونية وإحياء آثارها وقيمها، وبعث الأدب المصري القديم على أساس تمجيد مصر الفرعونية والفراعين العظام، والانفصال النفسي عن الحضارة الإسلامية، لاسيما إذا كانت بهذا السوء الذي قدمته بها مجلة الهلال، فما الداعي للتمسك بها، وكأنها تريد للقارئ أن يفهم بإن لمصر كيانا إنسانيا وحضاريا خاصا ينبغي الالتفات إليه وإهمال كل الروافد الأخرى والأساسية، وعلى رأسها وفي مقدمتها الإسلام.

ولقد ظل دعاة التغريب يغزون النظرية الفرعونية ويوجهونها اتجاها منحرفا للقضاء على الروابط العربية الإسلامية، وقد أثبتت الدراسات الحديثة، أن ثالوث (إيزيس – أوزويس – حورس) لا تمت للتوحيد الإخناتوني بصلة – فهي حضارة (إحن رأسك لمن هو أعلى منك) أي حضارة الذل والعبودية التي حرر الإسلام البشرية منها، فما الفرعونية إلا عبادة الحيوانات، والعجول، والكباش، والأوز، وكفى بها سخفا.

(١) مجلة الهلال – العدد الصادر في ١/ ٨/ ١٨٩٤م.

كان يقول أستاذه لأبيه: (إن ولدك سيكون قوالا) أي شاعراً، كان يقضي ساعات فراغه في نظم الشعر والمطالعة فألف كتابا أسماه (نزهة الأحداق في مصارع العشاق) كما انتدب للمساعدة في تأليف كتاب (آثار الأزهار ١٨٧٥م) وهو دون العشرين .

في ١٨٧٧م أنشأ جريدة (مصر) وقد لاقت إقبالا عظيما، بالقاهرة ثم نقلها إلى الإسكندرية، فتعاون بإدارتها وتحريرها المرحوم سليم أفندي النقاش.

كما أنشأ جريدة (التجارة: يومية، وبقيت مصر أسبوعية حتى أغلقها وهاجر إلى باريس، وأصيب بعلة الصدر هناك، ثم عاد إلى القاهرة حتى أدركته الوفاة ١٢ /٦/ ١٨٨٥م)

ولكن لماذا ترجم زيدان لأديب بك إسحاق ؟

لارتباطهما بخط فكري واحد وهو الماسونية.

فقد سجل الأب لويس شيخو في كتابه وهو يتحدث عن [1] محفل زهرة الآداب: الذي تأسس عام ١٨٧٣م وعن السجلات السرية التي وجدت بالمحفل، والقوائم التي حوتها، والتي كان بها: خطبة لأديب بك إسحاق، ضمن خطبه العديد بهذا المحفل، تحمل طعنا في الحكومات المعاصرة له، لاسيما الدولة العثمانية.

وهذا الرجل اتضحت حقيقته، عندما غادر الشيخ جمال الدين الأفغاني القاهرة منفيا، فبعد أن كان يعتبر نفسه من تلامذته، والمدافعين عن بعض مبادئه - إذ به يتحول إلى رجل وصولي، **يستغل تلمذته السابقة للسيد جمال الدين في تحقيق كسب لحساب الاستعمار، والتغريب، والماسونية، فكرمته الدولة المحتلة لمصر – وأنعم عليه الخديوي برتبة البكوية – وأصبح كاتما لأسرار مجلس النواب – ولعل أخطر ما وجه إليه من إتهام أنه كان يواجه الاستعمار البريطاني في مصر – فترة إقامة الأفغاني – ولا يواجه الاستعمار الفرنسي في بلاده سوريا، بل كان يعطف على فرنسا ويواليها ويصفها بأنها محررة الشعوب، وذلك موضع الإتهام في أمانته ككاتب**، وأخطر مغمز يوجه إلى أدبه، وشخصه، فضلا عن

---

(١) الأب لويس شيخو، السر المصون في شيعة الفرمسون. ص٤٦.

متابعته بالطبع للماسونية، ومن أولياء الدعوة إلى ما دعت إليه من إكبار وإجلال للثورة الفرنسية والفكر الغربي [1] من الهادفين إلى تدمير الدولة العثمانية، وتحطيم الجامعة الإسلامية، وفصل مصر عن تركيا، لحساب النفوذ الأجنبي، تلك المدرسة الإرسالية التبشيرية التي صنعها النفوذ الأجنبي في بيروت، لإعداد تلك القاعدة الضخمة التي انطلقت منها بعد ذلك كل قوى الفكر والصحافة والأدب، وفي مقدمتها أصحاب المقطم عملاء كرومر، ودعاة الاحتلال، وسركيس، وشاهين مكاريوس، الذي كانوا جميعا يعرفون طريقهم: محاربة الإسلام تحت اسم محاربة الدولة العثمانية، والسلطان عبد الحميد، والدعوة إلى تحرر الوطن باسم الإقليمية، وتمزيق تلك الجبهة الصامدة، تلك هي دعوة الصهيونية والإستعمار الكامنة وراء الإرساليات التي أطلقت خريجيها فانبثوا في مصر، وتونس، والمغرب، يقودون الصحافة لحساب النفوذ الإنجليزي، والفرنسي، ومن ورائهم الصهيونية، كانوا يعملون في البلاد العربية فإذا ضاقت بهم ذهبوا إلى أيطاليا أو فرنسا يصدرون صحفا صفراء يهاجمون منها الخلافة والإسلام.

البرنس حليم باشا

وتواصل الهلال[2] **تقديم شخصيات الماسون وتراجمهم فنجدها في هذا العدد،** تقدم لشخصية جديدة إنه - البرنس حليم باشا، أحد أولاد المغفور له محمد علي باشا المولود سنة ١٨٢٦م - الذي تفقه بمدارس فرنسا العسكرية - بعد أن تلقن شيئا من العلوم في مدرسة الخانقاه هنا في القاهرة، ثم تحدثت عن عودته من فرنسا في ولاية عباس باشا، والمشكلات التي واجهها حليم باشا وعائلته معه، وكيف رفعوا دعواهم إلى الأستانة وإنصاف السلطان لهم وسفرهم إلى الأستانة، وإيعاز السلطان إلى عباس باشا بدفع ثلاثين ألفا إلى كل فرد منهم، وظل الحال كذلك

(١) أنور الجندي، الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي، دار الاعتصام، بدون رقم للطبعة، سنة ١٩٨١م، ص٤٥٦.
(٢) الهلال العدد الصادر في ١٨٩٤م ص٢١ وما بعدها.

حتى نال رتبة الوزارة في عهد سعيد باشا في ١٢٧٤هـ ... وكيف جعلته الدولة العلية عضوا في مجلس شورى الدولة.

لماذا قدم جرجي زيدان هذه الشخصية ؟

وكعادة جرجي في هلاله فإنه لم يصرح بالسبب في اختياره لتلك الشخصية والتقديم لها ؟ لكن إذا قرأنا تاريخ الماسونية العام وهو لكاتب المقال - نقف على السر فنجد: أن البرنس حليم باشا بن محمد علي باشا: كان عضوا بمحفل الأهرام الفرنسي بمصر عام ١٨٤٥م الذي تأسس تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنساوي وهذا نص كلامه: (.. انضم إليه كثيرون من الأخوة الماسونيين، من جميع الطوائف والنزعات وأكثر أعضاؤه، وله - أي المحفل - الفضل الأعظم في بث التعاليم الماسونية في القطر المصري، والتحق به قسم عظيم من رجال البلاد من وطنيين، وأجانب، وفي جملتهم، البرنس حليم باشا بن ساكن الجنان محمد علي باشا ..) (١).

ومن مصدر آخر نقرأ الحقائق التالية عن اختياره أستاذاً أعظم للماسونية المصرية عام ١٨٦٧م ومحاولته الإستيلاء على عرش مصر:

(... قام حليم باشا وأتباعه من الماسون الأجانب (الإيطاليين) بتداخلات في السياسة المصرية - من منفاه - ومحاولته الانقلاب ضد إسماعيل أو توفيق عبر الماسون الأجانب ..) (٢).

على هذا فالبرنس حليم باشا: هو أول أستاذ أعظم للمحافل الماسونية (٣) في مصر، وقد أنشأ الماسون في مصر الشرق الأعظم الوطني المصري عام ١٨٦٧م، واختاروه أستاذاً أعظم له، وقد حاول استغلال نفوذه، للانقلاب على الخديوي إسماعيل، لكن الأخير نفاه إلى الأستانة بعد إتهامه له بمحاولة اغتياله.

---

(١) جرجي زيدان، تاريخ الماسونية العام، ص١٥٢.
(٢) د/ علي شلش، مقال بمجلة الدوحة القطرية، عدد ١٠٣ سنة ١٩٨٤م.
(٣) جرجي زيدان، تاريخ الماسونية، ص١٥٤.

د. كرنيلوس فانديك

قدمت الهلال ترجمة كاملة في صدر عددها الثاني عشر [١] للسنة السابعة للدكتور كرنيلوس فانديك مقدمة له: بأنه أستاذ سوريا الأكبر وكفانا باسمه تعريفا لفضله، كما سبق للهلال تقديم ترجمة له أيضا في أول السنة الرابعة، وما له من الأيادي البيضاء في النهضة العلمية الأخيرة في بلاد الشام التي خدمها (سبعا وخمسين) يعلم ويطبب، ويخطب ويعظ ويهذب، فما من كاتب أو طبيب أو عالم هناك، إلا وهو من تلامذته أو من تلامذة تلامذته، أو استفاد من كتبه، أو اقتدى بفضله واجتهاده، غير أن ما لم تسجله الهلال صراحة، وكان أحد الدوافع القوية وراء تقديم ترجمتين كاملتين له في سنة ١٨٩٦م ثم كررتها في ١٨٩٩م. ما يلي:

سجل شاهين مكاريوس في كتاب الفضائل الماسونية:

يقول متحدثا عن ظروف إنضمامه للماسونية بلبنان (.. إنه لما كان عمره – ثمانية عشر عاما – كان مقيما بمدينة بيروت ومستخدما بمطبعة الأمريكان، وكان للماسونية اسم كبير، وأعمال تذكر بالشكر والفخر – وقد انضم إليها – صديقي د/ إبراهيم عربيلي بواسطة أبيه، فرغبني في الدخول إليها.

فسألت د/ فانديك: عن دخولي إلى الجمعية، وكان يحبني ويريد لي الخير، فشجعني، وقال إنه يرى أنها نافعة جدا: بهذا تشجعت وقدمت طلبي بواسطة د. عربيلي.

بهذا: فإن فانديك هو الذي شجع شاهين مكاريوس أحد أضلاع المثلث الماسوني الذي نشره في مصر، وقدم له العديد من كتبه، ومؤلفاته في محاولة لإثراء المكتبة الماسونية [٢].

---

(١) مجة الهلال العدد الصادر في ١٥/٣/١٨٩٩م.

(٢) شاهين مكاريوس، الفضائل الماسونية، ص١١٧، ١١٨.

وإذا كانت الهلال (1) تقدم للرجال الماسـون وتعرف بهم وبجهودهـم وبثمار كفاحهم وتدعو القراء إلى الإقتداء بأفعالهم، والتأسي بسير حياتهم، فإنها تقدم لنا الآن – وفي سنتها الخامسة عشرة – ترجمة لمن أطلقت عليه حجة اللغة العربية وإمام الإنشاء – ثم انتقلت للحديث عن بيت اليازجي (ذلك البيت الوجيه في غربي لبنان) يقف على رأسه الشيخ ناصيف اليازجي، الذي كان كاتبا، وشاعرا، في معية الأمير بشير الشهابي، والذي عينه المرسلون الأمريكان، معلما في مدارسهم، ومصححا في مطبعتهم –واتسعت شهرته بين الأدباء، وأرسله الشعراء من الشام ومصر والعراق، وتوفي ١٨٧١م مخلفا ورائه ستة أبناء، أشهرهم وأعلاهم كعبا الشيخ إبراهيم اليازجي المولود ببيروت سنة ١٨٤٧م، والذي ظل يترقى في مدارج العلم، حتى عهد إليه بتحرير جريدة النجاح – ١٨٧٢ – واستعان به الآباء اليسوعيون في ترجمة الكتاب المقدس ترجمة كاثوليكية، فقضى في ذلك تسع سنين، بعد أن درس العبرانية ليطبق عبارة التقريب على الأصل، فجاءت ترجمة اليسوعيين أصح ترجمات التوراة العربية، لغة وأفصحها عبارة، كما أتم ما تركه والده من مؤلفات وشروح وأشهرها ديوان المتنبي، ثم نزح إلى مصر ليصدر بها مجلة البيان ١٨٩٧م – وأنشأ مجلة الضياء في السنة التالية ١٨٩٨م علمية أدبية صحية، لم تتوقف إلا عندما حان أجله – ٢٨/ ١٢/ ١٩٠١م وتحدثت الهلال عن مناقبه وأخلاقه وأنه كان عفيف النفس، كثير الإباء ظاهر الأنفة – وعنده اقتدار غريب على الإنشاء المرسل، مع سلامة الذوق ومتانة العبارة.

وهكذا ظلت الهلال – تنقل لنا نماذج من مقالاته وعطاءه الأدبي شعرا ونثرا، وأعماله وآثاره في خدمته للغة العربية عشرين صفحة كاملة.

لكنها لم تنقل عنه أخطر وأهم شيء في حياته، **وهو خطه الفكري.**

والذي يسجل عنه الأب لويس شيخو:

---

(1) الهلال العدد الصادر في ١٥/ ١٢/ ١٩٠٧م ص١٥ صدر العدد.

أنه كان من أشهر شعراء الماسون وأبرزهم، يقول في سينيته المشهورة:

الخير كل الخير في	**هدم الجوامع والكنائس**
والشر كل الشر	**ما بين العمائم والقلانس**
ما هم رجال الله فيكم	**بل هم القوم الأبالس**
يمشون بين ظهوركم	**تحت القلانس والطيالس** (١)

كما يسجل حادثة أخرى تؤكد ماسونية الشيخ إبراهيم اليازجي:

يقول: إنه في ٢٩ مايو (أيار) ١٩١٠م وصل إلى جماعة الجزويت رسالة من ماسون ريودي جانيرو بالبرازيل (كتبها الماسوني جورج حداد) - جمعية الجيش الأبيض الماسوني، يتهددون فيه الجزويتين (اليسوعين) بانهم قتلوا شيخ الماسون «إبراهيم اليازجي» ويهددونهم بالانتقام (٢).

السلطان صلاح الدين الأيوبي
وعلاقته بالماسونية !

وما إن أطل عدد الهلال التاسع عشر (٣) لسنتها الثانية، حتى صدرته بالحديث عن السلطان صلاح الدين، لكي توهم قرائها بأنها لا تنسى أبطال المسلمين، وتقديم سيرتهم للأجيال القارئة عبر صفحاتها، دون تفريق بين الرجال العظام، وقسمت المجلة حديثها عنه إلى عدة نقاط:

١- فتحدثت عن مولده: بتكريت بالعراق ٥٣٦هـ، وأنه كان ذكيا، تلوح على وجهه ملامح المهابة والنبوغ، وأطوار حياته.

٢- كيف تبوأ السلطة، وذكر أحوال الديار المصرية آنذاك - عاصمة الدولة الفاطمية - (٥٥٦هـ وغارات الصليبيين عليها والتصدعات التي كانت بين ولاتها، وكيف استنجد شاور الوزير الأول في الدولة الفاطمية بالسلطان نور الدين زنكي

---

(١) الأب لويس شيخو - السر المصون ك١ ص٢٥.

(٢) السابق ك٣ ص١٨، ١٩ به صورة الرسالة.

(٣) مجلة الهلال العدد الصادر في ١/ ٦/ ١٨٩٤م افتتاحية العدد.

بدمشق فأرسل له شريكوه، وتحقق له الإنتصار، لكن حاول الغدر بالسلطان، حتى أنه حالف الصليبيين فسلم لهم القاهرة فدخلوها، لكن شريكوه لم يتركه حتى هزمه واستولى على مصر وأقام عليها ابن أخيه صلاح الدين، حتى كانت الجمعة الأولى من محرم ٥٦٧هـ توجه الأمير صلاح الدين إلى أكبر جوامع القاهرة وخطب في الناس وصلى باسم الخليفة المستضيء)

وهكذا سدل الستار على الخلافة الفاطمية بالقاهرة، وأدركت الوفاة الخليفة العاضد في ١١ محرم ٥٦٧هـ ... الخ.

ثم تواصل الهلال في العدد التالي ترجمتها للسلطان صلاح الدين:

فتذكر موقعة حطين ٥٨٣هـ وفتحه لبيت المقدس، ثم انتقلت إلى بيان مناقبه وآثاره، وحكايته مع قلب الأسد ملك إنكلترا

جرجي زيدان يدعي ماسونية صلاح الدين:

يقول: إن قلب الأسد مرض وهو في حرب مع صلاح الدين، فتنكر صلاح الدين وجاءه بصفة طبيب مرسل من السلطان، فطببه حتى شفي ثم عاد إلى حربه، ثم يعلق جرجي زيدان فيقول: (إن ما صنعه صلاح الدين مع قلب الأسد حال كونه من أعداء وطنه ودينه، لا يمكن أن يحدث إلا عن ارتباط داخلي أشد متانة من رابطة الوطنية !

إنها ولاشك: (رابطة الأخوة الماسونية) [1]!

وهذا ما لم يقله مطلقا مؤرخ غربي أو شرقي، قبل السيد جرجي زيدان الذي عز عليه أن يرى تطبيب صلاح الدين لقلب الأسد ملك انجلترا، مأثرة إسلامية، أوعربية، أو شرقية، أو حتى اعترافا بالبطولة التي قيل عنها أو قصائدها قول الشاعر «إنما يكرم الكريم الكريما»

عز عليه هذا، فأقام حكمه على الظن والارتجال، فصادف هذا هوى في نفوس قوم، خاضوا المعركة في المحافل دون معترض، ناسين أن الماسونية كما زعموا، لم

(١) جرجي زيدان، تاريخ الماسونية العام، ص٦٠.

تكن حتى عام ١٧٠٣م تقبل إلا البنائيين أي الممتهنين **مهنة البناء، فهل** كان صلاح الدين وريتشارد يمتهنان هذه المهنة ؟

وهكذا نصل إلى السر وراء **إيراد جرجي زيدان الصليبي في تراجمه لصلاح الدين الأيوبي البطل الإسلامي العظيم.**

فإيراده له من منطلق اعتباره ماسونيا، نظرا لمروءته مع أعدائه من الصليبيين، وعقده معهم الصلح من أجل سلام الإنسانية.

وأنشأوا باسمه محفلا بالمنصورة عام ١٩٢٠م.

كما أنشأوا باسمه - أيضا - مجلسا ماسونيا **للدرجة -** ٣٠ - بدمشق في الثلاثينات.

الفصل الثاني

الشخصيات القومية في كتابات جرجي زيدان

التعريف بالقومية:

وبعد الحديث عن الماسونية وموقف الهلال منها، ومحاولة غرسها في المجتمع المصري بالدفاع عنها، وإزالة كل ما يوجه إليها من إتهامات، والترجمة لشخصياتها وأقطابها، ننتقل في هذا المبحث للحديث عن الهلال وموقفها من القومية.

وإذا كنا قد سلمنا بقول العلامة د. مصطفى السباعي:

(.. إن الفكرة هي التي توجد العظيم، وبمقدار نجاحه في إبرازها تظهر فيه صورة البطولة العظيمة ..) [1].

فإنني سأعرض في هذا المبحث، فكرة القومية العربية من خلال (أعظم الرجال - كما تسميهم الهلال - الذين حملوا هذه الفكرة في مجتمعنا العربي والمصري.

مقدما لذلك - بطبيعة الحال - لمعنى القومية - ونشأتها - ودور النصارى في نشأتها - ثم موقف الإسلام منها - وما نتج عنها من أضرار ومخاطر بالغة الجسامة في بلداننا العربية والإسلامية.

أولا: ما هي القومية ؟

مصدر صناعي، نسبتها إلى قوم - وهو لفظ ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة مطلقاً ومقيداً - إما بالإضافة إلى مؤمن أو كافرا، وبصفة إيمان أو كفر.

وإذا أدخل معه على سبيل المقابلة لفظ نساء، صار لفظ قوم يعني الرجال فقط، كقوله تعالى ﴿لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ﴾[2] ثم قوله سبحانه ﴿وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾[3] أما إذا ذكر وحده، فإنه يشمل النساء ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ

(1) د/ مصطفى السباعي، عظماؤنا في التاريخ، ص٢٥.
(2) سورة الحجرات جزء الآية رقم ١١.
(3) نفس الآية السابقة.

﴿كَافِرِينَ﴾[1] ولأن قوم كل نبي رجال ونساء.

وسمي القوم: قوما لأنهم يقومون بمهام الأمور، ويقيمونها بما تقوم به وتصلح عليه، بمشيئة الله تعالى ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [2].

واسم الفاعل: قائم، ولله منه قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[3]، ويصاغ منه قيوم، وهو اسم من اسماء الله الحسنى، فهو سبحانه يقيم الخلق، فقد خلق الإنسان في أحسن تقويم، وشرع له الدين القيم الذي أوحاه إلى صاحب المقام المحمود وبعثه به إلى الناس فبلغهم إياه، حتى أصبح فيهم كتابا قيما يهدي للتي هي أقوم.

القومية في كتابات القوميين:

١ – القومية عند الأستاذ ساطع الحصري [4]:

يقول (الوطنية والقومية، من أهم النزعات الاجتماعية، التي تربط الفرد البشري بالجماعات وتجعله يحبها ويفتخر بها، ويضحي في سبيلها) ، (إن منبع الوطنية وبذرتها الأولى حب الموطن، وأما منبع القومية وبذرتها الأصلية حب الأهل ..).

ثم يتحدث عن عوامل الارتباط بين البشر فيقول:

(.. إن العوامل التي تربط الأفراد بعضهم ببعض – لتؤلف منهم أمة واحدة، كثيرة ومتنوعة، الاعتقاد بوحدة الأصل والمنشا، الاشتراك في اللغة والتاريخ، والتشابه في العواطف والعوائد والتماثل في ذكريات الماضي، ونزعات الحال وآمال المستقبل – كلها من جملة هذه الروابط المعنوية التي تولد التقارب والتعاطف وتكون الأمم والأوطان).

---

(١) سورة النمل جزء الآية رقم ٤٣.

(٢) سورة التكوير الآيات ٢٨، ٢٩.

(٣) سورة الحجرات جزء الآية رقم ٣٣.

(٤) الحصري، أكبر وأقدم دعاة الفكرة القومية، إنه فيلسوف الفكرة القومية العربية – وهو مرجع أساسي بالنسبة لجميع العاملين في حقل الفكرة القومية.
محمد جلال كشك، القومية والغزو الفكري، مكتبة الأمل، الكويت، سنة ١٣٨٦هـ، ص٣٨.

(.. إن كل شعب يتكلم العربية هو شعب عربي، وكل من ينتسب إلى شعب من هذه الشعوب العربية هو عربي - أما إذا لم يعرف هو ذلك ولم يعتز به، فعلينا أن نبحث عن الأسباب التي تحمله على الوقوف هذا الموقف، فقد يكون ذلك ناتجا عن الجهل، فعلينا أن نعلمه الحقيقة، وقد يكون ذلك ناشئا عن الغفلة والإنخداع، فعلينا أن نوقظه ونهديه سواء السبيل - **والخلاصة**: إنه لكل واحد منا، من منتسبي هذه الشعوب العربية، أن يقول أنا مصري، أو أنا عراقي، أو أنا سوري، أو أنا لبناني، ولكن عليه أن يقول في الوقت نفسه: أنا عربي، كما يجب عليه أن يقول العروبة فوق الجميع)[1].

٢- القومية في فكر الأمير مصطفى الشهابي:

يقول في سلسلة محاضراته التي ألقاها على طلبة معهد الدراسات والبحوث العربية التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة عام ١٩٥٨ ما يلي:

(.. تقوم قوميتنا العربية كغيرها من القوميات - من حيث الفكرة المثالية - تقوم على الشعور والإيمان بأن العرب في جميع أقطارهم أمة واحدة - وعلى إرادة السعي لتحقيق الأهداف السياسية والإجتماعية والاقتصادية لهذه الأمة.

أما العوامل الواقعية التي ترتكز عليها قوميتنا العربية فأهمها عاملان:

١- اللغة العربية الفصحى، فهي التي تولد فينا ذلك الشعور القوي المشترك بالتعاطف، والتساند، بين أبناء الناطقين بالضاد، على مختلف شعوبهم وأقطارهم، باعتبارهم أصحاب وطن مشترك واحد، هو الوطن العربي الأكبر.

٢- تاريخنا المشترك: فالقسم المشرق من تاريخ أمتنا العربية، عامل أساسي في تكوين النزعة القومية فينا، وذلك بأن من المؤثرات الفعالة في نفوسنا تذكر ما لماضي أمتنا من أثر حميد في الثقافة والمدنية، وما كان لرجالاتها من بطولات وما حفظته الايام من تراث علمي وأدبي عظيم.

---

(١) ما سبق منقولا عن أبحاث مختارة في القومية العربية - ساطع الحصري صفات ٢٨، ٣٢، ٩٥ - طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤م.

ويتوالى حديثه عن القومية وما ينبغي لها من مكانة في الفكر العربي:

(إنها عقيدة في سويداء القلب لا شقشقة على عذبة اللسان، ويا ويح أمة لا تؤمن بقوميتها، ولا تعرف كيف تضمن لنفسها عناصر الحياة، من علم وثقافة واقتصاد وقدرة على حكم نفسها بنفسها، فأمة كهذه لا مكان لها ولا استقلال في عصر القوميات)[١].

ثم يقول (.. ومن الأجرام الفظيعة – أي الذنوب الفظيعة – أن يتخلى أفراد الأمة الضعيفة عن عقيدة القومية، وأن يتجاوزوها إلى الإيمان الأعمى بعقيدة العالمية...)[*].

وهو يقصد بالعالمية والأممية: ما يقصده الحصري بقوله (إن الديانة الإسلامية وسعت نطاق االقومية العربية، وصانتها من الإنشطار، لكن الحركة الإسلامية، لم تبق مرتبطة بالقومية العربية ارتباطا تاما).

ويقصد الشهابي بالعالمية والأممية: ما يقصده بهما اليهود من الإسلام والنصرانية، بدليل قوله عن الإسلام والنصرانية، بعد أن جعلهما قسما واحدا، أنهما قسم يتجاوز النزعة القومية، إلى نزعة دينية شاملة لأقوام شتى).

هكذا: يرى الشهابي أن **التجاوز في العقيدة العالمية كالإسلام، من الذنوب الفظيعة خصوصا ما إذا كان المتجاوز، أمة ضعيفة كالعرب في هذا الزمن.**

وعلى هذا فالقومية العربية – لا ترتكز على الدين، وإن يكن معظم أفرادها مسلمين لأن العربي – في مفهوم القوميين – من تكلم بالعربية وأراد أن يكون عربيا، مهما يكن دينه، ومهما تكن السلالة البشرية التي ينتمي إليها ..).

وهذا ما ذهب إليه أيضا مفكر قومي آخر هو:

د. محمد معروف الدواليبي [٢]: يقول (.. نظرية وحدة الدين وإقامة القومية

---

(١) الأمير مصطفى الشهابي، القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها، مجموعة محاضرات ألقاها الأمير الشهابي على طلبة الدراسات العربية العالية بجامعة الدول العربية سنة ١٩٥٨م، ص٩.

(*) ولعل في هذا رد بليغ ومسكت – للتيارات المعاصرة غير الإسلامية التي تسعى إلى الذوبان في تيار العولمة الكاسح وترى أنه لا فكاك أمام الشعوب العربية والإسلامية إلا أن تغرق في لجج العولمة.

(٢) د/ معروف الدواليبي، دراسات تاريخية عن أصل العرب وحضارتهم الإنسانية، ص٩٢، ٩٣، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، سنة ١٩٧١م.

عليها، لهذه النظرية عندنا معشر العرب أهمية خاصة، لما كان للإسلام من أثر عظيم في تاريخ وحدة العرب، وتاريخ وحدة لغتهم وفي تضخيم قاعدة هرم العروبة في الأرض وفي السكان، وفي بعثنا بعثا جديدا، مما جعل للإسلام الجزء الكبير من تاريخ العروبة منذ البعث الإسلامي، غير أن هذا الأثر العظيم للإسلام في تاريخ العروبة، لا ينبغي لـه أن يخرجنا من موضوعنا، وهو القومية ورابطتها إلى الدين ورابطته، ولا أن يلتبس علينا الأمر ما بين دائرة القومية وما بين دائرة الدين، فقد كان في العرب منذ العهد الجاهلي: يهود ونصارى، و لم يخرجوا بذلك عن عروبتهم لدى أحد الباحثين – (**وبناء على هذه الوقائع الواضحة لا يمكن أن نعتبر الدين بصورة مطلقة عنصرا أساسيا من عناصر القومية العربية ..)**.

بل إن الدواليبي ينتهي بعد عدد من المقدمات، التي ساقها في حتمية العقيدة القومية، للأمة العربية إلى أن يقول (إن العربي هو كل من يتكلم العربية، ويكون كيانه حصيلة تاريخ قومها، دون أن يجد ذلك قطراً وتقف دونه إرادة شخص...

فمن مراكش، إلى العراق، ومن السودان واليمن، إلى أقصى شبه الجزيرة في شمالي الشام، أمة عربية واحدة ذات قومية واحدة، لأنهم يتكلمون لغة واحدة، ويجمع بينهم تاريخ واحد، وآلام واحدة، فهم جميعهم عرب شاءوا أم أبوا... **وما تنكر أحد لقوميته إلا جاهلا فعلموه، أو غافلا فأيقظوه، أو عاقلا فاقد الضمير فأدبوه ...)**.

وهكذا تتفق الرؤى الثلاث في تعريف وتحديد مفهوم القومية العربية، واعتبارها محورا أساسيا ينبغي أن يجتمع عليه العرب، كعقيدة توحد بين صفوفهم، وتجمع كلمتهم وتجعل منهم أمة واحدة، مترابطة ولو على حساب الدين، حتى إن ساطع الحصري، يدعي أن الوحدة العربية أسهل بكثير من الوحدة الإسلامية).

ويحكم على معارض الوحدة العربية بالوحدة الإسلامية إنهم خالفوا أبسط مقتضيات العقل يقول (وأما من عارض الوحدة العربية باسم الوحدة الإسلامية، أو بحجتها، فيكون قد خالف أبسط مقتضيات العقل والمنطق مخالفة صريحة ..)[1]

(١) ساطع الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربية، دار المعارف، بدون رقم للطبعة سنة ١٩٦٤م ص١٩٥.

حتى أنه لم يتحرج من الإشادة بشاعر نصراني دعا إلى الكفر في سبيل الوحدة بقوله:

سلام على كفر يوحد بيننا   وأهلا وسهلا بعده بجهنم

القومية في الكتابات الإسلامية:

وإذا ما انتقلنا من تعريفات المفكرين القوميين، من خلال كتبهم ودراساتهم، إلى تعريفات المفكرين الإسلاميين فإنا نجد تعريف القومية - كما أوردته الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ما يلي:

القومية العربية: حركة سياسية فكرية متعصبة، تدعو إلى تمجيد العرب وإقامة دولة موحدة لهم، على أساس رابطة الدم، والقربى، واللغة، والتاريخ، وإحلالها محل رابطة الدين - وهي صدى للفكر القومي الذي سبق أن ظهر في أوربا ..) [١].

ويطيب لي أن أنقل هنا نصا وقعت عليه يؤكد التعريف الذي أوردته الموسوعة وهو للكاتب المشهور **محمود تيمور لمجلة العالم العربي** عدد ١٧١، يقول: (لئن كان لكل عصر **نبوته المقدسة**، إن القومية العربية لهي نبوة هذا العصر، في مجتمعنا العربي، ورسالة هذه النبوة هي تجميع القوة وتكتيل الجبهة، والانطلاقة بالطاقة البشرية في كيان المجتمع العربي، نحو كسب الحياة، وإن كتاب العرب في أعناقهم أمانة، هي أن يكونوا حواريين تلك النبوة الصادقة، يزكونها بأقلامهم، وينفخون فيها من أرواحهم) [٢].

وعلى الناحية المقابلة فإن الشيخ محمد رشيد رضا يقول: (إن أعلى روابط الاجتماع التي تضم متفرق العناصر، وأشتات الأجناس، وتصوغها فتجعلها عنصراً واحداً، هي رابطة الدين الإسلامي، التي بني أساسها على الوحدة في الإعتقاد، والتهذيب، والأحكام القضائية والمدنية) [٣].

(١) الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة - اصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي الرياض، ط ١٩٧٢ ص٤٠١.

(٢) أبو الحسن الندوي، كتاب العرب والإسلام، مطبعة ندوة العلماء بالهند، بدون رقم للطبعة، سنة ١٣٨٤هـ، ص٣.

(٣) الجنسية والدين الإسلامي - مجلة المنار مجلد ٢ عدد ٢١ (٢٨ ربيع الأول ١٣١٧هـ).

ويؤكد الشيخ رشيد رضا دائما على تذكير الأمة الإسلامية برابطة الدين وأهميتها في تحقيق وحدتهم قائلاً (هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبات الأجناس، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين) [1].

وقد شن حملة واسعة على القومية - عربية كانت أو تركية - وبين أنها مناهضة للإسلام يقول: (عزم هؤلاء المتفرنجون على إحياء الجنسية التركية وجعلها مستقلة، ثم الاستقلال في الحكم والتشريع والعقائد والآداب، غير مقيدة فيه بقيد مستمد من أمة أخرى، **بل أقول بلغة صريحة فصيحة** غير مقيدين فيه بالشريعة الإسلامية، ولا بالدين الإسلامي، وقد مهدوا له السبيل بما ألفوا من الكتب والرسائل ووضعوا له من الأناشيد والقصائد) [2].

وهكذا كان المفكرون المسلمون يجابهون هذه النعرة التعصبية لأنها نزعة عنصرية تدين بالولاء للجنس والعرف، لا للإسلام وعقيدته، وهذا مما يرفضه الإسلام.

دور النصارى في نشأة القومية العربية:

ظهرت بدايات الفكر القومي - في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، متمثلة في حركة سرية تؤلف من أجلها الجمعيات، والخلايا، في عاصمة الخلافة العثمانية، ثم في حركة علنية في جمعيات أدبية، تتخذ من دمشق وبيروت مقرا لها، ثم في حركة سياسية واضحة المعالم في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس ١٩١٢م، على أن أهم الجمعيات ذات التوجه القومي حسب التسلسل التاريخي هي:

١- الجمعية السورية: أسسها نصارى منهم بطرس البستاني، وناصيف اليازجي سنة ١٨٤٧م في دمشق.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) إحياء الجنسية الطورانية - مجلة المنار مجلد ٢٤ عدد ٥ (رمضان ١٣٤١هـ).

٢- الجمعية السورية (بيروت): أسسها نصارى منهم سليم البستاني ومنيف خوري ١٨٦٨م.

٣- الجمعية العربية السرية: ظهرت في سنة ١٨٧٥م وفروعها بدمشق وطرابلس وصيدا.

٤- جمعية حقوق الملة العربية: ظهرت سنة ١٨٨١م هادفة إلى وحدة المسلمين والمسيحيين.

٥- جمعية رابطة الوطن العربي: أسسها نجيب عاذوري ١٩٠٤م بباريس وألف كتاب (يقظة العرب).

٦- جمعية الوطن العربي: أسسها خير الله خير الله ١٩٠٥م بباريس، وفي هذه السنة نشر أول كتاب قومي بعنوان (الحركة الوطنية العربية).

٧- الجمعية القحطانية: ظهرت ١٩٠٩م وهي جمعية سرية.

٨- جمعية (العربية الفتاة): أسسها في باريس، طلاب عرب، منهم محمد البعلبكي ١٩١١م.

٩- حزب اللامركزية: سنة ١٩١٢م.

١٠- جمعية العلم الأخضر: سنة ١٩١٣م من مؤسسيها د. فائق شاكر.

١١- جمعية العلم: ظهرت سنة ١٩١٤م في الموصل [1].

وعلى هذا فإن مبتدعوا فكرة القومية العربية: هما كما ذكر جورج أنطونيوس: عربيان نصرانيان، استثمر جهودهما المبشرون الأمريكان وآزروهما حتى أمسكا بأيديهما زمام الحياة الفكرية في ذلك العصر في لبنان فيقول:

١- كان ناصيف اليازجي أسن الرجلين ولد سنة ١٨٠٠م في قرية صغيرة بجبل لبنان من أسرة لبنانية - وقد شحذت عزيمته الدروس التي تلقاها عن كاهن القرية، كما مكنه ارتياد المكتبات من الوصول إلى أعماق الأدب العربي القديم، وأيقظ جمال هذا الأدب الدفين، الوجدان العربي في نفسه، فهام به وكأنه مسحور، وكان

(١) الموسوعة الميسرة للأديان ص٤٠٣.

من الطبعي أن يتجه إليه الأمريكان يطلبون منه العون على إصدار كتب في علوم اللغة العربية التي يعرفها، ونشأ أطفاله الإثنى عشر على هذه الآراء وأعداهم بحماسته، حتى بلغ حد التأثير بأحد أبنائه، أن أصبح فيما بعد أول من نادى بالتحرر القومي للعرب [1].

٢- وكان الرجل العظيم الثاني بطرس البستاني ولد ١٨١٩م عربيا نصرانيا من جبل لبنان، التحق في العاشرة بكلية الدير بقرية عين ورقة، وتفوق، فاختاره الرهبان ليوفدوه إلى الكلية المارونية في روما، على نفقتهم، لكنه شرع في احتراف التدريس ثم ذهب إلى بيروت ١٨٤٠م فارتبطت جهوده بجهود البعثة التبشيرية ارتباطا وثيقا[2] وفتح أمامه مجال عمل واسع، وقبل منصب مدرس اللغة العربية في دار المعلمين بقرية عبية، وحين طلب إليه أن يساعد إيلي سميث في ترجمة التوراة (تعلم العبرية والآرامية، واليونانية القديمة) وكانت شغله الشاغل مدى عشر سنوات كاملة.

وكانت له جهود في إطفاء نيران الفتن المشتعلة في ١٨٦٠م فأنشأ صحيفتي (نفير سوريا) و(الجنان) ١٨٧٠م داعيا من خلالهما إلى الاتحاد والتعاون في طلب المعرفة، ومحاربة التعصب والدعوة إلى التفاهم والاتحاد لخير الوطن ، وكان شعار الصحيفة (حب الوطن من الإيمان) .

ثم اتفق اليازجي والبستاني - خلال السنوات الأولى من ارتباطهما مع البعثة التبشيرية الأمريكية في العمل على أن يقترحا إنشاء جمعية علمية فأنشأت، و لم يمض عامان حتى بلغ أعضاؤها خمسين عضوًا، أكثرهم من النصارى السوريين المقيمين في بيروت - لم يكن فيها عضو مسلم أو درزي - تألفت هذه الجمعية على غرارها جمعيات أخرى كان لها دور مهم في نمو الحركة العربية القومية.

على أن أول صوت ظهر لحركة العرب القومية كان في اجتماع سري عقده

---

(١) صالح بن عبد الله العبود، فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام، دار طيبة بالسعودية، ط١٠، سنة ١٤٠١هـ، ص١٥١.

(٢) جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ترجمة د/ ناصر الدين الأسد، د/ إحسان عباس مؤسسة فرنكلين بيرمت نيويورك ط٢ سنة ١٩٦٦، ص١١١.

بعض أعضاء (الجمعية العلمية السورية) وكان أحد أعضاءها إبراهيم اليازجي، بن ناصيف اليازجي قد نظم قصيدة اتخذت صورة النشيد الوطني، كان لها الأثر البالغ في نفوس الطلاب، وأصبح لها نصيب وافر في تغذية الحركة القومية في مبدئها وفيها يقول [1]:

وما العرب الكرام سوى نصال   لها في أجفن العليا مقام

لعمرك نحن مصدر كل فضل   وعن آثارنا أخذ الأنام

ونحن أولو المآثر من قديم   وإن جحدت مآثرنا اللئام

وله قصيدة أخرى:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد   طمى الخطب حتى غاصت الركب

إلى أن يقول:

الله أكبر ما هذا المنام فقد   شكاكم المهد واشتاقتكم الترب

والخلاصة: أن الداعين إلى البعث العربي في فكرة الجمعيات الأدبية والعلمية (١٨٤٧ - ١٨٦٨) كانوا في الغالب من النصارى،وأنهم لم يمثلوا سواد الشعب، غير أنه في الحقيقة: لولا هذه الجمعيات الأدبية ولولا هذه القصائد الثورية لبقيت الفكرة القومية بعيدة عن العرب إلى حد كبير.

لكن السؤال لماذا حمل النصارى العرب لواء القومية العربية ؟

حاول النصارى تحقيق عدة أهداف من وراء نشرهم فكرة القومية في المجتمع العربي:

١- تقوية شوكتهم: ذلك أنهم إذا قطعوا العرب عن صلة الأخوة الإسلامية، وروجوا لهم فكرة القومية العربية، فإن النصارى من العرب، يتساوون في العربية، وإذا اتفقوا على القومية وارتبطوا على أساسها، فإنه لا يبقى فارق بينهم في الحقوق والامتيازات، بل إن النصارى يمتازون بقوة دولهم الأوربية المنتصرة على دولة

---

(١) نفس المرجع السابق ص١١، ١٢.

الخلافة الإسلامية العثمانية وهذا هو الذي استقر في نفوسهم كامنا وقصدوا إليه.

حيث إن العربي المسلم عندما يتكلم عن الإمبراطورية العثمانية كان يعتبرها إمبراطوريته، لأنها كانت إمبراطورية إسلامية - أما المسيحي فكان يشعر دائما، بأنه واحد من رعايا السلطان، وأن الحكومة لا يمكن أن تكون حكومته، وعلى هذا الأساس وانطلاقا منه، اقتنع الأعضاء المسيحيون في الجمعيات السرية، أن السبيل الوحيد للتحرر من الحكم التركي والمساواة بينهم وبين المسلمين، هو تأليف جبهة عربية موحدة، تقوم على فكرة العروبة، تستطيع الوقوف في وجه الأتراك [1]، كما كان لجهود المبشرين الرامية إلى إخضاع الشرق العربي للاستعمار الغربي، دور فعال وأساسي في تأسيس تلك الجبهة - وذلك عبر سلسلة من الخطوات - تبدأ بالتبشير ثم بالتنصير، ثم بتكثير سواد النصرانية وحمايتهم وتقوية مكانتهم بين العرب، ثم تسليطهم على المسلمين، وإن كانوا من العرب لأنهم مسلمين ومحل طمع أعدائهم.

٢- نفوذ دولة الصليب الاستعمارية في البلاد العربية:

فقد استشعرت الإرساليات التبشيرية ومشايعيها من نصارى العرب - أن العروبة كشعار أوَّلي في وسعها أن تصد العرب عن الإسلام، فإذا أبعدوا عنه سهل نفوذهم في بلاد المسلمين وحكمهم والقضاء على دولتهم وخلافتهم، وهذا من أعظم مقاصد الصليبيين،

فقد قدم بلفور: رئيس البعثة البريطانية الخاصة الذي كان يزور الولايات المتحدة بيانا إلى مجلس وزرائها يقول فيه (.. ولاشك أن القضاء على الإمبراطورية العثمانية قضاء تاما، هو من أهدافنا التي نريد تحقيقها، فإذا نجحنا فلاشك أن تركيا ستفقد كل الأجزاء التي نطلق عليها عادة اسم البلاد العربية).

٣- مناقضة الإسلام نفسه بفكرة العروبة، حتى يغتر العرب بعبادة قوميتهم، عن عبادة الله، بالإسلام له وحده، فإذا فعلوا ذلك ينعدم الفرق بين عبادة مخلوق ومخلوق، بل الأقوى أحق - وهكذا أريد من العروبة أن تكون رابطة قومية مناقضة

---

(١) زين نور الدين، نشوء القومية العربية، دار النهار للنشر بيروت لبنان سنة ١٩٦٨م.

للإسلام.

ومما يؤسف له أن نفرا من الشباب العربي قد اعتنقوا فكرة العروبة المجردة عن الإسلام ثم أخفوا، وهم يدعون للعروبة يقاومون الحركات الإسلامية (١).

وما القومية في حقيقة أمرها كما قرر دعاتها، إلا جاهلية جديدة، يرفعها أصحابها فوق الإسلام، ويقدمونها عليه، يدعون إلى إقصاء الإسلام وفصله عن الحكم، وحبسه في المساجد، بل قد يصل الأمر إلى الكفر بالله عز وجل وبرسوله ﷺ ، فهي ترمي إلى إحياء عادات جاهلية، درست وإقامة ذكريات بائدة خلت، وتصفية حضارة نافعة استقرت، والتحلل من عقدة الإسلام ورباطه بدعوى الاعتزاز بالجنس(٢).

وروى أبو داود عن النبي ﷺ «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية »(٣)،وروى الإمام مسلم أن النبي ﷺ يقول «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية، أو يدعو لعصبية، أو ينصر عصبية فقتل فقتلته جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه»(٤).

وهكذا نادى الكتاب المسيحيون بإقامة مجتمع قومي علماني.

وكان الشدياق، والبستاني، رائدي مدرسة من الكتاب الذين فتح نمو الصحافة العربية الدورية مجالا جديدا لمواهبهم، ففي السبعينات من القرن التاسع عشر أخذ يظهر بالعربية نوعان جديدان من الصحف:

١- صحف سياسية مستقلة،

---

(١) د/ مصطفى خالدي، د/ عمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق العربي للاستعمار الغربي، ط٣ بيروت سنة ١٩٦٤م.

(٢) أحمد صديق عبد الرحمن، البيعة في النظام السياسي الإسلامي، مكتبة وهبة، ط١ ١٩٨٨م، ص١٦٥، ١٦٦.

(٣) الإمام أبي داود، السنن مطبعة مصطفى البابي الحلبي ط١ سنة ١٣٧١هـ جرجي زيدان٢ ص٦٢٥.

(٤) الإمام مسلم، الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ج٣ ص١٤٧٦، ١٤٧٧، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ط١ سنة ١٩٥٥م.

تنشر أخبار السياسات العالمية وتعبر عن الآراء السياسية.

٢- والمجلات التي كانت تتوخى غرضا مزدوجا:

هو إطلاع الفكر العربي على أفكار أوربا وأمريكا، واختراعاتها، وعلى كيفية التعبير عنها باللغة العربية، وكان العدد الأكبر من هذه المجلات الصادرة في القاهرة أو بيروت، يحررها مسيحيون لبنانيون، تثقفوا في المدارس الفرنسية أو الأمريكية، فزودوا القراء طيلة جيل كامل، بمادة للمطالعة الشعبية تكاد تكون الوحيدة في اللغة العربية آنذاك، كانت المجلة الأولى المهمة من هذا النوع، مجلة الجنان لبطرس البستاني استمرت من ١٨٧٠ - ١٨٨٦م تصدر ببيروت ثم انتقلت للقاهرة، وكانت أشهر المجلات اللبنانية المصرية - كما سبق أن بينا - المقتطف التي أنشئت ١٨٧٦م، والهلال ١٨٩٢م، وكانتا تعملان معا على تسريب بعض الأفكار المعيَّنة، من خلال المواد التي تنشر على صفحاتهما أمثال: تقديم تصور جديد للحقيقة، وكيفية البحث عنها، وما على جمهور قراء العربية أن يعرفوه وهو أن المدنية خير بحد ذاتها، وأن ابتكارها وصيانتها إنما هو محك العمل، وقاعدة الخليقة، وأن للعلوم الأوربية قيمة عالمية، وأن من واجب العقل العربي تحصيلها بواسطة اللغة العربية، وأنه بالإمكان أن نستخرج من الاكتشافات العلمية نظاما للخلقية الإجتماعية التي هي سر القوة الإجتماعية وأساس هذا النظام، التحسس بالمصلحة العامة، أي الوطنية، التي هي حب الوطن، والمواطنين، الذي يجب أن يعلو على جميع الروابط الاجتماعية الأخرى، حتى الدينية منها [١]. أو بتعبير آخر «التعلق بالوطن أو مسقط الرأس، بصرف النظر عن أي عقيدة سياسية، ثم تعود إلى الإنتماء إلى وطن أوسع بالمعنى السياسي، لا بالمعنى الجغرافي، ثم تطورت إلى بناء الانتماء إلى أمة واسعة سياسية كبديل للانتماء التقليدي للقبيلة أو للعشيرة أو الطائفة المهنية أو الملة الدينية»[٢].

---

(١) ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٩٨، ١٩٣٩م، دار النهار بيروت ص١٩٥.

(٢) برهان غليون - إعادة بناء الفكر الاجتماعي - دراسة لمجلة المعرفة السعودية ص٧٥ عدد ٥٨.

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الشخصيات القومية التي قدمتها الهلال على صفحاتها وساهمت بتقديمها، في لفت الأنظار إلى الفكر القومي الذي تحمله تلك الشخصيات، وتعرف به، فإننا نجدها: قد قدمت ترجمة وافية لعدد من الرواد منهم:

١- بطرس البستاني

وهو أحد رواد القومية العربية، التي قامت لهدم الخلافة الإسلامية وتمزيق المجتمع الإسلامي بتقطيع أوصاله وزلزلة أركانه.

قدمت الهلال في سنتها الثامنة ١٩٠٠م ترجمة طوقت له فيها حول (مطران الطائفة المارونية على صور، وصيدا، وما يليها) نظرا لاشتهاره بالحزم، وصدق اللهجة في أقواله وأعماله - على حد تعبير المجلة - فإنها رأت نشر آثاره، وأعماله، عبرة وذكرى، فتحدثت عن مولده في أواخر عام ١٨١٩م وعناية والده الخوري يوسف البستاني، بتربيته وتثقيفه، حتى ضمه جده إلى مدرسة عين ورقة، أقام فيها عشر سنوات، تمكن خلالها من العربية، والسريانية، واللاتينية، والإيطالية، حتى رسمه المطران يوسف رزق، رئيس المدينة، كاهنا في ١٨٤٢م، ثم كاتما لأسرار البطريركية المارونية ١٨٤٥م، ولبث بها أحد عشر عاما ثم مطران لعكا - حتى انتقلت إليه أسقفية الموارنة كلها.

رافق البطريرك بولس سعد سنة ١٨٦٧م إلى رومية، قابل فيها الحبر الأعظم، ثم قابل الإمبراطور نابليون الثالث بباريس، ووزراء دولته، ثم مثل بالأستانة لدى المغفور له السلطان عبد العزيز فخصه بإحسانه، ثم أنعم عليه ببعض وسامات دولته.

كان إذا قال قولا مهما كان وثق الناس به، وثوقهم بالآيات البينات، لا يعرف المراء، ولا يعبأ بلوم محبيه ولائميه، على تجاوزه حد الإعتدال في تلك المزية، كان أرفق الناس بالضعيف الحال، الكسير الجناح، وله من وجه آخر نفس شماء لا تصبر على جور.

هذا ما سجلته الهلال عن المطران بطرس البستاني،

فما الذي أخفته عن قارئها آنذاك:

لقد أخفت الهلال: تعاون ذلك الرجل الوثيق، وارتباط جهوده بجهود البعثات التبشيرية إرتباطا وثيقا، مع المرسلين الأمريكان، كان يعلم بكلياتهم ومدارسهم، وعاونهم على ترجمة التوراة، وكان شغله الشاغل مدة عشر سنوات، وإصداره مجلة (نفير سورية) داعيا من خلالها إلى التوفيق بين العقائد المختلفة، والإتحاد والتعاون في طلب المعرفة، التي ستؤدي إلى الاستنارة والعقلية، القاضية على التعصب، وإحلال المثل العليا – الأمر الذي لم تكن بلاد الشام قد سمعت به من قبل – والذي كان يشمل في طياته نواة الفكرة القومية، كما كانت مجلته (الجنان: الصحيفة السياسية الأدبية التي تصدر كل أسبوعين) – تعمل على تحقيق غاية أساسية هي: القومية: من خلال شعارها البراق (حب الوطن من الإيمان) والتي كانت تحرص المجلة على إبرازه في صفحتها الأولى مع العنوان، في كل عدد، واستمرت تعني عناية خاصة بالتركيز المتواصل على فكرة القومية، من خلال إستكتاب الداعين إليها من البلاد العربية المجاورة ومن بلاد الشام نفسها – وهكذا كما يسجل جورج أنطونيوس عن بطرس البستاني إن أبرز جهوده تلك التي كان يوجهها لبعث القومية العربية في المجتمع العربي [1]، والدعوة إلى محبة الوطن من دون الله .

كما أنشأ هو واليازجي (جمعية الآداب والعلوم: ١٨٤٧م خلال السنوات الأولى من إرتباطهما مع البعثة التبشيرية في العمل – ظلا خمس سنوات كاملة يلحان فيها على أصدقائهما – أعضاء البعثة التبشيرية – بالسماح لهما بإنشاء هذه

---

(١) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ص١١٢، وهو أحد الآباء المؤسسين لبناء الفكر القومي العربي، وقد أرخ في كتابه هذا الذي كتبه بالإنجليزية بلندن ١٩٣٨م واستعرض فيه تاريخ القومية، بوصفها عقيدة وحركة منذ أول نشوئها في القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٣٦م وعن رؤيته للقومية. (.. فإنه لم يكن يقصد بها مجرد الانتساب السلبي إلى قوم، ولا مجرد الوعي الجزئي لفريق من العرب في بعض ديارهم بتأثير ظروف خاصة، لكن كان ينادي بالعروبة الجامعة على أساس أن العرب مسلمين ومسيحيين، هم غير الترك وإنهم بلغتهم الغنية وتاريخهم العريق المفعم بالمفاخر الذي أخذ يبدو جليا من جديد، وأدبهم الرفيع الذي انبعث جديدا أحرياء بأن يكون لهم كيانهم القومي الخاص بهم، المستقل عن أية قوة أخرى خارجية غير عربية).
نبيل راغب: موسوعة الفكر القومي العربي ج١ ص٣٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب بدون رقم للطبعة، سنة ١٩٨٨م.

الجمعية - والتي كان من أعضائها - (غيرهما - إيلي سميث، وكونيلوس فانديك، وعدة أعضاء آخرين من الأمريكان، وانتسب إليها رجل إنجليزي، كان يقيم ببلاد الشام، هو الكولونيل تشرشل المشهور، و لم يمض عامان على تأسيسها حتى بلغ أعضاؤها خمسين عضوا أكثرهم من النصارى السوريين المقيمين في بيروت، و لم يكن فيها عضو مسلم، أو درزي، وكانت لها مكتبة صغيرة، ولكنها كبيرة النفع، وكانت هذه الجمعية هي الأولى من نوعها في بلاد الشام والعالم العربي، داعية للقومية العربية.

٢- إبراهيم اليازجي
(١٨٤٧ - ١٩٠٦م)

الشخصية الثانية - التي قدمتها الهلال - ضمن رواد القومية العربية في الوطن العربي - أفردت له صدر أحد أعدادها (١) في السنة الخامسة عشرة

- فمن هو الشيخ إبراهيم اليازجي ؟

كان من الرواد العظام، الذين قادوا حركة اليقظة العربية الحديثة في النصف الثاني من القرن الماضي، فقد راعهم ما تزخر به كتب الأدب والتاريخ، من صور أخاذة تمثل عظمة أمتهم فأخذوا على عاتقهم مهمة بعث الحياة في هذه الأمة، عن طريق نشر مفاخرها، وإيقاد جذوة الوعي القومي، منادين بالعروبة الجامعة التي تحققت بفضل حركة أدباء بلاد الشام ومفكريها، الذين أخذوا يشعون من حولهم ويكونون فئة - وإن كانت قليلة العدد - لكن أثرها الفكري، والاجتماعي، والثقافي، كان أعظم بكثير من قيمتها العددية - وكان يقف إبراهيم اليازجي، وأبوه ناصيف اليازجي في طليعتها - واللذين قادا حركة فكرية سلاحها القلم واللسان - وساحتها العقول والضمائر، وهدفها الإصلاح القومي، ولذلك اعتبرهما

(١) مجلة الهلال العدد الصادر في ١/ ٢/ ١٩٠٧م ص١٥ افتتاحية العدد.

معظم مؤرخي القومية المنبع الأول لليقظة العربية الحديثة.

ولعل أخلد آثار هذه الدعوة هي قصيدة إبراهيم اليازجي التي مطلعها:

تنبهوا واستفيقـوا أيها العرب فقد ... طمى الخطب حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمـال تخدعكم ... وأنتم بين راحات القنا سلب
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم ... تستغضبون فلا يبدو لكم غضب
بالله ياقومنا هبوا لشـأنكم ... فكم تناديكم الأسفار والخطب

ثم يسجل صاحب موسوعة الفكر القومي العربي تعليقه فيقول [1]:

ولنا أن نتخيل أثر هذه القصيدة في مشاعر العرب في ذلك الوقت، الذي كانت فيه القصيدة السياسية، جهازا إعلاميًا قوميًا، متنقلاً سواء في العلن أو في السر، ولكن شجاعة اليازجي - هي التي جعلته يقول مؤكدًا على الرابطة القومية:

فيالقومي وما قومي سوى عرب ... ولن يضيع فيهم ذلك النسب

إن هذه القصيدة كانت بمثابة منشور سياسي سرى، يتبادله أعضاء الجمعية العلمية السورية، التي أنشئت في تلك الفترة مع بعض الجمعيات السرية، التي نادت بمنح سورية الاستقلال متحدة مع جبل لبنان، اتخذ القوميون من هذه القصيدة مزامير صلواتهم ينشدونها في كل ناد.

٣- عبد الرحمن الكواكبي

الشخصية الثالثة التي عني الهلال بتسليط أضوائه عليها وتقديمها لقرائه تقول:

كان همه منصوبًا على خدمة الوطن ونشر المبادئ الصحيحة فيه بالتأليف والتلقين، بعد أن قضى معظم العمر، في خدمة الحكومة العثمانية - وقاسى - أمورًا كثيرة من وشايات ذوي الأغراض، فلم يلق تربة تصلح لغرس مبادئه، فجاء إلى مصر ونشر بعض كتبه فعاجله الأجل فمضى ومعه أمانيه.

وعن أعماله: تقول كان له ميلاً منذ حداثته، على صناعة القلم فاشتغل في تحرير

(١) نبيل راغب، موسوعة الفكر القومي العربي، ج٢ ص٢٨٠.

«الفرات» جريدة كانت تصدر بحلب، باسم الحكومة، وهو في السابعة والعشرين من عمره - حررها خمس سنوات - أنشأ في أثنائها جريدة «الشهباء»، كان حب الإصلاح وحرية القول والفكر، بادين في كل عمل من أعماله، فلم يرق ذلك لبعض أرباب المناصب العليا، فوشوا به فتعمدت الحكومة حبسه ثم جردوه من أملاكه، فلم يفتر كل ذلك في عزيمته، فغادر وطنه وطلب بلاد الله فجاء مصر ثم خرج منها سائحا فطاف زنجبار، والحبشة، وأكثر شطوط شرق آسيا وغربيها، ثم رجع إلى مصر، كان بعيدا عن التعصب **يستأنس في مجلسه المسلم، والمسيحي، واليهودي على السواء !** لأنه يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة، رحمه الله ؟

ومن آخر جملة كتبتها الهلال:

يتبين لنا سر اهتمامها بتقديم تلك الشخصية، والتباكي عليها والانتصار لها، ذلك لأنها كما هو واضح من كلام المجلة - كان يعلي رابطة الوطنية ويرى دونها كل رابطة أخرى - وقد جاء في موسوعة الفكر القومي العربي [1]:

أنه يعد من رواد حركة التنوير العربي، فقد عاصر مرحلة انهيار الإمبراطورية العثمانية، ولمس بنفسه ما صنعه الحكم الفاسد في الأمة العربية على مدى خمسة قرون، إذ أنه عاش في الفترة ما بين عامي ١٨٥٤/ ١٩٠٢م ووجد أن أفضل أسلوب لإيقاظ الأمة العربية من غفلتها الطويلة - يتمثل في إشعاع الفكر القومي - لذلك أنشأ جريدته الشهباء ١٨٧٦م تندد بالظلم والظالمين وتدافع عن الضعفاء والمستعبدين، فألغتها الحكومة فانشأ الاعتدال ١٨٧٩م لكنها أيضا لم تستمر لنفس الأسباب الفكرية التي أوقفت الشهباء.

وأكبر إنجاز فكري قومي له يتمثل في كتابيه:

١- أم القرى: كتب على شكل نشرة دورية، حوت خمسا وعشرين مقالة خيالية، لمؤتمر عقد بمكة للتداول في أحوال المسلمين، وأسباب تأخرهم.

٢- طبائع الاستبداد: شجب عنيف للحكومة الاستبدادية معرفا الاستبداد بأنه

---

(١) مجلة الهلال السنة العاشرة ١٩٠٢م عدد ١٥/١٧.

اقتصار المرء على رأي نفسه في ما ينبغي الاستشارة فيه وهو من الصفات الرئيسية في الحكومة المطلقة المتصرفة في شؤون الرعية دون حساب توديه، ولا خضوع للمراقبة والتحقيق، ولا يقتصر الإستبداد على السياسة فقط بل يرتبط بالدين والعلم والمجد والأخلاق والتربية .. الخ، لذلك يحتاج المفكر والباحث لكي يتخلص منه إلماما بكل هذه المجالات حتى يستطيع اقتفاء أثره واقتلاع جذوره المتشعبة والراسخة.

غير أن الكتابة عن الكواكبي في العصر الحديث - في الحقيقة - غفلت عن جملة حقائق أساسية في حياته، ذلك أنه عندما جاء إلى مصر كان الخديوي عباس حلمي على خلاف مع الخليفة العثماني وكانت جريدة «المؤيد» التي يصدرها علي يوسف، لسان حال الخديوي أخذت تهاجم الدولة العثمانية وتدعو إلى خلافة عربية، وقد تأثر الكواكبي بهذا الاتجاه وحمل على الخليفة حملات شديدة في مقالاته التي جمعت تحت اسم (طبائع الاستبداد).

لكن الكواكبي على كل حال كان على خلاف شديد مع مفهوم الجامعة الإسلامية الذي دعا إليه السلطان عبد الحميد، وكانت تغلب عليه روح القومية التي سرت آنذاك، فكانت دعوته إلى خلافة عربية - موضع أمل خصوم الإسلام من المارونيين والمستعمرين، لذلك فقد تلقفوا أفكاره، وأذاعوا بها واعتبروها مصدرا يعتمدون عليه في هدفهم غير المعلن لهدم الخلافة الإسلامية.

وهذا ما سجله السيد رشيد رضا في ترجمته للكواكبي يقول:

لقد كانت أفكار الكواكبي السياسية مبنية على قواعد فيها من اليأس من الدولة العلية، و لم يكن يريد أن يكون الخليفة القرشي الذي يخلف الخليفة التركي سلطانا حاكما سائسا للعرب أو لغيرهم، وإنما كان رأيه أن يكون رئيسا دينيا ينظر في مصالح الحالين الروحية والأدبية وترقيتها) وبهذا المعنى يكون الكواكبي - غير أصيل الإنتماء الإسلامي وإنما كان متأثرا بفكرة البابوية المسيحية ولهذا عني به كتاب التغريب والشعوبيون والماركسيون في السنوات الأخيرة وأشادوا به [1].

---

(١) أنور الجندي مرجع سابق ص٤٨٥.

وعلى هذا فإن أخطر أمر في هذا الكتاب - أم القرى:

دعوة المؤلف في آخره، لأول مرة في تاريخ الإسلام والمسلمين، إلى فصل الخلافة عن السلطنة، مقترحا جعل الخلافة في العرب والسلطنة في الترك.

داعيا لنقل الخلافة للعرب، لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لتجديد حياة العثمانيين السياسية، ورسم اختصاصات هذا الخليفة، فحصرها في شؤون السياسة العامة الدينية، فليس من حقه أن يتدخل في شيء من الشؤون السياسية، والإدارية، في السلطنات والإمارات، لكنه يصدق على تولية السلاطين، والأمراء، احتراما للشرع، ويذكر اسمه في الخطبة قبل أسماء السلاطين، ولا يذكر في المسكوكات.

وهو يتولى بعد ذلك رياسة هيئة شورى إسلامية، تنعقد مدة شهر في كل سنة، قبيل موسم الحج في مكة على أن ينتخب الخليفة ويجدد هذا الانتخاب كل ثلاث سنوات، ويستحسن أن يكون الخليفة قرشيا.

ولكن هذه الآراء لم تخل من إشارات مريبة إلى موالاة الدول الأوربية المستعمرة، مثل ما جاء في تحديد وظائف الشورى العامة التي لا تخرج عن تمحيص أمهات المسائل الدينية، حين ضرب أمثلة لهذه المسائل، فقال (.. **وكفتح أبواب حسن الطاعة للحكومات العادلة، والاستفادة من إرشاداتها، وإن كانت غير مسلمة، وسد أبواب الانقياد المطلق ولو لمثل عمر بن الخطاب**) !

ثم يقول (والغالب أن الدول المسيحية التي لها رعاياها من المسلمين أو المجاورة للمسلمين، تتحذر من أن يجر جمع الكلمة الدينية إلى رابطة سياسية تولد حربا دينية **فما هو التدبير ؟**

يقول مطمئنا هذه الدول (.. ولدى رجال السياسة دليل مهم آخر على أن أصل الإسلام لا يستلزم الوحشة بين المسلمين وغيرهم، بل يستلزم الألفة، وذلك بأن العرب أينما حلوا من البلاد جذبوا أهلها، بحسن القدوة، كما أنهم لم ينفروا من الأمم التي حلت بلادهم وحكمتهم، فلم يهاجروا منها، كعدن، وتونس، ومصر، بخلاف الأتراك، بل يعتبرون دخولهم تحت سلطة غيرهم من حكم الله لأنهم يذعنون بقوله سبحانه ﴿**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾ (١).

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٤٠.

ولكن الناظر في كلامه هذا يرى ما فيه من تودد إلى الدول المستعمرة، ومن تهوين لوقوع الأمم الإسلامية تحت حكمهم، وإسقاط فريضة الجهاد بعد أن فسرها تفسيرا جديدا غريبا، كما تريه الصلة الواضحة بين كلامه هذا وبين كلام مستر بلانت في كتابه (مستقبل الإسلام) الذي دعا فيه إلى نقل الخلافة للعرب [١].

٤- رفاعة الطهطاوي

صدرت الهلال أحد أعداد سنتها [٢] الثالثة وتحت بابها الشهير (أعظم الرجال) بالحديث عن (العالم العلامة السيد رفاعة بك بن بدوي بن علي بن محمد بن رافع... بن الحسين بن فاطمة الزهراء) المولود بطهطا ١٢١٦هـ، تلقى علومه الأولية بفرشوط وطهطا - حفظ القرآن الكريم، وكثيراً من المتون المتداولة ... ثم توفي والده، فجاء رفاعة إلى القاهرة، منتظما في سلك الطلبة بالجامع الأزهر ١٢٣٢هـ، ولم تمضي عليه بضع سنين حتى صار من الأعلام في الفقه، والحديث، وسائر علوم المعقول والمنقول، قضى ثمان سنوات بمجاورة الأزهر، ثم تعين إماما في بعض آليات الجند، وما لبث أن سافرت بعثة مصرية، من الشبان لتلقي العلوم الحديثة بفرنسا فعين الطهطاوي إماما لها في الوعظ والصلاة وهناك عكف الطهطاوي على درس اللغة الفرنسية من تلقاء نفسه، فأتقن التاريخ، والجغرافيا، وعلوما أخرى، وترجم كتاب (قلائد المفاخر في غرائب عوائد الأوائل والأخير) وغيره، وفي سنة ١٢٤٧هـ عاد إلى الديار المصرية فولاه محمد على منصب الترجمة في المدرسة الطبية التي انشأها في ١٢٤٢هـ برئاسة كلوت بك، **وهنا لا يفوت جرجي زيدان أن ينوه بفضل رفقاءه** من نصارى الشام، يقول وكان متوليا قسم الترجمة قبل يوحنا عنجوري صاحب الخدمات الجليلة - وأنشأ الطهطاوي أول جريدة عربية في سائر المشرق وهي «الوقائع المصرية» ١٢٤٨هـ، وفي ١٢٥١هـ

---

(١) د/ محمد محمد حسين، أزمة العصر، مؤسسة الرسالة ط٢ سنة ١٩٨٥م.
(٢) مجلة الهلال العدد الصادر في ١٥/ ٢/ ١٨٩٥م - أعظم الرجال.

افتتح المغفور له – عزيز مصر – مدرسة الألسن وسميت عند فتحها مدرسة الترجمة فقام بإدارتها واختار لها التلامذة من مدارس الأرياف بسائر جهات القطر، وفي ١٢٥٨هـ تشكل قلم الترجمة من أول فرقة خرجت من مدرسة الألسن، وتقلد في الرتب والمناصب حتى نال مرتبة أميرالاي وسمي رفاعة بك، وتنقل بين الخرطوم والقاهرة حتى تولى إدارة جريدة «روضة المدارس» ١٢٩٠هـ وقد ملأ الديار المصرية من المترجمين والأساتذة والمهندسين وغيرهم.

وكان في أوائل حياته إلى أن عاد من الديار الإفرنجية، يلبس اللباس العربي الخاص، الجبة، والعمامة، والقفطان، ثم بدله باللباس الإفرنجي المشهور، وله مؤلفاته العديدة:

١– خلاصة الإبريز، والديوان النفيس، بها خلاصة رحلته لفرنسا عوائدها، وأخلاقها، وأزيائها، وآثار التمدن الحديث بها، حازت القبول لدى محمد علي باشا حتى أمر أن تتلى في قصوره، ثم أمر بطبعها وتفريقها في الدواوين وبين الوجهاء والأعيان !

٢– المرشد الأمين في تربية الأولاد والبنين – مجلد واحد ألفه للتعليم في مدرسة البنات وله غيرهما ما يربو على خمسة عشر مؤلفا.

وهكذا قدمت الهلال – رفاعة الطهطاوي – باعتباره أول مفكر قومي عربي، حاول القيام بعملية انفتاح فكري للثقافة العربية، على الفكر الغربي، فلم تكن مهمته مجرد إقتباس من الفكر الغربي، بل قام بتحليل الإتجاهات التي لمسها بنفسه في الثقافة الفرنسية، من خلال المفاهيم العربية التي تحتوي على المعاني والقيم ذاتها، حتى تكون محببة إلى القارئ العربي. وقد بلغ وعيه الكبير المتعمق أنه لم يشوه الفكر العربي أو الفكر الفرنسي. بل أوجد بينهما قنطرة موضوعية تحمل فوقها اجتهادات الأخذ والعطاء، لذلك استطاع أن يحول إعجابه بالثقافة والسياسة الفرنسية إلى مادة مشوقة لمواطنيه.

ولقد كان الطهطاوي رائدا أيضا في موقفه من مفهوم القومية، فقد كان الوعي السياسي في العالم الإسلامي حتى عصر الطهطاوي، نابعا من تقسيم الأفراد

المقيمين في الدولة الإسلامية وفق أديانهم ومذاهبهم الدينية، لكن الطهطاوي أدرك بحسه وثقافته وفكره أن الوعي السياسي الحديث يتخذ، من معيار الإنتماء القومي أساسا لتحديد موقف المواطنين من الدولة، فكانت ريادته في التأكيد على هذا المعيار الذي يجعل أبناء الوطن الواحد إخوة في القومية، بصرف النظر عن اختلافهم في الدين، لذا فقد شرح في عبارتين المفهوم السياسي لكلمتي الوطن والملة، يقول: (أبناء الوطن، متحدون دائما في اللسان، والدخول تحت استرعاء ملك واحد، وعوائدها متحدة، ومنقادة غالبا لأحكام واحدة، ودولة واحدة).

ويتضح من هاتين العبارتين أن الطهطاوي يدرك تماما أن أبناء اللسان الواحد يكونون ملة واحدة أو أمة واحدة، وأن مصر جزء لا يتجزأ من العالم العربي.

لكن هذه القضايا القومية، لم تكن محل جدل أو بحث في ذلك الوقت لأن العالم العربي كان يشكل وحدة سياسية مترابطة تحت ظل الحكم العثماني.

لذلك ركز الطهطاوي نشاطه القومي على بناء الإنسان العربي ومن ثم التحق بركب الريادة رائدا للقومية العربي عندما كرس حياته لخدمة الإنسان العربي عقلا ووجدانا ونضجا حضاريا (١).

غير أن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن فور الانتهاء من هذا التقديم للطهطاوي. **من هو ؟** وما هو الوجه الآخر له الذي أدى به إلى أن يعتبر رائدا فكريا، وثقافيا، وقوميا للمجتمع العربي، أتى بأفكار جديدة بقيت زمانا طويلا يتحاشاها الكتاب والمفكرون حتى الذين ذهبوا بعد رفاعة الطهطاوي إلى أوربا بأجيال (٢).

تأتي خطورة الطهطاوي في أن ما نقله من أفكار عقب عودته من البعثة، لم يكن سوى صدى لتفكير القرن الثامن عشر بأوربا، وفي فرنسا الثائرة بوجه خاص، وهي آراء تظهر للمرة الأولى في المجتمع الإسلامي، ربما رددها عن حسن قصد، دون أن يسبر أغوارها البعيدة، ولكنه على كل حال قد وضع البذور التي تعهدها من جاء بعده بالسقي والرعاية، حتى نمت، وضربت جذورها في الأرض، للمرة

---

(١) نبيل راغب، موسوعة الفكر القومي ج٢ ص٥٧-٦٢.
(٢) فتحي رضوان، دور العمائم في تاريخ مصر الحديث، الزهراء لإعلام العربي ط١ ص٣٤.

الأولى في البيئة الإسلامية، نجد كلاما عن الوطن، والوطنية، وحب الوطن، بالمعنى القومي الحديث في أوربا الذي يقوم على التعصب لمساحة محدودة من الأرض يراد اتخاذها وحدة وجودية، يرتبط تاريخها القديم بتاريخها المعاصر، ليكونا وحدة متكاملة ذات شخصية مستقلة تميزها عن غيرها من بلاد المسلمين وغير المسلمين،وللمرة الأولى: نجد اهتماما بالتاريخ القديم يوجه لتدعيم هذا المفهوم الوطني الجديد ففي كتاب (مناهج الألباب) يقدم الطهطاوي صورا مختلفة لمجد مصر في عهد الفراعنة منشورة في مواضع متفرقة من الكتاب، تساق في أسلوب الفخر والاعتزاز فعندما يتكلم - مثلا - عن ضرر البطالة يقدم صورة من نشاط المجتمع الفرعوني القديم الذي يتجلي فيه ما خلفوه من آثار ضخمة ويتكلم عن التماثيل التي تصور الكسل في صورة بغيضة، والتي كانوا ينصبونها في الميادين العامة، ويشيد بتقدم مصر وغناها وامتيازها في المعارف، على عهد الفراعنة ثم يقول [1] (.. ومنه يعلم أنه كان بمصر إذ ذاك أحكام عادلة وقوانين مرتبة وحدود مشروعة خالية من الأغراض والنفسانيات) هذا الاتجاه الذي اختص به الطهطاوي - هو أثر من آثار الحضارة الغربية وتصورها للوطن الجامع لمصالح ساكنيه على إختلاف أديانهم وأجناسهم، واقتباس من المجتمع الفرنسي بعد الثورة، الذي قضى على الرابطة الدينية وأقام مكانها ما سماه الطهطاوي (المنافع العمومية)، ومع أنه أدرك أن هذا المجتمع الثوري، يعادي الكنيسة ويحقر رجال الدين، ويصرح بهذا في تلخيص الإبريز حين قال (.. يقول الفرنساوية إن سائر تعبدات الأديان التي لا نعرف حكمتها، من البدع والأوهام، ولا يعظون القسوس في هذه البلاد إلا في الكنائس عندما يذهب إليهم، ولا يسأل عنهم أبدا. فكأنهم ليسوا إلا أعداء للأنوار والمعارف) مع إدراك الطهطاوي لذلك كله، فإنه لم يستطع أن يدرك الأغوار البعيدة وراء نقل مثل هذه الأفكار للمجتمع الإسلامي، وكيف أنها يمكن أن تنتهي به إلى النتيجة نفسها، **نبذ الدين، وتسفيه رجاله، والخروج على حدوده، لم يدرك ذلك كله ولم يلاحظ إلا الجانب البراق** الذي يأخذ نظر المحروم من الحرية، حين

---

(١) محمد محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، المكتب الإسلامي ط١ ص٢١ سنة ١٩٧٩م.

يراها تمارس في مختلف صورها، وألوانها، وفي أوسع حدودها.

بل إن الطهطاوي رفع دعوة خطيرة ضمنها كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين) المطبوع سنة ١٨٧٢م ذهب فيها إلى أن مدنية أوربا الحديثة التي تقوم على العقل تحقق نفس النتائج التي تهدي إليها مدنية الدين فقال (.. ومن زاول علم أصول الفقه، وفقه ما اشتمل عليه من الضوابط والقواعد، جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية التي وصلت إليها عقول أهالي باقي الأمم المتمدنة، وجعلوها أساسا لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم، قل أن تخرج عن تلك الأصول التي بنيت عليها الفروع الفقهية فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه، يشبه ما يسمى عندهم بالحقوق الطبيعية وهو عبارة عن قواعد عقلية، تحسينا وتقبيحا، يؤسسون عليها أحكامهم المدنية، وما نسميه العدل والإحسان، يعبرون عنه بالحرية والتسوية، وما يتمسك به أهل الإسلام من محبة الدين والتولع بحمايته، يسمونه محبة الوطن ..) بل إنه يقول في كتابه تخليص الإبريز: (... والقانون الذي يمشي عليه الفرنساوية الآن، ويتخذونه أساسا لسياستهم، هو القانون الذي ألفه ملكهم لويز الثامن عشر، ولا زال متبعا عندهم، وفيه أمور لا ينكر ذوو العقول أنها من باب العدل .. وإن كان غالب ما فيه ليس من كتاب الله تعالى ولا من سنة رسول الله ﷺ، لتعرف كيف حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب راحة العباد ..)[1].

وهكذا مهد الطهطاوي من حيث لا يدري - أو من حيث يدري لقبول التشريع الوضعي الذي يستند إلى العقل - على قصوره، وعلى مخالطة الشهوات له)

وهكذا: فإن رفاعة لم يستطع أن يتعمق في الفكر الغربي، ويتبين انحرافه وفساده، فقد خدع إذ ظن أنه هو الفكر الإسلامي وهو كذلك من بعض جوانبه (القانون الذي أخذه نابليون من مذهب مالك) لكن الغربيين أخضعوه لأوهامهم وأدخلوا إليه إباحة الزنا والربا) ولذلك فقد وقع في أخطاء كثيرة، منها تنازلاته بالنسبة للهجة العامية على حساب الفصحى، كما كانت ترجماته للفكر الغربي مطلقة وكان يجب أن تحاط بسياج من التعريف والتحذير[2].

(١) محمد محمد حسين، الإسلام زالحضارة الغربية ص٣٠، ٣١.
(٢) أنور الجندي، إعادة النظر في كتابات العصريين، مرجع سابق ص١١.

٥- شبلي شميل

اهتمت الهلال اهتماما بالغا كذلك[1] بنشر مقالات ودراسات هذا الرجل وتقديمه، والإشادة بفضله، والتنويه بفكره، وعطائه العلمي، وعقليته الثاقبة، وأن الغالب على الظن: أن اهتمامها بهذا الرجل لمنطلقاته الفكرية الخطيرة، التي ملأ بها أجواء المجتمع العربي في هذه الفترة - والتي ترتكز على المحاور الآتية:

١- حتمية الإصلاح السياسي، والاجتماعي، كخطوة هامة لإقامة بناء الأمة بمفهومها الحديث.

٢- فالأمة في نظره نسيج اجتماعي، وسياسي، واقتصادي، لا يتجزأ - وتهدف الثورات البشرية دائما إلى إيجاد حلول جذرية لمشكلات هذا النسيج تنتقل بها الأمة من عصر إلى عصر آخر، إذ لابد ان تأتي اللحظة التي يتم فيها تصحيح الأوضاع، سواء بالإصلاح التدريجي، أو بالتغيير الثوري.

٣- من هنا كانت نقمة شبلي شميل على الحكم العثماني، هي السمة المميزة لكل كتاباته السياسية، فهو يرى مأساة الأمة متجسدة في القرون الخمسة التي رزحت تحت نير هذا الحكم الاستبدادي المتعفن !

وفي محاولة تأليبه الجماهير العربية على خلافتها العثمانية - بعد اتهامها بالاستبداد والظلم نراه يقول: (... إن من ينتظر الإصلاح، عفوا من أية حكومة كانت، يجهل ولا شك نشوء الأمم والعمران، فالتاريخ يعلمنا أن الحكومات هي آخر من ندعي للإصلاح، وأن أوربا لم تبلغ مبلغها من التمدن، إلا بفضل رفع الرؤوس المطأطأة أمام حكامها، كما يؤمن شبلي شميل بأن روح التغيير إذا لم تكن كامنة في الجماهير، فمن المستحيل أن تصدر عن الحاكم من تلقاء نفسه، وبذلك كان شبلي أول مفكر عربي يفرق بين الإنقلاب العسكري والثورة القومية، فإن تغير الجهاز الحاكم إذا لم يصحبه ويواكبه، تغير في بناء الإنسان وفكره، فسيظل

---

(١) مجلة الهلال ١٥/ ١٠/ ١٨٩٤م، ١٥/ ٦/ ١٨٩٩م، ١/ ٢/ ١٩١٠م، ١/ ٤/ ١٩١١م، ١/٦/١٩١١م، ١/ ١/ ١٩١٣م.

تغييرا شكليا لا يمس جوهر الثورة الحقيقية، ذلك أن الثورة هي عبارة عن تخلص الجسم كله مما ثقلت وطأته عليه، طبيعيا قانونيا. هكذا يفسر شبلي شميل الثورة تفسيرا بيولوجيا حيث يشبهها بمقاومة الجسم الطبيعية للأمراض، ثم تختم الموسوعة كلامها، عن شبلي شميل بقولها: فكتاباته زاخرة بهذه النظرة العلمية المشعة، والمناهج الفكرية التقدمية (١).

وهكذا تتأكد هوية شبلي شميل القومية كما أوردت ذلك موسوعة الفكر القومي العربي – فضلا عن بعض المنطلقات الأخرى التي دفعت الهلال إلى الترجمة له وتقديم دراساته وأبحاثه على صفحاتها:

فقد حمل لواء الدعوة إلى الفلسفة المادية، وكان واحدا من دعاة التبشير والغزو الثقافي الذين أخرجتهم المعاهد التبشيرية، أو معاهد الإرساليات في لبنان، وقدموا إلى مصر من أجل العمل، وكان منطلقه هو مذهب دارون، وقد اختار له تفسير بخنسر وهو من غلاة الماديين، **ولم يقف شبلي عند حدود المذهب العلمي**، بل ذهب يطبقه على المجتمعات من خلال نظرية التطور المادية، التي تريد أن تفرض تفسيرا للفكر والمجتمع والحياة منطلقا من معارضة تامة للأديان والقيم والمثل التي صاغت النفس العربية الإسلامية، وقد كان هذا الاتجاه نحو هدم كل المقدرات مواليا ولاء استعماريا للنفوذ البريطاني في مصر، والأجنبي في البلاد العربية. ولم يكن داعيا إلى الحرية والإيمان بمقومات العرب أو ذاتيتهم، وكان طامعا في أن يضع هذه الأمة في أتون العالمية والأممية، لتنصهر فيه، مسخا غربيا لا هو عربي ولا هو غربي. مما يعد خيانة وطنية إذ يدعو إلى الأممية او العالمية، بينما كانت الحركة الوطنية هي السلاح الوحيد إزاء الاستعمار.

والخلاصة: أن الدكتور شبلي شميل، لم يكن متخصصا في العلوم الطبيعية ولكنه كان طبيبا، فرغم أن دارون نفسه صرح بأن الخالق نفخ نسمة الحياة في الحي الأول الذي تولدت منه الأحياء، لكن بخنر نفى ذلك (وتابعه شميل).

فقد كان مغاليا في نزعته في كراهيته الشرق والإسلام، والخلافة والدولة

---

(١) نبيل راغب – موسوعة الفكر العربي ج١ ص٩-١٣.

العثمانية، ومواليا شديد الموالاة للغرب والتغريب، وقد اختير ليحمل هذه الرسالة فانحصر همه في محاربة الغيبيات، محاولا أن يرمي بنقل مذهبه هذا إلى وضع أقدس المقدسات الدينية وسط علامة استفهام كبرى ؟

إذ لم يعد هناك أي معنى لمدلول كلمة: آدم، حواء، الجنة، الشجرة التي أكل منها آدم وحواء، بل حتى الخطيئة (حسب اعتقاد النصارى) **مع أن شبلي كان نصرانيا** ؟ كل هذه المعاني المقدسة لم تعد موجودة بناء على المذهب الدراوني، أو هكذا أرادوا لها أن تختفي من حياة البشر لكي ينساق الجميع خلف الأوهام، والأكاذيب، اليهودية الماسونية.

الفصل الثالث

الشخصيات الاستعمارية
كيف قدمها جرجي زيدان إلى شباب الأمة

المبحث الأول
اللـورد كرومر

عهد الاحتلال بمصر:

تولى كرومر منصـــبه في مصر ممثلاً للدولة البريطانية فترة لا تقل عن ربع قرن (١٨٨٣-١٩٠٧م) ومما يؤثر عنه قولـه: (.. إن الساعين لإرجـاع مجد الإسـلام يحاولون أن يحيوا في القرن العشـرين المبادئ التي تكونت قبل أكثر من ألف سنة لقيادة أمـــة بدويــة في حالــة الفطرة، وأن من تلك المبـادئ مـا يخـالف الفكر العصري..).

وعندما قـامت الدعوة للجامعة الإســـلامية كتب في تقريره (١٩٠٦م) يقول: (إني واثـق من قوة أوربا واقتدارهـا عند الاقتضاء على تلافي هذه الحركـة من الجهة المادية، وإن تكن غير قادرة على ذلك من الوجهة الروحية ..)[1].

إن الترجمــة لمثل هـذا الرجل لا يمكـن بحال أن تصنف – في هـذه الفـترة – التي نتحدث عنها، تحت باب الدراسة التاريخية، أو الحديث عن مشهور من المشاهير – أو رجل من أعظم الرجال ! كما قدمته الهلال.

لكنه في حقيقـة الأمر يحمل موقف المجلة من واحـدة من أخطر قضايا المجتمع في ذلك العصـر. قضيـة الاحتلال الغاشـم الذي تكـابده البلاد – فيـاترى مـاذا كتبت الهـلال عن (اللورد كرومر – أو الاحتلال البريطـاني باعتباره ممثلا لـه (فهو عميد انكلترا بمصر – كما أطلقت عليه).

(١) أنور الجندي موسوعة مقدمات العلوم والمناهج مجلد رقم ٥ دار الأنصار ص٨٣ ط١٩٨٣م.

لقد صدرت عددها الثامن لسنتها الخامسة عشرة (1) بالحديث عنه تحت باب – أعظم الرجال – قائلة: (... وإن كانت عادتنا أن لا نترجم للأحياء، لكننا نعد الكلام عن – اللورد كرومر – من قبيل الكلام في تاريخ النهضة المصرية الأخيرة !! (علامة التعجب من المؤلف) – وهي مما يطول شرحه – فنكتفي بخلاصة ذلك، ونقابل بين ما كانت عليه مصر عام الاحتلال، وما صارت إليه الآن) – وأخذت تعدد أفضال كورمر .

• أفضال كرومر على مصر:

١– أوفدته حكومة انجلترا إلى مصـــر بلقب ســــــير، وسمته معتمداً سياسياً (١٨٨٣م) فقام بعزل السودان عن الحكومة المصرية، لأنها عثرة في سبيل إصلاحها، ثم قاد حملة مؤلفة من الجيش المصري والإنجليزي بقيادة كتشنر وأخفق العلمان الإنجليزي والمصري.

٢– بلغ من نفوذه في المجتمع المصري: ما سجله السير إدوارد وزير خارجية بريطانيا ردا على خطاب الاستعفاء الذي قدمه اللورد كرومر إليه في ١١/٤/ ١٩٠٧م حين قال (.. إن استعفاءه من الخدمة في مصر، أعظم خسارة شخصية تخســرها هذه البلاد (إنجلترا) والنجاح الذي أتمه في أوائل الاحتلال لا يكاد يصدق!!

(ولنتأمل إلى أي مدى كانت خطورة هذا الرجل والتدمير الذي ألحقه بالمجتمع – حتى أن وزير خارجية دولته لا يكاد يصدق الإنجازات التي أتمها قنصله في القاهرة ..).

٣– ثم انتقلت الهلال إلى بيان صفاته:

تقول (واسع الصدر، رقيق النظر، حازم، قوي الحجة، يحب أن يسمع أقوال مناظره، فإذا تحقق صواب رأي تمسك به وناضل عنه بحجة قوية، وهو نزيه حر الفكر، والقول، والفعل، مثل أكثر كبراء الإنجليز وعقلائهم).

---

(1) مجلة الهلال العدد الصادر في ١/ ٥/ ١٩٠٧م.

٤- أعماله وآثاره:

يعتبر (المستر - كليفورد لويد - (اللورد كرومر) أول مستشار إنجليزي شاطر النظار أعمالهم، وجاء بعده غيره، حتى صار لكل نظارة مستشار فضلاً عن المفتشين والقضاة وغيرهم على ما هو مشهور وكلهم يرجعون إلى مشورة اللورد كرومر.

الذي أطلقت انجلترا يده في تنفيذ الإصلاحات المطلوبة، وهو يرفع إليها كل عام تقريرا عما أتاه من الأعمال:

الإصلاحات الإدارية التي قام بها كرومر:

١. تنظيم الجيش وتدريبه على القواعد الإنجليزية.

٢. ترتيب درجات المستخدمين وتنظيم أعمالهم.

٣. تنظيم القضاء وإنشاء المحاكم الأهلية.

٤. تنظيم مصلحة الصحة العمومية. فقلت الوفيات وخفت الأمراض ويقال بالإجمال: إن الاحتلال أو عميده ضبط أعمال الحكومة المصرية وعود مستخدميها معرفة ما لهم، وما عليهم، فسارت الأعمال بنظام، فآل ذلك إلى ثقة الناس في الحكومة، وسلمت الحقوق وتوفرت الثروة في خزينة الحكومة، وفي أيدي الناس وحدثت نهضة مالية لم يسبق لها نظير.

٥- زادت ميزانية الحكومة: فبينما كانت في أول الاحتلال تتراوح بين ٨ - ٩ مليون جنيه فما زال ترتقي كل عام حتى زاد في العام الماضي (١٩٠٦م)على خمسة عشر مليونا مع تخفيض الضرائب.

٦- إنشاء بنوك زراعية للفلاحين لتخفيف أثقال الديون عليهم،

الإصلاحات الاجتماعية والأدبية كما يلي:

١- تنظيم شئون الحكومة وزيادة الأمن، واطمئنان الناس على أعمالهم في عهد الاحتلال، مما آل إلى زيادة الثروة، وتمتع الناس بمرافق الحياة والتنعم، بأسباب المدنية الحاضرة.

٢- انتشار روح الحرية الشخصية بين العامة، على اختلاف طبقاتهم بما تحققوه

من رغبة الحكومة في مساواة رعاياها بين يدي القانون.

٣- حرية المطبوعات: ومن قبيل الإصلاحات - إطلاق حرية المطبوعات - وقد كنا في أوائل الاحتلال، تحت مراقبة قلم المطبوعات القاضي بالتضييق على الكتاب، والناشرين بقانون سنة ١٨٨١م الذي ظل مرعيا بعد الإحتلال عشر سنوات، وقد أدركناه حينا وعملنا به حينا - نص كلام جرجي زيدان - فكتابنا - تاريخ مصر الحديث - لم نطبعه إلا بعد عرضه على قلم المطبوعات ونيل الإذن بطبعه، ودونّا ذلك على الصفحة الأولى منه - ومما اتفق لنا أننا لما عمدنا إلى إنشاء مطبعة - (التأليف - مطبعة الهلال -) قاسينا الأمرين في طلب الإذن -؟ وبعد أن دفعنا التأمين اللازم وأتينا بالضمانة، حسب الأصول، ونحن نتردد على قلم المطبوعات، ونسمع الوعود المؤجلة - اعتذر لنا وكيل ذلك القلم، وهو يأسف لعدم مصادقة ناظر الداخلية على صدور الإذن بإنشاء هذه المطبعة .؟

فلم نتمالك أن كتبنا إلى مدير قلم المطبوعات وهو يومئذ (البارون مالورتي !) في عهد الاحتلال: فكان جوابه على ذلك أن أرسل إلينا الرخصة المطلوبة حالا ؟!

(فلنتأمل كيف أن ناظر الداخلية رفض التصريح للهلال بمطبعتها - ولم يوافق عليها إلا من قبل البارون مالورتي - الأجنبي !!)

٤- تلوم الهلال - الصحافة المصرية - على تهورها وتطرفها في إستخدام الحرية التي منحت لها ضد مانحيها - والذين لولاهم لكانت مقيدة بسلاسل من حديد إذ تصرح الهلال بأنها كانت تود من اللورد تأجيل حرية الصحافة إلى ما بعد تعليم الأمة وتثقيفها، **لأن إطلاق الحرية، قبل الإستعداد لها لا يخلو من الخطر على أصحابها، إن لم يكن سياسيا فأدبيا.** لتمكن الصحف المتطرفة ! (تقصد الصحف الوطنية الإسلامية التي تحارب المحتلين) من التغرير بالأمة الجاهلة، والذهاب بها إلى مهاوي الضلال بالتسوية والتحريض تارة باسم الدين وطورا باسم الوطن، **(إنها منتهى العمالة للاحتلال !).**

٥- محاربة الكتاتيب الصغرى، لأنها لا تفيد الفائدة المطلوبة في هذه النهضة ! فالأمة بحاجة إلى تهذيب النفوس وتربية الرجال في المدارس العليا وتثقيف عقولهم

بـالعلوم العصرية الطبيعيـة والإجتماعية والتاريخيـة والفلسـفية حتـى يفهمو كنـه الوجود.

ونهاية، فلا يختلف اثنـان أن كرومر - أحسـن خدمة مصر إداريـا وماليا، وإنها مدينـة له بذلك، كما نشـرت الهلال [1] خطاب اللورد كرومر الذي ألقاه في حفلة وداعه بالقاهرة وضمنه خلاصة آرائه في مصر ورجالها وما حدث فيها من الإصلاح والتغيير ! وهو خطـاب في غاية الخطورة سـجل فيـه كرومر - ثنـاءه على الهيئات والأشخاص التي تعاونت معه وكان لها دور كبير في توطيد دعائم الاحتلال.

وبعد هذه الترجمـة التي قدمها - جرجى - للورد كرومر، والتي عكسـت موقفه من الاحتلال، وثنـاءه الكبير عليـه، وعلى إصلاحاتـه وآثاره العظيمـة التي خلفها في مصر ..!!

فإننا بحاجة قويـة إلى معرفة الوجه الآخـر في شخصية - كرومر التي حازت كل هذا الإعجاب لدى جرجى زيدان حتى جعله من أعظم الرجال.

فمن هو كرومر ولماذا جاء إلى مصر ؟

لقد حدد كرومر مهمتـه الكبرى الـتي جاء من أجلهـا في قوله (.. على الإنجليز مهمة كبرى هـي محاولة ربط مصر، بهم وصبغهـا بصبغتهم، أو الصبغة **التي ترضى فيمـا بعد أن تكـون البلاد جزءا لا يتجـزأ من الدولـة البريطانيـة**، كل هذا دون إثـارة إحدى الدول، ودون عنف، ودون إتخـاذ أجراءات قاسـية، لكن بهـدوء، صبر وأناة... وبالمصريين المتربين تربية أوربية)[2].

وكان أهم ما دعا إليه لتطبيق هذه الخطة:

١- القضاء على الإسلام دينا ودولة.

٢- القضاء على الوحدة الإسلامية - وقد وضح هدفه بعناية في قوله (إن مهمة الرجل الأبيـض الذي وضعته العناية الإلهيـة على رأس هذه البلاد (يقصد مصر) هو

---

(١) خطاب اللورد كرومر - مجلة الهلال في العدد الصادر - ١/ ٦/ ١٩٠٧م.

(٢) د/ سامي عزيز، الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال، دار الكتاب العربي ص٢٢٤.

تثبيت دعائم الحضارة لمسيحية إلى أقصى حد ممكن، بحيث تصبح هي الأساس في العلاقات بين الناس، وإن كان من الواجب - منعا للشكوك -! ألا يعمل على تنصير المسلمين، وأن يرعي من منصبه الرسمي، المظاهر الزائفة للدين الإسلامي، كالاحتفالات الدينية وما شابه ذلك) !

كرومر يشرح خطته التنصيرية:

فعندما بدأ حكمه في مصر:

شكاه المبشرون إلى الحكومة البريطانية بدعوى أنه يضيق عليهم ! فجمع المبشرين وقال لهم: هل تتصورون أنني يمكن أن أضيق عليكم ؟! ولكنكم تخطفون الأطفال من الشوارع، وتخطفون الرجال لتنصيرهم، فتستفزون المسلمين فيزدادون تمسكا بدينهم، ولكنني اتفقت مع شاب تخرج قريبا في مدرسة اللاهوت بلندن، ليضع سياسة تعليمية ستحقق جميع أهدافكم !

هكذا كانت سياسة كرومر، تعليمية، تحقق جميع أهداف المبشرين على مهل، ودون ضجة تثير الانتباه، وسوف نتأمل أثرا واحدا من أخطر الآثار التي خلفها وراءه - كرومر - في المجتمع المصري، ولا زال يتلظى بلهيبها ويكوى بنارها حتى الآن وهي:

السياسة التعليمية التي نفذها كرومر في وزارة المعارف المصرية ؟! ماذا صنع؟ لقد عين القسيس دنلوب مستشاراً لوزارة المعارف وأعطاه السلطة الفعلية الكاملة في وزارة المعارف المصرية الإسلامية ! فعمل دنلوب ما وسعه الجهد على ضرب الأزهر - موطن الخطر على كنيسة المسيح - فتركه على ما هو عليه - مستفيدا من حماقة نابليون .. ففتح دنلوب مدارس جديدة تعلم (العلوم الدنيوية) ولا تعلم الدين إلا تعليما هامشياً - مدتها أربع سنوات، يعين المتخرج منها فور تخرجه في دواوين الحكومة، براتب يبلغ أربع جنيهات كاملة - كانت تمثل ثروة ضخمة - بحيث كانت تكفي للحياة الكريمة في العاصمة ذاتها، أما خريج الأزهر الذي يقضي في الدراسة عشرين سنة من عمره، في بعض الأحيان، فلا يجد عملا، وإن وجد في

إقامة الشعائر في المسجد فبمائة وعشرين قرشا، تكفي لحياة ذليلة ضئيلة، وبعد أن كان الانتساب إلى الأزهر شرفًا تتسابق إليه الأسر لكي ينظر إليها بعين الإكبار والتبجيل، بدأت مفاهيمهم تتحول، بعدما رأوا من هذه السياسة الخبيثة ! فلم يعد يذهب إلى الأزهر إلا الفقـــراء الذين يعجزون عن دفع مصـــروفات المدارس الحديثة[1] أما خريجوا المدارس الحديثة فأولئك هم « الطبقة الجديدة » في المجتمع. الطبقة الصاعدة الذين يلوون ألسنتهم برطانة المستعمر، ويفاخرون بها ويحتضنهم المستعمر، ويؤدي عن طريقهم الدور المطلوب

خطة كرومر التعليمية بمصر:

لكن ما هي المناهج التي قررها السيد دنلوب ؟

أولاً: في مجال اللغة العربية: لغة القرآن الكريم - فقد طبق نصيحة الماركيز دفرين [2] التي ضمنها تقريره الذي دفعه للحكومة الإنجليزية - والتي تطالب بتعليم اللغة العامية، لأن الأولاد لا أمل في نجاح تهذيبهم ما داموا يتعلمون لغة القرآن الشريف !

فخطط دنلوب لقتلها والقضاء عليها. وبدأت الخطة بالمدرس: فبينما كان الراتب الذي يتقاضاه المدرسون من أصحاب المؤهلات العليا اثنتي عشر جنيها، كان مرتب مدرس اللغة العربية يتقاضى أربعة جنيهات فقط ! وكان لهذا الوضع انعكاساته على المدرسة وعلى المجتمع، ففي المدرسة لم يعد مدرس اللغة العربية هو المقدم، بل أصبح في ذيل القافلة ! يتقدمه المدرسون جميعًا حتى ذوي المؤهلات المتوسطة، بل يتقدمه - في الراتب - حتى فراش المدرسة أحيانًا، إذا كان ذا أقدمية طويلة ! ومن ثم لم تعد له كلمة في المدرسة، فلا هو يستشار في شؤونها، ولم يعد له كذلك عند التلاميذ احترام، بينما يحظى مدرس اللغة الإنجليزية بأكبر قدر ممكن من الاحترام، أما في المجتمع الواسع: فهو أشد ضياعًا منه في المدرسة، فالناس جميعًا

---

(١) محمد قطب - واقعنا المعاصر - ط١ ص٢١٧ سنة ١٩٨٦م.
(٢) مجلة الهلال ١/ ٣/ ١٩٠٢م.

يعلمون وضعه المالي، ويعلمون أنه في ذيل القافلة، وإذا كانت العصا التي يحملها تخيف منه تلاميذه فيلتزمون بالأدب في درسه، فإن المجتمع في الخارج لا يخشى عصاه تلك، بل يتخذها مادة للتندر والسخرية، وحين يصبح مدرس اللغة العربية، في هذا الوضع المهين فإن وضعه يؤثر حتما على المادة التي يدرسها، فصارت اللغة العربية موضع الإزدراء والتحقير.

فالطلاب يشكون من صعوبة اللغة العربية نحوا وصرفا وأدبا. وقد ظلوا يعايشونها ثلاثة عشر قرنا قبل ذلك بلا شكوى، وكأنما اكتشفوا فجأة صعوبة، تصرفهم عنها صرفا، وقد انتهوا من ذلك إلى أن العناية باللغة العربية غير واجبة، بل ربما كانت غير جائزة ! **والكتاب** يشكون من جمود اللغة وعدم مرونتها، وعدم قدرتها على نقل المعاني و (ظلال المعاني) في طلاقة ويسر ورشاقة ! وكأنما الكتاب لم يصحبوا هذه اللغة ثلاثة عشر قرنا قبل ذلك، وعبرت عن خلجات نفوسهم كلها بغير عجز! فانصرفوا إلى دراسة آداب اللغات الأخرى وهجروا الأدب العربي !

وأصبح مترجموا العلوم، يشكون من أن اللغة العربية لغة غير علمية !! إن صلحت للأدب الرديء. فإنها لا تصلح للعلم. فهي جامدة معقدة – ولابد من اتخاذ اللغات الأجنبية – وبالذات الإنجليزية ! لدراسة العلوم – وللأسف فإن هذه النظرة لا زالت مترسخة حتى الآن، وينادي بها الكارهون للعربية، صارخين بها في وجه كل من يتحمس لتعريب العلوم، وهكذا صوبت السهام إلى اللغة من كل جانب، لكي تحقق الهدف المطلوب من ذلك التخطيط الخبيث ! فالمطلوب هو صرف الأمة عن تراثها كله، وعلى رأسه القرآن وانصرف الناس بالفعل عن قرآنهم، وتراثهم، بالتدريج فلم يعودوا يشعرون أنه هو الزاد – إلا من رحم ربك – إنما الزاد هو المكتوب بلغة السادة الغالبين !

أما درس الدين: فلا يقل سوءا في مناهج دنلوب – ذلك أن مدرس الدين هو نفسه مدرس اللغة العربية – لكن يزيد عليه أن أكبر المدرسين سنا هو الذي يوكل إليه تدريس الدين، بحجة إراحته من تعب تصحيح الدفاتر وحملها من المدرسة إلى

البيت والعكس ! كما توضع حصة الدين في نهاية الجدول المدرسي، أي في حالة ضجر التلاميذ وأعيائهم في نهاية اليوم الدراسي، وهم ينتظرون دق الجرس لينتقلوا إلى الشوارع وإلى البيوت. وهكذا يقترن درس الدين في نفوسهم بالعجز والضجر والضيق والرغبة في الإنفلات !

كما تم وضعه في المواد الإضافية التي تحذف في جدول الصيف المختصر! فضلا عن أن **درس الدين في منهج دنلوب:**

هو في الحقيقة رقعة في الثوب الدراسي غير متجانسة معه، إن لم تكن متنافرة. فهو ثوب علماني بحت، لا علاقة له بالدين على الإطلاق، على الطريقة الغربية اللادينية، التي فصلت الدين عن العلم وفصلته عن الحياة [1].

أما درس التاريخ الإسلامي: فإنه يقود إلى ترسيخ غرضين أساسيين في حس التلاميذ في ظل المنهج الدنلوبي هما:

١- أن الإسلام لم يَحْكُم إلا فترة قصيرة جدا في عهد الخلفاء الراشدين

٢- أن التاريخ الإسلامي - بعد صدر الإسلام - خال من كل القيم التي تقيم الحياة الإنسانية الصحيحة، وإنه عبارة عن عمليات دموية من أجل السلطان !

وبعد أن يفرَّغَ التاريخ الإسلامي من محتواه الحقيقي على هذا النحو يوجه التلاميذ إلى أوربا، فيقال لهم أوربا هي العلم ! أوربا هي الحضارة ! أوربا هي القيم ! أوربا هي الديمقراطية ! أوربا هي حقوق الإنسان ! أوربا هي التقدم الصناعي ! ويخفي عمدا فظائع الاستعمار الوحشية في كل مكان دنسته أقدام المستعمرين - وتخفي عمدا البواعث الصليبية للتحرك الأوربي نحو العالم الإسلامي، ويخفي عمدا الفساد الخلقي الآخذ في الانتشار في أوربا، وتخفي غلبة الروح المادية على تلك الحضارة وإطماس الروح.

وهكذا يقدم التاريخ – الإسلامي والأوربي: كاذبا من شقيه كليهما، وإذا كان هذا كله في المدرسة الدنلوبية الإبتدائية، فالمدرسة الثانوية تحوي هذه السموم كلها، ولكن بجرعة أكبر ! لنضج الطلاب وقدرتهم الأكثر على الاستيعاب،

---

(١) محمد قطب - واقعنا المعاصر ص٢٢٣.

وتأثرهم الأشد بجرعة السم، فتزداد الجرعة الأوربية التي تصور أوربا على أنها القمة السامقة الفريدة في تاريخ البشرية، وتلوي أعناق الطلاب لياً إليها مع الإعجاب المبهور الذي لا يدع للإنسان الفرصة لالتقاط أنفاسه (١).

وخلاصة: فقد استطاع كرومر في خلال الفترة الطويلة (١٨٨٣/ ١٩٠٧م) التي مكثها بالقاهرة أن يؤكد وجود النفوذ الغربي في مختلف جوانب الحياة الاجتماعيةوالسياسية، والتعليمية، والقانونية المصرية، وتمثل تقاريره فلسفة كاملة للتعامل بين النفوذ الاستعماري والمصرين وقد استطاع كرومر - ان يعد ركيزتين هامتين في سبيل دعم الاحتلال البريطاني والنفوذ الاستعماري كان لهما أثرهما البعيد بعد رحيله وإلى وقت بعيد هما:

١- وضع لطفي السيد على رأس صحيفة الجريدة، لسان حال حزب الأمة منذ عام ١٩٠٧/ ١٩١٤م ليبث يوميا فلسفة الاستعمار الإقليمية (٢).

٢- وضع سعد زغلول: على رأس نظارة المعارف تأكيدا للمعاني التي حرص النفوذ البريطاني على تحقيقها من خلال التربية والتعليم، وأهمها فرض اللغة الإنجليزية على مختلف مناهج التعليم ورفع مناهج القرآن، والتاريخ الإسلامي، والمفاهيم الأخلاقية والإجتماعية- وقد أشاد به - كرومر في خطابه الاخير بالقاهرة - يقول (إنه حائز لجميع الصفات اللازمة لخدمة بلاده فهو صادق مستقيم، شجاع فيما هو مقتنع به) (٣).

كما سجل - اللورد كرومر - في تقريره - لسنة ١٩٠٦م الذي قدمه للبرلمان الإنجليزي في إبريل ١٩٠٧م - أسباب اختيار أو تعيينه لسعد زغلول (.. بعد كلام طويل عن الوطنية المصرية) وصف في ختامه المدرسة الفكرية التي ينتمي إليها سعد زغلول، والتي سماها على سبيل الاختصار (مدرسة محمد عبده) بأن برنامجها يقوم على (التعاون مع الأوربين - لا معارضتهم في إدخال المدينة الأوربية إلى بلادهم) يقول كرومر بعد ذلك (إن اختيار سعد زغلول لمنصب وزير المعارف،

(١) السابق ٢٢٩.
(٢) أنور الجندي - موسوعة الفكر الإسلامي ص٤٦٣.
(٣) مجلة الهلال ١/ ٦/ ١٩٠٧م.

ليس إلا تنفيذا لسياسة ترمي إلى تأييد هذه المدرسة، ووضع مقاليد السلطة في يدها، ثم يقول (وسوف نراقب ما تتمخض عنه التجربة من آثار في عناية وانتباه، فإذا نجحت فسوف تملأ قدرا أكبر من المواقع لأبناء هذه المدرسة. أما إذا فشلت فستكون النتيجة الحتمية لذلك هي الاعتماد في شؤون الإصلاح على الأوربيين – على مدى أكبر –) [1].

وبعد أن فرغنا من بيان التخريب الذي قام به اللورد كرومر – في المجال التعليمي بهذا المنهج المدمر للشخصية الإسلامية، التي يتم تربيتها في المجتمع المصري وفقا لمنهج دنلوب.

كرومر وهدم القضاء الشرعي:

أنتقل إلى أحد الآثار العظيمة التي خلفها لنا اللورد كرومر – كما تزعم الهلال – وهي: تنظيم القضاء وإصلاحه وإنشاء المحاكم الأهلية ؟!

إن واقع الأمر أنه بعد قدوم الإحتلال الإنجليزي لمصر قام بعمل غاية في الخطورة، إذ عمل على قصر القضاء الشرعي الإسلامي على ما سمي «بالأحوال الشخصية».

أما بقية المعاملات الهامة، تجارية، مالية، زراعية، ونحوها، فقد أحالوها إلى القانون الفرنسي المطبق في المحاكم المختلطة – وجعلوه مترجما بنصه – قانونا لما أسموه بالمحاكم الأهلية.

وبهذا الكيد السافر وقعت الأمة في إنفصالية خطيرة ومدمرة بين ما سمي «بالقضاء الشرعي» وما سمي «بالقضاء الأهلي» وما يستلزمه كل منهما من تشريع مختلف المصادر والوجهة، وكان من أخبث الوسائل التهوين وتسمية هذه المحاكم بالأهلية !

إن «الأهلي» يقع في مقابل «الأجنبي» فكأن هذه المحاكم وطنية أهلية، لا أثر

(١) كرومر لسنة ١٩٠٦م ص٨ نقلا عن واقعنا المعاصر ص٣١٢.

للأجنبي فيها، وربما كان فعلا معظم قضاتها من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ويحكمون باسم حكومة مصر، وفي غمرة الإسم والشكل والمظهر، أنسي الناس نوع الشريعة التي فرضت عليهم ليتحاكموا إليها، وأنها شريعة العدو، الغازي الكافر، وقد بلغت الغفلة مداها حين أدخلوا هذا الأمر على المسلمين تحت دعاوي الإصلاح التشريعي والقضائي !

الانفتاح على الحضارات:

إذا كانت الأمة قد انفتحت على الحضارات المحيطة بها في عصور الإسلام الأولى، وازدهرت العلوم والآداب، ونشطت حركة الترجمة حتى أنه أسست لها دار مستقلة (بيت الحكمة) على عهد المأمون، واتصلت الحضارة الإسلامية بغيرها من الحضارات. إذا كان قد حدث ذلك في الماضي فما السر في الهجوم الساحق على تكرار مثل هذا الانفتاح في الوقت الحاضر ؟

وهنا يتولى الإجابة على ذلك أحد كبار مفكري المسلمين في العصر الحاضر، فيقدم لنا الفرق بين الانفتاح، أو الاقتباس في الماضي، والانفتاح في الحاضر، مبينا أن الأخذ في الماضي قد تم على قاعدتين مهمتين:

١- أن الأمة لم تكن تشعر بالصغار والانكسار وهي تأخذ ما هي محتاجة إليه من حضارة أعدائها، بل كانت تحس بالإستعلاء، الناشئ عن الإيمان ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [1] فهم يشترون هذه البضاعة الحضارية ممن يملكها، دون أي خضوع روحي له ودون أي إكبار له، لأنه لا يستحق الإكبار وهو معرض عن دين الله عز وجل.

٢- أن الأمة - في حركة الأخذ هذه - لم تأخذ إلا ما كانت في حاجة إليه، فهي لم تأخذ كل ما عند أعدائها من التنظيمات، والأشكال المادية من الحضارة، فأسقطت المبادئ والنظم التي كانت لاصقة بها، لأن في دينهم الغنية عنها، بل هم مأمورون أمرا ألا يتخذوا شيئا منها، وإلا فهي ردة جاهلية، لا تستقيم مع الإسلام،

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٣٩.

فأما النظم السياسية والإقتصادية والإجتماعية فهي متصلة بالتشريع، والمسلمون منهيون نهيا جازما عن أخذ التشريع من عند غير الله جل وعلا.

وهكذا لا يأخذ المسلم من البضاعة الحضارية إلا ما يكون محتاجا إليه من الأمور التنظيمية، التي لا تفرض منهجا في السلوك، يخالف عقيدة المسلم، ومنهجه الرباني للحياة،

أما في حركة الأخذ الثانية: التي تمت في ظل الخواء الروحي والتخلف العقدي من ناحية – وفي ظل الغزو الفكري من ناحية أخرى، فقد انهارت الحواجز، ولم يعد «المسلمون» يفرقون بين ما ينبغي أخذه وما ينبغي تركه – فبينما تقدموا – ولا يزالون – بتقاعس تجاه التقدم العلمي والمادي، والناحية التنظيمية، وروح الجلد والصبر على العمل، والروح العملية في الدراسة والتنفيذ – التي كانت عند الغرب – نراهم سارعوا إلى الفساد فاستوعبوه كله، وعبوا منه عبا، كما سعوا إلى استيراد النظم وتقليدها، ضاربين صفحا تاما عما أنزل الله ! والنتيجة أن ظل التخلف العلمي، باقيا على نطاق واسع، كما اكتسح التحلل الخلقي العالم الإسلامي.

كرومر ومجلس شورى القوانين:

كما كان من المآثر العظيمة التي سجلتها الهلال [1] للورد كرومر، تشكيله مجلس شورى القوانين، **فما طبيعة هذا المجلس وحقيقته ؟**

لقد كان هذا المجلس في ظاهره «مجلس نيابي» لتعويد الشعب أن يحكم نفسه بنفسه ! وهذا ما يقدمه كرومر ليدلل به على بعد إنجلترا عن الأغراض الذاتية[2] وما كان الإنجليز حريصين قط – في أي بلد احتلوه – على أن يردوا السلطة للشعب الذي اغتصبوا حريته وأخضعوه لهم بالحديد والنار ! **إنما كان الهدف الحقيقي لهذا المجلس هو إصدار «قوانين» تحكم البلاد بدلا من الشريعة الإسلامية !** وما كان الاستعمار الصليبي – في مصر خاصة – يرغب أن يستقل

(١) مجلة الهلال ١/ ٥/ ١٩٠٧م – ترجمة اللورد كرومر.
(٢) السابق ص٤٦٢.

بسلطة إصدار القوانين المعارضة للشريعة الإسلامية رغم ما له من سلطان ؟ لأن مصر بلد الازهر الشريف، وبلد علماء الدين لعدة قرون، ومن الخير للاحتلال، أن تكون هناك سلطة شعبية، هي التي تعطي الشرعية لهذه القوانين المخالفة للشريعة فيكون الشعب هو الذي يصدر القوانين المخالفة للشريعة بمعرفته ورغبته ! وتكون سياسة الاستعمار هي التظاهر بالغضب والاستياء لأن الشعب يريد أن يفرض إرادته على المستعمرين ! وفي وسط هذه اللعبة تمر القوانين المطلوبة، كأنها كسب للشعب جاء رغم إرادة الاستعمار !

وكان للمجلس وكيلان أحدهما معين، والآخر منتخب، وكان الوكيل المنتخب هو سعد زغلول - فقد كان له في ذلك الوقت من الشهرة الشعبية ما يجعله ينتخب بسهولة في ذلك المكان. نعم هو الممثل الشعبي الذي يعبر - بمنصبه هذا - عن كون الشعب ممثلا في المجلس. ولكن أي شعب كان يمثله سعد، وهو يصوغ القوانين المعارضة للشريعة الإسلامية ويمنحها الشرعية ؟ هل هو شعب مصر المسلم، الذي ينبغي بمقتضى إسلامه - أن يتحاكم إلى شريعة الله ؟

وسعد بثقافته الأزهرية العربية الدينية، ليس بعيدا عن مجال الشريعة بل هي مجال دراسته في الأزهر، فأين ذهبت حساسيته للإسلام، حتى صار موضع فخره أنه هو الوكيل المنتخب، للمجلس الذي يصوغ «القوانين الوضعية» لتحكم الناس بدلاً من الشريعة الإسلامية [1].

وهكذا تتضح حقيقة موقف جرجى زيدان في مجلة الهلال من الاحتلال البريطاني من خلال هذا الحديث المستفيض والمطول عن - اللورد كرومر - عميد الدولة الإنجليزية بالقاهرة - ومآثره وأعماله الكثيرة، التي قدمها للبلاد المصرية، وحالة الأمن والاستقرار التي نعمت بها البلاد بعد مجيئه، والحال التي آلت إليها البلاد المصرية، عقب مجيء الاحتلال إليها، بالمقارنة بالفترة السابقة، وكيف عم الرخاء وزادت الثروة ونهضت البلاد نهضة عامة وشاملة في مختلف مجالات الحياة، وكيف أن رجال الاحتلال حريصين على أن يظلوا ببلادنا حتى يطمئنوا على

(١) محمد قطب - واقعنا المعاصر ص٣١٥.

قدرتنا على أن نحكم أنفسنا وأن نقوى على تسيير مصالحنا، بصورة لا تؤدي إلى الخلل والاضطراب ! وكيف أنهم أنشأوا لنا مجلس شورى القوانين: إقراراً للحياة النيابية التي نستطيع من خلالها أن نعبر عن مصالحنا واحتياجاتنا بصورة صحيحة عصرية !

جرجى زيدان يتهم عرابي والوطنية المصرية بقصر النظر:

بل إنه في حديث للمجلة عن أحمد عرابي والثورة العرابية: «بعد أن عنفت عرابي وخطأته على قيامه بالثورة وكيف أنه (.. بلغ من أمر العصاة - تقصد عرابي وصحبه من أبناء مصر العزيزة الغالية الذين هبوا في وجه الاحتلال - أن يقف زعيمهم عرابي بجنده وعدته، حول سراي عابدين، ويطلب تنفيذ اقتراحاته بالقوة) وكيف أنه أساء النظر في عواقب الأمور عندما قرر أن يقاوم الأسطول الإنجليزي والحكومة المصرية معا، ولكنه لعله اغتر بجنوده. ثم تنهي حديثها بقولها: «وعلى كل حال فقد انقضت تلك الحوادث، وإن لم تنفض عواقبها، وعما قليل يصل أحمد عرابي إلى القاهرة، ويرى من تبدل الأحوال ما لم يكن يخطر له على بال - ولا يزال الاحتلال قائما - تدعي المجلة أنه سيرى العدل سائدا والأمن منتشراً، والبلاد في غنى، والأمور في إنتظام، ويرى كلمة الإنجليز نافذة في مصر، ورايتهم تخفق بجانب العلم المصري في السودان، ويرى الأقلام قد أطلقت، وضعف شأن اللسان العربي في المدارس، وتعددت المطابع، وكثر المؤلفون، وتعددت الجرائد والمجلات - يرى قانون المطبوعات وقد أصبح نسيا منسيا، وأطلق سراح الأقلام ولا خطر منه على الأمن العام، وهو ما يتمناه لهذا القطر، وقد أتيح له أن يراه فنهنئه بما نال !!» [1].

هذا هو **موقف المجلة من الاحتلال في أوضح صورة وأجلى بيان** ولا يحتاج إلى تعليق ! ولم تقتصر مجلة الهلال في تحديد موقفها من الاحتلال - على ترجمتها لشخصية عميد إنكلترا بالقاهرة - اللورد كرومر - وبيان أفضاله ومآثره وخدماته

(١) مجلة الهلال العدد الصادر في ١/ ٦/ ١٩٠١م ص٤٩٣.

الجليلة على الشعب المصري.

فقد امتلأت أعدادها المختلفة بالحديث، عن إنكلترا وحضارتها ومدنيتها وتقدمها فنراها تحت عنوان أحد مقالاتها [1] - (حرية المطبوعات والصحافة المصرية) - فأخذت تفيض في بيان **أفضال الاحتلال على مصر**، بإطلاق سراح المطبوعات وكيف أن الصحافة أصبحت مباحة لكل كاتب، وأصبح كل إنسان مهما كان حاله من العلم أو الأدب، أو الغنى والفقر قادرا على إنشاء جريدة، أو مجلة بلا استئذان - بعد أن كانت البلاد واقعة تحت نير قانون المطبوعات ١٨٨١م الذي يحكم الأفئدة ويلجم الألسنة، بل إنها تبالغ إلى الحد الذي تعلن فيه - مستحسنة إحتلال مصر من قبل الإنجليز وتسلطهم عليها فتقول: (.. إن زمن خلاص هذه البلاد من الشرور والمصائب - لم يحن إلا بجلوس المرحوم توفيق باشا على أريكة الخديوية سنة ١٨٧٩م).

لماذا يثني جرجي زيدان والهلال على الخديوي توفيق ؟

في الحقيقة لأنه بلغ من ضعف شخصيته أنه أسلم زمام الأمور كلها للأجانب - ثم تواصل الهلال حديثها وتوصيفها لمجيء الإحتلال الإنجليزي إلى مصر فتقول: (.. أنه لما احتلت الحامية ! البريطانية البلاد سنة ١٨٨٢م كانت مصر حينئذ خير عليل عالجه طبيب) ثم تفيض المجلة في مدح الإنجليز وتعداد مآثرهم على البلاد: (..بأنها اتبعت سياسة مالية سديدة المبادئ، صحيحة الغايات واستخدمت رجالا من أحذق الأوربيين، وأبرعهم لإصلاح البلاد، مما لا يبقى لدينا معه استغراب لتقدم مصر الذي أدهش العالم بسرعته ..) [2].

كما كانت تقارير اللورد كرومر السنوية مادة خصبة وثرية للهلال [3] تستعرضها وتنبه إليها بصفة دائمة - فقد كان التقرير الذي يكتبه كرومر يرفعه إلى حكومته في لندن، هو الدستور الذي تهتدي بنبراسه حكومة الخديوي عباس حلمي في القاهرة.

---

(١) ١٥/ ٦/ ١٩٠٠ حرية المطبوعات.
(٢) الهلال الصادر في ١/ ٦/ ١٩٠٦م.
(٣) ١/ ١١/ ١٩٠٦م، ١/ ٥/ ١٩٠٧م، ١/ ٦/ ١٩٠٧م.

كما ترجمت الهلال لأعلام الحضارة الغربية بصفة عامة - في محاولات دعمها الخفي، للاحتلال فقدمت المستر غلادستون[١] رجل إنجلترا العظيم - كما أسمته، كما قدمت د. كلوت[٢] بك وقارنت بين ميكيافلي وابن خلدون[٣]، كما قدمت هربرت[٤] سبنسر - الفيلسوف الإنجليزي الكبير، كما قدمت أميل زولا القصاص[٥] الفرنسي الشهير، كما قدمت الدكتور جورج بوست مؤسس القسم الطبي بالكلية الأمريكة ببيروت [٦] كما ترجمت لملك إنجلترا إدوارد السابع الذي كان من أعظم [٧] أعماله وآثاره، أنه أدخل الجمعية الماسونية فقد ولد الولادة الماسونية على حد تعبير المجلة سنة ١٨٦٨م، وارتقى إلى أعلى درجاتها وتولى رئاستها ونشَّط أصحابها [٨].

و لم تقتصر الهلال على الترجمة للأعلام المحدثين في الحضارة الغربية بل إنها آلت على نفسها كذلك تقديم تراث هذه الحضارة وأعلامها القدامى أيضا. فنراها تنشر ترجمة فيثاغورس [٩] الفيلسوف اليوناني الشهير ٥٨٠/ ٥٠٠ ق.م، كما قدمت بحواره حول سيمون الفيلسوف الفرنسي الشهير (٨١٤/ ٨٩٦) [١٠]. كما نشرت في صدر أحد أعدادها (رواية شعرية تاريخية عاشت ثلاثين قرنا و لم يزدها الزمان إلا رفعة وثباتا نعني بها الإلياذة) [١١]. كما قدمت ترجمة وافية كذلك لجلالة ملكة إنجلترا [١٢] بمناسبة الإحتفال باليوبيل الماسي. لأنه من أعظم حوادث هذا العصر، وأخذت تفيض في شرح هذا الاحتفال، وبيان فخامته وأبهته وعظمته،

---

(١) ٦/ ١٨٩٨م.
(٢) ١/ ٢/ ١٨٩٤م.
(٣) ١/ ٢/ ١٩١٣م.
(٤) ١/ ٢/ ١٩٠٤م.
(٥) ١٥/ ١٠/ ١٩٠٢م.
(٦) عدد ١/ ١/ ١٩١٠م.
(٧) ١/ ٦/ ١٩١٠م.
(٨) الهلال الصادر في ١/ ٦/ ١٩١٠م، ج٩ س١٨ ص٥١٩.
(٩) ١/ ١٢/ ١٨٩٦م.
(١٠) الهلال ١٥/ ١/ ١٨٩٧م.
(١١) ١/ ٢/ ١٨٩٧م.
(١٢) الهلال ١/ ٨/ ١٨٩٧م.

وكيف أن الإنجليز في سائر المعمورة احتفلوا بعيد ملكتهم. وكان الاحتفال به في القاهرة بالغاً حد الإتقان، فأقيمت الصلاة صباحا في الكنيسة الإنجليزية ببولاق. ولما أزفت الصلاة، أقبل جناب اللورد كرومر بحلته الرسمية ونياشينه العالية، ومعه رجال الوكالة البريطانية، وأمامهم كوكبة من جنود الاحتلال، وقف يستقبل وكلاء الدول وقناصلها، وحضر مندوب الحضرة الخديوية الفخيمة، وحضرات النظار، وسعادة محافظ مصر، فاستقبلهم جميعا جناب اللورد، واحدا واحدا، ودخل بهم إلى الكنيسة، التي ازدحمت بأكابر الإنجليز والموظفين، والوطنيين، والنزلاء، وأقيمت الصلاة ثم وعظ جناب ألدين بنشر موعظة عدد فيها مناقب جلالة الملكة ومزايا حكمها، وشكر الله على النعم والخيرات التي تنعمت بها الشعوب الخاضعة لها مدة ملكها ..).

تعليق:

كما قدمت كذلك – من علماء الغرب – اسحاق نيوتن، إمام الفلاسفة وقدوة العلماء وكبير المكتشفين الذي مهد عقبات الطبيعة وذلل صعابها (١).

وأخيراً فإن الهلال ما فتئت تقوم بتقديم أعلام الحضارة الغربية من المفكرين، والقادة، والعلماء، والسياسيين الغربيين هادفة من وراء ذلك إلى بيان فضل الحضارة الغربية وتمدنها لكي تساهم بطريق غير مباشر – في إيجاد ظاهرة الانبهار بالفكر الغربي، والعلم الغربي، والفلسفة الغربية، ومتى حدث ذلك فإنه سيساهم بكل تأكيد في تخفيف – إن لم يكن منع تيار الحدة والعنف الذي يتنامى في وجه الاحتلال ويتمنى لحظة خروجه !

---

(١) مجلة الهلال العدد الصادر في ١/ ٩/ ١٨٩٧م ص٩٢٢.

المبحث الثاني
تيودور هرتسل

قدمت الهلال (1) هذه الشخصية على أنها صاحبة الدعوة الصهيونية - معرفة بها مثنية عليها تقول: رجل نمساوي شديد الغيرة على العنصر الإسرائيلي ألف كتاب «الوطن الإسرائيلي» ما لبث أن طبع في فيينا بالنمساوية، حتى نقل إلى الفرنسية، والإنجليزية، والعبرانية، وأعيد طبعه مرارا وراج رواجا عظيما، وحرك الهمم فوق ما كان يتوقع الناس منه، وبرغم معارضته، إلا أن المجارى الاجتماعية اقتضت ظهور ثمره، **لأن فكرة استعمار اليهود لفلسطين كانت قد نضجت واستعدت لها الأذهان وتاقت إليها النفوس !!.**

ثم شرحت الهلال خلاصة آراء هرتسل في ذلك الكتاب. وما جاء فيه أنه نظرا لازدياد أعداد الساميين وعجز اليهود عن مقاومتهم لنشئتهم في الأرض. فإنه يقترح إنشاء شركة يهودية اقتصادية رأسمالها (٥٠ مليون جنيه في لندن) على أن تقوم جمعية سياسية يهودية لإدارة أعمال هذه الشركة، على أن يكون من مهامها ابتياع فلسطين أو الأرجنتين «وقد عرضت بريطانيا أن تكون أوغندا موطنا لدولة اليهود»(2)، لكن عُدِلَ عن هذا الاقتراح، وحصر طلبه في استعمار فلسطين دون سواها، لعلمه أن الناس لا يساقون بمثل الشعائر الدينية واليهود هجروا فلسطين وقلوبهم في هيكل سليمان !

وفي عام ١٨٩٦م وقع بضعة آلاف من جمعية اليهود النمساوية على خطاب يطلبون فيه تأسيس جمعية يهودية في لندن، وعندما قامت بعض العقبات في وجه هرتسل صرح بأن الصهيونية تشمل السعي في إحياء شعائر الدين فضلا عن الاقتصاد والسياسة.

ثم دعا هرتسل الشعب اليهودي من أنحاء العالم المتمدن! إلى مؤتمر اجتمع في

---

(1) مجلة الهلال العدد الصادر في ١/ ١١/ ١٩١٣م.
(2) يوميات هرتزل ص٨٩ ترجمة أنيس صائغ نقلا عن إسماعيل ياغي ص٢٦.

باسل بسويسرا في ١٨٩٧م حضره أكثر من مائتي مفكر من مفكري اليهود من معظم أنحاء العالم، ولأول مرة في التاريخ اليهودي يهدف إلى إيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين، يضمنه القانون العام، وقرروا لذلك ثلاث وسائل:

١- إحياء الآداب العبرانية ونشرها.

٢- إنشاء مدارس لتعليم اللغة العبرانية.

٣- إنشاء مالية مشتركة لليهود.

وتنامت الدعوة لتأييد القرارات التي تمخض عنها المؤتمر، بنشر الكتب وإلقاء الخطب في اللغات العبرانية والألمانية، والفرنسية، والإنجليزية، وتضاعفت الجمعيات الصهيونية حتى بلغت ١١٥٠ جمعية في ١٨٩٨م وتقرر اعتبار اللغة العبرانية، هي لغة اليهود أينما وجدوا، «وتكمن أهمية هذا المؤتمر بأنه نقل الجهد الصيوني وعلى صعيد عالمي، إلى مرحلة جديدة، هي مرحلة العمل والإنشاء والإنجاز المتكامل، لترسيخ الوجود الصهيوني في فلسطين بالتعاون مع الدول الاستعمارية»[1].

ثم انعقد المؤتمر الثالث في باسل أيضا، وكانت أكثر أبحاثه في نيل امتياز من السلطان عبد الحميد ! لم يسفر عن نتيجة.

وهنا نجد التجاهل التام مع هذا الحدث الخطير الذي سجلته كل أقلام المؤرخين، باعتباره واحدا من أعظم مفاخر السلطان عبد الحميد ولكن لأن السيد جرجي زيدان لم يتخصص في غير مهاجمة السلطان عبد الحميد، واستفراغ كل جهده في تشويه سيرته وتلطيخ سمعته، فإنه لا يسمح للقارئ لمجلته - أن تصل معلومة صحيحة عن الخليفة والخلافة عن طريقه !

وتواصل الهلال ترجمتها للسيد هرتسل فتقول (... وتوالت المؤتمرات، الرابع في ١٩٠٠م والخامس في ١٩٠١م وفيه تقرر عقد مؤتمر عمومي كل سنتين - وتأليف دائرة معارف عبرانية، وفي مؤتمر ١٩٠٣م تقدر تخصيص مبلغ ٢٠٠ ألف جنيه لشراء أرض فلسطين فلما جاءت ١٩٠٤م توفي الدكتور هرتسل وانتخبوا مكانه د.

---

(١) أنيس صايغ، يوميات هرتزل، ص٨٩ بيروت ١٩٦٦م نقلا عن إسماعيل ياغي، الارهاب والعنف في الفكر الصهيوني، ص٢١ ط ١٩٨٦م.

نوردو رئيسـا، وانعقدت المؤتمرات حتى الحـادي عشـر ١٩١٣م برئاسـة الموسـيو ملسـن، وقد جـاء فيه أن الصهيونيـة سائرة علـى قدم النجاح وأن سـلامتها مرتبطة بسلامة الدولة العثمانية، لإتفاق المسئلتان اليهودية والعربية ! وقرر فيه إنشاء جامعة في أورشـليم لتعليـم العلوم العاليـة باللغة العبرانيـة .. وانتشـرت الدعـوة الصهيونية، بذلك في أنحـاء العـالم المتمدن إلى الصين واليابـان وتركسـتان .. فضـلا عن ممالك أوربـا وأمريكـا، وأصبح أنصارهـا يعدون بـالملايين، وهي مؤلفـة من أحزاب وفرق تتنافس سعيا في المصلحة العامة.

جرجى زيدان داعية الصهيونية:

فهي أشبه بدولـة ديمقراطية (*) منهـا، بجمعيـة سياسية، وإجتماعيـة وقد اتخذت أحسن المبادئ، مالكة أفضل السبل المؤدية إلى تقوية البدن، وتوسيع العقل فأفلحت مسـاعيها وأنشـأت بفلسطين، مستعمرات يهوديـة في أطيب أراضيها وأكثرت من المدارس والمزارع والجمعيات والمكـاتب – وأهم تلك المساعي – في نظرنا – إحياء اللغة العبرانية ! [١].

و لم تكتف الهلال بهـذا الفيض الغـامر من الثنـاء على الصهيونيـة ومؤسسـها د. هرتسـل وأن المستقبل لهم في فلسـطين، بل أخذت تبين – وبطريقـة غاية في الخبث والدهاء – أحوال فلسطين الإجتماعية، والاقتصادية والعلمية، فنراها وهي تتحدث عن الأحوال التعليمية مثلا: تبين ضعف فلسطين كسائر بلدان المملكة العثمانية، بل هو أضعـف في فلسـطين عما سـواها لاسيما القدس، ثم تبين فضل الأجانب فتقول (أما الأجانب فلهم بفلسطين مدارس كبرى لتعليم أهل تلك البلاد وتثقيف عقولهم وها هي أهمها:

١– دار الأيتـام السورية: أسسـها د. شنيلر الألمـاني ١٨٦٠م جمع لها المال من

(*) كيف ذلك ؟ مع أنها حركـة استعمارية تقوم علـى اسـتثمار الأرض واسـتيطانها بعد إخراج أهلهـا منها بالقوة، كيف ذلك وهي حركة عنصريـة دينية تقوم على مبادئ التوسع والعدوان والسيطرة وتلجأ إلى أساليب العنف وسفك الدماء ؟

(١) الهلال ١/ ١١/ ١٩١٣م ص٩٩.

المحسنين بألمانيا وأمريكا، وروسيا، وسويسرا، بها معامل للخزف ومصانع للحدادة، والنجارة وغيرها، بها قسم داخلي، وآخر خارجي، وبلغ عدد تلاميذها نحو ٧٥٠ تلميذا منهم خمسين فتاة و ٤٠٠ داخليون.

٢- مدرسة جوبات للإنجليز: يديرها أسقف إنجليزي اشتهر بفضله وتفانيه ! وهي من أحسن المدارس لتعليم اللغة الإنجليزية وآدابها.

أما اليهود: فلهم بفلسطين شأن خاص من حيث التعليم، فهم ينافسون الأمم الأخرى بأقوى عوامل المدنية، المال، العلم، الإتحاد، ولهم مدارس كثيرة بفلسطين بعضها على **النسق القديم**، تعلم التوراة والتلمود، (يعني تقوم بنفس مهمة الكتاتيب في مصر والتي طالب الإحتلال بإغلاقها، وكانت في مقدمة خطة كرومر لإصلاح مصر - كما أثنى عليها جرجى زيدان)، والبعض الآخر يعلم العلوم الحديثة.

تبلغ المدارس القديمة في القدس وحدها العشرات وتلاميذها نحو ٤٠٠٠ تلميذ كلهم يهود، وخارج القدس نحو عشرين مدرسة.

جرجى زيدان في زيارة ميدانية لكلية تل أبيب:

يقول: زرنا هذه المدرسة فأدهشنا نظامها، وهي تعلم العلوم العالية الطبيعية، والرياضة، فضلا عن التاريخ، والجغرافية، واللغات العبرانية، والفرنساوية، والتركية، وليس في سائر بلاد فلسطين بل في العربية، مدرسة كلية من هذا النوع، وقد أطلعنا رئيسها، على ما فيها من المعارض، والمعامل، وقاعة الجغرافية، بها الخرائط وعليها أسماء البلاد، والأنهار، والجبال، بالعبرانية. أنشأها رجل إسرائيلي غيور على أمته - (أما الزعيم أحمد عرابي ورجاله الشرفاء عندما يغارون على وطنهم فإن السيد جرجى يعتبرهم عصاة ومتمردين). فهي مثال لحياة الأمة اليهودية، ونهضتها العلمية، والإجتماعية، بإحياء اللغة التي كان يتكلمها آباء التوراة، في إبان مجدها - وليست هي الكلية الوحيدة، فقد شرعوا في أخرى بحيفا، منذ سنتين تحت رعاية ألمانيا التي ساعدت الجمعية حتى نالت الإذن الشاهاني بإنشائها [(١)].

(١) الهلال عددها الصادر في ١/ ٥/ ١٩١٤م ج٨ ص٦٠٣-٦٠٧.

وخلاصة لما سبق: تتجلى أمامنا عدة حقائق اشتمل عليها المقال:

١- الثناء والتعظيم - لهذه الشخصية التاريخية التي سببت للمسلمين أعظم كارثة تاريخية حلت بهم - تيودور هرتسل - ولا زالت تداعياتها السلبية وآثارها المدمرة تتواصل في الوطن العربي ممثلة في الصراع العربي الإسرائيلي الذي لا تزال تمثل أحد جراحات الأمة الكبرى التي لا زالت تنزف حتى الآن.

٢- عندما قدمت خلاصة لآراء هرتسل في كتابه (الدولة الصهيونية) وليس الوطن الإسرائيلي كما ادعت الهلال ! - ولم تبين أسباب تزايد العداء لليهود (*) في كافة أنحاء الأرض !! - وفي هذا تحيز واضح.

٣- كما قدمت الهلال في سبيل تأكيد حق الصهاينة في فلسطين.

الوعد الإلهي - وهو مجموعة من النصوص الواردة في العهد القديم - يدعي اليهود أنها - تؤكد أحقيتهم في فلسطين - أرض كنعان - دون أي مناقشة **من جانب السيد جرجي زيدان لهذه النصوص** - وهو الذي يظهر نفسه على أنه الرجل الموسوعي، الذي يحيط بكل شيء، حتى أنه لم ترد إليه رسالة واحدة من قارئ على صفحات مجلته - في أي فرع من فروع المعرفة إلا وتصدى للرد عليها ! فما الذي أسكته هذه الدعاوي التي يقدمها اليهود من الكتاب المقدس. على حد تعبيرهم !؟ اللهم إلا إذا كان مؤيداً لها وداعية إليها.

٤- في سبيل إلقاء الظلال على الوضع المتردي الذي تشهده فلسطين في عصره قام برحلة إليها. لخدمة القارئ في الظاهر، من خلال تقديم تقرير مفصل عن أوضاع فلسطين الاجتماعية والاقتصادية والعلمية، فنفى فيه أي فضل أو جهد

(*) ترجع بجمل أسباب تصاعد موجات العداء لليهود في أنحاء الأرض إلى سلوكهم العدواني قديما وحديثا في كل مجتمع حلوا به، وذلك بسبب رفض الجماعات اليهودية المتدينة الاندماج في المجتمع الروماني، ولاعتبارهم مسؤولين عن دم المسيح - في نظر النصارى - ولنشاطهم التجاري القائم على الربا الفاحش وسلوكهم الاستغلالي للشعوب، وأحقادهم عليها انطلاقا من عقائدهم المزيفةبأنهم أنقى أمم الأرض وأرقاها، ولذلك فقلما تمر فترة من الزمن إلا ورأيت اليهود يقومون بمذابح ضد غيرهم من الشعوب إذا ما واتتهم الفرصة، ويتبع ذلك ردود أفعال من الشعوب وهكذا، وكان آخر هذه المذابح التي جرت لليهود في أوربا في القرن التاسع عشر في العصر الحديث، مما ولد فكرة التخلص منهم وإجلاءهم عن أوربا، وإيجاد وطن لهم أو توصل اليهود إلى أن حل مشكلتهم في أرض الميعاد بفلسطين، نقلا عن إسماعيل، الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية ١٩-٢٠ الرياض ط١٩٨١م.

للعرب المقيمين بها. مما يفهم منه أو يوحى للقارئ، أنه لا سبيل إلى إصلاح فلسطين وعمرانها إلا من خلال الأجانب - الألمان واليهود لكثرة مدارسهم التي تعلم التوراة والتلمود والعلوم الحديثة- وتضم آلاف التلاميذ وعشرات المدارس ومئات المعلمين. كيف لا ؟ وهم يساهمون في القضاء على أحد أعضاء الثالوث المدمر - الجهل المرض الفقر !

٥- كما أن الواضح في الحقيقة: أن جرجي زيدان - رغم اعتناقه المذهب الماروني - أحد المذاهب المسيحية - إلا أننا نجده دائما يقف بجوار اليهود ويلتمس لهم الأعذار، ويتصدى للدفاع عنهم، بطرق مباشرة وغير مباشرة. فنراه مثلا ينفى عنهم أكثر من مرة تهمة (فطيرة عيد الفصح [1] التي تخلط بدماء بشرية !) مع إجماع أكثر العلماء والمحققين على ثبوتها.

٦- عند الحديث عن محاولة اليهود الحصول على إمتياز بفلسطين من السلطان عبد الحميد وهو الذي يعتبر واحدا من أعظم المفاخر التي تذكر للسلطان عبد الحميد - عندما عرضوا عليه ملايين الليرات الذهبية لسداد ديون الدولة العثمانية، ولخزانته الخاصة، لكنه سجل موقفه التاريخي الذي يمليه عليه دينه وإسلامه كخليفة للمسلمين ورفض بكل إباء هذا العرض بل ونهر قنصوه - زعيم اليهود في سلانيك الذي ذهب إليه لهذا العرض، - أقول لم تشر الهلال - الصليبية الماسونية - إلى هذا

(١) هذه القضية في عدة مواضع لمجلة الهلال عند حديثها عن عيد الفصح: في ١/ ٥/ ١٨٩٩م ص٤٦٨-٤٧٢ وفي ١/ ٦/ ١٩٠٧م ص٥٣٥، ١/ ٤/ ١٩١٢م ص٤٢١.

ولا يستطيع باحث في الفكر الإسرائيلي أن يذكر عجينة الفطير المفروضة في عيد الفصح، دون أن يقف عند تهمة توجه إلى اليهود من كثير من أعدائهم في هذا العيد بالذات، والتي اشتهرت في العالم، باسم تهمة الدم وخلاصتها: أن خبز الفطير المفروض على اليهود في عيد الفصح، قد جرت العادة أن يدخلوا في عجينته دما بشريا يأخذونه من ضحية يقتلونها، من أمة أخرى غير أمة اليهود، ويستحسن من المسيحين والمسلمين.

ولا تتم الفرحة بعيد الفصح إلا بتناول الفطير، الممزوج بالدماء البشرية، وكذلك عيد البوريم الذي تنتقى ذبائحه، من الشباب البالغين - يؤخذ دم الضحية ويجفف على شكل ذرات، تمزج بعجين الفطائر ويحفظ ما يتبقى للعيد المقبل، أما ذبائح عيد الفصح فتكون عادة من الأولاد الذين لا تزيد أعمارهم عن عشر سنوات ويمزج دم الضحية بعجين الفطير قبل تجفيفه، أو بعد تجفيفه.

وطريقة استنزاف دم الضحية إما أن تكون بوساطة البرميل الإبرى، أو بذبح الضحية كما تذبح الشاة، وتصفية دمها في وعاء ويسلم إلى الحاخام الذي يقوم بإعداد الفطير المقدس،ممزوجا بدم البشر، إرضاء لإله اليهود يهوه المتعطش لسفك الدماء. وكان اليهود في الماضي يفضلون دم المسيحي نظرا للأحقاد الدينية، التي يضمرونها للمسيحية وللمسيحين، وقد سرى هذا الحقد فيما بعد إلى الإسلام والمسلمين، وأصبح اليهودي يجد من العبادة أن يسفك دم الكفار أي المسلمين والمسيحين وغيرهم من غير اليهود.

الموقف لأنه لا يخدم الصهيونية ؟

ولخطورة هذه القضايا التي تضمنها المقال، فسأتناوله على الوجه التالي:

١- من تيودور هرتسل ؟

٢- ما هي الصهيونية ؟

٣- ما حقيقة الوعد الإلهي الذي يرتكز عليه اليهود في إثبات حقوق تملك لهم بفلسطين ؟

ونبدأ بالسؤال الأول:

تيودور هرتسل: كان صحفيا نمساويا ومؤلفا مسرحيا (١٨٦٠/ ١٩٠٤م) لا يعلم عن الثقافة العبرية شيئا، فقد كان منتميا لأسرة مسيحية مجرية. لكنه ألف كتاب (دولة اليهود) بغية الشهرة والزعامة والدعاية لليهود - بعد اتهام أحد ضباطهم في المدفعية الفرنسية ١٨٩٤م بالتجسس وبيع بعض الوثائق العسكرية لألمانيا- وثورة الرأي العام الفرنسي، ضد اليهود، وحتى يرفع اليهود عن أنفسهم لعنة الشعوب، أعادوا محاكمة ضابطهم بعد عشر سنوات ومن خلال وثائق - مزورة - حصلوا له على البراءة، ودفعوا هرتسل لتأليف كتابه هذا، والذي دعا فيه إلى تكتل العالم كله لحل مشكلة اليهود بمنحهم سيادة على رقعة متسعة في أرض معمورة، تكفي غلتها المطالب الشرعية لأمة محترمة، على أن تكون هذه البقعة هي فلسطين، لاسيما وأن كتابا صدر قبل تيودور هرتسل بعنوان (إرجاع اليهود إلى فلسطين حسب أقوال الأنبياء). وقد أقام هرتسل أول مؤتمر صهيوني عالمي سنة ١٨٩٧م ونجح في تجميع يهود العالم حوله، كما نجح في جمع دهاة اليهود الذين صدرت عنهم أخطر مقررات في تاريخ العالم وهي بروتوكولات حكماء صهيون.

وانتهت أعمال المؤتمر وصرح هرتزل قائلا (.. لو طلب إلي أن ألخص أعمال مؤتمر بازل فإني أقول - بل أنادي - على رؤوس الأشهاد - أنني أسست الدولة اليهودية - وقد يثير هذا عاصفة من الضحك هنا وهناك، ولكن العالم قد يشهد بعد خمسة أعوام أو بعد خمسين عاما، ما في ذلك من شك - قيام الدولة

اليهودية..)[1].

ونظرا لنجاح هذا المؤتمر، من وجهة نظر الصهيونية، فقد تقرر عقده بصفة دورية، وأنشئت المنظمة الصهيونية العالمية في ألمانيا تنفيذا لقرار ذلك المؤتمر)[2].

أما الصهيونية فهي:

حركة سياسية عنصرية متطرفة، ترمي إلى إقامة دولة لليهود بفلسطين تحكم من خلالها العالم كله. والصهيونية Zionism نسبة إلى صهيون أحد التلال أو الجبال التي كانت تقوم عليها مدينة القدس القديمة، وقد ورد ذكره في التوراة والإنجيل المحرفة، فذكرت التوراة أن النبي داود عليه السلام انتزعه من اليبوسيين (فرع من الكنعانيين) ساكني فلسطين قبل غزو العبرانيين لها، وكان غرض اليهودية العالمية من اختيار هذا الموقع: إثارة الشعور الديني والعنصري في يهود العالم، حيث يطمع اليهود أن يشيدوا فيها هيكل سليمان، وتقيم مملكة لها تكون القدس عاصمتها وهاهم قادة إسرائيل يعلنون على سمع العالم كل صباح ومساء عبر شاشات العالم وأقماره الصناعية أن القدس عاصمة إسرائيل الأولى، وقد ارتبطت الحركة الصهيونية بشخصية اليهودي النمساوي - هرتزل - الذي يعد الداعية الأول للفكر الصهيوني [3].

متى بدأت ؟

اختلف عدد من الباحثين حول ظهور الصهيونية، هل هي وليدة القرن التاسع عشر فقط حين أعلن تنظيمها هرتزل، أو هي حركة قديمة تستمد جذورها من الحياة الدينية اليهودية وتاريخ اليهود منذ السبي البابلي، ثم حلمهم الذي يراود عقولهم طوال تلك القرون لتحقيق إنشاء دولة سليمان ؟

---

(1) فتحي الأبياري، الصهيونية، دار المعارف القاهرة ص٢٤، ٢٥ سنة ١٩٧٧م.
(2) د/ عبد الغني عبود، اليهود واليهودية والإسلام ص١٢٤ دار الفكر العربي، بدون رقم للطبعة، سنة ١٩٨٢م.
(3) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص٣٣١-٣٣٢ سابق.

الأدوار التاريخية التي مرت بها الصهيونية:

١- حركة المكابين التي أعقبت العودة من السبي البابلي (٥٨٦ - ٥٣٨ ق.م) وأول أهدافها العودة إلى صهيون وبناء هيكل سليمان.

٢- حركة باركوخيا (١١٨ - ١٣٨م) وقد أثار هذا اليهودي الحماسة في نفوس اليهود وحثهم على التجمع في فلسطين وتأسيس دولة يهودية فيها.

٣- مرحلة الركود في النشاط اليهودي بسبب اضطهاد اليهود وتنشئتهم، ومع ذلك فقد ظل الشعور القومي عند اليهود عنيفا لم يضعف.

٤- حركة دافيد روبين وتلميذه سولومون مولوخ (١٥٠١-١٥٣٢م) وقد حثا اليهود على ضرورة العودة لتأسيس ملك إسرائيل في فلسطين.

٥- حركة منشة بن إسرائيل (١٦٠٤ - ١٦٥٧م) وهي النواة الأولى التي وجهت خطط اليهود، أو الصهيونية، وركزتها على أساس استخدام بريطانيا في تحقيق أهداف الصهيونية.

٦- حركة شتياي زفى (١٦٢٦-١٦٧٦م) الذي ادعى أنه مسيح اليهود المخلص فأخذ اليهود يستعدون للعودة إلى فلسطين ولكن مخلصهم مات.

٧- حركة رجال المال بقيادة روتشيلد، وموسى ونتفيوري، والتي كانت تهدف إلى إنشاء مستعمرات يهودية بفلسطين، كخطوة أولى لامتلاك الأرض ثم إقامة الدولة [1].

٨- الحركة الفكرية الإستعمارية الداعية إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين في بداية القرن التاسع عشر.

٩- حركة صهيونية عنيفة قامت إثر مذابح اليهود في روسيا سنة ١٨٨٢م، وفي هذه الفترة ألف هيكلر الجرماني كتابا عنوانه (إرجاع اليهود إلى فلسطين حسب أقوال الأنبياء).

١٠- الصهيونية الحديثة وهي الحركة المنسوبة إلى تيودور هرتزل الصحفي اليهودي (١٨٦٠-١٩٠٤م) وهدفها الأساسي الواضح قيادة اليهود إلى حكم

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة - ص٣٣١-٣٣٢ سابق.

العـالم، بدءًا بإقامـة دولة لهم بفلســـطين، وقد حاول هرتـزل الحصول على فرمان من[1] الســلطان عبد الحميـد – في أثنـاء زيـارة الإمـبراطور غليوم الثـاني للأراضي المقدســة بمنح اليهود شـبه استقلال ذاتـي، إلا أن هذا الأمل انهـار بفضل إخلاص وعظمة السلطان عبد الحميد، عليه رحمة الله .

وبعـد أن ظهرت الأعماق التاريخيـة، للحركـة الصهيونية والـتي ترجع إلى ما قبل الميلاد،

فما هي يا ترى الأفكار والمعتقدات التي قامت عليها الصهيونية ؟

الصهيونية الأفكار والمعتقدات:

تسـتمد الصهيونية فكرها ومعتقدهـا من الكتب المقدسة التي حرفها اليهود، وقد صاغت الصهيونية فكرها في «بروتوكولات حكماء صهيون» تعتبر الصهيونية جميع يهـود العـالم أعضاء في جنسـية واحدة هي الإسـرائيلية [2]، تهدف الصهيونيـة إلى سـيطرة اليهود على العالم كلـه كما وعدهم إلـهَهُم يهوه، وتعتبر المنطلق لذلك هو إقامـة حكومتهم على **أرض الميعـاد** [*]، من النيل إلى الفرات، يرون أن أقـوم السبل لحكـم العالم، هو إقامـة الحكم على أسـاس التخويف والعنف، ويدعـون إلى تسخير الحريـة السياسـية من أجل السـيطرة على الجماهـير، ويقولون يجب أن نعرف كيف نقدم لهم الطعم الذي يوقعهم في شباكنا.

- ويذهبون إلى انتهاء ذلك العهد الذي كانت فيه السلطة للدين، فالسلطة اليوم للذهب وحده، فلابد من تجميعـه في أيدينا بكل وسيلة، لتسـهل سيطرتنا على العالم، ويـرون ان السياسة نقيـض الأخلاق، ولابد فيها مـن المكر والرياء، أما الفضائل والصدق فهي رذائل في عرف السياسة.
- وإلى أنه يجب استخدام الرشوة، والخديعة، والخيانة دون تردد، ما دامت تحقق

(١) فتحي الإبياري – الصهيونية – سابق ص٣١.
(٢) راجع في ذلك: بوري ايفانوف، احذروا الصهيونية، ص٨٧.
(*) وسنناقش هذه الأسطورة بعد قليل.

مآربنا، يقولون: ننادي بشعارات (الحرية والمساواة والإخاء) ليخدع بها الناس ويهتفوا بها وينساقون وراء ما نريد لهم.

- وإلى أنه لابد من تشييد أرستقراطية تقوم على المال الذي هو في يدنا، والعلم الذي اختص به علماؤنا.
- وإلى أنه يتوجب علينا أن أن نسيطر على الصحافة تلك القوة الفعالة التي توجه العالم نحو ما نريد.
- وإلى أنهم يتقدمون إلى الشعوب الفقيرة المظلومة في زي محرريها، ومنقذيها من الظلم، وندعوها إلى الانضمام إلى صفوف جنودنا من الاشتراكيين، والفوضويين، والماسونيين، وبفضل الجوع سنتحكم في الجماهير، ونستخدم سواعدهم لسحق كل من يعترض سبيلنا، سنعمل على إنشاء مجتمعات منحلة مجردة، من الإنسانية والأخلاق، متحجرة المشاعر، ناقمة أشد النقمة على الدين والسياسة، ليصبح رجاؤها الوحيد تحقيق الملاذ المادية، وحينئذ يصبحون عاجزين عن أي مقاومة فيقعوا تحت أيدينا صاغرين، يقولون إن الصحافة جميعها بأيدينا إلا صحف قليلة غير محتفل بها، وسنستعملها لبث الشائعات حتى تصبح حقائق وسنشغل بها الأمميين عما ينفعهم، ونجعلهم يجرون وراء الشهوة والمتعة.
- وإلى أنه لا يصل إلى الحكم إلا أصحاب الصحائف السود، غير المكشوفة، وهؤلاء سيكونون أمناء على تنفيذ أوامرنا خشية الفضيحة والتشهير، كما نقوم بصناعة الزعامات، وإضفاء العظمة والبطولة عليها.
- وأنهم أنشأوا القوى الخفية لتحقيق أهدافهم، ولكن البهائم من الأمم يجهلون أسرارها، فوثقوا بها وانتسبوا إلى محافلها، فسيطرنا عليهم، وسخرناهم لخدمتنا.
- كما يذهبون إلى أن تشتيت شعب الله المختار نعمة، وليس ضعفا وهو الذي أفضى بنا إلى السيادة العالمية.

- وأنهم سيتصرفون مع كل من يقف في طريقهم بكل عنف وقسوة.
- وأنهم سيكثرون من المحافل الماسونية، ونشرها في كل وسط لتوسيع نطاق سيطرتهم.
- وأنهم عندما تصبح السلطة في أيديهم، لن يسمحوا بوجود دين غير دينهم على الأرض، والصهيونية: قديمة قدم التوراة وهي التي أججت الروح القومية عند اليهود منذ أيامها الأولى. وحركة هرتزل إنما هي تجديد وتنظيم للصهيونية القديمة[1].

- **الوعد الإلهي لليهود بين الحقيقة والبطلان:**

ما هي حقيقة هذا الوعد الذي يتحدث عنه السيد جرجى زيدان - في معرض حديثه عن الصهيونية ؟ والذي يملأ اليهود به الدنيا ضجيجا وصراخا لا يملون تكراره والحديث عنه، حتى بلغت بهم الجرأة أن أرسوه في ثنايا - أسفار كتبهم المقدسة !؟ لكي يقنعوا الدنيا كلها بهدف دعاواهم وعدالة مطالبهم وبذاءاتهم.

لهذا فإنني آثرت أن أقف مع هذه القضية وقفة - مفصلة تميط اللثام عن وجه الحقيقة، في هذه الدعوى التي جلبت كافة الشرور وألوان المصائب على الأرض كلها وهددت السلام العالمي ولا تزال.

أولا: منطوق الوعد: باستعراض كافة الأسفار الواردة في التوراة نجد أن الوعد قد ذكر في كل سفر منها، وعلى لسان كل نبي من أنبياء بني إسرائيل - رغم الإختلاف في الصياغات اللفظية - بمضمون واحد تسانده نظرية الشعب المختار.

فهناك تلازم بين الوعد، وبين شعب إسرائيل المختار، دون أية شروط والتزامات أخلاقية أو سلوكية أو تضحيات معينة تؤدي إلى الاقتناع بنظرية الاختيار.

ويلاحظ تطور منطوق الوعد تطوراً واضحا في تضخيم مفهومه ماديا ومعنويا: من خلال جملة النصوص التالية في التوراة:

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة - مادة الصهيونية ص٣٣١-٣٣٨ اصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض ط١ سنة ١٩٨٨م.

(١) النص الأول: سـفر التكوين صح ١٢ (.. وظهر الرب لإبرام "إبراهيم" وقال لنسلك أعطى هذه الأرض) [١].

(٢) النص الثاني: تك صح ٢٢ (أباركك مباركة، وأكثر نسلك تكثيرا كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر. ويرث نسلك باب اعدائه ويشارك في نسلك جميع أمم الأرض) [٢].

(٣) النص الثالث: تك/ صح ٣٤ (وكلم الرب موسى قائلا: أوصي بني إسرائيل وقل لهم إنكم داخلون إلى أرض كنعان، هذه هي الأرض التي تقع لكم نصيبا، أرض كنعان بتخومها).

(٤) النص الرابع: صح ١١ سفر التثنية (.. كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم من البرية، ولبنان، من النهر نهر الفرات، إلى البحر الغربي يكون تخمكم لا يقف إنسان في وجهكم ..).

وهكذا تظهر تلك النصوص التطورات التي لحقت بالوعد الإلهي:

فالنص الأول: وعدا بسيطا لا تحديد فيه لشيء من المعالم أو الحدود الجغرافية.

النص الثاني: يقدم وعدا لنسل ابراهيم - بني إسرائيل وحدهم - حسب المفهوم الصهيوني بميراث أرض أعدائه، وهي في ذلك الوقت أرض بابل بالعراق، أرض كنعان (فسطين) وما حولها، وأرض مصر وهي المناطق التي كانت تدين بالوثنية - آنذاك.

النص الثالث: نرى التحديد قد تم توضيحه بتسمية أرض الميعاد، وهي أرض كنعان (فلسطين) لتكون نصيبا لبني إسرائيل.

النص الرابع: يمثل ما يطلق عليه التوسع الإقليمي على حساب أمم المنطقة، فقد جعل أرض إسرائيل، من نهر الفرات شرقا إلى لبنان والبحر الأبيض غربا، علاوة على هذه النعمة الحربية التي حواها الوعد وتوعد بها سكان المنطقة.

---

(١) في التوراة السامرية - نشر دار الانصار ط١٩٧٨/١ ص٤٩ صح ١٢ (تجلى ملاك لابرام وقال له لنسلك أعطى الأرض هذه).

(٢) ص٦٣ التوراة السامرية صح ٢٢ (إن بركة أباركك وكثرة أكثر هناك نسلك ككواكب السماء وكالرحل على شط البحر ويرث نسلك مدن أعدائه ويتبارك بنسلك كل شعوب الأرض).

كما كانت نظرية الشعب المختار تقف دائما بجوار منطوق الوعد وتلازمه لتسحق أي اعتراض على مفهومه. (إنك يا إسرائيل شعب مقدس، للرب إلهك، أباك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعب أخص من جميع الشعوب على وجه الأرض، ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق بكم الرب واختاركم، ولا لأنكم أقل من سائر الشعوب بل من محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذي أقسم لآبائكم) (١).

(... مبارك تكون فوق جميع الشعوب) (٢).

ثانيا: السمات العامة للوعد:

من خلال النصوص السابقة تتضح عدد من السمات التي تميز بها هذا الوعد:

١- الوعد بصياغاته المختلفة - وعد مادي يعطى لبني إسرائيل حق ملكية أرض فلسطين وما حولها ملكية تامة مشروعة.

٢- أن وعد الله ليس وقفا على إبراهيم - أو من جاء بعده من الأنبياء، وإنما لبني إسرائيل نفس الحقوق بغض النظر عن مدى أحقيتهم أو أحقية شعوب المنطقة حتى ولو دانوا بدينهم.

٣- يرث بنو إسرائيل أرض أعداء إبراهيم - وهي العراق، وأراضي ما بين النهرين، وأرض مصر - وهي المناطق التي كانت تمثل قلاع الوثنية.

٤- الوعد مفتوح لا حدود له، ولا شروط، ولا توجد أية التزامات من جانب بني إسرائيل اعتماداً على نظرية الشعب المختار.

٥- تطور منطوق الوعد في أسفار التوراة، يخدم الرغبة القديمة في التوسع الإقليمي الذي خططت له الصهيونية منذ سنين لسيادة المنطقة.

٦- خلا الوعد من أي التزام خلقي أو مدلول ديني.

٧- من الصياغات المختلفة لنص الوعد، ترى أن الرب هو الذي يحفظ العهد

(١) سفر التثنية صح ٧ عدد ٦-٨.
(٢) السابق ١٤/٧.

للبشر، وليس العبد هو الذي يحفظ عهد الله، كما هي شريعة الأديان السماوية، وهذا وضع شاذ غريب لا نجد له مثيلا في تاريخ الأديان والعقائد، فمما يبعث على التساؤل والحيرة أن الله سبحانه وتعالى أعطى وعدا بدون مقابل أو التزام ديني ؟! علاوة على أن الوعد لم يوضح لأصحابه الخطة التي يجب إتباعها لتنفيذه، أو الخطوات الواجب اتباعها، لتكتمل لهم صورة الوعد، إلا إذا كان ا لله قد وعد بأن عليه هو نفسه أن يحقق هذا الوعد لشعبه المختار، الذي عليه أن يتجمع ليحتل ما سبق أن حارب وحده من أجله ! وفقا لقوله سبحانه مصورا موقف بني إسرائيل من موسى عليه السلام ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (1).

وهذا المفهوم قلبٌ للأديان السماوية، وحط من منزلة الخالق سبحانه وتعالى، هذا هو منطوق الوعد الإلهي: كمفهوم إسرائيلي:

وهو كما يظهر لأي متأمل . ينافي العدالة الإلهية التي هي شريعة الله . كما وأن الصناعة والتأليف واضحان فيه حتى أصبح يمثل في أسفار التوراة، أمل الفكر الصهيوني أكثر من كونه نصا، من جملة ما حوته هذه الأسفار من نصوص.

ثالثا: صفات الإله الذي منح هذا الوعد .. في التوراة:

إذا كان هذا هو منطوق الوعد الذي وعده الله لبني إسرائيل في التوراة بتملك بلاد العرب فما هي يا ترى صفات الله - عند اليهود - باعتباره واهب الوعد لليهود ومانحه ؟

١- جرد اليهود - وإلههم - من أبسط الصفات التي تمكنه من تنفيذ الوعد لليهود وهي القدرة.

٢- إله متغير ينتقل معهم حينما تضطرهم الأقدار، إلى خوض غمار الحرب مع أهل كنعان.

٣- إله رهيب مخيف يدعو إلى سفك الدماء واستعباد الشعوب وامتلاك أرض الأمم.

---

(1) سورة المائدة آية رقم ٢٤.

٤- تطلق التوراة عليه لفظ (يهوه) وهو إله بني إسرائيل، دون سائر البشر، حسب بعض النصوص الواردة في التوراة حول وصف الإله مثل:

(أ) (وسمعا صوت الرب الإله ماشيا في الجنة [١]).

(ب) مسوا العتبة العليا والقائمتين بالدم (وأنتم لا يخرج أحد منكم من باب بيته .. فإن الرب يختار ليضرب المصريين - فحين يرى الدم على العتبة العليا والقائمتين يعبر الرب عن الباب، لا يدع المهلك يدخل [٢]).

وهكذا تصور التوراة - الإله - على أنه يحتاج إلى علامة دم حتى يميز بيوت بني إسرائيل وبيوت المصريين.

إله يعشق سفك الدم والنهب والسرقة:

(.. حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك التسخير، ويستعبد لك، وإن لم تسالمك، بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا رفعك الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها فلتضمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك .. أما الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما) [٣]. (.. ويقف الأجانب يرعون غنمكم، أما أنتم فتدعون كهنة الرب تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدها تتآمرون) [٤].

وبعد فهذه النصوص هي بعض ما تحويه أسفار الصهيونية، من استباحة حقوق الأمم وأكل ثرواتها، لأن اليهودية الصهيونية جزء من الله ، أما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير وبيوت عبادتهم ليست سوى حظائر حيوانات !!

ولهذا أعطاهم «يهوه» أرض الميعاد، وكرر وعده لإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، ويوشع، وداود، وسليمان، وغيرهم !

---

(١) سفر التكوين صح ٣/٨.
(٢) سفر الخروج صح ١٢/٢١.
(٣) سفر التثنية اصحاح ١٢٠ عدد ١٦/١٠.
(٤) اشعيا اصحاح ٦١.

ومما سبق يتضح أن الله بهذه الصورة الواردة في الأسفار الصهيونية غير قادر على إعطاء وعد كبير كهذا، وإذا كان هذا وعد فلاشك أنه غير قادر على تحقيقه، وما قيمة وعد من جهة مهما كانت غير قادرة على أن تتحمل مسئولية تحقيقه ! لأنه أقرب إلى الخيال أن يتصور - عاقل - وعدا مفتوحا دون شروط أو التزامات، من رب له صفات بشرية، وغير قادر إطلاقا. بل أحيانا يأتمر بأمر رسله، وأنبياء، هذه أخلاقهم وقيمهم الدينية ! كما أنه لا يعقل أن البشرية في سيرها على درب تطويرها، وتقدمها الإنساني، قد كتب عليها أن تنتظر إلى أن يحين تحقيق هذا الوعد، فتطأ الشرازم الصهيونية أراضي ما بين النيل والفرات، وتسود الأمم كمنطوق الوعد !! وبدراسة الأسفار الصهيونية - ومفاهيمها المعقدة الغربية يتأكد أن الوعد كمفهوم حتمي ورد فيها - ولكن ليس كما ذكر، وليس لمن ذلك[1] وإن هذا العبث به وبمفهومه جاء بعد قرون الضياع والتشتت - ويؤكد ذلك أن القرآن الكريم قد ذكر وعدا بذلك للمسلمين.

إذا كانت هذه هي صفات الإله الذي منح الوعد لبني إسرائيل - وقد ظهر من خلال حديثهم عن صفاته - أنه أعجز عن أن يحقق وعدا كهذا! بدليل عدم تحققه حتى الآن، مع أنه قدمه لهم منذ عشرات المئات من السنين !

فما هي يا ترى صفات الشعب الذي سيتحمل القيام بعبء الرسالة وتنفيذ المهمة وعلى يده يتحقق أو من أجله سيتحقق وعد الله ؟

رابعا: شعب الوعد الإلهي وصفاته:

١- شعب متذمر لا يتصف بالصبر والجلد بدليل أنهم (.. تذمروا على موسى عليه السلام بمجرد خروجهم من مصر حينما شاهدوا جيش فرعون يهدر خلفهم[2]).

٢- لم يدخل الإيمان قلبه بل ظلت تجري فيه جراثيم الوثنية وتنساح في عروقه (.. إن بني إسرائيل عبدوا العجل حينما ذهب موسى لملاقاة ربه) [3].

(١) محمد عبد الرحمن عبد اللطيف - وعد الله ليس لبني إسرائيل ص٢٧، ط١٩٧١.
(٢) سفر الخروج اصحاح ١٤ ق ١٠.
(٣) خروج ٣٢ ف ٢٢١.

٣- شعب لا يحترم الأنبياء ويلصق بهم أبشع التهم وإرتكاب الكبائر. فقد جاء في سفر التكوين اصحاح ١٩ (أن لوطا عليه السلام قد اضطجع مع ابنتيه على التوالي بعد أن شرب خمرا)، وفي إصحاح ١٢ (أن إبراهيم عرض زوجته على ملك مصر).

٤- شعب غرق في الفواحش عندما دخل أرض كنعان:

(وأقام إسرائيل في شكيم وابتدأ الشعب يزنون مع بنات موآب) عدد صح ٢٥.

٥- شعب لا يصبو إلى الحرية والرفعة والتقدم، بل تربطه المادة بالعبودية والذل، ما دام في ذلك تحقيق لمآربه الدنيوية (فعاد بنو إسرائيل أيضا وبكوا وقالوا من يطعمنا الحما، قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجانا والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم) [1].

٦- شعب لا يدين بالأخلاق، بل يدعي أن ربه أمره بالسلب، والنهب (وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى طلبوا من المصريين أمتعة فضة وذهبا وثيابا وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين، حتى أعاروهم فسلبوا المصريين) [2].

أي أن الرب أمرهم بالاحتيال على سرقة المصريين واستعارة بعض حليهم قبل خروجهم من مصر، ثم رحلوا ليلا وفي أمتعتهم ما خف وزنه، وغلا ثمنه !

هذه الصورة التي قدمتها التوراة عن ذلك الشعب اليهودي الذي يدعى لنفسه أنه جاء لتنفيذ وعد الله له بالسيادة على الأرض، والتسلط على الشعوب، فكيف يستقيم بعد كل ذلك أن ينفذ وعد الله من خلالهم ؟!

وإن تأملنا لموقف المسيح عليه السلام من هذا الوعد لخليق بأن يساعدنا على حسم هذه القضية المزعومة - فضلا عن القرآن الكريم باعتباره مهيمنا على الكتب كلها.

وبداية فإن قضية تفضيل بني إسرائيل - أخبر بها القرآن الكريم - ﴿يَابَنِي

(١) سفر العدد اصحاح ١١.

(٢) سفر الخروج اصحاح ١٣ ف ٣٥.

إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1]، ولكن من هم العالمين ؟ ومعظم المفسرين على أنهم - عالَمُ من كان في ذلك الزمان، فلا يتناول اللفظ من مشى، ولا من يوجد بعدهم. ولماذا التفضيل وهل هو مشروط أم مطلق ؟ لعل في قراءتنا لهذا النص الوارد في سفر الملوك الأول ما يسلط ضوءا على الوعد ومدى إطلاقه أو تقييده (.. لما أكمل سليمان بناء بيت الرب وبيت الملك وكل مرغوب سليمان الذي سر أن يعمل، أن الرب تراءى لسليمان ثانية كما تراءى له في جعبون، وقال له الرب قد سمعت صلاتك وتضرعك الذي تضرعت به أمامي، قدست هذا البيت الذي بنيته لأجل وضع اسمي فيه إلى الأبد، وتكون عيناي وقلبي هناك كل الأيام، وأنت إن سلكت أمامي كما سلك داود أبوك، بسلامة قلب واستقامة، وعملت حسب كل ما وصيتك وحفظت فرائضي وأحكامي. فإني أقيم كرسي ملكك على إسرائيل إلى الأبد، كما كلمت داود أباك، قائلا لا يعدم لك رجل عن كرسي إسرائيل، إن كنتم تنقلبون أنتم أو أبناؤكم من ورائي، ولا تحفظون وصاياي، وفرائضي التي جعلتها أمامكم، بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى، وتسجدون لها، فإني أقطع إسرائيل عن وجه الأرض، التي أعطيتهم إياها، والبيت الذي قدسته، لا سمى أنفيه من أمامي، ويكون إسرائيل مثلا وهزأة في جميع الشعوب، وهذا البيت يكون عبرة كل من يمر عليه، يتعجب ويقولون لماذا عمل الرب هكذا، لهذه الأرض ولهذا البيت. فيقولون من أجل أنهم تركوا الرب إلـههم الذي أخرج آبائهم من أرض مصر، وتمسكوا بآلهة أخرى، وسجدوا لها، وعبدوها، لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر) [2].

يتضح من هذا النص بوضوح إرتباط الوعد وتحقيقه بالالتزام بوصايا الله وفرائضه، وصيانة شريعته، والبقاء على توحيد الحق سبحانه ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[3] وهو بيان واضح لعدم وفاء بني إسرائيل بشيء بالرغم من تعدد نعم

(١) سورة البقرة آية رقم ٤٧.
(٢) العهد القديم - الملوك الأولى ٩: -١-٩.
(٣) سورة البقرة الآية رقم ٥٩.

الله عليهم ... غير أن بني إسرائيل استمروا يتوهمون رضاء السماء عليهم، وتفضيل الحق سبحانه لهم أحقابا، وراء أحقاب، حتى سيطرت عليهم فكرة الوعد وفكرة شعب الله المختار، وجاء المسيح عليه السلام ليرى بعينيه أسوأ ما يمكن أن يراه نبي في قومه، ولاشك أنه رأى وسمع الكثير عن الوعد وشعب الله المختار فقال لهم (... لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينـــزع منكم ويعطي لأمة تعمل أثماره)[1]. تلك قولة المسيح عليه السلام، تدل دلالة واضحة على إلغاء الوعد ونظرية الإمتياز لبني إسرائيل، بل هي تمهيد لقيام أمة عظيمة، تعلم خطره وتعمل على تحقيقه وتؤتي أثماره.

وحقا تبقى هذه القولة في الإنجيل العيسوي الموجود بين أيدينا الآن حائرة لا مغزى لها ولا تعليل لإهمالها ! ونحن نرى مسيحية الغرب تساندها خضارتها المادية الكاسحة، تقف دون وعي أو تبصر بجانب باطل إسرائيل منذ أن كان فكرة حتى أصبح دولة، تعربد وتدوس بأقدامها وأحذيتها كل الأخلاق والقيم، وتنشر الرعب والخراب في المنطقة كلها، ولا تزال تساندها وتقف ورائها وتدعمها ! لكي تحقق وعدها المزعوم المقتنعة به تماما، وهو الدولة الكبرى من النيل إلى الفرات [2]!

وإذا كان هذا هو موقف المسيح عليه السلام من قضية الوعد ونظرية الإمتياز، فقد جاء القرآن الكريم - خاتم الكتب والمهيمن عليها - ففضح بني إسرائيل وكشف خبث طويتهم، ونبه إلى إعوجاج سلوكهم، وسقم وجدانهم، وأدار معهم في كثير من الموضوعات، حوارا متعلقا بالعقيدة حينا وبتاريخهم أحيانا حتى أفحم حجتهم وأصبح بذلك المرجع الصادق الوحيد في التاريخ الديني لبني إسرائيل بما حواه في العديد من آياته عن تطور العقيدة عند بني إسرائيل وموقفهم من رسالات السماء وهاهي بعض السمات التي أوضحها:

١- اشتراط بنو إسرائيل رؤية الله جهرة، حتى يؤمنوا برسالة موسى عليه السلام في قوله سبحانه ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾[3].

(١) العهد الجديد.
(٢) محمد عبد الرحمن عبد اللطيف، وعد الله ليس لبني إسرائيل، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.
(٣) سورة البقرة آية رقم ٥٥.

٢- طلبوا من موسى عبادة الأصنام بعد خروجهم من مصر ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1].

٣- لم تخلص قلوبهم إلى الوحدانية فانتهزوا فرصة ذهاب موسى لملاقاة ربه وعبدو العجل ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾[2].

٤- دأب شعب إسرائيل على التذمر، حتى عندما أنعمت عليهم السماء بطعامها من المن والسلوى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾[3].

٥- رفض هذا الشعب الجهاد، وآثر القعود حينما ندبه موسى لدخول الأرض المقدسة وإقامة شريعة الله، ورفع لواء التوحيد وسط وثنية المنطقة ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[4].

٦- هدم - القرآن الكريم - نظرية الاختيار وفضحها ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٤٩) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾[5].

٧- ثم أطلق القرآن الكريم - عليهم حكمه الأبدي وغضبه الأزلي ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[6].

هذه هي بعض النصوص التي يذخر القرآن الكريم بكثير منها، وهي توضح لنا

---

(١) سورة الاعراف آية رقم ١٣٨.
(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٤٨.
(٣) سورة البقرة آية رقم ٦١.
(٤) سورة المائدة آية رقم ٢٤.
(٥) سورة النساء آيتي رقم ٤٩، ٥٠.
(٦) سورة الأعراف آية رقم ١٦٧.

أن شعبا هذه سماته لا يمكن أن يقيم مجدا أو يحقق وعدا – كما وأن التوراة التي بين أيدينا بنصوصها القائمة لتقود إلى نفس النتيجة وتوضح خصائص الشعب الإسرائيلي وأخلاقياته.

مما يؤدي إلى القول: بأن العدالة الإلهية لا يمكن – حسب سنن الله الكونية – أن تختار شعبا خاملا، منحلا ليقيم شريعة الله، أو يحقق وعده، ويمتاز على بقية الخلق دون التزام ودون مقومات، وهذا ما لا يتفق مع المفاهيم الدينية الصحيحة لجميع رسالات السماء ! ووفقا للبيان الإلهي الصريح وللسنة الكونية ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1].

وبجانب التوراة والإنجيل والقرآن مع حسمهم لكل جدل يمكن أن يثار حول هذه القضية – فإن التاريخ الحضاري لم يحدثنا عن محمدةٍ واحدةٍ لليهود، إنما كل ما حفظه أسفار تحوى عفن قرون من الأكاذيب، والأحقاد، والغدر، والتدمير .. ليس إلا. فبأي فضيلة إذا يدعي هذا الشعب المعقد هذا الوعد الإلهي ؟

(١) سورة إبراهيم الآية رقم ٧.

الفصل الرابع

شخصيات وزعامات إسلامية تحيط بها بعض علامات الاستفهام ؟؟!

وامتداداً للخط الثابت الذي انتهجه جرجي زيدان لنفسه عبر صفحات مجلته الهلال، فيما يتعلق بتقديم الشخصيات البارزة لأبناء هذه الأمة، فإنه بعد أن قدم رجالات الماسونية والصهيونية، أعقبهم برجالات الاستعمار البريطاني ورموز الحضارة الغربية، وحتى لا يتهم بعدم النزاهة والموضوعية أو التحيز لرجالات لا يمتون بصلة إلى تاريخنا الإسلامي والعربي المجيد بل على العكس من ذلك، كان لهم أخطر الأثر في إلحاق الأذى والهوان وجلب المصائب المتوالية على هذه الأمة.

فأنه أورد حديثا عن بعض الشخصيات الإسلامية - لكنها وللأسف كانت من ذلك النوع الذي قد أحاطت به علامات الاستفهام نحو إخلاصه لأمته، وعلاقته بأعدائها وكان لكل واحد منهم دور ما، يتفاوت قوة أو ضعفا حسب موقعه، في مدِّ يَدِ العون لأعداء الأمة. والترويج لبعض الأفكار والمبادئ التي تخدم الفكرَ الأوربي، وتمهد له موطئ الأقدام في بلاد المسلمين.

المبحث الأول
محمد علي باشا

امتلأت مجلة الهلال في كثير من أعدادها بالحديث عن مآثر محمد علي باشا وبيان أفضاله على المصريين، وكيف أنه أسس النهضة المصرية الحديثة، بعد أن ظل الجهل يضرب أطنابه على المجتمع المصري، أجيالا متعاقبة حتى أذن الله للمصريين أن يتولى حكومتهم المغفور له محمد علي باشا الكبير، فاقتضت سياسته تسهيل دخول الأجانب إلى هذه البلاد وإرسال بعض شبانها إلى أوربا، لاقتباس حسنات

التمدن الحديث ... وهكذا ظل جرجي زيدان عَبر مجلته الهلال، يذكر أفضال الرجل العظيمة وأعماله الجليلة دائما – حتى أفردت له صدر أحد أعدادها لتترجم له ترجمة وافية مستفيضة [1].

وأخذت تفيض في بيان مناقبه: وكيف أنه كان أبا حنونا، لرعيته وهذه الجسور والترع، والأبنية والشوارع، والجنائن، والمطابع، والمدارس، والنظامات الملكية والقضائية، والفلاحة والزراعة، وشبه الجزيرة العربية. تنطق بتعداد فضائله، إذا قصرت ألسنة أهل الديار المصرية – كما كان يحترم الأديان الأخرى، لاسيما المسيحية فكان يقرب أصحابها منه ويعهد إليهم أهم أعماله. وقد كان محترما ليس فقط من رعيته، بل من الأجانب البعيدين منه دينا، ووطنا، وكثيرا ما تقربوا إليه بالنياشين والهدايا إقرار بفضله على العالم، عموما بما مهد من سبل التجارة بين أوربا والهند على الخصوص، ... الخ.

ثم شرعت المجلة بعد ذلك في بيان أعماله وكيف ارتقى إلى منصة الحكم – وكيف قضى على طائفة الوهابيين[*]! في "نجد" بعد أن قضى على المماليك بمذبحة القلعة الشهيرة وتحقق له النصر على الوهابيين بقيادة إبنيه، طوسون، وإبراهيم. ثم فتحه السودان عن طريق إبنه إسماعيل الذي قتل بها. وكيف أنفذ إبنه إبراهيم لفتح سوريا ففتحها في ١٨٣٢م، وأنشأ بها حكومة مصرية .. وانتقلت المجلة إلى بيان إصلاحاته التي كانت بدء نهضة عمومية في سائر المشرق، وخصوصا في العالم العربي. ففصلت إصلاحاته الإدارية. كإنشاء الدواوين (الداخلية، الخارجية،

(١) الهلال ١ يونيو سنة ١٩٠٢م ص٥١٧-٥٤٢ بمناسبة مرور مائة سنة على تولي محمد علي باشا عرش مصر.

(*) دأب الأعداء على إطلاق هذه التسمية على أتباع الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب (١١١٥هـ) لتصويرها على أنها مذهب جديد بعيد عن الإسلام ومبادئه، وبلغ التخبط والجهل مداه عند أعداء الدعوة أن زوعر (المبشر المسيحي) يدَّعي أن ابن القيم – سنة ٧٥١هـ – تشبه أفكاره وآراؤه آراء الوهابيين، فهو وهابي ولكن يسمي نفسه حنبليا، ونسي هذا الجاهل أن اصطلاح «الوهابية» ما عرف إلا بعد ابن القيم بأربعة قرون أو يزيد ولا غضاضة في مجرد ذكر التسمية، لكن الحرج أن ذلك يتخذ نكأة لمحاربتها ليس في شخص صاحبها، ولا في أشخاص أتباعها والملتزمين بتعاليمها، ولكن ذلك يتخذ ذريعة لمحاربة كل الدعوات الإصلاحية في العالم الإسلامي، وهي تدعو إلى إيقاظ المسلمين وردهم إلى جادة الصواب.
راجع للتوسع د. عبد الرحمن عميرة – الشبهات التي أثيرت حول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب نشر مركز البحوث بجامعة الإمام محمد بن سعود، جرجي زيدان، ج٢. ص٧٨

الضابطة الأشغال، المبيوعات .. الخ) وإصلاحاته الزراعية من إنشاء الجسور وشق الترع .. الخ وإصلاحاته العسكرية .. والإصلاحات الصناعية. واستجلاب الصناع من أقطار أوربا ... والإصلاحات الصحية، واستقدام أحد مشاهير الأطباء الفرنسيين (د. كلوت بك) لإنشاء المدارس الطبية والمستشفيات، وفي نهاية هذا العرض السريع لما أورد جرجى زيدان عبر مجلة الهلال يحين دور السؤال الهام وهو:

من هو محمد علي؟ وما هي علامات الاستفهام التي أحاطت بالشخصية؟

إن خير تعريف لشخصية محمد علي وأفضل تقديم له هو ما جاء على لسان الأستاذ الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية في مقالة بمجلة المنار بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس الأسرة العلوية.

الشيخ محمد عبده والباشا محمد علي:

لقد كتب يقول (... ما الذي صنع محمد علي ؟ لم يستطع أن يحي ولكنه استطاع أن يميت. كان معظم قوة الجيش معه، وكان صاحب حيلة بفطرته، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستمليه من الأحزاب، على إعدام كل رأس خصومة، حتى إذا سحقت الأحزاب القوية، وجه عنايته إلى البيوتات الرفيعة فلم يدع منها رأسا يستتر فيه ضمير (أنا) .. أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى، حتى انحط الكرام وساد اللئام ... إنه قد ملأ مصر بالأجانب، والدخلاء، يستعين بهم على إقرار نفوذه، إلا مرضاة الأمير صاحب الإقطاع الكبير ...) [1].

وهكذا أصبح محمد علي واليا على مصر من قبل الدولة العثمانية عام ١٨٠٥م أي بعد مغادرة الحملة الفرنسية بثلاثة أعوام. واحتضنته فرنسا احتضانا كاملا أنشأت له جيشا قويا مدربا على أحدث أساليب القتال بإشراف سليمان باشا الفرنساوي ! وأنشأت له أسطولا بحريا على أحدث طراز يومذاك، وترسانة بحرية في دمياط، وأنشأت له القناطر الخيرية لتنظيم عملية الري في مصر !

هل كان هذا كله حبا في شخص محمد علي ؟ أو حبا في مصر ؟!

---

(١) محمد رشيد رضا – تاريخ الأستاذ الإمام، مطبعة المنار، ط٢ ١٣٤٤هـ ج٢ ص٣٨٢، سنة ١٩٢٥م.

إنما كان هذا لتنفيذ المخطط الصليبي، الذي عجزت الحملة الفرنسية، عن تنفيذه بسبب إضطرارها إلى الرحيل. وكانت الخطة الصليبية هي تكبير محمد علي، وإغرائه بالاستقلال عن السلطان. فتنفصل بذلك قطعة من أنفس أراضي المسلمين، عن الدولة الإسلامية. ثم يكون محمد علي نموذجا مغرياً لغيره من الولاة، فيستقلون تباعا عن الدولة، فتتفكك عراها وتنهار، وفي نفس الوقت، كانت الخطة هي تغريب مصر – بعد إستقلالها، لضمان تبعيتها الدائمة للغرب وإنفصالها النهائي عن الإسلام[1] ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [2].

وقام محمد علي بالدور المطلوب خير قيام حتى أن اللورد كرومر يصرح في مجلة الهلال قائلا (.. إن محمد علي مثال لأحسن حاكم شرقي، مستبد بحكمة، واسمه محترم عند المصريين، وحقه أن يكون كذلك (ونتساءل) لماذا يا مستر كرومر ؟

لأنه قدَّ مصر من أحشاء السلطنة العثمانية، وأسس العائلة الخديوية) [3].

وهكذا استأثر محمد علي بحكم مصر حكما وراثيا، ينتقل في ذريته مع التبعية الإسمية للسلطان ! أما الجانب الآخر من المهمة، وهو عملية التغريب: فقد نفذها محمد علي بسياسة الابتعاث التي اتبعها، بإرسال الشبان إلى أوربا ليتعلموا هناك، وكان هذا أخطر ما فعله في الحقيقة لأنه من هناك بدأ المخطط العلماني يدخل ساحة التعليم، ومن ورائه ساحة الحياة في مصر الإسلامية.

رأي الأستاذ الإمام محمد عبده في الحركة الوهابية:

ويبين الأستاذ الإمام محمد عبده موقف محمد علي من الدين فيقول: (.. فليقل لنا أحد من الناس أي عمل ظهرت فيه رائحة الدين الإسلامي. إلا مسئلة الوهابية، **وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها، كانت على الدين، لا للدين ...** نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق، وأبدله بشيء من النقد، يسمى فائض روزنامة، لايساوى جزءاً من الألف من إيرادها، وأخذ من أوقاف الجامع الازهر ما

---

(١) واقعنا المعاصر ص٢٠٧ سابق.
(٢) سورة الأنفال جزء الآية رقم ٣٠.
(٣) مجلة الهلال العدد الصادر في ١/ ٦/ ١٩٠٦م ص٥٣٠ رأى كرومر في النهضة المصرية.

لو بقي إلى اليوم – ١٩٠٢م . – لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة، وقدر ما يساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة، وقصارى أمره في الدين، أنه كان يستميل بعض العلماء بالخلع وإجلاسهم على الموائد ... أما أفاضل العلماء فكانوا عليه في سخط ماتوا عليه ..) [1].

وهكذا استولى محمد علي على ثروات الدوائر الدينية، وحرم المشايخ من سابق وظائفهم التي هيمنوا بها على المجتمع، وحكم عليهم بالعزلة التامة، حتى لم يعد في استطاعتهم أن يظهروا أمام الناس بأنهم القوة الوحيدة التي تستطيع أن تفرض على الحكام أن يحكموا بمقتضى العدالة الواجبة. بعد أن كانوا عبر العصور قوة لا يستهان بها، تصدت للحملة الفرنسية وأخرجتها من البلاد – لكن بعد مجيء محمد علي، ائتلف هو وفرنسا على مقاومة نفوذ الأزهر والقضاء عليه، فجاء تحطيم هذه القوة تكملة لتحطيم القوة العسكرية المعارضة ؟

هذا هو محمد علي، وهذه هي آثاره العظيمة!! التي سكت عنها جرجي زيدان – مجلة الهلال !

المبحث الثاني
عمر الخيام

قدمت الهلال وعبر ثلاثة أعداد متفرقات صورة غير كريمة، بل ومنفرة لهذا العالم الإسلامي الجليل.

تقول: إنه عالم كبير من علماء الفرس إسمه: غياث الدين أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيام، كان عالما في الرياضيات والفلك واللغة، حر الأفكار نبغ في القرن الخامس الهجري، كان معاصرا لنظام الملك، وزير ملك شاه السلجوقي وقد نشأ معا – فرقّاهُ وجعله من كبار الحجاب، فرضي الخيام بما فرض له من العطاء وتفرغ للإنشغال بالعلم والشعر، فاشتهرت قريحته في الفارسية وفي العربية ومن جملتها

---

(١) مجلة المنار المجلد الخامس ج٥ ص١٧٥-١٨٣ / ١٩٠٣م.

الرباعيات، فإنها ٥٠٠ بيت وسميت بالرباعيات (لأن أبياتها عبارة عن أربعة أشطر الأول والثاني والرابع من قافية واحدة) ضمن رباعياته، أفكاراً حرة، وانتقادات كان لها تأثير في عصره [١].

وقد نقلها إلى الفرنسية المسيو نقولا قنصل فرنسا لدى العجم وطبعت[*] بباريس سنة ١٨٦٧م والمستر هو نفيلد الإنجليزي، ومواطنه المستر إدوارد فتز جيرالد وغيرهما، ولها طبعات متعددة عليها شروح ومقدمات مفيدة – والأوربيون، والأمريكيون، مولعون بشعر الفرس، ولاسيما الخيام، نشرت عنه مجلة أمريكية ١٩٠٣م بقلم عقيله بورين تلتها في إحدى المجتمعات الأدبية بأمريكا، وترجمت كثيرا من أشعاره إلى الإنجليزية – وعربه عيسى اسكندر المعلوف ١٩٠٤م.

مثل قوله:

ديوان أشعار بظل حديقة	ورغيف خبز مع نبيذ الكاس
وحبيبتي تسبي العقول بحسنها	فردوس عدن ذاك بين الناس

وقوله:

متى ما تخالط عالم الإنس لم يزل	بسمعك وقر من مقال السفيه
إذا ما لفتى لم يرم شخصك عامدا	بكفيه عن ضغن رماك بفيه
وقد علم الله اعتقادي وأنني	أعوذ به من شر ما أنا فيه [٢]

وقد صنف كتبا كثيرة، غير أن التتر لما زحفوا على البلاد الإسلامية، دمروا – مدينة نيسابور بما فيها من آثار وتحف وكتب – فلم يبق مما جادت به قريحة الخيام سوى مائة رباعية، وهي التي ترجمت من الفارسية إلى الإنجليزية – ورباعياته بمنزلة

---

(١) الهلال ١/ ٢/ ١٩١٠م .

(*) وأول من عرف الخيام من الأوربيين، العلامة (توماس هايد) أستاذ اللغة العربية والعبرية بجامعة اكسفورد، وقد بحث شعر الخيام في مؤلفاته عام ١٧٠٠م، وفي ١٨١٨هـ ترجم المستشرق النمساوي برحتال خمساً وعشرين رباعية للعبرية ثم عثر دكويل أستاذ العبرية بكمبردج على أقدم نسخة خطية ونشر عنها في ١٨٥٨م ثم جاء دراسات فيتز جرالد وأخرج أول ترجمة لها عام ١٨٥٨م، وبعد سنوات قليلة أخرج نقولا ترجمتها الفرنسية. للتوسع راجع د. ماهر حسن فهمي- رباعيات الخيام ص٢٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) ١/ ٣/ ١٩١٠م.

لزوميات أبي العلاء المعري في الشعر العربي [1].

لكن الحقيقة جانبت المجلة - فيما قدمته عن هذه الشخصية فكما يسجل الكاتب الإسلامي الأستاذ أنور الجندي: إن عمر الخيام قد استطارت شهرته فجأة، بعد أن كان واحداً من العلماء المسلمين، في مجال الكشوف العلمية الجغرافية ورصد الكواكب، فأصبح شاعرا خطيراً في مجال الدعوة إلى الإنطلاق، وذلك عندما نشر شاعر إنجليزي مجموعة من الشعر عام ١٥٨٩م نسبها إلى الخيام هو فيتز جرالد وقد نقلت هذه القصائد مرة أخرى من الإنجليزية إلى العربية أكثر من سبعة من الأدباء منهم البستاني، وأبو شادي، ورامي - وغيرهم، وقد تبع ذلك اهتمام بالغ وتركيز أشد خطورة على اسم الخيام، رفعا لهذا التيار الجديد وتعميقا له، فصدرت طوابع البريد في مختلف أنحاء أوربا باسمه، وصورته وأنشأت الأندية الليلية الصاخبة تحت لوائه، وقد كان لهذا التيار أثره في التعريف بالخيام في نظر الشرقيين (عربا ومسلمين) شاعرا ماجناً عربيدا يدعو إلى اللذة، وقد استمر ذلك وقتا طويلا حتى كشفت الأبحاث العلمية والدراسات الخالصة البعيدة، عن كل زيف عن أن هذه الموجة الكاذبة ليس لها من الصحة نصيب، وأن الخيام لم يكن هو قائل كل هذا الشعر الذي نسب إليه، ولم يكن في حياته إنسانا خليعا ولا داعية إلى إباحة.

استغلال الرباعيات في التغريب:

والقول الصحيح أن من وراء الاهتمام برباعيات الخيام هدفا من أهداف التغريب: والاستعمار - يقول السيد مبشر الطرازي مؤلف كتاب (كشف اللثام عن رباعيات الخيام) إن الاستعمار وجد في هذا العمل، ولاسيما في إيران، والهند، أهمية خاصة، وكما أن فيتز جرالد الشاعر الإنجليزي قد لبى الإشارة من قبل بعض الإنجليز، فقدم للمستعمر خدمة تحت ستار الأدب الغربي، بترجمة تلك الرباعيات، بصورة خلابة، وضعها في كلمات إنجليزية تخلب قلوب الشباب الناشئ، لاسيما الإيرانيين والهنديين من حيث طلاوتها ومماشاتها مع الشهوات والنزعات النفسية.

(١) الهلال ١/ ٦/ ١٩١١م.

وخدع العرب بنسبتها إلى الحكيم الكبير، فترجموها إلى لغتهم وأمطروها بالثناء، **مع أنها خدعة سياسية إستعمارية قصد بها الاستعمار نشر السموم بين أبناء الشرق**، ودعاهم إلى تناول الخمور وملازمة السموم، والغناء، ومجانبة السعي والحث على الإباحية والتحلل والحرية المطلقة. الأمر الذي دفع الشرق فيما دفعه إلى التأخر، وجعله مستعدا لقبول تدخل المستعمر في مختلف شؤونه، وقد بلغ الغربيون في تعريف صاحب الرباعيات (عمر الخيام) إلى حد أنهم شبهوه بأبيقور اليوناني، وأبي العلاء المعري، ترويجا لسوق الرباعيات، وتضليلا للشرقيين – لاسيما الجيل الناشئ – وهذا عين ما سجلته الهلال – أي تشبيه الخيام بأبي العلاء.

بل بلغ الحد أن هذا الكتاب – رباعيات الخيام – كان يدرس بالمدارس الثانوية بالهند ١٩٥٠م ككتاب أدب إنجليزي – وكانت الرباعيات مدرجة في برامج التدريس بجامعة بعليك أعظم جامعات الهند. ولا يزال السيد مبشر الطرازي يقول (.. إنه ليس هناك مصدر أكيد يؤكد نسبة هذا الشعر إلى عمر الخيام، ولا وجود لمصدرها الأصلي. وإنما أسندت إلى عالم عظيم شرقي، وحكيم فلكي، بارع، ومنجم لامع، في نفس الوقت الذي أغمضوا أبصارهم فيه عما ثبت عن الحكيم النيسابوري – ومولدهما واحد – لكن مقولات النيسابوري وآثاره تدل على ديانته، وتمسكه بتعاليم الشريعة الإسلامية وحرصه على تطبيقها في كل شؤون الحياة.

وينهي حديثه قائلا: (إن الغربيين لم يكرموا عمر الخيام لمكانته في العلوم الرياضية وعلوم الفلك، وإنما من أجل الأهداف السياسية الرامية إلى إذاعة قصائد التحلل، والمجون، المنسوبة إليه، فلقد كان تعظيم الغربيين في الحقيقة – موجها إلى تلك الرباعيات الخليعة التي مهدت لهم سبيل النيل من الإسلام، وتعاليمه، ودعوة أهل الشرق إلى التحلل الخلقي والضعف والهوان ..) ويسجل الأستاذ/ أنور الجندي: إشارة كثير من الدارسين إلى خطأ نسبة الرباعيات إلى عمر الخيام، وفي مقدمتهم أرنست رينان الذي قال إنها [أي (الرباعيات) لا تتفق مع مفاهيمه واتجاهه العلمي].

وأشار العلامة الطرازي إلى أنه لم يثبت أصلا وجود نص حقيقي كتبه عمر الخيام للرباعيات [(١)].

مما يؤكد أنها رباعيات موضوعة لا أصل لها وضعها دعاة الشعوبية واستغلها التبشير والاستعمار.

كما يطرح أ. أحمد إبراهيم الشريف نقطة هامة إذ يقول (وخلاصة الأمر أن الخيامية، ليست فتحاً في الأدب لا شكلاً أو مضمونه، ولا هي موقف أخلاقي عظيم يراد لذاته ومع ذلك افتتن بها الناس فلماذا ؟ وكتب قائلا: إنها ظاهرة لمرض اجتماعي دفين، لأن عصر الخيام كان عصر حيرة وريبة، ونكسة وثورة وطغيان أحداث وحكام، عصر لم يبق للإنسان فيه من قيمة سوى اللذة أو المال، في هذا الميدان يكون شعر الخيام بكل ما فيه من نقص وفتور هو طابع العصر المحبوب، وهذا دليل على المرض الذي أصاب العصر والناس) [(٢)].

المبحث الثالث
السيد أحمد خان الهندي

ركن النهضة العلمية الأخيرة في بلاد الهند ١٨١٧-١٨٩٨م هكذا صدرت الهلال أحد أعداد سنتها السابعة تحت باب - أعظم الرجال - ثم أخذت تقول: أما أهل الهند فإن الفضل في نهضتهم، راجع معظمه إلى رجل منهم، خصه الله بهمة عالية واقدام وغيرة، ندر إجتماعها في رجل واحد، مع إخلاص وحسن نظر، فقد نشأ في عصر نقم فيه الهنود على الإنجليز، وكرهوهم كرها شديدا، فلا يؤاكلونهم ولا يشاربونهم، ولا يعاشرونهم، ولا يقرأون كتبهم، ولا يتعلمون لغتهم، بل لا يكادون تفوتهم فرصة في شق عصا الطاعة، جهادا في سبيل الاستقلال ! (وماهي الجريمة في هذا يا سيد جرجي زيدان ؟)

(١) أنور الجندي - الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي - سابق ص٤٤٥ وكذلك مقدمات العلوم والمناهج مجلد رقم ٥ - التبشير والاستشراق ص١٢٤.
(٢) أحمد إبراهيم الشريف - رباعيات الخيام لفيتز جيرالد ص٢٨ - سلسلة تراث الإنسانية ١٩٩٤م.

خطة أحمد خان في تغريب الهند:

أدرك السيد أحمد خان أنهم يحاولون عبثا، فأخذ على عاتقه، ترقية شؤونهم، وتهذيب أبنائهم بالعلم. لأنه لم ير خيرا من نزع التعصب الأعمى من بين ظهرانيهم (يعتبر أن تكتل الأمة للدفاع عن أوطانها ومقدساتها نوع من التعصب) ! وإقناعهم أن الإنجليز وغيرهم من الأمم المتفرنجة بشر مثلهم ! وأن العلوم الحديثة كالطبيعيات ونحوها لا تخالف الحقائق الدينية في شيء، فضلا عن نفعها الجزيل فأنشأ (جمعية الترجمة) وجعل موضوعها تقريب علوم الغربيين وآدابهم من أذهان الشرقيين. ونقل كثيرا من المؤلفات الإنجليزية إلى اللسان الهندي ونشرها بين العامة.

مكافأة الإنجليز لأحمد خان:

نال السيد أحمد خان من الحكومة الإنجليزية ١٨٦٦م وساما ذهبيا، ونسخة من مؤلفات ماكولي المؤرخ الإنجليزي الشهير في ١٨٦٧م، انتقل إلى نبارس من أعمال الهند، ثم بعد ذلك صاحب ابنه إلى بلاد الإنجليز، لتلقي العلم في مدرسة كمبردج الشهيرة، لعله يرى هناك أسبابا يستطيع الاستعانة بها في خدمة بلاده. **فاتضح لديه جيدا أن التمسك بالقديم، من عادات الآباء وتقاليد الاجداد إنما هو السبب الأكبر في إستيلاء الجهل على أبناء جلدته،**

فعاد إلى موطنه ١٨٧٠م وأنشأ جريدة (مصلح الهيئة الاجتماعية الإسلامية) نشر فيها مقالات إضافية، ين فيها خطأ الذين يطعنون في العلوم الحديثة، أو يجرمون من يقتبسها، وأورد لهم الأدلة الدينية، والشواهد الشرعية المؤيدة لأقواله، وقضى في هذا الجهاد تسع سنوات متوالية، لاقى خلالها الكثير من العقبات وإتهامه بالضلال. لكن ذلك لم يثن عزمه عن الغرض الذي أوقف بقية حياته لإتمامه وهو إنشاء (مدرسة كلية إسلامية) وأخذ يسعى بحكمة ودراية أقنعت الجميع بأهمية المدرسة، وأنها لتعليم المسلمين، وتثقيفهم على ما توجبه ديانتهم، وساعده على جهاده هذا، جماعة من رجال الإنجليز المشهورين، فكان إنشائها داعيا لوثوق الناس في هذا المشروع.

فأقدموا عليه، وعضدوه بهباتهم، ومساعداتهم. وأنشأت المدرسة الكلية في عليكره، وانقطع إليها من ١٨٨٠م حتى وافاه الأجل في مارس ١٨٩٨م [١].

ولكن ما هي حقيقة أحمد خان حتى يقدمه جرجى زيدان في مجلته الهلال على أنه أعظم الرجال، وباني النهضة العلمية الحديثة، ومؤسسها في الهند، وأنه لا يغيب ذكره عن أذهان أهل الهند لما نفثه فيهم من روح القدوة، فهم عاملين أبداً على اقتفاء أثره. **أكثر الله من أمثاله في بلاد الشرق ، لعله يفيق من غفلته فيستعيد مجده**[٢].

• الصورة الحقيقية للسيد أحمد خان الهندي:

لقد كشفت الدراسات الحديثة: عن حقيقة شخصية هذا الرجل ودوره، المدمر في تخريب بلاده - وبينت كيف استخدم الإنجليز حركة السيد أحمد خان، لترويج أفكار تهدف إلى تخلي المسلمين، عن دينهم أو على الأقل، تساعد على قتل روح المقاومة للإستعمار الغربي الصليبي.

كما استخدمه اليهود: لترويج الأفكار التي تتلاقى مع الفكر الماسوني العالمي. الذي يعمل على استغفال العالم، والإلتواء بطاقاته ليتجه إلى اللهو، واللغة، وملذات الحياة المادية فقط.

إن هذا الرجل الذي يقدمه - جرجى زيدان في مجلته الهلال - على أنه المناضل لتحرير بلاده من أسر القديم وتقليد الآباء والأجداد، كأحسن وأفضل نموذج لعظام الرجال وأكابرهم. داعية ربها أن يكثر في الشرق - من أمثاله ! هو الذي ألف كتابه (تبيان الكلام في ١٨٦٢م) يثبت فيه صحة التوراة والإنجيل، وأنهما ليسا محرفين ولا مبدلين !

إن أحمد خان: أيضا هو صاحب التفسير الذي يحاول من خلاله إلغاء القول بالمعجزات وخوارق العادات، لأن النبوة مسألة مكتسبة، مخالفاً بذلك نصوص

---

(١) مجلة الهلال عددها الصادر في أكتوبر - ١٨٩٨م.

(٢) نفس المصدر.

القرآن الكريم ومنها قولـه سبحانه ﴿اللَّـهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَـةِ رُسُـلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾(١). فهي أولاً وآخراً اصطفاء من الله عز وجل، يستطيع الإنسان الوصول إليها بعمله الخاص، وهو الذي أضعف فرضية الجهاد في عصره.

إنه الداعي إلى (إنسـانية الأديـان) أو مـا يطلق عليـه (العالميـة) الـتي تتبناها الماسونية لحساب اليهود، والرأسمالية لحساب الإستعمار الغربي والشيوعية الدولية لحساب الاشتراكية الماركسية ! (٢).

هـذا هو أحمد خـان وحركتـه، الـتي كـانت تقوم على الإفتتـان بـالعلم الطبيعي، والحضارة الغربية المادية، كما يفتتن في عصرنا الحاضر بعض المثقفين بما يسمى العلم Scienceوبالمركبات الحضارية التي قامت عليـه، والافتتـان بالعلم الطبيعي يؤدي إلى خفـة وزن القيـم الروحيـة والمثاليـة، وهي القيـم التي تقـوم عليهـا رسـالة الأديـان السماوية (٣).

وهذا ما حدا بأحمد خان إلى كتابة تفسير القرآن (١٨٨٠/ ١٨٩٥) فحرف الكلم عـن مواضعه وبـدل ما أنزل الله، وأنشأ جريدة باسـم (تهذيب الأخلاق) لا ينشـر فيهـا إلا ما يضلل عقول المسـلمين، ويوقع الشـقاق بينهم، ويلقي العداوة بين مسلمي الهند وغيرهم، خصوصا بينهم وبين العثمانيين. وجهر بالدعوة لخلع الأديان كافة ! إن هذا المذهب الدهـري الذي يدعو إليـه أحمد خان - الطبيعـة. الطبيعة !! كما سـجل ذلك السيد جمال الدين الأفغاني في العروة الوثقى . هذا المذهـب يفارقه حتى من الناحية الدنيوية دهريو أوربا. لأن من ترك دينه في البلاد الغربية يبقى عنده محبة أوطانـه ولا تنقضي حميته لحفظ بـلاده، من عاديات الأجانب ويفدي مصالحها بروحـه. أمـا أحمد خان وأصحابـه: فـإنهم كما يدعون النـاس لنبذ الدين، ويهونون عليهم مصالح أوطـانهم، ويُسَـهِّلون على النفوس تحكـم الأجنبي فيها، ويجتهدون في محو آثار الغـيرة الدينية والجنسـية، لا لأجر جزيل وشـرف رفيع. ولكن لعيش دنيء ونفع زهيد، وهكذا يمتاز دهري الشرق عن دهري الغرب:

---

(١) سورة الحج آية رقم ٧٥.
(٢) د. عمارة نجيب، د. محمود عثمان - البهائية في الميزان، ص١٠، رسالة الإمام.
(٣) د. محمد البهي - الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، ص٣٥، ط١١.

بالخسة والدناءة، بعد الكفر والزندقة.

كمـا أن خطورة أحمد خان تجسـدت في أنـه لم يكن فقط داعية إلى التجديد(*) الديني بل كان وفي نفس الوقت - صحفيا ومؤرخا، ومدرسا، ومشرفا

(*) وهنا ينبغي التنبيه إلى أن معنى التجديد كما يفهم من تراث الفقه الإسلامي ! وبخاصة كان منضوياً تحت إصطلاح الإجتهاد، وعندما عالج الأصوليون قضية التحديد فقد عالجوها في الواقع والحقيقة - من خلال موضوع الإجتهاد، والذي نجده محوريا وضافيا في كتب أصول الفقه الإسلامي، من أول شرط العدالة، والإسلام، وحتى ما يجوز له الخوض فيه وما لايجوز، ولكن ما أن أطل القرن العشرين حتى طرح مصطلح التجديد كبديل فكري معاصر للاجتهاد، والحقيقة أن بروز هذا المصطلح واكب مرحلة بدأت فيها المنهجية العلمانية تتسرب في قطاعات واسعة من حياتنا الفكرية والمعرفية والقيمية، والفنية، وكان الفصام واضحا بين الخط الإسلامي والخط العلماني - وهكذا غاب مصطلح العالم، والمتعلم، وظهر مصطلح المثقف، والمفكر، وغاب مصطلح الاجتهاد، وبرز مصطلح التجديد، الذي شاع في أوائل هذه المرحلة للحديث عن مفكري الإسلام الذين يقتربون بنسقهم الفكري من القيم الغربية، والمنهجية العلمانية الغربية - وقد بلغ العناد مداه في هذا الشأن، إلى الحد الذي تبنى فيه العلمانيون العرب كل دعوة تصادم أصلا دينيا، وتولوا الدفاع عنها وعن صاحبها، وأضفوا عليه صفة المجدد، مما أساء في النهاية إلى المصطلح الجديد نفسه، وحمله ميراثا نفسيا بالغ السوء لدى جماهير المسلمين فضلا عن الدعاة والعلماء.ويبقى في النهاية هذا التساؤل . هل يقر الإسلام مبدأ التجديد الديني أم يرفضه ؟

وهنا نجد بعض الأطر العامة لمنهجية التجديد الإسلامي:

١- إطار اكتمال الدين وتمام النعمة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (سورة المائدة: ٣) !! هذا هو المنطلق لحركية التجديد الديني في الفكر الإسلامي بانحصارها في إطار هذا الدين الذي اكتمل وتم فالتجديد من ثم: يكون بإعادة الحالة الدينية على مر التاريخ إلى جدتها التي كانت عليها يوم جاءت لأول مرة وهذا يمنع طرفي الزيادة والنقصان من جهود التجديد، فكل زيادة في الدين أو نقص منه بأي صورة كانت، وتحت أي شروط وضعت، هي باطل ومردود على صاحبه (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) كما أن الزيادة في الدين أو النقص منه تحت دعوى التجديد - تحمل - ضمنا - الإستدراك على حكم الله وتقديره - عياذا بالله تعالى - إضافة إلى كونه يقدح في معطى جوهري من معطيات العقيدة الإسلامية وهو - صلاحية هذا الدين بهيئته التي انتهى إليها بوفاة النبي (لقيادة البشرية من بعده وإلى قيام الساعة.

٢- الإطار الثاني: إنعقاد الإجماع الإسلامي منذ الصدر الأول على اعتقاد ختم النبوة، وانقطاع الوحي بوفاة الرسول الخاتم (، ومن ثم تكون كل دعوى للتجديد منسوبة إلى الإسلام ساقطة لاغية، إذا قامت على استئناف الوحي، وتجدد النبوة، وكل من أعتقد بهذا المعتقد فردا كان او طائفة فهو خارج عن الإسلام إجمالا.

٣- الإطار الثالث: النص القرآني وصحيح الحديث النبوي، هي مرجعية كل نشاط فكري تجديدي في الإسلام، وكل جهد يزعم التجديد في الفكر الإسلامي، وهو يمارس عملية " إسقاط النص، أو تجاوزه " وهو فكر منحرف، لأن الدين هو دين الله، فهو سبحانه واضعه وضابطه ومحدده، فإذا أسقطت النص، فإنك تتجاوز جزءا من الدين مهما تكن مبررات هذا الفعل.

٤- إن إعلان القرآن عن ختم النبوة وانتهاء حقبة الوحي المتجدد هو إذن رباني ضمني للعقل الإسلامي، بالإنطلاق في مسيرة الإجتهاد والتجديد على مر القرون، لأن تنزيل النصوص على الوقائع المتجددة، وقياس الفروع على الأصول، ورد غير المنصوص عليه إلى روح الشريعة ومقاصد الدين، والترجيح بين النصوص التي ظاهرها التعارض، كل ذلك وغيره لم يعد مشروعا له إنتظار وحي متجدد، يقضي فيه، وإنما هو ينتظر المجتهد، الذي يعمل عقله وعلمه بفقه الدين، ومنطق التأويل، ليخرج للناس الحكم الشرعي الذي يراه أقرب إلى الصواب، وعلى هذا فإن أية دعوة إلى غلق باب الإجتهاد باطلة شرعا، مناقضة للإذن الإلهي الذي تضمنه إعلان ختم النبوة، فالاجتهاد والتجديد المنضبط علميا - هو الضمان الحقيقي لاستمرار ميراث النبوة فاعلا.

هذه هي بعض الخطوط العامة، التي ينبغي وضوحها بقوة عند أي مناقشة لقضية التجديد الديني والاجتهاد.

على كلية علمية دينية هي (الكلية الإنجليزية الشرقية المحمدية) ! التي خرجت الكثير من شباب الهند المتقدمين ! والتي كانت تدرس فيها المسيحية بنفس العناية التي يدرس بها الإسلام، مع أخذ حظ وافر من العلوم الحديثة، والنظم الجامعية الغربية (الإنجليزية) ولهذا كان للسيد أحمد خان نفوذ سياسي، تربوي، يقترن بنزعته التجديدية الدينية، أثرت بدورها فيما بعد في خلق المذهب القادياني [1].

أخطاء المنهج عند أحمد خان:

تتبلور نقاط الضعف التي ارتكزت عليها مدرسة السيد أحمد خان أو الأخطاء المنهجية فيما يلي:

١- أنه لم يفكر في إخضاع النظام التعليمي، الذي أخذ شكله النهائي في البيئة الغربية لطبيعة هذا المجتمع الإسلامي الهندي، الذي كان يريد تطبيقه فيه، وحاجاته، وأوضاعه، و لم يفكر في سبكه سبكا جديدا إسلاميا هنديا. بل استورد هذا النظام من الغرب بتفاصيله، وخصائصه وروحه، وطبيعته بل إنه شرط في قانون الكلية - أن يكون العميد دائما إنجليزيا، وأستادان - على الاقل - من الإنجليز - ومدير الثانوية من الإنجليز ويزاد في هذا العدد كلما اتسعت له ميزانية الكلية [2]. مما كان له أعمق الأثر في نظام الكلية وأخلاق الطلبة، متى استطاعوا - بنفوذهم - أن يلعبوا دورا مهما في سياسة البلاد، وقد كان عميد الكلية المستر تيوديك - الداهية الإنجليزي، صاحب التوجيه الأول في السياسة الإسلامية الهندية، وقيادة الرأي، وقد كان لهذا التوجيه عواقب وخيمة في السياسة وإتجاه المسلمين السياسي.

وهكذا اقترنت دعوة سيد أحمد خان، التعليمية بالدعوة إلى الحضارة الغربية، من غير لزوم وحاجة إلى ذلك. مما أدى إلى نشأة - جيل مثقف إسلامي الإسم، غربي التفكير، إنجليزي الطراز، مضطرب العقيدة في بعض الأحيان.

---

(١) السابق ص٣٧.

(٢) صديقة المطاف حسن- سيرة سيد أحمد خان - نقلا عن أبو الحسن الندوي - الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص٢٨٢.

٢- السمة الثانية: التي ارتكزت عليها دعوة سيد خان:

هي تمسكه في هذا النظام التعليمي بتعليم اللغة والآداب فقط. ولم يعن بتعليم الفنون، والعلوم التطبيقية العملية، العناية التي تستحقها، مع أنها ثمرة العلم الجديد اليانعة، وسر قوة الأمم الغربية وسيادتها، وهي التي يجب أن تستعاد من الغرب، ويحرص على دراستها والبراعة فيها.

بل إنه - عارض في بعض الأحيان تعليم الصنائع، والعلوم، معارضة شديدة، وكتب في هذا الموضوع مقالات شديدة اللهجة، مريرة النقد، آخرها المقال الذي نشرته مجلة (عليكرة كذت) [1].في عددها الصادر في ١٩/ ٢/ ١٨٩٨م يقول فيه: (إن الهند نظراً إلى حالتها الراهنة، ليست في حاجة إلى تعليم الصنائع، إن الأهم المقدم هو الثقافة الفكرية، من المستوى الأعلى التي لم تتحقق أو لم تكتمل بعد ..)

وكان من نتيجة ذلك:

إتجاه الجامعة - التي أنشأها خان - إتجاها علميا أدبيا محضا، وسيطرت عليها نزعة التقليد والتطور، ونزعة التوسع في الآداب، وخرجت عدداً لا يستهان به من الخطباء والأدباء والإداريين والقضاة والموظفين الكبار. ولم تخرج بطبيعة الحال، رجالا مبرزين ومبتكرين في علوم الهندسة والميكانيكا، والطبيعة، والكيمياء، والصناعات المفيدة، والعلوم التي كان الشعب الإسلامي الهندي في أمس الحاجة إليها.

وهكذا يتضح من تأمل السيرة الذاتية ومجمل الأعمال أن أحمد خان لم يكن مخلصا لأمته بقدر ما كان مخلصا للإنجليز للأسباب الآتية:

١) وضع كتابا سماه (تبيان الكلام) سنة ١٨٦٢م فسر فيه الإنجيل، وزعم أنه والتوراة غير محرفين، وذلك يخالف العقيدة الإسلامية مخالفة تامة.

٢) شجع المذهب الطبيعي في الهند، والذي كان يعمل على ترويجه الاستعمار الإنجليزي، وعمل على مقاومة جمال الدين الأفغاني (والحقيقة أنه لما استقر

---

(١) المرجع السابق ص٧١.

الاستعمار في الهند شجع الإنجليز أحمد خان بها دور - من صنيعتهم لخلع دين المسلمين، والتدين بمذهب الإنجليز، فألف كتابا يبين منه أن التوراة والإنجيل ليسا محرفين ولا مبدلين، لإرضاء الإنجليز، ثم قال بالمذهب الدهري، فلا وجود إلا للطبيعة العمياء دون إله حكيم، وجميع الأنبياء كانوا طبيعيين، ومن ثم يمكن التخلص من الشرع، وبالتالي من الجهاد - ودفع المسلمين إلى الشهوات والحياة الدنيا) [1].

٣) وضع تفسير للقرآن الكريم نحا فيه منحى طبيعياً يؤيد به إتجاهه الدهري وأول فيه النصوص، حتى لا تخالف الحضارة الغربية، فجعل النظريات الغربية هي الأساس الذي لابد أن تخدمه النصوص والأديان وجعل النبوة غاية تكتسب بالرياضة، كما أضعف من فرضية الجهاد وقرب الهوة التي تفصل بين أهل الكتاب والمسلمين، ودعا إلى إنسانية الأديان، الأمر الذي تدعو إليه الماسونية واليهودية والعلمانية والشيوعية الدولية [2].

المبحث الرابع
السيد أبو الهدى الصيادي

وفي سلسلة تقديمها للشخصيات الإسلامية التي أحاطتها أقلام كثير من المؤرخين بعلامات الاستفهام ؟! قدمت الهلال شخصية أبو الهدى الصيادي. فماذا سجلت الهلال عنه وماذا أخفت . ولماذا ؟

يقول جرجى زيدان في مجلته الهلال: إنه صاحب الفضل، العلامة السيد محمد أبي الهدى أفندي الذي خصته العناية بشرف الحسب والنسب والأيادي البيضاء في الكتابة، والتأليف، المولود سنة ١٢٦٦هـ ينتهي نسبه إلى الإمام محمد الباقر بن الإمام زين العابدين بن سيدنا الحسين - اشتغل بتحصيل علوم الفقه والتفسير

(١٧٨) العروة الوثقى ج٢ ص١٤٠ نقلا عن حسن حنفي، جمال الدين الأفغاني المائوية الأولى ص٤٨.
(١٧٩) د/ عبد المعطي محمد بيومي، الإسلام والتيارات المعاصرة، ص١٥٥، ١٥٦.

والأدب ... حفظ من كلام القوم وأمثلتهم وقصائدهم، ما يزيد على مائة ألف بيت، ثم تشرف بلبس الخرقه والخلافة الرفاعية ! من يد والده الطاهر السر السيد الأفضل ... حضر إلى القسطنطينية مركز الخلافة فنشر بها علم الطريقة، وعاد منها بنقابة جسر الثغور من أعمال حلب، ثم تولى نقابة الأشراف بها - ولا زال يحضر إلى الأستانة ويرقى بالتدريج إلى المناصب العلية، حتى بلغ خبره إلى مسامع حضرة أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين خادم الحرمين الشريفين (السلطان الغازي عبد الحميد !).

وما أعجب وصف الخواجا جرجى للسلطان عبد الحميد بهذه الصفات !! وهو الذي ملأ الأرض كلها صياحا وملأها سبابا وأحقادا وأكاذيب على السلطان عبد الحميد - يرحمه الله - أم أن ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء، ثم أخذ جرجى زيدان في الهلال يعدد مؤلفاته بعد ذلك إبتداء من (كتاب ضوء الشمس في قوله ﷺ بني الإسلام على خمس) (وقلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر)، (بهجة الزمان في مآثر خليفة سيد ولد عدنان مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان نصره الرحمن) (الغارة الإلهية في الانتصار للسادة الرفاعية)، وعدت الهلال ما يزيد على سبعين كتابا. هذا ما سجله جرجى زيدان في الهلال عن السيد أبي الهدى الصيادي ويلاحظ عليه ما يلي:

١) الثناء الوافر عليه لأنه يحمل لواء مذهب سلبي لا يمت للوقوف في وجه مصالح الاستعمار بصلة - لأن الفكر الصوفي الرفاعي منهجه الزهد المطلق في الحياة والابتعاد عن الصراعات، وحتى عن حماية البلاد، إذا وقعت تحت قبضة الاستعمار.

٢) أول مرة تسجل الهلال عن السلطان عبد الحميد الثاني (أنه أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين) مع أنها تخصصت أو خصصها صاحبها الخواجا جرجى في هدم الخلافة، وتقويض بنيانها بتلطيخ سمعة (الطاغية ! المستبد ! الجاهل ! عبد الحميد ! كما كتبت عنه دائما).

ولكن لأنها الآن تريد أن تضفي هالة معينة، وبطولة زائفة على هذا الرجل الصيادي فإنها (تقول إن أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين قربه إليه ! حتى

يحتل مكانته اللائقة، بمن يحظى برضى الخليفة في نفوس المسلمين.

ولكننا إذا بحثنا عن سيرة أبي الهدى الصيادي في مصدر آخر فإننا نجد في ذلك ما سجلته الموسوعة العظيمة التي قدمها د. عبد العزيز الشناوي (الدولة العثمانية دولة مفترى عليها) ما يكشف الجانب الآخر من هذه الشخصية ويحيطها بكثير من علامات الاستفهام ؟؟؟

تقول الموسوعة: أبو الهدى الصيادي كان سوريا حلبيا، فقير المال، والحسب ولكنه أفاقاً، دفعته المقادير إلى استانبول، وكان ماهراً ذكيا وسيم المحيا ماضي العزيمة، قديرا على التغلغل في أعماق نفوس الناس، استحوذ على عقل السلطان عبد الحميد، وربط نسبه زورا وبهتانا بأعلى نسب، وأدخل في روع السلطان أنه قرشي هاشمي علوي رفاعي، له أتباع كثيرون، كان لا يطيق أن ينافسه منافس لديه، واستطاع أن ينتزع نقابة الأشراف بولاية حلب من أسرة عبد الرحمن الكواكبي، وكانت له أعين تأتيه بالأخبار فيستغلها أمهر استغلال، لم يقف عند الدين، والولاية والصوفية، بل امتد نفوذه إلى المسائل السياسية، والإدارية والعسكرية، يحلم فلا حد لحلمه، ويبطش فلا حد لبطشه، سعى إليه الأمراء والأعيان والعلماء، وكانوا عونا له على ما أراد، يبطش بهم حين يريد، ويؤلف بهم الكتب، حين تستهويه شهوة العلم، وينظم بهم القصائد، حين يريد أن يتظاهر بتأصل ملكة الشعر والأدب والسماحة فيه.

ووقر في أذهان معاصريه أن الحق لا يأتي إلا عن طريقه، والباطل لا يأتي إلا عن طريق غيره – مستغلا دلاله الكبير على السلطان عبد الحميد الذي كان ينزل على رأيه، ويسارع إلى إسترضائه، فكان له أثر كبير في قرارات عديدة اتخذها السلطان، وعادت بالضرر على الدولة، حيث كان لا يرد له طلب .. ومن الذين تعرضوا لدسائس – الصيادي – جمال الدين الأفغاني، وعبد الله النديم – الذي عين مفتشا للمطبوعات بالباب العالي، بعد عفو السلطان عبد الحميد عنه، بمرتب كبير – لكن الصيادي لم يلبث أن جاهره العداء. وكان النديم لاذع اللسان، فلم يتحرز أن يطلق فيه قلمه، ولسانه، وفضح دسائسه وشغفه بوضع تقارير ملفقة للسلطان،

وإتخاذه الدين ستارا لتنفيذ أغراضه، ووضع كتابا سماه (المسامير) لم ينشر في حياته أطلق فيـه على الصيـادي (أبي الضلال) وقـال عنـه أنـه يمـارس الدعارة في أوسـع نطاق، وأن الشيطان يستغيث من الصيادي الذي فاقه في مكره وكيده - وبلغ أبي الهدى أمر هذا المخطوط فأبلغ السلطان أن فيـه هجـاء لـه فأمر بـالبحث عنه دون جدوى، ثـم أمر بمصادرتـه أينمـا وجد، غـير أن النديم سـلمه لرجل يونـاني، كان ضابطا إداريا بمدرسـة الحقوق المصرية احتفظ بـه وأخفاه وهرب إلى مصر وتم طبعه فيها.

ولم يهدأ للصيـادي بـال، حتى رد على كتـاب المسـامير بكتاب سمـاه (صوت الهزار ونعيق العذار) دافـع فيه عن نفســه، وهاجم فيـه النديم وقـال عنـه إنه دنيء الطبع، لا يرضى لـه خلا، يوالي اللئـام، ويعـادي الكرام، وهـاجم مصر بأنهـا دار الفاسدين، ودار حرية، وفجور، وموضع فسق غير مستور).

وكان قد أصدر واحداً وعشرون عالما من علماء الأزهر فتوى ذهبوا فيها إلى أن الصيادي كافر زنديق.

ثـم تنهي الموسوعة حديثهـا عن الصيادي . بأنـه كان وصمـة في تاريخ السلطان عبد الحميد الذي أفسـح لـه صدره، واسـتمع إلى وشـاياته ودسائسه، ورفعـه مكانا عليا، على الرغم من أن الصيادي كان عدوا لكل إصلاح وخصيما لكل رجل حر، وله ضحايا كثيرون في السجون، وفي ذل الفقر، وفي بؤس المنفى) [1].

(١) السابق ص٣١٦ وكذلك: زعماء الإصلاح - أحمد أمين ص٢٦١-٢٦٢، مذكراتي في نصف قرن، أحمد شفيق باشا ١٩٣٤م، د. علي الحديدي - عبد الله النديم خطيب الوطنية ص٣٩٨، مكتبة مصر.

الباب الرابع

روايات جرجى زيدان
عرض ونقد

الفصـــل الأول : بين يدي الروايات

- الرواية المعنى والجذور والسمات
- شهادات معاصرة على الروايات

الفصـــل الثانى : الروايات تحليل ودراسة

- م/١ فتاة غسان
- م/٢ أرمانوسة المصرية
- م/٣ عذراء قريش
- م/٤ غادة كربلاء
- م/٥ الحجاج الثقفي
- م/٦ شارل وعبد الرحمن
- م/٧ أبو مسلم الخراساني
- م/٨ العباسة أخت الرشيد
- م/٩ صلاح الدين الأيوبي
- م/١٠ شجرة الدر
- م/١١ أسير المتمهدي
- م/١٢ الانقلاب العثماني

الفصل الأول

بين يدي الروايات

المبحث الأول

الرواية المعنى والجذور والسمات

تمهيد: الشعب العربي قصاص بطبعه، والقصة عريقة في أدبه تسري في روحه، وله منها وراثات قديمة مختلفة المنابع، وحسبك أن ذلك الشعب الذي اتخذ في شتى عصوره السوالف من القرآن مثله الأعلى. وهو أحفل مصدر للقصص التاريخي الرباني الرفيع، وحسبك أيضا أنه ذلك الشعب الذي تمخضت موهبته الفنية عن حشد زاخر من الأسماء والنوادر والأساطير التي انتهت به إلى ذلك اللون من القصص الشعبي الذي عرفه العالم أجمع، وخاصة أنفس جوهرة فيه، وهي حديث شهر زاد في ألف ليلة وليلة ! [1].

وبطبيعة الحال فإن هذه الحقيقة لم تكن غائبة عن جرجي زيدان، لذلك فقد

---

(١) محمود تيمور، اتجاهات الأدب العربي في السنين المائة الأخيرة، مكتبة الآداب، بدون رقم للطبعة، ص١٨ وهذا لا أسلم به ألبتة للسيد محمود تيمور - مع وافر التقدير والاحترام الذي يستحقه - لأن ألف ليلة وليلة مغايرة لذلك تماما، ولقد جرت محاولات كثيرة لعرض هذا الكتاب - ومعه رباعيات الخيام، والأغاني - كأنما هي مراجع أساسية يستمد منها مفهوم الحياة الاجتماعية والفكرية للمسلمين.

وقد ثبت أن بعض المراسلين الأجانب في بيروت هم الذين أعادوا طبع كتاب «ألف ليلة وليلة» ١٨٨٨م وحفلوا بنشره وتوالت طبعاته عن طريق دور النشر الموجهة من الاستعمار والنفوذ الغربي. ثم جرت أبحاث متعددة في محاولة للقول بأن القصص التي يضمه ألف ليلة وليلة يصور حياة العرب والمسلمين بصفة عامة، بينما تكشف أقل مراجعة لمصادر ألف ليلة وليلة عن أن قصصها مأخوذ من المراجع الفارسية قبل الإسلام، وأنها لا تمثل بحال مفاهيم الفكر العربي الإسلامي وأنها في الأغلب بمجموعة أساطير هندية. بدأت بحكايات السباع الضاري والمرجع لها (هزار أفسانة) ومعناه (ألف رواية) وقد حكى المؤرخ الكبير المسعودي المتوفي ٩٥٦هـ في كتابه (مروج الذهب) عن وجود كتاب قديم بالفارسية أو بالبهلوية يحكى عن ملك وعن بنت وزيره (شهر زاد) وخادمتها (دين زاد) وكذلك أشار النديم مؤلف الفهرست ت١٩٠٥م إلى كتاب ألف ليلة مجملا وقال إنه كتاب الحماقة والسيئات.. وقد كانت كل إشارات الكتاب والمؤرخين العرب والمسلمين إليه إشارات مقبحة، على أنه مصدر ساقط في أنظار علماء العرب - وعلى هذا فكتاب ألف ليلة وليلة، كتاب سابق على الإسلام ومصدره أساطير هندية وفارسية. وقد ظل العرب يتناقلون بعد ترجمته كوسيلة من وسائل التسلية، ويضيفون إليه حكايات جديدة، كما أضيفت إليه صور من العهود المختلفة، فهو: بمجموعة أساطير فارسية وتركية وهندية قديمة. ومن هنا يمكن تقدير الموقف. حين يراد أن يكون مرجعا من مراجع دراسة حياة المجتمع الإسلامي. بل المرجع الوحيد الذي اعتمد عليه كثير من المستشرقين والباحثين، دلوا عليه تلاميذهم في محاولة لرسم صورة ظالمة غير حقيقية، لا تمثل بحال صورة المجتمع الإسلامي الحقيقية - فكل هذه الكتب - الأغاني - كتب المحاضرات والمسامرات - ألف ليلة وليلة الخ، لم تكتب أساساً بروح البحث العلمي أو التاريخي، وإنما كانت جميعا لأسمار وقصص الظرفاء والندماء. وكان جامعوها وكاتبوها ضعاف المكانة بحيث لا يستطيع أحد أن يضعهم في صف العلماء والباحثين ذوي التقدير، وبالتالي لا تكون آثاره موضع الثقة الكاملة - أنور الجندي، مقدمات العلوم والمناهج ج٥ ص١٢٠ دار الأنصار.

عمل على الإستفادة القصوى من هذه الخاصية التي يتميز بها الشعب العربي، ولما كان لـه اهتمام خاص بـالأدب العربي حفلت به صفحات مجلتـه، ونطقت به تأليفه فقد حرص على تقديم رواياته التاريخية التي بلغت إثنتين وعشرين رواية - قدم فيها التاريخ العربي كله من قبل البعثة النبوية، وحتى العصر الحديث - كتبت بلغة سهلة مبسطة متميزة بقدر كبير من التشويق والجاذبية - ونشرت تباعا كملاحق لمجلة الهلال لتزيد من توزيعها وليتنامى بها رصيد القراء، الذي كان من أعظم شواغل صاحب المجلة [1].

ومـا أود التعرض لـه في هذا الفصل، هو أن أعرض نماذج من تلك الروايات، واحدة، واحدة، ماذا قدم فيها جرجي زيدان ؟ وهل تحلى بالموضوعية والإنصاف وهو يسجل تاريخ الإسلام ؟ ومـا الذي دفعه إلى الاتجاه لهذا العمل ؟ وهل كان تاريخنا الإسلامي مهملا أم كانت مواقف أسلافنا البطولية مبعثرة لم ينظمها عقد فريد في كتب المؤرخين الثقات فأصبحت في حاجة إلى تجميع وتمحيص جرجي

---

(١) وفي هذا الهامش بيان نماذج من تواريخ ملاحق المجلة وردت بها الروايات: مرتبة ترتيبا أبجديا:
١- أحمد بن طولون النص من ١٠/ ١٩٠٨ إلى ٧/ ١٩٠٩. عرض وتنقيب وترجمة - أحمد بن طولون ٧/ ١٩٠٩ ص٦١٥.
٢- أرمانوسة المصرية النص من ١/ ٩/ ١٨٩٥ إلى ١٥/ ٨/ ١٨٩٦ عرض وتعقيب وترجمه إلى اللغة الروسية ١٥/ ١٠/ ١٨٩٥ ص١٤٤/ الفرنسية ١٥/ ٧/ ١٨٩٧ إلى اللغة الإنجليزية ١٥/ ١/ ١٨٩٧ - تشخيص لأي تمثيل هذه الرواية في ١/ ٢/ ١٨٩٧م إلى اللغة الهندية ١/ ٩/ ١٨٩٩ ص٦٩٤.
٣- أسير المتمهدي: ١٥/ ٣ /١٨٩٤م ص٤٤٧، ١/ ١٠/ ١٨٩٦م ص١٠٣ - ١٥/ ٣/ ١٨٩٩ ص٣٦٧.
٤- الانقلاب العثماني من ١/ ١٠/ ١٩١٠ إلى ١/ ٧/ ١٩١١م ترجماتها إلى الفارسية ٤/ ١٩١١م، ٦/ ١٩١١م، ١٢/ ١٩١٢م، الروسية: ٧/ ١٩١١م، تمثيلها في اللغة العربية ١/ ١٩١٢، ترجماتها إلى البرتغالية ١/ ١٩١٣م.
٥- الحجاج بن يوسف الثقفي: ص١١/ ١٩٠١ إلى ١٥/ ٧/ ١٩٠٢ ترجمتها إلى التركية ١٠/ ١٩١٠.
٦- شارل وعبد الرحمن من ١٠/ ١٩٠٣ إلى ٨/ ١٩٠٤م.
٧- شجرة الدر من ١٠/ ١٩١٣م إلى ٨/ ١٩٠٤م.
٨- العباسة أخت الرشيد ١١/ ١٩٠٥ إلى ٥/ ١٩٠٦ ترجمتها للفرنسية ١٠/ ١٩١١.
٩- عذراء قريش ١٠/ ١٨٩٨م إلى ٩/ ١٨٩٩م - أم المؤمنين ومقتل عثمان ١٥/ ٣/ ١٨٩٩م، ترجمتها إلى الإنجليزية ١/ ١٩٠٠م.
١٠- عروس فرغانة ١٠/ ١٩٠٧م إلى ٧/ ١٩٠٨م.
١١- غادة كربلاء ١/ ١٠/ ١٩٠٠م إلى ٧/ ١٩٠١م ترجمة فارسية ١٢/ ١٩٠٤م.
١٢- فتاة غسان ٩/ ١٨٩٦م إلى ٨/ ١٨٩٨م ترجمة فرنسية ١/ ١٨٩٧م، تركية ٤/ ١٨٩٧م
١٣- فتح الأندلس من ١٠/ ١٩٠٢ إلى ٧/ ١٩٠٣، ١/ ١٩١٠م.
١٤- المملوك الشارد ٥/ ١٨٩٥م - ٢/ ١٨٩٨م ترجمة ألمانية ٢/ ١٩١٤م، ١٥ ١٧ رمضان ١٠/ ١٩٠٩م..الخ.

زيدان وأمثاله ؟ لماذا قصر جرجي جهده على الدراسات التاريخية. خاصة التاريخ الإسلامي مع أن تكوينه الثقافي كان قمينا بأن يوجهه وجهة أخرى. خاصة وأنه كان يرتدي وشاحا دينيا يبعده عن الحديث في تاريخنا الإسلامي ؟ ولو كان أنصف تاريخنا، لشكرناه، وشددنا على يديه

لكن أن يأتي كاتب ويتصدى لكتابة التاريخ الإسلامي، بحجة نشر العلم والمعرفة وتشجيع العامة على قراءة التاريخ، ثم يستعير مما كتبه الأجانب عن تاريخنا هنا لابد من وقفة حازمة في وجه هذا التيار.

وقبل الدخول في تفصيلاته وجزئياته ينبغي للبحث أن يقدم تعريفا للرواية. والفرق بينها وبين مرادفاتها. وكذلك أهمية القصة أو الرواية كأحد الأشكال الأدبية. ومعنى القصة في لغتنا العربية ومتى نشأت ؟ وما هي السمات التي تميز القصة في أدبنا العربي عن القصة في الأدب الغربي ؟ وما نصيب تلك الاتهامات التي توجه إلى أدبنا العربي بأنه لم يعرف هذا الفن إلا في أزمنة متأخرة جدا، ما نصيبها من الصحة ؟؟

تعريف الرواية أو القصة:

بداية فإن القصة ترادفها الرواية، فمن حقك أن تقول قرأت قصة في موضوع الإحسان إلى الفقراء، أو أن تقول قرأت رواية.

معنى القصة في معاجمنا اللغوية:

- جاء في مختار الصحاح: (قص) أثره فتبعه من باب رَدَّ ومنه قوله تعالى ﴿**فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا**﴾ (١) والقصة: الأمر والحديث والقصص بالكسر جمع القصة التي تكتب (٢) وتكاد تجمع معظم معاجمنا العربيــة على أن: كلمة قص وقصص، أصلها من فعل قصَّ: يقص، بمعنى تتبع الأثر، وبهذا تجرد معنى «القصص» من

---

(١) سورة الكهف جزء الآية رقم ٦٤.

(٢) محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، مختار الصحاح ص٥٣٨، بدون رقم للطبعة، دار القلم.

أعمق جذوره في الفعل العربي، وفي جميع إستعمالاته الإصلاحية، من أي تخيل أو تلفيق أو تصور لما لم يقع. فالقص الذي هو تتبع للأثر هو «عمل قياسي» كالقياس بالموازين والمكاييل، والأجهزة المماثلة، كما أنه في نفس الوقت عمل «تسجيلي» علمي، لنتيجة القياس، وهو لا يحتمل في النتيجة أي زيغ عن الحقيقة العلمية المجردة، وإلا خرج من معناه وهدفه (وعلى هذا فالقصص عند العرب: لا يعني أكثر من تتبع الصدق الذي يكمل به الإعلام عن خبر صادق، تتجلى به حقيقة نافعة، وسنة من سنن الله سائرة، وعظة وذكرى لمن ألقى السمع. وهي بذلك تدخل مع كونها أدبا ودينا في باب علم التاريخ. وما أعظم هذا في فضل القصص الحق) [١].

معنى القصة في القرآن الكريم:

تعني تتبع الخبر والحديث على وجه الحق والصدق فيه، وهو تتبع لا مجال فيه قط للخيال أو المبالغة، كما أنه تتبع لا تقتصر حكمته على الصدق البياني للخبر، والصدق التاريخي، وإنما يرتبط دائما بهذا الصدق، أن يكون الخبر القصصي كما يقصه القرآن جزءا حياً من حركة التاريخ تنزل الله جل وعلا به أمام أعين المؤمنين وأسماعهم.

ليشهدوا، ويعوا، دلالة السنن التي حكمت مسيرة البشر، ومصائرهم في الماضي حكما علميا مقننا، لا تحول فيه ولا تبدل، فالغاية من القصص القرآني ليست مجرد الإعلام بما حدث من أخبار الأمم والشعوب بالتتبع الصادق لأخبارها، وإنما الغاية أن يكون هذا القصص هاديا للمؤمنين الذين اختاروا الهدى بالله عن علم، ونبذو الضلالة والإلحاد عن برهان ويقين) [٢]. فمنذ نزول القرآن الكريم كانت مهمة القصص جلية واضحة ومحدودة ومرتبطة بأوثق رباط بالدعوة إلى الله ، والإلتزام بشريعته، وقد وضع النبي ﷺ حدود هذه المهمة الدينية الدنيوية للقصص بأنواعه

---

(١) أحمد موسى سالم، قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح ص١٦١، دار الجيل بيروت، بدون رقم للطبعة.

(٢) المرجع السابق ص٢١١.

قبل الإسلام وبعد الإسلام في قوله الجامع ﷺ لا يقص إلا أميراً ومأمورا أو مختال).

سمات القصة في الأدب الغربي:

بالرجوع إلى جذور أنواع القصص الأوربية في اليونانية، واللاتينية، القديمتين، نجد أن الجذور الأصلية لجميع القصص والحكايات، وحتى الأخبار التاريخية المفروض فيها الصدق ترجع إلى الكلمة اليونانية - (Story) ومعناها (خرافة) فالجذر اللغوي لجميع أنواع القصص وحتى كتابة التاريخ هو جذر واحد أساسه «الخرافة» ومعنى ذلك أنه سواء أكان القصاص ينحو من البداية نحواً خرافيا مثل هوميروس، أو نحوا علميا في قص التاريخ مثل هيرودت - فالأمران عندهما عمل خرافي كما يثبته واقع ما كتباه إلى اليوم.

أنواع القصة:

١) القصة الطويلة: وأغلب ما يكون نسجها قائما على حوادث متلاحمة، وحوادث يأخذ بعضها بحجز بعض ويرتبط فيها أول بآخر ارتباط الأجزاء بالكل لتنتهي إلى غاية محددة واحدة.

٢) القصة القصيرة: هي فكرة مقتضبة وحادثة واحدة، ونسج منفرد وعمل غير متوقف فيه أول على ثان (تتسم بالاقتراب من واقع حياة الإنسان، والإقلال من الخيال الطاغي فهي تستعمل الخيال لبناء الواقع، أو هي شريحة من الحياة)[١]- يمكن لكاتب القصة الطويلة أن يحولها إلى قصة قصيرة أو إلى تمثيلية، لكن ذلك غير ممكن بالنسبة للقصة القصيرة [٢].

٣) القصة التعليمية: ومن أبرزها قصة حي بن يقظان.

٤) المقامة: وتهتم بتعليم اللغة، بجانب الإشارة لمظاهر الفساد في المجتمع ويذهب بعض الباحثين إلى أن السبب في نشأتها هو الدرس اللغوي ويحتج لذلك بأن

(١) على جواد الطاهر: الثقافة الأدبية ص٧٢ دار الرائد العربي بيروت.
(٢) د/ إبراهيم على أبو الخشب، في محيط النقد الادبي، ط١، الهيئة المصرية العامة ص١٩٤.

مؤليفها هم اللغويون، وتأثر هذه النشأة بابن دريد، وأحاديثه فهو عالم لغوي، ومن ثم فتلامذتـه بديع الزمان الهمذاني أول من كتب المقامات، حتى يعتبر البعض أن ولادتها قد اكتملت على يديه [(١)].

والقسم الثاني: على النقيض تماما فقد استأثر بلعنات كبار المثقفين التي حلت عليه، لإتصاله المباشر بالنشاط القصصي المتمثل في التراث الشعبي مثل ألف ليلة وليلة، والملاحم الشعبية التي تستهوي العامة، إلى نشاط سلبي لا جدوى منه للدنيا والآخرة، فضلا عن ضعف لغتـه، وقربـه من العامية، وهذا الانفصال بين قسمي القصـة لم ينف في الأدب الحديث، فالقسم الأول: يدخل فيـه كتاب رفاعـة الطهطاوي (تخليص الإبريز في تخليص باريز) الذي يتخذ شكل رحلة لها أهداف تعليميـة مباشـرة: مع خطورة الأفكار التي دعت إليها - وكذلك كتاب «علم الدين» لعلي مبارك وإن كان أكثر جفافا من كتب الرحالة القدامى.

والقسم الثاني: توارثته كتب القصص المسلية، واستحوذت على هجوم المثقفين، وقد حاول بعض كبار المثقفين تقريب الفجوة بين قسمي الرواية، وحاولوا رفع اللعنة عن روايات التسلية، وحقق بعضهم نجاحا ملموسا، من أمثال جرجى زيدان! ومصطفى لطفي المنفلوطي [(٢)].

وهذا ما يجعل لروايات جرجى زيدان - وهي محل بحثنا - خطورة بالغة - فهو يحاول من خلالها جذب إهتمام جماهير المثقفين والمتعلمين والقراء، خاصة فئة الشباب، وهم عصب الأمة ومحط آمالها، إلى قراءتها، والاستمتاع بها، والتعلم منها، رغم ما تحتويه من إفساد وتشويه لأعظم ما تملك هذه الأمة وهو تاريخها - الذي جعله جرجى زيدان محورا لأحداث رواياته التي أسماها «روايات تاريخ الإسلام» والإسلام منها براء حيث عمل على تلمس حالات الشذوذ، والبحث عن لحظات الضعف، وتسليط الأضواء الكاشفة عليها. فضلا عن محاولاته الكاذبة والملفقة، لتشويه وإفساد مفهوم الشخصية الإسلامية، وإساءاته البالغة لأبطال

---

(١) عبر حوايد - السائلة ص٦٥.

(٢) د/ عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة ص٩٥، دار المعارف بالقاهرة الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٦.

الإسلام، أمثال هارون الرشيد، وعبد الرحمن الناصر، وأحمد بن طولون، وصلاح الدين، والأمين والمأمون، والسلطان عبد الحميد، فضلاً عن تصويره للخلفاء الراشدين، والصحابة، والتابعين، بصورة الوصوليين الذين يبتغون الحكم بأية وسيلة.

ولكن متى نشأت القصة ؟

القصة أو الرواية فن طبيعي قديم، صاحب الأمم من عهد البداوة إلى ذروة الحضارة، ولا يزال إلى اليوم، يمثل مكانة ممتازة بين الفنون الأدبية الأخرى، لاتصاله بحياة النلس، الماضية والحاضرة، ولمرونته وإتساعه للأغراض المختلفة، ولجمال أسلوبه وخفته على النفوس، وقد كان هذا الفن سمر العرب في الجاهلية، حتى بلغ به القرآن الكريم أسمى درجة، بأبلغ أسلوب وأفصح بيان، ثم نشط بعد ذلك وتعددت أنواعه وأغراضه فكان: **حقيقيا**: كقصص الرحلْ والملوك، والأدباء، و**خياليا**: مثل كليلة ودمنة، وفاكهة الخلفاء، ومنه نوع **أدبي** قصير كالمقامات و**حماسي** طويل: كقصة عنترة.

وفي العصر الحديث: أخذت الرواية وصفا فنياً وخضعت لبعض القوانين في التأليف والأسلوب، فكثرت أشخاصها وحوادثها، وتشابكت ثم تعددت **مواقفها** ونتائجها، ودونها في ذلك القصة[*] (Story) ثم الأقصوصة أو الحكاية ذات المغذى الواحد، والفكرة الواحدة، على قصرها وقلة حوادثها، وأشخاصها، وبساطتها،

ثم تنوعت الرواية من ناحية موضوعها إلى:

(١) تاريخية (٢) اجتماعية (٣) فلسفية (٤) فكاهية [(١)]. وعلى هذا فلا نصيب من الصحة لتلك الإتهامات التي تحاول أن تجرد العرب من معرفتهم، ونبوغهم، وبصمتهم الواضحة في الفن القصصي - لأنهم بعيدون عن التخيل، بحكم إقامتهم بين الجهال، وإقامتهم على رمال الصحراء - كما ادعى ذلك

(*) عند من يرى التفرقة بين الرواية والقصة.

(١) د/ أحمد الشايب، الأسلوب دراسة بلاغة تحليلية للأحوال الأدبية، ط٥، ص٧٥.

أرنست رينان وغيره من المستشرقين.

أهمية القصة ومكانتها بين الفنون الأدبية المختلفة:

تحتل القصة في الأدب العربي مكانا مرموقا، وتأخذ من عناية الكتاب إهتماما كبيرا، والكاتب الذي يعالج موضوعاتها، ويجيد استخدامها لعرض أفكاره وبث دعايته وتوجيه الناس إلى مبادئه وآرائه، هو الكاتب الذي يحمل الراية، ويجعل في يده زمام القيادة، وفي البلاد الراقية يقدمون كاتب القصة على غيره من الكتاب والمفكرين، وربما كان قراء القصة – علمية كانت أو تاريخية أو أدبية – هم أكثر الطبقات المعنية بالثقافة والاطلاع ومتابعة الأفكار، لهؤلاء الذين نعتبرهم حملة المشاعل، أو رواد الدعوات الإصلاحية في المجتمعات.

وللأثر البارز في تأثير القصة على النفس واقتيادها لزمام القلب، واستيلائها على الأفئدة، فقد استخدمها القرآن الكريم في أسلوبه، واستعان بها في دعوته، لتربية المهابة والخوف والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، لعلمه بطباع الناس وميلهم لهذا اللون من البيان.

بعد بيان ماهية القصة في اللغة العربية، وفي القرآن الكريم، وأهميتها بالنسبة للفنون الأدبية الأخرى، والسمات المميزة لها في الأدب العربي، والأدب الغربي، أنتقل إلى نقطة على غاية من الأهمية تتعلق بطبيعة العلاقة بين الفقهاء والقصاص: حيث تشيع في أجواء الثقافة الإسلامية بعض المقولات تحاول إثبات علاقة عدائية[1] بين **الفقهاء والقصاص** في صدر الإسلام نتج عنها انقسام تراثنا القصصي

(١٠) وقد أفرد فضيلة الشيخ علي محفوظ عليه رحمة الله عضو هيئة كبار العلماء فصلا كاملا بعنوان القصص والقصاص في الصدر الأول " من أهم ما جاء فيه: القصاص هم الذين يقصون على الناس، يكون من علمهم التفسير، والأثر والخبر عن الأمم البائدة وغيرهم، ينقلون ذلك موعظة واعتبارا. و لم يكن القصص في زمن النبي ﷺ ولا أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، لاجتماع كلمة المسلمين وقرب عهدهم بالنبوة، وإنما أحدث في عهد معاوية ﷺ حين كانت الفتنة بين الصحابة وكان قاصرا على الموعظة الحسنة والتذكير بالله سبحانه وتعالى.. ونحو ذلك، وأول من قص في مسجد رسول الله ﷺ تميم الداري أسلم سنة ٩هـ، استأذن عمر أن يذكر الناس فأبى عليه، حتى كان آخر ولايته فأذن له أن يذكر الناس يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر، روى عنه عبد الله بن وهب وسليم بن عامر وشرحبيل بن مسلم، (شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي العسقلاني الإصابة في تمييز الصحابة ج١ ص١٨٤). وأول من قص من التابعين بمكة عبيد بن عمير الليثي. وقد حضر بمجلسه عبد الله بن عمر وسمع منه فكان ذلك داعيا إلى إقبال الناس ورغبتهم في=

والروائي إلى قسمين منفصلين بينهما هوة لا يمكن عبورها.

حظى أحدهما باهتمام وتأييد كبار المثقفين، لقيامه على الوعظ والتعليم المباشر دون إعتماد على الإغراق في الخيال، وتمثل ذلك في الرحلات: كرحلة ابن بطوطة فالرحلة تشير إلى قدرة الله، وعجائب خلقه، واختلاف ألسنتهم وألوانهم، كما تمثل في السيرة سواء كانت ترجمة ذاتية، أو ترجمة لحياة الآخرين، بينما انصبت لعنات المثقفين على القسم الثاني لارتباطه بنوع من الخرافات والأساطير.

أنواع الرواية العربية عند جرجي زيدان:

يقول جرجي زيدان:

(.. أما العرب فإن أقاصيصهم شتى، وفيها الحماسي، والعشقي، والديني، وفيها ما يدل على الكرم، والوفاء، وعفة النفس، كأنها اختلفت باختلاف شعوبهم أو باختلاف عصورهم.

=استماع القص. وقد أقرته كذلك السيدة عائشة رضي الله عنها و لم تنكر عليه.
و لم يكن القص في القرن الأول مرزولاً، لأن فنونه كانت ترجع إلى القرآن الكريم والحديث الشريف و لم يكن يشوبه شيء إلا ما كانوا يسمونه بالعلم الاول، وهو ما يتعلق بأخبار الأمم الماضية، وأكثره يأخذونه عمن أسلم من أهل الكتاب، ولما كان القرن الثاني: وانتهى عصر كبار الوعاظ والقصاص من التابعين كالحسن البصري (، نشأت بعده الطبقة التي أخذت عنها العامة، وقد اضطربت الفتن، وكثر الكلام، وفشت الأكاذيب في الحديث، وأخبار العرب، والشعر. فصار هَمَّ القاص: أن يجئ بالغريب ويكثر من الرقائق لانصراف أهل العلم إلى حلقات الرواية. و لم يبق في حلقات القصاص إلا العامة. فمن ثم ساءت المقالة فيهم كما سبق، وصار القاص عند أولي العلم أحمق مخرفا، إلا قليلا ممن استوعبوا وتبينوا وساروا في مذهب الرواة (وهو نقل الكذب الذي لا بأس به وإسناد إلى أهله) وامتازوا مع ذلك بالفصاحة والبيان. ولما نضجت العلوم في القرن السادس ذهب القصاص، وخلفهم الوعظ من المتصوفة، إذ كان اسم القاص قد أصبح لقبا عاميا مبتذلا، وأكثر المتصدرين في الوعظ إنما يكون من أهل الحديث والمتسعين في العلوم، و لم يزد المتصوفة في الأخبار إلا ما يزعمون أنهم احتووه بعلم خاص والله أعلم بغيبه، وقد اختلف السلف في مدح القصاص وذمهم فبعضهم يحرض على الحضور عندهم، وبعضهم ينهي عنه. فالقصص قسمان. محمود، ومذموم.
والمذموم: نوعان، أحدهما: الاشتغال بالقصص والحكايات عن الأمم السابقة التي يتطرق إليها الاختلاف والزيادة، والنقصان، وتخرج عن القصص القرآنية وتزيد عليها فإن ذلك مما يندر صحته، وثانيهما: الإشتغال بحكاية أحوال تومئ إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها، أو عن كونها هفوة نادرة الوقوع، ولذا لما دخل على (البصرة جعل يخرج القصاص من المسجد ويقول: لا يقص في مسجدنا. ذلك أنه سمع من كلامهم ما لايقره الإسلام، فرأى أن المصلحة في إخراجهم، وفي تركهم مفسدة دينية يجب اتقاؤها، حتى انتهى إلى الحسن البصري رحمه الله وهو يعظ الناس فاستمع إليه ثم انصرف و لم يخرجه، والقصص المحمود: ما خلا من هذين المحذورين ورجع إلى ما اشتمل عليه القرآن الكريم، وما صح في الكتب الصحيحة ككتب السنة والتفاسير الموثوق بها. وللخلاص من خطر القص: قال العلماء لا يجوز نقل حديث رسول الله من غير معرفة بصحته، وأن نقله بغير معرفة مع صحته فإنه يأثم لأنه ينقل ما لا علم به.

ومن أقدم قصص العرب: مصاب عاد، وثمود، وهما متشابهان، ولا ريب في وقوعهما باعتبار إجمالهما، أما التفاصيل فقد ابتدعتها قرائح الرواة، وهنا موضع نظر، لما في تينك الروايتين من الشبه بأقاصيص التوراة [1] مثل سدوم، وعمورة، فالظاهر أنهما اصطبغتا بذلك بعد نزول اليهود بين ظهراني العرب. ويلي قصتي عاد وثمود، قصة سيل العرم التي ذكروا أنه كان سبباً في تشتت قبائل اليمن، في أنحاء جزيرة العرب، بعد انفجار السد المشهور فالانفجار حقيقة تاريخية أما ما بالغوا فيه من مساحة السد، وكيفية إنفجاره كحديث الكاهنة والنار، ونحو ذلك، فمن إضافات الناقلين، وهي تدل على انتشار الكهانة في أصحاب تلك القصة[2] أما القصص التي تمثل أخلاق العرب أهل البادية كالكرم والشجاعة والوفاء، وغيرهما من الفضائل التي تتفاخر بها العرب فترغب الناس فيها، وتبغضهم في البخل، والجبن واللؤم وغيرها، من الرذائل ثم يضيف جرجي زيدان: ومن هذا القبيل أيضا ما فعله القصاصون بعد الإسلام، فإنهم توسموا في الإمام علي ﷺ الشجاعة والبسالة فرووا عنه وقائع، لاحقيقة لها، وفي جملة ذلك قصة مطبوعة تتداولها الأيدي اسمها «سير الإمام علي بن أبي طالب إلى الهضام بن الحجاف وقطعه الحصون السبعة حتى وصل إليه» وهي قصة موضوعة لكنها تشغل كتابا تزيد صفحاته على مائتي صفحة.

جرجي زيدان وروایاته (المسماة بروايات تاريخ الإسلام):

جاء جرجي مع غيره من نصارى الشام - الذين أفسح لهم الاحتلال البريطاني المجال واعتبرهم اللورد كرومر (منحة من السماء) - وأصبحت بيدهم مقاليد الأمور في حقل الإعلام والثقافة. فكان لابد وأن ينشطوا في مجال نشر الفكر الذي استقبلهم أصحابه، ومكنوا لأقلامهم وسمومهم، فانطلقوا يقذفون بحمم أفكارهم

(١) يظهر من هذا الكلام أنّ جرجي زيدان يجعل لليهود فضلاً على العرب في مجال الأدب القصصي والروائي !

(٢) لم يتورع جرجي زيدان في قصصه المعروفة (روايات تاريخ الإسلام) أن يقدم فيها (إضافات الناقلين) ولكن بصورة أكثر اتساعا فهو يضيف شخصيات كاملة لها البطولة تغير الأحداث تماما وينقل كلاما مدسوسا على لسان أبطال الروايات.. الخ.

المسمومة على الفكر الإسلامي حتى زعموا أنهم هربوا من سطوته واستبداده. فقدموا الثقافة الإسلامية من وجهة النظر الصليبية المعادية، بهدف محو كل ما هو إسلامي، ومحاربته بسلاح الثقافة البراقة ووسائلها الجذابة ولعل أهم هذه الأسلحة:

الرواية: والتي استخدمها المهاجرون الشوام على ضربين:

الأول: قسم استخدم الرواية كوعاء لتقديم أفكار الحضارة الغربية فكانوا في موقفهم هذا أقرب للمعلمين منهم للروائيين، و لم يشذ منهم إلا جرجي زيدان الذي استخدم رواياته لتشويه التاريخ الإسلامي.

الثاني: عمل على تقليد الروايات الغربية بصورة مباشرة سواء بالترجمة أو الاقتباس أو التأليف، واختيار الروايات الملائمة للذوق الشعبي، لجماهير القراء غير المثقفين، حيث اعتبروا الرواية وسيلة لرواج الصحيفة.

وهكذا ظهر جرجي زيدان - الذي صنعت شخصيته في المدارس التبشيرية في لبنان وعمل بالاستخبارات البريطانية، وروج لمقولات المستشرقين منذ عام ١٨٨١م، وحاول التوفيق بين متطلبات البيئة من ناحية وتأثره بالروايات التعليمية من ناحية أخرى. وربما كانت أشهر كتاباته القصصية (روايات تاريخ الإسلام) التي نالت قدرا كبيرا من الانتقادات، نظرا لما تتضمنه من مفتريات على تاريخ الإسلام - والتي يتأكد للقارئ - بتكرارها - أنه لا يمكن عزوها إلى جهل الكاتب أو حسن نيته.

قبل أن نصحبك عزيزي القارئ في جولة تفصيلية نضع يدك خلالها على أهم الأكاذيب والافتراءات التي تضمنتها هذه الروايات - نعرض لك بعض الشهادات المعاصرة على هذه الروايات من قبل بعض النقاد والمفكرين والأدباء :

المبحث الثاني
شهادات معاصرة على روايات جرجي زيدان

▫ د/ أحمد الشرباصي [(1)]:

إن هذه الروايات لا تليق بالمسلم قراءتها لأنها وضعت لتشويه التاريخ الإسلامي وتحريف حوادثه، وقلب أموره رأسا على عقب، والنيل من جلاله وجماله، وكأنما كانت هذه الروايات نتيجة لحظة أريد بها مسخ التاريخ الإسلامي في أنظار أهليه، حتى يفقدوا اعتزازهم بما فيه، ولسنا نرسل القول إرسالا بلا دليل، بل بين أيدينا أدلة وبراهين، فهذه الروايات أولا: تشمل في كثير من مواقفها على حوادث مصطنعة وأمور مختلفة، ولعل صاحبها يوهم قراءه بان هذا من قواعد الفن القصصي لجذب القراء وإثارة الاهتمام، ولكن هذا إن صح في القصة الخيالية فإنه لا يصلح بحال من الأحوال في القصة التاريخية، لأن للتاريخ حرمته وله مكانته وهو تراث السابقين للاحقين، وصور الأجداد بين أيدي الأحفاد، ولو فرضنا ووجدنا من يتجرأ باسم الفن ويبيح هذا الاختلاق في القصة التاريخية، فإنه لا يجوز أن يكون في التاريخ الإسلامي، لأن تاريخ المسلمين وثيق الصلة بعقائدهم ومبادئهم، حيث ترتبط الأمة الإسلامية بتاريخها بوثيقة روحية قوية، تستمد منها عناصر حركتها ومقومات وجودها، ومن هنا نراه يستظل بلون من الحرمة فيجب أن يكون بمأمن من تحريف المبطلين والمغرضين، ومن مكايد هذه الروايات أنها تصوغ حوادث الأبطال بصيغة تتمثل في الهيام بالمرأة والخضوع لها، والحرص عليها، وكأن عظماء المسلمين في نظر هذا الكاتب لم يكونوا إلا مجانين، تسيرهم العاطفة، ويستبد بهم الهوى، مع أننا حين نراجع تاريخ هؤلاء الأبطال، لا نجد في حياتهم متسعا للغرام الرخيص والهوى العابث، فقد شغلهم القرآن الكريم ونشر هذا الدين والكفاح في ميادين الشهادة، عن التفرغ لحياة اللهو واللعب، وبذلك خلفوا ورائهم صفحات

---

(1) د/ أحمد الشرباصي، يسألونك عن الدين والحياة، ص٤٨٤، دار الجيل بيروت، بدون رقم الطبعة، سنة ١٩٨٠م.

مشـرقات مـن البطولـة، ولكن المؤلـف أبى إلا أن يمـلأ حيـاة هـؤلاء الغر الميـامين بـالصبوات، والصبابـات فـأبعد في الإختـلاق والإفـتراء، ونجد في هذه الروايـات أن صاحبهـا يدس في كل واحـدة منهـا، **راهبـا من الرهبـان**، يصـوره بصـورة بطولـة، ويظهره بمظهـر البطل الذي يدافع عن الحريات، أو يدعو إلى المكرمات، أويعاون في إتمـام الجلائل من الأعمـال، فـإن لم يختلق راهبـا اختلق ديرا بصـورة على أنـه معقل الجنود المسلمين الهاربين، وحصن المجاهدين المطاردين، المضطهدين.

□ أما د/ عمر الدسوقي حسن:

فإنـه يقول عن هـذه الروايات [1]: هـذه السلسـلة الطويلـة الـتي بلغت أكثر من عشـرين قصـة، مسـتمدة من التـاريخ الإسـلامي، مكتوبـة كلها بأسـلوب صحفي، خالية من التحليـل النفسي، والنظريات الفلسـفية، وما هي العبرة من إيراد تاريخ في قالب قصة لم تكتمل شروطها الفنية و لم يحافظ فيه على الحقائق.

□ أما د/ شوقي أبو خليل [2]:

فإنـه يقول عن هذه الروايـات: (.. كل قـول يجريه المؤلـف في القصـة التاريخية، على لسـان أحد أبطـال قصصـه، وليس لـه سـنده التـاريخي، ونصـه في المراجع والمصادر، يحسـب على المؤلـف قولاً واحداً، بإجماع الآراء.... وعلـى هذا فكل ما قدمه جرجى في رواياته وكتبه محسوب عليه حصراً).

□ أما الأستاذ/ فؤاد دوارة:

فإنـه يقـول عن هذه الروايـات: (لم تخل الوقـائع التاريخيـة المحملـة، الـتي ضمنها جرجـى زيدان رواياتـه، اعتمادا على المصـادر التاريخيـة من وقائع كـانت بحاجة إلى مزيـد من التثبت لاعتمادهـا على روايـات ضعيفــة أو مغرضــة. في حين أن منطق الأحداث، أو طبائع الأشخاص تكذبها، أو تدعوا إلى الشك القوي في صحتها على أقل تقدير، كمـا أننا **لا نسـتطيع أن نصف جرجى بالأمانة التاريخيـة** - لأنه أورد الأحداث التاريخيـة بصورة مخلـة، و لم يعن بتقديم صورة فنيـة متكاملـة للشخصيات

(١) د/ عمر الدسوقي حسن، في الادب الحديث ج١ ص٩٤.
(٢) د/ شوقي ابو خليل، جرجى زيدان في الميزان، دار الفكر العربي بدمشق.

الرئيسية في تلك الأحداث، و لم يهتم بشـرح خلفياتها السياسية، والاجتماعية، بالقدر الكافي، فضلا عن إيراده معلومات مشكوك في صحتها دون أي تمحيص باعتبارها حقائق تاريخية ثابتة) [1].

▫ أما د/ سيد حامد النساج:

فيكشف لنا الأسلوب الملتوي الذي استخدمه جرجي زيدان في رواياته قائلاً: (إذا نظرنا في الروايات، نلاحظ أن الكاتب يحرص على ذكر المراجع التاريخية في مواضع لا تستأهل علمياً وموضوعيا أن يشار إليها، أو فيها إلى المصدر وما أكثر مراجعه التي اعتمد عليها أمثال: الخطط للمقريزي، تاريخ ابن خلدون، تاريخ عبد اللطيف البغدادي، تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان، مؤلفات شامبليون، ومارسيل، ماريت وشارب. ولكننا نجد اختفاء المصادر الدينية، والمراجع التي ترتبط بالعقيدة الإسلامية، أو كتب التفسير، والحديث والفقه، المعتمدة ! فكيف يمكن له الكتابة عن الإسلام وقادته، وفرقه، دون أن يكون مسلحا بأدوات ومعارف خاصة معمقة في هذه الناحية ؟) [2].

▫ أما الأستاذ/ أحمد حافظ عوض:

فيوضح لنا خطورة إدخال العناصر النسائية التي اعتمدها جرجي زيدان على مسار الرواية التاريخي، فيقول: (.. إن زيدان يدخل في التاريخ ما ليس منه، ليوجد امرأة يجعلها أساسا لأساطيره، كعذراء قريش، وفتاة غسان، على حين أنه ليس لها وجود إلا في مخيلته، كما يعترف هو ! وأدى ذلك به إلى وصف رجال التاريخ بما لم يكن من أوصافهم ولم يعرفوا به حتى نسب محمد بن أبي بكر المشهور بالزهد والورع، إلى عشق هذه العذراء، وأن عشقه كان سببا في إزدياد هيجانه على عثمان !) [3].

▫ أما د/ محمد حسن عبد الله الناقد المعروف:

فإنه يتهم جرجي زيدان بعدم التزام أسلوب الكتابة الفنية في الرواية وغيرها

---

(١) أ. فؤاد دوارة، أحد كبار النقاد الأدبيين - مقدمة رواية ١٧ رمضان - ط دار الهلال سنة ١٩٨٣م.
(٢) أ.د/ سيد حامد النساج، مقدمة رواية أرمانوسة المصرية، ط الهلال.
(٣) المؤيد عدد ١٣/ ٤/ ١٨٩٩م.

وذلك لعدم اهتمامه بالقيمة العلمية للمصادر التي يستخدمها والاستيثاق من نزاهتها وموضوعيتها فيقول: (يسارع زيدان إلى إبراء ذمته، بذكر المصدر التاريخي، لكنه لم يحاول أن ينقد هذه المصادر، ويحدد درجة نزاهتها وهذا بالطبع ينافي أسلوب الكتابة الفنية في الرواية، وغير الرواية، وعلى هذا فإن المؤلف قد ورط نفسه بذكر المصادر، وهي مصادر ليست فوق الشبهات فيما يتعلق بالصراع المذهبي بين السنة والشيعة، ونفوذ بعض الطوائف حول رجال الحكم) [١].

□ **أما الكاتب والأديب الكبير د/ طه وادي [٢]:**

فإنه يوجه دعوة حارة إلى علماء التاريخ لكشف حقيقة هذه الروايات وصحة الوقائع التاريخية أو بطلانها، لأن هذه هي مهمة أساتذة التاريخ وعلمائه في المقام الأول، حتى يستطيع النقاد بناء على ذلك أن يصدروا أحكامهم على الروايات التاريخية قائلاً: (ليس من السهل القول بصدق مزاعم جرجي زيدان - تثبته من التاريخ أو نفي ذلك، فهذا أمر يحتاج إلى تحقيق علمي، وهنا أود أن أوجه نداء عالي الصوت إلى علماء التاريخ، لدراسة حجم القدر التاريخي في هذه الروايات، ثم بيان مدى صحته أو عدمها، فإن ذلك سيحل كثيرا من الافتراضات التي يلخصها أصحاب الدراسات الأدبية الذين وقفوا عند زيدان كثيرا، ولن يستطيع دارس أدبي أن يصدر حكما موضوعياً «على المنظور التاريخي» للكاتب، إلا إذا أثبتت الدراسة العلمية، موقف زيدان من التاريخ. وها أنذا أنادي - فهل من سميع ؟!

خلاصة آراء العلماء والكتاب والمفكرين في روايات جرجي زيدان:

١) نفى بعضهم عنها صفة الروايات، لعدم التزامها بقواعد الرواية الفنية. د/ عمر الدسوقي.

٢) يتحمل جرجي المسئولية كاملة عن كل شخصية خيالية ألبثها ثوب البطولة

---

(١) د/ محمد حسن عبد الله، مقدمة الرواية فتاة القيروان، ط دار الهلال سنة ١٩٨٥.
* د/ محمد حسن عبد الله وهو أستاذ النقد الادبي بجامعة القاهرة (كلية التربية) ومن المهتمين بالرواية العربية عن محمد حسن عبد الله، الكويت والتنمية الثقافية العربية، سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة بالكويت - سبتمبر ١٩٩١م ص٢٧٧.
(٢) د/ طه وادي، مقدمة رواية أحمد بن طولون، دار الهلال، سنة ١٩٨٥م.

في رواياته. د/ شوقي أبو خليل.

٣) اعتماد الروايات على مصادر ضعيفة، أو مغرضة، ومشكوك فيها. أ/ فؤاد دوارة.

٤) التدليس والغش العلمي من خلال إثبات المراجع لقضايا بدهية عامة، وإغفالها عن حقائق تاريخية في غاية الأهمية – حتى أنه كان يعتمد على كتابه تاريخ مصر الحديث.

٥) الإهمال التام للمصادر الدينية، التي لا يمكن إغفالها لشخص يكتب عن الإسلام وقادته وفرقه. والإكتفاء بمصادر المستشرقين.

٦) البذاءة التي أحاطت بجو الروايات، من خلال نشر أحاديث العشق والغرام والمجون، وتلطيخ صور الصحابة والتابعين، جيل خير القرون، حتى أنها نسبت العشق إلى محمد بن أبي بكر !؟

وبعد هذا التمهيد الذي كان بمثابة مدخل ضروري لعالم الروايات الجرجية، ننتقل معاً عزيزي القارئ في وقفات هادئة – عبر الصفحات القادمة – إلى الدراسة التحليلية لهذه الروايات لكي نسبر غورها ونظهر زيفها وتميز خبيثها من طيبها، ونضع أيدينا على هذه الروح الصليبية الحاقدة التي تسري في هذه الروايات، التي نفث فيها جرجى، في واحد من مقدسات المسلمين الخالدة – إنه تاريخهم وسيرة حياة أسلافهم الصالحين، ومصدر فخرهم وإعتزازهم، ومبعث آمالهم وموطن عظتهم واعتبارهم – وستكون وقفتي مع هذه الروايات متمثلة في قراءتها قراءة فاحصة، لاستخراج أهم ما ورد بها من شبهات وأباطيل، قصد صاحبها تشويه مسيرة الإسلام المباركة وسيرته العظيمة، في محاولة للتحصين الثقافي ضد هذه الاتهامات الظالمة.

التسلسل التاريخي للروايات بين الصحة والبطلان:

يظهر للمدقق في روايات جرجى زيدان أن التسلسل الزمني لتأليفها يختلف عن التسلسل الزمني للحوادث الواردة في جميع الروايات، كما يظهر له كذلك عدم

إهتمـام المؤلـف بالجـانب التـاريخي للحوادث، من حيـث التسلسـل التصاعدي، أو التنازلي فلم يتقيد المؤلف عند كتابته لهذه الروايات بالزمن، إنما آثر أن يأخذ من هنا ومن هنـاك، ليبحث عن خيط نفسي واحد يجمع حوادثـه المنتقاة بالرغم من بعثرتها وتفرقها عبر العصور.

وهذا هو الترتيب الزمني لتأليف الروايات حسبما كتبها جرجى زيدان:

١- المملوك الشارد	١٨٩١م	٢- استبداد المماليك	١٨٩٣م
٣- أسير المتمهدي	١٨٩٥م	٤- أرمانوسة المصرية	١٨٩٥م
٥- فتاة غسان	١٨٩٦م	٦- عذراء قريش	١٨٩٨م
٧- ١٧ رمضان	١٨٩٩م	٨- غادة كربلاء	١٩٠٠م
٩- الحجاج الثقفي	١٩٠١م	١٠- فتح الأندلس	١٩٠٢م
١١- شارل وعبد الرحمن	١٩٠٣م	١٢ - أبو مسلم الخراساني	١٩٠٤م
١٣- العباسة أخت الرشيد	١٩٠٥م	١٤- الأمين والمأمون	١٩٠٦م
١٥- عروس فرغانة	١٩٠٧م	١٦- أحمد بن طولون	١٩٠٨م
١٧- عبد الرحمن الناصر	١٩٠٩م	١٨- الانقلاب العثماني	١٩١٠م
١٩- فتاة القيروان	١٩١١م	٢٠- صلاح الدين الأيوبي	١٩١٢م
٢١- شجرة الدر	١٩١٣م		

الترتيب الصحيح للروايات، بحسب موضوعاتها:

في حين أن التسلسل الزمني لحوادث هذه الروايات وموضوعاتهـا يختلف تماما عن الترتيب الذي سار عليه المؤلف وبيان ذلك على الوجه التالي:

١) فتاة غسان.	٢) أرمانوسة المصرية.
٣) عذراء قريش.	٤) ١٧ رمضان.
٥) غادة كربلاء.	٦) الحجاج الثقفي.
٧) فتح الأندلس.	٨) شارل وعبد الرحمن.
٩) أبو مسلم الخراساني.	١٠) العباسة أخت الرشيد.
١١) الأمين والمأمون.	١٢) عروس فرغانة.

١٣) أحمد بن طولون. ١٤) عبد الرحمن الناصر.
١٥) فتاة القيروان. ١٦) صلاح الدين الأيوبي.
١٧) شجرة الدر. ١٨) استبداد المماليك.
١٩) المملوك الشارد. ٢٠) أسير المتمهدي.
٢١) الانقلاب العثماني.

وموضوع هذه الروايات على النحو التالي:

١) الرواية الأولى: تتحدث عن نشأة الإسلام في عهد النبي ﷺ.

٢) الرواية الثانية: فتح مصر على يد عمرو بن العاص ﷺ سنة ٢٠هـ.

٣) الرواية الثالثة: خلافة سيدنا عثمان ﷺ والأحداث التي شهدتها.

٤) الرواية الرابعة: الإمام علي كرم الله وجهه، مقتله، بسط حال الخوارج وتسلط بني أمية.

٥) الرواية الخامسة: مقتل الإمام الحسين وأهل بيته في كربلاء، وتولية يزيد بن معاوية.

٦) الرواية السادسة: حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير، ومقتله، وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان.

٧) الرواية السابعة: تاريخ أسبانيا قبل الفتح الإسلامي، ووصف أحوالها وفتحها على يد طارق بن زياد.

٨) الرواية الثامنة: فتح العرب بلاد فرنسا، إلى ضفاف نهر لوار، وتحالف الإفرنج ضدهم.

٩) الرواية التاسعة: سقوط الخلافة الأموية وقيام الدولة العباسية ١٣٢هـ.

١٠) الرواية العاشرة: تتحدث عن نكبة البرامكة، وعهد أمير المؤمنين هارون الرشيد.

١١) الرواية الحادية عشرة: ما دار بين الأمين والمأمون من خلاف بعد وفاة الرشيد، وانتصار الفرس للمأمون.

١٢) الرواية الثانية عشرة: وصف الدولة العباسية وعاصمتها سامرا في عهد المعتصم بالله ٢٢١هـ.

١٣) الرواية الثالثة عشرة: وصف بلاد مصر والنوبة في وسط القرن الثالث الهجري، زمن أحمد بن طولون.

١٤) الرواية الرابعة عشرة: وصف بلاد الأندلس وحضارتها وعادات أهلها سنة ٣٠٠/٣٥٠هـ.

١٥) الرواية الخامسة عشرة: ظهور دولة العبيديين أو الفاطميين في أفريقيا، ومناقب المعز لدين الله الفاطمي، إلى إخراج مصر من الدولة الإخشيدية سنة ٣٢٨هـ.

١٦) الرواية السادسة عشرة: تتضمن إنتقال مصر من الفاطميين إلى الأيوبيين على يد السلطان صلاح الدين.

١٧) الرواية السابعة عشرة: تتضمن مقتل شجرة الدر، بعد توليها ملك مصر، ومقتل توران شاه، ثم خلعها وتولية السلطان موسى بن صلاح الدين ٣٦٧هـ.

١٨) الرواية الثامنة عشرة: شرح أحوال مصر وسوريا في أواخر القرن الماضي، وحكم علي بك الكبير ومعاصريه.

١٩) الرواية التاسعة عشرة: تتضمن حوادث مصر وسوريا في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

٢٠) الرواية العشرون: وصف مصر والسودان في الربع الأخير من القرن الماضي ١٨٧٥م ودسائس الدول الأجنبية وفيها موقف جرجى من الحركة المهدية.

٢١) الرواية الحادية والعشرون: وصف الأحرار العثمانيين وجمعياتهم السرية، والسلطان عبد الحميد وحواشيه !

الفصل الثاني

روايات جرجي زيدان

تحليل ودراسة

لقد كانت هذه الروايات - هي المجال الخصب - الذي استطاع جرجي أن يدس فيه كثيراً من الدسائس والمؤامرات والأهواء، لإفساد مفهوم الشخصية الإسلامية والبطولة الإسلامية، حيث أساء إساءة بالغة إلى أعلام المسلمين أمثال: السيدة عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها)، هارون الرشيد، الأمين والمأمون، عبد الرحمن الناصر، صلاح الدين الأيوبي، السلطان عبد الحميد الثاني ... الخ.

وسأقوم بتتبع أهم الشبهات الواردة بعدد من هذه الروايات.

المبحث الأول
فتاة غسان

موضوع الرواية:

يقول جرجي زيدان في المقدمة إنها (رواية تاريخية تشرح حال الإسلام في أول ظهوره إلى فتوح العراق والشام، مع بسط عادات العرب في آخر جاهليتهم وأول إسلامهم...) [1]، غير أن المتأمل في الرواية من أولها يجد أسماء أبطال الرواية كما أوردها جرجي - لا تعبر عن موضوع الرواية الذي تسجل أعظم حدث في تاريخ البشرية، أو تسجل استقبال الدنيا كلها لهذا الحدث الهائل الذي رد البشرية إلى صوابها وانقذها من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ظلم الأديان إلى عدل الإسلام.

حيث نرى المؤلف أورد عشرة أسماء لأبطال الرواية أغلبها ليست إسلامية:

* جبلة بن الأيهم، من ملوك غسان.
* ثعلبة، بن الحارث.
* الحارث بن أبي شمر، من ملوك غسان.
* حماد، بن الأمير عبد الله .
* عبد الله، من أمراء العراق.
* سعدى، أم هند.
* هند، ابنة جبلة.
* سلمان، خادم حماد.

(1) جرجي زيدان، فتاة غسان، مجلد ١، من المؤلفات الكاملة ص٧، ٨ بدون رقم للطباعة، دار الجيل بيروت سنة ١٩٨١م.

أهم الشبهات والمآخذ الواردة في الرواية:

(١) **الزعم بأن محمدا ﷺ أخذ تعاليمه من الرهبان أو تأثر بتعاليمهم،** لاسيما بحيرا الراهب – فقد ركزت الرواية على هذه الشبهة كثيرا و لم تقدمها بصورة سافرة بل عمدت إلى الدس والالتواء وإلقاء هذه الشبهة بالتدريج.

فتقول (... أما بحيرة فهو من نعم الله على بني الإنسان، ولا أظن أن الأرض تجود بمثله) [١]، ثم يقول (... كان بحيرا يجالس القوافل العربية المسافرة إلى التجارة ليعلمهم عبادة الله، وكان يعتقد أن الله ظهر له في الرؤيا، وأنبأه أنه سيكون سببا لهداية بني إسماعيل سكان جزيرة العرب) [٢]، ثم تقول بعد ذلك ... وكان أبو طالب إذا خرج في تجارة أو سفر اصطحب محمدا فينزل بالأديرة ويجالس الرهبان والعلماء، لا سيما بحيرا الراهب الذي أنبأه بكثير من أمور مستقبله)[٣]، ركز المؤلف على كل ذلك. ليشعر القارئ أن ما جاء به محمد، أو صاحب الشريعة: على حد تعبير جرجي – ليس إلا امتدادا واقتباسا من بحيرة الراهب ومن جلساته في الأديرة مع الرهبان.

... ولمناقشة هذه الشبهة نقول:

١) بداية فإن جرجي زيدان في شبهته هذه لم يأت بجديد بل يردد عبارات إخوانه من اعداء الإسلام المستشرقين من أمثال (نورمان دنيال عميد كلية الملكة بجامعة اكسفورد في كتابه (الإسلام والغرب من ١١٠٠-١٣٥٠م) وكذلك المستشرق سيديو في كتابه تاريخ العرب العام. حيث قال: (.. إن محمدا لم يبغ في تأليفه أن يمنح البشرية أدبا أفضل مما في الإنجيل..) وقال (ألهم محمدٌ مبادئ اليهودية والنصرانية فأقام دينا بعيدا عن الخوارق) وقال (فبلغ محمد بصرى، فاجتمع فيها ببحيرى الراهب وكان اسمه لدى النصارى – جرجيس، أو سرجيس،

---

(١) مجلد ١ ص٤٥.
(٢) ص٤٧.
(٣) ص٩١.

فنال حظوة عنده) [1]، وعلى هذا. فنحن أمام روايات عدة، أو اختلاف في الروايات يدل على أن التهمة لم يحدث إتفاق عليها، أو بالأحرى لم تكن محكمة. فمرة بحيرى، وتارة ورقة بن نوفل، وأخرى حاخام. أليس هذا كافيا لرد التهمة.

٢) كما أن عمر سيدنا محمد ﷺ كان تسع سنوات [2] فقط، عندما التقى بحيرى مع عمه أبي طالب – فهل يعقل أن يعي ويستوعب هذا الطفل الأمي ما يمليه عليه بحيرى ؟ ولما عاد ثانية مع ميسرة وخادم خديجة في تجارتها كان عمره خمسة وعشرين عاما، لم يتكلم ميسرة إلا بما رأى من عناية الله بمحمد ﷺ و لم يجتمع مع أي راهب أو كاهن. فلماذا تغافل جرجى عن معجزات الله لنبيه في هذه الرحلة ؟ !

لكي يثبت أن بحيرى هو صاحب الدين الذي جاء به محمد، وهو مصدره وفضلا عن ذلك، فما هي الصلة التي بين محمد وبحيرى ؟ ولماذا انتقى بحيرى محمدا بالذات وأعطاه هذا التشريع ؟ و لم يعطه لابنه أو قريبه أو يدعيه لنفسه ؟

لماذا يعطي المجد، والخلود، والشهرة، والقوة، والنصر، والصبر، وخير البشرية وإنقاذها إلى هذا العربي اليتيم، و لم يدعيه لنفسه. أليس بحيرى أولى بذلك من يتيم أبي طالب ؟

٣) إن النبي ﷺ لم يبق في رحلته الأولى – التي رأى فيها بحيرى – إلا وقتا قصيراً مع بحيرى، بوجود أناس كثيرين، فعامل الزمن يجب التنبه له، فهل تكفي لهذا الأمي الصغير مدة يوم أو يومان أو ثلاثة كي يعي القرآن جملة وتفصيلا ؟ ولو أن محمدا أخذ شيئا من بحيرى لقالت له قريش عندما ادعى النبوة، إن بحيرى أعطاك هذا، ولكان ذلك ورقة رابحة من قريش، ولغلبوه بها لأنه لايستطيع إنكار ما أخذه بوجود قومه، وهذا ما لم تفعله قريش في حربها الإعلامية ضد النبي ﷺ، وضد القرآن الكريم.

٤) لم يعاصر بحيرى أو غيره من الرهبان، التسلسل الزمني، للحوادث الواردة[3]

(١) تاريخ العرب العام سيديو، ط عيسى البابي الحلبي ط٢ ص٥٨ سنة ١٩٦٩.
(٢) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف ج٢ ص٢٧٨.
(٣) سامي شهاب، الإسلام يتصدى لأباطيل المستشرقين والملحدين، ص٧٤، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر.

في القرآن الكريم، فأين بحيرى أو ورقة أو غيرهما من سؤال يسأله سائل لرسول الله ﷺ، فيرى الإجابة قد وجدت في حينها، وجاء القرآن الكريم يشرحها ويحدد موقفه منها، يدحض دحضاً قاطعا كون القرآن من عند هؤلاء، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وكبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا.

٥) في القرآن الكريم آيات لا توافق عقيدة المسيحية فكيف يبثها بحيرى، أو غيره من الرهبان، كما أن به آيات توضح نفسية اليهود، وخبثهم، ومكرهم، فكيف يكتبها حاخام، أو أن يكون مصدرها، فقد جاء القرآن الكريم لتصحيح عقيدة اليهود والنصارى التي حادت عن نبعها الأصلي كعقائد توحيد، حيث دخلت فيها تحريفات من قبل البشر أخرجتها عن مضمونها السماوي. فكيف يكون محمدا ﷺ اقتبس القرآن من التوراة والإنجيل كما يدعي المستشرقون ؟!

٦) الراهب بحيرى لم يكن عربيا بل كان أعجميا (غير عربي) فكيف يمكن لمن لا يجيد العربية أن يؤلف كتابا، قمة في البلاغة والإعجاز اللغوي وهو القرآن الكريم.

٧) إذا كان القرآن الكريم من تأليف وإعداد أو مساعدة الراهب (بحيرى) فلماذا لم نجد له ذكراً في آيات القرآن الكريم ؟! ولماذا لم يحتفظ (بحيرى) بهذا العمل العظيم وينسبه لنفسه حتى ينال المجد والشهرة !

٨) الراهب بحيرى – لم يكن مسلما أثناء حياته فكيف يؤلف، أو يساعد في تأليف، كتاب ديني غير كتابه المقدس عنده – الإنجيل – ويدعوا الناس إلى عقيدة لا يؤمن بها.

٩) في القرآن الكريم آيات عديدة لا توافق المسيحية بل تهدمها [1] مثل ما جاء في قول الحق سبحانه ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾[2]. ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ

(١) د/ شوقي أبو خليل، الإسلام في قفص الاتهام، دار الفكر دمشق، بدون رقم للطبعة ص٣٦، سنة ١٩٨٢م.
(٢) سورة النساء آية رقم (١٥٧).

وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (١). ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾(٢).

وآيات أخرى في القرآن تندد باليهود ونفسيتهم:

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٣). ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾(٤). ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٥). ﴿... وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾(٦). وبعد كل هذا. فأين التوحيد المطلق لله عز وجل في العقيدة الإسلامية من التثليث والشرك في عقيدة بحيرى ؟

وهل هو كاذب أيضا ؟ كيف نرضى لعالم دين عكف في صومعته وديره للعبادة ومعرفة الله عقلا وروحا أن يكذب ؟ والكذب نقيصة لا تقبل من إنسان عادي فكيف لناسك متعبد ؟ وفي نهاية المطاف مع هذه الشبهة القديمة المتجددة لا يسعنا إلا ان نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(٧).

(١) سورة النساء آية رقم (١٧١).
(٢) سورة المائدة آية رقم (٧٢).
(٣) سورة البقرة آية رقم (١٤٦).
(٤) سورة المائدة آية رقم (٦٤).
(٥) سورة الجمعة آية رقم (٥).
(٦) سورة البقرة آية رقم (٦١).
(٧) سورة الإسراء آية رقم (٨٨).

الشبهة الثانية التي تضمنتها الرواية هي:

محاولة إثبات قصة الغرانيق: في أسلوب مغرض، حيث قدمت الرواية على لسان أبي سفيان في حواره مع هرقل، اعتراف النبي ﷺ في السنوات الأولى من بعثته بآلهة الكعبة الثلاث اللواتي، كان مواطنوه يعتبرونها بنات ا لله وأشار إليهن في إحدى الآيات – الموحاة – كذا – بقوله (... أفرأيتم اللات والعزى، ومنات الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العلى، إن شفاعتهن لترتجى)[1].

فما حقيقة هذه الدعوى التي يقدمها جرجي زيدان وما نصيبها من الصحة ؟!

وفي مناقشة هذه الدعوى: نجد أن هذه القضية والتي يكاد يجمع المستشرقون على قبولها باعتبارها قضية مسلمة، دون عرضها على محك النقد والتحليل، أو العقل والمنطق، والتمحيص، لا تثبت أمام النقد العلمي الرصين، وملخص هذه الحكاية:

(...أن النبي ﷺ لما رأى تجنب قريش إياه وإيذاءهم لأصحابه تمنى فقال ليته لا ينزل علي شيء ينفرهم مني، وقارب قومه ودنا منهم ودنوا منه فجلس يوما في ناد من تلك الأندية التي تقوم حول الكعبة فقرأ عليهم سورة النجم حتى وصل إلى قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾[2]. ثم قرأ بعد ذلك (... تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) ثم مضى في قراءة السورة حتى آخرها، وسجَدَ وسجَدَ القومُ جميعا، لم يتخلف منهم أحد، حتى أن الوليد بن المغيرة لهرمه لم يستطع السجود، فحمل في كفه حفنة من تراب وسجد عليها، وأعلنت قريش رضاها التام عما تلا النبي ﷺ، وقالوا قد عرفنا أن ا لله يحي ويميت ويخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده،. أما إذا جعلت لها نصيبا فنحن معك، ويدنا في يدك، وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبيننا، وبلغ مسامع المسلمين بأرض الحبشة، فقالوا عشائرنا أحب إلينا، وخرجوا راجعين حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار، لقوا ركبا من كنانة فسألوهم فقالوا ذكر آلهتكم بخير فتابعه

---

(١) فتاة غسان مجلد ١ ص٩٥.

(٢) سورة النجم الآيتين رقم (١٩، ٢٠).

الملأ ثم ارتد عنها فعاد فشتم آلهتهم، وعادوا عليه بالشر، وأتمر المسلمون ما يصنعون فلم يطيقوا عن لقاء أهلهم صبرا فدخلوا مكة.

وهذه القصة: غير ثابتة لا من جهة النقل ولا من جهة العقل والنظر - كما ذهب إلى ذلك المحققون من أهل العلم، فمن جهة النقل طعن فيها كثير من المحققين والمحدثين فالبيهقي: وهو من كبار رجال السنة، يرى أن هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، والقاضي عياض: يرى أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواة ثقة بسند سليم متصل، إنما أولع به ويمثله المفسرون، والمؤرخون، والمولعون بكل غريب، ومن حكيت عنه هذه المقالة من المفسرين والتابعين لم يسندها أحدهم منهم ولا رفعها إلى صحابي وأكثر الطرق فيها ضعيفة واهية، والمرفوع منها حديث شعبة عن سعيد بن جبير بن عباس فيما أحسب (أن النبي كان بمكة وذكر القصة) قال أبو بكر الرازي: هذا الحديث لا نعرفه يروى عن النبي ﷺ، بإسناد متصل، إلا هذا ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، فقد بين أبو بكر أنه لا يعرف عن طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما فيه، وكذلك أنكر القصة القاضي أبو بكر بن العربي (وهو من الحفاظ الكبار ت ٣١١هـ) وطعن فيها من جهة النقل[1]، وسئل محمد ابن إسحاق بن خزيمة عن هذه القصة فقال: هذا من وضع الزنادقة، وصنف في ذلك كتابا وذهب إلى وضعها كذلك الإمام أبو منصور الماتريدي في كتابه (قصص الأتقياء) حيث قال الصواب في هذه القضية: أنها من إيحاء الشياطين إلى أوليائهم من الزنادقة حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين ليرتابوا في صحة الدين، والقصة لم يخرجها أحد من أصحاب الكتب المعتمدة، والذي روي في البخاري عن ابن عباس (أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس ؟)[2].

---

(١) الشيخ محمد أبو شهبه، الإسرائيليات والموضوعات في التفسير، مكتبة السنة، ط١ ص٣١٤، سنة ١٩٨٩م.

(٢) أحمد بن علي حجر العسقلاني، فتح الباري لشرح صحيح البخاري، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز، دار الفكر للطباعة والنشر، كتاب التفسير ج٨ ص٦١٤.

وفي رواية بن مسعود ﷺ قال: (أول سورة نزلت فيها سجدة، والنجم، قال فسجد رسول الله ﷺ يصلي ويسجد من خلفه إلا رجلا رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافرا، وهو أمية بن خلف) - أما سجود المسلمين فاتباعا لأمر الله، وأما سجود المشركين فلما سمعوه من أسرار البلاغة الفائقة، وعيون الكلم الجوامع مع التهديد والإنذار، وقد كان العربي يسمع القرآن فيخر له ساجدا، أضف إلى ذلك: ما فيه من موافقة الجماعة، والشخص إذا كان في جماعة يندفع إلى موافقتها من غير ما يشعر ولو كان الأمر على خلاف ما يهوى ويحب وهذا أمر مشاهد وفي علم النفس ما يؤيده.

مصادمة القصة للقرآن الكريم:

فقد أفادت القصة تسلط الشيطان على النبي بالزيادة في القرآن ما ليس منه وهو مخالف لقوله تعالى ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾[1] وأي مخلوق أحق بهذه العبودية من الأنبياء بل من رسول الله ﷺ وقال تعالى ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾[2] وأي بشر أصدق إيمانا وأقوى توكلا من رسول الله (. وقد صدق الشيطان ذلك، كما حكاه الله تعالى عنه ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** (٨٢) **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾[3] بفتح اللام وكسرها، ومن أحق من الأنبياء بالاصطفاء أومن أشد إخلاصا منهم ؟!

والخلاصة: إن هذه القصة مدحوضة مرفوضة:

لقول الحق سبحانه وتعالى ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ** (٤٤) **لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ**﴾[4] ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى** (٣) **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾[5] فلو حصل

---

(١) سورة الإسراء آية رقم (٦٥).
(٢) سورة النحل آية رقم (٩٩).
(٣) سورة ص الآيتين رقم (٨٢، ٨٣).
(٤) سورة الحاقة آيتي رقم (٤٤، ٤٥).
(٥) سورة النجم آيتي رقم (٣، ٤).

مثل هذا الشيء الذي ورد في الحكاية لكان مناقضا للآيات السابقة والآية التي احتج بها من يدعي صحة القصة ﴿وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾(1).وقريش أحبت المداهنة لكن رسول الله ﷺ لم يستجب لهم، لتثبيت الله له، ولقوله تعالى ﴿فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ﴾(2). قال ابن عباس: لو ترخص لهم فيرخصون، وقال مجاهد: تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق(3) ولكن لا تطع الكاذب لضعفه ومهانته، إنما يتقي بأيمانه الكاذبة، مكابرة، وضعفا فهنا أمرٌ بعدم طاعة المداهنين فكيف بمن لا ينطق عن الهوى ﷺ، وكيف يتأتى له مخالفة الأمر أو النقول، بعد هذا الوعيد الإلهي ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ. لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾(4). ويرفض: صاحب الإبريز: حكاية الغرانيق كلية لضعف نقلتها، واضطراب رواياتها، وانقطاع إسنادها، فيقول لو أنها وقعت لارتد كثير ممن أسلم، وهذا ما لم يحدث، أما تفسيره للآية التي احتج بها مرددوا هذه القصة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(5). فيقول تشير الأية إلى أن كل نبي يتمنى الإيمان لأمته ويحرص عليه، ونبينا من جملتهم فقد قال سبحانه ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى ءَاثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾(6). فالناس إذاً قد اختلفوا ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾(7). أما من كفر فقد ألقى عليه الشيطان من الوساوس القادحة له في الرسالة، فكفر، وكذا المؤمن لا يخلو من وساوس لأنها لازمة للإيمان بالغيب في الغالب، فينسخ الله ما يلقيه الشيطان، في قلوب أمة الرسل ويحكم آياته الدالة على

---

(١) سورة الإسراء آية رقم (٧٤).
(٢) سورة القلم الآيات رقم (٨، ٩، ١٠).
(٣) الحافظ بن كثير، تفسير القرآن العظيم ج٤ ص٤٠٣.
(٤) سورة الحاقة الآيات رقم (٤٤، ٤٥، ٤٦).
(٥) سورة الحج آية رقم (٥٢).
(٦) سورة الكهف آية رقم (٦).
(٧) سورة البقرة الآية رقم (٢٥٣).

الوحدانية والرسالة، ويبقى ذلك في قلوب المنافقين والكاذبين[1] وقد تكون قريش قد اختلقت حادثة الغرانيق وروجها المنافقون ليرجع إليها المهاجرون من الحبشة وهو الذين فروا من اضطهادها.

أما السنة: فالنبي ﷺ لم يحترم الأصنام في الجاهلية إذ لم يعرف عنه أنه تقرب لصنم بل قال (بغض إلى الأوثان والشعر)، بل إن سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ، لم يسجد و لم يتقرب إلى صنم، وإن الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، أولى به أن لا يقنع بصنم، فما همَّ النبي ﷺ بعمل من أعمال الجاهلية قبل النبوة إلا عصمه الله ، فكيف به في الإسلام، كما أن سياق الآيات التي زعم أن بينها آيات الغرانيق لا يحتمل وجودها أبداً، فهي تسفه عقول المشركين في مكة وتنعي عليهم عبادة الأصنام فكيف ينطق النبي ﷺ مع هذه الآيات بآية مناقضة لمجموع الآيات الواردة معها في أصل العقيدة الإسلامية، وصلب دعوته ﷺ.

وهاهي الآيات الكريمة تبين عن نفسها:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾[2]. ليس من المعقول أن تحشر بين هذه الآيات المتتالية آية مناقضة لها في أصل العقيدة الإسلامية أساس دعوة النبي ﷺ.

وهكذا تبين بطلان هذه القصة من أساسها:

سواء من ناحية أسانيدها المنقطعة، أو متنها المضطرب والمتناقض، يكفينا أنها لم ترو في كتاب واحد من الكتب المعتمدة الصحيحة، لكن أعداء الإسلام في كل زمان ومكان، حريصون على أن يلبسوا الحق بالباطل، وأن يروجوا لمثل تلك الحكايات التي تثير البلبلة وتبعث على الاضطراب والحيرة **﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾**[3].

---

(١) أحمد المبارك، الإبريز، بدون رقم للطبعة، مصطفى الحلبي نقلا عن د/ شوقي أبو خليل الإسلام في قفص الاتهام ص٨٥ مرجع.

(٢) سورة النجم الآيات رقم (١٩ – ٢٣).

(٣) سورة الصف آية رقم (٨).

المبحث الثاني
أرمانوسة المصرية

موضوع الرواية:

تمثل حوادث هذه الرواية الفترة التي حكم فيها المقوقس - مصر - من قبل الرومان، وتمتد لتشمل عهد عمرو بن العاص، حيث تم الفتح الإسلامي لمصر، وتقع في المجلد الأول وفي نصفه الأخير في حوالي ٢٦٨ تقريبا - يسجل جرجى زيدان في صفحتها الأولى موضوعها فيقول: فيها تفاصيل فتح مصر والأسكندرية على يد عمرو بن العاص في صدر الإسلام (٦٤٠) مع بسط حال العرب وعاداتهم وأخلاقهم وأزيائهم وحال الأقباط والرومان في هذا العصر[1].

أهم الشبهات والمآخذ الواردة بالرواية:

(١) تقديم علل مغلوطة لانتصارات المسلمين:

فقد صور المؤلف المعارك الإسلامية مع الرومان، بصورة باهتة الظلال بل مشوهة في كثير من الأحوال .. فنجده قد ابتسر الحديث عن الدعوة إلى الإسلام ومر عليه مروراً عابراً، في الوقت الذي أفاض الحديث فيه عن المسيحية، وتعمد تقديم قائد حصن الروم وابنه أركاديوس في صورة الأبطال المغاوير في كل موقف من مواقفهما الغرامية أو الحربية.

جاء حديثه عن الإسلام والدعوة إليه، وإعلام الدنيا كلها بهذ الدين عن طريق الكتب التي حملتها الرسل مفوضة من سيدنا رسول الله ﷺ بعرضه على الملوك والرؤساء، في سطور مقتضبة قليلة (... مفادها: أن رسالة قدمت على المقوقس واردة من كبير العرب ! وهو: رجل عظيم سن دينا جديدا وتبعه جمع غفير، وسار يقول له في ذلك الكتاب، أن يترك ديانة السيد المسيح ويتبع ديانته، لكن سيدي المقوقس، لم ير أن يغير دينه، وبعث لكبير العرب بهدايا في جملتها مارية)[2]. هذا

---

(١) مجلد رقم ١ الرواية ص٤٤٦.

(٢) الرواية بمجلد ١ رقم ١ من الأعمال الكاملة ص٤٦٢ ، وبمجلة الهلال عدد ١٥/ ٨/ ١٨٩٩م ص٦٩٤، وما بعدها وبها حديث عن ترجمتها إلى اللغة الهندية - وعن شخصنتها - أي تمثيلها - حتى يتمكن من مشاهدتها الخاص والعام ... الخ.

هو كل ما سمحت به نفس الخواجا جرجي زيدان سطور قليلة عن الإسلام لا يتجاوز الأربعة أسطر، في رواية يقول أنها تاريخية تتحدث عن فتح مصر بالإسلام، فكيف يصح بعد هذا أن نعتبرها رواية تاريخية إسلامية ؟!

(٢) التركيز على المواقف الغرامية على حساب الحقائق التاريخية:

لم يعن جرجي في معظم رواياته بالجانب التاريخي عنايته وتركيزه على الجانب الغرامي، فنراه يقوم بعقد علاقة حب بين أركاديوس قائد حصن الروم بمصر وأرمانوسة، في نفس الوقت الذي يعقد علاقة حب أخرى وطيدة بين أرمانوسة وقسطنطين ... حب لا حدود له يغنيه عن هدفه وآمال دولته فنراه يقول (... عن أركاديوس هذا ... لكن الحب سهل عليه كل عسير حتى أنه احب أمة القبط كلها، من أجل محبوبته، ومال إلى التشيع لهم رغبة في مرضاتها، ونقم على الساعة التي ولد فيها رومانيا، وعلى الأحوال التي جعلت أباها يتشيع للأقباط لأن كلا الأمرين حائل بينه وبينها...) [1].

وبعد صفحة واحدة من هذا الحديث عن حب أركاديوس لأرمانوسة وهيامه بها، نراه يقدم لها حبيبا آخر هو قسطنطين بن الامبراطور هرقل، تقول (في حوار بين بربارة خادمة أرمانوسة وأركاديوس تقول له.. وهب أنك ذللت كل المصاعب التي تحول بينك وبين أرمانوسة، فماذا تصنع مع قسطنطين ؟ فبغت وقال أي قسطنطين ؟ وما علاقته بهذا الأمر ؟ فقالت يا للعجب كيف تتجاهل شيئا لا يجهله أحد من أهل مصر؟)[2]. وهكذا تتحول رواية الفتح الإسلامي - على يد الخواجا جرجي زيدان إلى قصص غرامية وعلاقات حب !! كل ذلك حتى ينتهي من خلالها إلى نتيجة واحدة حرص عليها كل الحرص وهي التقليل والتهوين من شأن التضحيات الجسيمة التي قدمها أبطال المسلمين الأول من أصحاب رسول الله ﷺ في فتح البلدان والأمصار، لا سيما فتح مصر، وأنه كان بسبب اشتغال القادة

---

(١) رواية أرمانوسة المصرية ، ص٤٤٧ مجلد ١.

(٢) الرواية ص٤٨٠ مجلد ١.

الرومان بعلاقات الحب والغرام من ناحية وبفضل خيانة المقوقس لهم من ناحية أخرى، ومساعدته العرب الفاتحين! (وليس المسلمين).

(٣) ممارسة الوصاية على القراء في التعرف على شخصيات الرواية:

فقد انحصر دور جرجي زيدان في إعطاء القارئ فكرة عن كل شخصية، دون أن يتيح للقارئ فرصة للتعرف عليها من خلال تحركها لأداء دورها، في كل موقف من مواقفها، ففي حديثه عن عمرو بن العاص مثلا لايقدمه للقارئ إلا على أنه (قصير القامة وافر الهامة أدعج أبلج، عليه ثياب موشاة كأنها العقبان، تأتلق، وعليه حلة وعمامة وجبة)[1]. مجرد صفات عامة ليس من شأنها ولا يتوصل من خلالها إلى تحديد شخصية زعيم كبير، وقائد إسلامي عظيم، كعمرو بن العاص ﷺ، والذي ينبغي أن يجئ التعرف به من طريق آخر، وبجوانب أخرى غير هذه الجوانب المادية الساذجة، التي تبدأ بقصر القامة لتنتهي بالجبة والعمامة، لا بالسلوك، والاعمال الجليلة المتعددة التي قام بها سيدنا عمرو، التي تستخرج استخراجا من مواقفه الشخصية، وتحركاتها في إسلامه، في دعوته للإسلام، في مواقفه البطولية، في المعارك الإسلامية التي خاضها ..الخ وتفاعل ذلك كله مع الحدث الروائي.

(٤) هل استكملت الرواية بعض الحلقات المفقودة في التاريخ ؟

وهذه إحدى مهام الرواية التاريخية - الرئيسية - استكمال حلقات التاريخ التي لم تلتقطها عدسة المؤرخين (كالعادات والسلوكيات والأعراف ...) والمتأمل في الرواية - التي معنا - يجد أنها لم تقدم شيئا في هذا الجانب، لعدم وجوده أصلا على صفحاتها - كما عمد إلى حشد المواقف الغرامية التي لا تتمشى مع مجريات أحداث الرواية، لأن حوادثها الأساسية هي الحرب بين الروم والمسلمين أثناء نشر الفكر الإسلامي الذي أخذ يندفع إلى العالم بأسره، إندفاع العصارة في الشجرة الجرداء، فلا يدخل الغرام هنا بل لا يحسن إيراده - مطلقا في هذا الحال الذي يبرز

(١) الرواية ص١٢٦ ط دار الهلال / ١٩٨٣.

سماحة الإسلام ويبين أن المسلمين ما كـانوا يقاتلون الروم بقوة الإنسان، لكن بقوة الروح الدينية حيث لا موازنـة بين عدد الفريقين (١٠٠ ألف من الروم - في مقابل اثني عشر ألف من المسلمين).

المبحث الثالث

عذراء قريش

موضوع الرواية:

تتضمن هذه الرواية - كما قدمها صاحبها (تفصيل مقتل عثمان بن عفان وخلافة الإمام علي، وما نجم عن ذلك من الفتنة، وواقعة الجمل، وصفين، إلى تحيم الحكمين، وخروج مصر من خلافة الإمام علي)[١].

بينما **واقع الرواية في الحقيقة**: يدور حول شخصية خيالية مسيحية إسمها أسماء" وهي على حد تعبير الرواية (فتاة غضة الشباب، مشرقة الوجه، ممتلئة الصحة والنشاط ، على جانب عظيم من المهابة ، جمعت بين لطف الرجال ، ورقة النساء[٢].

وعلى هذا فإن أحداث الرواية تسير في خطين متوازيين

أحدهما: الخط التاريخي الذي سبق استشهاد الخليفة ذي النورين وما أعقبه من أحداث تظهر فيها شخصيات تاريخية كثيرة.

وثانيهما: الخط الخيالي وقد استعمله المؤلف لإخفاء عنصر التشويق على الأحداث[٣].

وقبل الدخول في مناقشة هذه الروايات وعرض ما جاء بها من شبهات حاول مؤلفها أن يثيرها في حق الخليفتين الجليلين، ذو النورين عثمان بن عفان وأبو السبطين علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - وعدد من أعلام هذه الأمة وخيارها من صحابة رسول الله ﷺ، فلا يغيب عن خاطرنا «أن كثيرا من الكتابات التي ظهرت عن هذين الخليفتين - مستقية مادتها من كتابات جرجى

---

(١) جاء تقديم بجلة الهلال للرواية في أعداد ١/ ١٠/ ١٨٩٩م، ١/ ١١/ ١٨٩٩م، ١/ ١/ ١٩٠٠م، ١/ ٤/ ١٩٠٠م، وتقول عنها المجلة في العدد الأول - والوقائع أننا نكتبها كما نكتب التاريخ وندقق في ضبط الوقائع وتحديد أزمانها بحيث يصح الاعتماد عليها.

(٢) جرجي زيدان: عذراء قريش بجلد ٢ ص١٠ من المؤلفات الكاملة.

(٣) محمد بسام ملص - عذراء قريش في أدب الأطفال، ص١٣، إدارة الثقافة والنشر، بجامعة الإمام محمد بن سعود ١٩٨٨م.

زيدان وأمثاله – حملت بين ثناياها قدراً كبيرا من التشويه وإلصاق التهم جذافا، دونما دراسة واعية أو إحاطة دقيقة بالظروف الحرجة التي كان يعيشها المجتمع الإسلامي آنذاك، والتي اختلفت فيها النظرة للحياة، وانحرفت فيها الرعية عن منهج الرعية في عهد الخليفتين السابقين، مما كتب على الشهيدين – عثمان وعلي – رضي الله عنهما – أن يحملا مسؤولية الحكم في ظروف ليس لها نظير من قبل، وأن تلك الأحداث الجسام التي شهدتها الدولة الإسلامية رغم الفاجعات التي حلت بالمسلمين، فيها لم تكن إلا تعبيرا عن حق الأمة في محاسبة حكامها، تلك القيمة الجديدة التي فجرها الإسلام بين العرب وسائر المسلمين، فنادى بها الخاصة والعامة – غير أن غوغاء الناس في تلك الحقبة للأسف الشديد، لم يفهموها و لم يحسنوا التعبير عنها، فحاصوا بها حيصة الحمر الوحشية، فكان ضحيتها ذو النورين وأبو السبطين – رضي الله عنهما – لكن رغم السحب الكثيفة التي غشيت تلك الفترة، فلن تحجب عنا تلك الصورة المشرفة لهاتين الشخصيتين العظيميتين – رغم محاولات أعداء الإسلام التي لا تنقطع – فما ذادتها المحن إلا وضاءة، وكانا بحق علمين بارزين في عهد الدولة الإسلامية الأولى»(١).

أهم الشبهات والمآخذ الواردة في الرواية:

(١) تجريح الصحابة – رضوان الله عليهم – واتهام بعضهم بالحقد وتدبير المؤامرات:

ويتضح ذلك في الوصف الذي قدمته الرواية لكل من الزبير(*) بن العوام

(١) د/ حلمي عبد المنعم صابر، نظرات في تاريخ الخلفاء الراشدين، ج٢، ص٥، مطبعة الحسين، ط١.

(*) الزبير بن العوام: بن خويلد بن أسد بن عبد العزيز بن كلاب، أبو عبد الله حواري رسول الله ﷺ وابن عمته، أمه صفية بنت عبد المطلب، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، أسلم وله اثنتا عشرة سنة، كان عمه يعلقه في حصير، ويدخن عليه ليرجع إلى الكفر، فيقول لا أكفر أبدا، هاجر الهجرتين، روى أحمد من طريق عاصم ابن الزبرقان قال قيل لعلي: إن قاتل الزبير بالباب، قال ليدخلن قاتل ابن صفية النار، سمعت رسول الله ﷺ يقول إن لكل نبي حواري وإن حواريي الزبير) روى أنه كان لديه ألف مملوك يؤدون إليه الخراج فكان لا يدخل بيته منها شيئا يتصدق به كله، روى أبو يعلي من طرق المازني قال شهدت عليا والزبير توافيا يوم الجمل فقال له علي أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول إنك قاتل عليا وأنت له ظالم ؟ قال نعم، و لم أذكر ذلك إلا الآن فانصرف فقتله ابن حرموز، في جمادى الأولى سنة ثلاثين وله ست وستون سنة [محمد حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة ج٤ ص٦].

وطلحة(*) بن عبيد الله، وعمرو بن العاص[1]، وأن لهم مطمعا في الخلافة، كل منهم يطلبها لنفسه) تقول الرواية (...دخل مروان، على أم المؤمنين عائشة وعندها طلحة والزبير وابناهما، فقال: على أيكما أسلم بالإمارة وأأذن للصلاة ؟ يلمح إلى أن أحدهما سيكون أمير المؤمنين، فأجابه عبد ا لله بن الزبير على أبي،

(*) طلحة بن عبيد الله: أحد العشرة وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام وأحد الخمسة الذي أسلموا على يد أبي بكر، وأحد الستة أهل الشورى روى عن النبي ﷺ وعنه بنوه يحي، وموسى، وعيسى، كان عند وقعة بدر في تجارة في الشام فضرب له النبي ﷺ سهما، وشهد أحداً، وأبلى فيها بلاء حسنا، ووقى النبي ﷺ بنفسه، واتقى النبل عنه بيده حتى شلت إصبعه، سماه النبي ﷺ طلحة الفياض، وعن سبب إسلامه يقول: حضرت سوق بصرى، فإذا راهب في صومعته يقول سلوا أهل هذا الموسم أفيهم أحد من أهل الحرم ؟ قال طلحة نعم أنا فقال: هل ظهر أحمد ؟ قلت من أحمد ؟ قال ابن عبد الله هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو آخر الانبياء أو مخرجه من الحرم ومهاجره إلى نخل. فإياك أن تسبق إليه، فوقع في قلبي، فخرجت سريعا حتى قدمت مكة: فقلت هل كان من حدث ؟ قالوا نعم، محمد الأمين تنبأ، وقد تبعه ابن أبي قحافة، فخرجت حتى أتيت أبا بكر فخرج بي إليه ؟ فأسلمت فأخبرته بخبر الراهب، آخى النبي ﷺ بينه وبين الزبير قبل الهجرة وبينه وبين أبي أيوب بعد الهجرة، وقد تزوج أربع نسوة عند النبي ﷺ أخت كل منهم، أم كلثوم أخت عائشة، وحمنة بنت جحش أخت زينب، والفارعة بنت أبي سفيان أخت أم حبيبة ورقية بنت ابن امية أخت أم سلمة، رضي ا لله عنهن أجمعين، وقد أخرج يعقوب بن سفيان بسند صحيح، عن قيس ابن أبي حازم أن مروان بن الحكم رأى طلحة في الخيل فقال هذا أعان على عثمان، فرماه بسهم في ركبتيه فما زال الدم يسيح حتى مات في يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخر وله أربع وستون سنة. [شيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلاني - الإصابة في تمييز الصحابة ط١ مكتبة الكليات الأزهرية ج٥ ص٢٣٥.].

(١) عمرو بن العاص، أمير مصر يكنى أبا عبد الله، أسلم قبل الفتح في حضر سنة ثمان، ذكر الواقدي أن إسلامه كان على يد النجاشي، وهو بأرض الحبشة وذكر الزبير بكار أن رجلا قال لعمرو ما أبطأ بك عن الإسلام ؟ وأنت أنت في عقلك ؟ قال إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم، وكانوا ممن يوارى حلومهم الخيال، فلما بعث النبي ﷺ فأنكروا عليهم لُذنَا بهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا فإذا حق بين، فوقع في قلبي الإسلام، فعرفت قريش ذلك مني، من إبطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم عليه، فبعثوا إليّ فتى منهم فناظرني في ذلك، فقلت أنشد الله ربك ورب من قبلك ومن بعدك أنحن أهدى أم فارس والروم، قال نحن أهدى، قلت فنحن أوسع عيشا أم هم ؟ قال هم. قلت فما ينفعنا فضلنا عليهم، إن لم يكن لنا فضل إلا في الدنيا ؟ وهم أعظم منا فيها أمراً في كل شيء، وقد وقع في نفسي أن الذي يقوله محمدا من أن البعث بعد الموت ليجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته حق، ولا خير في التمادي في الباطل، ومن مناقبه: أن النبي أمّره، فقد أخرج أحمد بسند حسن عن عمرو بن العاص، قال بعث إليَّ النبي ﷺ فقال خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني، فأتيته فقال إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة، فقلت يا رسول الله ما أسلمنا من أجل المال بل أسلمت رغبة في الإسلام، قال يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح، تولى إمارة مصر في زمن عمر بن الخطاب، وهو الذي افتتحها وأبقاه عثمان قليلا ثم عزله، فبقي بغير إمرة حتى مسيرة معاوية بجيش إلى مصر فوليها من سنة ٣٨-٤٣ وأدركته الوفاة وهو ابن تسعين سنة، وفي رواية عبد الرحمن بن شهامية قال لما حضرت عمرو الوفاة بكى، فقال له عبد ا لله بن عمرو وإبنه ما يبكيك ؟ فذكر الحديث بطوله في قصة إسلامه، وأنه كان شديد الحياء من رسول ا لله ﷺ لا يرفع طرفه إليه..).

ابن حجر العسقلاني - الإصابة في تمييز الصحابة ج٧ ص١٢٤ - تحقيق د. طه الزيني ط١ ١٩٧٧م مكتبة الكليات الأزهرية.

ترجمة عثمان بن عفان ﷺ ج٦ الإصابة الكلية ص١ / ٣٩١.

فاعترضه محمد بن أبي طلحة، قائلا بل على أبي، فضحك مروان وقال: بل اجعلوا الخلافة في ولد عثمان) (١)، مع أن رواية الأحنف بن قيس أن أبي طلحة والزبير قد رشحا علي بن أبي طالب، حيث قال الأحنف: لا أرى هذا الرجل إلا مقتولا قالا علي، قلت أتأمران به وترقيان بي - يقصد عليا - قالا نعم، قال: فانطلقت حتى قدمت مكة، فبينما نحن بها إذ بخبر مقتل عثمان) (٢).

والحقيقة التاريخية الناصعة: أنه كان قد سبق ترشيح كل من طلحة والزبير ضمن الستة الذين اختارهم عمر ﷺ للخلافة بعده - باعتبارهم من الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض - وقد نفذت وصية أمير المؤمنين عمر ﷺ على أكمل وجه، وقام عبد الرحمن بن عوف ﷺ بالمهمة خير قيام، فقد اجتمع بالخمسة الآخرين كل على حدة، واستطلع رأيهم فيمن يرشحونه للخلافة - بعد أن خلع نفسه منها، كما جاء في رواية الطبري عن عمرو بن ميمون الأودي (وأنه خلا بالزبير فكلمه فقال له: عثمان - أي رشح عثمان للخلافة - وكذلك فعل مع طلحة، فأمر بترشيح عثمان) ولم يدخر بن عوف جهدا طول الأيام الثلاثة بلياليها، في سؤال الناس عمن يرونه كفؤا لهذا الأمر، وقد كان بحق أمينا في السماء أمينا في الأرض، أدى الأمانة كاملة لم يخن فيها الله، ولا رسوله، ولا المؤمنين، فلا مسوغ بعد ذلك على الإطلاق لأن تورد الرواية - انقلاب هذين الصحابيين عن بيعتيهما، وتآمرهما على الخلافة وطلبها لأنفسهما، فهذا ما لا يليق بمقامهما رضي الله عنهما.

(٢) اتهام السيدة عائشة رضي الله عنها بسفك الدماء والنزوع إلى الشدة:

هكذا - تقدم الرواية - الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين رضي الله عنها على أنها (الساعية لسفك الدماء، والتي لا تصغي إلى سعاة السلام - وفي مقدمتهن

(١) عذراء قريش مجلد ٢ ص٢١.
(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص١١٠.

الفتاة النصرانية، التي جعلتها الرواية محورا لأحداثها وان عائشة كانت ناقمة على، علي، لتقاعسه عن الإنتقام لعثمان، والثأر ممن قتله، وأوردت الرواية هذا الحوار الذي دار بين السيدة عائشة وبين عبيد بن أبي سلمة أحد أخوالها.

عائشة: تسأل عبيد كيف فارقت المدينة ؟

عبيد : فارقتها وقد قتل عثمان.

عائشة: عندما سَمِعَتْ بذلك، قطبت جبينها، وتطاير الشر من عينيها قائلة قبل أن يتم حديثه، ثم صنعوا ماذا ؟

عبيد : لم يستغرب ما بدا منها، وقال أجمعوا على بيعة علي.

عائشة: هبت من مجلسها قائلة، ومشيرة إلى السماء ثم إلى الأرض، ليت هذه انطبقت على هذه أن تم الأمر لصاحبك ! ثم خرجت مسرعة تقول: ردوني إلى مكة، قتل والله عثمان مظلوما، والله لأطالبن بدمه.

عبيد : استوقفها وقال لها ولم ؟ والله إن أول من أمال حرفه لأنت ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلاً فقد كفر !!

عائشة: إنهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت ! وقولي الأخير خير من الأول !

ولا تكتفي الرواية بهذا بل تنشر على لسان عبيد قوله

فمنك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر

وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا انه قد كفر

فنحن أطعناك في قتله وقاتله عندنا من أمر

ولم يسقط السقف من فوقنا ولم تنكسف شمسنا والقمر [1].

ولا تكتفي بكل هذا الخبث الذي تقذفه، بل تزيد على ذلك ادعاء تجريه على لسان أحد شخصياتها الوهمية وهي (العجوز) تقول إن حقدها على عَليٍّ لأنها كانت تحمل له ما يحمله الأحماء !

وهكذا تقدم - الرواية الجرجانية - أم المؤمنين - رضي الله عنها في صورة

---

(1) هذا الحوار من رواية عذراء قريش صفحات ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٩ مجلد ٢ بهذه الصفحات كل ما ورد عن السيدة عائشة ووجه إليها من اتهامات باطلة.

المرأة الغاضبة المتشنجة - من خلال تهم كاذبة مفتراة، زاعمة أنها ألبت الناس على قتل عثمان وحكمت بكفره !! ثم لما أطاعوها وقتلوه تبرأت من ذلك، وخرجت تطالب بدمه، وتؤلب الناس ضد علي، ولكنها لم تكن صادقة في خروجها ومطالبتها بدم عثمان، بل خرجت على عليٍّ بسبب خلافات شخصية قديمة كانت بينها وبينه !! وكل هذا كذب وافتراء، وتجرأ على مقام الطاهرات العفيفات أمهات المؤمنين رضي الله عنهن وأرضاهن، الذين اختارهم الله ليقترنَّ بخيرة أنبيائه ورسله، محمد ﷺ وخاصة على مقام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها التي يقول عنها الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري ﷺ «ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه»[1] والتي يقول عنها عمرو بن العاص ﷺ (أتيت النبي ﷺ فقلت أي الناس أحب إليك ؟ قال عائشة، فقلت من الرجال قال أبوها..)[2].

ويقول عنها شيخ الإسلام ابن تيمية (..وعائشة صحبته في آخر النبوة وكمال الدين، فحصل لها من العلم والإيمان، ما لم يحصل لمن يدرك أول النبوة، فكانت أفضل، لهذه الزيادة، فإن الأمة انتفعت بها أكبر مما انتفعت بغيرها، وبلغت من السنة والعلم ما لم يبلغه غيرها) [3]. وما أورده الإمام ابن جرير عن هذه الفتنة وملابساتها خير دليل على نقاء سيرة وسريرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، يقول (.. إن كعب بن نويرة ومعه أحد أصحابه، ذهب إلى السيدة عائشة فقال لها أدركي الناس، فقد أبى القوم إلا القتال، لعل الله يصلح بك، فركبت عائشة وألبسوا هودجها الأدرع، ثم بعثوا جملها، فلما برزت وكانت تسمع الغوغاء، وقفت فقالت ما هذا؟ قالوا جلبة العساكر، قالت بخير أو شر ؟ قالوا بشر، قالت فأي الفريقين كانت فيهم الضجة فهم المهزومون).

فهذه الرواية تثبت سعيها للسلام، بعد إلحاح الناس عليها وتذكيرهم لها وأن رسول الله ﷺ خرج للصلح، وأرسل فيه، فرجت المثوبة وخرجت، ثم طلبت من

(١) الترمذي، الجامع الصحيح كتاب المناقب، باب فضل عائشة ج٥ ص٦٦٢ دار الكتب العلمية بيروت.
(٢) البخاري باب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب فضل أبي بكر ج٥ ص٦.
(٣) شيخ الإسلام ابن تيمية - منهاج السنة النبوية في بعض أحلام الشيعة والغدرين ج٢ ص١٨٢.

كعب أن تقدم بكتاب الله فادعهم إليه ودفعت مصحفا، وأقبل القوم وأفعالهم السيئة يخافون أن يجري الصلح، فاستقبلهم كعب بالمصحف وعلى من خلفهم، يؤخرهم ويأبون الاقتراب فجعلت تنادي: يا بَنِيَّ البقية البقية، الله . الله ، اذكروا الله عز وجل والحساب فيأبون الاقتراب [1].

إن القارئ لرواية عذراء قريش: يخرج منها بانطباع إجمالي ونتيجة غاية في الغرابة وهي (أن شخصية أسماء الفتاة النصرانية البطلة الخيالية، أكثر بطولة وشهامة وعقلانية، وأخلاقاً، وحرصاً على أمور المسلمين، من شخصية أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وإن القارئ عندما يتأمل قول هذه البطلة النصرانية عن الأحداث التي تبعت وقعة الجمل «إنها والله الفتن تطل برأسها البغيض» [2]. وغيرتها وأسفها على الفتن التي تحدث بين المسلمين في العديد من مواقف الرواية، عندما يتأمل هذه الصورة وينتقل إلى الصورة الأولى التي قدمتها الرواية عن السيدة عائشة رضي الله عنها وسيل الاتهامات المفتراة والكاذبة التي ألصقتها الرواية بأم المؤمنين - ليقف على هذه النتيجة ويخرج بهذا الانطباع).

(٣) اتهام ذي النورين عثمان ﷺ بأنه كان حاكما غادرا خائنا لشعبه ذليلا إمَّعةً:

تقول الرواية عن عثمان ﷺ أنه (..كان ببيته آنية الذهب والفضة من غنائم المدائن، عاصمة الفرس، على عهد عمر بن الخطاب، وبينها تاج كسرى مرصع بالجواهر، ودروع هرقل وخاخان ملك الترك، وداهر ملك الهند).. ولكن كيف دخلت هذه الأموال والجواهر إلى بيت عثمان ؟ تقول الرواية (.. إنها من غنائم المسلمين بالمدائن عاصمة ببلاد الفرس وهي من متاع بيت المال، وتورد على لسان زوج عثمان رضي الله عنها: قولها: (لكنا نقلناه لأمر اقتضى ذلك).

وهكذا تقدم الرواية الجرجانية - أمير المؤمنين عثمان ﷺ - على أنه حاكم

---

(١) القاضي أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم، المطبعة السلفية ١٥٢/٥.

(٢) عذراء قريش ص٧٢.

غـادر بأموال المسـلمين، يأخذها لنفسه ويضعهـا في بيته، في الوقـت الذي يعلم فيه كل مسـلم صغـيراً كان أو كبـيراً، أن للغنائم مصادرهـا المحددة بنص القرآن الكريم ووفقا لقواعد الشـريعة لا يستطيع حاكم ولا يجرؤ أن يخرقها ويخص بها نفسه، لا سيما إذا كان أمير المؤمنين الذي كانت تستحي منه الملائكة ﷺ [عن عائشة رضي الله عنها عـن النبي ﷺ أنه قـال (ألا أسـتحي من رجل تسـتحي منـه الملائكة)[1]]، وهو من هو، غنى وثـراءً وعطاء للإسلام والمسلمين، وغني عن البيان أن نسجل هنا مواقفه العظيمـة، كشراء بئر روميـة، التي يحتكرها اليهودي وإعطائها للمسلمين، أو تجهـيز ثلث جيش العسرة، وتلك الأموال الـتي لا تعد، التي تصدق بها ﷺ في سبيل الله والتي جعلت رسـول الله ﷺ يصل بـه الإعجاب بتصدقـه وأموالـه الكثيرة التي أحضرها في إحـدى الغزوات، أن يقول (ما ضر عثمـان ما فعل بعد اليوم)، رضي الله عنه وأرضاه.

أما زعـم الرواية وافترائهـا على عثمان ﷺ بأنه إمعـة، ذليل، مستسلم، لابن عمه مروان، فهـذا قول يجـافي الحقيقـة، مرده إلى خلط القـائلين بـه بين سماحـة عثمـان ﷺ وحيائه المنقطع النظير، وبين إنعكاسات ذلك الطبع على تصرفاته في حينها، وعندما تتطلبها الظروف والأحوال، فكيف يوصف بالضعف رجل كان إسلامه تحديا لكل قوى الطغيـان، وعلى رأسـهم خاصـة أهلـه، وعمـه الحكم بن العـاص الذي حبسـه وأذاقـه صنوف العذاب، ولكـن أصر على إسـلامه، كيف يوصف بـالضعف رجل إستقبل عهده بالخلافة، وقد انتفضت قوى العدو من كل جانب، تريد القضاء على دولـة الإسلام، في بلاد فارس والروم، ولقد أثبت هذا الدرس شـجاعة الشيخ وقوته مع أنـه كان ينـاهز التسـعين مـن عمره، كيف يتصف بـالضعف رجل استطاع أن يفعـل مـا يفعلـه عمـر، وهو خوض المسـلمين لغمـار البحـر لأول مرة في تـاريخ المسلمين ! إن طاعة عثمـان لمروان ليست بطاعة نفس ضعيفة لكل من يوسوس لها، فقد كان يستمع للصواب من رأيه ويعرض عـن الخطأ منه [2]. رضي ا لله عن ذي

---

(١) مسلم، كتاب فضائل الصحابة – فضائل عثمان ج٣ ص٤٦٧.
(٢) د/ حلمي صابر، نظرات في تاريخ الخلفاء ص٥٦.

النورين وأرضاه – فلقد كان له المكانة السامية عند رسول الله ﷺ لشمائله التي تعبق بالخير ويفوح منها عبير الرحمة، أول سفير للإسلام بالحديبية، الذي انطلق إلى قريش يحمل لهم راية السلم، فلما تأخر انعقدت لنصرته أعظم بيعة في الإسلام، بيعة الرضوان، ولكي تقف على ماله من فضل وعظيم مكانة، نسمع إلى ما يقوله عنه عبد الله بن عمر ﷺ (كنا نتحدث على عهد رسول الله ﷺ أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان فيبلغ ذلك رسول الله ﷺ فلا ينكره)(١).

ولأنس بن مالك ﷺ وهو يقول (صعد النبي ﷺ أحداً ومعه أبو بكر وعثمان فرجف بهم، فقال أسكن أحد – أظنه ضربه برجله – فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان) (٢). أما الفتنة التي حدثت في عهده ﷺ والمصيبة التي لحقت به، فقد أخبر عنها النبي ﷺ في حديث أبي موسى الأشعري قال ﷺ بينما رسول الله ﷺ في حائط بالمدينة وهو متكئ يركز بعود معه بين الماء والطين، إذ استفتح رجل له وبشره بالجنة، قال: فإذا أبو بكر ففتحت له وبشرته بالجنة، ثم استفتح رجل آخر، قال: فجلس النبي ﷺ فقال افتح له وبشره بالجنة، قال فذهبت فإذا هو عمر، ففتحت له وبشرته بالجنة، ثم استفتح رجل آخر، قال: فجلس النبي ﷺ فقال افتح له وبشره بالجنة على بلوى تكون، فقال فذهبت إليه فإذا هو عثمان بن عفان، قال ففتحت وبشرته بالجنة قال وقلت الذي قال، فقال اللهم صبرا (٣).

وأورد الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال ذكر رسول الله ﷺ فتنة فمر رجل فقال (يقتل فيها هذا المقنع يومئذ مظلوما، قال عبد الله بن عمر فنظرنا فإذا هو عثمان بن عفان) وفي هذا الحديث معجزة عظمى للرسول الأعظم ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى بهذه الإشارة الحكيمة إلى ما كان سيقع لعثمان ﷺ، من البلاء العظيم، فقد حقق الله أخبار نبيه، وقبل دعوة عثمان، فرزقه

---

(١) أحمد بن حنبل – فضائل الصحابة – فضائل عثمان ج١ ص٥٢٠ ط١٩٨٣.

(٢) أحمد بن حجر العسقلاني – فتح الباري، دار الفكر للطباعة والنشر مجلد ٧ كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عثمان بن عفان حديث رقم (٣٦٩٩).

(٣) الإمام مسلم بن الحجاج – الصحيح – دار إحياء التراث العربي – بيروت ط٢ سنة ١٩٧٢م ج٤ ص١٨٦٦ – كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عثمان.

صبرا لم يرزقه أحد من أهل البلاء - حاشا النبيين - وتسليم بقضاء الله سبحانه فلم يكن صبره ﷺ صبر الضعيف المستكين، بل كان صبر المؤمن القوي الذي ما تنازل عن الأمانة، ولعل الذي منعه من الدفع عن نفسه إعلام رسول الله ﷺ له، أن ذلك سيق به القدر.

(٤) اتهام سيدنا علي ﷺ بأنه أعان على قتل ذي النورين عثمان ﷺ:

ولا تقف رواية جرجى زيدان عند هذا الحد في سبيل اتهاماتها لأعلام الأمة وهداتها ومنابع الخير فيها، بل إنها توجه اتهاما كاذبا إلى علي ﷺ، أنه أعان على قتل عثمان ﷺ لأنه لو أراد لمنع الناس عنه، وحال دون قتله تقول الرواية على لسان أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (تسأل سؤالا إنكاريا. هل نصدق أن عليا أراد أن يدفع الناس عن عثمان فلم يستطع ؟ أيعقل وهو صاحب الأمر في المدينة، قصد إلى الدفاع عن عثمان، وأنه غلب على أمره).

وحاشا لله أن يكون الإمام كذلك، وهو من هو سابقة في الدين وقمة في الزهادة، والورع، والروايات خير شاهد على أن تظهر لنا الحق في هذه المسئلة. فقد جاء في رواية شداد بن أوس (أن عليا ﷺ خرج من منزله يوما معتما بعمامة رسول الله ﷺ، متقلداً سيفه، أمامه الحسن وعبد الله بن عمر، في نفر من المهاجرين والأنصار، حتى حملوا على الناس وفرقوهم، ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه علي، وقال بعد تمهيد وجيز (..لا أرى القوم إلا قاتليك فمرنا فلنقاتل، فقال الخليفة أنشد الله رجلا رأى لله حقا وأقر أن لي عليه حقا، أن يهريق في سبيلي ملء محجمة من دم، فأعاد عليٌّ القول فأعاد عليه هذا الجواب، ثم خرج من عنده إلى المسجد، وحضرت الصلاة فنادوه يا أبا الحسن تقدم فصل بالناس فقال لا أصلي بكم والإمام محصور، ولكني أصلي وحدي، ثم صلى وحده وانصرف إلى منزله، وترك ابنه مع أبناء زمرة من الصحابة في حراسة دار الخليفة، إلا أن الثوار علموا أنهم مأخوذون بالانتظار، فتسوروا الدار، وولغوا في دم طهور فسفكوه، ونقل الخبر إلى علي ﷺ فقام مسرعا إلى دار الخليفة، وقال للحراس ومنهم ابناه تبا لكم،

ولطم الحسن، وضرب الحسين، وشتم محمد بن طلحة، وعبد الله بن الزبير، وجعل يسأل ولديه كيف قتل أمير المؤمنين وأنتم على الباب ؟

فأجاب طلحة لا تضرب يا أبا الحسن، ولا تشتم، ولا تلعن، لو دفع مروان ما قتل) وامتدادا للأدلة التي تساق في هذا المقام لتبرئة ساحة الإمام الجليل علي بن أبي طالب ﷺ أقدم هذه الرواية (..عن الحسن قال: لما قدم عَليّ البصرة، قام إليه ابن الكواء، وقيس بن عباد فقالا له: ألا تخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرت فيه، تتولى على الأمة تضرب بعضهم ببعض، أعهد عن رسول الله عهده إليك فحدثنا فأنت الموثوق المأمون على ما سمعت، فقال لا أما أن يكون عندي عهد من النبي ﷺ في ذلك فلا، والله لئن كنت أول من صدق به فلا أكون أول من كذب عليه، ولو كان عندي من النبي ﷺ عهد في ذلك ما تركت أخا بني تميم بن مرة [1] وعمر بن الخطاب، يقومان على قبره ولقاتلتهما بيدي، ولو لم أجد إلا بردى هذا، ولكن رسول الله ﷺ لم يقتل قتلا، ولم يمت فجأة، مكث في مرضه أياما وليالي، يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس، وهو يرى مكاني، ولقد أرادت امرأة من نسائه أن تصرفه عن أبي بكر، فأبى وغضب، وقال أنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر يصلي بالناس، فلما قبض الله نبيه ﷺ نظرنا في أمورنا فاخترنا لدنيانا من رضيه نبي الله ﷺ لديننا، وكانت الصلاة أصل الإسلام وهي أمير الدين وقوام الدين، فبايعنا أبا بكر، وكان لذلك أهلا، لم يختلف عليه منا اثنان، ولم يشهر بعضنا على بعض، ولم نقطع منه البراءة فأديت إلى أبي بكر حقه، وعرفت له طاعته، وغزوت جنوده، وكنت آخذ إذا أعطاني، واغزوا إذا أغزاني، واضرب بين يديه الحدود بسوطي، فلما قبض تولاها عمر فأخذها لسنة صاحبه، وما يعرف، تذكرت في نفس قرابتي وسابقتي وفضلي، وأنا أظن أن لا يعدل بي، ولكن خشى أن لا يعمل الخليفة بعده ذنبا إلا لحقه في قبره، فأخرج منها نفسه وولده، ولو كانت محاباة منه لآثر بها ولده، فبرئ منها إلى رهط من قريش، ستة أنا أحدهم، فلما اجتمع الرهط، ظننت أن لا يعد لوا بي، فأخذ عبد الرحمن بن عوف،

(١) أخو بني تميم: هو أبو بكر ﷺ.

مواثيقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولاه الله أمرنا، ثم أخذ بيد عثمان بن عفان وضرب بيده على يده، فنظرت في أمري فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي، وإذا ميثاق قد أخذ لغيري، فبايعنا عثمان، فأديت له حقه وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جيوشه، وكنت آخذا إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي، فلما أصيب نظرت في أمري، فإذا الخليفتان اللذان أخذاها بعهد رسول الله إليهما بالصلاة قد مضيا، وهذا الذي قد أخذ له الميثاق، قد أصبت فبايعني أهل الحرمين، وأهل هذين المصرين، فوثب فيها من ليس مثلي، ولا قرابته كقرابتي، ولا علمه كعلمي، ولا سابقته كسابقتي، وكنت أحق بها منه [1].

(٥) اتهام مروان [2] بن الحكم بإشعال نيران الفتن بين المسلمين وتزكيتها:

فقد جاء في الرواية عنه على لســـان الفتاة النصرانية أسماء بطلة الرواية، تقول (..أما كفاك يا مروان ما أيقظت من الفتنة في المدينة، أما كفى أنك السبب في مقتل الخليفة، حتى جئت تلقى الشقاق بين بقية الصحابة، والله لولا حرمة أم المؤمنين لأرقت دمك بين يديها، فلا أراك راجع عن غيك حتى تفتن المسلمين[3]) ولم تورد رواية جرجى زيدان تعليقا للسيدة عائشة، على قول الفتاة النصرانية في حق مروان، مما يعني موافقتها على ذلك وثبوت الاتهام على مروان.

مروان بن الحكم كما يراه الصحابة والتابعون وفقهاء الإسلام:

مع أن ما ذكره أهل العلم في حق مروان غير هذا، فمروان رجل عدل من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين، أما الصحابة: فإن سهل بن سعيد

---

(١) الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ط٣ - مطبعة المدني ص١٧٧، ١٧٨ سنة ١٩٦٤م.

(٢) مروان بن الحكم الملقب بالجعدي نسبة إلى مؤدبه الجعد بن أدهم، وبالحمار لأنه كان لا يجف له ليد في محاربة الخارجين عليه ولد في سنة ٧٢هـ وكان مشهورا بالفروسية والدهاء لما قتل الوليد وهو على أرمينية دعا إلى بيعته من رضيه المسلمون فبايعوه فلما بلغه موت يزيد أنفق الخزائن وسار فحارب إبراهيم فمزقه وبويع مروان في صفر ١٢٧هـ نقلا عن الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي بتاريخ الخلفاء ص٢٥٠ ط٣.

(٣) عذراء قريش - مجلد ٢ من المؤلفات الكاملة ص١٢١.

الساعدي [1] روى عنه في صحيح البخاري.

وأما التابعون: فأصحابه في السن وإن جازهم باسم الصحبة في أحد القولين، وفي طليعة من روى عنه من كبار التابعين الإمام زين العابدين بن علي بن الحسين، كما نص شيخ الإسلام بن تيمية، والحافظ بن حجر يقول فيمن روى عن مروان سعيد بن المسيب رأس علماء التابعين، وإخوانه من الفقهاء السبعة، أبو بكر عبد الرحمن بن الحارث، وعبد الله بن عبد الله بن مسعود، وعروة بن الزبير وإخوانهم كعراك بن مالك الغفاري المدني، وقد كان في رواة أحاديث مروان «عبد الرازق» إمام أهل اليمن وكانت فيه نزعة تشيع، وفي حديث عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أنه كان رسول مروان إلى أم المؤمنين أم سلمة في تحقيق بعض الأحكام الشرعية [2] والمتأمل في هذه الأقوال المتقدمة التي وردت عن مروان يجد أن جملتها من الأئمة الثقات، بتسلسل روايتهم عنه مدة جيلين وأكثر - وكلهم أعلى مرتبة في الإسلام من الذين يبردون الغل الذي في قلوبهم، بالطعن في مروان ومن هو خير من مروان.

وهكذا تنتهي أهم الشبهات التي دسها جرجى زيدان في هذه الرواية التي تطاول فيها على السادة الأماجد من رجال خير القرون وعلى رأسهم أم المؤمنين، والخليفتين العظيمين، سيدنا عثمان ذي النورين، وسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) سهل بن سعد الساعدي، من مشاهير الصحابة يقال كان إسمه حزنا فغيره النبي ﷺ، روى عن النبي ﷺ وعن أبي عاصم بن عدي، عمرو بن عنبسة، وروى عنه مروان، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني الإصابة في تمييز الصحابة - دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان مكتبة المثنى بغداد ج٢ ص٨٨.

(٢) القاضي أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم، المطبعة السلفية ص٩١.

المبحث الرابع
غادة كربلاء [1]

موضوع الرواية:

استغرقت هذه الرواية فترة زمنية طويلة ابتدأت في أخريات عهد معاوية، وانتهت بوفاة يزيد، فهي تتضمن مقتل الإمام الحسين بن علي، وأهل بيته، في سهل كربلاء، ووقعة الحرة، وولاية يزيد بن معاوية، وما جرى من الأحداث والفتن إلى وفاته سنة ٦٤هـ.

أهم الشبهات والمآخذ الواردة بالرواية:

مزج الحقيقة بالخيال:

فلم يعن المؤلف إلا بتقديم النذر اليسير من الحقائق التاريخية، أو أن ثلاثة أرباع الرواية تصويراً لأحداث خيالية. ومواقف غرامية مسفة لا وجود لها البتة في المصادر المعتمدة، من ذلك: التزام المؤلف جانب الحقائق التاريخية وهو يتحدث عن مقتل حجر بن عدي وجماعته، لكنه أضاف إلى تلك الحقائق التاريخية عددا كبيرا من المواقف المتخيلة مثل، وصية حجر إلى بعض أصحابه للعناية بشئون ابنته سلمى، مع أنه لا وجود لها، في ابن الأثير، الذي اعتمد عليه جرجي زيدان، اعتمادا كبيرا، مع الأخذ في الاعتبار **خطأ المؤلف** في نقل بعض العبارات مما أدى إلى تشويه شخصية حجر بن عدي، حيث ذهب إلى التقول على حجر بأنه قال لجلاديه عندما قدم للقتل (.. ما توضأت ولا صليت) بينما نص ابن الأثير (ما توضأت إلا صليت) والفرق بين وواضح بين العبارتين، فما قاله جرجي ربما يخرج عن دائرة الإسلام، وما أورده ابن الأثير يفصح عن حقيقة الإيمان الراسخة، التي كان يتحلى بها حجر.

والحق في هذه المسئلة أو القضية [2]: التي هي من أكبر القضايا الإسلامية في

---

(١) مجلة الهلال عدد ١/ ١٠/ ١٩٠٠ تقول إنها السلسلة الخامسة من روايات تاريخ الإسلام التي ستصدر تباعا في أهلة السنة التاسعة من الهلال.. الخ.

(٢) عبد المتعال الصعيدي، القضايا الكبرى في الإسلام، مكتبة الآداب، بدون رقم للطبعة ص١٩٥ سنة ١٩٦٠م.

ذلك العصر إذ بلغ عدد شهودها سبعين شاهدا، لأن الحاكم بالقتل فيها هو معاوية من أصحاب رسول الله ﷺ، والمحكوم عليه بالقتل هو (حجر بن عدي الكندي) من الصحابة أيضا، وكان من أعظم الناس دينا وصلاة وعلما، فأكبر كثير من العلماء قتله - حتى روى الجوزي بإسناده، عن الحسن البصري أنه قال (... أربع خصال كن في معاوية لو لم يكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة وهي:

١- أخذ الخلافة بالسيف من غير مشاورة، وفي الناس كبار الصحابة.

٢- استخلاف ابنه يزيد، وكان سكيرا، يلبس الحرير، ويضرب الطنابير.

٣- ادعاؤه زيادا وقد قال ﷺ (الولد للفراش وللعاهر الحجر).

٤- وقتله حجر بن عدي، فيا ويلاً له من حجر، ومن أصحاب حجر.

وتفصيل ذلك: أن المغيرة بن شعبة كان عاملا لمعاوية على الكوفة أقام بها سبع سنين وشهرا، وكان إذا خطب يذم قتلة عثمان ويلعنهم، ويدعو له بالرحمة ويزكي أصحابه، وكان حجر (من غلاة الشيعة) فكان يسيئه ذم المغيرة للشيعة ولعنه لهم، فيرد عليه لعنه وذمه بأشد، فيقول المغيرة يا حجر، اتق هذا السلطان وسطوته، لئلا تهلك، فلما كانت آخر إمارته قام خطيبا، وختم خطبته بالدعاء لعثمان والدعاء على قتلته، فقام حجر فصاح بالمغيرة صيحة سمعها كل من بالمسجد وقال له، مر لنا أيها الإنسان بأرزاقنا فقد حبستها عنا، وليس ذلك لك، فتألب الناس عليه، فنزل المغيرة وطلب منه قومه، ألا يترك هذا المجترئ عليه في سلطانه، فقال لهم المغيرة إني قد قتلته ! فسيأتي بعدي أمير فيحسبه مثلي فيصنع به شيئا مما ترونه فيقتله، ولا أحب أن أبتدئ أهل ذلك المصر بقتل خيارهم، وسفك دمائهم، فيسعدوا بذلك ويعز في الدنيا معاوية، ويذل يوم القيامة المغيرة، ولكني قابل من محسنهم، وعاف عن مسيئهم، حتى يفرق الموت بيني وبينهم، ثم توفي المغيرة فضم معاوية الكوفة إلى (زياد) فقام خطيبا ولعن قتلة عثمان فقام حجر ففعل معه ما فعل مع المغيرة، فتركه زياد هذه المرة لكنه تمادى واجتمع مع أصحابه يلعنون معاوية فقام زياد للخطبة وقال (... وما أنا بشيء إن لم أمنع باحة الكوفة من حجر ابن عدي

وأدعه نكالا لمن بعده، ويل أمك يا حجر) ثم أرسل إليه يدعوه فمنعه أصحابه، فأرسل إليهم شرطته، وحدث قتال، ألجأ حجرا إلى داره فتبعوه فأرسل إلى محمد بن الأشعث يطلب منه تأمينه عند زياد، حتى يبعث به إلى معاوية فذهب فأمنه، فلما حضر إلى زياد قال له على أهلها تجنى براقش، فأجاب حجر ما خلعت طاعة، ولا فارقت جماعة، وإني لعلى بيعتي، فقال زياد هيهات يا حجر تشج بيد وتأسوا بأخرى، وتريد إذا أمكن الله منك أن تؤمن ؟! كلا والله ، ثم أرسله إلى السجن وجمع رؤساء الأرباع، فقال لهم اشهدوا على حجر بما رأيتم منه، فشهدوا بأن حجرا جمع إليه الجموع، وأظهر شتم الخليفة، ودعا إلى حرب أمير المؤمنين، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب، لكن زيادا كتب شهادة أخرى زاد فيها (وكفر بالله عز وجل) وأشهد الناس عليها، حتى بلغوا سبعين شاهدا، ودعى بعض الناس فراغوا منها، وتبرأ اثنان بعد كتابتها، ثم دفع بهذه الشهادة مع وائل بن حجر الحضرمي، وكثير بن شهاب الحارثي، ومعهم حجر وأصحابه إلى معاوية ... فلما نظر في أمرهم كتب إلى زياد يقول (فهمت ما قصصت من أمر حجر، وأصحابه، وشهادة من قبلك عليهم، فأحيانا أرى قتلهم أفضل من تركهم، وأحيانا أرى العفو عنهم أفضل من قتلهم والسلام) فراجعه زياد بكتاب قال فيه (... إن كنت ترى لك حاجة في هذا المصر، فلا تردن حجرا وأصحابه) فلم ير معاوية بدأ من قتلهم، وعندما سمعت عائشة قالت (أما والله لقد كان مسلما، حجاجا، معتمرا) ويذهب الشيخ عبد المتعال الصعيدي [1] في تحليله لهذه القضية: إلى أن معاوية ربما أخذ بأقصى عقوبة جاءت في آية المائدة ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ**﴾[2] فالظاهر أن أو للتخيير، ولأنه رأى نفسه أمام فتنة عارمة، إذا لم يأخذ فيها بذلك، استطار شرها وأعادت الحرب بين المسلمين فيذهب فيها من الدماء ما هو أعظم من حجر وأصحابه وقد

---

(١) عبد المتعال الصعيدي، القضايا الكبرى ص١٩٦ / ١٩٨.
(٢) سورة المائدة آية رقم (٣٣).

بعثت عائشة رضي الله عنها عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية في حجر وأصحابه، فقدم عليه وقد قتلهم فقال له عبد الرحمن، أين غاب عنك حلم أبي سفيان ؟ قال معاوية حين غاب عني مثلك من حكماء قومي، وروى أن معاوية حين حج، مر على عائشة استأذن عليها، فأذنت له فلما قعد قالت له يا معاوية آأمنت أن أخبأ لك من يقتلك ؟ قال بيت الأمن دخلت، فقالت أما خشيت الله في قتل حجر وأصحابه، قال قتلهم من شهد عليهم، وقد طلب معاوية من حجر وأصحابه قبل قتلهم التبرؤ من علي فرفضوا، فلم يبادر إلى قتلهم لامتناعهم عن تبرئهم منه، ولعله عذرهم في هذا وقدّره لهم ثم سألهم عن قولهم في عثمان فقالوا: هو أول من جار في الحكم، وعمل بغير الحق، وقد كان في امتناعهم عن تبرئهم ما يكفيهم، فيحفظ لهم ما أرادوه من الوفاء له. أما تجريحهم عثمان إلى هذا الحد فهو الذي أوردهم مورد التهلكة، لا سيما بعد أن دانوا لمعاوية وذكروا أنهم على بيعتهم له لا يستقبلونها ولا يقبلونها. وكان عثمان أحسن حالاً من معاوية فكان من الواجب عليهم أن يرعوا له بيعته أيضا - ولا يذهبوا في أمره ذلك المذهب الجائر ولا يناقضوا أنفسهم ذلك التناقض القاطع للعذر، حتى حجرا، إنما أنكر على زياد) أمورا من الظلم وأنه خرج عليهم، و لم يكن قصده الخروج على معاوية، وأنه لما حصل إليه مع أصحابه قال له: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال له أو أنا أمير المؤمنين ؟ ثم أمر بقتله فما كان أولاه أن يرعى لعثمان حرمته أيضا [1].

وعلى كل حال: فأيا كان الأمر فسواء صحت رواية (مقتل حجر أو لم تصح) عند جرجي، فما قيمة إيرادها والتوسع في خبر مقتل حجر وأتباعه، لا ضرورة في ذلك - فنيا - لأن الأديب البارع هو الذي يعتمد الإنتخاب والاصطفاء للمواقف المشوقة للقارئ، الداعية له لمطالعة كتب التاريخ، بغية التوسع، ولا تنفره منها - كما تدعوه إلى الوقوف طويلا عند الحوادث التي تتيح الفرصة للتفكير، لاستخراج الدروس، دون أن يتعقد أو تتحطم مشاعره،

فهل حققت غادة كربلاء شيئا من ذلك ؟

(١) عبد المتعال الصعيدي القضايا الكبرى ص٢٠٢ / ٢٠٤.

بعد الفراغ من دراسة هذه الرواية يتضح للباحث: أن المؤلف لم يعهد إلى الإصطفاء لكنه ركز على المواقف التي تبلبل الأفكار، وتحطم المشاعر ثم مزج تلك المواقف بنفثات خياله الجامح، مثل تصويره البشع لمقتل حجر بن عدي، وما زعمه من محاولة سلمى الانتقام لأبيها، بواسطة الحب والهيام بابن عمها، وكان في مقدور - المؤلف - أن يقدم مسائل أخرى أو يدرس شخصية حجر، دراسة مستقلة، كما وردت بأمهات الكتب النقية لكنه أعرض عنها.

تناقض واضح وفاضح: في الوقت الذي يزعم فيه جرجي زيدان، أن رواياته تعتبر مرجعا تاريخيا يمكن الاعتماد عليه، كأي كتاب من كتب التاريخ، ويعمل المعجبون به على ترويج هذه الفكرة مصورين موقفه بأنه عنى بالحقائق التاريخية في سلسلة الروايات، وأنه توخى الدقة، وتحرى الصدق، وأن ما قد يبدو من خلل في الجوانب الفنية، إنما مرده إلى الاهتمام بالتاريخ، لكن ما قول هؤلاء إذا تبين لهم أن ما قدم في هذه السلسلة، لا يؤكد إلا التسامح والتساهل في إثبات الأخبار من أي طريق، ولا يومئ إلا إلى تعمد التشويه، والدس، عن طريق مزج الحقيقة بالخيال، بل ماذا يقولون إذا تبين لهم أنه في بعض روايات جرجي تناقضا واضحا وخطأ صريحا، من ذلك قوله عن شخص الزبير، والحسين، على لسان بعض شخصيات الرواية (...لا أزيد كما علما، بأن يزيداً هذا لما مات أبوه، وقام يدعو الناس إلى بيعته، كان الحسين معه في المدينة هو وغيره، من أبناء الصحابة، وفي جملتهم عبد الله بن الزبير بن العوام ...)[1]، ومفاد هذا النص أن الحسين وابن الزبير كانا في المدينة لما مات معاوية بن أبي سفيان. وتلك واقعة صحيحة لا غبار عليها. لكن جرجي عاد بعد خمسين صفحة كاملة من هذا النص، إلى التناقض مع نفسه من خلال نص آخر يقول فيه (.. فلما قتل علي وتولى الخلافة معاوية لم يجرؤ بن الزبير على مناجزته. فلما مات معاوية كان بن الزبير والحسين في الكوفة ! فطلبوا منهما البيعة ليزيد كما تقدم ! فأتيا ثم خرج لمكة وفي نفس كل منهما طلب البيعة لنفس!)[2].

وعجيب قوله كما تقدم ! لأن ما تقدم يؤكد أنهما كانا في المدينة وعند ذلك طلب منهما البيعة ليزيد فما هذا التناقض ؟ !

(١) غادة كربلاء - مجلد رقم ٣ من المؤلفات الكاملة ص١٤٩ دار الجيل.
(٢) مجلد رقم ٣ من المؤلفات الكاملة ص١٨٩.

المبحث الخامس
الحجاج الثقفي

موضوع الرواية:

تمثل أحداث هذه الرواية فترة زمنية طويلة، لأنها تصور الأحداث التي وقعت بين عامي ٦٥هـ/٨٦ هـ ولم يكن تصويراً شاملا ولا كاملا، بل كان محاولة فقط من الكاتب وهي محاولة جادة، لكنها غير موفقة، يقول جرجي زيدان في الصفحة الأولى من الرواية (..تتضمن حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير، إلى فتحها ومقتله وخلوصها لعبد الملك بن مروان مع ما يتخلل ذلك من وصف مكة والمدينة)[1].

أهم الشبهات والمآخذ الواردة بالرواية:

(١) خلط الحقائق التاريخية بالتصورات الشخصية:

فلم يهدف الكاتب إلى تقديم حقائق مجردة لكنه مزجها بفنه، وأعمل فيها كثيرا من تصوراته وخيالاته، ولا أدل على ذلك من قصة (حب خالد بن يزيد بن معاوية لرملة بنت الزبير) والتي لم يكن لها من هدف سوى تشويه صورة وشخصية بن الزبير، ليؤكد فكرته التي يريد بثها من خلال جميع رواياته - وهي أن الشخصيات الإسلامية ومنها - هنا عبد الله بن الزبير - هذه الشخصيات التي صمدت في معارك البطولة، إنما كان وراء كل منهم امرأة، أو كان سيدهم موقفا غراميا، وكأن الكاتب يريد أن يقول إنهم كانوا يقدمون بناتهم أو أخواتهم، لأعدائهم ليتزوجوهن فتنكسر شوكتهم بسبب هذا الزواج، وهي **فكرة خبيثة مغرضة لا تتفق** مع القائم، العابد، الصائم، الساجد بالأسحار سيدنا عبد الله بن الزبير، حفيد أمير المؤمنين أبي بكر الصديق ﷺ وأرضاه، ولا يصح أن ينسب إلى

(١) جرجي زيدان - المؤلفات الكاملة مجلد ٤ ص١١ رواية الحجاج.

هؤلاء النجباء الذين تخرجوا من مدرسة الطاهر الأمين سيدنا محمد ﷺ.

والغالب على الظن: أنها قصة مفتراة كسابقتها - حب الحجاج لابنة عرفجة - فضلا عن أخذها بالصورة التي قدمتها الرواية والتي تتنافى مع الأخلاق والمبادئ الإسلامية المتعلقة بفرضية استئذان المرأة في زواجها، بكراً كانت أو ثيبا، كم جاء في سطور رواية جرجى زيدان، (**صاح والدها بقنبر - عبده - بعد أن فشل في إقناعها بالزواج من الحجاج - وقال له شُدَّ يَدَيْ هذه الخائنة بالأمراس، وقيد رجليها بالحبال، وسأريها عاقبة العناد ... فهجم عليها وهو لا يبالي صياحها فقبض على يدها وهي تحاول التخلص منه، فصاح بها صيحة عظيمة وجذبها من يدها ... فلطم رأسها بعمود الخيمة فوقعت مغشيا عليها فأخذ في شدِّ وثاقها غير مكترث لحالها**)[1].

(٢) كثرة الحقائق المشوهة التي حفلت بها الرواية: مثل:

أ- تعليل فشل بن الزبير وفرار أقاربه منه، بالبخل والتقتير، الذي جعل أصحابه يحسون بالجوع والعطش، تقول الرواية على لسان أحد شخصياتها في حوار بينه وبين آخر (... نرى القتال عبثا، فمعنا من الرجال عشرة آلاف وقد جعنا جميعا، وعطشنا، وقلت مؤونتنا وذخيرتنا ...)[2]، وهو تعليل مغرض.

فلم يكن البخل على فرض وجوده هو السبب، فهو مسئلة عارضة تمليها الظروف وتفرضها سياسة الحرب، لا سيما إذا كانت الدولة محاصرة، فالتقتير في تلك اللحظات يندرج في باب شد الأحزمة على البطون، مع ملاحظة أن عبد الله بن الزبير، لم يحرم الناس حرمانا تاما، بل أعطاهم بمقدار، كما تفعل الأمم - قديما وحديثا - فمسئلة ارتباط أقاربه به، أو انفضاضهم عنه، إنما يرجع إلى هدفه الذي كان يسعى إليه ومدى قناعتهم به، وقدرته على تحقيقه أو ضعف تلك القناعة، ومردها مقدار الشجاعة والجبن المستولي على قلوب الرجال الذين كانوا يحسون

---

(١) الحجاج الثقفي - ص٥٦٦ مجلد ٤.

(٢) الحجاج الثقفي ص٦٠١ مجلد ٤.

(٣) تعمده إغفال حركة المجتمع ضد مظاهر الانحراف:

ويتمثل هذا في الكرسي الذي كان المختار يستنصر به: فمع وروده في بعض المصادر التاريخية، إلا أن الإغراض جاء في الرواية، من التركيز عليه بصورة مبالغ فيها، مع إضافة خيالات وشطحات جرجي زيدان إليها دونما تقيد بما أورده بن الأثير الذي اعتمد عليه جرجي حيث جعلت منه موضوعا ثم قدمته بالصورة التالية: (... في سنة ٦٦هـ ظهر في الكوفة رجل اسمه المختار بن أبي عبيد، قام يطالب بدم الحسين، غير أنه ما لبث أن غير دعوته، وأخذ يدعو إلى محمد بن الحنفية، أخي الحسين لأبيه، وزعم أن جبريل يظهر له، واتخذ كرسيا قال إن فيه سرا مثل سر تابوت العهد عند اليهود)[1]، والذي يدعو إلى الريبة في أقوال جرجي زيدان في هذا الموضوع: إغفاله موقف الناس آنذاك من كرسي المختار هذا!

خاصة موقف إبراهيم بن الأشتر، وقد شهد قتال المختار، لعبد الله بن الزبير، فحين مر على قوم المختار وجدهم يعكفون حول الكرسي رافعين أيديهم إلى السماء، فقال اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، هذه سنة بني إسرائيل والذي نفسي بيده، إذ عكفوا على عجلهم، ثم رجعوا، وأشار إلى قصره)[٩٨].

وكذلك الأشعار التي جاءت في الإنكار لأمر الكرسي.

في مثل قول أعشى همذان:

شهدت عليكم بأنكم سبئية — وإني بكم ياشرطة الشرك عارف

فاقسم ماكر سيكم بسكينة — وإن كان قد لفت عليه اللفائف

وأن ليس كالتابوت فينا وإن — سعت شبام حواليه ونهر وخارف

وإني امرؤٌ أحببت آل محمد — وتابعت وحيا ضمنته المصاحف

---

(١) الحجاج الثقفي ص٤٧٨ مجلد ٤.

(٢) الشيخ عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني - ابن الأثير، الكامل في التاريخ - دار صادر بيروت، بدون رقم للطبعة مجلد ٤ ص٤٩٦ سنة١٩٧٩م.

وبايعت عبد الله لما تتابعت عليه قريش شمطها[1] والغطارف[2]

فهذه الأقوال وغيرها من شأنها أن تحدد وتخصص مسئولية الكرسي بالسفهاء من القوم لكن جرجي زيدان لم يشر إلى شيء من هذه الأقوال لماذا ؟ !

لأنه يريد التعميم، وعدم تحديد المسئولية، ليكون ذلك وصمة عار في جبين العصر كله.

(٤) ضعف التحليل النفسي للشخصيات:

كسائر شأنه في كل رواياته التي قدمها، لم يقدم جرجي، للقارئ، عن شخصياته، إلا معلومات محددة حيث قال مثلا عن أحد شخصيات الرواية المسمى حسن (وكان طويل القامة حسن الخلقة في وجهه دلالات المروءة، وصدق المودة وعيناه تتقدان ذكاء وحدة)[3]. علما بأن طول القامة وقصرها وحسن الخلقة...الخ ليس شأنهما الإبانة عن وضوح ملامح، وتحديد أبعاد الشخصية لا سيما البعدين النفسي والاجتماعي، وما هذا إلا نتيجة العجز والقصور عن التحليل النفسي، كذلك شخصية عرفجة تقول عنه الرواية (..في نحو الخمسين، قصير القامة نحيف الجسم، يكاد جلده يلتصق بعظمه، لخفة عضله أشمط شعر اللحية حفيفه، على رأسه عمامة صغيرة...الخ.

(٥) جناية الصورة الفنية على الصورة التاريخية للشخصيات:

يتجلى ذلك في المقارنة بين الصورتين الفنية والتاريخية لشخصيتي عبد ا لله بن الزبير والحجاج:

● الموازنة بين الصورة الفنية والتاريخية لشخصية بن الزبير، مثلا أو بين ما أورده جرجي زيدان عنه، وما أوردته كتب التاريخ: نجد البون شاسعا، والفرق واضحا،

---

(١) الشمط محركة: بياض الرأس يخالطه سواده، ولعله يعني شيوخ قريش في مقابلة الغطارف جمع.
(٢) غطريف وهي السيد والشيخي والشاب، ص٢٨٣ ج٢ ط٢ / سنة ١٩٥٢م مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، القاموس المحيط للفيروز أبادي.
(٣) جرجي زيدان، المؤلفات الكاملة مجلد ٤ ص٤٩٦.

وذلك لأن الكاتب لم يتناول شخصية ابن الزبير إلا تناولا عابرا حيث اكتفى بالإشارة إلى قصة العصافير التي كانت تقع على ظهره أثناء الصلاة ظنا منها بأنه حائط لسكونه وطول سجوده، (..فلما دنا منهم رأى بجانب الكعبة رجلا ساجدا قد استقبل الأرض بوجهه، ورأى على ظهره حمامتين من حمام المسجد، كأنهما واقفتان على حائط، والرجل لا يتحرك فخيل إليه أنه ميت)[1]، (كثيرا ما رأينا الطير على ظهره في أثناء الصلاة نظنه حائطا لسكونه وطول سجوده)[2]. كما أشار إلى أنه (صوام قوام) لكنه سرعان ما عاد لتشويه تلك الصورة أو هزها في أذهان الشباب الذين يتوجه إليهم برواياته، ويريد أن يحبب إليهم دراسة تاريخ هذه الأمة كما يزعم ! بتعقيب غريب مريب (يجدر بمن كان مثل هذا أن يكتب له النصر)[3]. ولكي يقنع القارئ باستيلاء اليأس على عقل بن الزبير ومشاعره، فقد أجرى على لسانه قوله (فارغب إليك أن توصيه بأختي خيراً، وتقول له - أي خالد بن يزيد بن معاوية - إن مصاهرته لآل الزبير جاءت متأخرة، ولو عجل بها بضعة أيام لما استطاع بنو مروان الاستبداد بهذا الأمر، بما لا ينطبق على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ) [4]. ثم عقب بتعقيب قال فيه (.. ولما قال ذلك ظهر الهياج على عينيه وخشن صوته، فأتم كلامه قائلا، كيف يسود العتاة الظلمة، وكيف يتغلب قوادهم المنافقون، الذين يرمون بيت الله بالحجارة، فيغلبون رجالا يعبدون الله ويعملون بكتابه)[5]. وهذا تعقيب غير موفق واستنطاق متكلف لا يتصور صدوره عن صوام قوام، عامل بكتاب الله ، لا ييأس من عمل بمقضاه - لكن **كاتب الرواية** يريد من القارئ: أن يتجاهل كل ذلك ليصدق ما ذهب إليه من أن ابن الزبير قد يئس من الفوز والنصر، فلجأ إلى أسلوب الاحتجاج والانكار على الله، ومن ثم وجه الكاتب النصح لعبد الله بن الزبير على لسان حسن يقول له (..لا يخفى عليك مولاي أن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء، ولا عجب في أن

(١) الرواية ص٥٩٦.
(٢) الرواية ص٥٩٦.
(٣) ص٥٩٧. السابق.
(٤) الرواية ص٦٥٣.
(٥) الرواية ص٦٥٣.

تكون الغلبة في الدنيا لمن همهم الدنيا ..فقد انقضى العصر الذي ساد فيه الحق والدين والتقوى)[1]. وهذه نصيحة ما كان يجب أن تذكر بجانب الصورة التي رسمت لابن الزبير في كتب التاريخ، ومواضع متفرقة من رواية الحجاج لافتقادها المعقولية وكشفها عن خبيث النية وسوء الطوية.

وإليك الآن عزيزي القارئ طرفاً من الصورة الحقيقية لهذا الصحابي الجليل كما رسمها الثقات العدول من خيار هذه الأمة:

روى البخاري [2]: عن هشام بن عروة عن أبيه قال أخبرني مروان بن الحكم قال إصاب عثمان بن عفان رعاف شديد بسنة الرعاف حتى حبسه عن الحج وأوصى فدخل عليه رجل من قريش قال استخلف قال وقالوا: قال نعم، قال ومن؟ فسكت، فدخل عليه رجل آخر أحسبه الحارث فقال استخلف فقال عثمان وقالوا فقال نعم قال ومن هو ؟ فسكت، قال فلعلهم قالوا الزبير، قال نعم، قال أما والذي نفسي بيده إنه لخيرهم ما علمت، وإن كان لأحبهم إلى رسول الله ﷺ وقد قال نبي الله ﷺ « إن لكل نبي حواري وإن حواريي في الجنة الزبير بن العوام ».

وروى مسلم [3] رحمه الله في صحيحه: عن جابر بن عبد الله قال: سمعته يقول «ندب رسول الله ﷺ الناس يوم الخندق، فانتدب الزبير ثم ندبهم، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، فقال النبي ﷺ لكل نبي حواري وحواري الزبير» .

وروى الإمام أحمد [4] (حدثنا هشام عن أبيه قال أن أول رجل سل سيفه في الله الزبير بن العوام نفخة نفخها الشيطان، أخذ رسول الله ، فخرج الزبير يشق الناس بسيفه، والنبي ﷺ بأعلى مكة قال مالك يا زبير؟ قال أخبرت أنك أخذت، قال فصلى عليه ودعا له ولسيفه).

▫ **شخصية الحجاج**: فقد التزم المؤلف ما جاء بشأنها في كتب التاريخ من أخبار ومواقف دون تصرف إلا بالنقض مثل: إغفاله لكثير من مواقف الحجاج

---

(١) الرواية ص.
(٢) صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة باب مناقب الزبير ج٥ ص٢٦ مطابع الشعب ١٩٥٨م.
(٣) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة باب فضائل طلحة والزبير ج١٥ ص١٨٨.
(٤) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، باب فضائل الزبير ج٢ ص٧٣٠.

المتسمة بالعنف، والعتو وسفك الدماء، كموقفه من أهل مدينة رسول الله ﷺ عندما زارهم، بعيد انتصاره على ابن الزبير، ومثل موقفه من أهل الكوفة عندما بايع الناس لعبد الملك بن مروان، وكذلك موقفه السيء مع الصحابي الجليل أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ وصاحبه، حينما دخل على الحجاج مرحبا فرد عليه قائلا (..لا مرحبا ولا أهل بك يا بن الخبيثة، لشيخ ضلالة جوال في الفتن، مرة مع أبي تراب، ومرة مع ابن الزبير، ومرة مع الجارود) [1] ! أما وا لله لأجردنك جرد القضيب، ولأعصبنك عصب السلمة، ولأقلعنك قلع الصمغة، فقال أنس: من يعني الأمير ؟ قال: إياك أعني أصم الله صداك ! فرجع أنس فكتب إلى عبد الملك كتابا يشكو فيه الحجاج وما صنع به. ذلك الموقف الذي دعا عبد الملك بن مروان أن يكتب خطاب تهديد للحجاج يقول فيه (... أما بعد يا بن أم الحجاج فإنك عبد قد طغت بك الأمور فغلوت فيها، حتى عدوت طورك، وجاوزت قدرك، ولولا أن أمير المؤمنين يظن أن الكاتب أكثر في الكتابة عن الشيخ إلى أمير المؤمنين فيك لأرسل من يسحبك ظهرا لبطن، حتى يأتي أنسا فيحكم فيك، فأكرم أنسا وأهل بيته واعرف له حقه وخدمته لرسول الله ﷺ [2]).

وذلك موقف كان لابد من الإشارة إليه في رواية الحجاج، ليظهر أن **هناك فوق الحجاج من يكبح جماحه**، ولكنه منهج السيد جرجي: يأبى إلا أن يصور الحجاج بصورة البطل المغوار، فلم يذكر مؤلف الغراميات لشخصية الحجاج، زلة أو سقطة.

وبهذا العرض المتقدم نكون قد وقفنا على أهم المآخذ والشبه التي تضمنتها رواية الحجاج الثقفي، سائلا المولى عز وجل أن يحفظ أمتنا وتاريخنا وتراثنا من أيادي المبطلين والمزيفين والمغرضين، اللهم آمين.

---

(١) ابن الجارود: مالك بن المنذري الجارود العبدي من بني عبد القيس والذي أمَّره خالد بن عبد الله القسرى على شرطة البصرة، وكتب إليه أن عيسى الفرذدق لأبيات قالها حميسة، وولاه مصعب بن الزبير على بن عبد القيس سن ٦٧هـ في حربه مع المختار الثقفي قال المبرد، وحكم قال: (ألا لله).
نقلا عن خير الدين الزركلي الأعلام دار العلم للملايين ج٥ ص٢٦٦ سنة ١٩٨٤م.

(٢) الشيخ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت، بدون رقم للطبعة سنة ١٩٧٩م. ج٤ ص٣٨٦.

المبحث السادس
شارل وعبد الرحمن

موضوع الرواية:

فتوح العرب في بلاد فرنسا إلى ضفاف نهر "لوار" بجوار "تورس" وما كان من تحالف الإفرنج هناك وتصديهم بقيادة "شارل مارتل" لصد الفاتحين العرب [1].

أهم الشبهات والمآخذ الواردة بالرواية:

(١) الكذب والافتراء والتلفيق والتزوير؛ فمع أن تاريخ الأندلس كان حافلا بالأمجاد والبطولات، مليئا بضروب الفتن والمنازعات، لقد كان صراعا بين المسلمين ونصارى الشمال من ناحية، وصراعا بين الأجناس والقبائل، وصراعا بين العقائد والمذاهب، ثم صراع بين الحياة والموت وبين المآذن والنواقيس، من نواح أخرى.

ومن ثَمَّ يتوقع القارئ لرواية تاريخية ! تتحدث عن هذا الفتح وتاريخ تلك البلاد أن يجد في القصة صحائف من ذهب تتجلى فيها مدنية العرب آية من الآيات الباهرة، لكن القارئ كم كانت صدمته شديد موجعة، مخيبة لأمله، عندما توالت عليه الأباطيل والسخافات والشبهات واحدة بعد أخرى في ثنايا الرواية أمثال:

أ- الزعم بأن القواد وأمراء الجند من المسلمين كانوا مشغولين بحب فتيات النصارى: ومفتونين بجمالهن، والقول بأن ذلك الحب ملك مشاعرهم، وصرفهم عن أمر الفتح فتركوا جنودهم في ساحة القتال وأخذوا يبحثون عن فتيات أحلامهم - كما يقول جرجي زيدان (**وفي الصباح قام المسلمون للصلاة ثم نفخ في العير فتأهبوا للسير وكأنهم بحر - متلاطم الأمواج - وقائد الفرسان العام هانئ ركب جواده ولبس خوذته، حتى المساء فبات هانئ تلك الليلة، وقد عادت إليه هواجسه وعاد إليه تفكيره في مفارقة المعسكر بضع ساعات ولا خطر في غيابه عن الجند لكنه تردد خشية الفشل وحياء من عبد الرحمن فأصبح مهموما مفكرا**

(١) مقدمة رواية شارل وعبد الرحمن في المجلد ٨ يقع في حوالي مائتين وخمسين صفحة.

في حال حبيبته مريم – وشم رائحة مريم) [1] وعندما تسلل ذاهبا إليها، دار هذا الحوار بينهما يقول لها (قولي يا مريم لا تخافي ولا تكتمي فإن خالتي القهرمانة لا يستحى منها، فهي خزانة أسرارنا، قولي هل تحبيني ؟ فالتفتت إليه وتجلدت قائلة: (ما الفائدة من الحب إذا لم يكن متبادلا ؟ وأنتم معشر الرجال قد تعودتم اقتناء النساء بالعشرات، والحب لا يكون صحيحا إلا إذا كان بين اثنين ليس لهما ثالث ؟ فبغت هانئ وقال (...لست من هؤلاء يا مريم، وهذه الخالة تعلم أني وصلت لهذه السن و لم أتخذ امرأة، ولا اقتنيت جارية ولا سرية، وتأكيدا لذلك فإني أعاهدك من هذه الساعة أني لا ألتفت لسواك، فهل تعاهديني أنت أيضا ؟!

شريطة أن لا نتم شيئا قبل الفراغ من هذه الحرب مدي يدك، فمدتها إليه ببطء وهي ترتجف من شدة التأثر، فأمسكها بيده وضغط عليها فأحسا كأنهما لمسا تيارا كهربائيا ارتعدت له فرائصهما ! ثم نهض هانئ ليتأهب للقاء العدو !)[2] ووا لله انه لأمر عجب لا يصدر أبدا عن أي قائد حربي، له من العقل والشجاعة أدنى نصيب، أن يترك قواته في لحظات الحرب الحاسمة، لكي يتسلل إلى مكان آخر يعقد فيه جلسة حب وغرام، كنا نظنه مجلس حرب يعقده هذا القائد المغوار، لمراجعة خططه، وتسديدها مع أهل الرأي، لكن **الرواية الجرجانية** التي تزعم أنها تقدم للأمة تاريخ الإسلام، أصرت على أن تسخر من عقولنا، وأن تقدم هذا البطل الإسلامي المجاهد، بتلكم الصورة المهلهلة، التي تفتقد لأبسط قواعد المنطق، وأدنى درجات المعقولية، وما أوردته الرواية في حقه تهمة تستعصى على التصديق، لأنه لا ذكرَ لها في كتب التاريخ، وعلى فرض ورودها في كتب الأخبار الضعيفة فما الداعي لذكرها في رواية تعنى بتاريخ الإسلام، وتهدف إلى تشويق الشباب إلى مطالعة تاريخ أجدادهم وأمجادهم لا تنفيرهم منه بالتزوير والتشويه.

(٢) توسيع شقة الخلاف وتكبير صور النزاع:

بالتركيز على ما قد يحدث عادة بين أي جند من البشر من خلاف ونزاع

---

(١) الرواية مجلد ٨ ص ٦٥، ٦٦.

(٢) رواية شارل وعبد الرحمن ص٦٧

خفيف، طفيف، ثم توسيع شقة هذا الخلاف، والخلوص منها إلى أن قواد المسلمين وجنودهم بالأندلس كانوا يهتمون بأمر الغنائم والأسلاب أكثر من اهتمامهم بما عداها، بل ويقتتلون عند توزيعها، وهدف الكاتب - التركيز على وصف حروب المسلمين بأنها حروب غنائم، وليست لنشر أنوار الإسلام وتبديد دياجير الشرك والكفر، بدليل جعله القائد العام لجيش المسلمين «هانئ» يحقد على أحد أعوانه «بسطام» (...عزم على أن يقتله لما رأى مريم عنده..) [1] حتى يصل الخلاف بينهما حده فيقول له (صدق القائلون إنك لست مسلما !) والله إنه للكذب بعينه والتجني على أبطال المسلمين وقوادهم، أيكون غير مسلم ويعتمد عليه الخليفة في الجند والغنائم ؟!

(٣) جموح في الخيال ومبالغه في التصوير:

بإضفاء صفة البطولة والرجولة الفائقة على الفتاة النصرانية «مريم» التي زعم المؤلف أن هانئا شغل بها، وترك المعسكر من أجلها، ولم يكتف المؤلف بهذا كله لكنه جعل مريم تقتل بسطاما خصم هانئ، بعد المرور بها، في مواقف لا يتناسب إطلاقا، مع فتاة مثلها حين قال المؤلف (...**إنها ركبت جوادا أدهما يشبه جواد هانئ ... واقتحمت المعركة حتى استطاعت أن تزيح شبح الهزيمة عن جند العرب**[2])، فلما انتهى القتال قدمت على الأمير عبد الرحمن الغافقي بخيمته، ودار حوار وسؤال، وأخذت مريم تحكي كيف تغلبت على الأمير بسطام (تقول: **نعم قتلت بسطاما، عندما هجم علي، ويده على قبضة سيفه يهم بأن يجرده ليضربني به، فصحت به إخسأ يا نذل الرجال، إن مثلك لا يليق أن يسمى أميرا، فبدلاً من أن تجرد حسامك على فتاة، اذهب لنجدة إخوانك فيما هم فيه من الضنك، فجرد سيفه وهم بضربي، فلما رأيت ذلك منه وتبينت الغدر في عينيه، قبضت على زنده وهززته لكنه أكبر أن يسمع لنصحي ثم رأيته يحاول أن يمسك ثوبي،**

(١) رواية شارل وعبد الرحمن ص٨٥.
(٢) رواية شارل وعبد الرحمن ص٩٧.

ليتمكن من ضربي، ظنا منه أني تراجعت، لكني هجمت عليه، وأمسكت يمناه بيسراي واستللت خنجره وأغمدته في صدره، فغاص الخنجر في صدره وخر قتيلا وسقط سيفه من يده ...) [1]. حوار متكلف، وتصوير تافه لا يبصر القارئ المسلم بحقيقة يجدر الإلمام بها، ولا يحيي في نفسه أمجاد أمته وبطولات أجداده، لكنه يجعله يتمعض ويتقزز من هذا التصوير، وشتان بين هذا التصوير وبين التصوير الذي يأتي من كاتب مسلم منصف، بل إن هذا الإنصاف صدر من غير مسلم أيضا لأنه تجرد للحقيقة والتزم الموضوعية، وأبسط قواعد الكتابة العلمية، بالرجوع إلى المصادر المحترمة فتحدث عن معارك المسلمين في عهد عبد الرحمن الغافقي فيقول (.. وتقدم المسلمون إلى الغزو فرحين مستبشرين، ظانين أنهم سيلاقون من النصر ما لا قوا في معركة وادي لكه، وتوقعوا أن يروا فرنسه - الجميلة من كاليله، إلى مرسيليه، وقد سقطت فريسة في أيديهم، وفي الحقيقة فإن مصير أوربة كان في الميزان، حتى لقد عدت هذه الموقعة من المواقع الخمسة عشر الفاصلة في حياة البشر، وكان السؤال العظيم الذي كان جوابه في شفاه السيوف وأسنة الرماح هو هل تصبح أوربة مسيحية أم مسلمة ؟؟ أتكون نوتردام التي لم تبنى بعد كنيسة أم مسجدا ؟ أتردد كنيسة سانت بول تراتيل المسيحية، أم تدوي بها أصوات المسلمين المصلين ؟ [2].

(٤) إرجاع عوامل النصر إلى الحب والغرام:

جاء هذا الإدعاء في مواطن كثيرة متفرقة أبرزها ذلك الحوار الذي لا يتناسب مع شخصية الأمير عبد الرحمن عندما اختلى بامرأة - كما زعم جرجي زيدان: تقول الرواية (... إنها قالت أيها الأمير إنك تخاطب امرأة غير عربية ولا مسلمة، لكنها من أشد الناس غيرة على العرب والمسلمين، واستأذن مولاي الأمير في الاقتصار على ما عرفه من أمري) ثم سألها سؤالا عن ابنتها وما عليها من الجمال

(١) رواية شارل وعبد الرحمن ص٨٥.
(٢) استلي لين بول - قصة العرب في أسبانيا - ترجمة علي الجارح ص٣٧.

وهي في سن الزواج، فكيف لا تزوجينها لشاب تعيشين في حمايته ؟ فقالت المرأة: إن الفتاة مخطوبة ! لرجل لا أعرفه ولا تعرفه ابنتي ولا يعرفه أحد سوانا ! فدهش الأمير عبد الرحمن لتلك المعميات فقال وكيف تكون ابنتك مخطوبة لرجل لا تعرفون له اسما ولا لقبا ؟ قالت: أما لقبه فإننا نعرفه، إنه يلقب بفاتح بلاد الإفرنج بالسيف، ومؤيد الإسلام فيها بالحق والعدل، ففهم عبد الرحمن أنها تريده هو - فقال ومتى يكون الزواج وأين ؟ قالت في أي وقت يريده الخاطب ولكنه لا يكون إلا وراء نهر لوار !) [1].

والحقيقة أنه حوار متكلف لا يعقل وجوده، لابتعاده عن المنطقية وافتقاده العقلانية، فكيف تجرى حوارا كهذا بين أمير من أعظم أمراء المسلمين في عصره، وفي لحظات حرب حاسمة يجابه فيها المسلمون قوى الكفر المسلحة، من النصارى ومن شايعهم ! وإذا بامرأة نصرانية مجهولة النسب والهوية تقتحم هي وابنتها معسكر المسلمين ويبلغ أمرها أن تصل إلى الأمير عبد الرحمن الغافقي، وتجري معه حوارا غراميا كهذا، أو بالأحرى تعقد معه صفقة ساذجة كتلك التي عقدتها الرواية ؟ ! بل إن الرواية بعد ذلك تبين أن الخليفة المسلم عبد الرحمن الغافقي لم يكن ليرأف بنصارى بوردوا لإرضاء هذه المرأة النصرانية ! وتنفيذاً لمخطط سياسي يرمي إلى تحقيق انتصار من ورائه، وكأن معاملة الأسرى في الإسلام بالرفق والحب وإظهار سماحة الإسلام والإحسان إلى أهل الأديان الأخرى ليس أمرا جوهريا في دين الله، حفلت به وصايا القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وتطبيقات الحكام المسلمين في كل عصر ومصر، والخارج عن هذا مخالف لهدى الإسلام وتعاليمه وروحه السمحة وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّـهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[2]. وصدق الحبيب ﷺ إذ يقول في كلمات مضيئة لا زالت تدوي في سمع الزمن وتملأ الآفاق كلها منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنا من

---

(١) شارل وعبد الرحمن ص٤٢، ٤٢ مجلد ٨ - دار الجيل بيروت.
(٢) سورة الممتحنة آية رقم (٨).

الزمان «من آذى ذميا فأنا حجيجه يوم القيامة»[1]. أي خصمه، ويالها من خسارة فادحة تلك التي يجرها المسلم على نفسه - أيا كان حاكما أو محكوما - لو دخل في خصومة مع المصطفى ﷺ، فهذا الحوار الذي أوردته الرواية لا علاقة له بشخصية الأمير عبد الرحمن الغافقي، بل هو كذب وإفتراء على الرجل الذي قال عنه المؤرخون الثقات (.. إنه غزا الإفرنج وأوغل في أرضهم، وغنم الغنائم الكثيرة - وكان فيما أصاب رجل من ذهب، مفضضة، بالدر، والياقوت، والزمرد، فكسرها وقسمها في الناس فبلغ ذلك عبيدة، فغضب غضبا شديدا، فكتب إليه يتهدده، فأجابه عبد الرحمن وكان رجلا صالحا (..أما بعد فإن السماوات والأرض لو كانتا رتقا لجعل الله للمتقين فيها مخرجا) [2].

رجل هذه سيرته وهذا مسلكه لا يمكن ولا يعقل ولا يعتقد، أن يقال أنه شغل بفتاة عن مهمته العظيمة، ورجل هذه صفاته لا يتناسب أبدا أن يتخيل - عند تصوير شخصيته - أنه اختلى بامرأة واشترك معها في إدارة حوار غرامي مسف أو غير مسف، لكن مؤلف الرواية - لا يهدف إلا النزول بدرجات - أبطال الإسلام - العليا في نفوس الشباب الإسلامي إلى الحضيض، فتتحقق أغراضه الخبيثة كلها، فإنه بتشويهه لرجالات الإسلام وقواده، ينفر الشباب منهم ويقطع جسور الثقة والاقتداء بهم والتأسي بسيرهم، وأمجادهم، ومن ناحية أخرى فإنه يدعو إلى التخلي عن القيم والأخلاق وإنتهاك المحرمات بالخلوة بالنساء، وإجراء الحوارات الغرامية معهم، وأنه لا غضاضة في ذلك - وفقا لمنطق جرجي - فإذا كان أبطال الإسلام وأعلامه ورافعوا ألويته في العصور الأولى قد فعلوا ذلك كله - فلا غضاضة عليكم أيها الشباب إن أنتم تلمستم طريقهم وسرتم في ركابهم واقتديتم بهم !

(١) محمد ناصر الدين الألباني، ضعيف الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، ج٥ ص١٤٤، المكتب الإسلامي بلمشق ط٢ سنة ١٩٧٩م.
(٢) الإمام ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مجلد ٥ ص١٧٤، دار صادر بيروت بدون رقم للطبعة، سنة ١٩٧٩م.

المبحث السابع
أبو مسلم الخراساني

موضوع الرواية:

وتحديداً لموضوع هذه الرواية سجل مؤلفها - في الصفحة الأولى منها ما يلي: (أبو مسلم الخراساني.. رواية تاريخية تشتمل على سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية وسعى أبي مسلم الخراساني في تأييدها بالقتل والفتك وشرة البطش، إلى ولاية المنصور، ومقتل أبي مسلم، ويتخلل ذلك وصف عادات الخراسانيين وأخلاقهم ونقمة الموالي على بني أمية وتنافس بني هاشم على البيعة)[1].

أهم الشبهات والمآخذ الواردة بالرواية:

(١) تجريد الأمة من كل الفضائل والاستخفاف بأبطالها عبر التاريخ: كأنما الأمة آنذاك جردت من كل الفضائل، وكأنما طبع الناس بطابع واحد هو الغرور، والخيانة، وتدبير الدسائس والمؤامرات، والأعجب من هذا، هو تسجيل ذلك كله بدقة ومهارة ليكون تاريخا للإسلام وهو منه براء، ومن المؤكد أن تجميع هذه السقطات هو التشنيع على الإسلام والمسلمين وتنفير أبناء المسلمين مما يسمى بالتاريخ الإسلامي - لأنه في نظر جرجي - مجموعة سقطات وزلات كما ظهر في روايته وغيرها، مثل ما رواه المؤلف. من قتل جلنار [٢] لنصر ابن سيار [*]، وأبي الكرماني [**]، بعد أن صارت زوجة له، وغير ذلك من الدسائس التي ركز عليها

---

(١) شارل وعبد الرحمن ص٤٢، ٤٢ مجلد ٨ - دار الجيل بيروت.ص١ ط دار الهلال الصادرة في ١٩٨٤م، ج١ من المجلد ٤ المؤلفات الكاملة.

(٢) جلنار كلمة فارسية معناها نار عظيمة.

(*) نصر بن سيار بن رافع الكناني، أمير من الدهاة الشجعان، ولي إمرة خراسان (١٢٠هـ) وغزا بلاد ما وراء النهر، ففتح حصونا، وقويت الدعوة العباسية في أيامه، الزركلي ٨/٢٣.

(**) الكرماني: جديع بن علي، كان أميراً قويا في جنوب بلاد فارس، ابن خلدون - المقدمة ٣/١١٥.

جرجي زيدان في هذه الرواية تركيزا شديدا ليشوه بها تاريخ الإسلام والمسلمين ويستخف ببطولتهم على لسان جلنار، تقول (...آه يا صالح، لقد طال سجني في هذا الدير ونفذ صبري، وقلبي يحدثني بخير إذا خرجت منه، وقد تراكمت علي الأحلام، **فقد رأيت أبا مسلم الخراساني بطل المسلمين يبكي بين يدي ويتوسل، فهممت** بأن أقبله، فاستيقظت وذهب خياله من أمامي ...) [1].

وهاهو جرجي زيدان يخاطب أبناء العرب والمسلمين ولسان حاله يقول لهم انظروا إلى أبطال المسلمين هاهم أولاء متناحرون مصيرهم البكاء بين يدي الفتيات! إنها سخرية ما بعدها سخرية، وإن لم تكن مكشوفة، بل تدثرت بثوب الفن، واختبئت في رداء القصة، فلا يلتفت إلى خطورتها الكثيرين، حتى تحقق أقل هدف من أهدافها وهو التشكيك في تاريخ المسلمين أو خلق الضيق والامتعاض منه على أقل تقدير.

(٢) دعوى افتخار العرب بالنبوة وتحقير من سواهم:

وهي فرية عظيمة أجراها المؤلف على لسان أبي مسلم، حين يقول (**...إننا نعلم يا أعظم الدهاقين أن العرب يفاخروننا بالنبوة، لأن النبي منهم، وقد احتقرونا وعاملونا معاملة الرقيق، ولو استطاعوا ألا يبقوا منا أحدا لفعلوا...**)[2] وتلك والله فرية عظيمة يحاول أن يلفقها هذا المؤرخ الصليبي للعرب - فإن التعصب ممقوت في الإسلام مرذول منهي عنه، بعد أن تعلم المسلمون من معين المصطفى الأمين ﷺ أنه « لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » وقبل ذلك قول الحق تباركت أسماؤه ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[3] فالناس كلهم سواسية لأنهم من أصل واحد، ومعيار التفاضل فقط تقوى الله والغاية حصول التعارف بين الناس، وليس التناحر والتخاصم.

(١) ص١، ط دار الهلال الصادرة في ١٩٨٤م، ج١ من المجلد ٤، المؤلفات الكاملة.
(٢) أبو مسلم الخراساني ص٢٠ مجلد ٤.
(٣) سورة الحجرات آية رقم (١٣).

أمـا ما يذكره بعض المؤرخين عن تعصب بـني أمية للعرب، فإنه إذا صح - فلقد كان مـن بعض الحكام الأمويين وليس من العـرب أجمعين، وكان من قبيل الأطماع السياسـية والمـآرب الشـخصية، الـتي لم يحض عليهـا الإسـلام بل اعتبرهـا من تراث الجاهلية الممقوت، وصـدق الله العظيم إذ بين في محكم تنـزيله **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾**(١) ... وقوله سبحانه عن حبيبـه ﷺ **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾**(٢) ... ولا يبقى بعد هذه الآيات الكريمة، قول ينسب الافتراء والتعصب لتاريخ الإسـلام وهو منـاقض لمنهجـه ...ولكن جرجى لا يسـوق فريته تلك مرة واحدة بل يكررها مرة أخرى في حوار بين ابنة الدهقان (*) ووالدها يقول (..وهذا يدلك على احتفاظي بك وسعي في راحتك، لأن نصرا لا يلبث أن يغلب على أمـره ويخرج من البلاد مدحورا، لضعـف حاميتـه وإنحطاط قوة دولـة بـني أمية على الإطـلاق.. فقد أصبح أهل خراسان كافـة ناقمين عليها، لإيثارهم العرب على الفرس، وفرضهـــــم الضرائب الفادحـــــة **وطلب عمـــــالها الجزيـة حتى من المسلمين!**)(٣).

وعجيب حقـا طلب الجزيـة مـن المسـلمين. ومـع ذلـك فهو ليـس من تـاريخ الإسلام، وهو منـه براء وقد ناقشت هـذه التهمة في فصل المقالات عند حديثي عن كتاب تاريخ التمدن الإسلامي.

(٣) رسم صورة مقززة لبيت الخلافة:

عن طريق ذكر أخبـار لا صلة لهـا بالإسـلام، أو تاريخـه، لكنها تصرفـات فردية ونزوات شخصية لأناس يكيدون للإسلام، والمسلمين، منها مشهد قتل المنصور(**)

(١) سورة سبأ آية رقم (٢٨).
(٢) سورة الأنبياء آية رقم (١٠٧).
(*) دهقان رئيس الإقليم أو التاجر وهي كلمة فارسية / المنجد في اللغة والأعلام ط٢١ ص٢٢٧ ١٩٧٣م.
(٣) ص١٤ مجلد ٤ الرواية.
(**) المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن العباس كان عارفاً بالفقه والأدب، ولد بالحميمة ٩٤هـ، بنى مدينة بغداد، عمل أول اسطرلاب في الإسلام، كانت خلافته وإحدى وعشرين سنة أحد عشر شهراً وأربعة عشر يوماً، بن الأثير، الكامل ٥/٩٩.

لأبي مسلم (... فبغت المنصور لتلك الضوضاء واستغرب جسارة الداخلين عليه بغير إذنه.. ثم رأى - جلنار - بطلة الرواية، أقبلت على أبي مسلم وهو مطروح أرضا والدم يسيل من جوانبه وانتشرت قلنسوته عن رأسه فبان شعره وتلوث بالدم، ورمت جلنار نفسها عليه وجعلت تتمرغ بردائه وتغمس كفيها بدمه وتمسح به وجهها ثم همت بيديه وصدره وأخذت تقبل ثوبه وتستنشق ريحه، وتبكي وتلطم حتى لم يبق في الغرفة إلا من تقطع عليه تأثرا..) [1]، وتلك صورة لدار الخلافة الإسلامية ترتكز على حقيقة مبالغ فيها، إذ أنه من الثابت أن المنصور قتل أبا مسلم لكن بغير هذه الصورة، ولا علاقة لهذه الفتاة بدار الخلافة، وقد كان أبو مسلم قد قتل في دولته ستمائة ألف صبرا حتى قال المنصور فيه عندما قتل:

زعمت أن الدين لا ينقضي ... فاستوف بالكيل أبا مجرم

سقيت كأسا كنت تسقي بها ... أمر في الحلق من العلقم [2].

كما لا علاقة لليهودي الذي زعم السيد جرجى زيدان، أن المنصور زور باسمه وختمه كتابا إلى أبي مسلم يدعوه إليه (...دعا المنصور حاييم بعد أن كتب كتابا إلى أبي مسلم يستقدمه فيه، فلما دخل عليه (حاييم) هذا اليهودي وكان المنصور قد أعد الكتاب سلفا فقال لليهودي، هات خاتمك فختم به الكتاب ثم حبسه عنده..) [3].

وعلى كل: فلكل حكم زلاته وسقطاته وليست سيرة أبي جعفر المنصور مبرأة من العيوب مع أنه كذلك غير معصوم، لكن الكتابة المنصفة وغير المتحيزة لهذا غير ما أوردته الرواية التي اشتملت على كثير من المثالب والمناقض وتناثرت في جميع صفحاتها صور تتقزز منها النفوس.

(٤) إشادة بالأديرة والكنائس والرهبان:

لم يكتف - جرجى - بطمس معالم الصورة المشرقة في التاريخ الإسلامي بما

---

(١) ص٢٥٣ مجلد ٤ الرواية.

(٢) تاريخ ابن الأثير ج٥ ص٢٢٥ ط١ بالمطبعةالازهرية المصرية سنة ١٣٠١هـ.

(٣) ص٢٤٨ مجلد ٤ الرواية، وقد راجعت مقتله كذلك في البداية والنهاية لأبي كثير - ج١٠ ص٦٦ مكتب المعارف ببروت فلم أجد ذكر الفتاة ولا يهودي !

قدمه من دس وافتراء ومن صور عن زعماء المسلمين تتقزز منها النفوس، بل عمد إلى تقديم صورة مثالية فاضلة عن الكنيسة ورهبانها، لتكون في الطرف المقابل لصورة تاريخ الإسلام كما رسمها، عن طريق مباشر وغير مباشر،

حيث جعل **الأديرة**: ملجأ للضعفاء، وملاذا للتائهين والخائفين - نصيرا للمظلومين رجالاً ونساء فنجده مثلا قد جعل - جلنار - بطلة روايته هذه - تفر مع صديق لها إلى دير العذارى، خوفا من أن يعلم أبو مسلم بأمرها فيفتك بها، ومن ثم كانت الفرصة مواتية **لجرجي**، ليلقي على مسامع قرائه **محاضرة عن المسيحية وأسرارها، فتحدث عن سر الإعتراف وقداسة الرهبان، يقول** (توجه صالح وجلنار إلى دير هند، فوجده آهلا بالرهبان، وطلب مقابلة رئيس الدير: فأخذوه إلى شيخ جليل عليه شيماء الوقار فسلم عليه وأكب على يده يقبلها، فدعاه الرئيس للجلوس، ودعا له بالطعام والشراب فقال صالح إنما جئتك - يا حضرة الأب - لأني أريد أن أستودعك سراً وأستشيرك فيه فأنتم رجال الله ومستودع أسرار خلقه) [1]، يفهم من هذا النص بالمقابلة - أنه لا يوجد بين المسلمين من يحفظ السر كقسيس النصارى، وأنهم لم يفكروا في إنشاء مستودعات للأسرار، ولم يقيموا مؤسسات لسر الاعتراف، هذا بالإضافة إلى أن المسلمين ليسوا في حاجة لتلك المؤسسات انطلاقا من قواعد الإسلام وعقيدته الصحيحة التي تعلمها المسلمون من إسلامهم ونطقت بها آيات ربهم عز وجل ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾[2]، فليس هناك حواجز بين الخلق وخالقهم سبحانه وتعالى ولا وساطات - من كهنوت أو رجال دين - فليس إلا الأعمال الصالحات، والتمسك بالهدى القويم، كما يحث الإسلام على حفظ الأسرار وصيانتها (من ستر مؤمنا فقد ستره الله) والمفهوم الإسلامي (إذا بليتم فاستتروا) ولكنها العصبية المسيحية والروح العدائية التي يكتب بها جرجي عن الإسلام وأحداثه ورموزه !

---

(١) ص٢٢٤ مجلد ٤ الرواية، ط دار الهلال ص٣٥١ سنة ١٩٨٤م، بصيغة أخرى (فذكر صالح الاعتراف الشائع عند النصارى لقسيسهم، وأنه سر مقدس لا يبوحون به ولو هددوا بالقتل، فرأى أن يجعل حديثه مع رئيس الدين ... الخ.

(٢) سورة البقرة آية رقم (١٨٦).

المبحث الثامن
العباسة أخت الرشيد

موضوع الرواية:

كتب جرجى زيدان معرفا بهذه الرواية في أول صفحة من صفحاتها يقول (.. انها رواية تاريخية تشتمل على نكبة البرامكة ومواكبهم، وبيان ما بلغت إليه الدولة من الحضارة والأبهة في عصر الرشيد)[1].

أهم الشبهات والمآخذ الواردة بالرواية ما يلي:

(١) اتهام الخليفة العادل هارون الرشيد بالظلم والاستبداد:

تركيز الرواية على تصوير الخليفة الإمام هارون الرشيد: بصورة الحاكم الظالم المستبد وما أكثر الفقرات التي جاءت في الرواية ترسم هذا التصوير مثل (عدونا المستبد، ظالم له السلطة المطلقة، انغمس في ملذاته، متمتعا بكل ما تشتهيه نفسه وأصبح لا يبالي بسواه، رجل لا شفقة له ولا رحمة، ليس بين الرجال من عمل مثله، تعود ألا يسمع غير التأمين على ما يقول، والتنفيذ لما يريد، حقا كان أو باطلا، شأن أصحاب السلطة لا سيما في تلك العصور، كثر المتملقون الذين يتزلفون إليه بالإطراء والإغراء، حتى ينس الحاكم ميزان الحق ويسوغ لنفسه ما لا يسوغه كأنه من طينة غير طينة البشر ...)[2].

بكل هذه الكلمات المسمومة، والسطور الحاقدة المعبأة بجرائيم التعصب والكذب يقدم – **جرجى زيدان** – الخليفة العادل هارون الرشيد – هادفا إلى سلبه من جميع خصائصه وفضائله لتستقر في أذهان الشباب صورة مشوهة، لخليفة دانت له الرقاب باسم الإسلام، حيث جعله – **جرجى** – شريبا، سكيرا لا يصحو ليلا،

---

(١) مجلد ٢ من الأعمال الكاملة ص٤٩٢، صفحة الغلاف من ط دار الهلال ١٩٨٤م.

(٢) السابق ص٥٥٢ مجلد ٢، ص٣٠ ط / هـ مجلة الهلال ١/ ١٠/ ١٩٠٦م.

ولا نهارا عابثا لاهيا، لا تهمه دنياه ولا أخراه، وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة وأقرب إلى الهراء والكذب - فقد جمعه جرجي كحاطب ليل من ألف ليلة وليلة، وإعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، ومسالك الأمصار ...الخ. وكلها كتب أرادت إثارة انفعالات عاطفية، وإحساسات جمالية لا تمت إلى الحقيقة بصلة، فهارون الرشيد الذي عرفته كتب التاريخ الموثقة، غير الرشيد الذي عرفته كتب الأدب، وقصص جرجي زيدان، ولنقرأ بعض الفقرات التي وردت عن الرشيد بكتب التاريخ حتى تسفر الحقيقة عن وجهها ويظهر الصبح لذي عينين.

▫ الصورة الحقيقية لهارون الرشيد:

أورد الإمام [1] بن جرير الطبري في تاريخه كلمات فواحة بالطهر والإيمان الذي كان يصدر عن الرشيد ﷺ يقول (كان الرشيد يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا، إلا أن تعرض له علة، وكان يتصدق في كل يوم من صلب ماله بألف درهم، وكان إذا حج حج معه من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج، أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة، والكسوة الباهرة، ولا يضيع عنده إحسان محسن، ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه، وكان يحب الشعر والشعراء، ويميل إلى أهل الأدب والفقه، وقد كان يجل أصحاب رسول الله ﷺ ويغار عليهم عندما تنتهك حرمتهم ومما ورد في ذلك: ذكر مصعب بن عبد الله الزبيري ان أباه أخبره أن الرشيد ولى - سلام - بعض خدام الخاصة، ضياع الرشيد بالثغور، فتواترت الكتب بحسن سيرته وتوقيره، وحمد الناس له، فأمر الرشيد بتقديمه والإحسان إليه فقدم ودخل عليه وهو يأكل سفرجلا يقشره ويأكل منه، فقال له يا فلان ما أحسن ما أنتهى إلى مولاك عنك، ولك عنده ما تحب، وقد أمرت لك بكذا وكذا، ووليتك كذا وكذا فسل حاجتك، قال: فتكلم وذكر حسن سيرته، وقال أنسيتهم والله يا أمير المؤمنين سيرة العمرين، قال فغضب - الرشيد - واستشاط وأخذ

---

(١) الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، بدون رقم للطبعة، دار المعارف ج٨ ص٣٤٧.

سفرجله فرماه بها وقال، يابن اللخفاء، العمرين ؟! هبنا احتملناها لعمر بن عبد العزيز أفنحتملها لعمر بن الخطاب !

وذكر محمد بن هارون عن أبيه قال: حضرت الرشيد وقال له الفضل بن الربيع يا أمير المؤمنين، قد أحضرت بن السماك كما أمرتني، قال أدخله، فدخل فقال له عظني، قال يا أمير المؤمنين اتق الله وحده لا شريك له، واعلم أنك واقف غدا بين يدي الله ربك، ثم مصروف إلى أحد منزلتين لا ثالث لهما جنة أو نار، قال فبكى هارون حتى أخضلت لحيته، فأقبل الفضل على بن السماك، فقال سبحان الله ! وهل يتخالج أحد شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله، لقيامه بحق الله وعدله في عباده وفضله، قال فلم يحفل بذلك بن السماك من قوله، ثم أقبل على الرشيد يقول يا أمير المؤمنين، إن هذا، يعني الفضل ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم، فاتق الله وانظر لنفسك، قال فبكى هارون حتى أشفقنا عليه، وأفحم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف حتى خرجنا، ذلك نذر يسير من سيرة أمير المؤمنين هارون الرشيد ﷺ، يشع بالنور والطهر والخشية والصلاح !

(٢) جرجي زيدان يتهم هارون الرشيد بشرب الخمر:

كما أن نقطة هامة جديرة بالوقوف عندها والرد عليها وكشف الحقيقة حيالها وهي ما تبنته الرواية من اتهام أمير المؤمنين هارون الرشيد – بأنه كان يعاقر الخمر، وتلك والله تهمة تستعصي على التصديق، فكيف يقال عن خليفة عرف بأدائه الفرائض، وتوقيره شعائر الدين وكان يحج عاما ويغزو عاما، أن يفعل هذا الذنب العظيم ؟ يدعي – جرجي – أنه كان لهارون ساق يسقيه الخمر. تقول الرواية (.. **ثم جاء صاحب الشراب بمائدة الشراب، وما تحتاج إليه من الأباريق والأقداح من البللور، والذهب، والفضة، وعليها النقوش، فلما انتظمت القيان للغناء، دار الساقي بأباريق الشراب على الرشيد فشرب قليلا !**)[1].

---

(١) رواية العباسة أخت الرشيد بجلد ٢ من المؤلفات الكاملة ص٦٣٠.

◻ ابن خلدون يرد على جرجي زيدان:

وعن هذه التهمة التي ألصقت بالرشيد يقول العلامة ابن خلدون (ما شاء الله، وما علمنا عليه من سوء، وأين هذا من حال الرشيد وقيامه، بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة، وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء، ومحاوراته للفضيل بن العياض، وبن السماك، ومكاتبته سفيان الثوري، وبكائه من مواعظهم، ودعائه بمكة في طوافه، وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلاة، وشهود الصبح الأول، ولقد ثبت ان الرشيد عهد بحبس أبي نواس لما بلغه من إنهماكه في المعاقرة حتى تاب وأقلع، وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق وفتاويهم فيه معروفة[1] وفي هذا يقول الشيخ محمد الغزالي- رحمه الله -: متسائلا في بداية حديثه كعادته في استنارة العقول: مَن مِن فقهاء المسلمين، قال بأن الخمر مباحة ؟ لم يقل مسلم في الأولين والآخرين أن السكير يترك حتى تعرف المادة التي سكر منها، بل يجلد، غاية الأمر أن هناك أمورا يحسن التنبيه عليها:

أ- إن هناك أنواعا من الأشربة الحلوة تنشأ من عصير الفواكه، ومن نقع بعضها في الماء، كالتين والزبيب، والرمان، والتمر، وكثيرا ما يطلق على هذا اللون من الشراب النبيذ، وهو إطلاق صحيح لغويا وكان شائعا في الأول، وهذه الأشربة باتفاق المسلمين حلال، وما فتئ المسلمون في أنحاء الأرض يشربونها دون نكير وإن كانت تسمى أنبذة.

ب- قال أبو حنيفة - ورفض أصحابه قوله - عن الخمر المحرمة بإطلاق أسكرت أم لا هي خمر العنب والبلح، وان ما أسكر من الأنبذة الأخرى هو المحرم أما المقادير التي لا تسكر فلا تسمى خمرا، ويعقب الشيخ الغزالي: فيقول وهذا رأي شاذ والفتوى على خلافه عند الأحناف أنفسهم، وعلماء المسلمين جميعا دون استثناء أنكروا هذا القول [2].

---

(١) مقدمة بن خلدون ط دار الشعب ص ١٩.

(٢) الشيخ محمد الغزالي، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين والمبشرين، بدون رقم للطبعة ص١٢٠، ١٢١ سنة ١٩٦٤م هذا وقد رجعت إلى كمال الدين بن الهمام في شرح فتح القدير فوجدته يسجل تحت كتاب الاشربة ما يلي:

والأشربة المحرمة أربعة (.. الخمر وهي عصير العنب إذا إلى واشتد وقذف بالزبد، والعصير إذا طبخ حتى=

(٣) تشويه شخصية العباسة أخت الرشيد:

هذا هو الهدف الثاني الذي انتصبت له الرواية - في ظني - وهي تسير نحو دورها المدروس لتشويه سيرة الرشيد من جهة، والطعن في سلوك أخته العباسة من جهة ثانية، فهي خوض في شرف وعرض سيد ملوك بني العباس، وهي بالتالي خوض وتشويه في قمة الحضارة العربية الإسلامية، وما كان أحراه أن يسمي روايته (العباسة بنت المهدي) لو أراد تشويه سيرتها هي لكنه سماها (العباسة أخت الرشيد) غمزا، ولمزا، وطعناً في شرف وعرض أمير المؤمنين - رحمة الله عليه - وذلك من خلال الخطوات التالية:

١- الوهم بأن الرشيد عقد لأخته على جعفر البرمكي، لمجرد إباحة النظر !

٢- تعليل العقد بحب الرشيد للعباسة وجعفر وعدم صبره على الابتعاد عنهما.

٣- زواج العباسة سراً بعد أن نالت من جعفر مأربها.

والحقيقة أن هذه الرواية المختلقة لم ترد عند جميع المؤرخين الثقات، وعلى رأسهم الطبري في تاريخه، وابن الأثير، وكذلك ما روى عن ولي أمرها، هارون الرشيد، الذي كان أمير المؤمنين في زمانه، وكان من أرق الخلفاء وأكثرهم حياء، وأخشعهم قلبا وأغزرهم دمعا، وقد اعتمد **جرجي زيدان على الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني**: وهو متهم في دينه وأمانته الأدبية والتاريخية، كان يأتي بالأعاجيب

=يذهب أقل من ثلثيه، ونقيع التمر، ونقيع الزبيب إذا اشتد وغلى) واخذ في بيان أحكام الخمر والكلام عليها في عدة مواضع: في بيان مائيتها وهي النئ من العنب إذا صار مسكرا، واختلف فيها على أنها اسم لكل مسكر لقوله ((كل مسكر خمر) وقوله ((الخمر من هاتين الشجرتين) وأشار إلى الكرمة والنخلة، ولأنه مشتقٌ من مخامرة العقل وهو موجود في كل مسكر، ولأن حرمة الخمر قطعية وهي في غيرها ظنية، وإنما سميت خمرا لتخمرها، لا لمخامرتها العقل، واعترض على الحديث الأول برفض يحيي ابن معين لهن وهو إمام حافظ متقن، حتى قال عنه الإمام أحمد ابن حنبل كل حديث لا يعرفه يحيي بن معين فليس بحديث.

واعترض على الثاني: بأن المراد به بيان الحكم إذ هو اللائق بمنصب الرسالة فالنبي مبعوث لبيان الشرائع لا لبيان الحقائق، ويكون المعنى أن ما أسكر كثيره كان حكمه في الإسكار حكم الخمر في الحرمة وثبوت الحد، فيه نظر لأن قوله ((الخمر من هاتين الشجرتين) يفيد الحصر فلو كان المراد بيان الحكم لزم أن لا يصح الحصر لأن المعنى المذكور فيهما وهو الحرمة وثبوت الحد عند إسكار الكثير يتحقق في غير تينك الشجرتين أيضا (فإن نبيذ العسل والتين ونبيذ الحنطة والذرة والشعير - وإن كان حلالا عند أبي حنيفة، وأبي يوسف - إذا لم يصل لمرتبة الإسكار، وكان من غير لهو مطرب إلا أنه إذا أسكر كثيره، صار حراما بالإجماع ويثبت به الحد على القول الأصح، وقد ظهر من خلال الفقه الحنفي: وهذا الكتاب الجامع الذي معنا ان ما قد ينسب إلى الأحناف القول بحله هو نقيع التمر ونقيع الزبيب.. الخ، وهذا كله إذا لم يتحقق فيه الإسكار، ولا زال الناس حتى عصرنا هذا، وفي كل عصر ينقعون ويعصرون الفواكه ويشربونها ولا يعترض عليهم بحرمة ذلك.

بحدثنا وأخبرنـا، قال عنـه الخطيب البغدادي: حدثني أبو عبد الله الحسيني بن محمد بن طبـاطب العلـوي سمعت أبـا محمد بـن الحسيني النوبتجـي يقول كـان أبو الفرج أكذب الناس، يشـتري شيئا من الصحف، ثم تكون رواياتـه كلها منها، وإذا تأملنا في قائمة الكتب التي خلفها صاحب الأغاني وراءه، وجدناها، أخبار القيان، كتاب المماليك الشـعراء، أدباء الغربـاء، أخبار الطفيليين، الخمارين والخمـارات، الغلمان والمغنين، ... الخ مما يوقفنا على طبيعـة أفكار هـذا الرجل وحقيقة شـخصيته، ومن يقرأ الأغـاني: يجد حيـاة العباسـيين كلهـا لهو، ومجون، وغنـاء، وهـذا يناسـب الأصفهـاني وحياته ومن حولـه، أمـا من يرجع إلى مراجعنا الصحيحـة الموثوق بها، يجد حياة الرشيد، دينا وورعا، وتقوى، وعلما، وحضارة.

▫ ابن خلدون يبرأ ساحة أخت أمير المؤمنين:

وقد كشـف العلامة بـن خلدون وغيره من الثقـات كذب هذه الروايات، يقول ابن خلدون (... ومن الحكايـات المدخولة للمؤرخـين ما ينقلونـه كافة عـن سبب نكبـة البرامكة، في قصـة العباسـة أخت الرشيد مـع جعفر بن يحيى ابن خالد، مولاه وأنه لكلفه بها أذن لهما الرشيـد في عقد النكاح دون الخلوة به، لما شاغفها من حبه حتى واقعها، زعموا في حالة سكر فحملت ووشى بذلك الرشيد، فاستغضب.

وهيهات، هيهـات ... ذلك مـن منصب العباسـة في دينهـا، وأبويهـا، وجلالها، إنهـا بنت عبد الله بن عباس، ليـس بينها وبينـه إلا أربعة رجال، هـم أشراف الدين وعظمـاء الملـة من بعده، والعباسـة بنت المهدي بن عبـد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد، بن علي أبي الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي ﷺ، فهـي ابنـة خليفـة، وأخـت خليفـة، محفوفـة بـالملك العزيـز، والخلافـة النبويـة، وصحبـة الرسـول وعمومتـه، وإمامـة الملـة ونور الوحـي ... فـأنى يطلب الصون والعفـاف إذا ذهب عنها، وأيـن توجد الطهارة والزكـاء إذا فقد من بيتها، إذ كيف تلحم نسبها بجعفـر ابن يحيى، وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم (يقصد أن أحد أجداد العباسـة من عمومة الرسـول ﷺ) وكيف يسـوغ للرشيد أن يصهر إلى مـوالى العجم على همتـه وعظـم آبائـه، **ثم يعقب بن خلـدون فيقول:** ولو نظر

المتأمل في ذلك نظر المنصف، وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه، لاستنكف لها من مثله، مع مولى من موالي دولها، وفي سلطان قومها، واستنكره ولجّ في تكذيبه، وأين قدر الرشيد والعباسة من آحاد الناس ؟ التي كانت أكثر أيام طهرها مشغولة بالصلاة، ودرس القرآن الكريم ولزوم المحراب، رضي الله عنها وعن أخيها وآبائها أجمعين) [1].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ج١ ط٣ دار نهضة مصر للطباعة والنشر ص٣٠٠ - تحقيق د. علي عبد الواحد وافي - وفي كلامه - رحمه الله - نظر، لأن في عباراته نفس غريب عن روح الشريعة التي تقرر إزالة الفوارق وإسقاط نعرات الجاهلية ، باعتبار أخوة البشر جميعا. (كلكم لآدم وآدم من تراب) ولست أدري هل كان متأثرا رحمه الله بنزعة الشعوبية التي عرفتها بلاد المسلمين في عصورها الأولى، فجاء كلامه رد فعل لها أم ماذا؟

وما قد يعترض عليه من أن فقهاء الأمة في أبواب النكاح في كتبهم ومؤلفاتهم قد أنزلوا الكفاءة بين الزوجين منزلتها وقد روا لها قدرها، حتى تستديم العلاقات الزوجية وتنعم بيوت المسلمين بالهدوء والاستقرار، فهذا لا غبار عليه ولا حرج فيه - لكن الأمر لا يصل - عند اختفاء أو نقصان الكفاءة بين الزوجين - إلى حد تدنيس العرض كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون - رحمه الله - وعبارته واضحة في هذا المقام يقول: (كيف للعباسة أن تدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم) فلا شك أن كلام الفقهاء في هذه المسئلة أخف من ذلك وألين وأولى بالاتباع: فالإمام أحمد بن حنبل ﷺ: اختلفت الرواية عنه: فروى أنها شرط للنكاح، وإذا تزوج المولى العربية فرق بينهما، ورواية ثانية: أنها ليست شرطا في النكاح - وهو قول أكثر أهل العلم من أمثال ابن عمر رضي الله عنهما، وابن مسعود، وعمر بن عبد العزيز، وعبيد بن عمير، وابن سيرين، والإمام مالك، والإمام الشافعي، وأصحاب الرأي لقوله سبحانه وتعالى في سورة الحجرات ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ قالت عائشة رضي الله عنها أن أبا حذيفة عتبة بن ربيعة تبنى سالما وأنكحه ابنة أخيه هند بنة الوليد بن عتبة، وهو مولى لامرأة من الأنصار، (البخاري) وأمر النبي ﷺ فاطمة بنت قيس، أن تتزوج مولاه أسامة بن زيد فنكحها بأمره (متفق عليه).

والصحيح أنها غير مشروطة، وما روى فيها يدل على اعتبارها بالجملة، ولا يلزم منه إشتراطها، وذلك لأن الزوجة كل من الأولياء، له فيها حق، ومن لم يرض منهم فله الفسخ، وقد ورد أنه (خير أمرأة بعد زواجها وأقر خيارها على أمر الكفاءة.

أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة - المغني - تحقيق محمود فايد وعبد القادر أحمد عطا، ط ١ مكتبة القاهرة ص٣٣ سنة ١٩٨٩م.

المبحث التاسع
صلاح الدين الأيوبي

موضوع الرواية:

تقع هذه الرواية في المجلد الخامس – القسم الأخير – وفي التعريف بمضمونها كتب مؤلفها فيقول: (... إنها تتضمن انتقال مصر من الفاطميين إلى الأيوبيين على يد السلطان صلاح الدين، مع وصف طائفة الإسماعيلية المعروفة بجماعة الحشاشين) [1]. وتقع في حوالي مائتين وأربعين صفحة.

أهم الشبهات والمآخذ الواردة بالرواية:

(١) اتهام صلاح الدين الأيوبي بنقض العهد وخيانة الأمانة عن طريق التلفيق والتزوير:

والذي يعد أحد السمات العامة للرواية التي أشاعها المؤلف، ونثرها بين طياتها - شأن جميع الروايات التي سبقتها- ومن ذلك: **إدعاء جرجي زيدان،** أن الخليفة العاضد، لما ضعف أمره واستولى عليه المرض استدعى صلاح الدين، وأوصاه بأهله خيرا لا سيما أخته، حين قال له على لسان الخليفة (... هذه يا صديقي أختي سيدة الملك، التي بعثت تخطبها، وهؤلاء أبنائي، وكبيرهم داود هذا ..إنني تارك أمرهم إليك [2]) لهذا حرص **جرجي زيدان** على إظهار استهانة صلاح الدين بهذا الطلب والتزامه بالعهد يقول (..إن صلاح الدين حاصر قصر الخليفة بعد وفاته مباشرة، وأخذ كل ما فيه، ومن فيه، فأهدى وباع وأطلق وأعتق و لم يحتفظ إلا بسيدة الملك) [3].

والحقيقة التي سجلتها كتب التاريخ الموثقة: أن قصة الوصية من العاضد لصلاح

---

(١) مجلد رقم (٥) ص٤٦٧ الرواية.
(٢) مجلد رقم (٥) ص٥٩٨ الرواية.
(٣) مجلد رقم (٥) ص٦٠١ الرواية.

الديـن لا وجود لها ألبتة، والدليل على ذلك ما أثبتـه ابن الأثير في تاريخه (ولما اشتد المرض على العـاضد أرسـل إلى صلاح الدين يستدعيه فظنهـا خدعة فلـم يمض إليه فلمـا توفى، علم صدقه، فندم على تخلفـه عنه) [1]، وعلى هـذا فالوصية ليست إلا محض تلفيق وتزوير !

ومن ثـم نستيقن أن جرجى مـا أراد في الحقيقـة إلا الإدعـاء بـأن صلاح الدين نقض العهد وخانه و لم يسرع لحفظ حقوق الأوصياء الأبرياء.

(٢) تشويه صورة الخلفاء وأعراضهم والاستخفاف والسخرية بهم:

هو المـأخذ الثاني الـذي يسـجل على الروايـة، فبينما جـاء في "الكامل" استغاثة العـاضد، بنور الدين لضعف المسـلمين على دفع الإفرنج، حتى أنـه أرسل لـه شعور نسائه، يستعين به لينقذهن من الإفرنج، و لم يشـر ابن الأثير إلى سخرية نور الدين، من المسلمين أو من خليفتهم، وحاشا لإنسان مسلم أن يسخر من إخوانه وبهم، في مثل هذه اللحظات العصيبـة لاسيما إذا كان بطلا، مقدامـا، تقيا، شـهيدا مثل نور الدين، **لكن جرجى زيدان** - يـأبى إلا أن ينسج قصصـا خياليـة وحكايات خرافية حول تلك المسئلة (.. وأن شابا صغيرا كان قد رأى شعور نسـاء خليفة المسلمين، في بيـت نور الدين فتـألم لذلك، وطلب من نـور الدين، أن يعطيـه خصلـة منها ... راقتـه لأن صاحبتهـا - كمـا زعـم - لابد أن تكون ابنــة الخليفـة أو أختــه، وأنـه سـيعيدها إليها على حد تعبيره) [2]. وتمضي الرواية في هذه المسـيرة الخيالة، وتبلغ

(١) الكامل ج٩ ص١٠٢ ط بيروت - دار الفكر ، وقد راجعت الموضع كلـه فجاء فيـه (أن العاضد أحضر صلاح الدين عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه، وكان الذي حمله على ذلك: أن أصحابه قالوا له ليس في الجماعة أضعف من يوسف - يعني صلاح الدين - و أصغر منه سنا والرأي أن يولى فإنه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العسـاكر من يستميلهم إلينا فيصير عندنـا من الجنود من تمتع بهم البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجه، لكن صلاح الدين: استمال قلوب النـاس، وبذل الأموال، فمالوا إليـه وأحبوه وضعف أمر العاضد ثم أرسل صلاح الدين بطلب من نور الديـن أن يرسل إليه إخوته وأهله فأرسـلهم إليه وشرط عليهم طاعته.. الخ) الإمام أبـي الحسـن علي بن محمد بن عبد الكريـم السـفياني، ابن الأثير - الكـامل في التاريخ، دار الفكر بيروت، بدون رقم للطبعة ج٩ سنة ١٩٧٨م.

(٢) جرجى زيدان، المؤلفات الكاملة: مجلد رقم (٥) رواية صلاح الدين ص٥٠١.

(طائفـة الحشاشين: هي طائفة اسماعيلية فاطمية نزاريـة مشرقية، انشـقت عن الفاطميين لتدعوا إلى إمامة نزار بن المسـتنصر بالله ومن جاء مـن نسله، أسسـها الحسـن بن الصباح الـذي اتخذ من قلعة المـوت مركزا لنشر=

مداها، حين تزعم أن الشاب تمكن من إعادة الخصلة إلى صاحبتها أخت الخليفة مما سبب نشوء علاقة حب وغرام بينهما،

فتسجل حواراً دار بين الخليفة العاضد وابنته (يسألها من هو هذا الشاب وكيف عرف أنك من نساء الخليفة ؟ فقالت وهي تنظر إلى والدها شزرا - على حد تعبيره - إنك تتهمني يا أمير المؤمنين، ولا مكان للريب، قد سألت الشاب كيف عرفني فمد يده إلى جيبه واستخرج هذه الخصلة ودفعها إلي وقال أليست هذه من شعرك ؟؟ وأدناها من شعر رأسي فإذا هما بلون واحد، فابتدرها الخليفة قائلا مس شعرك بيده ؟ قالت لم يمسه، ولكنه أدناه من شعري، ...) حوار يفتقد المنطق والعقلانية، ويجنح إلى الخيال والوهم، مع خطورة مضمونه ومحتواه.

فكيف يتصور أولا: معاملة ابنة أحد خلفاء المسلمين لوالدها بهذا الشزر وذلك

=دعوته وترسيخ أركان دولته، وقد تميزت هذه الطائفة باحتراف القتل والاغتيال لأهداف سياسية ودينية متعصبة وكلمة الحشاشين (ASHASHIN) دخلت بأشكال مختلفة في الاستخدام الأوربي بمعنى القتل خلسة أو غدرا أو بمعنى القتل من المأجور المحترف، الأفكار والمعتقدات:

١- تلتقي معتقداتهم مع معتقدات الاسماعيلية عامة من حيث ضرورة وجود إمام معصوم ومنصوص عليه، على أن يكون الابن الاكبر للإمام السابق، والعصمة لديهم ليست في عدم ارتكاب المعاصي والأخطاء بل إنهم يؤولون المعاصي والأخطاء بما يناسب معتقداتهم.

٢- كل الذين ظهروا من قادة الحشاشين إنما يمثلون الحجة والداعية للإمام المستور.

٣- إمام الحشاشين بالشام رشيد الدين سنان بن سليمان، قال بفكرة التناسخ، فضلا عن عقائد الاسماعيلية التي يؤمنون بها كما ادعى أنه يعلم الغيب.

٤- الحسن الثاني بن محمد - أحد دعاة الطائفة ت سنة ١١٦٦م - أعلن قيام القيامة وألغى الشريعة، وأسقط التكاليف.

٥- الحج لديهم ظاهره إلى البيت الحرام وحقيقته إلى إمام الزمان ظاهرا أو مستورا.

٦- كان شعارهم في بعض المراحل (لا حقيقة في الوجود وكل أمر مباح).

٧- كانت وسيلتهم الاغتيال المنظم، عن طريق تدريب الأطفال على الطاعة العمياء والإيمان بكل ما يلقى إليهم، وعندما يشتد ساعدهم يدربونهم على الأسلحة المعروفة، لاسيما الخناجر ويعلمونهم الاختفاء والسرية وأن يقتل الفدائي نفسه قبل أن يبوح بكلمة واحدة من أسرارهم، وبذلك أعدوا طائفة الفدائيين التي أفزعوا بها العالم الإسلامي آنذاك.

٨- يقول عنهم المؤرخ كمال الدين بن النديم ٥٧٢هـ/ انخرط سكان جبال السماق في الآثام والفسوق وأسموا أنفسهم المتطهرين، واختلط الرجال والنساء في حفلات الشراب و لم يمتنع رجل عن أخته أو ابنته، وارتدت النساء ملابس الرجال، وأعلن أحدهم بأن سنانا هو ربه، (انطلقت دعوتهم من أواسط إيران وأصفهان ثم خوزستان ثم هضبة الديلم واستقرت في قلعة الموت، واحتلوا كثيرا من القلاع وامتدوا إلى نهر جيحون، وصلت دعوتهم إلى سوريا، وامتلكوا القلاع والحصون على طول البلاد وعرضها، كان زوالهم في إيران على يد هولاكو المغولي، وفي سوريا على يد الظاهر بيبرس، ولهم أتباع إلى الآن في إيران وسوريا والهند، وفي أجزاء من أواسط روسيا السوفيتية، - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة - صلاح الدين ٢٠٣ مادة رقم (٢٠).

الاحتقار، كما يتصور السيد جرجي ؟ وكيف وهي محتجبة أن يرى جندي لون شعر رأسها ويقارنه بخصلة منه احتفظ بها في جيبه أياما وربما شهورا !؟ وكيف تقول هي أنه أدناها من رأسها دون أن يمسها ؟؟ كلام متخيل أقرب إلى الوهم والتخبط منه إلى الحقيقة والمنطق، ولا يعد وأن يكون محاولة لتشويه صورة بيوت الخلفاء، وأعراضهم وعدم احترام أصلابهم وأرحامهم لمقتضيات الشرع وقواعد الدين، فلا مانع أن تكون ابنة خليفة المسلمين متبرجة تختلط بالرجال وتحاورهم في أمورها الشخصية، بل وتنشأ معهم علاقات الحب وغيرها، فهو جانب خيالي محض، لم يقصد منه **جرجي زيدان** الكشف عن بطولة نادرة، أو موقف نبيل، إنما أراد السخرية والاستخفاف، كما ظننا، بقوله على لسان ذلك الشاب (..ولكن قوما يبلغ بهم الذل حتى يستشفعوا بشعور نسائهم لا يرجى منهم وفاء).

(٣) تلميع الجماعات المنحرفة وتكبير صورتها لتمثل العصر كله:

حيث تكاد الرواية برمتها تقدم تخطيطا وتوجيها للمجرمين كي يبرعوا في ارتكاب جرائمهم وفي ذلك ما فيه، من إفساد المجتمع، وإثارة الرعب بين أفراده، وتشويه التاريخ الإسلامي، وكأن الرواية تقول لشباب المسلمين هذا هو تاريخكم المجيد بما فيه من فتن ومنازعات وجرائم ومؤامرات، **استمد – المؤلف – هذا** كله من طائفة الحشاشين (وهي جماعة ضالة منحرفة غير متمسكة بشيء من تعاليم الإسلام، فمن التجني على التاريخ الإسلامي، اعتبارها جزءا من المسلمين، ثم تصيد أخطائها ومواقفها التي تتقزز منها النفوس، وحشدها في رواية تتحدث عن تاريخ الإسلام، ليكون ذلك هو الطابع العام لتاريخ الإسلام، (والتي بالغ في وصفها وإضفاء الهالات عليها، حتى أنه نسب إليها بعض المعجزات يقول عن زعيمها (راشد الدين) أنه في حوار بينه وبين أحد المنتسبين الجدد إلى هذه الطائفة، قال له أنا لأكلفك أن تقول شيئا لكني أستفهم شعرة من شعرك فهي تنبئني ! وأخذ شعرة سألها يا شعرة عبد الجبار أين صاحبك قبل بيت المقدس ؟ وجاء الجواب من ناحية الشعرة ضعيفا كأنه صادر عن وتر رنان وهو (من القاهرة !) [1]... بل إن

(١) جرجي زيدان، المؤلفات الكاملة: مجلد رقم (٥) رواية صلاح الدين ص٦٦٧.

الرواية تبلغ المدى في الشـطط والخيال والجرأة، حين تصور زعيم هـذه الطائفة – وكأنه إله – لـه جنة وأنه أدخل فيها عبد الجبار هذا، وقابلتـه حورية هناك، فسألها فقالت لـه إنما جئت هنـا لترى مـا أعده المولى لأتباعـه ومريديـه، إذا قـاموا بأوامره وعسى أن تكون من المستحقين) [1].

ويدعي اتصال زعيم هذه الطائفة بالوحي يقول (.. إن شيخنا هذا أيده الله علم بـالوحي أنه سيموت في نفـس السـنة التي يموت فيها صـلاح الدين) [2]. لماذا كل هذه العناية بطائفة الحشاشـين وشيخهم ؟ ولماذا الزعم باطلاع شيخهم على الوقائع قبل وصـول أخبارهـا، وأنـه يكلـم الميت فيجيبـه !.. الخ ومـا علاقـة ذلك بتـاريخ الإسلام.

أين بطولات صلاح الدين ؟

إن روايـة تجعـل موضوعهـا (صـلاح الدين الأيوبي) ولا تتحـدث عن أمجـاده وبطولاتـه أنهـا ولا شـك رواية مغرضـة، ابتعـدت عن الإنصـاف، وتخلت عن الموضوعية ولبسـت ثوب الحقد والتعصب، وإلا فمـاذا بقى من سيرة صلاح الدين، إذا استـبعدت بطولاتـه، وجولاتـه، وصولاتـه، في الذود عن الإسـلام والدفاع عن مقدسـاته، لكن الروايـة لم تذكر للقـارئ شيئا من ذلك. بل لم تقدم لـه من صورة وحيـاة هذا البطل الإسـلامي إلا أنه خان العهد، ونقـض الميثاق، وتنكر للوصية التي أوصاه بها الخليفة العاضد، وهو على فراش الموت !

هذا هو حديث السيد جرجى زيدان عن بطلنا الإسلامي صلاح الدين؟

الصورة الحقيقية لصلاح الدين:

فمن هو صلاح الدين الأيوبي الحقيقـي الذي عرفتـه مصادر التـاريخ الإسلامي الموثوق بها وقدمته للمسلمين ؟

---

(١) جرجى زيدان، المؤلفات الكاملة: مجلد رقم (٥) رواية صلاح الدين ص٦٧٢.
(٢) جرجى زيدان، المؤلفات الكاملة: مجلد رقم (٥) رواية صلاح الدين ص٦٧٩.

في عجالة سريعة غير مخلة نقتطف بعض الباقات من سيرة هذا المجاهد العظيم، لكي نثلج بها صدورنا وترتفع بها تلك الغشاوة التي حاول هذا الصليبي الحاقد أن يحيط بها أبصار المسلمين !

مولده:

ولد صلاح الدين الأيوبي بتكريت سنة ٥٣٢هـ نشأ في حجر أبيه نجم الدين أيوب الذي كان مقدما في الدولة النورية ومن رجالها، يقول العلامة المظفر شمس الدين يوسف بن قزأوغلى في تاريخه مرآة الزمان (...كان السلطان صلاح الدين شجاعا شهما مجاهدا في سبيل الله مغرما [1] بالإنفاق في وجوه الخير، وحسب ما أطلقه ووهبه مدة مقامه على عكا مرابطا للفرنج من شهر رجب سنة ٥٨٥هـ إلى يوم انفصاله عنها في ٨٨٨هـ فكان اثني عشر ألف رأس من الخيل العراب للحاضرين معه للجهاد، غير ما أطلقه من الأموال، قال العماد الكاتب (..لم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب، وما كان يلبس إلا ما يحل لبسه، كالكتان والقطن والصوف، وكانت مجالسه منزهة عن الهذء والهزل، ومحافله حافلة بأهل العلم والفضل، ويؤثر سماع الحديث وكان من جالسه لا يعلم أنه جالس سلطانا لتواضعه، يقول العماد الكاتب، ورأى معي يوماً دواة محلاة بالفضة فأنكر علي وقال ما هذا ؟! فلم أكتب بها عنده بعدها، وكان محافظا على الصلاة في أوقاتها، ولايصلي إلا في جماعة وكان لايلتفت إلى قول منجم، وإذا عزم على أمر توكل على الله، أ.هـ

أما القاضي شداد في السيرة فإنه يقول: (كان حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى إذا جاء وقت صلاة وهو راكب نزل فصلى، وما قطعها إلا في مرضه الذي مات فيه ثلاثة أيام اختلط ذهنه فيها، فأما الزكاة فإنه لم تجب عليه زكاة قط، أما صدقة النوافل فإنه استنفذ أمواله كلها فيها، كان يحب سماع القرآن، واجتاز يوما على صبي صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن، فاستحسن قرائته، فوقف عليه

---

(١) جمال الدين يوسف بن تغريبي بردي، النجوم الزاهرة في أحوال ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، بدون رقم للطبعة أو تاريخ ج٦.

وعلى أبيه مزروعة، وكان شديد الحياء خاشع الطرف، رقيق القلب، سريع الدمعة، محبا للعدل، يجلس كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره القضاة والفقهاء، ويصل إليه الكبير والصغير والشيخ العجوز، وما استغاث إليه أحد إلا أجابه وكشف ظلامته، واستغاث إليه ابن زهير الدمشقي على تقي الدين عمر، لابن أخيه، وقال ما يحضر معي مجلس الشرع، فأمره بالحضور معه، وكان طاهر اللسان والقلم ما شتم أحدا، ولا كتب بيده ما فيه أذى لمسلم، وما حضر بين يديه يتيم إلا وترحم على من خلفه، وجبر قلبه، وأعطاه ما يكفيه، فإن كان له كافل سلمه إليه وإلا كفله.

صورة من عظمة السلطان صلاح الدين:

قال أبو المظفر وحكى لي المبارز سنقر الحلبي: رحمه الله ، قال كان الحجاب يزاحمون على طراحته [1] فجاء سنقر الخلاطي ومعه قصص، فقدم إليه قصة وكان السلطان مد يده اليمنى على الأرض ليستريح - فداسها سنقر الخلاطي، ولم يعلم وقال له علِّمْ عليها، فلم يجب، فكرر عليه القول، فقال يا طواشي: أعلِّمْ بيدي أم برجلي ؟! فنظر سنقر فرأى يد السلطان تحت رجله، فخجل، وتعجب الحاضرون من هذا الحلم، ثم قال السلطان هات القصة فعلم عليها !

هذه هي أخلاق الأبطال والقواد المسلمين الصالحين الأتقياء الذين خطو بأعمالهم سجلات مجدهم وفخارهم في سفر التاريخ [2] أين هذا النذر اليسير الذي ذكرنا من الرواية ؟!

---

(١) المصدر السابق ص٩، ١٠، ١١.

(٢) نفس المصدر ج٦ ص٩، ١٠، ١١.

المبحث العاشر

شجرة الدر

موضوع الرواية:

تتضمن الرواية - كما عرفها مؤلفها - مقتل الملك توران شاه آخر سلاطين الدولة الأيوبية ومبايعة شجرة الدر زوجة الملك الصالح، وتتويجها ملكة لمصر، وهي أول ملكة في الإسلام، ثم خلعها وتولية السلطان موسى ابن صلاح الدين ٣٦٧هـ[1].

أهم الشبهات والمآخذ الواردة بالرواية:

(١) الغرام يصنع التاريخ: فيخرج القارئ لهذه الرواية - بحقائق تاريخية مشوهة ومحرفة، ذلك لأن المؤلف يرى أن شجرة الدر لم تصل إلى الحكم إلا بسبب حبها لعز الدين أيبك، وزير زوجها ! وأنها اضطرت للتنازل له عن العرش بسبب اعتراض أمير المؤمنين الذي لم يأت إلا نتيجة لمؤامرات - سلافة - التي ركزت على

---

(١) مقدمة رواية شجرة الدر مجلد ٣ من المؤلفات الكاملة لجرجي زيدان ص٥١٢.
وشجرة الدر: الصالحية أم خليل، الملقبة بعصمة الدين، ملكة مصر، أصلها من جواري الملك الصالح نجم الدين أيوب، اشتراها في أيام أبيه، وحظيت عنده وولدت له ابنه خليلا فأعتقها وتزوجها، فكانت معه في البلاد الشامية، لما كان مسؤولاً على الشام مدة طويلة، ثم لما انتقل إلى مصر وتولى السلطنة، كانت في بعض الأحيان تدير أمور الدولة عند غيابه في الغزوات، وكانت كما يقول ابن إياس (ذات عقل وحزم، كاتبة قارئة، لها معرفة تامة باحوال المملكة، وقد نالت من العزو الرفعة ما لم تنله امرأة قبلها ولا بعدها، كانت تكتب خطاً يشبه خط الملك الصالح فكانت تعلم على التواقيع ولما توفى الملك ٦٤٧هـ بالمنصورة والمعارك ناشبة بين جيشه وبين الإفرنج، كانت عنده فأخفت خبر موته، واستمر كل شيء كما كان، السماط يمد كل يوم، والأمراء في الخدمة، وهي تقول السلطان مريض، ما يصل أحد إليه، وأرسلت بعض رجالها إلى ابنه توران شاه وكان في حصن كيف مخض، وحين علمت بوصوله في طريقه إلى - القدس - انتقلت هي إلى القاهرة فبعث يهددها ويطلب المال والجواهر فخافت شره واستوحش منه بعض المماليك فقتلوه، وتقدمت للملك، فخطب بها على المنابر، وضربت السكة باسمها، وأقامت عز الدين أيبك، وزير زوجها، وزيرا لها، وكانت علامتها على المراسيم (أم خليل) وعلى السكة أي النقود (المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين) ولم يستقر أمرها غير ثمانين يوما، وخرجت الشام عن طاعتها، فتزوجت بوزيرها عز الدين أيبك ونزلت له عن السلطنة، واحتفظت بالسيطرة عليه فطلق زوجته الأولى (أم علي) وتلقب بالملك المعز، ثم أراد أن يتزوج عليها فأمرت مماليكه فقتلوه خنقا بالحمام ! وعلم ابنه علي، فقبض عليها وسلمها لأمه فأمرت جوار لها أن يقتلنها بالقباقيب والنعال حتى ماتت. أ.هـ.
نقلا عن خير الدين الزركلي، الأعلام، دار صادر بيروت ط ٣ ج٣ ص٢٣١.

حبيبهـا، وسـخرته للإطاحـة بمملكة شـجرة الدر، وليس رد فعل لغضب المسـلمين والمصريين بصفة عامة، واستجابة طبيعية لما تقتضيه الظروف والملابسات.

يذهب جرجي زيدان إلى أبعد من هذا حين يدعي أن أمير المؤمنين -آنذاك - لم يعترض على توليـة شجرة الدر - بل طلب منها أن ترسل له شويكار المغنية، لغرامه بالغناء وسـائر الطـرب، وأن شويكار كـانت مخطوبـة لركن الدين بيبرس - فتحرك ليثأر لنفسه، ولشـويكار ولشجرة الدر، من عز الدين أيبك ومن سلافة المجرمة، التي كانت سـببا للإطاحة بمملكـة شجرة الدر، وإبعاد شـويكار، تقول: (جاء الحاجب ينبئهـا بقدوم عز الدين، نـائب السـلطنة فقالت للحـاجب قل لـه ينتظرني بالإيوان، وكان عز الديـن قد جاء إلى الإيوان لملاقاة حبيبتـه، على حدة ليهنئها بما نالته، وهو يتوقـع أن تكثر من الثنـاء عليه عنـد المقابلة علـى إنفراد، لأنه كـان السـبب في نيلها ذلك المنصب الذي لولاه لم تكن لتناله، فتوجه إلى غرفتها فرأى ركن الدين خارجا من عندهـا وعلى وجهـه أمـارات الهيـام، فتسـرب إليـه الشـك وشـبت الغيرة في قلبه...)[1]. ويؤكد العلاقة بين شـجرة الدر وعز الدين مرة أخرى على لسان قيمة قصور الملـك الصالح، حيث يقـول: (إن أمور الدولـة صارت إلى صديقتك شـجرة الدر التي رفعتهـا إلى مقـام الملك) وهنـا أخذت الغيرة عـز الدين ونبهت نفسـه إلى عوامل كثـيرة فاحتقرهـا، لأنـه خضع لامـرأة لم ترض امرأة مثلهـا أن تخضع لهـا، وأطمعتـه سلافة هذه - في نفسـها - وكان لا يجرؤ على الاقتران بها في عهد الملك الصالح فرآها فرصة أن جائته واعتبرت نفسها صديقة له ! ...) [2].

وهكـذا يـأبى - **جرجي زيـدان** - إلا أن يحـرك الأحداث كلهـا وفـق جـانب غرامي بحت، حيث الهيام واشتعال العواطف والتهاب المشاعر.

(٢) نساء السلاطين يتاجرن بأعراضهن:

من خلال تصوير نسـاء السلطان نجم الدين أيوب، بصورة النساء اللاتي يتاجرن

---

(١) جرجي زيدان - رواية شجرة الدر مجلد ٣ من المؤلفات الكاملة صلاح الدين ص٥١٢.

(٢) جرجي زيدان - رواية شجرة الدر مجلد ٣ من المؤلفات الكاملة صلاح الدين ص٥٦١.

بأعراضهن ! في سبيل الحصول على ما يتطلعن إليه !! حيث جعلت رواية جرجي زيدان، شجرة الدر تصادق عز الدين قبل وفاة السلطان، وتقوى العلاقة بعد وفاته، حتى يبذل جهده في تدعيم ونقل الملك إليها، لكنه قبل أن يهنأ بهذا الملك أو يجتني ثماره، قلب عز الدين ظهر المجن لشجرة الدر، فاضطرت للتنازل عن الحكم بسبب اعتراضات الخليفة في بغداد - **حسب زعم جرجي** - الذي أرجع الاعتراضات إلى اتصالات أجرتها الزوجة الأخرى للسلطان نجم الدين أيوب - سلافة - بعد استيلاء الغيرة عليها، فحقدت على شجرة الدر، واستخدمت التاجر سحبان في مآربها، بعد أن فتن بجمالها، وفتنته بتحقيق آماله، فلما تحقق لها ما أرادت تحولت عن سحبان، وأصبحت صديقة، أو خليلة لعز الدين أيبك - في رواية جرجي - بعد إقناعه وشرحها لدورها في الإطاحة بشجرة الدر، ثم أخذت تعزيه بترشيح - موسى - لتبقى الخلافة في الدولة الأيوبية رغم صغر سنه، على أن يكون هو الرأس المدبر والعقل المفكر، وتصبح هي زوجة الملك، قالت (... إذا كان الغرض هو المحافظة على نسب السلاطين الأيوبيين في هذه السلطنة ألم يكن الأولى أن تولوا عليكم أيوبيا يكون الامير عز الدين وصيا عليه..) (١). ومن ثم جاءت مؤامرة شجرة الدر وتحريكها لركن الدين بيبرس تحريكا آلياً، عن طريق الحب والغرام حتى اقتنع بأن سلطنة مصر أفضل من خلافة بغداد، وبدأ يسعى في طلبها على أن يقتل المستعصم، وشجرة الدر تقتل عز الدين، ويصبح هو صاحب الأمر والنهي، (وقف ركن الدين مطرقا ثم انتبه لشجرة الدر، فتحول نحوها فرآها قد فرغت من تلاوة الكتاب، فقالت عن الخليفة المستعصم، والله لو أن امرأة سليطة تولت هذا الملك لدبرته أحسن من تدبيره، شغل نفسه باللهو والغناء، ثم يأخذ نساءنا من بين أيدينا ونحن صابرون ! تقصد شويكار المغنية التي أخذها المستعصم)(٢).

وهكذا أخذت تهيجه على الخليفة، وما أن خرج من عند شجرة الدر حتى وجد رسولا لقيه في الطريق من عند سلافة، تدعوه إليها، واستقبلته وأخذت في

---

(١) جرجي زيدان - رواية شجرة الدر مجلد ٣ من المؤلفات الكاملة صلاح الدين ص٥٦٤.

(٢) جرجي زيدان - رواية شجرة الدر مجلد ٣ من المؤلفات الكاملة صلاح الدين ص ٥٩٦.

استمالته إليها (١) وهكذا تتحول الأحداث كلها إلى ألعوبات في يد النساء يحركنها كيف شئن، لكي يؤكد - جرجي زيدان - أن الجانب الغرامي هو السبب الرئيسي في تغيير مجريات الأحداث وتبديل وجه التاريخ.

(٣) التعريض بمكانة المرأة في الإسلام:

ويتمثل ذلك في الحوار الذي أجراه المؤلف بين شجرة الدر وركن الدين بيبرس حيث قالت عن المستعصم (أعني المستعصم صاحب بغداد، الذي استعظم أن يتولى أمر المسلمين امرأة، ولم يستعظم أن يتولاه رجل ساقط ضعيف الرأي مشتغل باللهو والقيان وسماع الغناء) (٢).

□ ولاية المرأة المسلمة كما تقدمها نصوص الرواية:

وإذا كانت الرواية أو المادة التاريخية التي تحويها - ليست إلا معادلاً موضوعياً للقضايا والمواقف والآراء التي كان الكاتب يريد أن يعبر عنها، ولا يريد التصريح بها خشية الصدام المباشر مع عقيدة الجماهير العريضة، وأخلاق مجموع الامة، فتراه يعمد إلى «اللف والدوران» إن جاز التعبير.

وفي هذه الحالة نجد أن جرجي زيدان عبر هذه الرواية وفي النص المتقدم - يريد أن يقدم وجهة نظره في قضية ولاية المرأة المسلمة، وما كان يشيع في هذه الفترة - القرن التاسع عشر - من انتقاص لحقوق المرأة والتي منحها لها الإسلام قرآنا وسنة قبل أربعة عشر قرناً من الزمان سيراً وراء عادات وتقاليد، خاطئة تكرست بفعل الزمن وليس لها من الصحة نصيب وهذا ما نطقت به أفواه المنصفين من المستشرقين وأوردنا كثيراً من نصوصهم في موضع متقدم من هذا الكتاب (عند مناقشة موضوع تحرير المرأة) وها أنذا أعيد طرفاً من هذه النصوص: [يقول المستشرق مارسيل بوازار: لقد خلقت المراة في نظر القرآن من الجوهر الذي خلق منه الرجل،

(١) جرجي زيدان - رواية شجرة الدر مجلد ٣ من المؤلفات الكاملة صلاح الدين ص ٥٩٧.
(٢) جرجي زيدان - رواية شجرة الدر مجلد ٣ من المؤلفات الكاملة صلاح الدين ص٥٨١.

وهي ليست من ضلعه، بل (نصفه الشقيق) فالنساء شقائق الرجال أما جاك ريسلر فيقول (لقد وضعت المرأة على قدم المساواة مع الرجل في القضايا الخاصة بالمصلحة، فأصبح باستطاعتها أن ترث وأن تورث، وأن تشتغل بمهنة مشروعة).

وقبل ذلك كله **فإن صورة المرأة في الإسلام كما يقدمها الوحي الإلهي:**

*** المساواة التامة في الأصل الإنساني:**

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١).

*** المساواة في التكريم:**

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (٢).

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]،

﴿إنما النساء شقائق الرجال﴾ [أبو داود والترمذي].

*** المساواة التامة في أصول التكاليف الشرعية:**

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٣].

*** المساواة التامة في المؤاخذة بعد التكليف:**

﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة:١٤،١٥]،

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١].

*** الأنوثة خصيصة شريفة في نظر الإسلام:**

(إنما النساء شقائق الرجال)

(لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال).

*** الغيرة من المرأة – وعليها – فطرة ودين:**

(ولا تأذن في بيته إلا بإذنه) [متفق عليه]

---

(١) سورة الحجرات آية رقم (١٣).

(٢) سورة الإسراء آية رقم (٧٠).

(ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، والعاق، والديوث: الذي يقر الخبث في أهله، أو لا يبالي من دخل على أهله).

*** الثقة بالمرأة المسلمة وعدم تلمس عثراتها:**

(نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً يتخونهم أو يطلب عثراتهم) مسلم.

*** المرأة المسلمة تناقش زوجها وتراجعه:**

عن عمر رضي الله عنه قال: تغضبت يوماً على امرأتي، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني ؟ كعادة عرب الجاهلية ؟ فقالت: ما تنكر أن أراجعك ؟ فوا الله أن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل !! قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعن رسول الله ﷺ ؟ قالت: نعم، قال: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت: نعم) رواه أحمد.

*** المرأة المسلمة تجير حتى من حاكم المسلمين:**

(إن كانت المرأة لتجير على المؤمنين) [أبو داود والترمذي].

(قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ، وأمنّا من أمنت) البخاري.

قول زينب رضي الله عنها: إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، وقوله ﷺ لها (قد أجرنا من أجارت).

*** المسلمة = نصف الدين وليس نصف الدنيا فقط:**

(من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه الله على شطر دينه، فليتق ا لله في الشطر الثاني) رواه الحاكم وصححه.

*** لها حقوق مادية ومعنوية:**

يارسول الله: ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال: (أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تقبح الوجه، ولا تضرب).

*** حسن العشرة للزوجة فريضة لها على زوجها:**

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩]

(لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خُلُقاً رضيَ منها آخر) مسلم.

المبحث الحادي عشر
أسير المتمهدي(*)

موضوع الرواية:

في تعريف هذه الرواية وتحديد موضوعها كتب - جرجى زيدان - في أول صفحة من صفحاتها (... تتضمن وصف مصر والسودان في الربع الأخير من القرن الماضي - يقصد الفترة من ١٨٧٥/ ١٩٠٠ ودسائس الدول الأجنبية التي أدت إلى الثورة العرابية في مصر، والثورة المهدية في السودان، والاحتلال البريطاني لوادي النيل) [(١)].

أهم الشبهات والمآخذ الواردة بالرواية:

لم يكتف جرجى زيدان بإظهار موقفه المتحيز من الإحتلال البريطاني من خلال ترجمته لأعلام الاحتلال على رأسهم (عميده اللورد كرومر) وكذلك متابعة أخبار الاحتلال، وعدم الإشارة ولومرة واحدة إلى المعاناة التي يتجرع مرارتها الشعب المصري من جرائه، بل قدم تأكيدا لموقفه هذا من خلال الرواية، انطلاقا من أن الرواية - أو المادة التاريخية التي تحويها - ليست إلا معادلا موضوعيا لقضايا

(*) المهدي: محمد أحمد عبد الله المهدي السوداني، ثائر كان لحركته أثر كبير في حياة السودان السياسية ولد بجزيرة تابعة لدنقلة من أسرة اشتهر أنها حسنية النسب، حفظ القرآن الكريم وهو في سنة (١٢ اثني عشر سنة من عمره ومات أبوه وهو صغير فعمل مع عمه في تجارة السفن مدة قصيرة، وذهب الخرطوم فقرأ الفقه والتفسير وتصوف وانقطع في جزيرة (أبا) في النيل الأبيض، مدة خمسة عشر عاما للعبادة والتدريس والدرس، وكثر مريدوه، واشتهر بالصلاح وسافر إلى كردفان فبشر فيها رسالة من تأليفه يدعو بها إلى تطهير البلاد من مفاسد الحكام، وجاءه عبد الله التعايشي فبايعه على القيام بدعوته وتلقب سنة ١٨٨١ بالمهدي المنتظر وكتب إلى فقهاء السودان يدعوهم لنصرته وانبث أتباعه بين القبائل يدعون إلى الجهاد وأرسلت الحكومة المصرية آنذاك جيشا لقتاله بقيادة انجليزي سمى (ألسير دي ستاك) فهاجمه (٥٠ ألف سوداني) وهزموه واستولى المهدي على مدينة الأبيض سنة ١٣٠٠هـ، قوي الحجة إذا خطب خلب، وأرسل مكاتيب من طرفه إلى الخديوي والسلطان عبد الحميد وملكة انجلترا ليشعرهم بقوته ودولته، وضرب النقود، لكنه لم يلبث أن مات بالجدري في أم درمان وأوصى بالخلافة من بعده لعبد الله التعايشي، خير الدين الزركلي - الأعلام - مجلد ٦ ص٢٠ دار العلم للملايين.

(١) صفحة الغلاف الداخلية في الرواية ط دار الهلال سنة ١٩٨٥ ويلاحظ عليها أن دار الهلال عمدت إلى اختصار اسم الرواية - لغاية في نفسها - وأطلقت عليها اسم الأسير فقط خلافا للاسم الحقيقي الذي وضعه المؤلف للرواية كما ورد في مجلة الهلال وفي المؤلفات الكاملة ج٧ القسم الأول.

ومواقف وآراء، كان يريد الكاتب أن يعبر عنها في شكل قصص، وبطريقة فنية غير مباشرة، وإذا حاولنا أن نرسم صورة لموقف جرجى زيدان من الاحتلال الإنجليزي من خلال هذه الرواية، فسنجد أن جرجى زيدان وعبر أحداث هذه الرواية قام بالأعمال التالية:

(١) تبرير الاحتلال الأجنبي لمصر والسودان:

فقد برر التدخل الأجنبي في مصر والسودان: على لسان أحد الشخصيات الوهمية التي قدمها وعبر حوار بين شخصيتين (...وما الذي أوجب تدخل هاتين الدولتين.. يقصد الإجابة فيقول: إنجلترا وفرنسا - في شؤون مصر، بعد عجزها عن سداد الديون أمام الخديوي إسماعيل - ويتولى الإجابة فيقول: (لأن لهما على هذه الديار دينا، فمحافظتهما عليها، محافظة على حقوقهما) [١]. إنها منتهى المغالطة والتدليس والخيانة، أن يصبح التدخل العسكري الإنجليزي لبلادنا المسلمة من أجل المحافظة على مصر والسودان !! يالها من جرأة لا يقوى عليها إلا عميل خائن، مع أن الحقيقة التاريخية أن الحركة التي قامت في السودان ودعيت باسم (الثورة المهدية) لم تكن ثورة على مصر والحكم المصري، بقدر ما كانت ثورة على التدخل الأجنبي في وادي النيل مصره وسودانه، ولعل من أوضح الأدلة على ذلك هذا التعاطف الذي كان قائما بين الوطنيين في كلا البلدين، ففي مصر كان الشيخ الإمام محمد عبده وأستاذه جمال الدين الأفغاني، يذهبان إلى أن اشتداد حركة المهدي، إنما يرجع إلى بقاء الإنجليز في مصر، وكتبا في العروة الوثقى يظهران خشيتهما من أن يمتد الاحتلال البريطاني إلى السودان، بعد أن أنشب أظفاره في مصر، لهذا كانا يأملان أن تكون الثورة السودانية، مقدمة لإنقاذ وادي النيل كله من السيطرة البريطانية، حتى أنهما فكرا في أن يذهبا السودان خفية، ولينظما فيه قوة محمد أحمد توسلا إلى إنقاذ معربها، وتأسيس دولة قوية يعتز بها الإسلام والشرق [٢].

---

(١) الرواية ص٨٨ ط دار الهلال سنة ١٩٨٥م، ص٧٢ مجلد ٧ الأعمال الكاملة.

(٢) د/ جلال يحيى، الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية، مكتبة النهضة المصرية ط ١ سنة ١٩٥٩م، مقدمة الكتاب ط/ بقلم د/ أحمد عزت عبد الكريم.

(٢) اتهام الحركة الوطنية في السودان بالعصيان والتمرد:

حيث نجد جرجي يحكي عن حملة هيكس، - التي رافقها - وما كان من أمر الحركة المهدية التي يتزعمها، المتمهدي ! على حد تعبير السيد جرجي، ويبين أنه رجل (نوبي يقال له محمد أحمد، التفت حوله عصابة قوية عرفوا بالدراويش، **جاهروا بعصيان الحكومة**، فحاولت قمع ثورتهم مرارا فلم تفلح واستفحل أمرهم)[1]. ونجد جرجي يحرص على تسميتهم بالعصاة، في أكثر من موضع بالرواية ! ويقدم أبناء الحركة الوطنية وهم المهديون على أنهم عصاة متمردون، وبالتالي فالمستعمرون المغتصبون من الإنجليز، هم أصحاب الحق، ولكن المؤلف لم يبين مرة واحدة سبب هذا العصيان وبواعثه !! مما يبين لنا عن نية الإغراض، والتدليس، التي كتب بها روايته، بل إنه يعتبر أن إخماد هذه الثورة، واجب وشرف يحققه الإنسان، يقول على لسان أحد شخصيات الرواية (..إنني ذاهب لأنال الشرف والشهامة اللذين أنا عبد رقيق لهما !) وهكذا نيل الشرف واكتساب الفخر والشهامة لا يكون عند جرجي ولا يتأتى في هذا الموضع إلا من خلال الاشتراك في حملة هيكس للقضاء على ثورة المهدي وكل الحركات الوطنية، والاستسلام للاحتلال، وقد كان هذا صنيع عملاء الاستعمار البريطاني ودعاته، في هذه الفترة، حيث يؤمنون على صحة ادعاء المستعمرين بأنهم ما دخلوا مصر إلا من أجل الإصلاح وإزالة التخلف عن المجتمع المصري، ويخترعون الأدلة والبراهين الباطلة على صحة هذه الدعوى فضلاً عن حديثهم المكرر عن عدل بريطانيا وظلم العثمانيين !!

(٣) تسويد صحائف الحركة الوطنية في مصر:

كما ظهر من خلال صفحات الرواية إلصاق كل التهم والرزايا والبعد عن المروءة، بالحركة الوطنية - المتمثلة في (عزيز: الضابط في الجيش المصري ومن جند عرابي) ولا تورد له الرواية موقفا واحدا طوال أحداثها ينم عن سلوك حسن،

(١) رواية الاسير - ط الهلال ص١٤٢، ١١٣ ج٧ من الاعمال الكاملة - ودار الجيل سنة ١٩٨١م.

بينما (شفيق: الضابط الإنجليزي والجاسوس) فهو عنوان الرزانة والكمال وتتجلى فيه كل الصفات المثالية على النحو التالي:

أ- المدافع عن العرض:

(عندما تستنجد بـه فتاة وهو سـائر مع عزيز) [1] فيقول عزيـز ما لنا ولهم ؟! لكـن شـفيق يسـارع إلى الـنزول من العربـة، وينطلـق إلى مصدر الصوت، فتصرخ الفتـاة قائلة له (أنقذني من هذا الخائن بحرمة الشرف والشهامة) فيصرخ فيه شفيق قف أيها النذل الجبان، لكن لشدة الظلام تمكن الخائن من الفرار.

ب- غيرة الإنجليز على لغتنا العربية وتعصبهم لها:

و لم يكتف - جرجى - بادعائه أن الضابط الإنجليزي يحمي العرض، ويغار على نسـاءنا، لكنه يضيـف ادعاء آخر هـو حمية الإنجلـيز وتعصبهم للغتنا العربيـة، عندما يجري هذا الحوار بـين - شـفيق الضابط الإنجلـيزي، وعزيز الضـابط الوطني، عندما يقول له شـفيق (..إنني أجيد الفرنسية لكني لا أرتـاح إلا للتكلم باللغـة العربية)، فيضحك عزيز ويقول لـه (يا للعجب منك - يـا شفيق - كيف تكـون شابا ذكيا عـاقلا تعيش في عصر التمدن، ثم لا ترتـاح إلى التكلم بالفرنسية، إن جميع المواطنين المتمدنين، لا يتكلمون إلا بهـا الآن، **وقد أهملوا اللغـة العربيـة لتعقدهـا وصعوبة التلفظ بها حتى صار لا يتكلم بها الآن إلا البسطاء الذين لم يتثقفوا** ...) فبهت شـفيق الإنجليزي، وقـال: إنـي أعجب لأمرك يـا صديقي، لكـأني بـك تحسـب أن التمسـك بالتقـاليد الشـرقية حطـة لمقـامك، ولهذا تنكرت للغـة بلادك زاعمـا أنه لا يتكلم إلا أسـافل السـوقة [2] ويصـل الاسـتهزاء بـالعقل المسـلم مـداه حينما يجري المؤلـف النصح والعتـاب مـن الإنجلـيزي المحتل إلى الوطـني ابن البلـد، بقولـه (إنك بصنيعك هذا تحط من قدر عشيرتك الأقربين) [3].

جـ- الإشادة بأخلاق المحتلين:

ومرة أخرى تقول لنـا الروايـة في سيرها نحو التحيز للإنجلـيز وإلصاق كل التهم

---

(١) الرواية ص١٨ ط دار الهلال، ص١٧ مجلد ٧.

(٢) الرواية ص٢٦ ط دار الهلال، ص٢٣ مجلد ٧.

(٣) الرواية ص٢٧ ط دار الهلال، ص٢٣ مجلد ٧.

بالوطنيين والحركة الوطنية ممثلة في الشخصيتين اللتين اتخذت منهما الرواية عنوانا على النقيضين، الحركة الوطنية، الاحتلال الانجليزي، فنراها تدعي أن عزيز: الضابط الوطني (كان يسترق النظر إلى المشربيات التي تفصل الرجال عن الحريم !! لكن شفيق الضابط الإنجليزي يجره وينهاه قائلا له لا يليق بنا أن نسترق النظر إلى النساء من وراء حجاب !!) [1]. منتهى التحيز للاحتلال وجنوده، والتعصب ضد الحركة الوطنية الإسلامية ورجالها.

د- وامتدادا لنفس المسيرة تقدم الرواية (شفيقا) بطل الرواية المثالي على أنه يتقن اللغتين العربية والإنجليزية ليقوم بدور الجاسوس المترجم، ويدعي جرجي بعد ذلك، أن شفيقا هذا أسلم وقضى في خدمة الحكومة الإنجليزية جل عمره، ويغلب على الظن أن في هذا الجزء من الرواية عملية إسقاط تاريخي ! وأن هذه الشخصية ليست إلا شخصية جرجي زيدان نفسه – وإن لم يحظ بهداية الإسلام – فقد كان من مستخدمي انجلترا في قلم استخبارتها، وهو الذي أتقن اللغتين ليقوم بدور الجاسوس المترجم، وهو الذي رافق الحملة الإنجليزية إلى السودان، ولكنه كما ذكرت يقوم بعملية إسقاط عن طريق إلصاق التهم السيئة بالآخرين ليرتفع عن فعلته الدنيئة العملية ... فقال عن شفيق، أنه مسلم ويقوم بخدمة الإنجليز !! إذا فلا غبار عليَّ أنا كذلك إذا كنت أخدم الإنجليز وأسعى في مصالحهم، بل إنه الطريق السوي ! وحتى تكتمل حلقات التشويه للحركة الوطنية، ورجالها، ورموزها، في مقابل الرفع والتمجيد والتفخيم للإنجليز، نراه لا يرينا أو لا يري قارئه العربي والإسلامي من الثورة العرابية التي قامت في وجه المحتلين الغاصبين لبلاد المسلمين، إلا مخالب الثورة العرابية، وكيف أن الجنود العرابيين كانوا يتحرشون بالمارة من الغرباء، ويوقعون بهم كل سوء، وأن الحرب المشتعلة على السودان وأهله هي من صنع الجنود العرابيين !!! [2].

وهكذا كشف جرجي عن وجهه القبيح في هذه الرواية التي بينت تعصبه وتحيزه للاحتلال الغاشم لأوطاننا وبلادنا الإسلامية والعربية.

---

(١) الرواية ص٢٨ ط دار الهلال، ج ٧ ص٢٤ المؤلفات الكاملة.

(٢) رواية أسير المتمهدي ص١٤٩ ط دار الهلال.

المبحث الثاني عشر
الانقلاب العثماني

موضوع الرواية:

يعرفنا جرجي زيدان بموضوع روايته هذه فيقول: (..إنها رواية تاريخية تتضمن وصف أحوال الأحرار العثمانيين وجمعياتهم السرية، وما قاموا به في طلب الدستور ووصف يلدز، وقصورها وحدائقها، وعبد الحميد، وجواسيسه، وأعوانه، وسائر أحواله، إلى فوز جمعية الاتحاد والترقي بنيل الدستور في ٢٣/ ٧/ ١٩٠٨م)[1].

أهم الشبهات والمآخذ الواردة بالرواية:

أما عن أبرز الشبهات والمآخذ التي لا تخطئها عين الباحث المدقق في هذه الرواية فهي على الوجه التالي:

(١) تسويد صحائف الخلافة العثمانية:

عن طريق حشد المناظر البشعة والمواقف المسفة، وقد كان المتبادر إلى الذهن عند قراء رواية الانقلاب العثماني، أن الكاتب يريد تقديم صورة كاملة للخلافة العثمانية في مرحلتي القوة والضعف، ولكنه لم يفعل ذلك، لم يكن ذلك - عند المتأمل - اعتباطا من جرجي زيدان، أو مصادفة، بل كان اختيارا متعمدا، وأمرا مدبرا.

والدليل هو: قطعه لسلسلة التاريخ القديم الذي كان يتحدث عنه ومسارعته إلى الكتابة، عن عهد السلطان عبد الحميد، مع أن آخر رواية كتبها قبل رواية الإنقلاب العثماني (١٩١٠) هي رواية أحمد بن طولون (١٩٠٨) وبينهما في التسلسل الزمني للأحداث، ما يزيد على تسعمائة عام! فلماذا حدث هذا القفز

---

(١) وردت هذه الرواية في أعداد بمجلة الهلال ١/ ١٢/ ١٩١٢م وبه حديث عن ترجمتها إلى اللغة البرتغالية، وفي ١/ ٦/ ١٩١١م حديث عن ترجمتها إلى الفارسية.

التـاريخي في مسـيرة الروايـة عند السـيد جرجـى زيدان، من الدولـة الطولونيـة، إلى الخلافة العثمانية ؟ إلا إذا كان في الأمر سرا ولهذه القفزة أسبابها وبواعثها ؟؟!

فيقول عن إعلان الدستور وفي مقام الإشـادة بـه، والتعريض بنظام الخلافة (إن الدسـتور هو الحياة وأنـه النظام الذي لا يعدله نظـام !! ومن ثم يوحي للقارئ بأن كل ما كان يركـز عليه عبد الحميد، ومن نحا نحوه، إنمـا هو شيء عتيق من مخلفات الماضي، لا يصلح لتنظيم المجتمع، وتوجيه الإنسانية.

مع أن الحقيقـة المسـتيقنة: أن العيب لم يكـن أبدا في ذلـك النظـام الذي أراد السـلطان عبد الحميد – رحمـه الله – الحكم باسمـه، بل في بعـض أعوانـه، ولكن جرجى زيـدان لم يريد الإيماء إلى ذلك، أو الإيحاء بـه، بل أراد بلسـان حاله ومقاله، أن يقول لشباب المسـلمين، إن نظام الخلافـة الإسلامية بشـع الوجه كريه المظهر في شتى عصوره.

مع أن الواقع والحق أن كل خليفـة لـه وعليـه، بمقتضى البشـرية البحتـة، وانتفاء العصمـة من الذنوب والخطايـا كبيرهـا وصغيرها، إلا في حق الأنبيـاء عليهم الصلاة والسـلام – لكنـه الـتركيز على كل السـلبيات والأخطاء دون سـواها، والإهمال المتعمد للجوانـب المشـرقة، والانصـراف وإبعـاد القلـم والضوء عـن الشـخصيات الإسـلامية التي كـان يمكن أن تقدم نموذجا إنسـانيا راقيـا، تتجسد فيـه معاني النبل، والإخاء، والتعـاون، والعدالة، وإحقاق الحـق والانتصار للضعفاء ... وهي كثيرة في التـاريخ الإسلامي عبر مراحلـه وعصوره المختلفة ودولـه المتعاقبة. لكن لا أثر لشيء من هـذا، في سلسـلة روايات جرجـى زيدان – الموسـومة زوراً وبهتانـا – بروايات تـاريخ الإسـلام، فقد تعمد المؤلف اختيار بعـض الأخطاء ليحشـدها في هذه الرواية وغيرها، وليقول للقراء هذا هو الغالب على تاريخ الإسلام والمسلمين.

(٢) الغرام سيد الموقف ودار الخلافة مدفن الأفكار الحرة:

حيث تظهر العناية بالمواقف الغرامية: وتشغل حيزاً كبيراً في هـذه الرواية، فنجده يقدم للقـارئ المسلم، الذي يدَّعي أنـه يعلمه، ويحببـه، في تاريخه الإسلامي المجيد، إذ

به يقدم له فاصلا من الحب، بين شخصيتين من شخصيات روايته:

رامز: أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، وشيرين عضده الأيمن، في أعماله التحررية، **على حد تعبير جرجي زيدان !** وحقا إنه لمثير للعجب والدهشة أن تحشر هذه القصة الغرامية في مجال رواية تتحدث عن تاريخ الإسلام والمسلمين، مع الإسراف في تصوير العقبات التي تعترض طريق هذا الحب، وفي موقف والد الفتاة حيث جعله المؤلف رجلا نفعيا لا يأبه بمواصفات الخلق، لذلك حاول إقناع ابنته بقبول – صائب بك – أحد أنصار السلطان ! اضطر للجمع بينه وبينها في خلوة شغلت المؤلف، حتى تقول الرواية تحت عنوان الخلوة. (وكان طهماز وامرأته جالسين في الصالون يتسمعان ما يدور بين شيرين [1] وصائب، وكانا يتوقعان أن تذعن شيرين وهي في خلوتها مع صائب بك...) !

وهكذا ينتهي الأمر بانتصار رامز (أي جماعة الاتحاد والترقي) على صائب بك (أي أنصار الخليفة والخلافة وزوال دولة الإسلام)، التي كان يصورها خياله المريض على أنها مصدر متاعب الأحرار، يقول (كانت الأستانة دار الخلافة ومصدر متاعب الأحرار، وبها **مدفن الأفكار الحرة**، وبؤرة الجواسيس، ومسرح أهل المطامع والأغراض) [2].

(٣) تقديم صورة بشعة للسلطان عبد الحميد:

فلكي يكشف – الكاتب – النقاب عن مساوئ عهد السلطان عبد الحميد – رحمه الله – عمد إلى الخيال، وتعمد تمزيق شخصية السلطان شر ممزق. ويكفينا أن نقرأ تلك المقاطع من روايته، لنرى كيف بلغت به الجرأة مداها، والتعصب غايته يقول (...ولو دخلت يلدز لرأيت الحراس الموكلين بالسهر والحذر قد غلب عليهم النعاس أيضا فناموا، و لم يبق أحد ساهرا هناك إلا صاحب ذلك القصر وسيده، فإنه ما زال ساهرا يتقلب على كرسي طويل توسده، وأخذ يقرأ تقريرا جاء من بعض

---

(١) الرواية ص٤١.

(٢) رواية الانقلاب العثماني ج٦ من المؤلفات الكاملة ص٦٢.

جواسيسه، فأقلق راحته وحرمه النوم، وانتابته الأحلام المزعجة، وظل هكذا حتى أذن الفجر فخرج للوضوء في حمامه الخاص المعرق بالذهب والحنفيات المذهبة ! وأفكاره تائهة...).

وفي مقطع غاية في الفجاجة والسذاجة يصور حوار بين السلطان وابنه الصغير، أحمد نور الدين، في السابعة من عمره وهو يتجول في الحديقة ويتمتع بمنظر الببغاء، سأله أبوه – السلطان – أتحب الببغاء كثيرا يا نور الدين ؟ قال نعم يا بابا، فقال السلطان تحبه أكثر مني ؟ فاهتم الغلام بذلك السؤال، رغم طفولته، لأن تعظيم شخص عبد الحميد، كان قاعدة متبعة، يتدارسها الكبار والصغار، فقال مجيبا (العفو يا أفندم. لا ينبغي أن تحب أحدا في الدنيا أكثر من الذات الشاهانية)[1].. وهكذا رأينا حوارا مفتعلا مفتقرا لأدنى منطقية بين والد وولده، اللهم إلا تخيلات مريضة، أراد أن يرسمها جرجي زيدان، عن شخصية السلطان، وفي موطن آخر يقول (... دخل عبد الحميد – هكذا بدون ألقاب ولا احترام لمشاعر أكثر من ثمانمائة مليون مسلم يدينون بالولاء للخليفة – دخل غرفة المائدة **ثم جلس إلى البيانو، والسيكار في يده، فوضعه على منفضة بجانبه،** وأخذ يوقع لحنا تعود الإرتياح إليه...، ثم جاءه البريد ففضه، ودفع أحد تقاريره إلى رئيس جواسيسه ليقرأه، والسلطان متشاغل بتقليب السيجار بين أنامله، يدخن بسرعة وبلا نظام[2])، وفي مسيرة التشويه للسلطان ولصورته النقية في حس المسلمين، يصف المؤلف – لوحة عارية !! يقول (...ومشى عبد الحميد إلى غرفة النوم فمر بالحجرة التي تستطرق إلى دارالحريم، من باب كله مرآة وهم بفتحه فوقع نظره على صورته فيه، وفيما هو ينظر، وقعت عينه على صورة زيتية معلقة بجانب الباب، تمثل قاربا عند الشاطئ وقف فيه نحو عشرة رجال عليهم ألبسة سوداء، يقرب شكلها مما يلبسه **الرهبان اليسوعيون** وبيد كل منهم آلة موسيقية، كالناي أو

---

(١) رواية الانقلاب العثماني ج٦ من المؤلفات الكاملة ص٧٣، ٧٤، ٧٥، باختصار.
(٢) الرواية مجلد ٦، ص ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٣.

العود، وهم جميعا في حالة عربدة وسكر وأمامهم على الشاطئ نحو عشر نساء عاريات يرقصن أو يتخالعن) !! وهذا منتهى العجب وأكذب الحديث فلا يستحل الخليفة المسلم العظيم عبد الحميد عليه رحمة الله وجود لوحات للنساء عاريات في قصره!! إلا إذا كان ذلك في خيال جرجى زيدان !! وعندما تحمل فتاة في قصره - كما ادعى جرجى زيدان - يغضب عبد الحميد ويصرخ قائلا (... ويلاه ! بماذا ينبغي أن أشتغل !! أبالخوارق المارقين ؟ أم بالنساء في دار الحريم ؟ أم بمطالعة التقارير من الجواسيس وعلى الجواسيس ؟

وهكذا تتحول دار الخلافة - على يد السيد جرجى زيدان - من مفهوم إسلامي أصيل إلى تجسس، ومطامع، وانتقام وجواري، وغناء، وظلم، واستبداد، وطغيان، وهذا هو القاسم المشترك بين كل روايات جرجى زيدان المسماه ظلما وعدوانا بروايات تاريخ الإسلام ؟؟!!

والسؤال الذي يفرض نفسه على كل قارئ عاقل:

متى قامت هذه الأمة بفتوحاتها ؟؟ ومتى أقامت صرح الحضارة العربية الإسلامية التي عمت معظم القارات الثلاث ؟!؟

متى سطر تاريخنا المجيد الذي حوى خالداً، وسعدا، والغافقي، ومحمد بن القاسم الثقفي، وصلاح الدين الأيوبي، والملك المظفر قطز، ونور الدين الشهيد، والذي حوى من العلماء الأعلام ابن الهيثم، وابن خلدون، وابن سينا، والإدريسي، والبيروني، والبخاري، والخوارزمي، والرازي، والشافعي، والفارابي، والكندي، والمسعودي، وجابر بن حيان، متى قدمنا العلم والحضارة إلى أوربة ؟!؟

متى رفدنا نهر الحضارة، بالفلك، والرياضيات، والجغرافية، والطب، وبالمخترعات ؟!؟ لم تحو روايات جرجى - تاريخ الإسلام ؟ شيئا من ذلك فأين تراثنا وأين تاريخنا إذاً وسط هذه الروايات ؟

بعد هذه المرحلة التي طوفت فيها مع روايات جرجي زيدان والتي اتضح لنا من خلالها أنه تعمد التخريب والكذب، من أجل تدمير الشخصية الإسلامية، وتشويه الخلافة النبوية، وقطع صلة المسلمين بماضيهم المجيد، بما يحمله من استمساك بشريعة الله والتزام بأحكامه – ودفعهم إلى قبول واقع جديد نحيت فيه شريعة الله، وأبعدت عن منصة الحكم، ومقام الريادة والتوجيه، خدمة لمطامع إخوانه وأبناء دينه من اليهود والنصارى، كل ذلك عن طريق سوء القصد، وتعمد الدس والتحريف، وفساد الاستنباط مع الطعن المدروس، لعمالته الأجنبية، ولتعصبه الديني، الذي جعله ينظر إلى تاريخنا العربي والإسلامي وآداب اللغة العربية بعين السخط والحقد.

وقد أتى تركيز جرجي زيدان على التاريخ وأبحاثه **فقدمه مجردا، من خلال كتبه:** تاريخ التمدن الإسلامي، وتاريخ آداب اللغة العربية، **ومكسوا ومطعما بالأسلوب الروائي والقصص** من خلال رواياته التاريخية، من منطلق الأهمية العظمى للتاريخ وأثره الخطير في حياة الأمم باعتباره – في المنظور الإسلامي – المختبر الحقيقي لصواب الفعل البشري وبما أن الحضارة لا تكون من غير صواب، فقد كان استشراف التجربة البشرية عبر التاريخ أمراً لابد منه للتعرف على إشكالات الماضي، لاستنباط عوامل النهوض الحضاري وسنن السقوط – ولذا فقد ولاه المسلمون عناية كبيرة في الماضي، وهو الآن في حاجة إلى عناية أكبر، لاسيما بعد أن جعله المستشرقون وأذنابهم محوراً لأبحاثهم ودراساتهم، التي تبحث في مجال التاريخ بمعناه الواسع (السياسي، الحضاري، تاريخ الفرق والمذاهب تاريخ الفكر، الفن العلم، الرجال) وقد اتخذوا مناهج وطرق تؤدي بهم إلى ما يريدون بالإسلام وبتاريخه العظيم، ويمكن تميز ملامح هذه المناهج إذا ميزنا فيها بين جانبين:

(١) المنهج من حيث الشكل: أي اختيار الموضوعات وترتيب الاهتمامات فنرى في هذا الجانب ما يلي:

أ- الاهتمام بتاريخ الفرق والصراع بينها، وعوامل نشأتها، ومحاولة إثارة

أخبارها، ووضعها في بؤرة الشعور.

ب- العناية بتاريخ الزندقة (*) والزنادقة، وإبرازهم في صور أصحاب الفكر الحر.

ج- القفز وراء العصر الإسلامي: والاهتمام بالتاريخ القديم، لأقاليم دار الإسلام إحياءً للفرعونية، والبابلية، والآشورية.. الخ، إثارة للنعرات القومية وتمزيقا لجسد الأمة الإسلامية (١).

د- تمزيق تاريخ الأمة الإسلامية طولا وعرضا: بتقسيمه طولا إلى تواريخ أسر: الأموية، العباسية، المماليك، العثمانيين، وعرضا: إلى تواريخ أقاليم ومناطق بمدها في العمق، قبل الإسلام، لإثارة عوامل الفرقة ومظاهر الإختلاف، مؤكدا إياها، مركزا على الصراعات والحروب (٢).

وهذا عين ما صنعه جرجي زيدان، وهو في نفس الوقت ليس من تاريخ الإسلام في شيء، إذا أردنا درسه على حقيقته، بمنهج علمي سليم فمعركة الجمل وصفين، والتحكيم، والخوارج، ووقعة الحرة وكربلاء ومقتل أبو مسلم الخراساني، وصراع الأمويين والعباسيين ...الخ، كلها عثرات على الطريق، وهي لازمة للقصور البشري والضعف الإنساني – وما زعم عالم من العلماء – أن هذا التاريخ محروس بالعصمة، أو أن أسلافنا الأماجد قد انتقلوا من عالم البشر إلى عالم الملائكة، لكنهم بشر يخطئون ويصيبون، ولكن يبقى السؤال ما هو حجم هذا الخطأ وما صفته؟ فالواقع والحقيقة أن خط الانحراف الذي بدأ منذ العصر الأموي – كان في معظمه، هبوطا عن الذروة العليا أكثر مما كان انحرافا عن الجادة، كانت هناك مفارقة واضحة ولاشك عن خط الخلافة الراشدة، واتجاه بالحياة في مجموعها – والجانب

(*) الزندقة: كان العرب في بادئ الأمر يطلقون زنديق على من لا يؤمن بوجود الله، أو من يبطن الكفر ويتظاهر بالإيمان، وأطلق كذلك (الزنديق) على من كان يتشبه بالفرس ويسرف في العبث والمجون ويدمن شرب الخمر، لكن الزندقة الحقيقية التي ظهرت في العصر العباسي كانت تتمثل في اعتناق الديانة المانوية التي تؤمن بوجود إلهين وتدعو إلى عبادتهما. (حسن الباشا: دراسات في تاريخ الدولة العباسية، ص٥٦ ، ١٩٧٥م).

(١) د/ عبد العظيم الديب، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، كتاب الأمة رقم ٢٧، طبعة أخبار اليوم ص٥٩، ٦٠.

(٢) المرجع السابق ص٦٣.

السياسي خاصة – إلى جانب غير ماعتاده الناس في عهد النبوة وخلافة الراشدين، لكنه الأمر في النهاية كان في داخل الدائرة، مع شيء من الشذوذ عنها في هذا الموضع أو ذاك[1] هذا هو حجم الخطأ وتوصيفه – ولم يؤثر في تدفق نهر تاريخ أمتنا، ولم يكدره، بل ظل أكثر من ألف عام متدفقا، معطاءً، لكن يبقى أنه تاريخ بشر لا تاريخ ملائكة، إنما الخطر كله في ذلك المنهج الذي يقف عند هذه الفترات، ويصوغ منها تاريخنا، حتى نشأت أجيال من خاصة المثقفين ! لم يبق في أذهانهم من تاريخ أمتنا سوى المآسي التي انطبعت في أعماق قلوبهم، وهم في أول الطريق، فجاء جيل بعد جيل وهم يمقتون تاريخهم ويتخيلونه مساحة مظلمة، يسيطر عليها الجهل والطغيان والقتل والظلم الاجتماعي [2] .

مع أننا لو نظرنا إلى تاريخ أوربا: لوجدنا ما دار فيه من صراع وما كان عند أصحابه من مآسي وما صبغ أيامهم من دماء، وما غطى عصورهم من جهل، وما ترددت فيه خطواتهم من وحل، يفوق بعض بعضه كل ما كان عندنا، لكنه عثر على مؤرخين، أعادوا إليه الحياة وقدموه في إطار حي، بصورة فنية رائعة، بكل عناصرها، الخلفية والظلال، الشكل، والمحتوى.

وفقا لهذا المنهج كتب جرجي زيدان ما كتبه في رواياته فجاءت على الوجه الذي بينته في هذا الفصل والذي نوجزه على الوجه التالي:

١. تقييد المستشرقين في شبهاتهم التي ادعوها: فالرهبان هم الذين علموا النبي الكريم ﷺ، والإسلام لم ينتشر إلا بالسيف والسفك، والحروب الإسلامية ما استعرت إلا من أجل الأسلاب والغنائم.

٢. تشويه سيرة الصحابي الجليل عمرو بن العاص ﷺ.

٣. تشويه سيرة أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، ومعها أمير المؤمنين عثمان، وعلي ﷺ.

٤. شوه سيرة عبد الرحمن الغافقي، وسيرة المنصور، وأمير المؤمنين هارون

---

(١) محمد قطب، واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة للصحافة والنشر، ط ١ ص١٢٠ سنة ١٩٨٦.

(٢) د/ عماد الدين خليل، في التاريخ الإسلامي فصول في المنهج والتحليل بيروت بدون رقم للطبعة ص٢٩٧ سنة ١٩٨١م.

الرشيد، وأخته العباسة، كما شوه سيرة المعتصم، وأحمد بن طولون، وعبد الرحمن الناصر، ومحمد أحمد المهدي، والسلطان عبد الحميد الثاني.

٥. طمس بطولات وفتوحات المسلمين وإثارة الشكوك حولها تارة بالنهب والسلب، وتارة بالبطش والفتك، وتارة بالظلم.

٦. جعل مسرح أحداث رواياته. الأديرة والكنائس، وجعل للرهبان والقس دور التوجيه حيث الأمن، والأمان، والاحترام، والطمأنينة، والرأي القويم السليم، كما أضفى هالات مسيحية على كل ما هو مسيحي مع تسليط الأضواء على صورة الصلبان والمعمودية ... الخ.

٧. ركز على فترات القلق السياسي. فكتب أبو مسلم الخراساني، الأمين والمأمون، شجرة الدر، واتخذ منها مرتعا خصبا للخوض في غمار هذه الأحداث مجسما للخلاف، مظهراً للعيوب.

٨. أظهرت الروايات الشعوبية والحقد على الغرب. فقد أظهر جرجي زيدان مساوئ أمتنا، بل ما ترك سيئة إلا وعزاها لها، وابتز منها كل مكرمة، واستغل الطوارنيون أعداء العرب هذه الروايات وترجموها إلى التركية للإستعانة بما كتبه في تحقير العرب، وانتقاص مدنيتهم وغمط حضارتهم وتفضيل الأعاجم عليهم.

٩. عدم استخراج فائدة، أو روح معنوية سامية، أو عبرة أو عظة مفيدة من هذه الروايات مع مخالفة هذه القواعد للكتابة التاريخية فالكاتب الكبير هو الذي يوجه قرائه لهدف كبير.

الخاتمة

يطيب لي بعد هذه الجولة الطويلة، والرحلة الشاقة التي قضيتها مع جرجي زيدان عبر مؤلفاته وأعماله ومحورها مجلة الهلال والقضايا التي طرحتها في المجتمع المصري والعربي بعد تصنيفها وتبويبها ودراستها دراسة موضوعية، لإبراز الرؤية الإسلامية الصحيحة في القضايا، التي قدمتها المجلة ضمن المخطط التغريبي العام، والموجة العاتية التي صحبت الإحتلال الإنجليزي لبلادنا سنة ١٨٨٢م، والذي مكّنَ لعصبة من نصارى الشام، فسلَّمَها مراكز التوجيه والتثقيف، والريادة، في مجالات الإعلام والتعليم والثقافة، فانطلقت بمخزونها التعصبي الرهيب، وحقدها الدفين، وبأقصى طاقاتها، لإشعال نيران الحرب الفكرية المسمومة، كرها للمسلمين وسعيا في إسقاط خلافتهم، بإحلال المفاهيم الغربية بديلا عن مفاهيم الإسلام السامية وقيمه النبيلة وأخلاقه الرفيعة.

يطيب لي أن اوجز أهم النتائج التي توصلت إليها في هذه الرسالة:

١. الثقافات متعددة بتعدد الملل، مختلفة باختلاف البيئات، والثقافة الإسلامية بما لها من أغوار مركوزة في الفطرة البشرية، قادرة على الصمود والتصدي لكل محاولات الإحلال الثقافي، شريطة أن يتمثلها المسلمون إيمانا بها، وعملا بمقتضاها، وانتماءاً إليها، حتى يفوتوا الفرصة على أعداء الإسلام المتربصين بالمسلمين الدوائر.

٢. كان للاحتلال البريطاني دور خطير في - محاولة - مسخ وتمييع هوية الشخصية الإسلامية في مصر - ككل بلد نزل به - عن طريق عشرات الصحف والمجلات، (صحافة التغريب) التي أوجدها، ودعمها، لنشر فكره، وتحسين قيمه ومفاهيمه، والدعوة إلى تغريب المجتمع المصري.

٣. جرجي زيدان، شخصية تربت على يد القساوسة في المدارس التبشيرية، ثم تلقفته أصابع الاستخبارات البريطانية، لكي تفيد منه وتوقفه على الحضارة الغربية، ورعته حتى أنشأ مجلة الهلال، التي تمخضت للتهجم على الثقافة

الإسـلامية، وضرب التراث الإسـلامي وأصبحت كعبة للمستشـرقين من مختلف البقاع.

٤. تبنى جرجى زيدان، عـبر مجلـة الهلال ١٨٩٢-١٩١٤م مقولات غلاة المستشـرقين وكذبتهم، حيث حفلت كتابات المجلة بالتطاول على سيدنا رسول الله ﷺ، وخلفائه الراشدين، وصحابته الأكرمين، وكل رمز إسلامي مشرق في حياة الأمة.

٥. كان للمجلـة موقف شـديد الحدة والعداء، مـن نظام الخلافـة الإسلامية، فقدمت عبر صفحاتها أسـوأ صورة للخلافـة، وبيوت الخلفـاء، لكي تمهد الطريق للدعوة السـافرة بعد ذلك لإسـقاط الخلافـة العثمانيـة، آخر أمل للمسلمين آنذاك.

٦. المحاربـة المحملة للأديان، فهـي في نظر المجلة تدعو إلى الجهل، وتحارب العلوم، وبـالغت في ذلك، حتى أثبتت بأدلـة ملفقـة إحراق عمر بن الخطـاب ﷺ لكتب العلم التي كانت موجودة بالإسـكندرية في القرن السابع الميلادي، ثم تبنت قضيـة التطور البيولوجي لتنطلق منهـا إلى وجوب التطور العقدي، والأيدولوجي، إذ أن لكل مرحلة زمنيـة عقيدتها ودينها، ومذهبيتها، وأنه لا يوجد شيء ثابت في هذا الكون.

٧. كما تبنت المجلـة الدعوة للأفكـار المناهضة للإسـلام، الناقضـة لأركانه فرأينا على صفحاتها دفاعا مستميتا عن الماسونية وإعلاءاً لشخصياتها، ذاكرة لمآثر الحضارة الفرعونية، واعترافا بعظمتها ودعوة إلى الإفتخار بها، ورأينا كذلك دعوة إلى القوميـة العربيـة وتخليدا لدعاتهـا، كمـا انطلقت المجلـة في سـنواتها الأخيرة - من فـترة البحـث - إلى الدعوة إلى الصهيونيـة تعريفـاً بهـا، بياناً لأفضالها وديمقراطيتهـا ودورها في نهضـة فلسـطين بهدف التمهيد لليهود في تحقيق حلمهم بإقامـة وطن لهم على أرض فلسـطين المباركة ذاكرة أسانيدهم - المزعومة - في التوراة.

٨. وقوف المجلـة بجانب الاحتلال الانجليزي ومسـاندتها لـه، **سلبا**: بعدم التنديد

به ونقل نبض الشعب الذي يئن تحت سياط الاستعمار، **وإيجابا**: بذكر مآثره **وأفضاله**، والخيرات التي حلت بسببه على المجتمع المصري. وفي هذا الموقف خيانة واضحة للمجتمع الذي كانت تسعى لتثقيفه وتحضره !

٩. تلبيس الحقائق وطمس معالم الحق وتعمية الحقائق الدينية بطرح البدائل الممسوخة وإبراز الزعمات الدينية المصنوعة، مثل السيد أحمد خان الهندي، ودعوى تجديد الدين الإسلامي، وتطويره ليتلائم مع الحضارة المعاصرة.

١٠. جسدت المجلة الروح الصليبية الحاقدة على الإسلام وأهله وإثارة الفتن والقلاقل بين المسلمين بالدسيسة، والوقيعة وتلفيق التهم والسير خلف كل كائد للإسلام توجهه وتعينه على بغيته.

١١. افتقاد للروح العلمية والحيدة الموضوعية في رواياته التاريخية التي ادعى أنه يعلم شباب الأمة من خلالها، التاريخ الإسلامي، فقد غضت - هذه الكتابات - الطرف عن كل معنى جميل، أو موقف شجاع أو أصل متين من أصول هذا الدين، وركزت وسلطت أضوائها على فترات القلق السياسي والمواقف السلبية، لكي تحط من قدر المسلمين وتصرف الأنظار عن حضارتهم، وتضرب انتماء الأمة إلى دينها وولاءها لتاريخها في مقتل.

المراجع والمصادر

أولا: القرآن الكريم

- ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم.
- ابن جرير الطبري ، جامع البيان في تفسير القرآن، ط دار المعارف سنة١٩٨٦م.
- سيد قطب ، في ظلال القرآن - دار الشروق.

ثانيا: كتب السنة:

- الإمام أحمد بن حنبل ، المسند - المطبعة اليمينية سنة ١٣١٢هـ بحمص.
- الإمام أبي داود ، السنن - نشر وتوزيع محمد علي موسى.

ثالثا: المراجع العامة:

- أبو بكر العربي ، العواصم من القواصم.
- أبو المحاسن (جمال الدين بن تغردي بردي) ، النجوم الزاهرة في أحوال ملوك مصر القاهرة، ط وزارة الثقافة.
- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، دار الفكر بيروت سنة ١٩٧٨م.
- ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم) ، رسالة العبودية، دار المدني سنة ١٩٨٧م منهاج السنة.
- ابن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك، ط دار المعارف.
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ، المقدمة، دار نهضة مصر.
- ابن عبد ربه (أبو عمر محمد بن عبد ربه الأندلسي)، العقد الفريد ، دار الكتاب العربي بيروت، سنة ١٩٧٣م.
- ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة عيسى الحلبي سنة ١٣٦٦هـ .

– ابن قدامه ، المغني ط ٢ سنة ١٩٨٩م.
– ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور)، لسان العرب ، دار صادر بيروت، بدون تاريخ.
– ابن هشام (أبو محمد عبد الله ابن هشام) ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مطبعة عيسى الحلبي سنة ١٩٦٥م.
– أبو إسلام (أحمد عبد الله) ، الماسونية سرطان الأمم ، سلسلة دعوة الحق، عدد ٧ سنة ١٩٨٧م.
– أبو الأعلى المودودي (الشيخ) ، تجديد الدين وإحيائه ،دار الفكر لبنان ط٣ سنة ١٩٦٨م.
واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ، دار الفكر سنة ١٩٨٧م.
– أبو الحسن الندوي (الشيخ) ، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة العربية، دار القلم ط ٥ سنة ١٩٨٥.
العرب والإسلام، مطبعة ندوة العلماء – الهند سنة ١٣٨٤هـ.
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ مكتبة شباب الأزهر بدون تاريخ.
– إبراهيم أبو الخشب (الدكتور) ، في محيط النقد الأدبي، ط ٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب.
– إبراهيم عبده (الدكتور) ، تطور الصحافة العربية ، مؤسسة سجل العرب ط٤ سنة١٩٨٢م.
– إجلال خليفة (الدكتورة) الصحافة ، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون تاريخ.
– أحمد أمين (الدكتور)، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية.
– أحمد حسين، موسوعة تاريخ مصر ، دار الشعب سنة ١٩٨٥م.
– أحمد ربيع يوسف (الدكتور) ، بيت المقدس بين الفتح الإسلامي والواقع المعاصر. رسالة ماجستير بمكتبة كلية أصول الدين سنة ١٩٨٦م.
– أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر ، دار

المعارف ط١ سنة ١٩٧٤م.
- أحمد الشايب ، الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية للأصول الأدبية، ط ٥ سنة ١٩٧٩م.
- أحمد الشرباصي (الدكتور) ، يسألونك في الدين والحياة
- أحمد شفيق باشا ، مذكراتي في نصف قرن
مطبعة مصر سنة ١٩٣٤م.
- أحمد شلبي (الدكتور) ، مقارنة الأديان ج٣، مطبعة النهضة المصرية ط٥ سنة١٩٧٨م.
- أحمد طاهر حسين، دور الشاميين المهاجرين لمصر في النهضة دار الفتية دمشق سنة ١٩٨٣م.
- أحمد عبد الرحمن (الدكتور)، نقد الثقافة الإلحادية ، دار هجر للطباعة والنشر ط ١، سنة ١٩٨٥م.
- أحمد عزت راجح (الدكتور) ، أصول علم النفس. ط ٥ سنة ١٩٦٣م.
- أحمد موسى سالم ، قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية، والمسرح. ط ٢ دار الجيل.
- ألبرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة ، دار الفكر بيروت سنة ١٩٣٩م.
- السيد أحمد المخزنجي ، العدل والتسامح الإسلامي، سلسلة دعوة الحق عدد شوال سنة ١٤٠٧هـ.
- السيد سليمان الندوي ، الرسالة المحمدية
السعودية للنشر والتوزيع ط١ سنة ١٩٨٨م.
- السيد فرج (الدكتور)، جذور العلمانية ، دار الوفاء ط ١ سنة ١٩٨٥م.
- أمين حسن حلواني المدني ، نبش الهذيان من تاريخ جرجى زيدان ، مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٧٨٤ سنة ١٩٣٢.
- أمين مدني ، الثقافة الإسلامية حواضرها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة

١٩٨٠م.
– أنور الجندي (الأستاذ)، تاريخ الصحافة الإسلامية ج ١ المنار. دار الأنصار سنة ١٩٨٣م.
*التغريب أخطر التحديات في وجه الإسلام. دار الاعتصام بدون تاريخ.
*الصحافة السياسية في مصر منذ نشأتها إلى الحرب العالمية الثانية. مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٢م.
*إعادة النظر في كتابات العصر في ضوء الإسلام. دار الاعتصام سنة ١٩٨٥م.
*أعلام وأصحاب أقلام. مكتبة نهضة مصر بدون تاريخ.
*روح الغرب. دار الاعتصام بدون تاريخ.
*عقبات في طريق النهضة . دار الاعتصام سنة ١٩٦٤م.
*الفكر العربي المعاصر ومعركة التغريب. دار الوفاء سنة ١٩٨٤م.
*مقدمات العلوم والمناهج. دار الأنصار ط ١ سنة ١٩٧٩م.
*موسوعة تاريخ الإسلام. دار الأنصار بدون تاريخ.
– أنيس المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة الأدبية الحديثة، دار الكتاب العربي.
– أنيس النصولي، أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، دار ابن زيدون بيروت ط١ سنة ١٩٨٥م.
– الياس أنطون الياس، قاموس الياس العصري. شركة دار الياس العصرية ط٣ سنة ١٩٨١م.
– الجبرتي (عبد الرحمن) ، عجائب الآثار والتراجم والأخبار. دار الشعب سنة ١٩٥٨م.
– جرجي زيدان ، تاريخ الماسونية العام ، دار الجيل سنة ١٩٨٢م. المؤلفات الكاملة (٢١) مجلد، دار الجيل لبنان سنة ١٩٨١م.
– جلال سعد البشار (الدكتور) ، تكوين الشخصية السوية في الإسلام، رسالة ماجستير بمكتبة كلية أصول الدين سنة ١٩٨٤م.

- جمال النجار ، صحافة الاتجاه الإسلامي في مصرمنذ مطلع القرن العشرين حتى نشوب الحرب العالمية الأولى، رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية سنة ١٩٨٦م.
- الجوهري (إسماعيل بن حماد) ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تحقيق أحمد عبد الغفور عطار.
- حامد ربيع (الدكتور)، الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وإرادة التكامل القومي. دار ماجد للطباعة سنة ١٩٨٣م.
- حمدي الطاهري (الدكتور)، سياسة الحكم في لبنان ، المطبعة العالمية بالقاهرة بدون تاريخ.
- الرازي (محمد بن أبي بكر عبد القادر) ، مختار الصحاح ، ط ٢ دار القلم.
- الزمخشري (محمود بن عامر) ، أساس البلاغة.
- الزركلي (خير الدين) ، الأعلام ، دار القلم. بيروت ط ٦ سنة ١٩٨٤م.
- زين نور الدين ، نشوء القومية العربية، دار النهار للنشر بيروت ط٣ سنة ١٩٦٨م.
- سامي شهاب ، الإسلام يتصدى لأباطيل المستشرقين والملحدين.
- سامي عزيز (الدكتور) ، الصحافة المصرية ومواقفها من الاحتلال الانجليزي. دار الكتاب العربي بدون تاريخ.
- سليمان سالم صالح (الدكتور)، جريدة المؤيد دراسة تحليلية، دراسة ماجستير كلية الإعلام جامعة القاهرة سنة ١٩٨٥م.
- سهام نصر ، اليهود المصريون صحفهم ومجلاتهم. الموقف العربي سنة ١٩٧٩م.
- سيد رزق الطويل (الدكتور) ، اللسان العربي والإسلام معا في معركة المواجهة. سلسلة دعوة الحق سنة ١٩٨٦م.
- سيد قطب (الأستاذ) ، نحو مجتمع إسلامي، دار الشروق سنة ١٩٧٥م.
- سيد محمد غنيم، سيكولوجية الشخصية محدداتها - قياسها - نظرياتها. دار

النهضة المصرية ط ١ سنة ١٩٧٣م.
– السيوطي (جلال الدين بن عبد الرحمن) ، لباب النقول.
– شبل النعماني (الشيخ)، الانتقاد على كتاب التمدن الإسلامي، مخطوطة من جامعة عليكرة بالهند سنة ١٩١٢م.
– شكري فيصل ، الصحافة الأدبية وجهة نظر جديدة في دراسة الأدب المعاصر وتاريخه. معهد الدراسات العربية بالقاهرة ، بدون تاريخ.
– شوقي أبو خليل (الدكتور)، الإسلام في قفص الاتهام، دار الفكر – دمشق ط٥ سنة ١٩٨٢م.
*جرجى زيدان في الميزان، دار الفكر دمشق.
– شهدي عطية الشافعي ، تطور الحركة الوطنية في مصر ، دار مهدي للطباعة والنشر ط ١ سنة ١٩٥٧م.
– صابر طعيمة (الدكتور)، تحديات أمام العروبة والإسلام ، دار الجيل بيروت سنة ١٩٧٩م.
– عباس الخصوصي (الدكتور)، القضية اللبنانية في تاريخها الحديث والمعاصر، مطابع سجل العرب القاهرة ط١ سنة ١٩٧٨م.
– عبد الحليم عويس (الدكتور)، ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة، دار الصحوة بدون تاريخ.
– عبد الستار فتح الله سعيد (الدكتور)، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، دار الوفاء ط ٤ سنة ١٩٨٨م.
– عبد الصبور فاضل (الدكتور) ، تحرير المجلة الدينية والعامة – دراسة مقارنة بين مجلات الأزهر وروزاليوسف والدعوة والهلال. رسالة ماجستير كلية اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٨٩م.
– عبد العظيم الشناوي (الدكتور)، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٣م.
– عبد العظيم محمود الديب (الدكتور)، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ

الإسلامي. كتاب الأمة رقم ٢٧ عدد نوفمبر سنة ١٩٩٠م.
- عبد الغفار محمد عزيز (الدكتور)، الخطابة الدينية بين النظرية والتطبيق دار الوفاء سنة ١٩٨٢م.
- عبد اللطيف حمزة (الدكتور) ، المدخل في فن التحرير الصحفي، دار الفكر العربي بدون تاريخ.
- عبد الله عمر خياط ، الرسول وخلفاؤه، ط سنة ١٩٩٠م.
- عبد المتعال الصعيدي، القضايا الكبرى في الإسلام ، مكتبة الآداب ط٢ سنة ١٩٩٠م.
- عبد المنعم النمر (الدكتور)، الثقافة الإسلامية بين الغزو والاستغزاء، دار المعارف سنة ١٩٨٧م.
- عبد المحسن طه بدر (الدكتور)، تطورالرواية العربية الحديثة ، دار المعارف.
- عفيف طيارة ، روح الدين الإسلامي.
- علم الدين محمود، الفن الصحفي في المجلة العامة، رسالة ماجستير بكلية الإعلام جامعة القاهرة سنة ١٩٨٠م.
- علي أحمد الكافوري ، غزوة بدر في قضايا معاصرة، الزهراء للإعلام العربي ط١ سنة١٩٩٠م
- علي الحافظة (الدكتور)، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة. الأهلية للنشر والتوزيع بيروت، ط ٥، سنة ١٩٨٧م.
- علي جريشة (الدكتور)، الاتجاهات الفكرية المعاصرة، دار الوفاء سنة ١٩٨٦م.
- علي شلش (الدكتور)، اليهود الماسون في مصر، الزهراء للإعلام العربي ط ١ سنة ١٩٨٦م.
- علي محفوظ (الشيخ) ، هداية المرشدين، دار الاعتصام ط ٥ سنة ١٩٧٩م.
- عماد الدين خليل (الدكتور)، في التاريخ الإسلامي فصول، المكتب الإسلامي بيروت سنة ١٩٨١م.

*قالوا عن الإسلام، الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض- ط١٩٩٢م
- عمر عوده الخطيب ، لمحات في الثقافة الإسلامية، مؤسسة الرسالة ط ٩ سنة ١٩٨٤م.
- عواطف عبد الرحمن (الدكتورة) ، الصحافة الصهيونية في مصر، دار الثقافة الجديدة سنة ١٩٧٩م.
- فاروق أبو زيد (الدكتور)، الفكر الليبرالي في الصحافة المصرية، دار الفكر العربي بدون تاريخ.
- فتحي رضوان ، دورالعمائم في تاريخ مصر، الزهراء للإعلام العربي بدون تاريخ.
- فتحي عثمان، أضواء على التاريخ الإسلامي، دار العروبة القاهرة بدون تاريخ.
- الفيروزبادي (مجد الدين بن يعقوب)، القاموس المحيط، مطبعة عيسى الحلبي سنة ١٩٥٢م.
- فيليب طرازي، تاريخ الصحافة العربية، المطبعة الأدبية بيروت سنة ١٩١٣م.
- الفيومي (أحمد بن محمد بن علي) ، المصباح المنير، المطبعة الأميرية - القاهرة بدون تاريخ .
- الكاندهلوي، حياة الصحابة ، ط ٢ سنة ١٣٧٨هـ.
- الكمال بن الهمام، شرح فتح القدير.
- مالك بن نبي، شروط النهضة ، دار الجهاد ط ١ سنة ١٩٥٧م.
- ماهر حسن فهمي (الدكتور)، قاسم أمين ، سلسلة أعلام العرب - المكتب العربي للطباعة والنشر.
- محمد البهي (الدكتور)، الإسلام والواقع الأيدلوجي المعاصر.
- محمد جمعة عبد الله ، افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم - ط ١ سنة ١٩٨٥م.
- محمد رشاد خليل، المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره - دار المنار -

القاهرة ط ١ سنة ١٩٨٤م.
- محمد رضا محرم (الدكتور)، تجديد العقل السياسي الإسلامي، دار سينا للنشر القاهرة بدون تاريخ.
- محمد الزغبي(الدكتور)، الماسونية في العراء ، ط ٣ سنة ١٩٨٥م.
- محمد زيتون (الدكتور)، دراسات في تاريخ مصر الإسلامية ، دار الوفاء للطباعة سنة ١٩٨٣م.
- محمد سرور بن نايف زين العابدين ، دراسات في السيرة النبوية ، دار الأرقم برمنجهام ط٣ سنة ١٩٨٨م.
- محمد سيد محمد (الدكتور)، اقتصاديات الأعلام ،مكتبة كمال الدين سنة ١٩٧٩م.
- محمد صلاح الصاوي (الدكتور)، الوجيز في فقه الإمامة العظمى، مطبعة الفرقان ط ١ سنة ١٩٨٠م.
- محمد عبد العزيز منصور، صحافة بني إسرائيل وصحافة بني إسماعيل، مكتبة مدبولي سنة ١٩٧٨م.
- محمد عبد الغني حسن ، جرجى زيدان ، سلسلة أعلام العرب رقم ٩٠ سنة ١٩٧٠م.
- محمد عبد الفتاح عليان (الدكتور)، أضواء على الاستشراق، دار البحوث العلمية .
- محمد عمارة (الدكتور)، بحث في ندوة الهوية والتراث، دار الكلمة للنشر بيروت ط١ سنة ١٩٨٤م.
- محمد الغزالي (الشيخ)، دفاع عن العقيدة ضد مطامع المستشرقين، ط ٣ سنة ١٩٦٤م.
- محمد غلاب (الدكتور)، هذا هو الإسلام، ط سنة ١٩٥٩م.
- محمد قطب (الأستاذ)، واقعنا المعاصر، دارالمدينة بالسعودية ط ١ سنة ١٩٨٦م.

- محمد كرد علي ، الإسلام والحضارة العربية ، لجنة التأليف والترجمة ط١ سنة١٩٨٦م.
- محمد محمد أبو شهبة (الدكتور)، الإسرائيليات والموضوعات في التفسير، مكتبة السنة.
- محمد محمد حسين (الدكتور)، الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي الحديث، مكتبة الآداب بدون تاريخ.
*أزمة العصر، مؤسسة الرسالة ط ٢ سنة ١٩٨٥م.
*الإسلام والحضارة الغربية ، المكتب الإسلامي ط ١ سنة ١٩٧٩م.
- محمد منصور هيبة ، الصحافة الإسلامية في مصر بين عبد الناصر والسادات، دار الوفاء ط ١ سنة ١٩٩٠م.
- محمد منير حجاب (الدكتور)، العروة الوثقى دراسة تحليلية لمقومات ونجاح الصحافة الإسلامية.
- محمود أدهم ، التعريف بالمجلة ، دار الثقافة للطباعة سنة ١٩٨٥م.
- محمود تيمور ، اتجاهات الأدب العربي في السنين المائة الأخيرة.
- محمود حمدي زقزوق (الدكتور)، الإسلام في تصورات الغرب ، مكتبة وهبة بدون تاريخ .
- محمود محمد شاكر، الطريق إلى ثقافتنا ، دار الهلال سنة ١٩٨٧م.
- مصطفى أبو سمك (الدكتور)، أضواء على الثقافة الإسلامية ، مطبعة الفجر الجديدة ط١ سنة١٩٨٠م.
- مصطفى حلمي (الدكتور)، الأسرار الخفية لسقوط الدولة العثمانية ، دار السلام للنشر والتوزيع بيروت سنة ١٩٨٧م.
- مصطفى الخالدي ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، بيروت سنة ١٩٣٩م.
- مصطفى رمضان (الدكتور)، العالم الإسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر - دار الوفاء سنة ١٩٨٤م.

- مصطفى السباعي (الدكتور)، عظماؤنـا في التاريخ ، المكتب الإسلامي ط٤ سنة ١٩٨٥م.
- مصطفى نبيل ، مصر والعالم يوم صدور الهلال ، مطبعة دار الهلال ط١ سنة ١٩٩١م.
- منير البعلبكي ، قاموس المورد ، دار العلم للملايين بيروت ط١٧ سنة ١٩٨٣م.
- نبيل راغب (الدكتور)، موسوعة الفكر القومي العربي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٨م.
- نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف ط٤ سنة ١٩٨٠م.
- نصر الدين عبد الحميد ، مصير حركة الجامعة الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤م.
- النيسابوري (الحافظ أبو عبد الله) ، المستدرك على الصحيحين، دار الكتاب العربي - بيروت - بدون تاريخ .
- الهيثمي (الحافظ نور الدين علي ابن أبي بكر الهيثمي)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مكتبة القدس بالقاهرة - بدون تاريخ.
- يوسف القرضاوي (الدكتور)، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، مكتبة وهبة ط١ سنة ١٩٧٧م.
- يوسف مراد (الدكتور)، مبادئ علم النفس، ط٤ دار المعارف.

رابعا: المجلات والدوريات:

- مجلة الهلال، من العدد الأول ١/ ٩/ ١٨٩٢م إلى عدد ١/ ٧/ ١٩١٤م.
- مجلة الأمة القطرية ، عدد ٣٠ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٣هـ.
- مجلة نور الإسلام ، ج١، ج٩ رمضان سنة ١٣٩٤هـ.
- موسوعة الأديان والمذاهب ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض ج١ سنة ١٩٧٢م.



الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة